



بين القصرين

نجيب محفوظ

بين القصيرين

تأليف
نجيب محفوظ

يطلب من :
مكتبة مصر
٣٠ شارع كامل صدقي "النجاة"

دار الكتاب العربي بمصر

- ١ -

عند منتصف الليل أستيقت . كما اعتادت أن تستيقظ في هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبه أو غيره ، ولكن بايحاء من الرغبة التي تبثت عليها فتواظب على إيقاظها في دقة وأمانة . وظلت لحظات على شك من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام وهمسات الاحساس . حتى يادرها القلق الذي يلم بها قبل أن تفتح جفניה من خشية أن يكون النوم خانها ، فهزت رأسها هزة خفيفة وفتحت عينيها على ظلام الحجرة الدامس . لم يكن ثمة علامة تستدل بها على الوقت ، فالطريق تحت حجرتها لا ينم حتى مطلع الفجر ، والأصوات المتقطعة التي تترامى إليها أول الليل من سمار المقاهى وأصحاب الحوانيت هى التى تترامى عند منتصفه وإلى ما قبيل الفجر ، فلا دليل تلمس إليه الا احساسها الباطنى - كأنه عقرب ساعة واع - وما يشمل البيت من صمت ينم عن أن بعلمها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلمه .

هى العادة التى توقظها في هذه الساعة ، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعها ولا تزال تستأثر بكهولتها ، تلقنتها فيما تلقنت من آداب الحياة الزوجية ، أن تستيقظ في منتصف الليل لتنتظر بعلمها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام . وجلست في الفراش بلا تردد لتتغلب على اغراء النوم الدافئ ، وبسملت ثم انزلت من تحت الغطاء الى أرض الحجرة ، ومضت تلمس الطريق على هدى عمود السرير وضلعة الشباك حتى بلغت الباب ففتحته ، فانساب الى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح قائم على الكونصول في الصالة ، فدلقت منه وحملته وعادت به الى الحجرة وهو يعكس على السقف من فوهة زجاجته دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحف بها حاشية من الظلال ، ثم وضعته على خوان قائم بازاء الكنب . وإضاء المصباح الحجرة فبدت برقعته المربعة الواسعة وجدرانها العالية وسيقفها بعمده الأفقية المتوازية ، الا انها لاحت كريمة الاثاث ببساطها الشيرازى وفراشها الكبير ذي العمد النحاسية الأربعة

والصوان الضخم والكنبة الطويلة المغطاة بسجاد صغير المقطع مختلف النقوش والألوان . واتجهت المرأة الى المرأة وألقت على صورتها نظرة فرأت مندبل رأسها البنى منكمشا متراجعا وقد تشعثت خصلات من شعرها الكستنائى فوق الجبين ، فمدت أصابعها الى عقدته فحلتها وسوته على شعرها وعقدت طرفيه فى أناء وعناية ، ومسحت براحتيها على صفحتي وجهها كأنما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم . كانت فى الأربعين ، متوسطة القامة ، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها بض ممتلىء فى حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب ، أما وجهها فمائل الى الطول مرتفع الجبين دقيق القسمات ، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسلية حاملة ، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحيته ، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتها ذقن مدبب ، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقى . وقد بدت وهى تتلفع بخمارها كالتعجلة ، واتجهت صوب باب المشربية ففتحته ودخلت ، ثم وقفت فى قفصها المغلق تردد وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقب المستديرة الدقيقة التى تملأ أضلاعها المغلقة الى الطريق .

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين ، ويلتقى تحتها شارعان النحاسين الذى ينحدر الى الجنوب وبين القصرين الذى يصعد الى الشمال ، فبدا الطريق الى يسارها ضيقا ملتويا متلفعا بظلمة تكثف فى أعاليه حيث تظل نوافذ البيوت النائمة ، وتخف فى أسافله بما يلقي اليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهى وبعض الحوانيت التى تواصل السهر حتى مطلع الفجر ، والى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهى ، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التى تغلق أبوابها مبكرا ، فلا يلتفت النظر به الا مآذن قلادون وبرقوق لاحت كأطياف من المردة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة . منظر الفتة منها العينان ربع قرن من الزمان ولكنها لم تسأمه ، ولعلها لم تدر ما السأم طوال حياتها على رتابتها ، وعلى العكس وجدت فيه أنيسا لوحشتها وأليفا لوحدها عهدا طويلا عاشته وكأنه لا أنيس ولا أليف لها . كان ذلك قبل أن يأتى الأبناء الى هذا الوجود ، فلم يكن يحوى هذا البيت الكبير - بفنائنه التراب وبثره العميقة وطابقه وحجراته الواسعة العالية الأسقف - سواها ، أكثر النهار والليل . وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها ، فسرعان ما وجدت

نفسها ، عقب وفاة حمايتها وسيدها الكبير ربة البيت الكبير ، تعاونها على امره امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام في حجرة الفرن بالفناء تاركة اياها وحيدة في دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح ، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود الزوج العنيد من سهرة طويلة .

ولكى يطمئن قلبها اعتادت ان تطوف بالحجرات مصطبة خادمتها مادة يدها بالمصباح امامها فتلقى في أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها باحكام ، واحدة بعد أخرى ، مبتدئة بالطابق الأول مثنية بالطابق الأعلى ، وهى تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعا للشياطين ، ثم تنتهى الى حجرتها فتغلق بابها وتندس في الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم . ولشد ما كانت تخاف الليل في عهدها الأول بهذا البيت ، فلم يغيب عنها - هى التى عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرف عن عالم الانس - انها لا تعيش وحدها في البيت الكبير ، وأن الشياطين لا يمكن ان تضل طويلا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية ، ولعلها آوت اليها قبل أن تحمل هى الى البيت ، بل قبل أن ترى نور الدنيا ، فكم دب الى أذنيها من همساتهم وكم استيقظت على لفحات من أنفاسهم ، وما من مغيث الا أن تتلو الفاتحة والصمدية أو أن تهرع الى المشربية فتمد بصرها الزائع من ثقبها الى أنوار العربات والمقاهى وترهف السمع للتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها .

ثم جاء الأبناء تباعا ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحما طريا لا يبذل خوفا ولا يطمئن جانبا ، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما أثار في نفسها المتهافنة من اشفاق عليهم وجزع أن يمسه سوء ، فكانت تحويهم بلراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم في اليقظة والنام بدرع من السور والأحجية والرقا والتعاويد ، أما الطمأنينة الحققة فلم تكن لتدوقها حتى يعود الغائب من سهرته . ولم يكن غريبا ، وهى منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه ، أن تضمه الى صدرها فجأة ثم تنصت في وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة وكأنها تخاطب شخصا حاضرا : « ابعد عنا ، ليس هذا مقامك ، نحن قوم مسلمون موحدون » ثم تتلو الصمدية في عجلة ولهوجة . وعندما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيرا واطمأننت لدرجة الى دعاياتهم التى لم تجر عليها سوءا قط ، فكانت اذا ترامى اليها حس طائف منهم قالت له في نبرات لا تخلو من دالة : « الا

تحترم عباد الرحمن ! .. الله بيننا وبينك فاذهب عنا مكرما . ولكنها لم تكن تعرف الطمانينة الحققة حتى يعود الغائب . أجل كان مجرد وجوده بالبيت - صاحباً أو نائماً - كفيلاً بيبث السلام فى نفسها ، فتحت الأبواب ام أغلقت : اشتعل الصباح أم خمد . وقد خطر لها مرة ، فى العالم الأول من معاشرته ، ان تعلن نوعاً من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل فما كان منه الا أن امسك بأذنها وقال لها بصوته الجهورى فى لهجة حازمة : « أنا رجل ، الأمر النهى ، لا أقبل على سلوكى أية ملاحظة ، وما عليك الا الطاعة ، فحاذرى ان تدفعينى الى تأديبك » ، فتعلمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به انها تطبق كل شىء - حتى معاشرة العفارىت - الا أن يحمر لها عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط ، وقد اطاعت ، وتغانت فى الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو فى سرها ، ووقر فى نفسها أن الرجولة الحققة والاستبداد والسهر الى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد : ثم انقلبت مع الأيام تباهى بما يصدر عنه سواء ما يسرها أم ما يحزنها ، وظلت على جميع الأحوال الزوجة المحبة المطيعة المستسلمة . ولم تأسف يوماً على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم ، وانها لتستعيد ذكريات حياتها فى أى وقت تشاء فلا يطالها الا الخير والغبطة ، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الخاوية فلا تستحق الا ابتسامة رداء ، ألم تعاشر هذا الزوج بعلاته ربع قرن من الزمان فجنّت من معاشرته أبناء هم قرة عينيهما وبيتاً مترعاً بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة . . . بلى ، أما مخالطة العفارىت فقد مرت كما تمر كل ليلة بسلام ، وما امتدت يد أحدهم اليها أو الى أحد من أبنائها بسوء اللهم الا ما هو بالمزاج والمداعبات أشبه ، فلا وجه للشكوى ، ولكن الحمد كل الحمد لله الذى بكلامه اطمأن قلبها وبرحمته استقامت حياتها .

حتى ساعة الانتظار هذه ، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهى بزوال النهار ، أحبتها من أعماق قلبها ، ففضلاً عن انها استحالت جزءاً لا يتجزأ من حياتها ، ومازجت الوفير من ذكرياتها ، فانها كانت ولم تزل الرمز الحى لحدها على بعليها وتفانيها فى اسعاده ، واشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفانى وذلك الحذب . لهذا امتلأت ارتياحاً وهى واقفة فى المشربية ، وراحت تنقل بصرها خلال ثقبها مرة الى سبيل بين القصرين ومرة الى متعطف الخرنفش وأخرى

الى بوابة حمام السلطان ورابعة الى المآذن ، او تشرحه بين البيوت المتكاكئة على جانبى الطريق فى غير انتظام او تناسق كأنها طابور من الجند فى وقفة راحة تخفف فيها من قسوة النظام . وابتسمت للمنظر الذى تجبه ، هذا الطريق الذى تنام الطرق والحوارى والأزقة ويبقى ساهرا حتى مطلع الفجر ، فكم سلى أرقها وأنس وحشتها وبدد مخاوفها ، لا يغير الليل منه الا أن يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهيء لأصواته جوا تعلق فيه وتوضح كأنه الظلال التى تملأ أركان اللوحة فتضفى على الصورة عمقا وجللاء ، لهذا ترن الضحكة فيه فكانها تنطلق فى حجرتها ، ويسمع الكلام العادى فتميزه كلمة كلمة ، ويمتد السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خاتمته التى تشبه الأنين ، ويرتفع صوت النادل وهو ينادى : « تعميرة نادية » كهتاف المؤذن فتقول لنفسها فى سرور : « لله هؤلاء الناس .. حتى هذه الساعة يطلبون مزيدا من التعميرة » ، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول : « ترى أين يكون سيدى الآن ؟ ... وماذا يفعل ... » . فلتصحبه السلامة فى الحل والترحال . « أجل قيل لها مرة ان رجلا كالسيد احمد عبد الجواد فى يساره وقوته وجماله - مع سهره المتواصل - لا يمكن أن تغلو حياته من نساء ، يومها تسممت بالغيرة وركبها حزن شديد ، ولما لم تواتها شجاعته على مشافهته بما قيل افضت بحزنها الى أمها ، فجعلت الأم تسكن خاطرها بما وسمها من حلو الكلام ، ثم قالت لها : « لقد تزوجك بعد ان طلق زوجته الأولى ، وكان بوسعه أن يستردها لو شاء ، او أن يتزوج غيرك ثانية وثالثة ورابعة ، وقد كان أبوه مزوجا ، فاحمدى ربنا على أنه أبقاك زوجة وحيدة » . ولو أن حديث أمها لم يجد مع حزنها وقت اشتداده الا أنها مع الأيام سلمت بما فيه من حق ووجاهة ، فليكن ما قيل حقا فعله من صفات الرجولة كالسهر والاستبداد ، وشر على أى حال خير من شرور كثيرة ، وليس من الهين أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرخد ، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله ان يكون وهما أو كذبا . ووجدت أن موقفها من الغيرة ، شأنها حيال المتاعب التى تعترض سبيل حياتها ، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئا ، فلم تهتد إلى وسيلة فى مقاومتها الا أن تنادى الصبر وتستعدى مناعتها الشخصية ، ملاذها الاوحد فى مغالبة ما تكره ،

- ٨ -

فانقلبت الغيرة وأسبابها ، كطباع زوجها الأخرى ، وكمعاشرة العفاريث ، مما تحتمل .

جعلت تنظر الى الطريق وتنصت الى السمار حتى ترمى اليها وقع سنابك جواد فعطقت رأسها صوب النحاسين فرات « حنطورا » يقترب وثيلا ومصباحا يستطعان في الظلام ، فتنهدت في ارتياح وغمغت « أخيرا ... » . ها هو « حنطور » أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة الى باب البيت الكبير ثم يمضى كالعادة الى الحرنفش حاملا صاحبه ونفرا من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحى . ووقف « الحنطور » امام البيت ، وارتفع صوت زوجها وهو يقول في نبرات ضاحكة :

— أستودعكم الله ...

وكانت تنصت الى صوت زوجها وهو يودع أصحابه بشغف ودهشة ، ولولا أنها تسمعه كل ليلة في مثل هذه الساعة لانكرته ، فما عهدت منه — هي وابناؤها — الا الحزم والوقار والتزمت ، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحوة التي تسيل بشاشة ورقة ! . . . وكان صاحب « الحنطور » أراد أن يمازحه فيقال له :

— أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربية . . . قال انه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كل ليلة الى بيته وهو لا يستحق أن يركب الا حمارا . . .

وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيد حتى عادوا الى السكون ثم قال يجيبه :

— أما سمعت بماذا اجابته نفسه ؟ . . . قالت اذا لم توصله انت فسيتركك البك صاحبنا . . .

وضج الرجال ضاحكين مرة أخرى ، ثم قال صاحب العربية :

— فلنؤجل الباقي الى سهرة الغد . . .

وتجركت العربية الى شارع بين القصرين واتجه السيد نحو الباب فغادرت المرأة المشربية الى الحجرة ، وتناولت المصباح ومضت الى الصالة ، ومنها الى الدهليز الخارجى حتى وقفت في رأس السلم . وترامت اليها صفقة الباب الخارجى وهو يغلقي ، وانزلاج المزلاج ، وتخيلته وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردا هيئته ووقاره ، خالعا مزاحا

- ٩ -

الذى لولا استراق السمع لظنته من مستحيل المستحيلات ، تم سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلم فمدت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله ..

- ٢ -

وانتهى الرجل الى موقفها فراحت تتقدمه رافعة المصباح ، فتبعها وهو يتمتم :

- مساء الخير يا أمينة

فقال بصوت خفيض ينم عن الأدب والخضوع :

- مساء الخير يا سيدى

وفى ثوان احتوتهما الحجرة ، فالتفت أمينة الى الخوان لتضع المصباح عليه ، فى حين علق السيد عصاه بحافة شباك السرير وخلع الطربوش ووضعته على الوسادة التى تتوسط الكنبة ، ثم اقتربت المرأة منه لتنزع عنه ملابسه . وبدا فى وقفته طويل القامة عريض الأنكبين ضخيم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعا جبة وقفطان فى اناقة وبجبة دلنا على رفاة ذوق وسخاء ، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتى رأسه فى عناية بالغة ، وخاتمة ذو الفص الماسى الكبير ، وساعته الذهبية ، الا لتؤكد رفاة ذوقه وسخاءه . أما وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قوى التعبير واضح الملامح ، يدل فى جلته على بروز الشخصية والجمال بعينه الزرقاوين الواسعتين ، وأنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه ، وفمه الواسع بشفتيه المثلثتين ، وشاربى الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها . ولما تدأنت المرأة منه بسط ذراعيه فخطعت الجبة عنه وأطبقتها بعناية ثم وضعها على الكنبة ، وعادت اليه ففكت حزام القفطان ونزعته وجعلت تهرجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبة ، على حين تناول السيد جلبابه فارتداه ثم طاقته البيضاء فلبسها ، وتمطى وهو يتشاءم وجلس على الكنبة ومد ساقيه مسندا قداله الى الحائط . وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقامت عند قدميه الممدودين وراحت تخلع حذاءه

وجوريه ، ولما كشفت قدمه اليمنى بدا اول عيب فى هذا الجسم الهائل الجميل فى خصره التى تأكلت من توالى الكشط بالموسى فى موضع كاللو مزمن . وغادرت امينة الحجرة فغابت دقائق ثم عادت بطست وابريق . فوضعت الطست عند قدمى الرجل ووقفت والأبريق فى يدها على اهبة الاستعداد ، فاستوى السيد فى جلسته ومد لها يديه فصبت له الماء ففسل وجهه ومسح على رأسه وتضمض طويلا ، ثم تناول المنشفة من فوق مسند الكنبه ومضى يجفف رأسه ووجهه ويديه بينما حملت المرأة الطست وذهبت به الى الحمام . كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدى من خدمات فى البيت الكبير ، وقد واطبت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعثرها الكلال ، بل فى سرور وانشراح ، وبنفس الحماس الذى يستفرها الى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها ، فاستحقت من أجله ان يطلق عليها جاراتها اسم « النحلة » لدأبها ونشاطها المتواصلين .

وعادت الى الحجرة فاغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلثة فوضعتها امام الكنبه وتربعت عليها اذ لم تكن ترى لنفسها الحق فى ان تجلس الى جانبه تدابا ، ومضى الوقت وهى ملازمة الصمت حتى يدعوها الى الكلام فتتكلم . وتراخى ظهر السيد الى مسند الكنبه ، وبدا عقب سهرته الطويلة متعبا فثقل جفناه اللذان جرى فى اطرافهما احمر طارئ من اثر الشرب ، وجعل يزفر انفاسا ثقيلة مخمورة . ومع انه كان يعاقر الخمر كل ليلة ، الى افراط فى الشرب حتى السكر ، الا انه لم يكن ليقرر العودة الى بيته حتى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصا منه على وقاره والمظهر الذى يحب ان يبدو به فى بيته . وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذى يلقاه فى أعقاب سهرته ، ولكنها لم تلمس من آثار الشراب الا رائحته ، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذا مرييا ، الا ما كان يبدر منه اول عهده بزواجها وقد تناسته ، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له فى هذه الساعة اقبالا منه فى الحديث وتبسطا فى فنونه قل ان تغفر بمثله فى اوقات افاقته الكاملة . وانها لتذكر كم ارتفعت يوم ادركت انه يعود من سهرته ثلا . واستدعت الخمر الى ذهنها ما يقتزن بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهى الأفظع ، فتقرزت نفسها وركبها الدرع وعانت لدى عودته

كلما عاد آلاما لا قبل له بها . وبمضى الأيام والليالي ثبت لها انه حين عودته من سهرته يكون الطف منه في جميع الأوقات . فيتخفف من صرامته ، وترق ملاحظته ، ويسترسل في الحديث : فاستأنست اليه واطمأنت وان لم تنس ان تضرع الى الله أن يغفر له معصيته ويتوب عليه . وكم تمنى لو يتطبع بنفس اللين النسبي وهو صاح منته ، وكم عجبت لهذه المعصية التي ترقق حواشيه . وتحيرت طويلا بين ما تجد نحوها من كراهية دينية موروثية وبين ما تجنى منها من راحة وسلام ، ولكنها دفنت افكارها في أعماق نفسها ، ودارتها مداراة من لا يطيق ان يعترف بها ولو فيما بينه وبين نفسه . اما السيد فكان احرص ما يكون على وقاره وحزمه ، وما يصدر عنه من لطف فخلصة يصدر ، وربما جرت على شفثيه ابتسامة عريضة - في جلسته هذه - للذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما ينتبه الى نفسه ، ويطبق شفثيه ، ويستترق الى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين ، فيطمئن ويعود الى ذكرياته . والحق ان سهرته لم تكن تنتهى بعودته الى بيته ، ولكنها تواصل حياتها في ذكرياته ، وفي قلبه الذى يجذبها اليه بقوة نهم الى مسرات الحياة لا يروى ، وكأنه لا يزال يرى مجلس الأنس تزينه النخبة المختارة من أصدقائه واصفيائه ، ويتوسطه بدر من البدور التى تطلع فى سماء حياته حيناً من بعد حين ، وما برحت تطن فى أذنيه الدماجات واللطائف والنكات التى تجود قريحته بدررها اذا هزه السكر والطرب ، وهذه الملح خاصة يراجعها فى عناية واهتمام ينضحان بالعجب والزهو ، ويتذكر أثرها فى النفوس وما لاقت من نجاح وإبتهاج جعلاه الحبيب الأول لكل نفس ، ولا عجب فانه كثيرا ما يشعر بأن الدور الذى يلعبه فى سهرته من الخطورة كأنه امل الحياة المنشود ، وكان حياته العملية بجملتها ضرورة يؤديها فى سبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين صحبه وخلصائه . وبين هذا وذاك تسجع فى باطنه انغام حلوة لطيفة مما تردد فى المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أعماق قلبه : « آه .. الله أكبر » ، هذا الغناء الذى يحبه كما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور ، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه ، ولا يأبه للشقة البعيدة يقطعها الى أطراف القاهرة ليسمع الحامولى أو عثمان أو النيلادى

حيثما تكون مغانيهم ، حتى آوت انغامهم الى نفسه السخية كما تأوى
 البلابل الى شجرة مورقة ، فاكسب دراية بالنغم والمذاهب وتوج حجة
 في السماع والطرب . وكان يحب الغناء بروحه وجسمه ، اما روحه
 فتطرب وتغمرها الأريحية ، واما جسمه فتتهاج حواسه وترقص
 أطرافه خاصة الرأس واليدان ، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع
 الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى ، مثل : « وليه بقى تلاويحك
 وهجرك » او : « يا ما بكره نعرف . . وبعده نشوف » او : « اسمح
 بقى وتعالى اما اقول لك » وكان حسبه أن تهفو اليه نغمة من هذه
 النغمات معانقة حواشيها من الذكريات كي تهيج موطن السكر من نفسه
 فيهرز رأسه طربا وترف على شفثيه ابتسامة اشواق ويفرقع بأصابعه
 وقد يشدو مترنما اذا كان الى نفسه خاليا . ومع هذا فلم يكن الغناء
 هوى منفردا يجذبه لذاته فحسب ، ولكنه كان زهرة في طاقة يطلو بها
 وتحلو به ، أهلا به ومرحبا بين الصديق الصافي والحبيب الوفي والشراب
 المعتق والملحة العذبة ، اما ان يصفو له وحده - كما يتلقى في البيوت عن
 الفونوغراف - فهو جميل حبيب بلا شك ، ولكنه غاب عن جوه وبيئته
 وملابسائه ، وهيئات أن يقنع به القلب ، انه يتوق الى ان يفصل بين
 النغمة والنغمة بنكنة تهتز لها النفوس ، وان يسابق التردد بالنهل من
 كأس مترعة ، ويرى اثر التطريب في وجه الصديق وعين الحبيب ، ثم
 يتعاونون جميعا على التهليل والتكبير . بيد ان السهرة لم يقتصر اثرها
 على بعث الذكريات ، فمن مزايها أيضا انها تهيبه في أعقابها لأسلوب
 طيب من الحياة هو الذي تتلف عليه زوجه المطيعة المستسلمة حين تجد
 نفسها بين يدي رجل حلو المعشر يتبسط معها في الحديث ويفضى اليها
 بما في طويته على نحو يشعرها ولو الى حين بانها ليست جارية فحسب
 ولكنها شريكة حياته أيضا . وهكذا راح يحدثها عن شؤون البيت فأنبأها
 بأنه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السممن
 والقمح والجبن ، وجمل يحمل على ارتفاع الأسعار واختفاء المواد
 الضرورية بسبب هذه الحرب التي تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام ، وكعادته
 كلما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون في المدينة
 كالجراد ويعيشون في الأرض الفساد . والحق انه كان يحنق على الأستراليين
 لسبب خاص به وهو أنهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالى اللهو والطرب

في الأزبكية فارتد عنها مغلوبا على امره - الا في القليل النادر من مختلس
الفرص - لأنه لم يكن يسعه ان يعرض نفسه للجنود الذين يسلبون
الناس متاعهم جهارا ويتسلون بصب ألوان الاعتداء والاهانة عليهم بعير
رادع . ثم مضى يسأل عن حال « الأولاد » كما يدعوهم بـلا تفرقة بين
كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل أغا
ثم تساءل بلهجة ذات معنى :

- وكمال ؟! . . اناك وان تسترى على شيطنته !

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذي تستتر عليه حقا فيما لا خطر له من
اللعب البريء ، وان كان السيد لا يعترف ببراءة أي لون من ألوان اللعب
واللهو ، وقالت بصوتها الخاشع :

- انه يلتزم أوامر أبيه .

وصمت السيد قليلا فدا كالشارد ، وعاد يقطف من ذكريات ليلته
السعيدة ، ثم تراجع مؤشر ذاكرته الى ما سبق سهرته من أحداث
يومه فذكر فجأة أنه كان يوما حافلا ، ولما كان في حال لا يستحب معها
كتمان شيء مما يطفو على سطح الوعي فقد قال وكأنه يخاطب نفسه :
- ياله من رجل كريم الأمير كمال الدين حسين ! اما علمت بما فعل ؟! . .
أبي أن يعتلى عرش أبيه المتوفى في ظل الانجليز .

ومع أن المرأة علمت بوفاه السلطان حسين كامل أمس الا انها كانت
تسمع اسم ابنه لأول مرة ، ولم تجد ما تقول ولكنها - مدفوعة بعواطف
الاجلال للمتكلم - كانت تخاف الا تعلق على كل كلمة يقولها بما يرضيه
فقالت :

- رحم الله السلطان واكرم ابنه .

فاستطرد السيد قائلا :

- وقبل العرش الأمير أحمد فؤاد أو السلطان فؤاد كما نسيديعى من
الآن فصاعدا ، وقد تم الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل في موكبه من قصر
البستان الى سراى عابدين . . . وسبحان من له الدوام .

وصفت أمينة اليه باهتمام وسرور ، اهتمام يستثيره في نفسها أي نبأ
يجيء من العالم الخارجى الذى تكاد لا تعرف عنه شيئا ، وسرور يعثه
ما تجد في حديث بعلمها معها عن هذه الشؤون الخطيرة من لفتة عطف
تزدهيها ، الى ما في الحديث نفسه من ثقافة يلد لها ان تعيدها على مسمع

- ١٤ -

من ابنائها وخاصة فتاتها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجى جهلا تاما .
ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيرا من أن تردد على مسمعيه دعاء تعلم
مقدما بمقدار ارتياحه اليه كما ترواح اليه هي من أعماقها فقالت :

— ربنا قادر على أن يعيد الينا أفندينا عباس .

فهز الرجل رأسه وتمتم قائلا :

— متى ؟ . متى ؟ . علم هذا عند ربى . . ما نقرا فى الجرائد الا عن
انتصارات الانجليز ، فهل ينتصرون حقا او ينتصر الألمان والترك فى النهاية ؟
اللهم استجب .

واغمض الرجل عينيه اعياء ، وتشاءب ، ثم تمطى وهو يقول :

— اخرجى المصباح الى الصالة .

ونهضت المرأة قائمة وذهبت الى الخوان فتناولت المصباح ومضت الى
الباب ، وقبل أن تجوز العتبة سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتمت :

— صحة وعافية .

- ٣ -

وفى هدوء الصباح الباكر ، وذبول الفجر لاتزال ناشبة فى اسهم الضياع ،
تعالى صوت العجبن من حجرة الفرن بالفناء فى ضربات متتابعة كدمى
الطبل . وكانت امينة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة .
فتوضأت وصلت ثم نزلت الى حجرة الفرن فايقظت ام حنفى — امرأة فى
الأربعين خدمت وهى صبية بالبيت وفارقتة للزواج ثم عادت اليه بعد
طلاق — وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت امينة على اعداد الفطور .
وكان للبيت فناء متسع ، فى اقصاه الى اليمين بئر سدت فوهتها بعاردين
خشبي مدببت اقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من ادخال مواشي
المياه ، وفى أقصى اليسار على كئيب من مدخل الحريم حجرتان كبيرتان
أقيمت الفرن فى أحدهما واسنعملت بالتالى مطبخا ، وأعدت الأخرى
مخزنا . وكان لحجرة الفرن على عزلتها علاقة بقلبها لا تهن ، فلو حسب
الزمن الذى قضته بين جدرانها لكان عمرا ، الى ما تنزين به الحجره من
مباهج اللوانم عند حلولها حين تتطالع اليها القلوب الهاشية لأفراح الحياة ،
وتتحلب الافواد لالوان الطعام الشهية التى تقدمها موسما بعد موسم كخشبات

رمضان وقطائفه ، وكحك عيد الفطر وفطائره . وخروف عيد الأضحى الذى يسمن ويدل ثم يذبح على مشهد من الأبناء فلا يعدم دمة رثاء وسط بهجة شاملة . هنالك تبدو عين القرن المقوسة يلوح فى اعماقها وهج النار كجذوة السرور المشتعلة فى السرائر وكأنها زينة العيد وبشائره . واذا كانت أمينة تشعر بأنها فى أعلى البيت سيدة بالنيابة وممثلة لسلطان لا تملك منه شيئا ، فهى فى هذا المكان ملكة لا شريك لها فى ملكها ، فهذه القرن تموت وتحيا بأمرها ، وهذا الوقود من فحم وحطب فى الركن الأيمن يتوقف مصيره على كلمة منها . والكانون الذى يحتل الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينية النحاسية ينام أو يزغرد بالسنة الذهب بآشارة منها . هى هنا الأم والزوجة والأستاذة والفنانة التى يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ما تقدم يداها ، وآية ذلك أنها لا تفوز باطراء سيدها اذا تفضل باطرائها الا عن لون من الطعام احكمت صنعه وطهيه .

وام حنفى كانت اليد اليمنى فى هذه الملكة الصغيرة ، سواء تصدت أمينة للإدارة والعمل ام تخلت عن مكانها لاحدى فتاتها لتتمرس بفنها تحت اشرافها ، وهى امرأة بديئة فى غير تنسيق ولا تفصيل ، نما لحمها نموا سخيا فراعى فى نموه السمنة فحسب واهمل اعتبارات الجمال ، بيد انها رضيت عنه كل الرضا لأنها كانت تعد السمنة فى ذاتها الجمال كل الجمال . ولا عجب فقد كان كل عمل لها فى البيت يكاد يعد ثانويا بالقياس الى واجبها الاول وهو تسمين الأسرة - أو بالأحرى اناثها - بما تعد لهن من «بلابيع» سحرية هى رقية الجمال وسره المكنون ، ومع ان أثر البلابيع لم يكن ناجعا دائما الا انه برهن على جدارته فى اكثر من مرة فاستحق ما يناط به من آمال واحلام . فليس عجيبا بعد هذا ان تسمن ام حنفى ، على ان سمنتها لم تقلل من نشاطها ، فما ان ايقظتها سيدتها حتى نهضت بنفس متفتحة للعمل ، وخفت الى « ماجور » العجين . وتعالى صوت العجين الذى يؤدى وظيفة جرس المنبه فى هذا البيت ، فترامى الى الأبناء فى الدور الاول ، ثم تصاعد الى الأب فى الدور الأعلى ، منذرا الجميع بأن وقت الاستيقاظ قد اذف . وتقلب السيد احمد عبد الجواد على جنبه ثم فتح عينيه ، وسرعان ما قلب حانقا على الصوت الذى أزعج منامه ، ولكنه كظم حنقه لأنه كان يعلم انه يجب أن يستيقظ ، وتلقى أول احساس يتلقاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس مقاومه بقوة ارادته وجلس فى فراشه .

وان كانت تغلبه الرغبة في معاودة النوم . ولم تكن لياليه الصاخبة لتنسيه واجب النهار ، فهو يستيقظ في هذه الساعة الباكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب الى متجره قبيل الثامنة ، ثم له في القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عما فاتته من نوم ، ويستعيد نشاطه للسهر الجديدة . لهذا كان وقت استيقاظه اسوأ اوقات يومه جميعاً ، يفادر الفراش مترنحاً من الاعياء والدوار ، ويستقبل حياة عاطلة من حلو الذكريات ولطيف المشاعر وكأنها تستحيل دقا في الدماغ والجفون .

وتوالت دقات العجين على رعوس النائمين بالدور الأول فاستيقظ فهمى . وكان استيقاظه يسيراً على رغم سهره عاكفاً على كتب القانون ، فاذا استيقظ فأول احساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلاً : « مريم » . ولو اذعن لسلطان الاغراء للبت تحت الغطاء طويلاً ، خالياً الى الخيال الزائر الذى جاء يصحبه بالطف الهوى ، فيرنو اليه ما دماه الشوق ويبادله الحديث ويبوح له بأسرار وأسرار ، ويتدانى اليه بجسارة لا تتأتى في غير هذا الرقاد الدافئ من مطلع الصباح . ولكنه كعادته اجل نجواه الى صباح الجمعة وجلس في فراشه ، ثم مد بصره الى اخيه النائم في الفراش الذى يليه وهتف :
- ياسين .. ياسين .. اصح .

فانقطع شخير الشاب ، ونفخ فيما يشبه الضيق واثمت من انفه :
- صاح .. استيقظت قبلك .

فانتظر فهمى مبتسماً حتى عاود الآخر شخيره فصاح به :
- اصح ..

فتقلب ياسين في فراشه متدمراً فانحسر الغطاء عن جانب من جسمه الذى يضاهى جسم والده ضخامة وبدانة ، ثم فتح عينين محمرتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقهما تقطعية تنطق بالتدمير « اف .. كيف طلع الصبح بهذه السرعة ! .. لماذا لا ننام حتى نشبع .. النظام .. دائماً النظام .. كأننا عساكر » ، ونهض معتمداً على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحته منه التفاتة الى الفراش الثالث حيث يغط كمال في نومه الذى لن ينتزعه منه احد قبل نصف ساعة فغبطه عليه « ياله من غلام سعيد ! » . ولما افاق قليلاً تربع على الفراش وأسند رأسه الى يديه ، ورغب في معايشة الخواطر اللذيذة التى تحلو بها احلام

اليقظة ولكنه كان يستيقظ - كأيه - على حال من ثقل الرأس تتعطل معها الأحلام ، ولاحت لمخيلته زنوبة العوادة فلم تترك في حساسيته اثرا مما تترك في صحوه وان افترت شفتاه عن ابتسامة ..

وفي الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة الى منبه العجين ، كانت اشبه الأسرة بأمها في نشاطها ويقظتها ، اما عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التي تنبعث في السرير من نهوض شقيقتها وانزلاقها الى أرض الحجرة في عنف متعمد يجبر وراءه جدلا وملاحاة انقلبها مع التكرار نوعا من الدعابة الفظة ، فاذا استيقظت وفرغت من النقار لم تنهض ، ولكنها تستسلم للحلم طويل من أحلام اليقظة السعيدة قبل أن تغادر فراشها

تم دبت الحياة فشملت الدور الاول كله ، فتحت التوافذ وتدفق النور الى الداخل وعلى اثره هفا الهواء حاملا صلصلة عجلات سوارس واصوات العمال ونداء بائع البليلة ، وتواصلت الحركة ما بين غرفتي النوم والحمام وبدا ياسين في جذبابه الفضفاض بلحمه المتكتل « وفهمى بطوله الفارع وقده النحيف وكان - فيما عدا نحافته - صورة من أبيه . وهبطت الفتاتان الى القناء لتلحقا بأمهما في حجرة القرن ، وكان في صورتيهما اختلاف قل ان يوجد مثله في الأسرة الواحدة ، خديجة سمراء وفي قسما

ومع ان السيد كان في الدور الاعلى بمفرده الا ان امينة لم تدعه في حاجة الى انسان ، وجد على الخوان طبق فنجان مملوءا حلبة ليغير ريقه عليها ، وذهب الى الحمام فتطاير الى أنفه عرف البخور الطيب ، والفى على كرسي ثيابا نظيفة مرتبة في عناية ، فاستحم بالماء البارد كعادته كل صباح عادة لا ينقطع عنها صيفا أو شتاء - ثم عاد الى حجرتة مستجدا حيوية ونشاطا . ثم جاء بسجادة الصلاة - وكانت مطوية على مسند الكتبة - فبسطها وادى فريضة الصبح ، صلى بوجه خاشع ، وهو غير الوجه البسام المشرق الذي يلقي به أصحابه ، وغير الوجه الحازم الصارم الذي يواجه به آل بيته ، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التي الانها التزلف والتودد والاستغفار . لم يكن يصلى صلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود ، ولكن صلاة عاطفة وشعور واحساس يؤديها بنفس الحماس الذي ينفضه على الوان الحياة

التي ينقلب فيها جميعا ، كما يعمل فيتفانى في عمله ، ويصادق فيفرط في مودته ، ويعشق فيذوب في عشقه ، ويسكر فيغرق في سكره ، مخلصا صادقا في كل حال ، هكذا كانت القريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولى ، حتى اذا انقفل من صلاته تربع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكأله برعايته ويغفر له ويبارك في ذريته وتجارته

وفرغت الام من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين اعداد الصينية وطلعت الى حجرة الاخوة حيث وجدت كمالاتا مازال يغط في نومه ، فأقبلت عليه باسمه وحطت راحتها على جبينه وثلت الفاتحة ، وجعلت تناديه وتهزه برفق حتى فتح عينيه ، ولم تدعه حتى فارق الفراش . ودخل فهمى الحجرة فلما رآها ابتسم اليها وحياها تحية الصباح فردت عليه قائلة ونظرة الحب تتفرق في عينيها :

— صباح النور يا نور العين ..

وبنفس الرقة صبحت على ياسين «ابن» زوجها فرد عليها بمودة خليقة بالمرأة التي تنزل من نفسه منزلة الام الجديرة بهذا الاسم . ولما عادت خديجة من حجرة الفرن تلقاها فهمى وياسين — وياسين خاصة — بما يغمرانها به عادة من دعابة . وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحاد رغم مالها من نفوذ على الأخوين بما تتعهد من شؤونهما بمهارة فائقة يندر أن تجود بمثلها عائشة التي تلوح وسط الأسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبية وعدم فائدة . وبادرها ياسين قائلا :

— كنا نتحدث عنك يا خديجة ، وكنا نقول أنه لو كان النساء جميعا على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب ..
فقاالت على البداة :

— ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعا من متاعب الرعوس ..
عند ذلك هتفت الأم قائلة :
— أعد الفطور يا سادة ..

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم الوالدين ، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس واربعة خالية الا من بعض ادوات اللعب التى يلهو بها كمال فى اوقات فراغه . وكان السماط قد أعد وصفت حوله الثلث ، ثم جاء السيد فتصدره متربعا ، ودخل الاخوة الثلاثة تباعا فجلس ياسين الى يمين أبيه ، وفهمى الى يساره ، وكمال قبالة . جلس الاخوة فى ادب وخشوع ، خافضى الرؤوس كأنهم فى صلاة جامعة ، يستوى فى هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل آغا ، فلم يكن أحد منهم ليحترى على التحديق فى وجه أبيه . واكثر من هذا كانوا يتجنبون فى محضره تبادل النظر أن يقلب أحدهم الابتسام لسبب أو لآخر فيعرض نفسه لزجرة مخيفة لا قبل له بها . ولم يكن يجمعهم بأبيهم الا مجلس الفطور لأنهم يعودون الى البيت عصرا بعد أن يكون السيد قد غادره الى دكانه عقب تناول الغداء والقيلولة ، ثم لا يعود اليه الا بعد منتصف الليل ، وكانت الجلسة على قصر مدتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من ادب عسكرى ، الى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتجعلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم فى تحاميلها ، فضلا عن أن الفطور نفسه يتم فى جو يفسد عليهم تذوقه واستلذاده ، ولم يكن غريبا أن يقطع السيد الفترة القصيرة التى تسبق مجئ الأم بصينية الطعام فى تفحص أبنائه بعين ناقدة حتى اذا عثر على خلل ولو تافه فى هيئة أحدهم أو بقعة فى ثوبه انهال عليه نهرا وتأنيبا ، وربما سأل كمالا بغلظة : « غسلت يديك ؟ » فاذا أجابه بالإيجاب قال له آمرا : « أرنيهما » فيبسط الغلام كفيه وهو يزدرد ريقه فرقا ، وبدلا من أن يشجعه على نظافته يقول له مهددا : « اذا نسيت مرة أن تغسلهما قبل الأكل قطعتهما وأرحتك منهما » . أو يسأل فهمى قائلا : « أياذاكر ابن الكلب دروسه أم لا ؟ » ويعرف فهمى بالبداهة من يعنى لأن «ابن الكلب» عند السيد كناية عن كمال فيجب بانه يحفظ دروسه جيدا ، والحق أن شطارة الغلام - التى استوجب عليها حنق أبيه - لم تقعد به عن الجد والاجتهاد كما يدل عليهما نجاحه وتفوقه ، ولكن السيد كان يطالب أبنائه

بالطاعة العمياء الأمر الذى لا يطيقه غلام اللعب أحب اليه من الطعام ،
ولهذا يعلق على اجابة فهمى خائلا بامتعاظ : «الأدب مفضل عن العلم» .
ثم يلتفت الى كمال ويستطرد بحدة : « سامع يا ابن الكلب ! » ..
وجاءت الام حاملة صينية الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السماط
وتقهقرت الى جدار الحجرة على كثر من خوان وضعت عليه « قلة » ،
ووقفت متأهبة لتلبية أية اشارة . وكان يتوسط الصينية النحاسية
اللامعة طبق كبير يضاوى امتلا بالدمس المقل بالسمن والبيض « وفي
أحد طرفيها تراكت الأرفغة الساخنة ، وفي الطرف الآخر صفت أطباق
صغيرة بالجبن ، والليمون والفلفل المخللين ، والشطة والملح والفلفل الأسود ،
فهاجت بطون الأخوة بشهوة الطعام ، ولكنهم حافظوا على جمودهم
متجاهلين المنظر البهيج الذى انزل عليهم كأنه لم يحرك فيهم ساكنا ، حتى
مد السيد يده الى رغب فتناوله ثم شطره وهو يتمتم « كلوا » ،
فامتدت الأيدي الى الأرفغة فى ترتيب يتبع السن ، ياسين ففهمى ثم كمال ،
وأقبلوا على الطعام ملتزمين ادبهم وحياءهم . ومع أن السيد كان يلتهم
طعامه فى وفرة وعجلة وكان فكه شطرا آلة قاطعة تعمل فى سرعة وبلا
توقف ، ومع أنه كان يجمع فى لقمة كبيرة واحدة من شتى الألوان المقدمة
- الفول والبيض والجبن والفلفل والليمون المخللين - ثم يأخذ فى طحنها
بقوة وسرعة وأصابه تعد اللقمة التالية ، الا أنهم كانوا ياكلون متمهلين فى
أناة بالرغم مما يحملهم تمهلهم من صبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية ، فلم يكن
ليغيب عن أجدهم ما قد يتعرض له من ملاحظة شديدة أو نظرة قاسية
إذا تهاون أو ضعف فنسى نفسه وغفل بالتالى عما يأخذها به من التانى
والأدب . وكان كمال أشدهم تبرا لأنه كان أعظمهم تخوفا من أبيه ،
وإذا كان أكثر ما يتعرض له أحد أخويه نهرة أو زجرة فأقل ما يتعرض
له هو ركلة أو لكمة ، فلذلك كان يتناول طعامه فى حذر وضيق ،
مستترقا النظر بين آونة وأخرى الى المتبقى من الطعام الذى يتناقص
سريعا ، وكلما تناقص اشتد قلقه ، وانتظر فى جزع أن يصدر عن أبيه
ما يدل على فراغه من طعامه فيخلو له الجو ليملا بطنه ، وعلى رغم
سرعة إنيه فى الاتهام وضخامة لقمته وتشبعها بشتى الأصناف كان
يعلم بالتجربة أن ما يتهدد الطعام - وما يتهدده هو بالتالى - من ناحية
أخويه أشد وانكى ، لأن السيد كان سريع الأكل سريع الشبع ، أما أخواه

فكانا يبدآن المعركة حقا عقب جلاء السيد عن السفارة ، ثم لا يتخليان عنها حتى تخطو الأطباق من كل شهي يؤكل ، ولهذا فما كاد السيد ينهض قائما ويفارق الحجر حتى سمر عن ساعديه وهجم على الطبق كالجنون مستغلا يديه الاثنيتين ، يدا للطبق الكبير ، ويذا للأطباق الصغيرة ، بيد أن اجتهاده بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الاخوين فلجأ الى الحيلة التي يستغيث بها كلما هدد سلامته مهدد في مثل هذه الحال ، وهي أن يعطس في الطبق عامدا متعمدا ، وعطس ، فتراجع الاخوان ، ونظرا اليه حائقين ، ثم غادرا المائدة وهما يفرقان في الضحك ، فتحقق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيدا في الميدان .

وعاد السيد الى حجرته بعد أن غسل يديه فلحقت به امينة وبيدها قدح مزجت به ثلاث بيضات نيئة بقليل من اللبن وقدمته له فتجرعه ثم جلس ليحسو قهوة الصباح . وهذا القدح الدسم خاتمة فطوره ، وهو « وصفة » من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيما بينها - كزيت السمك ، والجوز واللوز والبندق المسكرة - رعاية لصحة بدنه الضخم ، وتعويضا له عما تستهلكه منه الأهواء ، الى اقتصاره على اللحوم بأنواعها والاغذية المشهورة بدسمها حتى ليعد الأكلة الخفيفة بل والعادية « لعبا » و « تضييع وقت » لا يجملان بمثله . وقد وصف له الخشيش كفاتح للشهية - الى فوائده الأخرى - فجربه ولكنه لم يألفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذهول وقور مشبع بالهدوء مبال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفوة من الأصدقاء ، فنفر من أعراضه تلك التي تتجافى مع سجيته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج في النفوس ووثبات المزاج والقهقهة . ولكيلا يفقد مزاياه الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع نفيس من المنزول اشتهر به محمد العجمي بائع الكسكسي عند مطلع الصالحية بالصافة ، وكان يعده خاصة لصفوة زبائنه من التجار والأعيان ، ولم يكن السيد من مدمنى المنزول ولكنه كان يلتم به بين حين وآخر كلما استقبل هوى جديدا خاصة اذا كانت العشوقة امرأة خبيرة بالرجال وأحوالهم . فرغ السيد من حسو قهوته ثم نهض الى المرأة وراح يرتدى ملابسه التي قدمتها اليه امينة قطعة قطعة ، وألقى على صورة هندامه نظرة متفحصة ، ومشط شعره الأسود

المرسل على صفحتى رأسه ، ثم سوى شاربه وفتله ، وتفرس فى هيئة وجهه ثم عطفه رويدا الى اليمين ليرى جانبه الايسر ، ثم الى اليسار ليرى جانبه الايمن ، حتى اذا ارتاح الى منظره مد يده الى زوجته فناولته زجاجة الكولونيا التى عباها له عم حسنين الحلاق ففسل يديه ووجهه ونضخ صدر قفطانه ومنديله « ثم وضع الطربوش على رأسه واخذ عصاه وغادر الحجرة ناشرا بين يديه ومن خلفه عرفا طيبا . ذلك العرف المقطر من شتى الأزهار يعرفه أهل البيت جميعا ، واذا تنشقه أخذهم تمثل لعينيه السيد بوجهه الوقور الحازم ، فيتبعث فى قلبه - مع الحب - الاجلال والخوف ، الا أن انتشاره فى هذه الساعة من الصباح كان ايدانا بذهاب السيد ، فانهفوس تتلقاه بارتياح غير منكور على براءته ، كارتياح الاسير الى صليل السلاسل وهى تنفك عن يديه وقدميه ، ويعلم كل بأنه سيسترد حريته عما قليل فى الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر . وكان ياسين وفهمى قد فرغا من ارتداء ملابسهما ، اما كمال فقد هرع الى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته فى محاكاة حركاته التى يختلس النظر اليها من زيق الباب المواريب ، فوقف أمام المرأة ينظر الى صورته بامعان وارتياح ثم قال مخاطبا أمه بلهجة آمرة وهو يقلظ نبرات صوته « زجاجة الكولونيا يا أمينة » ، وكان يعلم أنها لا تلبى هذا النداء ولكنه جعل يمسح على وجهه وجاكيتته وينظفونه القصير بيديه كأنه يبلها بالكولونيا ، ومع أن أمه كانت تغالب الضحك الا أنه ثابر على التظاهر بالجد والصرامة « وراح يستعرض وجهه فى المرأة من جانبه الايمن الى الايسر » ثم مضى يسوى شاربه الوهمى ويفتل طرفيه ، ثم تحول عن المرأة وتجشأ ، ونظير صوب أمه ، ولما لم يجد منها الا الضحك قال لها محتجا : « لماذا لا تقولين لى صيحة وعافية ؟ » فغفمت المرأة الضاحكة : « صيحة وعافية يا سيدى » ، هنالك غادر الحجرة مقلدا مشية أبيه محركا يمناه كأنه يتوكأ على عصاه ..

وبادرت الأم والفتاتان الى المشربية ووقفن وراء شباكها المطل على النحاسين ليرين من ثوبه رجال الابرة فى الطريق ، وبدا السيد وهو يسير فى تودة ووقار يحف به الجلال والجمال رافعا يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عم حسنين الحلاق والحاج درويش بألحاق القول

والفوللى اللبنان ويومى الشربلى « فأتبعته أعينا مترعة بالحب والزهو .
وتلاه فهمى فى مشييته المتعجلة ، ثم ياسين فى جسم الشور وأناقة
الطاووس ، وأخيرا ظهر كمال فلم يكذب يخطو خطوتين حتى استدار
ورفع بصره الى الشباك الذى يعلم أن أمه وشقيقتيه مستخفيات وراءه ،
وابتسم ، ثم واصل سيره متأبطا حقيبة كتبه متقبا فى الأرض عن زلطة
ليركلها ..

كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأم ، بيد أن اشفاقها من شر
الاعين على رجالها لم يقف عند حد ، فلم تكن تمسك عن تلاوة : « ومن
شر حاسد اذا حسد » حتى يغيبوا عن عينها ..

وغادرت الأم المشربية ، وتبعها خديجة ، على حين تلكأت عائشة
حتى خلا لها الجو فانتقلت الى جانب المشربية المطل على بين القصرين
ومدت بصرها من ثقب الشباك فى اهتمام ولهفة . بدا من لمعة عينها
ومعضها على شفتها أنها تنتظر . ولم يطل بها الانتظار فقد مرق من
مطفة الخرنفش ضابط بوليس شاب ومضى مقبلا متمهلا فى طريقه الى
قسم الجمالية ، عند ذلك غادرت الفتاة المشربية فى عجلة الى حجرة
الاستقبال ، واتجهت الى نافذتها الجانبية وأدارت اكرتها ففرجت
مصراعها من زيق ووقفت وراءه وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من
العاطفة والخوف معا . ولما اقترب الضابط من البيت رفع عينيه فى
حذر دون أن يرفع رأسه - فلم يكن أحد يرفع رأسه فى مصر وقتذاك
- فأضاءت أساريره بنور ابتسامة متوارية انعكست على وجه الفتاة
اشراقة موردة بالحياء فتنهدت ، ثم أغلقت النافذة وهى تشد عليها
بعصبية - كأنها تخفى آثار جريمة دامية - وتراجعت عنها مغمضة
العينين من شدة الانفعال « فأسلمت نفسها الى مقعد وأسندت رأسها
الى يدها وساحت فى جو مشاعرها اللانهاى . لم تكن سعادة خالصة ،
ولم يكن خوفا خالصا ، كأن قلبها موزعا بين هذا وتلك فهما يتجاذبان
بلا رحمة ، اذا استنامت الى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة

الخوف مخدرة موعدة فلاندرى أيجمل بها أن تقلع عن مغامرتها أم تتماهى في مطاوعة قلبها ، كلا الحب والخوف شديد . ولبثت في تهويمها كثيراً أو قليلا ، فاستكنت هوائف الخوف والتأنيب ، ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظل سلام ، وذكرت - كما يلد لها أن تذكر دائما - كيف كانت تنفض الستارة المسدلة على النافذة يوما فلاحت منها نظرة الى الطريق من النافذة التى فتحت نصف فتحة لطرده الغبار فوقعت عليه وهو يتطلع الى وجهها في دهشة مقرونة بالاعجاب ، فتراجعت فيما يشبه اللعمر ، ولكنه لم يذهب قبل أن يترك في مخيلتها أثرا باقيا من منظر نجمته الذهبية وشريطه الأحمر ، منظر يخلب اللب ويسرق الخيال ، فظل يتخايل لعينيهما طويلا . وفى نفس الساعة من اليوم التالى - والأيام التالية - راحت تقف وراء الخصاص دون أن يراها ، ولمست في فرحة ظافرة كيف يتطلع بعينيه الى النافذة المفلقة باهتمام وتشوق ، ثم كيف أخذ يستبين شبحتها وراء الخصاص فتشع أساريره ضياء البهجة ، وقلبها المشبوب - الذى يتمطى مستيقظا لأول مرة - ينتظر هذه اللحظة في لهفة ويلذوقها في سعادة ويودعها فيما يشبه الحلم ، حتى دار الشهر وعاد يوم التنفيض مرة أخرى فانبرت الى الستارة تنفضها وراء النافذة المواربة متمدة - هذه المرة - أن ترى ، وهكذا يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب الخوف الجائم فخطت خطوة - حنونية - وفرجت مصراعى النافذة ووقفت وراءها وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا ، كأنها تعلن حبها له ، بل كانت كمن يقذف بنفسه من علو سباحق ليتقى نارا مستعرة تحيط به .



استكنت هوائف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظل سلام ، ثم أفاقت من حلمها ، وصممت على أن تتحامى الخوف الذى ينغص عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها استدراارا للطمأنينة : « لم تزلزل الأرض ومر كل شيء بسلام » لم يرئى أحد وإن يرانى أحد ، ثم انى لم اقترب انما ! » ونهضت قائمة ، ولكى توهم نفسها بخلو البال

ترغمت - وهى تغادر الحجرة - بصوت عذب : « يا أبو الشريط الأحمر
يا اللى أسترنى ارحم ذلى » ، ورددتها مرة ومرة حتى جاءها صوت أختها
خديجة من حجرة الطعام وهى تزعق فى تهكم :

- يا ست منيرة يا مهدية ، تفضلى ، أعدت لك خادمك السفرة .
وأثابها صوت أختها الى نفسها تماما فيما يشبه الرجة فهوت من عالم
المثال الى عالم الواقع مرتعبة بعض الشيء لسبب غير ظاهر
- ما دام كل شيء قد مر بسلام كما قالت لنفسها - ولكن اعتراض
صوت أختها - بالذات - لغنائها وخواطرها أزعجها ، ربما لأن خديجة
كانت تقف منها موقف المنتقد ، بيد أنها طاردت هذا القلق الطارئ
وأجابتها بضحكة مقتضبة ثم جرت الى حجرة الطعام فوجدت السماط
معدا حقا وأما مقبلة بالصينية . وقالت لها خديجة بحدة حال دخولها :
- تلتكئين بعيدا حتى أمد كل شيء وحدى . . كفاية لنا الغناء .

ومع أنها كانت تتلطف معها فى الحديث تغاديا من حدة لسانها إلا أن
إصرار الأخرى على قرصها بلسانها كلما سنحت فرصة جعلها تتعلق
أحيانا باغاضتها فقالت مصطنعة الجذ :
- ألم نتفق على تقسيم العمل بيننا فى البيت ؟ فعليك هذا الواجب
وعلى الغناء . .

فنظرت خديجة الى أمها وقالت متهمكة وهى تعنى الأخرى :
- يمكن ناوية تكون عالمة !

ولم تغضب عائشة ، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضا :
- وماله ! . . أنا صوتى كالكروان

ومع أن قولها السابق لم يستثر غيظها لأنه كان بين الدعابة إلا أن كلامها
الأخير استثاره لأنه كان واضح الحق ، ولأنها تنفس عليها جمال صوتها
فيما تنفس عليها من مزايا فقالت فى تجهم :

- اسمعى يا ست هانم ، هذا بيت رجل شريف لا يعيب بناته أن تكون
أصواتهن كصوت الحمير ولكن يعيبهن أن يكن كالصورة لا فائدة منهن ولا
نفع

- لو كان صوتك جميلا كصوتى ما قلبت هذا !
- طبعاً ! . . كنت تغنين وأرد عليك ، تقولين يا أبو الشريط الأحمر

يا الى فاقول لك اسرتنى ارحم ذلى ، ونترك للست « مشيرة الى امها »
الكنس والمسح والطبخ
وكانت الام - التى الفت هذا النكار - قد اتخذت مجلسها فقالت برجاء :
- امسكا بالله واجلسا لناكل فطورنا بسلام ..
واقبلنا على السماط وجلسنا وخديجة تقول :
- انت يا نينة لا تصلحين لتربية احد ..
فتمتت الام فى هدوء :

- ساحك الله ، سأتارك لك امر التربية على الا تنسى نفسك .. » ثم
مدت يدها الى الطبق « .. بسم الله الرحمن الرحيم ..
كانت خديجة فى العشرين من عمرها ، فهى كبرى اخوتها فيما عدا
ياسين - اخاها من الاب - الذى ناهز عامه الواحد والعشرين ، وكانت
قوية ممتلئة - والفضل لام حنفى - مغ ميل الى القصر ، اما وجهها فقد
قبس من قسماط الوالدين على نهج لم يراع فيه الانسجام ، ورثت عن امها
عينها الصغيرتين الجميلتين ، وعن ابيها أنفه العظيم « أو صورة مصغرة
منه ولكن ليس الى القدر الذى يفتقر له ، ومهما يكن من شأن هذا الأنف
فى وجه الاب الذى يناسبه ويكسبه جلالة ملحوظا فقد لعب فى وجه الفتاة
دورا مختلفا

اما عائشة فكانت فى السادسة عشرة من ربيعها ، صورة من بديع الحسن ،
رشيقة القد والقوام - وان عد هذا فى محيط اسرتها من العيوب المتروك
علاجها لام حنفى - ووجه بدرى تزينه بشرة بيضاء مشربة بحمرة ،
وعينان زرقاوان احسنت اختيارهما من الاب مع أنف الام الصغير ، الى
شعر ذهبى دللها به قانون الوراثة فخصها به وحدها من ميراث جدتها
لأبيها . وطبيعى لم تدرك خديجة مايقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق «
ولم تكن براعتها الباققة فى التدبير المنزلى والتطريز ولا نشاطها الدائب
الذى لا يكل ولا يمل بمفنيين عنها شيئا ، فوجدت على الغالب نحوها غيرة
لم تراع اخفاءها مما حمل الفتاة الحسناء على البرم بها فى كثير من الاحايين .
ولكن من سوء الحظ أن هذه الغيرة الطبيعية لم تترك رواسب سوداء فى
النفس ، وكفاها أن تروخ عن حديثها بسخرية اللسان وسلطته . واكثر
من هذا ان كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية اما بالفطرة عامرة القلب
بالحنو نحو الأسرة التى لا تعفى افرادها من مرارة تهكمها ، فلم تكن غيرتها

الا نوبات تطول أو تقصر ولكنها لم تنحرف بسجيتها الى الحقد أو البغضاء، بيد أن دأبها على السخرية - الذى اقتصر فى الأسرة على الدعابة - خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيابة من الدرجة الاولى ، لاتقع عينها من الناس الا على مناقصهم كمقرب البوصلة المنجذب الى القطب أبداً ، واذا توارت المناقص تمحلت فى الكشف عنها وتكبرها ، ثم راحت تطلق على ضحاياها أوصافا تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم فى محيط أسرته ، فهذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها « المدفع الرشاش » لتناثر رقعها اثناء الحديث ، وهذه الست أم مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها « لله يا أسيادى » لاستعارتها بعض الأدوات المنزلية من بيتهم بين حين وآخر ، كما تدعو شيخ كتاب بين القصيرين « شر ما خلق » لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيرا بحكم وظيفته مع قبج وجهه ، وبائع الفول « الأقرع » لصلعه ، واللبان « الأعور » لضعف بصره ، الى تسميات مخففة بعض الشيء خصت بها أسرته ، فأما « المؤذن » لتكبرها فى الاستيقاظ ، وفهمى « عمود السرير » لنحافته ، وعائشة « البوصة » للسبب نفسه ، وياسين « بمبه كثر » لسمنته وأناقته . ولم تكن سلاطة لسانها من وحى السخرية فحسب ، فالحق انها لم تخل من قسوة على من عدا أهلها من الخلق ، وهكذا اتسم نقدها للناس بالعنف ، وتجاوى عن التسامح والعفو ، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التى تلم بالناس يوما بعد يوم ، وتبدت هذه الغلظة فى البيت فى معاملة أم حنفى معاملة لا تلقاها من أحد سواها ، بل فى معاملة الحيوان الأليف كالقطط التى تحظى من عائشة بأعزاز يفوق الوصف . وكانت معاملتها لأم حنفى مثار خلاف بينها وبين أمها ، فالأم تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء ، وكان ظنها بالناس أنهم ملائكة فلم تدر كيف تسئ الظن بأحد ، على حين دأبت خديجة على سوء الظن بالمرأة تمشيا مع طبيعتها التى تسئ الظن بالناس جميعا ، ولم تخف تخوفها من بياتها غير بعيد من غرفة الخزين فقالت لأمها : « من أين تجيئها هذه السمينة المفرطة؟! . من الوصفات التى تصنعها؟! كلنا نتعاطى وصفاتها فلا نسمن سمنتها ، ولكنه السمن والعسل اللذان تطفح منهما بغير حساب ونحن نيام »

ولكن الأم دافعت عن أم حنفى ما وسعها الدفاع ، ولما ضاقت بالحاح

ابنتها قالت : « فلتاكل ما تشاء ، الخير كثير ، وبطنها له حد لا يتعداه فلن نجوع على أى حال » ، ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمن وبلايص العسل كل صباح وأم حنفى ترى هذا باسمه لأنها كانت تحب الأسرة كلها اكراما لستها الطيبة . وعلى التقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جميعا فلم يكن يهدأ لها بال اذا أصابت أحدهم وعكة ، ولما مرض كمال بالحصبة أبت الا أن تشاركه فراشه ، حتى عائشة نفسها لم تكن تطيق أن يلم بها أهون سوء ، فلم يكن مثل قلبها لافى بروده ولا فى رحمته وباتخاذها مجلسها من السماط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار واقبلت على الفول والبيض بشهية كانت مضرب الأمثال فى الأسرة . وكان للطعام بينهم - الى فائدته الفدائية - غابة جمالية عليا بصفته الدعامة الطبيعية للسمنة ، فكان يتناولونه فى تؤدة واهتمام ، ويبالغن فى سحقه وطحنه ، فاذا شبعن لم يمسن ولكن يستزذن منه حتى يمتلئن ، على تفاوت تبعاً لطاقاتهن ، فكانت الأم أسرعهن الى الانتهاء ، تليها عائشة ، ثم تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلى عنها الا وهى اطبق مفسولة . ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها فى الأكل فضلا عن عصيانها لسحر البلاييع ، مما دعا خديجة للسخرية منها والقول بأن المكر السيئ هو الذى يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيبة التى تلقى فيها ، كما كان يطيب لها أن تملل نحافتها بضعف دينها فتقول لها : « كلناصوم رمضان الا أنت ، تتظاهرين بالصوم ، رتندسين فى حجرة الخزين كالغارة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق ، ثم تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولكن الله لا يبارك لك » . وكانت ساعة الفطور من الأوقات النادرة التى يخلين فيها الى أنفسهم ، فكانت أخلق الأوقات بالمكاشفة ونفض السرائر خاصة فى الأمور التى يدعو الى كتمانها عادة الحياء البالغ الذى تتسم به مجالس الأسرة الحاوية للجنسين . وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انها مكها فى الأكل فقالت بصوت هادئ يختلف كل الاختلاف عن الصوت الذى كانت تزعق به منذ حين قصير

— نينة .. حلمت حلماً غريباً ..

فقالت الأم قبل أن تزدد لقمته مبالغة فى اكرام ابنتها المخيفة :

— خير يا بنتى ان شاء الله ..

فقالت خديجة باهتمام مضاعف :

- رايت كاني امشى على سور سطح ، ربما كان سطح بيتنا او غيره ،
واذا بشخص مجهول يدفعنى فاهوى صارخة ..
وامسكت امينة عن تناول طعامها فى اهتمام جدى فلازمت الفتاة الصبر ..
قليلًا لتستأثر بأكبر قدر من الاهتمام حتى تمت الام :
- اللهم اجعله خيرا

وقالت عائشة وهى تغالب ابتسامة :
- لم اكن انا الشخص المجهول الذى دفعك .. اليس كذلك !
وخافت خديجة ان يفسد الجو بالمزاح فصاحت بها :
- انه حلم وليس لعبا فكفى عن هذلك « ثم مخاطبة امها » .. هويت
صارخة ولكنى لم ارتطم بالأرض كما توقعت بل وقعت على جواد ،
حملنى وطار ...

وتنهدت امينة فى ارتياح كأنما أدركت ما وراء الحلم واطمأنت اليه ،
وعادت الى طعامها مبتسمة ، ثم قالت :
- من يدري يا خديجة ؟ .. لعله العريس !
لم يكن يباح الكلام عن « العريس » الا فى هذه الجلسة ، وفى ايجاز
بالإشارة أشبه ، ووجب قلب الفتاة الذى لم يكرهه شيء كما أكرهه أمر
الزواج ، وكانت على ايمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمها سرورا
عميقا ، بيد انها أرادت أن تدارى حياءها بالسخرية كعادتها - ولو من
نفسها - فقالت :

- انظنين الجواد عريسا ؟ .. لن يكون عريسى الا حمارا ..
فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها ، ثم خافت أن تسيء
خديجة فهم ضحكتهما فقالت :
- لشد ما تظلمين نفسك يا خديجة ! .. ما فيك من شيء يعاب ..
فحدجتها خديجة بنظرة تنم عن الحذر والشك على حين راحت الام
تقول :

- أنت فتاة نادرة المثال ، من يضارحك فى مهارتك أو نشاطك ؟ ..
وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف ؟ ماذا تريدن أكثر من هذا ؟
فمسبت الفتاة بسبابتها أرنبه أنفها وتساءلت ضاحكة :
- الا يسد هذا طريق الأزواج ؟
فقالت الام مبتسمة :

- ٣٠ -

- كلام فارغ .. مازلت صغيرة يا بنية ..
وتضايقت للذكر الصغر لأنها لم تكن تعد نفسها صغيرة بالقياس الى
سن الزواج وخاطبت أمها قائلة :
- لقد تزوجت يا نينة وانت دون الرابعة عشرة .
فقالت الأم التي لم تكن في الحق دون ابنتها قلقلها :
- لا يتقدم أمر او يتأخر الا بإذن الله ..
وقالت عائشة في صدق
- ربنا يفرحنا بك قريبا يا خديجة ..
فلحظتها خديجة بريئة وذكرت كيف طلبت إحدى جاراتهم يدها لابنها
فرفض الأب أن يزوج الصغرى قبل الكبرى ، وتسبعت :
- اتودين حقا أن تزوج أم تتمنين أن يخلو لك السبيل فتتزوجي !
فقالت عائشة ضاحكة :
- الاثنين معا ..

- ٦ -

- ولما فرغن من الفطور قالت الأم :
- عليك يا عائشة الغسيل اليوم ، وعلى خديجة تنظيف البيت ، ثم
تلحقان بى فى حجرة الفرن ..
كانت أمينة توزع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة ، ومع أنهما
يرضيان بحكمها ، وترضى به عائشة عادة بلا مناقشة ، الا أن خديجة
تكلف بتوجيه الملاحظات على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة ،
فلهذا قالت :
- أنزل لك عن التنظيف اذا كنت تستثقلين الغسيل ، أما التمسك
بالغسيل للبقاء فى الحمام حتى ينتهى العمل فى المطبخ فعذر مرفوض
مقدما ..
وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت الى الحمام وهى تدندن فقالت
خديجة متهمكة :
- يا بختك بالحمام یرن فيه الصوت كما یرن فى نفیر الفونوغراف لغنى
وسمى الجیران ..

وغادرت الأم الحجرة الى الدهليز ثم الى السلم ورقته الى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل الى حجرة الفرن . لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب مع الأيام عادة مالوفة في غير الأوقات التي يوجد فيها الأب في البيت ، أو التي يطيب فيها السمر بين أفراد الأسرة ، وجعلت تعالجه بالرجاء والدعابة والرفقة البالغة ، وهي السياسة الوحيدة التي تنتهجها أزاء أبنائها لأنها صادرة عن طبع لا يطبق سواها ، أما ما تقتضيه التربية أحيانا من الحزم فشيء لم تعرفه ، ربما تمنته دون أن تقدر عليه ، وربما حاولت تجربته فغلبها التأثير والضعف ، وكأنها لا تحتمل أن يقوم بينها وبين أبنائها غير أسباب المودة والحب، تاركة للأب - أو لشخصيته التي تسيطر من بعيد - تقويم المعوج والزام كل حدوده . لهذا لم يضعف التقار السخيف من إعجابها بفتاتيه ورضائها عنهما « حتى عائشة المولعة لحد الهوس بالفناء والوقوف أمام المرأة ، لم تكن دون خديجة مهارة وتديرا بالرغم من تكاسلها . وكان هذا حربا بأن يمد لها في أوقات الراحة لولا ما طبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه، فهي تأتي إلا أن تشرف على كل صغيرة وكبيرة بالبيت ، وإذا فرغ الفتاتان من عملهما نشطت هي بالمكنسة في يد والمنفضة في يد وراحت تتفقد الحجرات والصالات والدهاليز ، متفحصة الأركان والجدران والستائر وسائر العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسية ، واجدة لذة وارتياحا كأنما تزيل قذى من عينيها ، ومن وسوستها تلك أنها كانت تفحص الثياب المعدة للغسيل قبل غسلها ، فإذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوف لم تترك صاحبها دون أن تتلطف في تنبيهه الى واجبه ، من كمال الذي يناهز العاشرة الى ياسين الذي كان ذا ذوقين متناقضين في العناية بنفسه يتجلبان في ثائقه المفرط في مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحذاء ، واهماله المعيب لثيابه الداخلية ، ومن الطبعي ألا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج ، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحب والسرور فيها من أغراض العمل مافيهما ، الى ماتجده من فرحة اللهو والترح ، ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التي لم يكن للبيت الكبير بها عهد قبل انضمامها اليه ، خلقت بروحها خلقا جديدا على حين ظل البيت محافظا على الهيئة التي شيد عليها منذ عهد سحيق . هذه الأقفاص المثبتة في بعض جدرانها العالية يهدل عليها الحمام من

وضعها ، وهذه الاكواخ الخشبية يقوىء الدجاج في مسارحها من تركيبها ،
 وكـم يملكها الفرح وهى ترمى الحب أو تضع على الأرض آنية السقيا
 فيستبق اليها الدجاج وراء ديكتها ، وتنهل مناقيرها على الحب فى سرعة
 وانتظام كابر آلة الخياطة ، مخلقة فى الأرض التربة بعد حين ثغرات دقيقات
 كاثار الرذاذ . وكـم ينشرح صدرها اذ تنظر فتراها رانية اليها بأعين
 دقيقة صافية ، مستطلعة متسائلة ، ناقة مقوقنة ، فى مودة متبادلة ينزلها
 قلبها الحنون . أحبت الدجاج والحمام كما تحب مخلوقات الله جميعا ، فهى
 تنافىها مناغة رقيقة تحسب أنها تفهمها وتتأثر لها ، ذلك أن خيالها يخلع
 الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان ، وأحيانا الجماد نفسه ، وعندها بمنزلة
 اليقين أن هذه الكائنات تسبح بحمد ربها وتتصل بعالم الروح بأسباب ،
 فعالها بأرضه وسمائه ، حيوانه ونباته ، عالم حى عاقل ، ثم لا تقتصر
 مزاياه على نعمة الحياة فيكملها بالعبادة . لم يكن غريبا بعد هذا أن تكثر
 معانيقها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو آخر ، هذه لأنها معمرة
 وتلك لأنها بياضة وهذا لأنها تستيقظ على صياحه ، ولعلها لو تركت
 وشأنها ما ارتضت أن تعمل سكينها فى رقابها ، وإذا دعتا الظروف الى
 الذبح تخيرت الدجاج أو الحمام فيما يشبه الضيق ، ثم تسقيها وترحم
 عليها وتبسم وتستغفر ، وتذببحها وعزاؤها أنها تستمتع بحق منحه الله
 المنان وأوسع به على عباده . أما أعجب ما فى السطح فكان نصفه الجنوبي
 المشرف على النحاسين حيث غرست يداها فى الأعوام الخالية حديقة فريدة
 لا نظير لها فى أسطح الحى كله التى تغطى عادة بطبقة من قاذورات الدواجن ،
 بدأت أول ما بدأت بعدد قليل من اصص القرنفل والورد ، وراحت
 تستكثر منها عاما بعد عام حتى نضدت صفوفا بحذاء أجنحة السور
 ونمت نموا بهيجا ، وخطر لخيالها أن تقيم فوق حديقتهاسقيفة ، فاستدعت
 نجارا فأقامها ، ثم غرست شجرتى ياسمين ولبلاب ، ثم أنشبت سيقانها
 فى السقيفة وحول قوائمها ، فاستطالت وانتشرت حتى استحال المكان
 بستانا معروشا ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوع فى أرجائها
 عرف طيب ساحر . هذا السطح بسكانه من الدجاج والحمام ، وبستانه
 المعروش ، هو دنيائها الجميلة المحبوبة ، وملهاها الأثير فى هذا العالم الكبير
 الذى لا تعرف عنه شيئا ، وكشأنها فى مثل هذه الساعة مضت تتمعهده
 برعايتها فكنتسته ، وسقت زرعه ، وأطعمت الدجاج والحمام ، ثم ثملت

طويلاً المنظر المحيط بها بشجر باسم وعينين حالمتين ، ثم ذهبت الى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفة المتشابكة تمد بصرها من تفراتها الى ما يليها من فضاء لا تحده حدود

كم تروعا المآذن التى تنطلق انطلاقاً اذا احياء عميق . تارة عن قريب حتى لترى مصابيحها وهلالها فى وضوح كمآذن قلاوون وبرقوق ، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفاصيل كمآذن الحسين والغورى والأزهر « وثالثة من افق سحيق فتترأى اطيافاً كمآذن القلعة والرفاعى وتقلب وجهها فيها بولاء وافستان ، وحب وأيمان . وشكر ورجاء ، وتحلق روحها فوق ذراها أقرب ما نكون الى السماء ، ثم تستقر منها العينان على مئذنة الحسين ، احبها - لحب صاحبها - الى نفسها . فتنفض نظرتها حناناً وأشواقاً ، مشوبة بحزن يطوف بها كلما ذكرت حرمانها من زيارة ابن بنت رسول الله وهى على مسير دقائق من متواه . وتهتدت نهدة مسموعة ، استردتها من استغراقها فثابت الى نفسها وراحت تسلى بالنظر الى الأسطح والطرق فلم تزايلها الأشواق « ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلع الى المجهول ، المجهول بالقياس الى الناس جميعاً وهو عالم الغيب ، والمجهول بالقياس اليها وحدها وهو القاهرة . بل الأحياء المتاخمة التى تترامى اليها أصواتها . ترى ماهذه الدنيا التى لم تر منها الا المآذن والأسطح القرية ؟ ! ربع قرن من الزمان خلا وهى حبيسة هذا البيت فلا تفارقه الا مرات متباعدات لزيارة امها بالخرنفس « وعند كل زيارة يصطحبها السيد فى حانطور لانه كان لا يحتمل ان تقع عين على حرمه سواء وحدها ام بصحبته ، لم تكن ساخطة ولا متدمرة ، انها ابعد ما تكون عن هذا ، بيد انها ما تكاد تنفلد ببصرها من ثغرات الياسمين والبلابل الى الفضضاء والمآذن والأسطح حتى تعلو شفيتها الرقيقتين ابتسامة حنان وأحلام . ترى ابن تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمى فى هذه اللحظة ؟ .. وابن مدرسة خليل اغا التى يؤكد لها كمال انها على مسير دقيقة من الحسين ؟ .. وقبل أن تغادر السطح بسطت كفيها ودعت ربها قائلة « اللهم أسألك الرعاية لسيدى وابنائى ، وأمى ويس ، والناس جميعاً مسلمين ونصارى ، حتى الانجليز يا ربى وأن تخرجهم من ديارنا اكراماً لفهمى الذى لا يحبهم ... »

- ٣٤ -

- ٧ -

عند ما بلغ السيد احمد عبد الجواد دكانه الذى يقع امام جامع برقوق بالنجاسين كان جميل الحمزاوى وكيله قد فتحه وهباه للعمل ، فحياه السيد تحية رقيقة وهو يتسم ابتسامة وضيئة واتجه الى مكتبه . وكان الحمزاوى فى الخمسين من عمره ، انفق منها ثلاثين عاما فى هذا الدكان ، وكيلاً لمنشئه الحاج عبد الجواد ثم وكيلاً للسيد بعد وفاة ابيه ، وظل على الوفاء للسيد بداع من العمل والحب معا ، فهو يحله ويحبه كما يحله ويحبه جميع من يتصل به بسبب من اسباب العمل او الصداقة . والحق لم يكن السيد مرهوبا مخوفا الا بين اهله ، اما بين سائر الناس من اصدقاء ومعارف وزعماء فهو شخص آخر ، له حظه الموفور من الهابة والاحترام ، ولكنه شخصية محبوبة قبل كل شئ ، ومحبوبة لظرفها قبل اى من سجاياها الحميدة الكثيرة ، فلا الناس يعرفون السيد الذى يقيم فى بيته ، ولا اهل البيت يعرفون السيد الذى يعيش بين الناس . وكان دكانه متوسط الحجم ، مكدسة رفوفة وجنباته بجوالات البن والأرز والنقل والصابون ، وعند ركنه الأيسر فى قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفاته وأوراقه وتليفونه ، والى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحى منظرها بالصلابة ويذكر لونها بالأوراق المالية ، وفى منتصف الجدار فوق المكتب على اطار من الأبواب نقشت بداخله البسمة مموهة بالذهب . ولم تكن عجلة الدكان تدور قبل الضحى ، فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السابق بمثابة ورثها عن ابيه وحافظ عليها بحيويته الموفورة ، على حين وقف الحمزاوى عند المدخل شابكا ذراعيه على صدره مواصلا تلاوة ما تيسر له من الآيات فى صوت باطنى غير مسموع دلت عليه حركة شفثية المستمرة ، ورسوسة خافتة تند من آن لأن عن أحرف السين والصاد ، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضرير ربه السيد للقراءة كل صباح . وكان السيد يرفع رأسه من الدفتر فى فترات متباعدة فيستمع الى التلاوة أو يد بصره الى الطريق حيث لا ينقطع تيار المارة وعربات اليد والكارو ، وسوارس التى تكاد تترنج من كبرها وثقلها ، والباعة المغنون وهم يترغنون بقطايق الطماطم والملوخية والبامية كل على مذهبه ، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعد ما اعتادها والفها أكثر من ثلاثين عاما فاستنام اليها حتى ليزعجه سكوتها . ثم جاء زبون فشغل الحمزاوى به ، واقبل نفر من أصحاب السيد وخيرائه من

التجار ممن يحبون أن يقضوا معه وفنا طيبا ولو لزم من وجيز يتبادلون فيه التحية ويغيرون ريقهم - على حد تعبيرهم - على دعابة من دعاباته أو نكتة من نكاته ، الأمر الذى جعله يفاخر بنفسه كمحدث فائق البراعة . لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التى اكتسبها . لا من التعليم حيث توقف فيه دون الابتدائية ، ولكن من قراءة الصلح ومصادفة نخبة من الأعيان والموظفين والمحامين الذين أهله لمخالطتهم - مخالطة الند للند - حضور بديهنه ولطفه وظرفه ومنزلته كناجر موفور الرزق ، فاستجد لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه أولئك المتأززون من حب واحترام وتكريم . ولما قال له أحدهم مرة فى صدق وإخلاص « لو أتيح لك يا سيد أحمد أن تدرس القانون لكنت محاميا مفوها نادر المثال » نفخ قوله فى خياله الذى يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحاول معاشرته . ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس فذهبوا تباعا ، وتزايدت حركة العمل بالديكان . ثم فجأة دخل رجل مهرولا كأنما دفعه يد قوية ، ووقف فى منتصف الديكان وهو يضيق عينيه الضيقتين ليحد بصره ، وسددهما صوب مكتب السيد ، ومع أنه لم يكن يفصله عنه أكثر من ثلاثة أمتار إلا أنه أجهد فى معاينته بلا طائل .
نم هتف متسائلا :

- السيد أحمد عبد الجواد موجود ؟

فقال السيد بأسا

- أهلا وسهلا بالشيخ متولى عبد الصمد ، تفضل . حلت البركة . . وعطف الرجل رأسه فصادف اقتراب الحمزاوى منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه ليده الممدودة وعطس على غير انتظام فتراجع الحمزاوى وهو يخرج منديله وقد التقت فى صفحة وجهه ابتسامة وتقطبية ؛ واندفع الشيخ الى المكتب وهو يتمتم « الحمد لله رب العالمين » ، ثم رفع طرف عباته ومسح به على وجهه . وجلس على الكرسي الذى قدمه السيد له وبدا الشيخ فى صحة يحسد عليها على سنه التى جاوزت الخامسة والسبعين ، ولولا عيناه الكليلتان الملتهبتا الأشفار ، وفوه المندثر ، ما وجد ما يشكوه . وكان يتلفع بعباءة بالية ناسلة وإن أمكنه أن يستبدل بها خيرا منها بما وجود به المحسنون ، ولكنه استمسك بها لأنه - فيما يقول - رأى الحسين فى منامه وهو يباركها فبث فيها خيرا لا يبلى . وكان الى كراماته فى قراءة الفيب والدعوات الشافية وعمل الأحجية معروفا بالصراحة والظرف ،

وبه متسع للدعابة والمزاح مما زاد من قدره. عند السيد خاصة ، ومع انه كان من سكان الحى الا انه لم يثقل على احد من مريديه بالزيارات ، وربما توالى الأشهر وهو غائب لا يعلم له مكان ، فاذا ألم بزيارة بعد انقطاع لاقى ترحابا واشواقا وهدايا . وقد أشار السيد الى وكيله ليعد للشيخ الهدية المعتادة من الأرز والبن والصابون ، ثم قال للشيخ مرحبا :

- اوحشتنا يا شيخ متولى .. منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك ..

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة :

- اغيب كما يحلو لى ، واحضر كما يحلو لى ، ولا أسال عن السبب ..

فابتسم السيد الذى ألف أسلوبه وتمتم قائلا :

- اذا غبت أنت فان بركتك لا تغيب ..

فلم يبد على الشيخ انه تآثر لأطرائه ، وعلى العكس حرك راسه حركة تدل على نقاد الصبر وقال بخشونة :

- ألم انبه عليك اكثر من مرة بالا تفاتحنى بالحديث ، وان تلزم الصمت

حتى أتكلم أنا ؟ !

فقال السيد وبه رغبة فى التحكك به لا

- معذرة يا شيخ عبد الصمد ، لئن كنت قد نسيت تنبيهك فعذرى

انى انسيته لطول غيابك .

فضرب الرجل كفا بكف وهتف :

- عذر اقبح من ذنب .. (ثم منذرا بسبابته) اذا تماديت فى مخالفتى

امتنعت عن قبول هديتك !

فأطبق السيد شفتيه باسطا راحتيه استسلاما حاملا نفسه على

الصمت هذه المرة ، فترى الشيخ متولى ليؤكد من دخوله طاعته .

وتسبح ، ثم قال .

- ابدأ بالصلاة على سيد الخلق الحبيب ..

فقال السيد من الأعماق :

- عليه الصلاة والسلام .

- وائنى على أبيك بما هو أهله ، رحمه الله رحمة واسعة واسكنه

فسيح جناته ، كانى به متخلدا مجلسك هذا ، لا فارق بين الأب

وابنه الا ان الراحل حافظ على العمامة واستبدلت بها هذا الطربوش ..

فتمتم السيد مبتسما :

- فليغفر الله لنا ..

فتشابب الشيخ حتى دمعت عيناه ثم استطرد قائلا :
- وادعو الله أن يمن على ابنائك بالفلاح والتقوى ، ياسين وخديجة وفهمى
وعائشة وكمال وامهم آمين ..

ووقع نطق الشيخ باسمى خديجة وعائشة من اذن السيد موقعا
غريبا على الرغم من كونه هو الذى أفضى اليه باسميهما منذ عهد طويل
ليكتب لهما حجابين ، وليست اول مرة ينطق الشيخ باسميهما ، ولا آخر
مرة ، ولكن لم يكن يبردد اسم واحدة من حريمه بعيدا عن الحجرات - ولو
على لسان الشيخ متولى - حتى يقع من نفسه موقعا غريبا ينكره ولو
الى حين . بيد انه غمغم قائلا :

- آمين يا رب العالمين ..

فتنهده الشيخ قائلا :

- ثم اسأل الله المنان ان يعيد الينا أفندينا عباس مؤيدا بجيش من
جيوش الخليفة لا يعرف له أول من آخر ..

- نسأله وليس شئ عليه بكثير ..

فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضبا :

- وأن يبنى الانجليز واعوانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة .

- ربنا يأخذهم جميعا ..

فحرك الشيخ راسه فى اسى وقال بحسرة :

- كنت بالأمس سائرا فى الموسكى فاعترض سبيلى جنديان استراليان
وطالبانى بما معنى فما كان منى الا ان نفضت لهما جيوبى وأخرجت الشئ
الوحيد الذى كان معنى وهو كوز ذرة فتناولوه أحدهما وركله كالكرة
وخطف الآخر عمامتى وحل الشال ومزقه ورمى به فى وجهى .

وتابعه السيد وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن داراها بالمبالغة
فى اظهار استيائه صائحا فى استنكار :

- قاتلهم الله واهلكهم ..

فاتم الرجل حديثه قائلا :

- رفعت يدى الى السماء وصحت : يا جبار مزق امتهم كما مزقوا

شال عمامتى ..

- دعوة مستجابة باذن الله ..

ومال الشيخ الى الورا. وأغمض عينيه ليسترىح قليلا ، ولبت على
حاله والسيد يتفرس فى وجهه مبتسما ، ثم فتح عينيه وخاطب السيد

- بصوت هادئ ونبرات جديدة تنذر بموضوع جديد - قائلاً :
- يا لك من رجل شهم جميل المروءة يا أحمد يا ابن عبد الجواد ..
- فابتسم السيد في رضى وقال بصوت خفيض :
- استغفر الله يا شيخ عبد الصمد ..
- فبادره الشيخ قائلاً :
- لا تتعجل ، ان مثلى لالقى الثناء الا تمهيدا لقول الحق « على سبيل التشجيع يا ابن عبد الجواد .. فلاح الاهتمام والحد في عينى السيد وقتم قائلاً :
- ربنا يطف بنا ..
- فأشار اليه بسبائنه العجاء وتساءل فيما يشبه الوعيد :
- ماذا تقول ، وانت المؤمن الورع ، فى ولعك بالنساء ؟!
- كان السيد معتاداً لصراحته فلم ينزعج لانقضاضه ، وضحك ضحكة مقتضبة ثم قال :
- ما على من ذلك ، الا يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حبه للطيب والنساء ؟
- فقطب الشيخ ومط بوزد محتجاً على منطق السيد الذى لم يعجبه وقال :
- الحلال غير الحرام يا ابن عبد الجواد ، والزواج غير الجرى وراء الفاجرات ..
- فمد السيد بصره للأشياء وقال بلهجة جدية :
- ما ارتضت نفسى يوماً أن تعتدى على عرض أو كرامة قط ، والحمد لله على ذلك ..
- فضرب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة وباستنكار :
- عذر ضعيف لا يتحلله الا ضعيف ، والفسق لعنة ولو يكن بفاجرة ، كان أبوك رحمه الله مولماً بالنساء فتزوج عشرين مرة فلماذا لا تتجهج سبيله وتتكب طريق المعاصى ؟!
- فضحك السيد ضحكة عالية وقال :
- أنت ولى من أولياء الله أم مأذون شرعى ؟! كان أبى شبيه عقيم فأكثر من التزوج ، وبالرغم من أنه لم ينجب سواى إلا أن عقاره تبدد بينى وبين زوجات أربع مات عنهن ، الى ما ضاع على النفقات الشرعية فى حياته ، أما أنا فلب ثلاثة ذكور وأنثيين ، وما يجوز لى أن أنزلق الى

الاكثار من الزوجات فأبدد ما يسر الله علينا من رزق . ولا تنس يا شيخ متولى أن غوانى اليوم هن جوارى الأمس واللاتى أحلهن الله بالبيع والشراء ، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم ..

فتأوه الشيخ وقال وهو يهز نصفه الأعلى يمينة ويسرة :
- ما ابرعكم يا بنى آدم فى تحسين الشر ، والله يا ابن عبد الجواد لولا حبى لك ما باليت أن تحدثنى وانت قاعد على فاجرة ..

فبسط السيد راحتيه وقال باسا :
- اللهم استجب ..

فنفخ الشيخ متبرما وهتف قائلا :
- لولا مزاحك لكنت أكمل الناس ..

- الكمال لله وحده ..

فالتفت اليه وهو يتسمر بيده كأنه يقول « فلندع هذا جانبا » ثم ساءله بلهجة المحقق الذى ضبق عليه الخناق :
- والخمر ؟ .. ماذا تقول فيها ؟!

وسرعان ما فترت روح السيد ولاح فى عينيه أليق ولزم الصمت مليا ، وأنس الشيخ من صمته تسليما فصاح بظفر :

- أليست حراما لا يقارفه من يحرص على طاعة الله ومحبته ؟

فبادره السيد قائلا فى حماس من يدفع بلاء محققا :

- لشد ما أحرص على طاعة الله ومحبته !

- باللسان أم بالعمل ؟!

ومع أن الجواب كان حاضرا الا انه تمهل متفكرا قبل أن ينطق به . لم يكن من عادته أن يشغل نفسه بالتفكير الدائى أو التأمل الباطنى ، شأنه فى ذلك شأن الذين لا يكادون يخلون الى أنفسهم ، ففكره لا يعمل حتى يبعثه الى العمل شىء خارجى ، رجل أو امرأة أو سبب من أسباب حياته العملية ، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقا فيه بكليته ، فلم ير من نفسه الا صورتها المنعكسة على سطح التيار ، ثم لم يترأخ توبه للحياة مع تقدم العمر لأنه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشنبوبة لا يتأثر بها الا الشاب اليافع ، لذلك جمعت حياته شتى المتناقضات التى تراوح بين العبادة والفساد ، وحازت جميعا رضاه على تناقضها دون أن يدغم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية أو تدبير مما يصطنع الناس من الوان الرياء ، ولكنه

كان يصدر في سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريرة نقية واخلاص في كل ما يفعل ، فلم تعصف بصدرة عواصف الحيرة ، وبات قرير العين . وكان ايمانه عميقا ، اجل كان ايمانا موروثا لا دخل للاجتهاد فيه ، بيد أن رقة مشاعره ولطافة وجدانه واخلاصه اضفت عليه احساسا رهيفا ساميا نأى به عن أن يكون تقليدا أعمى ، أو طقوسا مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب ، وبالجمله كان ابرز ما يتميز به ايمانه بالحلب الحصب النقى . بهذا الايمان الحصب النقى اقبل يؤدى فرائض الله جميعا ، من صلاة وصيام وزكاة في حب ويسر وسرور ، الى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقا عزيزا يستبق القوم الى الرى من منهله العذب ، وتبتك الحيوية الفياضة المشبوبة فح صدره لمسرات الحياة ولذائدها ، يهش للماكل الفاخر ، ويطرب للشراب المعتق ، ويهيم بالوجه القسيم ، فينهل منها جميعا في مرح وبهجة وولع ، غير مثقل بالضمير باحساس خطيئة أو وسواس قلق ، فهو يمارس حقا منحة اياه الحياة ، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره ، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته ، وآخاه في السلام . اكان شخصين منفصلين في شخصية واحدة ؟ . ام كان اعتقاده في السماحة الالهية بحيث لا يصدق انها تحرم هاتيك المسرات حقا « وحتى في حال تحريمها فهي حرية بأن تغفو عن المذنبين ما لم يؤذوا احدا ؟! الأرجح أنه كان يتلقى الحياة بقلبه واحساسه دون ثمة تفكير أو تأمل ، وجد بنفسه غرائز قوية ، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة ، ويتحفز بعضها الآخر للذات فأرواها باللهو ، وخلطها بنفسه جميعا آمنا مطمئنا دون أن يشق على نفسه بالتوفيق بينها . لم يكن يضطر الى تبريرها بفكره الا تحت ضغط انتقاد كالذى جابهه الشيخ متولى عبد الصمد ، وفي هذه الحال يجد نفسه اضيق بالتفكير منه بالتهمة نفسها ، لا لأنه يهون عليه أن يكون متهما امام الله ، ولكن لأنه لا يصدق أبدا أنه متهم ، أو أن الله يغضبه حقا ان يلهو لهوا لا يصيب احدا بأذى ، اما التفكير فكان يتعبه من ناحية ويكشف عن تفاهة علمه بدينه من ناحية اخرى . لذلك تجههم للسؤال الذى القاها الرجل عليه متحديا وهو « باللسان أم بالعمل » واجابه بلهجة لا يخفى فيها الضيق :

— باللسان والعمل معا ، بالصلاة والصيام والزكاة ، بذكر الله قائما

وقاعدا ، وما على بعد ذلك اذا روحت عن نفسي بتىء من اللهو الذى لا يؤذى احدا او يغفل فريضة . وهل حرم محرم الا لهذا او ذاك ؟
رفع الشيخ حاجبيه واغمض عينيه معلنا عن عدم اقتناعه ثم غتم :
- يا له من دفاع فى سبيل الباطل !

وتحول السيد فجأة من الضيق الى المرح كعادته فقال باريحية :
- الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد ، انى لا اتصوره عز وجل غاضبا او متجهما ابدا ، حتى انتقامه رحمة خافية . وانى اقدم بين يديه الحب والطاعة والبر ، والحسنة بعتر امثالها ..
- اما فى حساب الحسنات فانت زايح ..

فاشار السيد الى جميل الحمزاوى لياتى بهدية الشيخ وهو يقول
مسرودا :

- حبنا الله ونعم الوكيل .
وجاءه الوكيل باللغة فاخذها السيد وقدمها الى الشيخ وهو يقول
صاحكا :

- فى صحتك ..

فتناولها الشيخ وهو يقول :

- رزقك الله رزقا واسعا وغفر لك ..

فغمغم السيد « آمين » ثم سألها باسم :

- ألم تكن يوما من اهل ذلك يا سيدنا الشيخ ؟!

فضحك الشيخ قائلا :

- ساحكك الله ، انت رجل كريم طيب القلب ، وبهذه المناسبة احبلك من التماذى فى الكرم فانه لا يتفق وما يطالب به التاجر من القصد ..
فتساءل السيد دهشا :

- اتفرينى باسترداد الهدية ؟

فنهض الرجل وهو يقول :

- هديتى لا تجاوز القصد فابدا بغيرها يا ابن عبد الجواد والسلام عليكم ورحمة الله ..

وقادر الشيخ الدكان مهرولا وغاب عن الأنظار . ولبت السيد مفكرا ، ومضى يدير فى نفسه ما ثار من جدل بينه وبين الشيخ ثم بسط راحتيه فى ضراعة وتمتم « اللهم اغفر لى ما تقدم وما تأخر من ذنب ، اللهم انك انت الغفور الرحيم »

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل اغا يضطرب في تيار زاخر من التلاميذ الذين يسدون الطريق بزحمتهم ثم يأخذون في التفرق ، بعضهم الى الدراسة ، وبعضهم الى السكة الجديدة ، وآخرون الى طريق الحسين ، على حين تتحلق جماعات منهم الباعة المتجولين الذين يعترضون تياراتهم عند رؤوس الطرقات المتفرعة عن المدرسة بما تحمل سلاسلهم من اللب والفلول السوداني والدوم والحلوى ، والى هذا فلا يخلو الطريق في هذه الساعة من معارك تنشب هنا وهناك بين تلاميذ اضطروا الى كتمان خلافاتهم في أثناء النهار تفاديا من العقوبات المدرسية . وكانت المرات التي سيق فيها الى الاشتباك في معركة نادرة جدا ، ولعلها لم تعد المراتين طوال العامين اللذين فضاهما في المدرسة ، لا لندرة خلافاته التي لم تكن نادرة في الواقع ، ولا لكرهية للعراك فقد اورثه اضطرابه الى تجنبه اسفا عميقا ، ولكن لتقدم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه في السن مما جعله هو وقلة من اترابه غرباء في المدرسة ، يتعشرون في بنظولناهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيما بعد الخامسة عشرة وكثيرون منهم ناهزوا العشرين ، فشققوا طريقهم في صلف وكبرياء وقد طرت شواربهم . من هؤلاء من كان يتعرض له في فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيدا كالكرة ، او من يسلبه قطعة من الحلوى فيدسها في قمه بغير استئذان مواصلا ما كان فيه من حديث ، فلم تكن الرغبة في العراك لتتقصه ولكنه كظمها تقديرا للعواقب ، وما لبها حتى دعاه اليها أحد أقرانه الصغار ، فوجد في الهجوم عليه متنفسا لعواطفه الثائرة المكبوتة واستردادا لنقته بقوته ونفسه . وليس العراك ، أو العجز عنه ، بأسوا ما لاقى من وقاحة المعتدين ، فالى هذا ما كان يترامى الى أذنيه ، سواء كان المقصود به أم غيره ، من الشتائم والسباب ، منه ما فطن لعنايه فحذره ، ومنه ما جهله فردده في البيت بحسن نية فأنار به عاصفة من الثورة والفرع اتصلت أنباؤها في صورة شكوى لضابط المدرسة الذي كان صديقا لأبيه . ولكن سوء الحظ وحده هو الذي قضى بأن يكون أحد غريميه في المعركتين الوحيدتين اللتين خاضتهما من أسرة فتوات معروفة بالدراسة ، فلما كان عصر اليوم التالي للمعركة وجد الغلام في انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الشبان مدججين

بالعصى في حالة من نر مسطير . ولما اتسار اليه غريمه ليدل عليه تنبه لحركته وادرك ما يتربص به من خطر فترجع هاربا الى المدرسة وهو يستغيث بالضابط . وعبثا حاول الرجل ان يصرف العصابة عن مقصدها ، واغلظوا له القول حتى اضطر الى استدعاء شرطي ليوصل الغلام الى داره ، وزار الضابط السيد في دكانه وانباه بما يتهدد ابنه من شر ناصحا اياه بمعالجة الأمر بالحلم والكرامة ، ولجأ السيد الى بعض معارفه من تجار الدراسة فمضوا به الى بيت الفتوات مستنفعين له . وهناك استعان السيد بما عرف عنه من ساحة نفس ورقة شمائل حتى الان عريكتهم فاصدروا عن الغلام عفوه بل وتعهدوا بطمأنينه كأحد ابنائهم ، ولم ينته اليوم حتى بعث السيد بمن يحمل اليهم نفحة من هداياه ، ونجا كمال من عصي الفتوات ولكنه كان كالستجير من الرمضاء بالنار ، لان عصا ابيه فعلت بقدميه ما لم تكن لتفعله عشرات العصي .

غادر الغلام المدرسة « ومع انه كان لرنين الجرس المؤذن بانتهاء اليوم الدواسي فرحة في نفسه لا تعادلها فرحة في تلك الأيام الا ان نساء الحرية التي تشققها خارج بوابة المدرسة بصدر رجب لم تمنح أصداء الدرس الأخير الحبيب - درس الديانة - من قلبه . وقد قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة « قل أوحى الى انه استمع نفر من الجن » وشرحها لهم . فتركز فيه بوعيه ، ورفع أصبعه أكثر من مرة سائلا عما أغلق عليه ، ولما كان الأستاذ يعطف عليه لاقباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز ، الى حفظه للسور حفظا جيدا ، فقد أوسع صدره لأسئلته بحال ينذر أن يحظى بها أحد التلاميذ « وراح الشيخ يحدثه عن الجن وطوائفهم ، وعن المسلمين منهم خاصة الذين سيظفرون بالجنة في النهاية اسوة باخوانهم من البشر . وحفظ الغلام عن ظهر قلب كل كلمة نطق بها ، ولم يزل يديرها في نفسه حتى هذه اللحظة التي يعبر فيها الطريق قاصدا دكان البسبوسة على الجانب الآخر ، فالى شغفه بالديانة كان يعلم انه لا يتلقاها لنفسه فحسب ، وأن عليه أن يعيد ما وعى منها في البيت على أمه - كما اعتاد أن يفعل مذ كان في الكتاب - فيلقى اليها بمعلوماته وتستعيد هي على ضوءها ما عندها من معلومات عرفتتها عن ابيه الذي كان شخا ازهريا ، ويتذاكران معارفهما طويلا ، ثم يحفظها الجديد من السور التي لم يسبق لها حفظها . وانتهى الى دكان البسبوسة فمد يده الصغيرة بالملايم التي احتفظ بها منذ الصباح اثم

مما جعله يحلم كثيرا بأن يكون يوما صاحب دكان حلوى ليأكلها تناول القطعة في ارتياح شامل لا يشعر به الا في مثل هذا الموقف اللذيذ ، لا ليبيعها ، ثم واصل سيره في شارع الحسين وهو يقضم منها مسرورا مترنما . نسي وقتذاك انه كان سجيناً النهار كله ، وأنه كان محروماً من الحركة فضلاً عن اللعب والمرح ، وأنه كان عرضة في أية لحظة لعصا المدرس المسلطة على الرعوس . بيد أنه رغم هذا كله لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لأنه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقدير والتشجيع - بسبب تفوقه الذي يرجع كثير من الفضل فيه الى شقيقه فهمى - لا يحظى بمشعر معشارها عند أبيه . ومر في طريقه بدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كل يوم في مثل هذه الساعة تحت لافتتها يصعد عينيهِ الصغيرتين الى الاعلان الملون الذي يصور امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفطها القرمزيتين سيجارة يتطاير منها خيط دخان متعرج « معتمدة بساعدها على حافة نافذة يلوح وراء ستارها المنحسرة منظر يجمع بين حقل نخيل ومجرى من مجريّات النيل ، وكان يدعوها فيما بينه وبين نفسه « ابلة عائشة » لما بين الاثنين من شبه يتمثل في الشعر الذهبي والعينين الزرقاوين ، ومع انه كان يناهز العاشرة الا ان امجابه بصاحبة الصورة فاق كل تقدير ، فكم تخيلها متمتعة بالحياة في ابهج مظاهرها . وكم تخيل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين حجرة ناعمة ، ومنظر مونق متاح لها - لهما - ارضه ونخيله وماؤه وسماؤه « يسبح في الوادى الأخضر أو يعبر النهر في قارب بدا في نهاية الصورة كالطيف ، او يهز النخيل فيساقط عليه الرطب ، او يجلس بين يدي الحساء طامح الطرف الى عينيها الحاليتين ، على انه لم يكن جميلاً كأخويه ، ولعله كان اشبه الأسرة باخته خديجة ، فمثلها قد جمع في وجهه بين عيني امه الصغيرتين وأنف أبيه الضخم ولكن بكامل هيئته لا مهذباً بعض التهذيب كما ورتته خديجة ، الى أس كبير يبرز عند الجبهة بروزاً واضحاً جعل عينيهِ تبدوان غائرتين اكثر مما هما في الواقع » وكان من سوء الحظ ان نبه الى غرابه صورته بحال مثيرة للسخرية حين دعاه أحد الرفاق بأبى « راسين » فأهاج غضبه وأورطه في إحدى المعركتين اللتين خاضهما ، ولم يسكن خاطره الانتقام فشكا في البيت حزنه الى امه التي تكدرت لكبره وراحت تغريه مؤكدة له أن كبر الرأس من كبر العقل ، وان التهى عليه السلام كان كبير الرأس ،

وانه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطعم اطامع . ولما انتزع نفسه من صورة المدخنة واصل سيره رانيا هذه المرة الى جامع الحسين الذي قضت نشأته بأن يكون لقلبه متار اخيلة وعواطف لا تنضب . ومع ان المكانة التي نزلها الحسين من نفسه - تبعاً لمنزلته من نفس امه خاصة والأسرة عامة - كانت وليدة قرابته من النبي الا ان معرفته للنبي وسيرته لم تكن شفيعة الى معرفته بالحسين وسيرته ، وما تهفو نفسه دائماً اليه من استعادة هذه السيرة والتزود منها بأنبل القصص واعمق الايمان ، حتى لقد وجدت منه على مر القرون مستمعا مسغوفاً ومجبا مؤمناً وأسيفا بكاء ، فلم يهون من بلواه الا ما قيل له من ان راس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من الأرض مسكناً الا في مصر فجاءها طاهراً مسبحاً ثم ثوى حيث يقوم ضريحه . وكم وقف حيال الضريح حالماً مفكراً ، بود لو ينفذ ببصره الى الأعماق ليطلع على الأوجه الجميل الذي أكدت له امه انه قاوم غير الدهر بسره الالهى فاحتفظ بنضارته ورويقه حيث يضيء ظلمة المثوى بنور غرته ، ولما لم يجد الى تحقيق أمنيته سبيلاً قنع بمناجاته في وقفات طويلة ، مفصحا له عن حبه ، شاكياً اليه متاعبه الناشئة من تصورات عن العفاريات وخوفه من تهديد أبيه مسننجدا به على الامحانات التي تلاحقه كل ثلاثة أشهر ، ثم خاتماً مناجاته عادة بالتوسل اليه أن يكرمه بالزيارة منامه . ومع ان عادة مروره بالجامع صباحاً ومساءً خففت بعض الشيء من شدة تأثيره به الا أنه لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقرأ له الفاتحة ولو تكرّر ذلك منه مرات في اليوم الواحد ، أجل لم تستطع العادة أن تقتلع من صدره بهجة الأحلام ، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تجاوبها مع قلبه ، ولم يزل لمثذنته العالية نداء ما أسرع أن تلبيه نفسه . قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثم انعطف الى خان جعفر ، ومنها اتجه الى بيت القاضي ، ولكنه بدلاً من أن يمضي الى البيت مخترقاً النحاسين عبر الميدان الى درب قمرز على وحشته واثارته لمخاوفه ليتفادى من الدور بدران أبيه . كان يرتعد فرقا من ابنه ولا يتصور أنه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه اذا زعق به غاضباً . وضاعف من كربه أنه لم يقتنع يوماً بالأوامر الصارمة التي يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ما تصبو اليه نفسه من اللعب والمراح ، فلو أنه اذعن لمشيئته مخلصاً لقضى وقت فراغه كله مترعباً مكتوف اليدين

لذلك لم يسه ان يطيع تلك المشيئة الجبارة العاتية واختلس اللهو من وراء ظهره كلما حلا له ، في البيت أو في الطريق ، وظل الرجل على جهل بإمره الا أن يبلغه منه شيء بوشاية من أهل البيت اذا ضاقوا بغلوه وافراطه . من ذلك انه جاء يوما بسلم وارتقاه الى عرش اللباب الياسمين فوق السطوح ، ورأته أمه وهو على تلك الحال بين السماء والأرض فصرخت فزعة حتى أجبرته على النزول ، ثم غلب اشفاقها من مغبة لعبة خطيرة كذلك على خوفها عليه من شدة أبيه فصرحت السيد بما كان منه ، وسرعان مادعا به وأمره أن يمد قدميه وأنهل عليهما بعضاه غير مبال بصراخه الذي ملأ البيت ، وقادر القلام الحجرة وهو يطلع ليجد اخوته في الصلاة وهم بغالبون ضحكهم الا خديجة التي حماسته بين يديها هامة في أذنه « تستاهل . . كيف تعلق اللباب وتناطح السماء ! احسبت نفسك زبلن ؟! » على انه فيما عده الألعاب الخطرة كانت أمه تستتر عليه وتبيع له ما يشاء من اللعب البريء . ولشد ما يعجب كلما ذكر كيف كان هذا الأب نفسه ظريفا لطيفا معه على عهد طفولته القريبة ، وكيف كان يتسلى بمداعبته وكيف كان ينفحه من أن لاخر بالوان شتى من الحلوى ، وكيف هون عليه يوم الختان - على فظاعته - فملا حجرة بالشيكلات والمبس وشمله بعطفه ورعايته ، ثم ما أسرع أن تغير كل شيء فببدل عطفه صرامة ، ومناغاته زعقا . ومداعباته ضربا ، حتى الختان نفسه اتخذ أداة لارهابه حتى اختلط عليه الأمر راحا من الزمن فظن انه من الممكن حقا أن يلحقوا ما تبغى له بما ذهب ! وليس الخوف وحده الذي شعر به نحو أبيه فاجلاله له لم يكن دون خوفه منه ، كان يعجب بمظهره العظيم القوى ، ومهابته التي تمنعها الهام ، وأناقته مليسه . وما يعتقده فيه من قدرة على كل شيء ، ولعل حديث الأم عن سيدها هو الذي هوله عنده فلم يتصور انه يوجد في الدنيا رجل يضارعه في قوته أو جلاله أو ثروته . أما عن الحب فقد كان كل من في البيت يحب الرجل لحد العبادة فانسرب حبه الى قلبه الصغير يايعصاء البيئة ، بيد انه ظل جوهرة مكنونة في حق مغلق من الخوف والرعب . مضى يقترب من قبو درب قرمز المظلم الذي تتخذ العفارت مسرعا لألعابها الليلية ، والذي أثره لنفسه طريقا عن المرور بدكان أبيه ، وعندما دخل في جوفه راح يقرأ « قل هو الله أحد » بصوت مرتفع رن في الظلمة تحت السقف المنخفض ، وسبقته عيناه الى فوهة القبر البعيدة حيث ينسج نور الطريق ، ثم حث خطاه وهو يردد

السورة لطرد من تحدنه نفسه بالظهور من العفاريب . فاهفاريب لا سبيل لها على من يدرع بآيات الله . اما أيود فلن يدرا غضبه عنه اذا ثار أن يتلو كتاب الله كله . وخرج من القبو الى الشطر الآخر من الدرب ، وعند نهايته طالعه سبيل بين القصرين ومدخل حمام السلطان ، ثم لاحت لمينيه مشربيات بيته بلونها الأخضر القاتم ، والباب الكبير بمطرقته البرنزية فافتر ثغره عن ابتسامة فرح لما يدخره له هذا المكان من أفانين المرح . فعمما قليل يهرع الفلمان اليه من جميع البيوت من أفانين المرح ، فعمما قليل يهرع الفلمان اليه من جميع البيوت تسطحها القرن فبخون لعب وهو وبطاطة . وفي تلك اللحظة رأى سوارس وهي تفتح الطريق على مهل منجبة الى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور مأكرا ، وما لبث ان دس حقيبة كتبه تحت أبطه الأيسر وجري وراءها حتى أدركها ثم وثب الى سلمها الخلفى . ولكن الكمسارى لم يتركه فى سروره طويلا فجاءه يطالبه بثمن التذكرة وهو يرمقه بنظرة تنم عن ريبة وتحد فقال له متوددا انه سيفادها حالما تقف لأنه لا يسعه النزول وهي سائرة ، فتحول الرجل عنه الى السائق وهتف به أن يوقف العربة وهو يزمجر غاضبا فانتهر الغلام فرصة تحوله عنه وتب على امشاط قدميه وصغعه ثم وثب الى الأرض وانطلق هاربا وشتم الكمسارى تلاحقه اشد من الأحجار المطينة . لم تكن خطة مدبرة ، ولا هى من مختار شطارته ، ولكنه رأى غلاما يفعلها فى الصباح فراقته له . ثم وجد سائحة لاعادتها بنفسه ففعل .

واجتمعت الأسرة - ما عدا الأب - قبل المغيب فيما يعرف بينها بمجلس القهوة ، وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المختار حيث تحيط بها حجرات نوم الاخوة والاستقبال ورابعة صغيرة أعدت للدرس وقد فرشت الصالة بالحصر الملونة وقامت فى أركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد ، وتدلّى من سقفها فانوس كبير يشغله مصباح غازى فى مثل حجمه . وكانت الأم تجلس على كنية وسيطة وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت كنجة القهوة حتى النصف فى جمراتها التى يعلوها الرماد ، وإلى يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صفت عليها الفناجين ، ويجلس الأبناء حيالها سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها كياسين وفهمى

او من لا يؤذن له بحكم العقائد والآداب فيقنع بالسمير كالشقيقتين
وكمال . تلك ساعة محببة الى النفوس يستأنسون فيها الى رابطتهم
العائلية ، وينعمون بلذة السمير . وينضوون جميعا تحت جناح الأمومة
في حب صاف وموده شاملة : وبدت في جلساتهم راحة الفراغ وتحرره
فكانوا بين مترع ومضطجع ، وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحان
الشاربين على الفراغ من شربهم لتقرأ لهم الطالع في فناجينهم راح ياسين
يحدث حيناً ويقرأ في قصة اليتيمين من مجموعة مسامرات الشعب
حيناً آخر . كان من عادة الشاب ان يهب بعض فراغه لمطالعة القصص
والاشعار - لا احساسه بنقص تعلمه فالابتدائية وقتذاك لم تكن مطالبا
ضغيرا - ولكن غراما بالتسلية ولهما بالشعر والاساليب الجزلة . وقد
بدا بجسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض كقربة هائلة الا ان مظهره
لم يتعارض - بحكم الزمن - مع قسامة وجهه الاسمر المثلث بعينييه
السوداوين الجذابتين وحاجبيه القروين وشفتيه الشهوانيتين ، اونم
بجملته - رغم حداثة سنه الذي لا يجاوز الواحدة والعشرين - على
رجولة مفعمة بالفحولة . ولبد كمال لصقه ليلتقط ما يرمى اليه بين
آونة واخرى من نوادر القصص وهو لا يكف عن الاستزادة منها غير
مكتثر لما يحدثه الحاحه على اخيه من الضيق كي يشبع اشواقا تشغل
بخياله في مثل هذه الساعة من كل يوم ، ولكن ما اسرع ان يشغل عنه
ياسين بالحديث او بالاستغراق في المطالعة متفضلا عليه بين حين وآخر
- كلما اشد الحاحه بكلمات مقتضية ان وجد بها الجواب على بعض
اسئلته فما احرى أن تستثير اسئلة جديدة لأ جواب لها عنده ، ثم
لا يفتأ يرمق اخاه وهو آخذ في المطالعة التي تبيح له مفتاح العالم
السحري بعين الحسد والحزن ، رقكم حز في نفسه عجزه عن قراءة القصة
التي يسهل حل رموزها فالولوج منها الى دنيا الرؤى والأحلام ، فقد وجد
في هذا الجانب من ياسين مثارا لخياله هيا له من الوان المسرة ما هيا ،
وهيج من اسباب انظما وعدايه ما هيج . وكثيرا ما كان يرفع عينييه
الى اخيه ويسأله في لهفة « وماذا حدث بعد ذلك ؟ » فينفخ الشاب
قائلا : « لا تضيق على باسئلتك ولا تتعجل حظك فان لم اقص عليك
اليوم فعدا » ولم يكن يحزنه شيء كاستنظاره للغد حتى اقترنت لفظة
الغد في ذهنه بالحسرة ، ولم يكن نادرا ان يتحول الى امه بعد تفرق
الجلس وبه أمل أن تقص عليه ما « حدث بعد ذلك » ولكن المرأة كانت

تجهل قصة اليتيمة وغيرها مما يقرأ ياسين الا انها يعز عليها ان ترده خائبا فتروى له ما تحفظ من حكايات اللصوص والعفاريت فيزوغ خياله اليها رويدا ظافرا بزاد من العزاء . في مجلس القهوة ذاك لم يكن عجيبا أن يشعر بأنه ضائع مهمل بين أهله ، لا يكاد يلتفت اليه أحد ، وأنهم مشغولون عنه بأحاديثهم التي لا تنتهى ، فلم يتورع عن الاختلاق في سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو الى حين ، ولذلك رمى بنفسه في مجرى الحديث معترضا تياره بجرأة وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القديفة كأنما تذكر أمرا خطيرا بغتة :

— ياله من منظر لا ينسى الذي رأيته اليوم وأنا عائد !.. رأيت غلاما يثب الى سلم سوارس ثم صفع الكمسارى وركض بأكبر سرعة فما كان من الرجل الا أن عدا وراءه حتى أدركه ثم ركله في بطنه بكل قوته .. وقلب عينيه في الوجوه ليرى اثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام ولس اعراضا عن خبره المثير وتصميما على مواصلة الحديث ، بل رأى يد عائشة تمتد الى ذقن أمه وتحولها عنه بعد أن همت بالأصغاء اليه ، ولمح الى هذا الابتسامة هازئة ترتسم على شفתי ياسين الذي لم يرفع رأسه عن الكتاب ، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع :

— وسقط الفلام يتلوى وازدحم حوله الناس فاذا به قد فارق الحياة ..

وأبعدت الأم الفئجان عن فمها وهتفت :

— يا ولداه !.. اتقول أنه مات ؟

وسر باهتمامها وركز قوته فيها كما يركز المهاجم اليأس قوته في نقطة ضعيفة من سور منيع فقال :

— أجل مات ، ورأيت بعيني دمه وهو يسيل بغزارة !.. وحده فهمى بنظرة ساحرة كأنها تقول له : « أنى أذكر لك أكثر من قصة من هذا النوع » وقال متسائلا في تهكم :

— قلت أن الكمسارى ركله في بطنه ؟.. فمن أين سال الدم !؟ وانطفأت شعلة الظفر التي تلالأت في عينيه مذ جلب أمه اليه ، وحل محلها سهوم الارتباك والحنق ، ولكن أسعفه الخيال فاستردت نظره عينيه حيويتها وقال :

— لما ركله في بطنه سقط على وجهه فثبج رأسه !

وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن اليتيمة :

— أو أن الدم سال من فيه ، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة الى

جرح ظاهري « هنالك أكثر من تفسير لحبرك المكذوب - كالعادة - فلا تخف ...

والاحتج كمال على تكذيب أخيه وراح يطلف بأغلف الإيمان على صدقه ولكن احتجاجه ضاع في ضجة من الضحك جمعت القليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء في هارموني واحدة ، وتحركت طبيعة خديجة الساخرة فقالت :

- ما أكثر ضحاياك ، لو صدقت فيما تروى من أخبار لما أبقيت على أحد من أهل النحاسين حيا ..

ماذا تقول لربنا لو حاسبك على أخبارك هذه ؟!
ووجد في خديجة مهاجماً يقدر عليه ، وكعادته كلما ارتطم بسخريتها راح يعرض بأنفها قائلاً :

- أقول له أن الحق على منخور أختي .. !

فقالت الفتاة وهي تضحك :

- من بعض ما عندكم ، السنأ في البلوى سواء !

وهنا قال ياسين مرة أخرى :

- صدقت يا اختاه ..

وتحولت إليه متحفرة للانقضاء فبادرها قائلاً :

- هل أغضبتك ! .. لماذا ! .. ليس إلا أنني جاهرت بالموافقة

على رأيك ...

فقالت له حائقة :

- اذكر عيوبك قبل أن تعرض بعيوب الناس ..

فرفع حاجبيه متظاهراً بالحيرة ثم قتم :

- والله أن أكبر عيب ليهون إلى جانب هذا الألف ..

وتظاهر فهمي بالاستنكار ثم تساءل في نبرات وشت بانضمامه إلى المهاجمين :

- ماذا قلت يا أخي « أهو ألف أم جريمة ؟

ولما كان فهمي لا يشترك في مثل هذا النضال إلا نادراً فقد رحب

ياسين بقوله في حماس وقال :

- هو الاثنان معاً ، فكر في المسؤولية الجنائية التي سيتحملها من يقدم

نذه العروس إلى عريسها المنكود !

وقهقه كمال ضاحكاً بصوت كالصغير المتقطع ولم ترتج الأم إلى وقوع

ابنتها بين كثرة من المهاجمين فأرادت ان ترجع الحديث الى اصله وقالت بهدوء :

— خرج بكم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث ، كان حديثنا عن السيد كمال اصدق في اخباره ام لم يصدق ، ولكن اظن انه لا داعى الى الشك في صدقه بعد ان حلف .. أجل كمال لا يحلف كذبا ابدا ...

وباخ سرور الغلام الانتقامى لتوه ، ومع ان أخوته واصلوا المزاح حينما آخر الا انه انقطع عنهم بروحه ، متبذلا مع امه نظرة ذات معنى ، تم خاليا بنفسه متفكرا فى قلق وكدر . كان يدرك خطورة الحلف الكاذب فيما يتبر من سخط الله وأوليائه ، ويعز عليه جدا أن يحلف كذبا بالحسين خاصة لولاه به ، ولكنه كثيرا ما وجد نفسه فى مأزق حرج — كما وجد اليوم — لا مخرج منه فى نظره الا بالخلف الكاذب ، فينساق وهو لا يدري الى التورط فيه . بيد أنه لم يكن ينجو ، خاصة اذا ذكر بجريرته ، من الهم والقلق ، ويود لو يقتلع الماضى السيئ من جذوره ، وان يبدأ صفحة جديدة نظيفة ، وذكر الحسين ، وموقفه عند أصل مثلثته حيث تتراءى وكأن هامتها تتصل بالساء ، وساله فى ضراعة أن يعفو عن زلته وهو يشعر بفضاضة من اجترأ على حبيب باساءة لا تغفر . وغرق فى توسلاته مليا ثم أخذ يفيق الى ما حوله ويفتح اذنيه الى ما يدور من حديث فيه المعاد وفيه الجديد ، وقليل منه ما يسترعى انتباهه ، ولكنه لا يكاد يخلو من ترديد ذكريات منتزعة من ماضى الأسرة البعيد أو القريب له وانهاء مما يجرى عن مسرات الجيران وأحزانهم ، ومواقف حرجة للأخوين ، أمام أبيهما الجبار تنبرى خديجة الى استعادة وصفها وتحليلها على سبيل الفكاهة أو الشامة ، ومن هذه وتلك تمت للغلام معرفة تبلورت فى مخيلته على صورة غريبة تأثر تكوينها غاية التأثير بما تجاذب طرفيه من روح خديجة التهجمية العيابة وروح أمه السمجة العفوة . وانتبه أخيرا الى فهمى وهو يقول مخاطبا ياسين :

— أن هجوم هندنبرج الأخير شديد الخطورة ولا يبعد أن يكون الهجوم الفاصل فى هذه الحرب .

وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولكن فى هدوء متسم بقلة الاكتراث ، تمنى مثله أن ينتصر الإنسان وبالتالي الترك وإن تسترد الخلافة سابق عزتها ، وأن يعود عباس ومحمد فريد الى الوطن ولكن أمنية من هذه الامانى لم تكن لتشغل قلبه فى غير أوقات الحديث عنها ، وقد قال وهو بهز رأسه :

— مضى أربع سنوات ونحن نردد هذا الكلام ..
 فقال فهمى برجاء واشفاق :
 — لكل حرب نهاية ، ولا بد أن تنتهى هذه الحرب ، ولا اظن الالمان
 يهزمون ! ..
 — هذا ما ندعو الله أن يتحقق ، ولكن ماذا يكون رايك لو وجدنا الالمان
 كما يصفهم الانجليز ؟!
 ولما كانت المعارضة تشعل حدثه فقد علا صوته وهو يقول :
 — الهم أن نتخلص من كابوس الانجليز ، وأن تعود الخلافة الى سابق
 عظمتها فنجد طريقنا ممهدا ..
 وتدخلت خديجة فى الحديث متسائلة :
 — لماذا تحبون الالمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقى قنابله علينا .. !
 وراح فهمى يؤكد — كما دأبه — أن الالمان قصدوا الانجليز بقنابلهم لا
 المصريين ، فانتقل الحديث الى مناطيد زبلن وما يقال عن ضخامتها وسرعتها
 وخطورتها ، حتى استوى ياسين فى جلسته ونهض الى حجرته ليرتدى
 ملابسه تمهيدا لمغادرة البيت الى سهرته المعتادة ، وعاد بعد فترة وجيزة
 وقد تهيأ واخذ زينته ، فترأى اثيق الملبس ، جميل المظهر ، وبدأ بجسمه
 الضخم وفحولته الناضجة وشاربه النبات اكبر من سنه كثيرا ، ثم حياهم
 وانصرف وشيعة كمال بنظره ثم عما يفيضه عليه من التمتع بحريته فى
 الطلاق ، سألهم فلم يغيب عنه أن اخاه لم يعد يحاسب — منذ تعيينه
 كاتبا بمدرسة النحاسين — على ذهابه أو ايباه ، وأنه يسهر كما يشاء
 ويعود حين يشاء ، ما أجمل هذا وأسعده ، وكما يكون انسانا سعيدا لو
 ذهب وجاء كما يحب ، ومد سهرته الى حين يشاء ، وقصر القراءة — حين
 تتم له ادائها — على الروايات والأشعار ، ثم سأل أمه فجأة :
 — أيمكننى اذا وظفت أن أسهر فى الخارج كياسين ؟
 وابتمت الأم قائلة :
 — ليس السهر فى الخارج بالغاية التى يضح أن تحلم أبها من الآن !
 فصاح محتجا :
 — ولكن أبى يسهر ، وياسين يسهر كذلك
 فرفعت الأم حاجبيها ارتباكاً وتمتمت :
 — شد حيلك أولا حتى تصير رجلا ثم موظفا ، ووقتها يفرجها ربنا !
 ولكن كمال بدا متعجلا فتساءل :

- ٥٣ -

- ولماذا لا أتوظف بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام ؟
وصلحت خديجة في سخرية :
- تتوظف دون الرابعة عشرة !.. وماذا تصنع اذا بليت على نفسك
في الوظيفة ؟ !

وقبل أن يعلن ثورته على أخته قال له فهمى بازدرأ :
- يالك من حمار .. لماذا لا تفكر في دخول الحقوق مثلى ؟ ... ان
ظروف ياسين القاهرة هي التي جعلته يأخذ الابتدائية في العشرين من
عمره ، ولولاها لاتم تعليمه .. الا تدرى حتى كيف تمنى يا كسول !

- ١٠ -

عندما صعد فهمى وكمال الى سطح البيت كانت الشمس على وشك
الاختفاء ، فلاحق قرصا ابيض مسالما تولت عنه حيويته وبردت حرارته
وانطفأ توهجه ، وقد بدا بستان السطح المسقوف بالبلاط والياسمين في
ظلمة وانية ، ولكن الشاب والغلام مضيا الى شطر السطح الآخر حيث
لا يحجب قلول النور حجاب ، ثم مالا الى السور الملاصق لسور السطح
المجاور ، سطح الجيران . وكان فهمى يرقى بكمال الى هذا الموضع كل
مغيب بحجة مراجعة دروسه في الهواء الطلق على الرغم من أن جو نوفمبر
أخذ يميل الى البرودة خاصة في هذه الساعة من اليوم ، وأوقف الغلام
بحيث جعل ظهره الى السور ، ووقف هو لقاءه بحيث أمكنه أن يمد بصره
الى سطح الجيران الملاصق دون تلفت كلما بدا له . وهناك بين حبال
الفسيل لاحت فتاة - شابة في العشرين أو نحو ذلك - وقد انهمكت في
جمع قطع الثياب الجافة وتكديسها في سلة كبيرة ، ومع أن كمال راح
يتكلم بصوت مرتفع كعادته الا انها واصلت عملها وكأنها لم تنبته الى مجيء
الطلّائين . أمل كان يجيء به دواما في مثل هذه الساعة لعله يفوز منها
بنظرة اذا اتفق ودعاها الى السطح بعض شأنها ، ولم يكن بتحقيقه
يسرا كما دل توردد وجهه الناطق بفرط سروره ، وخفقان قلبه المتتابع
ببهجة المفاجأة ، فجعل ينصت الى أخيه الصغير بعقل ثائه وعينين اقلقهما
استراق النظر ، وهي تتراعى تارة وتحتجب أخرى ، أو يبدو بعضها
ويغيب بعضها ، كيفما اتفق موقفها من الثياب والملاءات المنشورة ..
كانت فتاة متوسطة القامة صافية البشرة مع ميل الى البياض ، سوداء
العينين . تنطق مقلتها بنظرة نفيض حياة وخفة وحرارة ، الا ان جمالها

وعاطفته المتوثبة واحساسه بالظفر لرؤيتها لم تستطع ان تمحو القلق الذى يدب وراء قلبه - وانيا حين حضورها ثم قويا اذا خلا الى نفسه - لجراتها على التعرض لعينييه كأنه ليس بالرجل الذى ينبغى ان تتوارى فتاة مثلها عن عينييه ، او كأنها فناة لا تبالى التعرض للرجال ، وطالما ساءل نفسه ما بالها لاتفرع مولية كخديجة او عائشة لو وجدت احدهما نفسها فى مثل موقفها ! وائى روح عجيب يشد بها عن التقاليد المرعية والاداب المقدسة ! ، والا يكون أهذا جانباً لو بدا منها ذاك الاحتشام المفتقد ولو على حساب سروره الذى يفوق الوصف برؤيتها ؟ ! . . بيد انه داب على انتحال الاعدار لها من قدم الجوار ووحدة النشأة ، وربما الوداد ايضا . ثم لا يفئا وراء نفسه بحاورها ويجادلها حتى تخشع وتبرضى ، ولما لم يكن جريئاً كجراتها فقد جعل يختلس من الاسطح المجاورة النظر ليطمئن الى خلوها من الرقيب لأنه لم يكن مما يغض الطرف عنه ان يجرح شاب فى الثامنة عشرة حرمة الجيران ، وخاصة من كان منهم فى طيبة جارهم السيد محمد رضوان ولهذا اقلقه دائماً شعوره بخطورة فعلته ، وخوفه من ان يترامى نبأها الى أبيه فتكون الطامة . ولكن استهانة الحب بالمخاوف عجب قديم فلم يقدر شئ منها على افساد نشوته او انتزاعه من حلم ساعته ، فمضى يراقبها وهى تبدو او تختفى حتى خلا ما بينه وبينها وباتت تواجهه ويدأبها الصغيران ترتفعان وتنخفضان واصابعها تنقبض وتنسبط على مهل وتؤدة كأنها تتعمد اطالة عملها وحديث قلبه ذاك التعمد وهو بين الشك والتمنى ولكنه لم يقتصد فى الانطلاق مع فرحته الى ابعد الافاق حتى استحال باطنه رقصاً وانغاماً ، ومع أنها لم ترفع عينيها اليه قط الا أن هيئتها وتورد وجنتيها وتحاميها النظر اليه تمت جميعاً عن نسبة احساسها بوجوده او انعكاس وجوده على احساسها . وبدت فى هذوئها وصمتها موفورة الرزاة كأنها ليست هى التى تشيع الفرح والبهجة فى بيته اذا زارت شقيقتيه ، او ليست هى التى يعلو صوتها فى جنبات الدار وترن ضحكاتها ، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه فى يده استعداداً للتظاهر بالاستذكار اذا طرقة طارق ، ويروح يستقبل بوعبه المركز انغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من اصوات الآخرين الملبسة لها التى لا يكاد يشعر بها كأنما وعيه مغناطيسى يجذب اليه العسل وحده من بين اخلاط شتى ، وربما لحظ بعضاً منها وهو يعبر العساة ، وربما التقت عيناها فى لمحة خاطفة ولكنها كافية لاسكاره واذهاله كأنه تلقى بها رسالة خطيرة دارت رأسه بخطورتها ، وملاً بنظرانه المسترقة

من وجهها عينيه وروحه ، فعلى الرغم من أنها كانت نظرات مسترفة خاطفة الا أنها مستأثرة بروحه واحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة تاتى النظرة منها بما لا يستطيعه النظر الطويل والسبر العميق . كأنها انبثاق البرق الذى يتوهج لحظة قصيرة فتضىء شرارته الرحاب وتحاطف الأبصار ، وتمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولكنه لم يخل - كحالها أبدا - من ظل أسى يتبعه كما تتبع رياح الخمسين مشرق الربيع ، لأنه لم يكن يكف عن التفكير فى الأربعة الأعوام التى يتم تعليمه فيها ، وألتى لا يدرك كم من يد قد تمتد فى أنفائها الى الثمرة الناضجة لتقطفها . ولو كان جو البيت غير هذا الجو الخائى الذى تشد على عنقه قبضة أبيه الحديدية لأمكنه ان يلتمس الى سلام قلبه اقصر السبيل ، ولكنه خاف دائما ان ينفس عن آماله فيعرضها لجزرة من أبيه قاسية تطيرها وتبدها . وتساو وهو يمد بصره فوق رأس أخيه ترى أى أفكار تدور برأسها ؟ . الا يشغله حقا الا ما تجمع من قطع الملابس !.. ألم تشعر بعد بما يجذبه الى موقفه هذا مساء بعد مساء ؟.. وكيف يلقى قلبها هذه الخطى الجريئة من ناحيته ؟.. وتخيل نفسه متخطيا سور السطح الى مكانها فى الظلام ، وتخيلها على اطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد ، وتارة تبافت بمقدمه حتى تهتم بالفرار ، ثم تصور ما يكون بعد ذلك ، وما يند عنه من بوح وشكوى وعتاب ، ثم ما قد يستتبعه هذا أو ذاك من عناق وقبل ، بيد أنها كانت محض تخيلات وأوهام ، وكان أدرك الناس - بما جبل عليه من دين وآداب - ببطلانها ومحالها . وبدا الموقف صامتا الا أنه كان صمتا مكهربا يكاد ينطق بغير لسان ، وحى كمال لاحت فى عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنه يسأل نفسه عن معنى هذا الجد الغريب الذى يثير استطلاعاه على غير جدوى ، ثم نفذ صبره فرفع صوته قائلا :

- لقد حفظت الكلمات . الا تسمعها لى ؟

وأفاق فهمى على صوته فتناول الكراسة منه ومضى يسأله عن معانى الكلمات والآخر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سببا وأى سبب فرفع صوته عمدا وهو يسأله عن معناها قائلا :

- قلب .. ؟

وأجاب الغلام وتهجى والآخر يتلمس اثر موقع الكلمة من وجهها ، ثم رفع صوته مرة أخرى متسائلا :

- حب ... ؟

وأرتبك كمال قليلا ثم قال بصوت يدل على الاعتراض :

— ليست هذه الكلمة في الكراسة ..

فقال فهمى بإسما :

— ولكنى ذكرت لك مرارا ، وكان يجب ان تحفظها !..

وقطب الفلام كأنه يشد قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة ولكن أخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلا :

— زواج .. ؟

وخيل اليه عند ذلك انه لمح على شفيتها شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه في سرعة وحرارة ، وملاه شعور بالظفر لأنه أمكنه أخيرا ان ينقل اليها شحنة من الكهرباء التى تسنعر في صدره ، بيد أنه تساءل لماذا ياترى لم تفصح عن تأثيرها الا عند هذه الكلمة ، لأنها استنكرت سابقتها أم ان الأخيرة كانت أول ما وعت إذناها ؟!.. وما يذرى الا وكمال يقول محتجا بعد ان أعياه التذكر :

— هذه الكلمات صعبة جدا ..

وآمن قلبه بقولة أخيه البريئة ، وذكر على ضوءها حاله ففترت فوره سروره او كادت ، وهم بالكلام ولكنه رآها انحنت على السلة ثم حملتها واتجهت نحو السور الملاصق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضغط الغسيل براحتيها ، قريبة من موقفه لا يفصلها عنه الا ذراعان ، ولو شاءت لاختارت موقعا آخر من السور ولكن كأنها تعمدت ان تتصدى له وجها لوجه ، فبدت في هجومها جريئة لحد أخافه وأربكه ، وأن عاود قلبه الخفقان السريع الحار حتى شعر بأن الحياة تبسح له من كنوزها لونا جديدا لم يدره ، لطيفا بهيجا مفعما بهوية وافراحا . ولكن وقفها القريبه لم تطل فما لبثت ان رفست السلة بين يديها واستدارت مولية صوب باب السطح حتى مرفت منه وغابت عن ناظره . وجعل ينظر الى الباب مليا دون مبالاة بأخيه الذى عاود التشكى من صعوبة الكلمة ثم شعر برغبة في الانفراد لتملى ما استجد له من تجارب الهوى فقلب عينيه في الفضاء في تظاهر بالدهشة كأنما يتنبه الى الظلمة الزاحفة في الأفق لأول مرة ، وتمتم قائلا :

— آن لنا ان نعود ..

وكان كمال يستذكر دروسه في الصلاة ، تاركا حجرة الاستذكار لفهمي وحده ، ليكون غير بعيد عن مجلس أمه واختيه . وكان ذلك المجلس امتدادا لمجلس القهوة الا أنه يقتصر على النسوة وحديثهن الخاص الذي يجدن فيه على تفاهته متعة لا تدانيها متعة ، وقد جلسن كمادتهن متلاصقات كأنهن جسم واحد ذو رؤوس ثلاثة في حين تربح كمال على كنبه أخرى قبالتهن فاتحا كتابه في حجره يقرأ فيه حيناً ، ويغمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب حيناً آخر ، ويتسلى بين هذا وذاك بالنظر اليهن والاصغاء لحديثهن . ولم يكن فهمي يوافق على استذكاره لدروسه بعيداً عن مراقبته الا على كره ولكن تفوق الغلام في المدرسة شفع له في اختيار المكان الذي يحب أن يستذكر فيه . والحق كان اجتهاده فضيلته الوحيدة التي تجمد له ، ولولا شقاوته لاستحق عليها تشجيع ابيه نفسه ، ولكنه على اجتهاده وتفوقه كانت تلم به ساعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتى ليغبط أمه واختيه على خلو بالهن وما يحظين به من راحة وسلام ، وربما تمنى فيما بينه وبين نفسه لو كان حظ الذكور في هذه الدنيا كحظ النساء الا انها كانت ساعات عابرة فلم تستطع أن تنسيه ما يتمتع به من مزايا دعته في احيان كثيرة الى التناول عليهن بالفخر والمباهاة لداع ولغير ما داع فلم يكن من النادر أن يسألهن وفي صوته رنة التحدي « من منكن تعرف عاصمة الكاب ؟ » أو « ما معنى شاب بالانجليزية ؟ » فيجد من عائشة صمتاً لطيفاً عنى حين تقر له خديجة بجهلها ثم تعرض به قائلة « ليس لهذه الطلام الا من كان له رأس كراسك ! » أما أمه فتقول له في ايمان ساذج « لو علمتني هذه الأشياء كما تعلمنى الديانة لما قصرت فيها دونك » . ذلك أن أمه - على استكانتها ورقتها - كانت شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبية المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القدم ، ولم تكن تظن أنها بحاجة الى مزيد من العلم أو أنه استجد من العلم ما يستحق أن يضاف الى ما لديها من معارف دينية وتاريخية وطبية ، وضاعف من ايمانها بعلمها أنها تلقته عن أبيها أو في بيته الذي نشأت فيه ، وكان الأب شيخاً من العلماء الذين فضلهم الله - لحفظهم القرآن - على العالمين « فلم يكن معقولاً أن تعدل بعلمه علماً ولو لم تجهر برايتها ايثارا للسلامة . ولهذا

كثيرا ما أساءت الظن ببعض ما يقال للأبناء في المدارس ووجدت ثمة حيرة شديدة سواء في تفسيره أو في السماح بتلقيه للناشئين . بيد أنها لم تعثر باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام في المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها ، ولما كان الدرس المدرسي لا يكاد يتسع الا لقراءة السور وتفسيرها وتبيين المبادئ الدينية الأولية فقد وجدت متسعا لقص ما عندها من اساطير لا تنفصل في اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلها رأت فيها دائما حقيقة الدين وجوهره ، وجلها معجزات وكرامات عن النبي والصحابة والاولياء ، وتعاوיד شتى للوقاية من العفاريت والزواحف والأمراض فصدقها افلام وآمن بها ، لأنها صادرة عن أمه من ناحية ، ولأنها جديدة في موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينية المدرسية من ناحية أخرى . فضلا عن هذا وذاك فلم تكن عقلية مدرس الديانة كما تتكشف في تبسطه في الحديث أحيانا - لتختلف عن عقلية أمه كثيرا أو قليلا ، ثم انه شغف بالاساطير شغفا لم يظفر بمثله في الدروس الجافة فكان درس أمه من اسعد ساعات اليوم وأحفلها بالمتعة والخيال . أما فيما عدا الدين فلم يكن النزاع نادرا اذا تهيأت اسبابه ، من ذلك انهما اختلفا مرة عن الأرض وهل هي تدور حول نفسها في الفضاء أو تنهض على رأس ثور ، ولما وجدت من الفلام اصرارا تراجعت مظهرها بالتسلیم ، ولكنها تسلفت الى حجرة فهمى وسألته عن حقيقة الثور الذي يحمل الأرض وهل ما زال على عهده بحملها . ورأى الشاب أن يترفق بها ويحييها باللغة التي تحبها فقال لها ان الأرض مرفوعة بقدره الله وحكمته ، وعادت المرأة قانعة بهذا الجواب الذي سرها وان لم يمح من تخيلتها ذاك الثور الكبير . على أن كمال لم يؤثر هذا المجلس لاستدكاره رغبة منه في الفخر بعلمه أو حبا في النزاع الفكري ، كان في الحق يحب بكل قلبه الا يفارقهن ولو في وقت عمله ، وكان يجد لأمرهن سرورا لا يعادله سروره فهذه الأم محبها أكثر من أى شيء في الدنيا ولا يحتمل تصور الوجود بدونها لحظة واحدة ، وهذه خديجة وهى تلعب في حياته دور أم أخرى رغم سلاطة لسانها ووخز مزاحها ، وهذه عائشة التي وان لم تتحمس بوما لخدمة انسان الا أنها أحبته حبا عظيما فبادلها حبا بحب حتى كان لا يشرب جرعة الماء من القلة الا اذا دعاها للشرب قبله ليضع شفثيه موضع شفثيها المبتل بريقها . ومضت الجلسة كما تمضى كل ليلة حتى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودعتا. امهما وذهبتا الى حجرة نومهما ، وعند ذاك عجل الغلام بقراءة

درسه حتى فرغ منه ثم تناول كتاب الديانة وانتقل الى جانب امه على
الكنبة المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينم عن الاغراء :

— استمعنا اليوم الى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدا .
فاستوت المرأة في جلستها وهى تقول باحترام واجلال :
— كلام ربنا عظيم كله . .

وسره اهتمامها وهزه شعور بالفبطة والعزة لا يجده الا حين هذا
الدرس الأخير من اليوم . أجل كان يجد في هذا الدرس الدينى أكثر من
سبب للسعادة ، فانه يقوم في اثناء نصفه على الأقل بدور المدرس ،
ويحاول ما استطاع أن يستعيد ما يعلق بذاكرته من هيئة مدرسه
وحركاته وما يتمثله فيه من احساس بالاستعلاء والقوة ، وانه يستمتع
في نصفه الآخر بما تلقى عليه امه من ذكريات واساطير ، وأنه يستأثر
وحده في شطريه بأمه دون شريك . ونظر كمال في الكتاب فيما يشبه
الادلال ثم قرأ « بسم الله الرحمن الرحيم . قل أوحى الى أنه استمع
نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشده فأمننا به
ولن نشرك بربنا أحدا » حتى اتم السورة ولاح في عينى الأم التردد
والحيرة ، اذ كانت تحلده من التفوه باسمى العفريت والجن درءا لشور
تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض اشفاقا ومبالغة في
الحيطة ، فلم تدر كيف تتصرف وهو يتلو احد الاسمين الخطيرين في
سورة شريفة ، بل لم تدر كيف تحول بينه وبين حفظها او ماذا تفعل
لو دعاها كالمعتاد الى حفظها معه . وقرأ الفلام في وجهها هذه الحيرة
فداخله سرور ماكر ، وجعل يبدأ ويعيد ضاغطا على نخرج الاسم الخطير
وهو يلحظ حيرتها منوقعا أن تفصح أخيرا عن اشفاقها في لون من
ألوان الاعتذار ، ولكنها على شديد حيرتها لاذت بالصمت ، فمضى يعيد
عليها التفسير كما سمعه حتى قال :

— ها أنت ترين أن من الجن من استمع الى القرآن وآمن به ، فلعل
سكان بيتنا من هؤلاء الجن المسلمين والا ما أبقوا علينا طوال هذا العمر
فقلت المرأة في شيء من الضيق :

— لعلهم . . ولكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم ، فيحسن بنا الا
نردد أسماءهم . . !

— لا خوف من ترديد الاسم . . هكذا قال مدرسنا . . .

فحدجته المرأة بنظرة عتاب وقالت :

— المدرس لا يعرف كل شيء !

- وان كان الاسم ضمن آية شريفة ؟
 وشعرت حيال تساؤله بقهر ولكنها لم تجد بدا من أن تقول :
 - كلام ربنا بركة كله ..
 واقتنع كمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عن التفسير قائلا :
 - ويقول شيخنا أيضا أن أجسامهم من نار !
 وبلغ بها القلق غايته فاستعازت بالله وبسملت عدة مرات اما كمال
 فاستطرد قائلا :
 - وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته
 مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار فأجابني بحدة قائلا ان الله
 قادر على كل شيء ..
 - جلّت قدرته ..
 فرنا اليها باهتمام ثم تساءل :
 - واذا التقينا بهم في الجنة الا تحرقنا نارهم ؟!
 فابتسمت المرأة وقالت في ثقة وإيمان :
 - ليس فيها أذى او خوف ..
 وسرح الفلام بعينيه حالما واذا به يسأل مغيرا مجرى الحديث فجأة :
 - أنرى الله في الآخرة بأعيننا ؟
 فقالت المرأة بنفس الثقة والإيمان :
 - هذا حق لا ريب فيه ..
 فلاححت في نظراته الجملة أسواق كما تلوح في الفلّس بتأثير الضياء ،
 وسألت نفسه متى يرى الله ، وفي أى صورة يتبدى ، واذا به يسأل أمه
 مغيرا مجرى الحديث فجأة مرة أخرى :
 - أ يخاف أبى الله ؟!
 فتولتها الدهشة وقالت في انكار :
 - يا له من سؤال غريب !.. أبوك رجل مؤمن يا بنى ، والمؤمن
 يخاف ربه ..
 فhez رأسه في حيرة وقال بصوت خفيض :
 - لا أتصور أن أبى يخاف شيئا ..
 فهتفت المرأة في عتاب :
 - ساحك الله .. ساحك الله ..
 واعتذر عن قوله بابتسامة رقيقة ، ثم دماها الى حفظ السورة
 الجديدة ، وراحا يتلوانها آية آية ويعيدان . ولما استفرغا جهدهما نهض

الفلام ليذهب الى حجرة النوم فتبعته حتى اندس تحت الفطاء على فراشه الصغير ، ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسي ، وانحنت فوقه وطبعت قبلة على خده فأحاط عنقها بذراعه ورد بقبلة طويلة صادرة من أعماق قلبه الصغير . وكانت تلقى دائما صعوبة في التخلص منه عند توديعه مساء لأنه كان يبذل كل حيلته ليستبقياها الى جانبه أطول مدة ممكنة ان لم يفرّ باستيقائها حتى يغيب في نومه وهو بين ذراعيها ، ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيرا من أن يطلب اليها ان تتلو على رأسه - اذا ختمت آية الكرسي - سورة ثانية ثم ثالثة ، حتى اذا آنس منها ابتساما اعتلار توسل اليها معتلا بخوفه من وحدته في الحجرة أو بما يتراءى له من أحلام مزعجة لا تدفعها الا تلاوة طويلة للسور الشريفة ، وربما تمادى في تشبثه بها الى حد تصنع المرض ، غير واجد في تحايله هذا جورا ، بل رآه عن يقين ممارسة منقوصة لحق من حقوقه المقدسة التي هضمت أقطع الهضم يوم فصل عن أمه ظلما وعدوانا وحيء به الى هذا الفراش المفرد بحجرة أخويه . كم يذكر مع الحسرة عهدا غير بعيد من ماضيه حين مضطجعهما كان واحدا ، وحين ينام متوسدا ذراعيها وهي تسكب في أذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء ، وحين النوم يغشاها قبل رجوع أبيه من سهرته ، وينحسر عنه بعد نهوض الرجل الى الحمام ، فلم يكن يرى مع أمه ثالثا ، وكانت الدنيا له بلا شريك . ثم بقضاء أعمى لم يدر له حكمة فرقوا بينهما ، وتطلع اليها ليرى أثر نفيه في نفسها فما عجب إلا بتشجيعها الموحى بموافقتها وتهنئتها به قائلة « الآن صرت رجلا فمن حقاك ان يفرد لك فراش خاص » ، من قال أنه يسره أن يكون رجلا أو أنه يطمح الى أن يفرد له فراش خاص ؟ ومع أنه بلبل أول وسادة خاصة له بدمعه ، ومع أنه أندلر أمه بأنه لن يعفو عنها مدى الحياة ، الا أنه لم يجرؤ على التسلل الى مضجعه القديم لأنه كان يعلم ان وراء تلك الحركة الجائرة الغادرة تجثم ارادة أبيه التي لا ترد . ولشد ما حزن حتى رسبت عكارة الحزن في أحلامه ، ولشد ما حنق على أمه - لا لأنه لم يسعه ان يحنق على أبيه فحسب - ولكن لأنها كانت آخر من يتصور أن يخيب عنده الأمل ، بيد أنها عرفت كيف تسترضيه وترده الى الصفاء رويدا ودابت على الا تفارقه بادية الأمر حتى يوافيه النوم ، وجعلت تقول له « لم نفترق كما تزعم ، ألسنت ترانا معا ؟ وسنبقى دائما معا ، لن يفرق بيننا الا النوم الذي كان يفرق بيننا ونحن في فراش واحد » . والآن لم تعد

- ٦٢ -

تطفو على شمعوره حسرة مما تخلف عن تلك الذكرى « واستنام الى حياته الجديدة ، الا انه لم يكن يدعها تذهب حتى يستنفد الحيل لاستبقائها الى جانبه اطول مدة ممكنة ، وقد قبض على راحتها في حرص شديد كما يقبض الطفل على لعبته بين اطفال يتخاطفونها وراحت هى تتلو الآيات على راسه حتى غافله الكرى ، فودعته بابتسامة رقيقة وغادرت الحجرة واتجهت الى الحجرة النالية ففتحت بابها بخفة ونظرت صوب فراش لاح شبخه في جانبها الايمن وتساءلت فى رقة : « نعمتا ؟ » فجاءها صوت خديجة وهى تقول :

— كيف يتأتى لى النوم وشخير ست عائشة يملأ على الحجرة !
ثم سمع صوت عائشة وهى تقول فى نبرات ناعسة :
— ما سمع احد لى شخيرا قط ، ولكنها لا تدعنى انام بشرثرتها المتواصلة ..

فقالَت الأم فى عتاب :
— اين وصيتى لكما بأن تكفا عن هذركما وقت النوم !
وردت الباب وسارت الى حجرة الاستدكار فطرقت بابها بخفة ثم فتحت وأدخلت راسها وهى تقول باسمة :
— افى حاجة الى خدمة يا سيدى الصغير ؟
فرفع فهمى رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق الوجه بابتسامة لطيفة ، فردت الباب وابتعدت عنه وهى تدعو لفتاها بالفلاح وطول العمر ، ثم عبرت الصالة الى الدهليز الخارجى وارتقت السلم الى الدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيد ، وصوتها يسبقها تاليا الآيات ..

- ١٢ -

لما غادر ياسين البيت كان بدرى بطبيعة الحال وجهته التى يقصد مساء بعد مساء ولكنه بدا — كمادته دائما اذا مشى فى الطريق — وكأنه لا وجهة له . كان شأنه اذا سار ان يسير متمهلا فى « هوادة ورفق » ، مختالا فى عجب وزهو ، كأنه لا يغفل لحظة واحدة عن أنه صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفائض حيوية وفحولة ، وهذه الملابس الانيقة الاخذة حظها — واكثر — من العناية الى منشة عاجية لا تفارق يده صيفا او شتاء ، وطربوش طويل مائل مينة حتى يكاد يمس حاجبه

ومن عادته أيضا اذا سار أنه كان يرفع عينيه - دون رأسه - مستطلعا ما وراء النوافذ لعل وعسى ، قلم يكن يقطع طريقا حتى يشعر في نهايته بما يتسبب الدوار من كثره تحريك عينيه ، اذ كان ولعه بالتهام النسوة اللاتي يصادفنه داء لا شفاء منه ، فهو يتفحصهن مقبلات ويتبع عينيه أردافهن مدبرات ، ويظل في قلقلة كثور هائج حتى ينسى نفسه فلا يعود يتدبّر مداراة مقاصده ، الأمر الذى تنبه له مع الزمن عم حسنين الخلاق والحاج درويش بائع الفول والفولوى اللبان ويومى الشريتلى وأبو سريع صاحب المقلّى وغيرهم فمنهم من حمّله محمل الدعاية ومنهم من أخذه ماخلد الانتقاد لولا أن الجيرة ومنزلة السيد أحمد عبد الجواد شفعنا له بالاغفاء والتسامح . كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله ، فلم تدع له وقتا يسنريح فيه من استفزازها ، وشعر دائما بالسنتها تلهب حواسه ووجدانه ، وكأنها عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء ، بيد أنه عفريت لم يخعه أو يضيق به ، ولم يود الخلاص منه ، بل لعله رام منه المزيد . ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكا لطيفا حين اقترب الشاب من دكان أبيه ، هناك اغضى طرفه واستقامت مشيته ، وتحلى بأدب وحياء ، وحث خطاه لا يلوى على شيء ، ولما مر بباب الدكان التفت الى داخله فرأى خلقا كثيرين ولكنه التقى بعيني أبيه وهو جالس وراء مكتبه فأنحنى فى اجلال رافعا يده الى رأسه فى أدب ، فرد الرجل تحيته مبتسما ، ثم استأنف مسيره مسرورا بهذه الابتسامة كأنما حظى بنعمة نادرة المثال . والحق أن عنف أبيه المعهود ، ولو أنه اعتوره تغير ملموس منذ أن انخرط الفتى فى سلك موظفى الدولة إلا أنه لم يزل فى نظره نوعا من العنف اللطيف بالكياسة ، قلم يزايل الموظف خوفه القديم الذى ملأ قلبه وهو تلميذ ، ولم يفارقه شعوره بأنه ابن وأن الآخر الأب ، وما فتىء يتضاءل بمحضرة على ضخامته كأنما يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصاة . وما أن ابتعد عن دكان أبيه وصار بمنجى من عينيه حتى استرد خيلاءه وعادت عيناه الى اللبذبة غير مفرقة بين الهوائى وبائعات الدوم أو البرتقال ، اذ كان العفريت الذى يركبه مولعا بالنساء كافة ، متواضعا يستوى عنده الرفيع والوضع منهن فبائعات الدوم والبرتقال - على سبيل المثال - وإن شاهن الأرض التى يقتعدنها لونا وقذارة لا يخلين أحيانا من ميزة حسن ، كشدنين ناهدين أو عيينين نكحولتين وماذا يروم غير هذا ؟! . ثم اتجه صوب البصاغة ومنها الى الغورية ، ومال الى قهوة سى على على ناصية

الصناديقية ، وكانت شبه دكان متوسطة الحجم يفتح بابها على الصناديقية وتطل بكوة ذات قضبان على القورية وقد اصطفت بأركانها الأرائك . واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوة - مجلسه المختار منذ أسابيع - وطلب الشاي . جلس بحيث يوجه بصره في يسر ودون إثارة ظن الى الكوة ، ومنها يصعد كلما يشاء الى نافذة صغيرة في بيت على الجانب الآخر للطريق ، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التي لم يعن بالحكام اغلاق خصاصها ، ولا عجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة «العالمة» ولم تكن «العالمة» مطمحة فدون هذا مراحل من المجون عليه أن يجتازها في صبر واثانة ، ولكنه راح يرصد ظهور زنوبة العوادة ربيبة «العالمة» ونجمة تحتها اللامعة . وكانت فترة توظيفه بالحكومة عهدا حافلا بالذكريات جاءه بعد طول تقشف اجباري عاناه محاذرا في ظل أبيه الرهيب ، فانطلق من ثمة كالشلال يتحدر في مهاوى الازبكية على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قدفتهم عجلة الحرب الى القاهرة ، ثم ظهر في الميدان الاستراليون فاضطر الى التخلي عن مغاني اللعب فرارا من وحشيتهم وضافت به السبل فمضى يتقلب في أزقة جبه كالمجنون وأقصى ما يطمع فيه من لذة بائعة برتقال أو فجيرية ممن يقران الطالع ، حتى رأى يوما زنوبة فتبعها مذهولا الى موطنها ، ثم تعرض لها مرة بعد مرة ولا يكاد يظفر منها بما ييل صدره . كانت امرأة وكل امرأة عنده رغبة ، بيد أنها كانت الى هذا ذات حسن فهرسته ، وليس الحب لديه الا تلك الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهي اسمى ما عرف من ألوانه . وجعل يد بصره خلال القضبان الى النافذة الخالية في جزع وقلق انسياء نفسه فحسا الشاي الساخن دون أن ينتبه الى سخونته الا وهو يزدرده وراخ ينفخ متألما ، ثم أعاد القدح الى الصينية الصفراء مسترقا النظر الى السار الذي أزعجته أصواتهم المرتفعة كأنما هي المسئولة عن لسعته او أنها السبب في عدم ظهور زنوبة بالنافذة .. « ترى أين الملعونة ؟ .. » . اتعمد الاختفاء ! .. من المحقق إنها تعلم بوجودي هنا .. ولعلها رائني قادمة .. فاذا اصطنعت التدلل الى النهاية ألحقت هذا اليوم بأيامى المحرقة . وعاود استراق النظر الى الجلوس ليرى هل يلاحظه أحد منهم ولكنه وجدهم جميعا منهمكين في أحاديثهم التي لا تنتهى ، فداخله ارتياح وأرجع بصره الى الهدف المرموق ، بيد أنه اعترضت تيار أفكاره ذكريات عن متاعب اليوم التي صادفته في المدرسة اذ شك الناظر في أمانة متعهد اللحوم فقام بتحقيق اشتراك هو فيه بوصفه كاتب المدرسة ، ثم

بدا منه شيء من التراخي في عمله حمل الناظر على نهرد مما نفص عليه صفوه بقية اليوم وجعله يفكر في أن ينسكو الناظر إلى أبيه - وهما صديقان قديما - لولا خوفه أن يجد أباه أشد عليه من الناظر .. « اطر عنك هذه الأفكار السخيفة .. انتهينا من المدرسة والناظر عليهما اللعنة .. »

حسبى الآن ما الاقى من القارحة بنت القارحة التى تبخل علينا بنظرة « واذا بأحلام عارية تنثال على خياله » أحلام كثيرا ما تتمثل على مسرح أوهامه وهو يرنو إلى امرأة أو يستعيد ذكراها ، تخلفها عاطفة هوجاء تنزع عن الأجساد ، أغطيها وتجلوها عارية كما خلقها الله غير مستثنية جسده هو ، ثم تمضى في فنسوان من العبث لا عاصم لها ، ولكنه ما كاد يستنيم إلى هذه الأحلام حتى انتبه على صوت حوذى وهو يصيح على حمارة « يس » فرمى ببحره ناحية الصوت فرأى عربة كارو تقف أمام بيت العائلة . وتسائل ترى أجاءت العربية لتحمل أفراد التخت إلى فرح من الأفراح ؟ .. ونادى صبي القهوة ودفع إليه الحساب مناهبا لمغادرة المكان في أية لحظة إذا دعا داع . ومضت فترة انتظار وترقب ثم فتح باب البيت وبرزت امرأة من نسوة التخت وهى تجر رجلا أعمى مرتديا جلبابا ومعطفًا وعوينات سوداء ومتأبطا القانون ، وصعدت المرأة إلى العربية وتناولت القانون ثم أخذت بيد الأعمى ، وأعانته الحوذى من ناحية أخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين في مقدمة العربية . وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفا ، ثم ثلاثة متأبطة صرة ، وقد تبدى في ملاءتهن اللف سافرات ، كاسيات - بدلا من البراقع - بأقنعة من زواقي فاقع الألوان جعلهن بعرائس المولد أشبه . ثم ما هذا ! .. رأى ببصر شيق وقلب خافق العود وهو يبرز من الباب في جرابه الأحمر .. وأخيرا بدت زنوبة وقد انحسر طرف ملاءتها عند أعلى الرأس عن منسدل قرمزي ذى أهداب منمنمة ، لمعت تحته عينا سوداوان ضاحكتان تنفث نظرتهما لعبا وشيطنة . واقتربت من العربية ومدت يدها بالعود فتناولته امرأة ، ثم رفعت قدما إلى أعلى العجلة فاشرب ياسين بعنقه وهو يزرد ريقه فلمح ثنية الجورب معقودة فوق الركبة على الأديم بدا منه صفاء عذب خلال أهداب فستان يرتقالي .. « آه لو نفوس بى الأريكة فى الأرض مترا .. ربا .. » ان وجهها . أسمر ولكن لحمها المكنون أبيض .. أو شديد الميل للبياض .. فكيف يكون الورك ! .. وكيف يكون البطن ! .. البطن يا هوه .. » وثبتت زنوبة راحتها على سطح العربية وتحاملت عليهما حتى حطت ركبتها على حافة العربية ثم مضت تتحرك رويدا على أربع .. « يا لطيف

.. يا لطيف .. آه لو كنت على باب البيت .. او حتى فى دكان محمد الطرابيشى .. انظر الى ابن الكلب كيف يحملق فى الطاية بعينيه .. ما اجدر ان يسمى نفسه منذ اليوم محمد الفاتح .. يا لطيف .. يا منقذ .. واخذ ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربية ، وفتحت الملاءة وقبضت على طرفيها وجعلت تهزها بيديها هزات متتابعات كأنها طائر يخفق بجناحيه ، ثم لفتها حول جسمها لفة محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفصيله وبرزت - خاصة - عجيذة مدملجة رقراقة ، ثم جلست عند مؤخرة العربية فتكور ردفها تحت الضغط متبلورا ذات اليمين وذات اليسار فنعم الوسادة .. ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربية قد نحركت فتبعها متمهلا وهو يلهث ويصر على أسنانه من سدة الانفعال . وراحت العربية تسير سيرتها المتهمة المتراخية المتمايلة والنسوة على سطحها يتأرجحن معها مينة وبسرة فركز الشاب عينييه فى وسادة العوادة ، يذهب معها ويجيء حتى خالها بعد حين ترقص . وكانت الظلمة قد بدأت تغشى الطريق الضيق واخذت كثرة من الدكاكين تغلق ابوابها ، الى ان غالبية المارة كانت من جمهور العاملين العائدين الى بيوتهم منهوكى القوى فوجد ياسين بين الظلمة والجمهور المتعب متسعا لانعام النظر والأحلام فى امن ودعة .. « اللهم لاتجعل لهذا الطريق من نهاية » ولا اهذه الحركة الراقصة من ختام .. يالها من عجيذة سلطانية جمعت بين العجرفة واللطف يكاد البائس مثلى يحس بطراوتها وشدها معا بالنظر المجرد .. وهذا المفرق العجيب الذى يشطرها تكاد تنطق الملاءة عنده .. وما خفى كان اعظم .. انى أدرك الآن لماذا يصلى بعض الناس ركعتين قبل ان يبنى بعروسه .. اليسست هذه قبة ؟ .. بلى وتحت القبة شيخ .. وانى لمجدوب من مجاذيب هذا الشيخ . يا هود .. يا عدوى .. « ونحننجع والعربة تقترب من بوابة المتولى فالتفتت زوبة وراءها ورائه ، تم خيل اليه ، وهى تعيد رأسها ، أنه لمج على شفيتها بشير ابتسامة فدق قلبه فى عنف وسرت فى وجدانه سكرة سرور ملتهب . ومركت العربية من بوابة المتولى ثم مالت الى اليسار ، وهناك اضطر الشاب الى التوقف عن متابعتها لانه رآى عن كئيب معالم زينات وانوار وجمهورا مهللا فتراجع قليلا وبصره لا يفارق العوادة ، وجعل يراقبها بنهم وهى تنزل على الارض . وهى ترمى ناحيته بنظرة عابثة ، ثم وهى تتجه الى بيت العروس حتى واراها الباب فى ضجة من الرغاريد . وتنهد تنهدا حامية ، وافتت حيرة حائقة فبدا قلقلها كأنه لا يدرى أى وجهة يقصد .. « اعنة الله على

الاستراليين ! .. أين أنت يا ايزبكية لأبثك همى وأشجاني وأتزود منك بشيء من الصبر » .. ثم دار على عقبيه وهو يتمتم « الى العزاء الباقي .. الى كستاكى » ، وما كاد ينطق باسم البدال اليونانى حتى تندى رأسه حينما الى حمى الشراب .. كانت المرأة والخمر فى حياته متلازمتين متكاملتين ، ففى مجلس المرأة عاقر الخمر لأول مرة . ثم صارت بحكم العادة من مقومات نذته وبواعثها ، بيد أنه لم يتح لهما - المرأة والخمر - أن يتلازما دائما ، وخلت ليال كثيرات من النساء . فلم يجد بدا من أن يخفف لوعته بالشراب ، ويكرور الأيام واستحكام العادة بات وكأنه المولغ بالخمر لذاتها . وعاد من نفس الطريق الذى جاء منه . وقصد بدالة كستاكى عند رأس السكة الجديدة - حانوت كبير ظاهره بدالة وباطنه حانة بفصل بينهما باب صغير - ووقف عند مدخلها مختلطا بالزبائن ريثما ينفحص الطريق أن يكون أبوه هنا أو هناك ، ثم اتجه صوب الباب الصغير الداخلى ولكن ما كاد يتقدم خطوة حتى لمح فى طريقه رجلا واقفا أمام الميزان والجواحه كوستاكى نفسه يزن له لفة كبيرة ، فانجذب رأسه اليه بلا ارادة ، وسرعان ما اكفهر وجهه وسرت فى بدنه رجفة قاسية تقبض لها قلبه خوفا واشمئزازا . لم يكن فى مظهر الرجل ما يسبغ هذه العواطف العدائية ، كان فى الحلقة السادسة ، مرتديا جلبابا فضفاضا وعمامة ، وقد ابيض شاربه وعلاه الكبر والوداعة ، الا أن ياسين واصل سيره مضطربا كأنما يفر قبل أن تقع عليه عينا الرجل ، ودفع باب الحانة بشيء من القوة ثم دخل تكاد تميد به الأرض ..

ارتقى على أول مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى ساهما ، ثم دعا النادل وطلب دورق كونيالك بنبرات نمت على نفاد صبره . وكانت الحانة بالحجرة أشبه ، تدلى من سقفها فانوس كبير ، وصفت بجنباتها موائد خشبية وكراسى خيزران جلس اليها نفر من أهل البلد والعمال والأفندية ، وتوسط المكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من أصص القرنفل . من عجيب أنه لم ينس الرجل ، وأنه عرفه من النظرة الأولى « متى رآه آخر مرة ؟ .. لا يستطيع أن يحزم ، ولكن من المحقق أنه لم تقع عليه عيناه فى مدى اثنى عشرة سنة الا مرتين احدهما التى

زلزله الآن . وقد تغير الرجل ما في ذلك من شك فغدا سيخا هادىء
وقورا ! .. الا سحق الله المصادفة العمياء التى ألقت به في سبيلها .
والتوت شفتاد تقززا وامتعاضا وشعر بمرارة الهوان تجرى في ريقه .
ياله من هوان مذل ما يكاد يفيق من دواره القديم بالنعاء والعناد حتى
تردد اليه ذكرى من الذكريات المعتمة او مصادفة لعينة كالتى حدثت
اليوم فينقلب ذليلا منكسرا .. ضائعا . وعلى رغمه حملت عينا في
الماضى البغيض ، بقوة الهياج المنار في رأسه وقلبه ، فانشق الظلام عن
أشباح شائثة طالما ناولته كروز العذاب والكراهية ، فميز من بينها
دكان فاكهة يقوم على راس عطفة قصر الشوق ، وطالعه صورة غامضة
المعالم ، هى صورته وهو صبي . فراه وهو بحث خطواته المتقاربة الى
ذلك الدكان حيث استقبله ذلك الرجل ثم حملة قرطاسا مليئا بالبرتقال
والتفاح فتناوله مسرورا وعاد به الى المرأة التى بعثته وانتظرت . الى امه
دون غيرها وا اسفاه . وانعكست الذكرى على جبينه عبوسة حنق
وضيق . ثم استعادت تخيلنه صورة الرجل فتساءل جزعا ترى اكان
يعرفه لو وقعت عليه عيناه ؟ .. اكان يذكر فيه الصبى الصغير الذى
عرفه قديما ابنا لتلك المرأة ؟ .. وقرضته قشعريرة فزع فتخاذل جسمه
البادن الفارع وتضائل في حسه حتى استحال لا شيء . وجيء عند ذلك
بالدورق والقدرح نصب ونهل في نهم وعصبية متعجلا حظ الشاربين من
الانتعاش والنسيان . ولكن فجأة تراءى له من اعماق الماضى وجه امه فلم
يتمالك من أن يبصق . ايها يلعن : الحظ الذى جعلها امه أم جمالها
الذى شغف كثيرين حبا وأحاطه بالكوارث ؟! .. والحق انه لم يكن بوسعه
أن يغير أمرا مما قدر عليه ، ولم يكن بوسعه الا أن يدعن للقضاء الذى
هرس عزة نفسه ، أفليس من الظلم أن يكفر بعد ذلك عن حكم القضاء كانه
هو الجانى الأثيم ؟! . ولم يدر لم استحق اللعنة ، فالأطفال الذين
استقبلوا الدنيا في حضانة أمهات مطلقات مثله غير قليلين ، وعلى خلاف
اكثرهم وجد من امه حنانا غير مشوب وحبا لا يعرف الحدود وتدلبيلا
سابقا لا تشكمه رقابة أب فتمتع بطفولة سعيدة قوامها الحب واللين
والدمائة . ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم
بقصر الشوق ، كسطحه الذى يشرف على اسطح لا عداد لها ويرى مآذن
وقبابا من نواحيه الأربع ، ومشربيته التى تغل على الجمالية حيث تمر ليلة
بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفتوات فيتجلى
اكثرها عن معارك تشتجر فيها النبابت وتسيل الدماء . في ذلك البيت

أحب أمه حبا لا مزيد عليه وفيه شاعت في قلبه روح الريبة الغامضة ، وفيه رمى الى صدره بالبلدرة الأولى لنفور غريب - نفور ابن من أمه - التي قدر لها أن تنمو وتستفحل حتى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء العضال . وكثيرا ما قال لنفسه انه ربما كان في وسع الإرادة القوية أن تتيج لنا أكثر من مستقبل واحد ولكننا ان يكون لنا - مهما أوتينا من ارادة - الا ماض واحد لا مفر منه ولا مهرب . والآن ينساعل - كما تساعل من قبل كثيرا - متى فطن الى أن أمه لم تكن الشخص الوحيد في حياته؟! . بعيد جدا أن يعرف هذا على وجه اليقين . وما يذكر الا أنه في فترة ما من طفولته دعمت حواسه شخصا جديدا كان يطرأ على البيت من حين لآخر ، ولعله - ياسين - كان يتطلع اليه بغرابة وشيء من الخوف . ولعل الآخر بذل ما في وسعه ليناسه وارضائه : انه يخلق في الماضي على استكراه ونفور شديدين ، ولكنه وجد المقاومة لا تجدى ، كأنما ذاك الماضي دمل بود لو يتجاهله على حين لا تمسك يده عن جسده من أن لآخر . ثم ان هنالك امورا لا يمكن ان تنسى . . ففي مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت أعلى نافذة أو باب مطعم بمثلثات من الزجاج الأزرق والأحمر . . في ذاك المكان يذكر انه اطلع فجأة - في ظروف قرضها النسيان - على ذلك الشخص الطارئ وهو كانه يفترس أمه ، فما تمالك أن صرخ من أعماق قلبه وولول باكيا حتى اقبلت المرأة عليه في اضطراب باد وراحت تطيب خاطره وتسكن ثأره . وانقطعت من شدة الامتعاض عند ذاك سلسلة خواطره فقاب عينيه فيما حوله واجما ، ثم صب من الدورق في القدح وشرب ، وقد لمح وهو يعيد القدح الى موضعه نقطة من سائل منداحة فوق طرف جاكته فظنها خمرا وأخرج مندبيله وأنشأ يدلكها ، ثم خطر له خاطر فتفحص ظاهر القدح فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجح عنده أن ما سقط على سترته ماء لا خمر واسترد طمأنينته ، . . ولكن أي طمأنينة خادعة ! لقد رجعت عيناه الى امرأة الماضي البغيض . لا يذكر متى وقع الواقعة السالفة ، ولا كم كان عمره حين وقوعها ، ولكنه يذكر بلا ريب أن الشخص المقترس لم ينقطع عن البيت القديم ، وانه كثيرا ما تودد اليه بما لذ له وطاب من الوان الفاكهة ، ثم كان يراه بعد ذلك في دكان الفاكهة عند راس العطفة اذا استصحبته أمه معها في مشوار ، وبسداجة الأطفال كان يلفت نظرها اليه فكانت تجذبه في عنف بعيدا عنه وتمنعه من الأيحاء اليه حتى تعلم ان يتجاهله وهو في صحبتها بالطريق ، وازداد الشخص في نظره ابهاما وغموضا . ثم حذرته من أن

يعود الى ذكره امام خال عجوز. كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتبع تحذيرها وما يزداد الا حيرة . ولم يقنع الحظ منه بذلك القدر فكانت - امه - اذا غاب الرجل عن البيت اياما يكون مبعوثا - اليه ليدعوه الى ان يحضر « الليلة » ! وكان الرجل يستقبله بلطف وود ويملا له قرطاسا من التفاح والموز ، ويحملة موافقته او اعتذاره كيفما اتفق . ثم بلغ به الحال انه كان اذا ابتثق الى لذيق الفاكهة استاذن امه في ان يذهب الى الرجل ليدعوه « الليلة » . ذكر هذا وجبينه يندى خزيا ، ثم نفخ في قهير ، ثم صب وجرع . ورويدا انبعثت الحميا في دمه ، وبدات تلعب دورها الساحر في معاونته على حمل متاعبه . . « قلت الف مرة انه يجب أن ادع الماضي مدفونا في قبره . . لا فائدة . . لا أم لي وحسبي امرأة أبى الرقيقة الطيبة . . كل شيء طيب ما عدا ذكرى قديمة بيدي أن اميتها . . ترى لم اجارى الحاحها على فابعثها من قبرها حيننا بعدحين ! . لم ! . . سوء الطالع وحده الذى رمى بالرجل في طريقى اليوم ولكن مصيره أن يموت يوما . . اود ان يموت كثيرون . . لم يكن الرجل الوحيد . . . بيد أن خياله الثائر واصل اسراءه في ظلمات الماضي رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخف توترا . أجل لم يعد في تلك القصة بالذات من بقية طويلة ، ولعلها - هذه البقية - تمتاز بما يضيئها من نور نسبي بعد عبور طور الطفولة المعتم . كان هذا في السنوات القلائل التى سبقت انتقاله الى حضانة أبيه ، وقد وجدت امه الشجاعة لتصارحه بأن ذاك « الفكهاني » يتردد عليها طلبا ليدها ، وانها مترددة في قبوله ، وانها غالبا سترفض اكراما له ! . ترى اصدق ما قيل له ؟ . . هيهات ان يستوثق من تفاصيل ذكرياته ، ولكنه كان بلا ريب يشرئب للادراك والفهم ، ويعانى نوعا من الريبة الغامضة التى تتكشف للقلب دون العقل ، ويكابد الوانا من القلق اطار عن هامته حماسة السلام ، فتهيأت في نفسه تربة لتلقى بلرة النفور التى صارت مع الأيام الى ما صارت اليه . ثم انتقل فى التاسعة من عمره الى حضانة أبيه الذى لم يكن رآه الا مرات معدودة تحاميا للاحتكاك بأمه . انتقل اليه غلاما على الفطرة لم يتلق من مبادئ العلم كلمة واحدة ، ومضى يكفر عن سبئات التدليل الذى غلته به أمه فتلقى التعليم بنفس كارهة وارادة جائرة ، ولولا شدة السيد وطيبة جو البيت الجديد ما دفع الى النجاح فى الابتدائية بعد ان ينف على التاسعة عشرة من عمره . وبمنمو عمره وادراكه حقائق الأشياء ، استعرض حياته الماضية فى بيت أمه وقلبها على وجوها ، ملقيا عليها من خبراته الجديدة انوارا فاضحة

فتكشفت له الحقائق بينساعتها ومرارتها . وكلما تقدم في الحياة خطوة بدا له الماضي سلاحا مسموما منفرسا في صميم نفسه وكرامته . وقد داب أبوه بادیء الأمر على أن يسأله عن حياته في بيت أمه ولكنه على حداثة سنه ، تحاشى نبش الذكريات المحزنة وقلب كبرياءه الجريح على الرغبة في استشارة اهتمام أبيه وحب الترتبة الذي يستهوى مثاله من الغلمان . ولزم الصمت حتى ترامى اليه نبأ غريب عن زواج أمه من تاجر فحم بالمبيضة فبكى الغلام طويلا ، واشتد ضغط السخط على صدره حتى فضفض فانطلق يحدث أباه عن «الفكهاني» الذي زعمت يوما أنها رفضت الزواج منه اكراما له !.. وانقطعت صلتها بها من ذاك العهد - منذ احدى عشرة سنة - فلم يعد بدرى عنها شيئا الا ما ينقله اليه أبوه من حين لآخر كطلاقها من الفحاح بعد انقضاء عامين على زواجها منه ، ثم زواجها من باشجوايش في العام التالي لطلاقها ، ثم طلاقها مرة أخرى بعد حوالي عامين الخ . الخ . وفي فترة قطيعتها الطويلة سعت المرأة كثيرا الى رؤيته ، فكانت ترسل الى أبيه من يسئذنه في السماح له بالذهاب اليها ، ولكن ياسين صد عن دعوتها باباء ونفور شديدين رغم نصح أبيه له بالتسامح والعفو . والحق أنه وجد عليها موجدة حامية نابعة من صميم قلب جريح ، فأغلق دونها باب العفو والغفران واقام وراءه مناريس حقن وكرامية مؤمنا الى هذا بأنه لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث أنزلتها فعالها . « امرأة . أجل ما هي الا امرأة . . وكل امرأة لعنة قدرة . لا تدرى امرأة ما العفة الا حين تنتفى أسباب الزنا . . حتى امرأة ابى الطيبة ، الله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن تكون لولا ابى ! » وقطع عليه أفكاره صوت رجل علا قائلا « الخمر ؟ ! كلها فوائد ، ومن يقل غير هذا اقطع رأسه . . الحشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر . . أما الخمر فكلها فوائد . . » فتساءل صاحبه « وما فوائدها ؟ » فقال الرجل مستنكرا « وما فوائدها ! ما اعجب سؤالك !.. كلها فوائد كما قلت . . وانت تعلم هذا وتؤمن به . . » فقال صاحبه « ولكن الحشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذلك فيجب أن تعلم هذا وتؤمن به . . الناس جميعا يقولون هذا فهل تخالف الاجماع ؟ ! » وتريث الرجل قليلا ثم قال « كلها مفيدة اذن ، الكل ، الخمر والحشيش والأفيون والمنزول وما يستجد ! » فعاد صاحبه يقول بلهجة تنم عن ظفر « ولكن الخمر حرام ! » فقال الرجل محتدا « وهل ضاقت السبيل ! ، زك . . حج . . أطعم المساكين . . أبواب التكفير واسعة والحسنة بعشر امثالها . . »

- ٧٢ -

وابتسم ياسين في شيء من الارتياح . أجل امكنه اخيرا ان يتسم في شيء من الارتياح .. « لتذهب الى الجحيم ، ولتأخذ الماضي معها .. لست عن شيء مسئولاً .. كل انسان ملوث في هذه الحياة ومن يزح الستار برعيا .. شيء واحد يهمنى جدا هو عقارها ، دكان الحمزاوى وربيع الغورية والبيت القديم بقصر الشوق .. وانى أعد امام الله اذا ورثته كاملا يوما أن اترحم عليها بلا اسف .. آه .. زنوبة .. كدت انساك وما انسانيك الا الشيطان . امرأة عذبتنى وامراة التمس عندها العزاء .. آه يا زنوبة ، ما علمت قبل اليوم ان باطنك بهذا اللون الرائق .. اف ينبغى لى أنحو الفكر من راسى .. الحق أن امى كالضرس الثائر ، لا يسكن حتى ينخلع .. »

- ١٤ -

جلس السيد احمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تعبت أنامل يسراه بشاربه الانيق كشأنه كلما جرفته تيار خواطره ، ويرنو الى لا شيء بوجه تنم معاله عن ارتياح ورضى . انه يرضيه بلا ريب أن يشعر بما يكنه له الناس من حب ومودة ، ولو عرض له من جههم دليل كل يوم لأوجد له كل يوم سرورا مشرقا لا يلبيه التكرار ، وقد واثق اليوم دليل جديد بسبب اضطراره الى التخلف ليلة الأمس عن شهود حفلة أنس دعاه اليها أحد الأصدقاء ، فما استقر به مجلسه بالدكان هذا الصباح حتى وافاه الداعى وبعض الاخوان من المدعوين وأوسعوه عتابا لتخلفه وحملوه تبعه ما ضاع عليهم من بهجة وطرب لائم قالوا - فيما قالوا - أنهم لم يضحكوا من فلوبهم كما تعودوا أن يضحكوا معه ، ولم يجدوا للشراب لذته التى يجدون فى منادمتة ، وأن مجلسهم خلا - على حد تعبيرهم - من روحه . وها هو يستعيد اقوالهم فى سرور وزهو لطفلا كثيرا مما لاقى من حدة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته ، بيد أنه لم يخل من تأنيب ضمير حريص بطبعه على ارضاء الخلان ، بدار الى النهل من موارد الصداقة والمودة فى اخلاص وايثار ، فكاد يكدّر صفوه لولا ما اشاعت ثورة الأحباب الناطقة بحبهم فى نفسه من أريحية الرضا والعجب ، أجل طالما كان الحب الذى يجذبه الى الناس ويجذبهم اليه معينا لقلبه بغدق عليه ما يشاء من فرح بهيج وزهو برىء وكأنه

خلق للصدقة قبل كل شيء . ونمة آبة اخرى على هذا الحب -
والأصدق ان يقال انه حب من نوع آخر - تجلت له ضحى اليوم حين
الت به أم على الخاطبة وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها
ما تشاء لها الدوران « الا تعلم ان ست نفوسه أرملة الحاج على الدسوقي
تملك سبعة دكاكين في المغربلين ؟ » وابتسم السيد . وفطن بالفرصة الى
ما تومىء اليه المرأة ، وحديثه قلبه بأنها ليست خاطبة فحسب هذه
المرّة ولكنها رسول موسى بالكتمان ، ألم يخيل اليه في أكثر من مناسبة
ان الست نفوسه تكاد تعلن عن ودها أثناء ترددها على دكانه لابتياح
حوائجها ؟ . . بيد أنه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل التفكه فقال
لها باهتمام ظاهرى « عليك باختيار زوج صالح لها ، فما أعز المطلوب ! » ،
وظنت أم على أنها بلغت الغاية فقالت « قد اخترتك من دون الرجال ،
فما قولك ؟ » ، وضحك السيد ضحكة مجلجلة وشت بسروره وثقته
بنفسه ولكنه قال بلهجة قاطعة « لقد تزوجت مرتين ، اخفقت في الأولى
ووفقتى الله في الاخرى ، وإن أبطر بنعمة الله . » والحق أنه طالما تغلب
على مغريات الزواج على كثرة ما تبهاى له من فرص مواتية ، بقوة ارادة
لا تتثنى ، وكأنه لم ينس مثل أبيه الذى انزلق الى زيجات متلاحقة
بلا وعى ، بددت ثروته وجرت عليه المتاعب ، ولم تبق له هو - عقبه
الوحيد - الا على شيء من المال لا يغنى . ثم أنه من ربحه ودخله في
بسطة من العيش هيات لأسرته هناء ورغدا وأتاحته له ما يشاء للانفاق
في مسراته وملاهيهم فكيف يقدم على ما يخل بهذا الوضع البديع
المتناسق الذى يكفل له الكرامة والحرية ؟ ! . أجل لم يجمع السيد
ثروة ، لا لقصور في وسائلها عن تجميعها ولكن لما طبع عليه من جود
جعل انفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الوحيد لها الذى يؤمن به ، الى
إيمان عميق بالله وفضائله ملا نفسه طمانينة وثقة وآمنه من الخوف الذى
يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم . على أن صده عن مغريات
الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلما رامت فرصة طيبة ، وبالتالى
لم يستطع أن يتناسى أن سيده جميلة كالتست نفوسه توده بعلا لها ،
وغلبت هذه الذكرى على خواطره فراح يراقب وكيله والزبائن بعينين
غائبتين وأسارير حاملة باسمه ، وذكر - باسمه أيضا - ما قال له صاحب
من صحبه صباح اليوم وهو يعابثه معرضا بأناقته وتعطره « حسبك ،
حسبك يا عجوز ! . . » عجوز ؟ ! . انه في الخامسة والأربعين حقا ،
ولكن ما أقول العاذل في هذه القوة العارمة والصحة الدافقة والشعر

السبب اللامع السواد ! لم يهن احساسه بالشباب ولا تراخى ، وكان فتوته ما تزداد مع الأيام الا قوة ، الى ان مزياده لم تكن لتغيب عنه ، بل كان على تواضعه وسماحة نفسه شديد الشعور بها ، منطويا في أعماقه على زهو وعجب ، يحب الثناء حبا جما ، وكأنه بتواضعه ولطفه يستزيد منه ويحث الرفاق بمكر حسن عليه ، ولكن مع ان ثقته بنفسه بلغت حد الاعتقاد بأنه خير الرجال قوة وبهاء وظرفا وكياسة الا أنه لم ينقل ابدا على احد من الناس ، لأن تواضعه كان طبعيا وسجية كذلك ، ولأنه نبع من فطرة تسيل بشاشة واخلاصا وحبا . والحق أنه كان ينزع بفطرته الى ان يحب كما يحب ، ولا يمسك عن نشدان المزيد من الحب ، فاتجهت طبيعته بوحى من غريزته الفطائية للحب الى الاخلاص والوفاء والصفاء والتواضع ، تلك السجايا التي تجذب الحب والرضا كما تجذب الزهور الفراش ، ومن هنا استوى ان يقال ان تواضعه كياسة او طبيعة والاصح ان يقال انه طبيعة تستمد كياستها من وحى الغريزة لا تدبير الإرادة ، فتجلت طبعيا بسيطا لا تكلف فيه ولا تعمل ، ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزياده بل والتندر بعيوبه وهناته التماسا للعطف والحب احب اليه من نشرها والمباهاة بها اللذين يجران عادة الى الاستفزاز والحسد ، وهى كياسة سديدة دفعت المحبين الى التنويه بما يغضى عنه حكمة وحياء ، واداعت سجاياه على نحو لم يكن ليقدر عليه بنفسه دون التضحية بأجمل جوانب شخصيته ، وبما يحظى من جاذبية وحب لا تشوبهما شائبة . وبهذا الوحي الغريزي نفسه استهدى حنى في جانب حياته المآجن ، في مجالس انسه وطربه ، فلم يتخل فيها - مهما لعب الشراب برأسه - عن لباقة وكياسته ، ولو شاء ، بما اوتى من خفة الروح وحضور البديهة وحلاوة الفكاهة وحدة السخرية ، لاكتسح السار بلا عناء ، ولكنه كان يدير مجالس الأنس بمهارة وأريحية تفسح المجال لكل سامر ، ويشجع اهل الدعابة وان خالفهم التوفيق بضحكاته المجلجلة ، الى حرصه الشديد على الا يخلف مزاحه في نفس جرحا ، فان اضطره الموقف الى الحملة على قرين داوى عواقب حملته بتشجيعه والتودد اليه ولو بالسخرية من نفسه ، فلا ينفض المجلس الا وقد حظى كل سامر من أطايب ذكرياته بما يشرح الصدر ويستأثر الفؤاد . عى ان كياسته الفطرية او فطرته الكيسة ، لم تقتصر آثارها الطيبة على حياته الضاحكة فحسب ، ولكنها امتدت الى جوانب هامة من حياته الاجتماعية ، فأعلنت عن نفسها أروع اعلان

في كرمه الماثور - سواء ما يتجلى منه في الولائم التي يدعو إليها من حين لآخر في البيت الكبير أو في الهبات التي ينفج بها المحتاجين ممن يتصلون بعمله أو بشخصه - وفي شهامته ومروءته ونجدهته التي فرضت له على أصدقائه ومعارفه نوعا من الوصاية المشربة بالحب والوفاء فيثبون إليها إذا دعت الضرورة إلى المشورة أو الشفاعة أو الخدمة فيما يعرض لهم من هموم العمل والمال أو شئون المسائل الشخصية والعائلية كالخطبة والزواج والطلاق ، أجل ارتضى لنفسه وظائف يؤديها بلا اجر - غير الحب - فكان سمسارا وماذونا ومحكما ، ثم وجد دائما في أدائها - على مشقته - حياة مليئة بالبهجة والغبطة . مثل هذا الرجل الذي تجود نفسه بفضائل اجتماعية كثيرة ثم يطوبها كأن في نشرها أذى وإى أذى ، مثل هذا الرجل يكون خليقا - إذا خلا إلى خواطره وانقشع عنه الحياء الذي يتولاه حيال الناس - بأن يتعلم مزاياه طويلا ويستسلم لزهوه وعجبه . لذلك راح يستعيد عتاب أصدقائه المحبين ودعوة أم على الخاطبة بلدة وسرور وانشراح تعانقت في قلبه من نشوة خالصة حتى تطفلت على خلواته لدعة أسف فمضى يحدث نفسه .. « نفوسه هائم سيدة ذات مزايا لا يستهان بها .. يتمناها كثيرون ولكنها رغبت في أنا .. بيد أنني لن أتزوج ، هذا أمر مفروغ منه .. وليست هي بالمرأة التي تقبل أن تعاشر رجلا بغير زواج .. هذا أنا وهذه هي فكيف يمكن أن نلتقى !.. ولو صادفتني في غير هذه الأيام التي سد فيها الاستراليون علينا المنافذ لهان الأمر ولكنها تصدت لنا ونحن في حاجة إليها فوا أسفاه .. »

وقطع عليه أفكاره وقوف حانطور أمام مدخل الدكان فمد بصره مستطلعا فرأى العربية وهي تمبل ناحية الدكان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها في بطء شديد على قدر ما تسمح طيات لحفها وشحمها وقد سبقتها إلى الأرض جارية سوداء فمدت لها يدها لتعتمد عليها في أثناء نزولها . وكالمحمل وقفت مليا وهي تتنهد كأنها تستجم من عناء النزول ، وكالمحمل راحت تتمايل وتخطر إلى ناحية الدكان بينما علا صوت الجارية في لهجة شبه خطابية لتعلن عن مولاتها :

- وسع يا جدع أنت وهو للست زبيدة ملكة العوالم ..

وندت عن الست زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تخاطب الجارية

بلهجة تنم عن زجر كاذب .

- الله يسامحك يا جليل .. ملكة العوالم مرة واحدة !.. هلا عرفت

فضيلة التواضع !

وهرع اليها جميل الحمزاوى مفتر الثغر عن ابتساماة عريضة وهو يقول :

— أهلا وسهلا ، كان حقا علينا ان نفرش الأرض بالرمل . .

ونهض السيد وهو بتفحصها بنظرة تنم عن دهشة وتفكير ثم قال متمما تحية وكيله :

— بل بالحناء والورد ولكن ما حيلتنا والحظ يقبل اذا اقبل غير مسبوق يبشير ؟ . .

ورأى السيد وكيله وهو يتجه الى كرسى ليأتى به فسبقه اليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتنحى الرجل جانبا وهو يدارى ابتساماة ، وقدم السيد لها الكرسى بنفسه وهو يومئ براحته مرحبا كأنه يقول لها « تفضلى » بيد أن راحته انبسطت — ربما بلا شعور منه — لآخر طاقتها وانفرج ما بين أصابعه حتى صارت يده كالمروحة ، وأهله تائر فى بسطها بما تركه فى خياله منظر المعجزة الهائلة التى ستملا مقعد الكرسى وتفيض عن جوانبه حتما . وشكرته المرأة بابتساماة من وجهها الذى أسفر حسنه بغير حجاب ، وجلست وهى تشع بزواقتها وحليها نورا ، ثم التفتت الى جاريتها وخاطبتها قائلة وهى تعنى بالخطاب غيرها :

— ألم أقل لك يا جلجل أنه ليس ثمة ما يدعونا للتخبط هنا وهناك لابتياح حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاخر ؟

فأمنت الجارية على قول سيدتها قائلة :

— صدقت كعادتك يا سلطانة ، لماذا نذهب بعيدا وعندنا السيد

الكريم أحمد عبد الجواد . . !

فتراجع رأس الست كأنها هالها ما صرحت به جلجل واقت عليها نظرة استنكار ثم رددت عينيها بين السيد والجارية لتشهدده على استنكارها وقالت وهى تدارى ابتساماة :

— واخجلتنا ! . . حدثك من الدكان يا جلجل لا عن السيد أحمد . . !

وشعر فؤاد السيد الذئى بالجو الودى الذى ينفضه حديث المرأة فاندمج فيه بغير زقه المتوثبة وتمم باسم :

— الدكان والسيد أحمد نىء واحد يا سلطانة .

فرفعت حاجبيها فى دلال وقالت بعناد لطيف :

— ولكننا نريد الدكان لا السيد أحمد . .

وبدا أن السيد أحمد لم يكن الشخص الوحيد الذى شعر بالجو

الطيب الذى خلقتة السلطنة . فهذا جميل الحمزاوى كان يراوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر الى ما تيسر من جسم العالة . وهؤلاء الزبائن جعلوا يجيلون ابصارهم بين البضائع لتمر في الذهاب والاياب بالست ، بل بدا أن الزيارة المباركة قد لفتت بعض الأنظار في الطريق فرأى السيد أن يقترب من السلطنة وأن يولى الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفل المتطفلين . بيد أن هذا لم ينسبه ما كان فيه من أسباب الحديث فقال يصل منه ما انقطع :

— قضى الله جلت حكمته ان يكون الجماد احيانا اسعد حظا من الانسان ..

فقلت بلهجة ذات معنى .

— أراك تغالى ، لن يكون الجماد أسعد حظا من الانسان ، ولكنه كثيرا ما يكون أجل فائدة ..

فثقبتها السيد بعينية الزرقاوين وقال متظاهرا بالدهشة :

— أجل فائدة !.. (ثم مشيرا الى الأرض) .. هذا الدكان !..

فوهبته ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا تخلو من خشونة مدبرة :

— أريد سكرنا وبنا وارزا فهل يغنى الانسان فيها عن الدكان شيئا !.. (وبنبرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال ، .. ثم ان الرجال أكثر من الهم على القلب ..

وكان السيد قد تفتحت له من الطمع أبواب ، وشعر بأنه مقبل على شيء أجل خطرا من البيع والشراء ، فقال محتجا :

— ليست كل الرجال سواء يا سلطنة ، فمن قال لك ان الانسان لا يغنى عن الأرز والسكر والبن شيئا ؟!.. الانسان حقا من تجدين فيه الغذاء والحلاوة والكيف !.. فسألتها ضاحكة :

— انسان أم مطبخ هذا ؟

فقال السيد بلهجة تدل على الظفر :

— لو نظرت من قريب لوجدت تشابها عجيبا بين الرجل والمطبخ .. فكلاهما حياة للبطن !..

وغضت المرأة بصرها مليا ، وانتظر السيد أن ترفعه اليه موسوما بابتسامتها المشرقة ، ولكنها واجهته بنظرة رزينة فأحس لتوه انها غيرت

« السياسة » أو لعلها لم ترح كل الارتياح لانزلاقها فعدلت عنه ثم سمعها تقول في هدوء .

— افادك الله !.. ولكن حسبنا اليوم الأرز والبن والسكر ..
وتحول السيد عنها متظاهرا بالجد ودعا اليه وكيله ثم وصاه بصوت مرتفع بطلبات السب فاوحى مظهره بأنه قرر هو أيضا العدول عن « التودد » والعودة الى « العمل » ، ولكنها لم تكن الا مناورة استهاد على أثرها ابتسامته الهجومية وتمتم مخاطبا السلطانة :

— الدكان وصاحبه تحت امرك !

وكان للمناورة اثرها فقالت المرأة في دعابة :

— اريد الدكان وتابى الا ان تجود بنفسك !

— نفسى بلا رب رب خير من دكانى ، أو خير ما فى دكانى ..

فاثرق وجهها بابتسامة مأكرة وهى تقول :

— هذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك !

فقهقه السيد قائلا :

— ما حاجتك الى السكر وفى لسائك هذه الخلاوة كلها ؟!

واعقب هذه المعركة الكلاسية فترة سكون بدا فيها كلاهما راضيا عن نفسه ، ثم فتحت العمالة حقيبتها واخرجت مرآة صغيرة ذات مقبض فضى وراحت تنظر فى صورتها فمضى السيد الى مكتبه ووقف مستندا الى حافته وهو يتفرس فى وجهها باهتمام . والحق لقد حدثه قلبه حين وقعت عليها عيناه بأنها جادت بالزيارة لأمر غير الشراء والبيع ، ثم جاء حديثها باستجاباته الحارة مؤكدا لظنه ، فلم يعد امامه الا ان يقرر من الآن هل يوصلها بتاريخه او يودعها الوداع الأخير . ولم يكن يراها لأول مرة ، فقد رآها مرات فى أفراح بعض الأصدقاء ، وعرف عن الزواة ان السيد خليل البنان اتخذها خليله دهرًا حتى انفصلا منذ عهد غير بعيد ، ولعل هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد !.. وهى موفورة الحسن وان لم تعد منزلتها كعالة المرتبة الثانية بين العوالم ، بيد ان المرأة تهمة أكثر من العمالة ، وانها لشهية لطيفة وبها من طيات اللحم والدهن ما يلقى المقرور فى زهرير الشتاء الذى غدا على الأبواب . واعترض افكاره مجيء الحمزاوى حاملا ثلاث لفات ، فتناولتها الجارية ، ودست الست يدها فى الحقيبة لتخرج النقود فيما بدا ، ولكن السيد اشار اليها محذرا وهو يقول :

— يا له من عيب .

- ٧٩ -

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت :

- اى عيب يا سى السيد !.. ليس فى الحق عيب ..
- هذه زيارة ميمونة يحق علينا ان نحييها بما هى اهله من الاكرام .
وهيات ان نوفيها حقها ..
وكانت قد نهضت وهو يتكلم فلم تبد مقاومة جدية لكرمه ولكنها
قالت :

- ولكن كرمك هذا سيجعلنى اتردد مرة ومرتين قبل ان اقصدك
مرة اخرى ..
فقهقه السيد قائلاً :

- لا تخافى ، انى اكرم الزبون فى المرة الاولى ثم اعوض خسارتى فى
المرات اللاحقة ولو بالسرقة ! هذا شعارنا نحن التجار !..
فابتسمت الست ، ومدت له يدها قائلة :
- الكريم مثلك يسرق ولا يسرق .. اشكرك يا سيد احمد .
فقال من كل قلبه :
- العفو يا سلطنة ..

ووقف ينظر اليها وهى تتبخر صوب الباب حتى صعدت الى العربية
واتخذت مجلسها ، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها ، وتحركت
العربة بحملها النفيس ، ثم غابت عن ناظره . هنالك قال الحمزاوى
وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب :

- كيف يمكن ان يسدد هذا الحساب ؟!
فالتقى السيد على وكيله نظرة باسمة وقال :
- اكتب مكان الأرقام « بضائع اُتلفها الهوى » !..
ثم غمغم وهو يمضى الى مكتبه « الله جميل يحب الجمال »

- ٨٠ -

- ١٥ -

وحين المساء اغلق السيد الدكان وغادره تحف به المهابة وينضوع منه عرف طيب تم مضى صوب الصاغة ، ومنها الى الغورية حتى قهوة سى على فلحظ في مروره بها بيت العالة وما يكتنفه فراى الدكاكين التى تمتد على جانبيه لا تزال مفتوحة وتيار السابلة في تدفقه ، فواصل السير الى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثم استأذن عائدا الى الغورية وقد غشيتها ظلمة فانقلبت كالمقفرة ، وجعل يقترب من البيت آمنا مطمئنا ، ثم طرق الباب وانتظر وهو يدقق النظر فيما حوله ولم يكن ثمة نور الا ما ترامى من كوة بقهوة سى على ، ومصباح غازى على عربة يد عند منعطف السكة الجديدة . وفتح الباب وبدأ شبح خادم صغيرة فبادرها متسائلا بصوت قوى غير متردد ليوحى بما يود من الصدق والثقة :

- الست زبيدة موجودة ؟

فرفعت اليه الخادم رأسها وسألته بدورها في تحفظ أملتة عليها ظروف وظيقتها :

- من انت يا سيدى ؟

فقال بصوته القوى :

- شخص يروم الاتفاق معها على احياء ليلة ..

وغابت الخادم دقائق ثم عادت وهى تقول : « تفضل » ، واوسعت له فدخل ، ورقى وراءها فى سلم متقارب الدرجات انتهى به الى دهليز ثم فتحت له بابا فى مواجهته انتقل منه الى حجرة مظلمة فظل واقفا على كئيب من المدخل وهو يصمت الى اقدام الخادم وهى تجرى ، ثم وهى تعود حاملة مصباحا ، وتتبعها بعينيه وهى تضعه على خوان وتجيء بكرسى الى وسط الحجرة وتقف عليه لتشعل المصباح الكبير المدلى من السقف ثم تعيد الكرسي الى موضعه وتحمل المصباح الصغير وتغادر الحجرة قائلة فى ادب « تفضل بالجلوس يا سيدى » . واتجه السيد الى كنية فى صدر الحجرة وجلس فى ثقة وهدوء دلا على اعتياد هذا الموقف وأمثاله ، وطمأنينة الى الخروج منه بما يرضى ويطيب ، ثم خلع الطربوش وحطه على نمرقة تتوسط الكنية ومد ساقيه فى ارتياح . رأى حجرة متوسطة الحجم نضدت بجنباتها الكنبات والمقاعد وفرشت

ارضها بسجادة فارسية وقام حيال كل كنية من كنباتها الثلاث الكبرى
خوان مطعم بالصدق ، وقد أسدلت الستائر على نافذتها وبابها
فحبست في جوها شذا بخور سر به متسللا بالنظر الى فراشة راحت
تترف على المصباح في نشاط عصبى ، وانتظر بعض وقت جاءت في
اثنائه الخادم بالقهوة ، حتى ترمى الى اذنيه وقع شبشب منفوم
ذى دقات مدغدغة فتنبهت اعصابه وحرق الى الباب الذى سرعان
ما امتلأ فراغه بالجسم المفصل الهائل وقد لف لفة شهوانية في فستان
ازرق . وما كادت عينا المرأة تقعان عليه حتى توقفت دهشة وهتفت
- بسم الله الرحمن الرحيم !.. انت !..

فجربى بصره على جسمها في عجلة ونهم كما يجرى الفأر على جوال
ارز ليجد لنفسه منفذا ، وقال باعجاب :

- باسم الله ما شاء الله !..

فواصلت تقدمها بعد التوقف باسمه وهى تقول في خوف مصطنع :

- عينك !.. أعوذ بالله !..

فنهض السيد مستقبلا يدها الممدودة بترحاب وتشمم شذا البخور
بأنفه العظيم وقال :

- اتخافين الحسد وعندك هذا البخور !

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت الى كنية جانبية وجلست
وهى تقول :

- بخورى خير وبركة ، انه اخلاط من انواع شتى بعضها عربى
وبعضها هندي أو لف بينها بنفسى ، فهو جدير بأن يخلص الجسد من
الف عفريت وعفريت ..

فعاود السيد الجلوس قائلا وهو يلوح بيديه فى يأس :

- الا جسدى !.. بجسدى عفاريت من نوع آخر لا يجدى معها
البخور ، الأمر أجل وأخطر ..

فضربت المرأة صدرا ناهضا كالقربة وهتفت :

- ولكنى احيى حفلات امراح لا حفلات زار !

فقال السيد برجاء :

- سنرى ان كان لدائى عندكم شفاء !

وساد الصمت قليلا فجعلت السلطانة تنظر اليه فيما يشبه التفكير
وكأنما تستخبره عن سر حضوره وهل جاء حقا للاتفاق على احياء ليلة
كما قال للخادم !.. وغلبتها الرغبة فى الاستطلاع فسألته :

- فرح أم ختان ؟
فقال السيد ياسا :
- لك ما تشائين !
- عندك مختون أم عروس ؟
- عندي كل شيء ...
فانذرتة بنظرة كأنما تقول له « كم أنت متعب ! » ثم قمت في تهكم :
- نحن في خدمتك على أي حال ...
فرفع السيد يديه الى قمة رأسه في هيئة تتم عن الشكر وقال بوقار
يناقض نواياه :
- عظم الله قدرك .. بيد أنني ما زلت مصرا على أن أترك لك الاختيار !
فتنهدت في غيظ بالدعابة أشبه وقالت :
- اني أفضل أفراح العرائس بطبيعة الحال !
- ولكني رجل متزوج ولا حاجة بي الى رفة من جديد .. !
فصاحت به :
- يا لك من رجل مهذار .. اذن فليكن ختاننا
- ليكن ...
وتساءلت وهي تحاذر :
- وليدك ؟
فقال ببساطة وهو يفتل شاربه :
- انا !
فأطلقت السلطانة ضحكة مائعة وقررت العدول عن التفكير في مسألة
أحياء الليلة التي خمنت خبيثتها وهتفت به :
- يالك من رجل قارح ، لو طالتك يدي لقسمت ظهرك ..
فنهض السيد وأقبل عليها قائلا :
- لا أحرمتك رغبة قط ..
وجلس جانبها فهمت بضربه ولكنها ترددت ثم أمسكت فسالها
بقلق ...
- لماذا لم تتكرمي بضربي ؟
فهزت رأسها وقالت ساخرة :
- أخاف أن انقض وضوئي ..
فتساءل في لهفة :
- أطمع اذن في أن نصلي معا ؟ !

واستغفر الله في سره. عقب النطق بدعائه مباشرة لأن هذره وان كان لا يقف به في سكرة المجون عند حد الا أن قلبه لم يكن ليطمئن ويواصل ابتهاجه حتى يستغفر في باطنه صادقا مما يعبت به لسانه مازجا . اما المرأة فتساءلت في دلال ساخر :

- اتعنى يا صاحب الفضيلة ، الصلاة التى هى خير من النوم ؟
 - بل الصلاة التى هى والنوم سواء ..
 - ولم تتمالك البعالة الا أن تقول ضاحكة :
 - يالك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنه الخلاعة والفجور ،
 الآن صدقت حقما قيل لى عنك ..
 واستوى السيد في جلسته في اهتمام وتساءل :
 - وماذا قيل ؟ !.. اللهم اكفنا شر القيل والقال ...
 - قالوا لى أنك زير نساء وعبد شراب ..
 فتنهت بصوت مسموع يذيع به ارتياحه وقال :
 - حسبتة ذما والعياذ بالله ..
 - ألم أقل لك أنك قارح فاجر ؟!
 - هى الشهادة لى بانى حزت القبول ان شاء الله ..
 فرفعت المرأة رأسها في غطرسة وقالت :
 - بعدك !.. لست كمن عرفت من النساء ... ان زبيدة معروفة
 ولا فخر بعزة النفس ودقة الاختيار ..
 فبسط السيد راحتيه على صدره ونظر اليها في تعجب مشرب باللفظ
 وقال بطمأنينة :

- عند الامتحان بكرم المرء اويهان ..
 - من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تختن بعد بشهادتك ؟
 فقهقه السيد طويلا حتى قال :
 - لا تصدقنى يا ختونة ، وان كنت فى شك ...
 ولكمته فى منكبه قبل أن يتم جملته فأمسك ثم أغرقا فى الضحك معا ،
 وسر بمشاركتهما اياه فى ضحكة ، وحدث وراء ذلك - بعد ما جرى بينهما
 من تلميح وتصريح - لونا من الجهر بالرضا بثبته فى وعيه بسبب دلال
 سالت بطرفها المكحول ، وراح يفكر فى أن يحيى هذا الدلال بتحية تليق
 به لولا أن قالت له محذرة :

- لا تحملنى على مضاعفة سوء الظن بك ..
 فأعاده قولها الى تذكر ما رددته عن القيل والقال ، وسألها باهتمام :

- ٨٤ -

- من الذى حدثك عنى ؟

فقالت باقتضاب وهى تلحظه بنظرة اتهام :

- جلييلة ... !

وفجاء الاسم كأنه عاذل يطرق مجلسهما فابتسم ابتسامة دلت على حرجه . جلييلة ، تلك العاملة المعروفة التى عشقها دهرها حتى فصل بينهما الشبع ثم عاشا وما زالا على مودة متبادلة على البعد ، بيد أنه كخبير بالنساء لم ير بدا من أن يقول فى لهجة صادقة :

- لعنة الله على وجهها وصوتها معا ! .. (ثم متهربا) .. دعينا من هذا كله ولننكلم فى الجد ..
فتساءلت متهمكة :

- الا تستحق جلييلة كلمة ارق والطف ! .. ام هذا شأنك عند ذكر من قطعتن من النساء ؟ !

وداخل السيد شيء من الحرج الا أنه ذاب فى موجة الزهو الجنسى التى اثارها فى نفسه حديث عشيقة جديدة عن عشيقة ولت ، وأخذ مليا بنشوة ظفر حلوة ثم قال بلباقة معهودة :

- لا يسعنى وأنا بحضر من هذا البهاء أن اغادره الى ذكريات طويت ونسيت ...

وبالرغم من ان السلطانة حافظت على نظرتها التهكمية الا انها استجابت للثناء كما بدا فى رفع حاجبيها ومداراتها لابتسامة خفيفة اندست الى شفقتها ، ولكنها خاطبته بازدراء قائلة :

- لسان تاجر يسخو بالخلاوة حتى ينال غرضه ..

- لنا الجنة نحن التجار بما يظلمنا الناس ..

وهزت كتفيها استهانة ثم سألته فى اهتمام غير خاف :

- متى رافقتها ؟

فلوح السيد بلذامه كأنه يقول « ما أبعد من زمن ! » ثم تتمم :

- منذ ازمان وازمان ..

فضحكت فى نهكم وقالت بنبرات تنم عن التشفى :

- فى ايام الشباب الذى مضى .. !

فرنا السيد اليها معاتبا ثم قال :

- بودى أن امص من لسانك الاذى ..

ولكنها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة :

- أخذتك لحما وتركتك عظاما ..

ـوما اسيه بسبابته محلدرا وقال :

ـ انى من صلب رجال يتزوجون فى الستين ..

ـ بدافع العشق أم بدافع الخرف ؟ !

فقهقه السيد قائلا :

ـ يا ولية اتقى الله ودعينا نتكلم فى الجد ..

ـ الجد ؟ ..! أعنى احياء الليلة التى جئت تتفق عليها ؟

ـ أعنى احياء العمر كله ..

ـ كله أم نصفه ؟ !

ـ ربنا يقدرنا على ما فيه الخير ..

ـ ربنا يقدرك على الطيب ..

واستغفر الله فى سره مقدما ثم تساءل :

ـ نقرأ الفاتحة ؟

ولكنها نهضت بفتة متجاهلة دعوته وهتفت متظاهرة بالجزع :

ـ رياه .. سرقنى الوقت ولدى الليلة عمل هام ..

ونفض السيد بدوره ، ومد يده فتناول يدها ثم بسط راحتها المخضبة بالحناء ورنا اليها بشوق وافتتان ، وأصر على احتفاظه بها رغم جذبها اياها مرة ومرتين ، حتى قرصته فى اصبعه ورفعت يدها الى شاربه وصاحت به مهددة :

ـ دقنى أو تخرج من بينى بفردة شارب واحدة ..

ورأى ساعدها قريبا من فيه فزهد فى النقاش وقرب منه شفتيه رويدا حتى غاصتا فى لحمه الطرى فتطاير منه الى أنفه رائحة قرنفلية ذات طعم حلو ، ثم تنهد مغمغما :

ـ الى الغد ؟ !

فتخلصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرة ، وحدقت اليه طويلا

ثم ابتسمت وتمتمت :

عصفورى يا أمه عصفورى لا لعب وأورى له أمورى

وجعلت تردد « عصفورى يا أمه » مرات وهى تودعه . وغادر السيد

الحجرة وهو يردد مطلع الأغنية بصوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة

كانما يستخبر الالفاظ عما وراءها من معان ..

كان ما يطلق عليه بهو الحفلات بيت العمالة زبيدة يتوسط الدار كالصالة ، أو كأن الصالة بالفعل استجذبت لها أغراض أخرى . ولعل أهم أغراضه أنها كانت تقوم فيه - هي وجوقتها - بالتجارب الغنائية وحفظ الأغاني الجديدة ، وقد اختارته لبعده عن الطريق العام بما يفصل بينهما من حجرات النوم والاستقبال . وجعله اتساعه - إلى هذا - صالحا لحياء الحفلات الخاصة ، التي تتراوح عادة بين الزار والغناء ، والتي تدعو إليها الخاصة من أصدقائها ومعارفهم المقربين . ولم يكن الباعث على هذه الحفلات أريحية كرم فحسب - إن كان ثمة كرم على الإطلاق فإنه غالبا ما ينهض بأعبائها الأصدقاء أنفسهم - ولكنها رمت من ورائها إلى الاكثار من الأصدقاء الممتازين الخليقين بأن يدعوها لحياء الحفلات أو يقوموا بها بالدمعة النافعة في الأوساط التي يتقبلون فيها ، ومن بينهم - إلى هذا كله - تنتقي الخليل بعد الخليل . وجاء دور السيد أحمد عبد الجواد ليشرق البهو السعيد محاطا بالخاصة من معارفه . والحق أنه تبدى عن نشاط جم عقب المقابلة الجريئة التي تمت بينه وبين زبيدة في بيتها فسرعان ما حمل رسله كريم الهدايا من النقل والحلوى والهدايا ، إلى مدقاة أوصى على صنعها ونقشها وطلبيها الفضة لتكون - جميعا - عربونا للمودة المقبلة ، ففي لقاء هذا دعت السلطنة ، تاركة له الخيار في دعوة من يشاء من أصدقائه ، إلى حفلة تعارف تكريما للحب الجديد - ولشد ما كان البهو موسوما بطابع بلدي جذاب بكنائنه المتلاصقة المزرقة الناعمة الموحية بالنفاسة والخلاعة ، الممتدة على الجانبين حتى الصدر حيث يقوم ديوان الست تكتنفه الشلت وأوسائد المعدة للجوقة ، أما أرضه المستطيلة فمفروشة بسجاد متعدد الألوان والشكول ، وعلى كنبصول يتوسط الجناح الأيمن - كالشامة رواء وصفاء - أقيدت الشموع منفرسة في الفناير ، غير مصباح ضخيم يندلي من قمة منور يتوسط سقف الحجرة ذي منافذ على سطح الدار تفتح في الليالي الدافئة وتغلق بأضلاع زجاجية في ليالي البرد

جلست زبيدة متربعة على الديوان وإلى يمينها زنوبة العوادة ربيبتها ، وإلى يسارها عبده عازف القانون الضريع ، وأستوت النسوة جلوسا عن

يمين وشمال ما بين ممسكة بالدف أو ماسحة على الدبكة أو عابثة بالصنج وأثرت السلطانة السيد أحمد بأول مجلس في الجناح الأيمن ، واتخذ الباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنهم أصحاب الدار ، ولا عجب فلم يكن الجو الجديد عليهم ، ولا السلطانة بالتى يرونها لأول مرة . وقدم السيد أحمد أصحابه الى العالة مبتدئا بالسيد على بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة :

— ليس السيد على بالغريب فقد أحييت فرح كريمته في العام الماضي . .
ثم ثنى بالسيد تاجر النحاس ، ولما رماه أحدهم بأنه من رواد بمبه كشر
بادر الرجل قائلا :

— وجئت تائبا يا ست . .

وتتابع التعارف حتى تم ، ثم جاءت الجارية جلجل بأقداح الشراب ودارت على المدعويين ، ومضت النفوس تستشعر حيوية مشبعة بالأريجية والمرح . وبدأ السيد عريس الحفلة بلا منازع ، بهذا دعاء الأصدقاء، وبهذا شعر في أعماقه ، وقد وجد ذلك بادئ الأمر لونا من الارتباك قل أن يلم به « فداراه بالاسراف في الضحك والمرح ، حتى اذا أخذ في الشراب زائله بلا عناء ، فاستعاد طمأنينته واندمج في الطرب بكل قلبه . وجعل كلما لج به الشوق — والأشواق في مغاني الطرب تثار — يمد بصره الى سلطاته المجلس بنهم فيتلكا ناظره عند طيات جسمها المكتنز « فطاب قلبا بما أفاء عليه الحظ من نعمة ، وهنا نفسه على ما يترقبها من لديد المسرات، هذه الليلة والليالي الأخريات . « عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ، هذا التصريح الذى تحديتها به ، يجب أن أكون عند كلمتى ، أية امرأة هى يا ترى ، وأى مدى مداها ، سأعرف الحقيقة في الساعة المناسبة ثم البس لكل حال لبوسها ، لكى تضمن الانتصار على غريم ينبغى أن تفترض فيه الغاية من المناعة والبأس ، لن أجبد عن شعارى القديم وهو أن أجعل من لذتى أنا مطلبا ثانويا ومن لذتها هى الهدف والنهاية ، وبذلك تتحقق لذتى على أكمل وجه » . ومع أن السيد لم يخبر من ألوان الحب — على وفرة مغامراته — الا الحب العضوى وحى اللحم والدم « الا أنه تدرج في اعتناقه الى أرق صوره وانقاها ، فلم يكن حيوانا بحثا ولكنه الى حيوانيته وهب لطافة احساس ورهافة شعور وولع متفلفل بالغناء والطرب « فسمما بالشهوة الى أسمى ما يمكن أن تسمو اليه في مجالها العضوى . بهذه البواعث العضوية وحدها تزوج أول مرة ثم ثانيا مرة ، أجل أثرت عاطفته الزوجية — بمرور الأيام — بعناصر جديدة هادئة من المودة والألفة ولكنها ظلت في

جوهرها جسدية شهوانية ، ولما كانت عاطفة من هذا النوع - خاصة اذا
اوتيت قوة متجددة وحيوية دافقة - لا يمكن ان تستنيم الى لون واحد
فقد انطلق في مذاهب العشق والهوى كالثور الهائج ، كلما دعت به صهوة
استجاب لها في نشوة وحماس . لم ير في أية امرأة الا جسدا ، ولكنه لم
يكن يحنى هامته لهذا الجسد حتى يجده خليقا حقا بأن يرى ويلمس
ويشم ويداق ويسمع ، شهوة نعم ولكنها ليست وحشية ولا عمياء ، بل
هدبتها صنعة ، ووجهها فن فانتخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة
جوا واطارا . فلم يكن أشبه بشهوته من جسمه ، فهو مثلها في الضخامة
والقوة اللتين توحيان بالقسوة والوحشية ولكنه - مثلها أيضا - فيما
ينطوى عليه في أعماقه من لطف ورقة ومودة على ما يتسربل به أحيانا -
متعمدا - من الصرامة والشدة . ولذلك فلم يتركز خياله النشيط -
وهو يلتهم السلطنة بنظرائه - في المضاجعة ونحوها ولكنه تاه - الى هذا
- في أفانين من أحلام الهوى ، اللعب والغناء والسمر . وأحست زبيدة
بحرارة عينيه فقالت مخاطبته وهي تقلب عينيها في وجوه المدعوين
بعجب ودلال :

- حسبك يا عريس ، هلا استحييت حيال رفاقك !
فقال السيد متعجبا :

- وما انتفاعي بالحياء حيال قنطار من اللحم والدهن !
فاطلقت العالمة ضحكة رنانة وتساءلت في غاية من الانبساط :
- كيف ترون صاحبكم ؟
فقالوا في نفس واحد :
- معدورا .. !!

وهنا حرك عازف القانون الضربير رأسه يمنة ويسرة وقد تدلت شفته
السفلى وتمتم :

- قد أعلد من أنذر ..

ومع أن « حكمته » لاقت ترحيبا الا أن الست التفتت نحوه كالمقاضاة
ولكزته في صدره هاتفة :

- اسكت انت وسدد فاك الذي يبلغ المحيط ..

وتلقى الضربير الضربة ضاحكا ثم فتح فاه كأنها ليتكلم ولكنه أطلقه مرة
أخرى مؤثرا السلامة فوجهته المرأة رأسها صوب السيد وقالت بلهجة
نم عن الوعيد :

- هذا جزاء من يجاوز حده ..

فقال السيد متظاهرا بالانزعاج :
- ولكننى جئت لاتعلم قلة الأدب ..
فدقت المرأة صدرها بيدها وصاحت :
- يا خبر! .. أسمعتم قوله؟!
فقال أكثر من واحد منهم فى وقت واحد :
- انه خير ما سمعنا حتى الآن ..
وأضاف الى هذا أحد الرفاق قائلا :
- بل عليك بضربه اذا جاوز حدود قلة الأدب ..
وقال آخر مؤمنا على قوله :
- الزمى طاعته ما قل اذنه
فتساءلت المرأة وهى ترفع حاجبيها لتعلن عن دهشة لا أثر لها فى نفسها :

- لحد هذا تحبون قلة الادب !
فتنهذ السيد قائلا :
- ربنا يديمها علينا ..
فما كان من العالة الا ان تناولت الدف وهى تقول :
- سأسمعكم شيئا أفضل .

ونقرت عليه فيما يشبه العبث « ولكن علا النقر فى حومة اللغوكا انذبر حتى أسكتته ، وداعب الأذان متوددا فبدل القوم حالا بعد حال ، تحفز أفراد الجوقة للعمل ، وفرغ السادة الكتوس ثم مدوا رءوسهم نحو السلطنة وساد المكان صمت يكاد ينطق من شدة التهيؤ للطرب . وأومات العالة الى الجوقة فانطلقت تعزف بشرف عثمان بك ، وراحت الرءوس تذهب مع الأنغام وتجىء ، وسلم السيد نفسه لرنين القانون الذى جعل يلدع قلبه فيشعل فيه أصداء الأنغام المختلفة من عهد طويل حافل بلبالى الطرب كأنها ذرات نفض تساقط على جمر مكنون « أجل كان القانون أحب آلات الطرب الى نفسه - لا لمهارة العقاد وحدها - ولكن لسر مستلهم من طبيعة أوتاره ، ومع انه كان يعلم انه لن يستمع الى العقاد او سى عبده الا أن قلبه العاشق دارى بعشقه ما قصر دونه الفن . وما أن فرغت الجوقة من عزف البشرف حتى انطلقت العالة تنشد « والذى أسكر من عرف اللما » فلحقت بها الجوقة فى حماس ، وكان أجمل ما يطرب فيها صوتان متجاوبان ، أحدهما غليظ عريض للعازف الضرب والآخر رقيق يندى بالطفولة لزنبوبة العوادة ، فجاش صدر

السيد بالانفعال فابتدر الكأس الذى بين يديه فافرغه فى جوفه واندفع يشارك فى انشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته - عند مطلع الفناء - بشرق فى حلقة لاندفاعه الى الانشاد قبل أن يتم بلع ريقه ، وما لبث أن تشجع بقية الرفاق فحدوا حدوه وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت واحد ، ولما ختم التوشيح تهيات روح السيد - بحكم العادة - لاستماع التقاسيم والليالى ولكن العالة ذيلت الختام بضحكة من ضحكات الرنانة معلنة عن سرورها وعجبها « ومضت تهنى أفراد الجوقة المستجدين مداعبة وتسألهم عن الدور الذى يودون سماعه ، وانزعج السيد فى بطنه ومرت به لحظة كدرة امتحن فيها ولعه بالفناء امتحانا قاسيا لم يظن اليه كثيرون ممن حوله ، ولكنه أدرك فى اللحظة التالية أن زبيدة ليست كفأ لتقاسيم الليالى شأن جميع العوالم بما فيهن «بجه كثر» نفسها ، فتمنى لو تختار المرأة طقطوقة خفيفة مما تغنى للسيدات فى الأفراح ، مفضلا هذا على محاولة غناء دور من أدوار الفحول ستعجز حتما عن اجادة ترجيعه . وصمم على أن يتفادى من المتاعب التى تخافها أذنه بأن يقترح أغنية خفيفة تناسب حنجرة الست فقال :

- ما راىكم فى صفورى يا امه ؟

وحدها بنظرة ذات معنى كأنما ليثير فى نفسها ابعاء هذه الطقطوقة التى توجت بها حوار تعارفهما فى حجرة الاستقبال منذ أيام قلائل ، ولكن جاء صوت من أقصى البهو يصيح ساخرا :

- الأولى أن تطلبها من أمك . . !

وسرعان ماضع الاقتراح فيما تفجر من قهقهات أفسدت على السيد خطته « وقبل أن يكرر المحاولة طلب نفر « يا مسلمين يا اهل الله » وطلب آخرون « سلامتك يا قلبى » ولكن زبيدة التى تحاشت أن ترضى فئة على حساب أخرى أعلنت أنها ستغنيهم « على روحى انا العجائى » فاستقبلت بترحاب جار . ولم يجد السيد بدا من توطين النفس على الانبساط مستعينا بالشراب ، وبأحلام ليته الواعدة ، فتألق ثغره بانتسامة وضيئة أدرك بها ركب النشأوى بلا كدر ، بل وجد عطفًا على رغبة المرأة فى محاكاة الفحول ارضاء لستمعيها الراسخين فى السماع وان لم يخل حالها من غرور تألفه القوائى . وفيما تهيا الجوقة للغناء نهض أحد الرفاق وهتف بحماسة :

- دعوا الدف للسيد أحمد فهو به خير . . !

فهزت زبيدة رأسها عجبا وتساءلت :
- حقا ؟!

فحرك السيد أصابعه في سرعة ورشافة كأنما يعرض عليها مثالا من
صنعتة فقالت زبيدة بأسمة :

- فيم العجب وأنت تلمذ جليلة !
وضحك السادة في غير ما حفظ ، وتواصل الضحك حتى علا صوت
السيد الفار وهو يسأل السلطانة قائلا :

- وماذا تنوين أن تعلميه أنت ؟
فقالت بلهجة ذات معنى :
- سألتمه القانون .. الا يروك هذا ؟
فقال السيد باستعفاف :

- علميني الهنك ان شئت ..
وحت كثيرون السيد على الانضمام الى التخت وأخذ الدف فما كان
منه الا أن نهض وخلع الجبة فبدأ بطوله وعرضه في القفطان الكموني
كجواد يقف مستوفرا على رجليه الخلفيتين ، ثم شمر عن ساعديه
ومضى الى الديوان ليتخذ مجلسه الى جانب الست ، ولكى تفسح له
قامت نصف قومة متزحزحة الى اليسار فانحسر الفستان الأحمر عن
ساق لحيمة مرتوية بيضاء مشربة بلون وردى من اثر الحف. والتفت
محلى أسفلها بخلخال ذهبى أعيا ضمها ذراعيه . ورأى بعضهم ذاك
المنظر فصاح بصوت كالرعد .
- تحيا الخلافة !

وكان السيد يغمز ليدى المرأة بعينيه فهتف وراءه :

- قل يحيا الصدر الأعظم ..

فصاحت العالمة محلبرة :

- خفضوا أصواتكم او يبيتنا الانجليز في السجن ..

فهتف السيد الذى لعبت الخمر برأسه :

- اذهب معك مؤبدا مع الشغل ..

وعلا أكثر من صوت يقول :

- لا عاش من يترككما تذهبان وحدكما ..

وارادت المرأة أن تحسم النزاع الذى أثاره منظر ساقها فمدت يدها
بالدف الى السيد وهى تقول :

- أرنى شطارتك ..

وتناول السيد الدف ، ومسح عليه براحته مبتسما ، وبدأت أصابعه تنقر عليه في مهارة على حين انطلقت آلات الطرب عازفة ، ثم غنت زبيدة وهي ترنو الى الأعين المكددة اليها :

على روحى أنا الجانى وخلى فى الهوى رمانى
وجد السيد نفسه فى موقف عجيب ، تهفو اليه أنفاس السلطنة بين الفتة والفتة فتلتقى بإشعاعات الخمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة ، فما أسرع أن غابت عن وعيه أصداء الحامولى وعثمان والنيلاولى ، وعاش فى لحظته الراهنة قانعا سعيدا ، ثم سرى اليه من نبرات صوتها ما حرك أوتار قلبه فاستعر نشاطه ولعب بالدف لعبا لا يدانيه المحترفون ، وما بلغه المرأة فى الغناء قولها « أمانة يارايح يمه تبوس لى الحلو من فمه » حتى كان من النشوة فى سكرة عاتية ملهمة مدغدغة محرقة ، ولحق به الرفاق أو سبقوه اذ بلغت الخمر بالضرب نهايته ونثرت الشهوات نثر ، فتركتهم كأدواح راقصة فى حومة عاصفة هوجاء ..

ورويدا زويدا شارف الدور الختام وراحت زبيدة تختمه مرددة نفس المطلع الذى افتتحت به وهو « على روحى أنا الجانى » ولكن بروح يوحى بالدعة والتذكير والوداع ثم النهاية ، وغابت الأنغام كما تغيب طيارة بحبيب وراء الأفق . ومع أن الختام قوبل بعاصفة من التهليل والتصفيق الا انه سرعان ما ساد القاعة صمت دل على همود أنفس أعيانها الجهد والانفعال ، ومضت فترة لم يسمع فيها الا سعلة أو نخنجة أو حكة عود نقاب أو كلمة لا تستحق المراجعة . وقال لسان الحال للمدعوين « تفضلوا بسلام » فلاح من بعضهم نظرات الى قطع الثياب التى تخففوا منها فى فورة الطرب فوضعوها وراءهم على مساند ، ولكن البعض الآخر ممن تعلقت نفوسهم بحلاوة السهرة أبوا أن يغادروها حتى يرشفوا آخر قطرة متاحة من الرحيق ، فصاح أحدهم :

لا نبرح حتى نرف السلطنة الى السيد أحمد ..

وقوبل الاقتراح بترحاب وتأييد ، على حين أغرق السيد والعالمة فى الضحك غير مصدقين ، وما يدريان الا ونفر من الصحاب يحيطون بهما وينهضونهما ثم يشيرون الى الجوقة لتشرع فى التشيد السعيد . وقفا جنباً لجنب ، هى كالمحمل وهو كالجمل ، عملاقين ملطفين بالحسن ، ثم تأبطت فى دلال ذراعه وأشارت الى المحدثين بهما ليفسحوا الطريق . وانثرت الدفافة على الدف فانطلقت الجوقة وكثرة من

- ٩٣ -

المدعويين يرددون نشيد الزفة « انظر بعينك يا جميل » ومضى العروسان في خطو وثيد يتختران طربا وسكرا فلم تتمالك زنوبة مع هذا المنظر الا ان تمسك عن اللعب بأوتار العود ريثما تطلق زغرودة مجلجلة طويلة النفس لو تجسمت لبدت لسانا متعرجا من لهب يشق الفضاء كالشهاب .
وتسابق الأصدقاء يزجون التهاني تباعا :

- بالرفاء والبنين ...

- ذرية صالحة من الراقصات والمغنيات ..

وصاح به أحدهم محذرا

- لا تؤجل عمل اليوم الى غد ..

ولم تزل الجوقة تواصل الانشاد ، والأصدقاء يلوحون بأيديهم مودعين ، حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب المفضى الى داخل الدار .

- ١٧ -

كان السيد أحمد جالسا الى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين على غير انتظار . ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب ، ولكنها كانت قبل كل شيء غير مألوفة ، اذ لم يكن من الطبيعي أن يزور الفتى أباه في دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته في بيته ، والى هذا بدأ سارد اللب ساهم النظرة .. وأقبل على أبيه مكتفيا يرفع يده الى رأسه بطريقة آلية دون أن يلتزم ما يلتزم عادة بمحضره من أدب بالغ وخضوع كأنما نسي نفسه ، ثم قال بلهجة نمت عن شديد تأثره :

- السلام عليكم يا أبى ، جئت لأحدثك في أمر هام ..

ورفع السيد اليه عينيه متسائلا وقد ساوره قلق استعان على اخفائه بقوة ارادته ثم قال بهدوء :

- خير ان شاء الله ..!

وجاء جميل الحمزاوى بكرسى وهو يرحب بمقدمه فأمره والده بالجلوس فقرب الشاب الكرسي من مكان أبيه وجلس ، وبدأ لحظات كالمتردد ، ثم زفر نائرا بتروده وقال بنبرات متهدجة وفي اقتضاب مؤثر :

- المسألة ان أمى شارعة في الزواج ..!

ومع ان السيد توقع خبرا سيئا الا أن خياله لم يجنح في جولته التشاؤمية الى تلك الناحية التى أودعها ركنا مهجورا من ماضيه ، لذلك

لقيت منه المفاجأة صيدا غافلا ، وسرعان ما قطب كما يقطب كلما
عرض له عارض من ذكريات زوجه الأولى ، وتولاها لذلك ضيق ، ثم
انزعاج لما يمس ابنه مباشرة في صميم كرامته ، وكشأن السائلين الذين يلقون
السؤال لا ليعرفوا جديدا ولكن ليتلمسوا منفذا للنجاة من الواقع وهم
يأثسون ، أو ليهيئوا لأنفسهم مهلة للتروى وتمالك الأعصاب ، وسأله :
- ومن أدراك بهذا ؟

- قريباها الشيخ حمدي ، زارني اليوم بمدرسة النحاسين وألقى على
الخبر مؤكدا بأنه سيتم في ظرف شهر ..
الخبر حق لا ريب فيه ، وما هو بالأول من نوعه ، في حياتها ، وإن
يكون الأخير إذا اتخذ الماضي مقياسا للمستقبل ، ولكن أى ذنب جناه
هذا الشاب ليلقى هذا الجزاء الصارم المتجدد الأذى ؟ .. ووجد الرجل
نحو ابنه رثاء وعظما ، وعز عليه أن يقف من آلامه موقف العجز وهو
الذي يقصده الناس في الملمات ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه ماذا
تكون حاله لو كان هو المبتلى بهذه الأم .. فانقبض صدره وتضاعف
رثاؤه وعطفه نحو ابنه ، ثم شمر برغبة تدفعه الى السؤال عن ذلك
الزوج المنتظر ، ولكنه لم يسئلم لها ، أما لأنه أشفق من أن يزيد جرح
ابنه عمقا واتساعا ، وأما لأنه انكرها على نفسه لما آنس بها من حب
استطلاع - لا يليق بالمساة الراهنة - موجه إلى المرأة التي كانت زوجا
له ، بيد أن ياسين قال منفعلا من تلقاء نفسه وكأنه يجيب خاطره :
- ومن تزوج .. من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب مخبز
في الدراسة .. في الثلاثين من عمره !

واشتد انفعاله وتهدج صوته وهو ينطق العبارة الأخيرة كأنما يلفظ
شظية ، فانتقل احساسه الى أبيه تقززا واشمئزازا ، وجعل يردد في
سره : في الثلاثين من عمره .. ياله من عمل فاضح .. انه فسق في
ثياب زواج .. غضب الرجل لغضب ابنه ، وغضب لحساب نفسه هو
كما اعتاد أن يغضب كلما ترامى إليه نأ من مبادلها كأنما يتجدد شعوره
بتبعته في اعتبارها يوما زوجا له ، أو كأنما يعز عليه - ولو بعد كروار
ذاك الزمن الطويل - أنها أفلتت من تأديبه والاذعان لسنته ! ، وأنه
ليذكر أيام معاشرته لها - على قصرها كما يذكر الانسان حمى هاضته ،
وربما كان مغاليا في تصويره ، ولكن رجلا في مثل اعتداده بنفسه جدير
بأن يرى في مجرد الرغبة عن الاذعان لمشيئته جريمة لا تغتفر وهزيمة
قتالة . ثم أنها كانت - ولعلها لا تزال - جميلة مترعة انوثة وجاذبية

فنعم بمعاشرتها أشهراً حتى بدا منها شيء من المقاومة لارادته التى نزع الى فرضها على المتصالحين به من آله ، ولم تر بأساً فى الاستمتاع بالحرية ولو بالقدر الذى يتيح لها زيارة بيت أبيها من آن لآن ، فغضب السيد وحاول منعها بالزجر أولاً ثم بالضرب المبرح أخيراً ، فما كان من المرأة المدللة الا أن فرت الى والديها ! وأعمى الغضب الرجل المتعجرف فظن أن خير سبيل الى تأديبها وأرجاع عقلها الى رأسها هو أن يطلقها الى حين - الى حين طبعاً لأنه كان شديد التعلق بها - فطلقها ، وتظاهرت باهمالها أياماً وأسابيع وهو ينتظر أملاً أن يجيئه وسيط خير من آله ، فلما لم يطرق بابها أحد داس كبريائه وبعث هو من يجس النبض تمهيداً للصالح فعاد الرسول يقول أنهم يرجعون به على شرط ألا يسجنها أو يضربها !.. ولكنه كان ينتظر موافقته بلا قيد ولا شرط فثار غضبه ثورة عاتية واقسم فيما بينه وبين نفسه ألا يضمهما رباط الى الأبد . هكذا ذهب كلاهما الى حال سهيله ، وهكذا قضى على ياسين أن يولد بميدا عن أبيه وأن يلتقى من حياته فى بيت أمه ما لقى من ضروب المدلة والألم ..

ومع أن المرأة تزوجت أكثر من مرة ، ومع أن الزواج كان - فى نظر ابنها - أشرف سقطاتها ، إلا أن هذا الزواج الجديد المتوقع بدا أنفطع من سوابقه وأمن فى الأيلام ، لأن المرأة استوت على الأربعين من ناحية ، ولأن ياسين اكتمل شاباً مدركاً بوسعه إذا شاء أن يدفع عن كرامته الاساءة والهوان من ناحية أخرى ، فقد جاوز اذن موقفه القديم الذى ألزمته اياه حداثة سنه حين كان يتلقى الأنباء المثيرة عن أمه بالدهش والانزعاج والبكاء الى موقف جديد بدا فيه أمام نفسه رجلاً مسؤولاً لا يصح له أن يلقي الاساءة مكتوف اليدين . دارت هذه الخواطر بذهن السيد ، وقدر خطورتها بقلق ، ولكنه صمم على التهورين من شأنها بما وسعته الحيلة ابتعاداً بابنه الأكبر عن المتاعب ، فهز منكبيه للعريضين متظاهراً بالاستهانة وقال :

— ألم نتعاهد على اعتبارها كشيء لم يكن ؟!

فقال ياسين فى حزن وقنوط :

— ولكنها شيء كائن يا أبى !.. ومهما يكن من أمر تعاهدنا فلن تزال أمى الى ما شاء الله ، سواء فى نظرى أم فى نظر الناس جميعاً .. لا مفر ولا خلاص ..

ونفخ الشاب من الأعماق ، ورنأ الى أبيه بعينيه السوداوين الجميلتين

— اللتين ورثهما عنها — في استغاثة صارخة وكأنه يقول له : « انك أبى الجبار القادر فمد لى يدك » ، فبلغ التأثير بالسيد غايته ولكنه واصل تظاهره بالهدوء المقرون بالاستهانة قائلا :

— لا انكر عليك تألك ولكنى انكر عليك أن تغالى فيه ، كذلك يطيب لى أن أعدرك على غضبك ولكن قليلا من العقل حرى بأن يردك بلا عناء ، سائل نفسك فى هدوء ماذا عليك من زواجها .. امرأة تتزوج ، كما تتزوج النساء كل يوم وكل ساعة ، وليست هى بالتي تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من سلوكها ، بل لعلها خليقة بأن تشكر عليه ، وكما قلت لك مرارا ان يرتاح لك بال حتى تسقطها من حسابك كأنها لم تكن ، فافعل بالله وارج نفسك ، وتمز — مهما يكن من أمر القيل والقال — بأن الزواج علاقة مشروعة .. شريفة ..

قال السيد هذا بلسانه فحسب — اذ كان يناقض كل المناقضة ما طبع عليه من غيرة متطرفة فيما يتصل بالاداب المطلقة للأسرة — ولكنه قاله بحرارة كالصدق ، منشؤها ما مارسه من لباقة أهله لأن يكون الحكم الحكيم ووسيط الخير الذى لا يعجزه فض نزاع بين الناس ، ومع ان كلامه لم يضع هباء — حيث انه من المستحيل أن يضع كلام للسيد هباء حيال أحد من ابنائه — الا أن غضب ألقى كان أعمق من أن يتبخر بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من ابريق بالماء المغلى ، وما لبث أن خاطب اباه قائلا :

ب هو علاقة مشروعة حقا يا أبى ولكنها تبدو أحيانا أبعد ما تكون عن الشرع ، أنى اسائل نفسى عما يدفع هذا الرجل الى الزواج منها ؟ وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه فى شيء من السخرية « أولى بك أن تسأل عما يدفعها هى ؟ » ، وقبل أن يحاور ابنه واصل حديثه قائلا :

— انه الطمع ... ولا شيء غيره !

— أو لعلها رغبة صادقة فى الزواج منها ..

ولكن الشاب هاج ثأره وهتف فى حق والى معا :

— بل الطمع وحده ..

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخف على السيد حدة اللهجة التى خاطبه بها ابنه ، بل لم يخل الرجل من ضيق الى تقديره لحاله وحزنه

أو أن يعود الى توكيد قوله السابق . فلما لم يفعل استطرد قائلا في هدوء نسبي :

— ان ما يدفعه الى الزواج من امرأة تكبره بعشرة أعوام هو الطمع في مالها وعقارها ..

وجد السيد في تحول النقاش الى هذه النقطة فائدة لم تغب عن المعينة ، فهو ينتزع الفتى من تركيز تفكيره في أمور أشد حساسية وابعث للألم وبحسبه أنه يصرفه عن النظر فيما يدفع أمه الى الزواج الى ما يدفع الرجل ، والى هذا كله فلم يخف عليه ما في رأى ابنه من وجهة فيما يتعلق بالزوج فسرعان ما اقتنع به وشاركه مخاوفه فيه . أجل ان هنية — أم ياسين — غنية للدرجة لا بأس بها . وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضت من تجارب الزواج والهوى ، بيد انها كانت فيما مضى شابة حسنة ذات سحر وسلطان ، يخاف منها ولا يخاف عليها ، اما الآن فمبعد عن الاحتمال أن تملك نفسها — فضلا عن أنفس الآخرين — ماملكت : واذن فثروتها خليقة بأن تبدد في معركة الغرام التي لم تعد من رمايتها . وانه لحرام واى حرام ان يخرج ياسين من جحيم هذه المأساة جريح الكرامة وصفر اليدين . وقال السيد يخاطب ابنه وكأنه يحاور نفسه ويستلهمها الراى :

— أراك على حق باننى فيما تقول ، ان امرأة في سنها صيد يسير خليق بأن يغرى الطماعين من البشر ، فما عسى أن نفعل ؟ ... انتلمس سبيلا الى ذاك الرجل لنحمله على العدول عن مغامرته ؟! .. ان الحمله عليه بالوعيد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به بين الناس ، كذلك التوسل اليه بالرجاء والاقناع مهانة لا تهضمها كرامتنا ... فلم يبق أمامنا الا المرأة نفسها ! .. ولست أجهل ما حفرت بينك وبينها من قطيعة كانت بها — ولا تزال — خليقة ، بل الحق انى لا ارتاح الى أن تصل ما انقطع بينك وبينها لولا ما استجد من أعذار قهرية ، فللضرورة احكام ، ومهما يشق عليك الرجوع فهو رجوع الى أمك ، ومن يدري فلعل ظهورك المفاجىء فى افقها يردّها الى شيء من الصواب ...

وبدا ياسين أمام أبيه ، كالرسيط أمام المنوم المغناطيسى فى اللحظات التى تسبق تنفيذ ما يوحى به اليه ، ذاهلا صامتا ، فوشى حاله بنفاذ تأثير الرجل الى نفسه ، أو لعله دل على أنه لم يفاجأ بهذا الاقتراح ، وانه يحتمل أن يكون مما دار بنفسه قبل مجيئه ، بيد أنه تمتم قائلا :

— اليس ثمة حل أوفق ؟ ..

- ٩٨ -

فقال السيد بقوة ووضوح :

- اراه اوفق الحلول . .

فقال ياسين وكأنه يحدث نفسه :

- كيف أرجع اليها ؟! . . كيف أزعج بنفسى فى ماض فررت منه وليس

أحب الى من ان يبتز من حياتى بئرا ! . . لا ام لى . . لا ام لى
ولكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيد بأنه وفق الى جذبه الى رايه
فقال بلباقة :

- هذا حق ، ولكن لا اظن ان ظهورك امامها فجأة بعد ذلك الغياب
الطويل يمضى بلا اثر ، لعلها اذا رأتك بين يديها شابا ناضجا ان تتحير
امومتها فتجفل مما عساه يسوء الى كرامتك وتعذل عن سيرتها . . .
من يدري ؟!

فطامس ياسين رأسه غارقا فى افكاره ، غير مبال بما دل عليه من ضيق
وياس . كان يرتعد خوفا من وقوع الفضيحة ، ولعل هذا كان أقطع ما
يكربه ولكن خوفه على ضياع الثروة التى ينتظر ان يورثها يوما لم يكن دون
ذلك ، وما عسى ان يفعل ؟! . . مهما يقلب أوجه الراى فلن يجد حلا
أوفق مما ارتأى أبوه ، بل ان صدور الراى عن ابيه البسه فى نظره - عى
تقلقل حاله - وجاهة واعفاه هو من هموم كثيرة . ليكن . . هكذا نس
فى نفسه ، ثم قال مخاطبا اياه .

- كما ترى يا أبى . . .

- ٩٨ -

لما بلغت به قدماء طريق الجمالية انقبض صدره حتى شعر بأنه يخنق .
اقد غاب عنه أحد عشر عاما ، أحد عشر عاما تصرمت فلم ينازعه القلب
اليه مرة واحدة ، او ترف عليه ذكرى من ذكرياته الا فى هالة قائمة مقمضة
نسج وشبها من مادة الكابوس ، والحق انه لم يكن غادره ولكن واثته
فرصة ففر منه فرارا ، ثم ولاد ظهره غاضبا حانقا يائسا ، ثم تجنبه بكل
قوة نفسه فلم يعرفه بعد ذلك كفاية فى نفسه أو معبرا الى سواء من
الأحياء بيد انه هو الحى كما عهدته فى طفولته وصباه ، لم يتغير منه شيء .
ما زال ضيقا تكاد تسده عربة يد اذا اعترضت سبيله ، وها هى بيوت
تكاد تنماس مشربياتها ، ودكاينه الصغيرة فى تلاصقها وزحمتها والطنين

الصادر عنها كخلايا النحل ، واراضه التربة بفجواتها المفعمة وحلا ، وغلمانه الذين يغشور جوانبه ويطعمون على اديمه آثار اقدامهم الحافية . وسابله الذين لا ينقطع لهم تيار . ومقل على حسن ومطعم عم سليمان . كل أولئك باق كما عهدت فتكاد ترف على شفثيه ابتسامه خان يريد نثر طفولته أن يفتر عنها لولا مرارة الماضي وسقم الحاضر ..

وتراءت لعينيه عطفة قصر الشوق فحقق قلبه بقوة حتى كاد يصم اذنيه ، ثم لاحت على رأس منعطفها الأيمن سلال البرتقال والتفاح منضدة على الطوار أمام دكان الفاكهة فعض على شفثيه وغض طرفه في خزي . الماضي ملطخ بالعار ، مدفون الراس في الطين من الخجل ، دائم الجار بالشكوى من الخزي والألم ، ولكنه كله في كفة وهذه الدكان في كفة وحدها ، بل أنها ترجح به ، اذ أنها رمزه الحي الباقي على الزمن ، جمعت في صاحبها وسلالها وفاكهتها وموقعها وذكرياتها الخزي متبححا والألم ناطقا والهزيمة مولولة ، واذا كان الماضي احداثا وذكريات هي بطبعها عرضة للتخلخل أو

النسيان فهذه الدكان تقوم شاهدا مجسما يكشف مخلخله ويستحضر منسيه .. وكان كلما تقدم من المنعطف خطوة تقهقر عن الحاضر خطوات طاولا الزمن على رغم ارادته ، وكأنه يرى في الدكان « غلاما » يرفع رأسه الى صاحبها ويقول « نينسه تطلب منك أن تحضر الليلة » ، أو كأنه يراه وهو عائد بقوطاس الفاكهة ضاحك الأسارير ، أو وهو يلفت نظر أمه في الطريق الى الرجل فتجديه من ذراعه بعيدا ان يلفت اليهما الانظار ؟ أو وهو ينشج باكيا أمام منظر الافتراس الوحشي الذي يخلقه خلقا جديدا - كلما ورد على ذهنه - على ضوء تجاربه الراهنة فينقلب البشاعة نفسها ، طفقت الصور الملتهبة تطارده وهو يجد في الفرار منها ، ولكنه ما أن يتملص من قبضة احداها حتى يقع في قبضة الأخرى ، مطاردة عنيفة وحشية اثار في اعماقه بركان الحنق والحقد فواصل السير الى غايته وهو على أسوأ حال « كيف امرق الى العطفة وعلى رأسها هذا الدكان .. وهذا الرجل .. اتراه بموقفه القديم منها ؟ .. لن التفت نحوها ، أي قوة مأكرة تفرني بالنظر ، أيعرفني اذا التقت عينانا ؟ ! .. اذا بدا منه أنه عرفني قتلته ، ولكن كيف له بأن يعرفني ؟ .. لا هو ولا أحد من الحي ، أحد عشر عاما ، تركته غلاما وأعود اليه ثورا .. ذا قرنين ! ثم لا تواتينا القوة على إبادة الحشرات السامة النى لا تنفك تلدغنا .. » ؟

ومال الى العطفة مسرعا بعض الشيء ، متخيلا القوم وهم يستطلعونه بانظارهم متسائلين « أين ومتى رأينا هذا الوجه ! » . ورقى في الطريق

المتصاعد في غير استواء ، جامعا عزمه على نفخ الغبار الخائق عن وجهه ورأسه ولو الى حين ، وتنسجبا لعزمه فر بنفسه بعيدا وراح يتأمل ما حوله ويحدث نفسه قائلا : « لا تضق بالطريق المتعب فكم كنت تفرح به صغيرا وانت تنزلق على منحدره فوق لوح من الخشب ! » ، بيد انه عاد يقول حين تراءى له جدار البيت : « الى اين اسير ؟ ! .. الى امي ! .. يا للعجب ، لا اصدق ، كيف القاها وكيف تلقاني ! .. وددت لو .. » ومال يمينا الى عطفة مسدودة نم اتجه الى اول باب في جانبها الايسر . هو البيت القديم بلا ادنى شك ، قطع الطريق اليه كما كان يقطعه وهو صغير ، بلا تردد أو تساؤل ، وكأنه ما تركه الا امس القريب ، ولكنه اقتحم بابه هذه المرة باضطراب غير معهود . ورقى في الدرج بخطوات ثقيلة بطيئة ، وبالرغم من قلقه وجد نفسه يتفحصه باهتمام مطابقا امينه وبين صورته المحفوظة في خياله فالفاه اضيق قليلا مما في ذاكرته وقد تاكلت بعض جوانبه وتهدمت اجزاء صغيرة من اطراف درجاته المطلة على بشر السلم ، وسرعان ما حجبته الذكريات الحاضر كله . ومر وهو على تلك الحال بالدورين المأجورين حتى انتهى الى الدور الاخير . ووقف الحظات يتصنت وصدره يعلو وينخفض ، ثم هز منكبيه كالمستهين ونقر على الباب « وبعد دقيقة او نحوها فتح الباب عن وجه خادم متوسطة العمر ما أن تبينت فيه رجلا غريبا حنى توارت وراء الباب وهى تسأله في أدب عما يريد . وثارت اعصابه فجأة وبلا داع معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام نابثة واتجه نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة آمرة :

— قولى لستك ياسين هنا ..

« ترى ماذا تظن الخادم بى ؟ » . والتفت وراءه فوجدها مسرعة الى الداخل ، اما لأن لهجته الآمرة غلبتها على أمرها ، واما .. وعرض على شفتيه وهو يرق الى داخل الحجرة ، انها حجرة الضيوف كما قدر بلا وعى في لهوخته وحدته ولكن ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل ، ولو وجد في ظرف غير الطرف لطاف مسترجعا ذكرياته من الحمام الذى كان يحمل اليه وهو يبكى الى المشربة التى كان ينظر من وراء ثوبها الى موكب الزفة مساء بعد مساء . ترى الاثاث الحجرة الراهن هو هو اثاث الماضى البعيد ؟ .. انه لا يذكر من الاثاث القديم الا امرأة طويلة ثبتت في حوض مذهب تنبثق من ثغرات في سطحه ورود صناعية مختلفة الألوان ، وتركز في زاويتيها المتباعدتين فناير تسدلى من أعناقها أهلة بلورية طالما

ولع بالعبث بها والنظر خلالها الى المكان فيلوح في حلل غريبة يذكر اغراءها وان غاب عنه منظرها . ولكن لا داعى للتساؤل ، فاثاث اليوم غير اثاث الأمس ، لا لجدته البادية فحسب . ولكن لأن حجرذ امرأة مزواج خليفة بأن تتغير أو تتجدد ، كما تغير أبوه ، وتاجر الفحم ، والباشجاويش . وركبه توتر وضيق فأدرك انه لم يطرق باب البيت القديم فحسب ولكنه نكأ جرحا متورما وغاص في قبحه . ولم يطل انتظاره . ولعله جاء أقصر مما يتصور ، اذ ابتدر اذنيه وقع أقدام متتابعة متدافعة . وصوت يتردد محاورا نفسه بكلام علا جرسه ولم يستبن الفاظه ، ثم احس بها - وهو لم يزل مولى الباب ظهره - وضلفة الباب المغلقة تطقطق تحت صدمة منكبها ، ثم جاءه هتافها وهى تقول بانفاس مبهورة :

- ياسين !.. ابنى !.. كيف أصدق عينى ؟ !.. ربي .. صار رجلا ..

وتدافع الدم الى وجهه المكتنز ، واستدار نحوها فى ارتباك وهو لا يدري كيف بلقاها ولا كيف يكون اللقاء ، ولكن المرأة اعفته من تدبير امره فهرعت اليه واحتوته بذراعيها وضمتها اليها بشدة عصبية وراحت تقبل صدره - وهو غابة ماوسع شفتها ان تبلغاه من جسمه المنتصب - ثم اختنقت نبراتهما وأغرورقت عيناها فدفنت وجهها فى صدره مستسلمة له مليا ريثما تسترد انفاسها . لم يكن حتى تلك اللحظة قد أتى حركة أو نطق بكلمة ، ومع انه شعر شعورا عميقا اليما بأن جموده أشد من ان يحتمل الا انه لم يبدر منه ما ينم عن حياة : أى حياة ، فلازم جموده وخرسه ، بيد انه كان متأثرا غاية التأثير وان لم يتضح له نوع التأثير بادىء الأمر ، حال يطمئن اليها ، ولكنه ، على حرارة استقبالها ، لم يجد رغبة للارتقاء فى حضنها أو تقبيلها ، لعله لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة الشابة فى نفسه كمرض مزمن رافقه منذ الصبا ، ومع انه وجه ارادته بعزم وتصميم الى إخلاء المسرح من الماضى فى اللحظة الراهنة ليملك فكرة وحكمته ، الا ان الماضى المطرود انعكس على صفحة قلبه ظلالات قائمة كذبابة نشبت عن الفم بعد أن خلفت وراءها جرثومة تسرى ، فأدرك فى ذاك الموقف الرهيب ، أكثر مما أدرك فى ماضيه كله ، الحقيقة المحزنة التى طالما أدمت فؤاده وهى أن امه قد اقتلعت من صدره . ورفعت المرأة رأسها اليه كأنها تدعوه الى تقريب وجهه فلم يستطع الاباء وأدنى وجهه منها فقبلته فى خديه وجبينه ،

والتقت اثناء العناق عيناها فلثم جبينها تأثرا بارتباكها وحيائه لا لعاطفة اخرى ، ثم سمعها تغمغم :

— قالت لى ياسين هنا ، قلت ياسين ! من يكون هذا ؟! ولكن من يكون غيره ؟ ليس لى الا ياسين واحد ، ذاك الذى حرم بيتى على نفسه وحرم نفسه على ، فماذا حدث ؟ وكيف استجيب الدعاء آخر الدهر ؟! وجئت عدوا كالمجنونة لا اصدق اذنى ، وها انت ، انت دون غيرك والحمد لله ، تركتنى غلاما وعدت الى رجلا ، كم قتلنى الشوق اليك وانت لا تحس لى وجودا ..

واخذته من ذراعه الى الكنبه فمضى معها وهو يسائل نفسه منى تنحسر هذه الموحة الطاغية من الاستقبال الحار حتى يتبين الطريق الى هدفه . وجعل يسئق اليها النظر فى استطلاع مقرون بالدهشة والقلق ؟.. كأنها لم تنغير الا ان يكون جسمها قد زاد امتلاء ولكنه لا يزال محافظا على حسن تقطيعه ، اما الوجه القمحي المستدير والعينان السوداوان المكحولتان فعلى سابق عهدهما تقريبا من القسامة البارعة . ولم يرتح الى ما رآه على صفحة الوجه والعنق من زواق كأنه كان ينتظر ان تغير اعوام القطيعة من دابها القديم على العناية بنفسها ولعلها بالتبرج لداع ولغير ما داع اى حتى فى تلك الاوقات التى تخلو فيها الى نفسها : وجلسا جنبا الى جنب وهى تحديق الى وجهه بحنان تارة وتقيس طوله وعرضه بعينين معجبتين تارة اخرى ثم تهمت بصوت متهدج : — آه ياربى لا اكاد اصدق عينى ، انا فى حلم ، هذا ياسين ! اى عمر ذهب هباء ، كم دعوتك ورجعتك ، وبهتت اليك الرسول تلو الرسول ه ماذا اقول ؟.. دعنى اسالك كيف قسا قلبك على لهذا الحد ؟ .. كيف اعرضت عن دعواتى الحارة ، كيف تصماممت عن نداء قلبى المكروب ؟ كيف .. كيف ؟.. كيف نسيت ان لك اما منزوية هنا ؟!

ووقف انتباهه عند الجملة الاخيرة فوجدها غريبة تدعو الى السخرية والوئاء معا ، وكأنها افلكت منها فى ذهول الانفعال ، اجل يوجد شئ « واشياء ، تذكره صباح مساء بان له اما ، ولكن اى شئ واى اشياء ؟! ورلع اليها عينيه فى حيرة دون ان ينبس فالتقت عيناها لحظة ، وابتدرته المرأة قائلة فى لهفة :

— لماذا لا تتكلم ؟

فخرج ياسين من حيرته بتنهدة مسموعة ثم قال وكأنه لم يجهد بدا مما قال :

- ذكرتك كثيرا . ولكن ألامى كانت افطلع من أن تطاق ..
وقبل أن يتم كلامه كان النور الذى ينبعث من نظرتها قد خمد ،
واحتلت الحدقتين غمامة خيبة وفتور ساقها رياح تهب من جوف
الماضى الأسيف ، فلم تعد تطبق التحديق فى عينيه وخفضت جفניה
وهى تقول بلهجة حزينة :

- ظننتك برنت من احزن الماضى ، وانها علم الله لا تستحق بعض
ما أوليتها من غضب حملك على هجرى احد عشر عاما ..
وعجب لعتابها عجا احفنه ، واسستكره استنكارا ذر على غضبه
المكتوم فلغلا فانفعل انفعالا له لا القصد الذى جاء من اجله لثار بركانه .
اتمنى المرأة حقا ما تقول ؟ .. اهان عليها ما فعلت لهذا الحد ؟ ام تظن به
الجهل بما كان ؟ ! بيد أنه ضغط . اعصابه بقوة ارادته التى لم تغفل عن
هدفها وقال :

- تقولين انها لا تستحق غضبى ؟ .. اراها تستحق الغضب كل
الغضب واكثر ..

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبه كشيء تهدم ، ورمته بنظرة
بين العتاب والاستعطاف قائلة :

- ما وجه العيب فى أن تزوج امرأة بعد طلاقها ؟ ..
فشعر بنيران الغضب تناجح فى عروقه وان لم تبد منها آثار الا فى
انطياق شفقيه ثم فى التصافهما ، لا زالت تتكلم ببساطة كأنها مقتنعة
على يقين ببراءتها ! .. وسأعل عن وجه العيب فى أن تتزوج
« امرأة » بعد طلاقها ، حسن ، لا عيب فى أن تتزوج « امرأة »
بعد طلاقها ، اما أن تكون المرأة أمه فهذا شيء آخر ، شيء آخر جدا ،
وأى زواج الذى تعنيه ؟ .. انه زواج وطلاق ثم زواج وطلاق ثم زواج
وطلاق ، وهنالك ما هو أدهى وأمر ، ذلك « الفكهائى » ! .. ايدكرها
به ؟ .. ايصفعها بما فى نفسه من مر ذكرياته ؟ ايصارحها بأنه لم يعد
جاهلا كما تظن ؟ وأرغمته حدة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه
المره فقال بامتعااض شديد :

- زواج وطلاق ، زواج وطلاق ، هذه امور شائنة لم تكن لتليق بك ،
ولشد ما مزقت نياط قلبى بلا رحمة .

فشبكت ذراعها على صدرها فى استسلام اليأس وقالت باشفاق حزين :
- انه سوء الحظ ولا شيء غير ، انى سيئة الحظ ، هذا كل ما هنالك .

فبادرها قائلا ، وقد تقلبت اسراريره وانتفخ لغده فلفظ الكلمات
كانما يلفظ مستخبثا تعافه النفس :

- لا تحاولي ان تبرئي ساحتك فما يزيدنى هذا الا الما على الم ، من
الخير ان نسدل على آلامنا ، اتارا يخفيها ما دمنا لا نستطيع ان نحوها
من الوجود محوا ..

ولاذت بالصمت على كره ، والقلب يشفق اشفاقا شديدا من هائج
الدكريات على طيب اللقاء وما بعثه في نفسها من آمال ، وجعلت تلحظه
بقلق كأنما تستخبره عما يطوى عليه صدره ، فلما ثقل عليها صمته
قالت متشكية :

- لا تلج في تعذبي وائب وحيدى ..

ووقع الكلام من نفسه موقعا غريبا كأنما يكشف له لأول مرة ، بيد
انه وجد فيه باعسا جديدا للهيلاج والتوتر ، انه ابنها حقا ، وانها ابنه
الوحيدة كذلك ، ولكن كم رحلا ..! واشاح عنها بوجهه ليخفى ما ارتسم
على صفحته من آى النقرز والغضب ، ثم أغمض عينيه فرارا من ذكريات
مناظر بشعة ، عند ذاك سمعها تقول برقة وتوسل :

- دعنى اعتقد بان سعادتى الراهنة حقيقة لا وهم ، اجل حقيقة
لا وهم ، وبأنك جئتني منفضا عن قلبك احزان الماضى كله الى الابد .
فنظر اليها نظرة طويلة مركزة وشئت بخطورة افكاره ، ولم يكن شىء
في تلك اللحظة يستطيع ان يعدل به عن النفاذ الى غرضه ولو بتأخذه
الى حين ، فقال بصوت يدل على ان الفاظه التى يتفوه بها اقل بكثير من
المعانى التى يوحى بها :

- هذا يتوقف عليك ائب ، فان شئت كان لك ما تحبين ..
فتجلت في عيني المرأة نظرة قلق نمت عما تعانى من ايحاء الخوف
وقالت :

- انى ارجب في مودتك من اعماق قلبى ، وطالما تمنيتها ، وكم سعيت
اليها فرددتني بلا رحمة ..

ولكنه كان مشغولا عن كلامها الحار بما يضطرب في ذهنه فقال :
- بيدك ما تتمنين ، بيدك انت وحدك ، اذا جعلت من الحكمة رائدك .
فتساءلت المرأة في انزعاج :

- ماذا تعنى ؟

فأحلقه تجاهلها وقال بتدبر :

— مضمون كلامى واضح ، هو ان تعدلى عما لو صح ما بلغنى عنه
لكان فيه الضربة القاضية على !
فاتسعت عينها وتجهم وجهها فى يأس غير خاف . وغنمت ودهى
لا تدرى :

— ماذا تعنى ؟

بيد أنه ظننها تصر على التجاهل فقال بفيظ :
— أعنى ان تلقى مشروع الزواج الجديد : وألا تسمحى لنفسك
بمعاودة التفكير فى شيء من هذا القبيل ، لم أعد طفلا . وليس بصبرى
متسع لطعنة جديدة ..

أطرقت فى حزن بانغ ، ولازمت الاطراق كأنما اخذتها سنة من النوم ،
ثم رفعت رأسها فى بطء فلاح الحزن فى وجهها أعمق مما قدر ، ثم قالت
بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها :

— اذن جئت من أجل هذا !

ودون تفكير فيما يقول قال :

— نعم !..

فوقع جوابه كطلقة نارية فاذا بكل شيء حوله يتغير ويتبدل سريعا ،
ويكفهر الجو . وقد استرجع فيما بعد — وهو خال الى نفسه — ما دار
من حديث بينه وبين امه فى هذه المقابلة فأقر أقواله جميعا حتى بلغ
هذا الجواب الأخير فتردد حياله لا يدري الخطأ أم أصاب ، وظل على
تردده طويلا . اما المرأة فقد غمغمت وهى تنظر فيما أمامها :

— لشد ما اتمنى أن اكذب أذنى ..

وأدرك انه تعجل بعد فوات الفرصة ، وسخط على نفسه حائقا ،
ثم صب سخطه عما حوله . فاندفع قائلا بلا وعى مداريا خطاه بما هو
أمعن فى الخطأ :

— انك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب ، وكنت أنا دائما
الضحية التى تتلقى الاساءة بلا ذنب جنته ، وقد ظننت العمر رادك الى
شيء من العقل فما أعجب الا لقائل يقول لى أنك شارعة فى الزواج من
جديد !.. يالها من فضيحة تتجدد كل بضعة أعوام كأن لا نهاية لها .
من شدة اليأس راحت تصفى اليه فيما يشبه اللامبالاة ، ثم قالت
بأسى :

— انت ضحية ، وأنا ضحية ، كلانا ضحية لما يوسوس به اليك أبوك
وتلك المرأة التى تعيش فى كنفها !..

وعجب لهذا الانحراف في مجرى الحديث الذي بدا له مضحكا ، بيد
انه لم يضحك ، ولعله ازداد غضبا وهو يقول :
- ما دخل ابى وزوجه في هذا الشأن !.. لا تتملى من فعالك بالقاء
التهم في وجود الأثرياء
فهمت بصوت يشبه الأنين :
- ما رايت ابنا اقصى منك !.. اهذا خطابك اى بعد فراق احد عشر
عاما ! !

فلوح بيده في احتجاج غاضب وقال بحدة وسخط :
- الام الخاطئة خليفة بان تلد ابنا قاسيا ..
- لست خاطئة .. لست خاطئة .. ولكنك قاس غليظ القلب
كأبيك ..

فنفخ في ملل وصاح بها :
- رجعنا الى ابى !.. ج. سنا ما نحن فيه .. اتقى الله وتراجعى عن
الفضيحة الجديدة .. أريد ان امنع هذه الفضيحة بأى ثمن ..
ومن شدة اليأس والحزن خرج صوته متلفعا بالبرودة وهى تقول :
- وماذا يهمك منها ؟
فصاح في دهش :

- كيف لا تهمنى فضيحة امى ؟!
فقالت في حزن مسوب عما تيسر من التهكم :
- انت في الحق لا تعدنى اما لك ..
- ماذا تعنين ؟
فغمغمت في ياس متجاهلة تساؤله :
- ما دمت قد خلعتنى من نفسك فيجدر بك ان تدعنى وشانى ..
فهمت غاضبا :

- حسبى ما كان ، لن اسمح لك بتلويث سمعتى من جديد ..
فقالت وهى تزدد مرارة ريقها :
- لا شيء هنالك مما يلوث السمعة ، والله شهيد ..
فسالها مستنكرا :

- اتصرين على هذا الزواج ؟!
فصمت مليا ، مطرقة محزونة غارقة في اليأس ، ثم ندت عنها تنهدة
عميقة ، ثم قالت بصوت لا يكد يسمع :
- قضى الأمر وكنب العقد ، ولم يعد بوسعى منعه !

فانتفض ياسين قائما وقد تصلب جسمه البدين وعلت وجهه سمره
وركز بصره في رأسها المطرق وهو يفلو غضبا ، ثم صاح بها بصوت
كالزئير :

— يالك من امرأة .. مجرمة !..

فغمغمت بصوت مغموس يدل على الاستسلام المطلق :

— ساحك الله ..

عند ذاك خطر له أن يلطمها بما يعرف — مما تظن أنه يجهله — من
ماضي سيرتها ، بحدبث « الفكهاني » الأسود ، قذيفة يصبها على رأسها
بغثة فتسخره اربا ويتأثر بها أقطع الثار ، وتوهج في عينيه بريق مخيف
تطايير من تحت جبهة عابسة مكفهرة تجمعت في اخايدها نذر الشر
والوعيد ، وفغر فاه ليطلق قذيفته ، ولكن لسانه لم يتحرك ، التصق
بسقف حلقه كأنما جذبته اليه مخه الذي لم يعمه العناء عن البلاء ، ومرم
اللحظة الرهيبة في سرعة الزلزال الخاطف الذي يشعر فيه الانسان
بأنفاس الموت تتردد على وجهه لحظات ثم يعود كل شيء الى مستقره ،
وزفر وهو كظيم ، وتراجع شر آسف وجبينه يسبح عرقا باردا . وقد
ذكر موقفه هذا — فبب بعد — فيما ذكر من مواقف هذه المقاتلة الغريبة
فارتاح لتراجع كل الارتياح وان عجب له اشد العجب ، وكان أعجب
ما عجب به شعوره بأنه انما تراجع رحمة بنفسه لا رحمة بها وكأنه تستر
على كرامته لا على كرامتها وان لم يكن ثمة ما يجهله من الأمر !..

وأفرغ غضبه في كفيه فحمل يضرب واحدة على الأخرى ويقول
— مجرمة !.. فصيحة مجسمة !.. كم سأضحك من غبائي كلما

أذكر اننى أملت خيرا من هذه الزيارة !.. (ثم بلهجة تهكمية) ..
انى أعجب كيف طمعت بعد هذا في مودتى ؟ !

فجاءه صوتها وهو يقول في انكسار وحسرة :

— منتنى بنفسى ان نعيش على مودة رغم كل شيء !.. وبعثت زيارتك

المفاجئة في قلبى آمالا حارة خيل الى معها انى أستطيع ان أهبك اسمى
ما فى قلبى من حب .. بلا كدر ..

وابتعد عنها متقهقرا كأنما يفر من لين كلامها الذى لم يعد شيء يؤرب
غضبه مثلما يؤرثه ، وشعر حائقا يائسا بأنه لم تعد ثمة فائدة من بقائه في

هذا الجو الكريه فقال وهو يستدير ليأخذ سمته الى الخارج :

— وددت لو أستطيع قتلك ..

فغضت بصرها وقالت في حزن بالغ :

- ١٠٨ -

— لو فعلت لأرحتنى من حيائى ..
وبلغ به الضيق النهاية فألقى عليها نظرة أخيرة مظلمة بالمقت ثم غادر
المكان وأرض الحجرة ترتج تحت وقع قدميه . وعندما انتهى الى الطريق .
وأخذ يثوب الى نفسه ، ذكر لأول مرة انه نسى حديث العقار والمال منه
يطرقه بكلمة واحدة ، أنسيه كأنما لم يكن هو الباعث الاول لهذه الزيارة !.

- ١٩ -

فتحت الست امينة الباب وادخلت راسها وهى تقول برنتها المهدودة :
— افى حاجة انى خدمة يا سيدى الصغير ؟
فجاءها صوت فهمى قائلا :
— تعالى يا نينة ، خمس دقائق فقط ..
فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرائه واقفا امام مكتبه يلوح في
وجهه الجد والاهتمام بأخذها من يدها الى كنبه غير بعيدة من الباب
وأجلسها ثم جلس الى جانبها وهو يتساءل :
— ناموا جميعا ؟
وادركت المرأة انها لم تدع لتقديم خدمة عابرة والا ماكان هذا الاهتمام
وهذه الخلوة فانتقل الاهتمام بسرعة الى نفسها المطوعة للايجاء وقالت
تجيبه :
— ذهبت خديجة وعائشة الى حجرتهما فى ميعاد كل ليلة ، اما كمال
فقد تركته الآن فى فراشه .
كان فهمى يترقب هذه اللحظة منذ آوى الى خجرة المذاكرة عند اول
المساء فلم يستطع كعادته تركيز انتباهه فى الكتاب الذى بين يديه ، وجعل
يتابع ، بين آونة وأخرى ، احاديث امه وشقيقته فى جزع لا يدرى متى
ينتهين ، ثم الى امه وكمال وشما يحفظان معا جملة من سورة عم . حتى
ساد الصمت ثم جاءت امه لتعنيه تحية المساء فدعاها اليه وقد تناهى
به توتر الانتظار . ومع ان امه بدت له كالحمامة الوديدة ، ومع انه لم
يشعر حيالها قط بتحفظ أو خوف ، الا انه وجد عسرا فى التعبير عما
يريد الافصاح عنه ، فعلاه ارتباك الحياء ، ومضت فترة صمت ليست
بالقصيرة قبل أن يقول مختلج الحفنين :
— دعوتك يا نينة لأشاورك فى امر يهمنى جدا .

واشتد الاهتمام بالمرأة حتى تنله قلبها الرقيق خوفاً وشبهها بالخوف
وقالت :

— انى مصفية اليك بابنى ..

فتنفس تنفساً عميقاً ليخفف عن اعصابه وقال :

— ما رايك فيما لو .. أعنى اليس من الممكن أن ..

وتوقف متردداً ، ثم غير لهجته قائلاً برقة وتبردد وارتيابك :

— ليس لى من أفضى إليه بدخيلة نفسى إلا أنت ..

— طبعاً ، طبعاً يا بنى ..

فقال متشجعاً عما قبل :

— ما رايك إذا اقترحت عليك أن تخطبى لى مريم بنت جارنا السيد

محمد رضوان ؟

وتلقت أمينة كلماته بدهشة أولاً ، فأجابته أولاً ، فأجابته بابتسامة

تدل على الحيرة أكثر من الفرح ثم انقشع الخوف الذى قبض صدرها حيناً

وهى تترقب أفصاحه عما يريد ، ثم اتسعت ابتسامتها واشرفت معلنة

عن سرور صاف ، وترددت لحظات لا تدرى ماذا تقول ، ثم اندفعت قائلة :

— أهذه رغبتك حقاً ؟ .. سأقول لك راى صراحة .. أن يوماً مضى

فيه لأخطب لك بنت الحلال لهو أسعد أيام حياتى ..

افتورد وجه الشاب وقال بامتنان :

— شكراً لك يا أماد ..

ورنت الأم إليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء :

— ياله من يوم سعيد ، لقد تعبت كثيراً وصبرت كثيراً ، وليس بالكثير على

الله أن يجزىنى على تعبى ود برى بمثل هذا اليوم المرجى ، بل بأيام مثله

كثيرة ليقر عيني بك وبأختيك خديجة وعائشة .

وقابت عيناها فى رؤى الأحلام السعيدة حتى بدا لها ما أبطلها فجأة

فتراجع رأسها فى قلق كقطة أقبل نحوها كلب ، وتمتت فى اشفاق :

— لكن .. أبوك ؟ !

وابتسم فهمى ممتعضاً وقال :

— من أجل هذا دعوتك للشاورة .

ففكرت المرأة قليلاً ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها :

— لا أدرى ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء ؟. أبوك شخص غريب ،

غير الناس جميعاً ، وقد يرى جريمة فيما يراه الغير شيئاً عادياً ..

فقطب فهمى قائلا :

- ليس فى الامر ما يدعو الى الغضب او الاعتراض .

- هذا رابى .. !

- وغنى عن البيان ان الزواج سيؤجل حتى اتم دراستى واجد

لنفسى عملا ..

- طبعا .. طبعا ..

- فيم يكون الاعتراض اذى ؟!

فنظرت اليه نظرة كأنما تقوله له : « ومن ذا يحاسب اباك اذا اراد ان

ينبذ المنطق جانبا ؟ » هى التى لم تعرف حياله الا الطاعة العمياء اصاب

أم اخطأ ، عدل أم ظلم ، بيد أنها قالت :

- أرجو أن يبارك رجاءك بالقبول ..

فقال الشاب بحماس :

- لقد تزوج أبى وهو فى سنى هذه ، ولست اقصد شيئا من هذا ،

ولكنى سانتظر حتى يكون الزواج طبيعيا لا اعتراض عليه من أى ناحية ..

- ربنا يحقق رجاءنا ..

وسكنا الى الصمت مليا وهما يتبادلان النظرات ، مجتمعين فى فكرة

واحدة وهما عن بداهة يدربان اذ كان كلاهما يفهم صاحبه خير فهم ،

ويقرا ما يدور بخاطره فى غير ما عصر ، ثم قال فهمى مفصحا عما يشغلهم معا :

- بقى أن نفكر فيمن يفاحه بالموضوع .. !

وابتسمت المرأة ابتسامة أفقدها التفكير والقلق روحها « وادركت ان

ابنها الأويب يذكرها بالواجب الذى لا يستطيع ان يؤديه أحد سواها

بالأسرة ، ولم تعترض على هذا لأنه لا سبيل غيره ، الا أنها قبلته على كره

كما تقبل امورا كثيرة وهى تسأل الله حسن العاقبة ، وقالت برقة وعطف :

- ومن غيرى يفاتحه ؟ .. ربنا معنا ..

- انى آسف .. لو كان بوسعى ان احلته لفعلت ..

- سأحلته ، وسيوافق باذن الله ، مريم فتاة جميلة ، مؤدبة ، من

اسرة كريمة ..

وسكتت لحظة ثم استدركت متسائلة كأنما خطر لهما الخطر لأول مرة :

- ولكن اليسى هى فى مثل سنك او تزيد ؟!

فقال الفتى جزعا :

- لا يهمنى هذا بتاتا !

فقالت مبتسمة :

— على بركة الله . ربنا معنا . « تم وهي تنهض » ادعك الآن لعناية المولى ، وإلى الغد . . ومالت نحوود فقبلته تم غادرت الحجرة وأغلقت الباب وراءها ، ولكن كم ادهشها ان ترى كمال جالسا على الكنية مكبا على كراسة بين يديه فهفت به :

— ما الذى عاد بك الى هنا ؟

فنهض الغلام مبتسما فى ارتباك وقال :

— تذكرت انى نسيت كراسة الانجليزى فعدت لآخذها تم بدا لى ان استعيد الكلمات مرة أخرى

وذهبت معه مرة أخرى الى حجرة النوم ولم تتركه حتى يمدد تحت الفطاء ، ولكنه لم ينم ، وكان النوم أعجز من ان يغلب اليقظة الماكرة التى تنبعث فى شعوره ، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى الى سمعه وقع اقدم امه وهي ترقى السلم الى الدور الأعلى ، ثم فتح الباب وجرى الى حجرة شقيقته ودفع بابها ودخل دون أن يغلقه ليوسع للمصباح المعلق بالصالة منفذا يضيء منه جانبا من الظلمة الفاشية فى الداخل ، وهرع الى الفراش وهو يهمس « ابلة خديجة ! » فجلست الفتاة فى الفراش دهشة فوثب الى جانبها وهو يلهث من الانفعال ، وكأنه لم يقنع بمستمعة واحدة ليستودعها السر الذى اطار النوم عن عينيه فمد يده الى جسم عائشة وهزه ولكن الفتاة كانت قد تنبعت الى القادم وأزاحت عنها الفطاء ثم رفعت راسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة :

— ماذا جاء بك الآن ؟

لم يابه للهجة الإحتجاج لانه كان على يقين من أن كلمة واحدة يشير بها الى سره خليقة بان تقلبهما راسا على عقب ، وقفز لهذا قلبه بهجة وسرورا ، ثم قال هامسا كأنه يحاذر أن يسمعه رابع :

— عندى سر غريب . .

فسألته خديجة :

— أى سر هذا ؟ . . . هات ما عندك وارنا شطارتك . .

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال :

— أخى فهمى يريد ان يخطب مريم . .

عند ذاك جلست عائشة فى الفراش بدورها فى حركة آلية سريعة كأنما التصريح رشة ماء بارد القيت فى وجهه وسنان ، وتقاربت الأشباح الثلاثة فى شكل هرمى كما بدا على الضوء الخافت النافذ الى الحجرة والمنعكس على أرضها فيما بلى الباب المفتوح على هيئة متوازى الاضلاع مذبذب .

الأطراف تبعاً لذبذبة ذبالة المصباح الذى تعرض ، بترك الباب مفتوحاً -
الى تيار وأن نسّم من خصائص النافذة الى الصالة فى لطف همسات تذيع
سراً ، ثم تساءلت خديجة فى اهتمام :

- كيف عرفت هذا ؟

- تركت فراشى لأحضر كراسة الانجليزى ، وعند باب أخى جاءنى
صوته وهو يتكلم فلبدت فى الكنبه ثم أعاد على مسمعيهما ما تسرب اليه
من وراء الباب الموارب وهما ينصتان اليه فى اهتمام ملك عليهما الأنفاس
حتى فرغ من حديثه ، وهنّ تساءلت عائشة كان بها حاجة الى المزيد
من الاقتناع :

- أتصدقين هذا ؟

فقالت خديجة بصوت كأنه ينبعث من تليفون بمدينة بعيدة :

- اتصورين أن بخترع هذا « مشيرة الى كمال » حكاية طويلة
عريضة كهذه ؟

- لك حق « ثم ضاحكة لنخفف من جدّة اهتمامها » اختلاق موت
غلام فى الطريق شيء ، أما هذه الحكاية فشئ آخر ..
فتساءلت خديجة دون أن تلقى بالاً الى احتجاج كمال الذى اعترض
على التعريض به .

- كيف وقع هذا يا ترى ؟ !

فضحكت عائشة قائلة :

- ألم أقل لك مرة انى أشك فى أن اللبّاب هو الذى يدعو فهمى الى
السطح كل يوم ؟ !

- انه اللبّاب الآخر الذى التف حول ساقه هو .

فترنمت عائشة بصوت خفيض :

- لا ملام عليك يا عيونى فى حبه .

فنهرتها خديجة قائلة :

- هس .. ليس هذا وقت الغنّاء .. مريم فى العشرين وفهمى فى

الثامنة عشرة .. كيف توافق نينة على هذا ؟ !

- نينة ؟ ! .. نينة حمامة ودیعة لا تدرى كيف تقول لا ، ولكن
صبراً ، اليس من الحق أن أقول أن مريم جميلة وطیبة ؟ ! ... ثم أن
بيتنا هو البيت الوحيد فى الحى الذى لم يعرف الأفراح بعد ..

كانت خديجة - كعائشة - تحب مريم ، ولكن الحب لم يستطع أبداً
أن يخفى عن عينيها موانع الانتقاد فى المحبوب أيا كان شأنه ، فلم يكن

يعجزها - عند الضرورة - الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب ، ولما كانت سيرة الزواج تثير مخاوفها الكامنة ، وغيرتها . فقد انقلبت على صديقتها دون مشقة ، وأبى قلبها أن يقبلها زوجة لأخيها ، ومضت تقول :
- مجنونة أنت ؟ ! .. مريم جميلة ولكنها دون فهمى بمراحل بعيدة ..
فهمى بإحماراة طالب بالعالى ، وسيكون قاضيا يوما ما ، فهل تتصورين مريم زوجا لقاض كبير المقام ؟ ! .. انها مثلنا على أكثر تقدير ، بل هى دوننا فى أكثر من ناحية ولن نتزوج احدانا بقاض .. !
وتساءلت عائشة فى نفسها : « من قال أن القاضى أحسن من الضابط !! »
ثم سألتها محتجة :
- لم لا ؟ !

فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعترافها :
- يستطيع فهمى أن يتزوج بفتاة أجمل من مريم مائة مرة ، وفى نفس الوقت تكون متعلمة وغنية وبنت بك أو حتى باشا ، فلماذا يتسرع بخطبة مريم ؟ ! .. ما هى الامية طويلة اللسان ، أنت لاتعرفينها كما أعرفها ..
وأدركت عائشة أن مريم انقلبت فى نظر خديجة الى جملة من العيوب والنقائص ، بيد أنها لم تتمالك نفسها - حيال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التى لخديجة منها أكبر نصيب - من أن تبتم مستترة بالظلمة ، وتحاشت اثارها فقالت بتسليم :
- لندع الأمر لله ..

فقالت خديجة بثقة وإيمان :
- الأمر لله فى السماء ولأبى فى الأرض وسوف نرى ماذا يكون رأيه غدا .. « ثم موجهة الخطاب الى كمال » .. أن لك أن تعود الى سريرك بسلام ..
عاد كمال الى حجرته وهو يقول لنفسه : « لم يبق الا ياسين ، وسأخبره غدا .. »

جلست خديجة وعائشة القرصاء متواجهتين لصق الضلفة المغلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأعلى وهما يكتمان أنفاسهما في حذر شديد ويمدان آذانهما الى الداخل في اهتمام وتلقف . كان الوقت قبيل العصر بقليل ، وكان السيد قد نهض من فيلولته فتوضأ وجلس كعادته يحتسى القهوة منتظرا الاذان ليصلى قبل عودته الى الدكان ، فتوقعت الاختان أن تفتح الأم أباهما في الأمر الذي أنباهما عنه كمال اذ لم يكن انسب لذلك الغرض من هذا الوقت . وتناهى اليهما من الداخل صوت أبيهما الجمهورى وهو يتحدث عن أمور البيت العادية فانصتا في جزع وترقب وهما تتبادلان النظر متسائلتين حتى سمعتا أخيرا الأم وهى تقول فى ادب بالغ ولهجة خاشعة :

- سيدى ، اذا اذنت لى حدثك عن شأن رجائى فهمى ان ابغلك إياه . عند ذاك أوامات عائشة بدقنها الى الداخل كأنها تقول « هذا هو الحديث » على حين راحت خديجة تتخيل حال أمها وهى تنهيا للكلام الخطير فرق قلبها لها وعظمت على شفقتها فى اشفاق شديد ، ثم جاءهما صوت السيد وهو يتساءل :

- ماذا يريد ؟

وساد الصمت قليلا ، او طويلا بالقياس الى اللتين تسترقان السمع ، ثم قالت المرأة برقة :

- فهمى يا سيدى شاب طيب ، حاز رضاك بجده وتفوقه وادبه ، حماء الله من شر الاعين ، ولعله بلغنى رجاءه ! ادلالا بمنزلته عند والده .. فقال الاب بلهجة تخيلناه معها راضيا :

- ماذا يريد ؟ .. تكلمى ..

ومال رأسهما نحو الباب وكل منهما تحملق فى الأخرى ولا تكاد تراها فجاءهما الصوت المتهاافت وهو يقول :

- سيدى يعرف جارنا الطيب السيد محمد رضوان ؟ ..

- طبعا ..

- رجل فاضل مثل سيدى واسرة كريمة وجيران ولا كل الجيران ..

- نعم ..

واستطردت بعد تردد :

- فهمى يسأل يا سيدى هل يجوز له والده أن .. يخطب مريم كريمة جارنا الطيب لتبقى على ذمته حتى يصير أهلا للزواج ؟
وهنا علا صوت السيد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار :
- يخطب ؟! .. ماذا تقولين يا ولية ؟ .. هذا الغلام ! .. ماشاء الله ..
أعيدى على سمعى ما قلت ..

فقالت الأم بصوت متهدج وقد تخيلتها خديجة وهى تنكمش في ذعر :
- ليس الا أنه يتساءل ، مجرد تساؤل يا سيدى والأمر لك ..
فقال الصوت المتفجر بالغضب :

- لا عهد لى ولا له بهذا التدلل المائع ، ولا أدري ما الذى اتلف تلميذا حتى يتمادى في مطالبه الى هذا الحد ؟ .. ولكن أما مثلك خليقة بأن تفسد أبناءها ، فلو كنت أما كما ينبغي لما جسر على مفاتحتك بمثل هذا الهدر الوقح ..

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما في قلب خديجة ارتياح ، ثم سمعا صوت الأم المتهدج المستخدى وهى تقول :

- لا تجشم نفسك مشقة الغضب يا سيدى ، كل شيء يهون الا غضبك ، ما قصدت من ناحيتى اساءة قط ، ولا تخيلها ابنى وهو يحملنى رغبته ببراءة ، ولكنه رجائى بحسن نية فرأيت أن أعرض الأمر عليك ، وما دام هذا هو رأيك فسأبلغه اياه ، وسيدعن له بكل خضوع كما يدعن لأمرك دائما ..

- سيدعن أراد أم لم يرد ، ولكنى أريد أن أقول لك أنك أم ضعيفة لا يرجى منها خير .

- انى اتعهدهم بما توصى به ..

- خبرينى عما دعاه الى التفكير في هذا الرجاء ؟

وأرهفت الفتاتان السمع في اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هذا السؤال الذى لم يتوقعاه ، ولكنهما لم يسمعا لأمهما جوابا وتصورتاهما وهى ترمش في ارتباك وخوف فعطف قلباهما في اشتقاق شديد :

- ماذا أخرجك ؟ .. خبرينى هل رأها ؟

- كلا يا سيدى ، ان ابنى لا يرفع عينيه الى جارة ولا الى غيرها ..

- كيف رغب في خطبتها دون أن يراها ؟ .. ما كنت أحسب أن لى

أبناء يسترقون النظر الى حرمت الجيران !

- معاذ الله ياسيدى معاذ الله .. ان ابنى اذا سار في الطريق لا يلتفت

مينة ولا يسرة ، وهو في البيت لا يكاد يغادر حجرته الا لضرورة ..
- ما الذى دعاه الى طلابها اذن ؟

- لعله يا سيدى سمع شقيقتيه وهما تتحدثان عنها ..
وسرت في بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرتا ثغريهما في فزع وهما تنصتان ..

- ومتى كانت شقيقتاه خاطبتين !.. يا سبحان الله اينبغى ان اهجر
دكانى وعملى واقبع في البيت لأضبطه وادفع عنه الفساد !
فهمت الأم في نبرات باكية :

- بيتك اشرف البيوت ، بالله يا سيدى الا ما هونت عليك الغضب ،
الانتهى الأمر وكأن ما كان لم يكن ..
فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد :

- قولى له ان يتأدب ويستحي ويلزم حدوده ، وأن من الخير ان
يتفرغ لدروسه ..

وسمعت الفتاتان حركة في الداخل فقامتا في حذر وابتعدتا عن الباب
على اطراف أصابعهما ..

رأت الست أمينة ان تغادر الحجرة كشأنها اذا ند عنها عفوا ما يثير
غضبه فلا تعود اليها بعد ذلك الا اذا دعاها ، اذ علمتها التجربة أن
مكوثها بين يديه خال الغضب ثم سعيها الى تسكينه برقيق الكلام لا يزيد
النار الا استعارا . ووجد السيد نفسه وحيدا فزائلته آثار الغضب
المحسوسة الذى ثور عادة في عينيه وبشرة وجهه وحركات يديه
وكلامه ، ولكن بقى الغضب في اعماق صدره كالعكارة في قعر القدر .

من المحقق انه كان يغضب في البيت لاتفه الأسباب لا اتباعا لحظته
الموضوعة في سياسة بيته فحسب ، ولكن مدفوعا كذلك بحدة طبعه
التي لا تشككها بين آله فرملة الكياسة التي يتقن استعمالها خارج
البيت ، وربما ترويحاً عما يعاني بين الناس كثيرا من ضبط النفس
والتسامح واللطف ومراعاة الخاطر واكتساب القلوب بأى ثمن ، وليس
بالنادر ان يتضح له انه استسلم للغضب في غير موجب ولكنه حتى في
تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بان غضبته للتأفة من الأمر
عسية بان تمنع وقوع الخطير منه مما يستحق الغضب عن جدارة ، بيد
انه لم يعد ما بلغه عن فهمى ذلك اليوم هفوة تافهة بل رأى فيها نزوة
قبيحة لا يجوز ان تعتلج في نفس تلميذ من آل بيته ، وما كاد يتصور
ان تتسرب « العواطف » الى بنيان البيت الذى يحرس على أن يشب

في جو من النقاء الصارم والظهارة المنقشفة . تم جاءت صلاة العصر فرصة طيبة لرياضة النفس خرج منها أهدا قلبا وأروح بالا ، فوسعه أن يتربع على سجادة الصلاة ويبسط راحتيه ويسأل الله أن يبارك له في ذريته وماله . وأن يدعو خاصة لفخر ابنائه بالهدى وأثرشاد والتوفيق ، فلما أن غادر البيت كان تجهمه مظهرة يراد بها التخويف لا اكثرا . وفي الدكان التقى ببعض الأصدقاء فقص عليهم «نادرة اليوم» لا كفاجمة لأنه كان يكره أن يلقي أحدا بالفاجعات ، ولكن كدعابة سخيفة ، فعلقوا عليها بما حلا لهم من المزاح ، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم ، فغادروه وهو يقهقه في غير تحفظ . بدت له « النادرة » في الدكان على غير ما مدت في حجرته بالبيت ، وأمكنه أن يضحك منها . بل وإن يعطف عليها ، حتى قال لنفسه أخيرا باسم راضيا « من شابه أباه فما ظلم » . .

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف في خطوات حاسمة غاشيا الطرقات والأزقة والمآذن والقباب ، ولعله لم يعدل بسروره بهذه الخرجة المفاجئة التي قل أن تتاح له في مثل ذلك الوقت المتأخر الا زهوه بالرسالة الشفوية التي حمله أياها فهمى ، فلم يغب عنه أنه عهد بها اليه وحده دون غيره ، في جو من السرية والتكتم الأمر الذي أضفى عليها - وعليه بالتالي - أهمية خاصة أحسها قلبه الصغير ورقص لها طربا وفخارا . وتساءل في عجب عما زلزل فهمى حتى ركبته حال من القلق والحزن بدا في لباسها انقائم شخصا غريبا لم يره ولم يسمعه من قبل ، هو مثال وحده ، أن أباه يثور كالبركان لانفثه الأسباب ، وأن ياسين على حلاوة حديثه قابل للإلتهاب ، حتى خديجة وعائشة لا تخلوان من نوبات عفرتة ، هو مثال وحده ، ضحكه ابتسام وغضبه تقطيب ، وهدوءه عميق على صدق عواطفه وإصالة حماسه ، فلم يذكر انه رآه على الحال التي رآه عليها اليوم . لن ينسى كيف خلا اليه في حجرة المذاكرة « بصر زائف ونفس مضطرب وصوت متهدج ، ولا كيف خاطبه لأول مرة في حياته بلهجة توصل حارة عجب لها أشد العجب حتى استوجب حفظ الرسالة التي حملها أن تكرر عليه مرات ومرات . وقد أدرك من فحوى الرسالة

نفسها أن للأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذى استرق السمع اليه من وراء الباب ، والذي نقله الى شقيقتيه فثأر بينهما جدلا ونزاعا ، وبالجمله انه يتعلق بمريم ، تلك الفتاة التى كثيرا ما تعابته ويعابثها ، ويأنس اليها حيننا ويضجر منها حيننا آخر ، دون أن يعرف لها هذه الخطوة التى احاطت بهدوء أخيه وسلامته . مريم ؟! لماذا استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هذا كله بأخيه العزيز الرائع !! . ووجد فى الجو غموضا ، كذلك الغموض الذى يكتنف حياة الأرواح والأشباح ، والذي طالما استثار حب استطلاعهم وخوفهم ، فتوثب قلبه للنفاذ الى مكنون سره فى تطلع وحيرة . ولكن حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتى يضمن الا يضيع منه حرف واحد من مضمونها فمر تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدها ، ثم مال الى أول عطفة تليه حيث يوجد باب البيت . لم يكن البيت بالغريب عنه ، فطالما تسلسل الى فناءه الصغير حيث تنزوى فى ركن منه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبها مستعينا بخياله على اصلاح عجلاتها وتحريكها حيث شاء ، وطالما تردد بين حجراته بغير استئذان فقبل بالترحيب والمداعبة من ربة البيت وابنتها اللتين يعدهما « على حداثة سنه » صديقتين قديمتين ، فكان يالف البيت بحجراته الثلاث التى تتوسطها صالة صغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النافذة التى تطل على حمام السلطان مباشرة كما يالف بيته بحجراته الواسعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء . والى هذا خلفت بعض متعلقات البيت أثرا فى نفسه استجابت له عهدا طويلا من صباه ، كعش يمامة فى أعلى المشربية المتصلة بحجرة مريم الذى تبدو حافته فوق ركن المشربية الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشتبك حوله القش والريش ويلوح منه أحيانا ذيل اليمامة الأم أو منقارها كيفما اتفق وضعها فيتطلع اليه تتنازعه رغبتان ، أحدهما - وهى المنبعثة من نفسه - تدعوه الى العبث به واختطاف الصغار ، والأخرى - وهى المكتسبة عن أمه - توقفه عند حد التطلع والعطف والمشاركة الخيالية فى حياة اليمامة وأسرتها ، وكصورة للسفيرة عزيزة معلقة بحجرة مريم أيضا زاهية الألوان رقراقة البشرة وسمية القسيمات . فافتت بجماها الحسناء التى تظالع صورتها عصره كل يوم بدران ماتوسيان فكان يديم النظر اليها متسائلا عن « حكايتها » فتقص عليه مريم من أنبائها ما تعلم وما لا تعلم بزلاقة لسان تستهويه وتستأثره . لم يكن

البيت بالغريب عليه اذن ، فشق سبيله الى الصالة دون ان يشعر به أحد ، وألقى على اولى الحجرات نظرة عابرة فلمح السيد محمد رضوان راقدًا في فراشه كما اعتاد أن يراه منذ سنوات . كان يعلم ان الشيخ مريض ، وقد سمع عنه كثيرا انه مشلول : حتى سال امه مرة عن معنى الشلل .. فجزعت وراحت تستعيد بالله من شر الاسم الذى نطق به فانكمش متراجعا ، ومنذ ذلك اليوم والسيد يستثير رثاءه واستطلاعه المقرون بالخوف . ثم مر بالحجرة التالية فرأى ام مريم واقفة امام المرأة وبيدها ما يشبه العجين تمطه فوق خدها وعنقها وتجذبه جذبات سريعة متتابعة ثم تتحسس موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف مسه وتطمئن الى نعمته ، ومع انها كانت فى الأربعين الا انها كانت بارعة الحسن كابنتها ، شغوفة بالضحك والدعابة . فما تلقاه حتى تقبل عليه فى مرح فتقبله ثم تسأله فيما يشبه نفاذ الصبر « متى تبلغ رشذك لاتزوجك ؟ » فيعلوه الحياء والارتباك وان استلذ مداعباتها وود الاكثار منها . وكما اثار فضوله هذه العملية التى تعكف عليها من حين لآخر أمام المرأة ، وقد سال امه عنها مرة فنهزته - والنهر اقصى ما تمارس من ضروب التأديب - مؤنبه اياه على سؤاله عما لا يعنيه ، بيد أن ام مريم اكبر ساحة ورقة فلما لحظته مرة يرمقها بدھشة أوقفته على مقعد امامها ولزقت بأنامله ما حسبه أول الامر عجيبة وبسطة له صفحة وجهها وقالت ضاحكة « اشتغل وأرنى شطارتك » فمضى يقلد حركاتها حتى اثبت لها شطارته بخفة غبطته عليها ، ولكنه لم يقنع بلذة التجربة فسألها « لماذا تفعلين هذا ؟ » فقهيقت قائلة « هلا انتظرت عشرة أموام أخرى حتى تعرف بنفسك ؟ ! . ولكن لا داعى للانتظار » أليست البشرة الناعمة أحسن من الخشنة ؟ .. هذه هى ؟ .. » وقد مر ببابها بخفة حتى لا يشعرها بنفسه لأن رسالته كانت اخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد الا مريم وحدها فى الحجرة الأخيرة متربعة على فراشها تقفز لباً وبين يديها طبق فنجان قد امتلأ بالقشر فلما رآته قالت بدھشة :

— كمال ! .. « كادت تسأله عما جاء به فى هذه الساعة ولكنها عدلت عما همت به أن تخيفه أو تخجله » .. شرفت البيت .. تعال اجلس ، الى جانبى ..

فمد لها يده بالسلام ، ثم فك ازرار حذائه ذى الرقبة الطويلة وخلعه ، ووثب الى الفراش فى جلياب مقلم وطاقية زرقاء منمنمة بخطوط حمراء . وضحكت مريم ضحكاتهما الرقيقة ودست فى يده شوية لب وهى تقول

- قزقز يا عصفور وحرك اسنانك اللؤلؤية .. أتذكر يوم عضضت معصمى وأنا ادغدغك .. هكذا .. ومدت يدها صوب أبطه ولكنه - بحركة عكسية - شبك ذراعيه على صدره ليحمى أبطيه ، وندت عنه ضحكة عصبية كما لو كانت اناملها دغدغته بالفعل ، ثم هتف بها - فى عرضك يا أبله مريم ..

فأمسكت عنه وهى تتعجب من خوفه قائلة :
- لماذا يقتعر بدنك من الدغدغة ؟! .. انظر الى كيف لا ابالى بها .. وراحت تدغدغ نفسها باستهانة وهى ترميه بنظرة ازدراء فلم يملك ان قال لها متحديا :

- دعينى ادغدغك انا وسبرى ..!
فما كان منها الا أن رفعت ذراعيها فوق راسها ففرس اصابعه تحت ابطيها وراح يدغدغهما بما وسعه من خفة وسرعة ، مثبتا عينيه فى عينيها السوداوين الجميلتين ليتلقف أول بادرة تضعض عنها ، حتى اضطر ان يسترد يديه متهددا فى ياس وخجل فشيخته بضحكة رقيقة ساخرة وقالت :

- ارايت أيها الرجل الصغير العاجز ! .. لا تزعم انك رجل بعد اليوم « ثم بلهجة من تذكر امرا هاما بغتة » .. يا داهيتى ! .. نسيت ان تقبلنى ! .. ألم انبه عليك مرارا بان تكون تحية لقائنا قبلة ؟! وأدنت وجهها منه فمد شفثيه ولثم خدها ، ثم رأى فتاتا من اللب المسرب من زاوية فيه قد التصق بخدها فأزاله بانامله فى حياء ، أما مريم فتناولت ذقنه بانامل ينالها وقبلت شفثيه مرة ومرة ، ثم سألتها عما يشبهه الاعجاب :

- كيف استطعت ان تغلت من بين أيديهم فى هذه الساعة ! ؟ .. لعل تيزة تبحث عنك الآن فى كل حجرات البيت ..
آه .. لقد استنام الى الحديث واللعب حتى اوشك ان ينسى الرسالة التى جاء من اجلها ، ولكن تساؤلها ذكره بمهمته فرنا اليها بعين أخرى . العين التى تود ان تنقب فى ذاتها عن السر الذى زلزل اخاه الرزين الطيب . الا أن تشوفه تهافت حيال شعوره بأنه يحمل انباء غير سارة ، فقام بوجوم :

- فهمى الذى أرسلنى ..
ارتسمت فى عينيها نظرة جديدة تفيض جدا ، وتفرست فى وجهه باهتمام لتزى ما وراءه فشعر بأن الجذ قد تغير كأنما أنتقل من فصل الى

فصل ، ثم سمعها تسأل بصوت خافت :

— 'له ؟! ..

فقال لها بصراحة دلت على انه لم بقدر خطورة الانباء التى يحملها رغم شعوره الفطرى بخطورتها ..

— قال لى بلغها تحياتى وقل لها انه استأذن والده فى خطبتها ولكنه لم يوافق على أن يعلن خطبته وهو تلميذ ، وطلب اليه ان ينتظر حتى يتم دراسته ..

كانت تحديق الى وجهه باهتمام شديد فلما بلغ السكوت خفضت عينيها دون ان تنبس بكلمة ، ففشيت الجلسة صمتة واجمة نساك بها قلبه الصغير ، وتلهف على كشفها مهما كلفه الامر فقال -

— 'انه يؤكد لك أن الرفض جاء على رغمه وانه يتعجب أسنين حتى يحقق ما يتمنى ...

ولما لم يجد لكلامه أثرا فى اخراجها من غشاوة الصمت ازداد بنهمه على اعادتها الى ما كانت عليه من بهجة ومرح فقال باغراء :

— هل أحدثك عما دار بين فهمى وبين نينته من حديث منك ؟ فتساءلت بلهجة بين الاكتراث وعدمه .

— ماذا قال وماذا قالت ؟

فانشرح صدره بهذا النجاح الجزئى وقص عليها ما ترمى اليه من حديث من وراء الباب حتى اتى عليه ، فخيّل اليه انها تنهد ، ثم قالت ببرم -

— ان والدك رجل شديد خيف ، الكل يعرفه هكذا ..

فقال وهو لا يدري :

— نعم ... ابى لذلك ...

ورفع رأسه اليها فى خوف وحذر ولكنه وجدها كالثائبة ، فسألها متدكرا ما وصاه به اخوه :

— ماذا اقول له ؟

فضحكت من انفها وهى تهز كتفيها ، وهمت بالكلام ، ولكنها أمسكت متفكرة مليا ، ثم قالت وقد التمعت فى عينيها نظرة مأكرة :

— قل له انها لا تدري ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب فى أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار .. !

وعنى كمال بحفظ الرسالة الجديدة أكثر مما عنى بفهمها ، وسرعان ما شعر بأن مهمته قد انتهت فأودع بقية اللب جيب جلبابه ، ومد لها يده بالسلاسل ، ثم انزلق الى أرض الحجر ومضى خارجا ..

بدت عائشة وهى تنظر فى المرأة شديدة الاعجاب بنفسها ، دون الأسرة اللامعة ، بل أى فتاة فى الحى كله تتحلى بمثل هذه الخصلات الذهبية وهاتين العينين الزرقاوين ؟ ! .. ان ياسين يتغزل بها جهارا ، وفهمى لا يخلو اذا تحدث اليها لأمر او لآخر من نظرات تنم عن الاعجاب ، حتى كمال الصغير لا يحلو له الشراب من قلة الا من الموضع المبتل بريقها ، وهذه أمها تدلثها فتدعوها « قمر » وان لم تخف قلقها نحو نحافتها ورقتها الأمر الذى جعلها تحت أم حنفى على تركيب وصفة لتسمينها . اما عائشة نفسها فاعلمها كانت أعرف الجميع بحسنها البارع كما تدل عليه عنايتها الشديدة به واستئناسها اليه . على ان هذه العناية المفرطة لم تمر بخديجة دون تعليق ، بل مؤاخذه وتقريع ، لا لأنها تستنيم الى الاهمال فالحق أن خديجة هى الوريثة الأولى لامها فى الولع بالنظافة والاناقة ، ولكن لانها رأت الفتاة تستقبل النهار عادة بتمشيط شعرها واصلاح هندامها حتى قبل التقيام بواجبات المنزل كأنها لا تطيق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية . ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هى الباعث على هذا التجميل الباكر ، فعند ذهاب الرجال كل الى عمله - تأوى الى حجرة الاستقبال وتفرج بين ضلفتى الشباك المطل على بين القصرين زيقا رقيقا فتقف وراءه مادة بصرها الى الطريق ، يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف . هكذا وقفت ذاك الصباح فظل طرفها حائرا ما بين حماس السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتى يواصل خفقانه حتى تراءى عن بعد « المنتظر » وهو ينعطف قادما من الخرنفش خاطرا فى بدلته العسكرية والتجمتان تلمعان على كتفه ، وجعل كلما اقترب من البيت يرفع فى حذر عينيه دون رأسه ، حتى تدانى من البيت فهفت فى اساريره ابتسامة خفيفة آية فى الخفة - تدرك بالقلب أكثر مما تدرك بالحواس - كأنها الهلال فى ليلته الأولى ، ثم أختفى تحت المشربية فاستدارت فى عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المطلة على النحاسين فما راعها الا أن ترى خديجة منتصبة على الكنبه بين النافذتين ملقبة بنظرها الى الطريق من فوق رأسها . ! فرت منها آهة ، واتسعت عيناها فى رعب فاضح ،

فتسمرت في موقفها .. متى وكيف جاءت ! كيف علت الكنبه دون ان تشعر بها ؟! .. وماذا رأت ؟! .. متى وكيف وماذا ؟ اما خديجة فقد ثبتت بصرها عليها وهى تضيق عينيها رويدا صامتة ، مطيلة الصمت كأنما لتطيل تعذيبها . ثم تمالكت عائشة بعض نفسها فخفضت عينيها في جهد شديد ومالت نحو الفراش متظاهرة - عبثا - بضبط الاعصاب وهى تغمغم :

- اربعتنى يا شيخخة ..!

الم تبد خديجة اكثرا ، ظلت بموقفها على الكنبه وعيناها الى الطريق خلل الزيق .. ثم تمت سخرة :

- اربعتك ؟! .. اسم الله عليك ! .. اصرى ببيع ..!

وعضت عائشة على نواجذها في غيظ وحنق ويأس بعد أن تراجعف قليلا الى مأمن من عينيها ، الا انها قالت بصوت هادىء :
- رأيتك فجأة فوق راسى دون أن أشعر بدخولك ، لماذا تسرقين الخطو ؟

فوثبت خديجة الى الأرض ، ثم جلست على الكنبه فى استرخاء ساحر وهى تقول :

- آسفة يا اختى ، فى المرة القادمة سأعلق جرسا فى عنقى مثل عربية المطافئ لتنتبهى الى حضورى فلا ترتعين

فقال عائشة فى ضيق والرعب لم يفارقها :

- لا الزوم لتعلق الجرس ، حسبك أن تسرى كالناس الذين خلقهم ربنا ..

فقال الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهى ترميها بنظرة ذات معنى :

- ربنا يعلم انى أسير كالناس الذين خلقهم ، ولكن الظاهر ان اذا وقفت وراء النافذة - أقصد وراء هذا الزيق - استفرقت فيما امامك بحيث تفقدن الوعي بما حولك فلا تبقين كالناس الذين خلقهم ربنا .
فنفخت عائشة مغممة :

- هكذا انت دائما

وعادت خديجة الى الصمت قليلا ، ثم حولت عينيها عن فريستها ، ورفعت حاجبيها كأنما تفكر فى مشكل عسير ، ثم تظاهرت بالسرور كأنها اهتدت للحل الموفق ، وقالت مخاطبة نفسها هذه المرة دون أن تنظر الى الأخرى :

- اذن لهذا فهى تغنى كثيرا « يابو الشريط الأحمر يالى أسرتنى ترحم

ذلى « ! .. وكم حسبته بسلامة نيتي يا عيني غناء بريئا لمجرد التسلية !
وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية ، وقع المحذور ولم يعد ينفع التعلق
بأوهام الأمانى الكاذبة ، وركبها اضطراب زلزل أركان نفسها فكادت تشرق
بالبكاء ، الا ان اليأس نفسه دفعها الى الاهتمات في الذود عن نفسها
فهتفت بصوت طمس اضطراب نبرات معانيه :

— ما هذا الكلام غير المفهوم !

ولكن لم يبد على خديجة انها سمعت كلامها فواصلت مخاطبة نفسها
قائلة :

— ولهذا ايضا تنزين في الصباح الباكر ! طالما ساءت نفسى ابعقل ان
تتبرج بنت قبل الكنس والتنفيض ؟ ! ولكن اى كنس واى تنفيض يا
خديجة يا مسكينة ، يا من ستعيشين بلهاء ، وتموتين بلهاء ، اكمنى انت
ونفضى انت ، ولا تنزينى لا قبل العمل ولا حتى بعده . ولماذا تنزينينى
. . عيسية ؟ ! انظرى من زيق الشباك من اليوم الى الغد فان اعتنى بك
عسكرى دورية اقطع ذراعى !

فهتفت عائشة في اضطراب وعصبية :

— حرام عليك .. حرام

— لها حق يا خديجة ، هذه فنون لا تستطعين فهمها بعقلك المظالم ،
عيون زرق ، وشعر من سبائك الذهب ، شريط احمر ونحمة لامعة
شئ مفهوم ومعقول

— خديجة ، انت مخطئة ، كنت انظر الى الطريق فحسب : لا لأرى
أحدا ولا ليرانى احد ، فالتفتت خديجة اليها كأنما تنبيه الى اعتراضها
لأول مرة وتساءلت كالمعتدرة :

— هل تخاطبينى يا شوشو ؟ ! لا مؤاخدة انى أفكر في بعض الامور
الهامة فأجلى حديثك انى حين ، وعادت تهز راسها في تفكير وتخاطب
نفسها قائلة :

— شئ مفهوم ومعقول ، ولكن ما ذنبك أنت ياسيد احمد عبد الجواد ؟ !
أسفى عليك يا سيد يا شريف يا كريم ، تعال شفى حرمك يا سيدى
وتاج راسى !

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم ابوها ، فدار راسها ، ورد على ذهنها
قول السيد لامها وهو يحمل على رغبة فهمى في خطبة مريم « اخبرينى
هل رآها ؟ » . . « ماكنت احسب ان لى ابناء يسترقون النظر الى حرمات

الجيران « ، هذا رأيه في الان فكيف يكون في البنت ! وهتفت بصوت مخنوق النبرات :

— خديجة .. لا يليق هذا .. انت مخطئة .. انت مخطئة

ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات اليها :

— ترى اهذا هو الحب ؟! يمكن ! الم يقولوا عنه : « الحب كبش في قلبى

.. قربت اروح منه طوكر »

ترى اين طوكر هذه ؟ ! لعلها في النحاسين ، بل لعلها في بيت السيد

احمد عبد الجواد

— ام اعد احنمل كلامك ، ارحمىنى من لسانك ، رباه .. لماذا لا

تصدقينى ؟ !

— تدبرى امرك يا خديجة ، ليس ما نحن فيه لعبا ، وانت الأخت

الكبرى ، والواجب هو الواجب مهما بدا مرا ، يجب أن يعلم اولو الشأن ،

هل تفضين بالسر الى والدك ؟ ؟ الحق انى لا ادرى كيف اخاطبه في مثل

هذا السر الخطير ، ياسين ؟ ! ولكنه كعدهم وغاية ما يرجى منه أن يترنم

بكلام غير مفهوم ، فهمى ؟ ولكنه يعطف بدوره على الشعر الذهبى اصل

البلوى كلها ، اظن من الأفضل أن أخبر نينة ، واترك لها التصرف بما ترى

وندت عنها حركة كأنها تهم بالقيام فهرعت عائشة اليها كدجاجة

مدبوحة وامسكت بكتفيها صائحة بصدر يعلو وينخفض ؟

— ماذا تريدن ؟

فتساءلت خديجة :

— اتهددينى ؟ !

همت عائشة بالكلام فخنفتها العبرات بفتة وهيمنت بكلام مزقه البكاء

شر ممزق ، وجعلت خديجة تحديق اليها صامتة متفكرة ، ثم زایل

أساريرها عبث السخرية حتى تجهم وجهها وهى تصغى في غير ارتياح

الى نشيج الفتاة ، ثم قالت بلهجة جدية لأول مرة :

— لقد أخطأت يا عائشة

وامسكت ووجهها يشتد تجهمه ، وكان انفها ازداد بروزا ، وبدأ عليها

التائر واضحا فاستطردت قائلة :

— يجب أن تقرى بخطئك « خبرينى كيف سولت لك نفسك هذا

العيب يا مجنونة ؟

فغمغمت عائشة وهى تجفف عينيها :

— أنت تسيئين الظن بى

فنفتخت خديجة مقطبة كأنما ضاقت بهذه المكابرة الضائعة ، بيد، أنها عدلت نهائيا عن نية الاعتداء أو حتى المعابشة ، أنها تعرف دائما أين ومتى تقف فلا تجاوز الحد ، وقد أشبعت السخرية ميولها العدوانية القاسية فنقنت بها كما تقنع بها عادة ، ولكن بقيت لديها ميول من نوع آخر - أبعد ما تكون عن العدوان والقسوة - لم تشبع بعد ، ميول تنبعث من عاطفة الأخت الكبرى ، بل من عاطفة أمومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة مهما اشتدت حملتها عليه أو حملته عليها ، وتحت تأثير الرغبة في إشباع هذه الميول الودية. قالت :

- لا تكابري ، لقد رأيت كل شيء بعيني ، لست الآن أهزل ولكنى أزيد أن أصارك بأنك أخطأت خطأ كبيرا ، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت في الماضي ولا يود أن يعرفه في حاضره أو مستقبله ، أنه الطيش وحده الذى أوقعك فيه ، اصغى الى واقعلى نصيحتى ، لا تعودى الى هذا أبدا ، لا يخفى شيء وإن طال كتمانها ، فتصورى ماذا يكون من أمرنا جميعا لو لحك أحد في الطريق أو أحد من الجيران ، وأنت أدري بالسنة الناس ، تصورى ماذا يكون لو نعى الخبر الى أبى والعياذ بالله !

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبر عن اعترافها ، وقد تضرع وجهها بحمرة الخجل ، ذلك الدم الذى ينزفه الضمير فى الداخل إذا جرحته خطيئة ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

- حذار ، حذار ، فاهمة ؟ .. « ثم نسمت عليها نسمة سخرية فغيرت الهجتها شيئا ما » ، ألم يرك ؟ فماذا يقعده عن أن يتقدم لك مثل الرجال الشرفاء ؟ وقتها تقول لك مع ألف سلامة ، بل فى ستين داهية يا ستى ..

استردت عائشة أنفاسها ، فأفتر ثغرها عن ابتسامة لاحت كلمعة اليقظة الأولى فى العين مقب غيبوبة طويلة ، وكان خديجة عز عليها - برؤية هذه الابتسامة - أن تغلت الفتاة من قبضتها بعد أن نعمت بامتلاكها فترة طويلة فصاحت بها :

- لا تظنى أنك بلغت بر الأمان ، أن لسانى لا يسكت إذا لم تحسنى مشاغلته ..

فتساءلت الأخرى فى ارتياح :

- ماذا تعنين ؟

- لا تركيه وحده حتى لا تعاوده نزعة الشر ، الهية بشيء من الخلو ليشغل بها عنك ، علبه ملبس مثلا من شنجراى

- ١٢٧ -

— لك ما تستهين وأكثر
وساد الصمت فشغلت كلتاهما بأفكارها ، على أن قلب خديجة كان
— كما كان من بادىء الأمر — مرتعا لضروب من المشاعر متباينة .. غيرة
وحنق واشفاق وحنان ..

- ٢٣ -

كانت ست أمينة مشغولة بأعداد أدوات القهوة استعدادا لجلسة العصر
التقليدية فجاءتها أم حنفى مهرولة ، يبشر لمعان عينيها بأنباء سارة ، ثم
قالت بلهجة موحية :

— ستى ثلاث سيدات غريبات يرغبن فى زيارتك ...
أخلت الأم يديها من كل شيء ، وانتصبت قامتها فى عجلة دلت على
تأثير الخبر فى نفسها ، وحدجت الخادم بنظرة اهتمام شديدة كأنه من المحتمل
أن تكون الزائرات من البيت المالك أو من السباء نفسها « ثم تمتعت استزادة
من التوكيد :

— غريبات ؟ !
فقالت أم حنفى بلهجة تنم عن فرحة الظفر :
— نعم يا ستى ، طرقت الباب ففتحت لهن فقلن لى « اليس هذا بيت
السيد أحمد عبد الجواد ؟ » فقلت لهن « بلى » فقلن « الهوانم فوق ؟ »
فقلت « نعم » فقلن « نريد أن نتشرف بالزيارة » فسألتهن « أقول من
الزائرات ؟ » فقالت لى احدهن ضاحكة « دعى هذا لنا ، وما على الرسول
الا البلاغ » فجئتك يا ستى طائرة وأنا أقول لنفسى « يا رب حقق لنا
الأحلام » ...

فقالت الأم بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها :
— ادعيهن الى حجرة الاستقبال ... أسرعى ...
والبثت دون حراك ثوان ، مستغرقة فى خواطرها الجديدة ، فى الحلم
السعيد الذى تفتحت لها دنياه الغناء فجأة وان بدا شغلها الشاغل طول
الأموم الأخيرة ، ثم أفاقت الى نفسها فنادت خديجة بلهجة لا تحتمل
التأجيل فجاءت الفتاة على الأثر ، وما أن التقت عيناها حتى غلبها
الابتسام وقالت وهى لا تملك نفسها من الفرح :
— ثلاث سيدات غريبات فى حجرة الاستقبال .. ارتدى خير

ملابسك .. واستعدى .. ولما تورد وجه خديجة تورد وجهها ايضاً كأنما انتقلت اليه عدوى الحياء ، ثم غادرت الصالة الى حجرتها في الدور الأعلى لتستعد بدورها لاستقبال الزائرات . وجعلت خديجة تنظر الى الباب حيث اختفت أمها ، غائبة الطرف ، وقلبها يخفق لحد الألم ، متسائلة « ما وراء هذه الزيارة ؟ » ثم نزعَت نفسها من موقفها ، وسرعان ما استرد عقلها نشاطه الفائق فنادت كمال الذي جاءها من حجرة فهمى فبادرته قائلة :

— اذهب الى ابلة مريم وقل لها ان خديجة تقرئك السلام وترجوك ان ترسلى لها معى علبة البودرة والكحل والأحمر ..
وتلقف الفلام الأمر وهو يعدو الى الخارج « اما خديجة فأسرعت الى حجرتها ومضت تخلع جلبابها وهي تقول لعائشة التي لحظتها بعين متسائلة :

— اختارى لى أحسن فستان ... أحسن فستان بلا استثناء ..
فتساءلت عائشة :

— ما الداعى الى هذا الاهتمام ؟ .. زائرة ؟ من ؟ ! ..
فقالت خديجة بصوت خافت :

— ثلاث سيدات .. « ثم وهى تضغط على مخارج اللفظ » ...
غريبات ... !

فتراجع رأس عائشة في دهش ، ثم اتسعت عيناها الجميلتان سرورا ، وهتفت :

— آه .. هل يفهم من هذا ان .. ياله من خبر
— لا تتسرعى في الحكم .. فمن يدري عما هناك
فانجحت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقى الفستان المناسب وهى تقول ضاحكة :

— فى الجو شيء .. ان الفرح يشم كالروائح الزكية ..
فضحكت خديجة لتخفى اضطرابها ، واقتربت من المرأة ونظرت الى صورتها بامعان ، ثم أخفت أنفها براحتها وقالت بتهكم :

— لا بأس بوجي الآن ، وجه مقبول « ثم رافعة راحتها » .. اما على هذه الحال قربنا وحده المنجى ! ..

فقالت عائشة ضاحكة وهى تساعد في نفس الوقت على ارتداء فستان أبيض موشى بأزهار بنفسجية :

— لا تغمطى نفسك ... الا يسلم شيء من لسانك ! .. ليست العروس
انفا فحسب ، هناك العينان والشعر الطويل ، والدم الخفيف ! ..
فلوت خديجة بوزها قائلة :
— الناس لا ترى الا العيوب ...
— هذا صحيح بالقياس الى من على شاكلتك من الناس : ولكن ليس
كل الناس على شاكلتك والحمد لله ...
— سوف اجيبك حين أفرغ لك ! ..
فربت الأخرى على خصرتها وهي تسوى الفستان قائلة :
— ولا تنسى هذا الجسم البض المتلى ... ياله من جسم !
فضحكت خديجة فى سرور وقالت :
— لو كان العريس اعمى ما عملت حسابا لشيء .. وانى ارضى به فى
تلك الحال ولو كان شيخا من شيوخ الأزهر ..
— وماذا يعيب شيوخ الأزهر ! .. اليس منهم من خرائه كالبحر ؟ !
ولما فرغا من الفستان ندت عن عائشة نفمة تأفف فسالتها خديجة :
— ماذا بك ؟
فقالت بتذمر :
— ليس فى بيتنا كله نقطة بودرة أو كحل أو أحمر كأن ليس به نساء ! ..
— من الأفضل أن تبغى هذا الاحتجاج لوالدنا ..
— اليست نينة سيدة ومن حقها أن تتزين ؟
— انها جميلة هكذا بلا زينة !
— وحضرتك ؟ هل تلقين الزائرات هكذا ؟
فقالت خديجة ضاحكة :
— أرسلت كمال الى مريم ليعود بالبودرة والكحل والأحمر ، وهل
وجهى وجه أقابل به الخاطبات عاطلا ؟ !
ولما كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نزعت خديجة
منديل رأسها وأخذت تحل ضميرتها الغليظتين الطويلتين ، على حين
جاءت عائشة بالمشط وراحت تمشط شعرها المسترسل وهى تقول :
— ياله من شعر سبط طويل .. ما رأيك ؟ سأجعله فى ضفيرة واحدة ،
الا يكون ذلك أروع ؟
— بل ضفيرتين .. ولكن خبرينى هل أبقى الجراب فى قدمى او أدخل
عليهن عارية الساقين ؟

ان الوقت شتاء يستوجب لبس الجراب ولكنى اخشى اذا ابقيته ان يحسبن بساقتك او قدمك عيبا تتعمدين اخفائه .. !

- صدقت ، ار المحكمة ارحم من الحجرة التى تنتظرنى الآن ..

- قوى قلبك ، ربنا يوعدنا ..

وهنا دخل الحجرة كمال مسرعا وهو يلهث فقدم الى اخته ادوات الزينة وهو يقول :

- قطعت السلم والطريق جريا ..

فقال له خديجة باسمه :

- عفارم ، عفارم .. ماذا قالت لك مريم ؟

- سألتنى هل عندنا ضيوف .. ومن هن ، فأجبته بانى لا ادرى ..

فتجلت فى عينى خديجة نظرة اهتمام وهى تساله :

- وهل قنعت بهذه الاجابة ؟

- حلفتنى بالحسين ان اصرح لها بما عندى فحلفت لها بانه ليس عندى

غير ما قلت ..

فضحكت عائشة قائلة ويذاها لا تكفان عن العمل ..

- ستخمن ما هنالك ..

فقال خديجة وهى تلد البودرة على وجهها :

- انها بنت هرمة ، وهيئات ان يفوتها شىء ، واراهاك على انها سوف

تزورنا غدا على اا كثر لاجراء تحقيق شامل ..

ولم يشأ كمال ان يغادر الحجرة كما كان المنتظر ، او لعله لم يستطع

مغادرتها تحت اغراء المشهد الذى يمثل امام عينيه ، والذى يراه لأول مرة

فى حياته فلم يسبق له ان رأى وجه اخته وهو يلقي هذا التغير الذى

استحال معه وجها جديدا ، البشرة تبيض والوجنتان تتوردان والعينان

تسطبع اشقارهما بسواد لطيف يرسم لهما حدودا جذابة ويضفى على

حذقيتهما صفاء بهيجا ، وجه جديد هش له قلبه فطرب هاتفا :

- انت يا ابله الآن كالعروس التى يشتريها بابا فى موالد النبى ...

فضحكت الفتاتان ، وسألته خديجة :

- هل أعجبك الآن ؟

فاقرب منها مسرعا ومد يده صوب ارنبة انفها وهو يقول :

- لو تزول هذه !

فتفادت من يده ، ثم قالت لاختها :

- اخرجى هذا المنام ..

فقبضت عائشة على يده وجذبتة الى الخارج رغم مقاومته حتى اخرجته واغلقت الباب ، ثم عادت الى استئناف عملها الجميل ، فواصلتا نشاطهما في صمت وجد . ومع انه كان من المتفق عليه في الأسرة ان تقتصر مقابلة الخاطبات على خديجة وحدها الا ان الفتاة قاتلها عائشة على سبيل المكر :

- ينبغي ان تتأهبي انت ايضا لاستقبال الزائرات
فقالت عائشة بمثل مكر اختها :

- ان يكون هذا قبل ان تزفي الى عريسك !

ثم استدركت قائلة قبل ان تتكلم خديجة :

- اما الآن فكيف للنجوم ان تطلع مع القمر ؟ !

فرمتها أختها بنظرة مستريية وتساءلت :

- من يكون القمر ؟

فقالت عائشة ضاحكة :

- طبعاً انا . . !

فلكرتها بكوعها ، ثم تنهدت قائلة :

- لو تعيرينني انفك كما أعارتني مريم علة بودرتها !

- تناسي انفك ولو الليلة على الأقل ، ان الأنف - كالدمل - يضخم

لدأب على التفكير فيه . . !

أوشكتا عند ذاك على الفراغ من عملية التجميل ، فتراخى انتباه خديجة عن التركيز في مظهرها وانبج في رهبة الى موقف الامتحان الذي ينتظرها فشعرت بخوف لم تشعر بمثله من قبل ، لا بالقياس الى جدته فحسب ولكن - قبل كل شيء - بالقياس الى خطورة عواقبه ، وما لبثت ان قالت متشكية :

- اية جلسة هذه التي قضى على بها . . . تصوري نفسك في مكاني ،

بين نسوة غريبات لا تدرين على خلق خلقهن ولا اى اصل اصلهن ، وهل

جنن بنية صادقة او لمجرد الفرجة والتسلية ، وماذا يكون من امرى لو

كن عيابات شتامات (ثم ضاحكة ضحكة مقتضبة) مثلى مثلاً . . هه ؟

وماذا بوسعى الا ان اجلس بينهن في ادب واستسلام اتلقى نظراتهن من

اليمين والشمال ، ومن الامام والخلف ، وأصمدع بأمرهن بلا ادنى تردد ،

اذا طلبن قياما قمت ، او مشيا مشيت او كلاما تكلمت حتى لا يفوتهن

شيء من جلوسى وقيامى وصمتى وكلامى وأعضائى وقسماتى ، وعلينا بعد

هذه « البهدة » كلها ان نتودد اليهن ونطرى لطفهن ، وكرمهن ، ثم لا

- ١٣٢ -

ندرى بعد ذلك أنفوز بالرضى او نفوز بالغضب ، أف .. أف .. ملعون
الذى أرسلهن !

فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنى :
- بعد الشر عنه !

فقال خديجة ضاحكة أيضا :

- لا تدعى له حتى نتأكد أنه من نصيبنا .. آه يا ربى كم أن قلبى
يدق ! ..

فتراجعت عائشة خطوة عن مرمى كوعها وقالت :

- صبرك .. ستجدين فى المستقبل فرصا كثيرة للانتقام من مجلس
اليوم الرهيب ، فكم سيصلين من نار لسانك وأنت ست البيت ...
وللهن يذكرن امتحان اليوم وهن يقلن لأنفسهن ياليت الذى جرى
ما كان ... !

وقنعت خديجة بالابتسام ، لم يكن فى الوقت متسع لرد الهجوم ، ولم
تجد فى الهجوم - الذى تجد فيه عادة سرورا شافيا - لذة على الإطلاق
لغلبة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء ، ولما فرغا من
مهمتهما وقفت تلقى على صورتها نظرة شاملة وعائشة - الى الوراء
خطوتين - تردد نظرها بعناية بين الصورة والأصل ، وجعلت خديجة
تتمتم :

- احسنت يدك ، منظر حسن اليس كذلك ؟ .. هذه خديجة
حقا .. لا بأس بأنفى الآن .. جلت حكمتك يا رب ، بقليل من الجهد
صار كل شيء مقبولا فلماذا ! (ثم مستدركة بسرعة) استغفر الله العظيم ،
لك فى كل شيء حكمة ..

وتراجعت خطوات وهى تفحص صورتها بعناية ثم قرأت الفاتحة فى
سرهما ، والتفتت نحو عائشة قائلة :

- ادعى لى يا بنت .

وغادرت الحجرة ..

- ١٣٣ -

- ٢٤ -

انكسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة تمثلت في المدفأة الكبيرة التي توسطت الصالة فتكاكات حولها الأسرة ، الذكور في معاطفهم والنساء ملتفات بخماراتهن ، فهياً لهم المجلس الى لذة الشراب وحلو السمر متعة الدفء ، وقد بدا فهمى - على حزنه الصامت الطويل في الايام الاخيرة - كمن يتحفز لمواجهة اهله بخبر هام ، ولم يكن تردده وطول تفكيره الا دليلاً على خطورة الخبر وأهميته ، بيد انه انتهى من تفكيره وتردده الى التصميم على ابلاغه ملقياً عباءه بعد ذلك على والديه والاقدار ، فلذلك قال :

- عندى خبر هام لكم فاسمعوا ..

فتطلعت اليه الاعين باهتمام لم يشد عنه احد ، لان ما عرف به الشاب من اتران جعل الجميع ينتظرون خبراً هاماً حقاً كما قال ، اما فهمى فاستطرد قائلاً :

- الخبر هو أن حسن افندى ابراهيم ضابط قسم الجعالية - وهو من معارفى كما تعلمون - قابلنى ورجانى أن أبلغ والدى رغبته فى خطبة عائشة .. !

وأحدث الخبر - كما قدر فهمى من قبل ما دعاه الى التردد وطول التفكير - أثراً جديداً متباينة ، فتطلعت الأم اليه باهتمام شديد ، على حين صفر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويهز رأسه ، وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياءً ولتخفى وجهها عن الأعين ابن تفضحها أسرارها فتعلن للناظرين ما يضطرب فى قلبها الخافق ، اما خديجة فقد تلقت الخبر بدهشة بادية الأمر لم تلبث أن انقلبت خوفاً وتشاؤماً لم تدر لهما سبباً واضحاً ولكنها كانت كتلميذ ، يتوقع بين آونة وأخرى ظهور نتيجة الامتحان - اذا تناهى اليه نجاح زميل له بلغته النتيجة من مصدر خاص ، وتساءلت الأم فى ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة :

- اهذا كل ما قال ؟

فقال فهمى وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة :

- بدانى بقوله انه يود أن يشرف بطلب يد شقيقتى الصغرى ..

— وماذا قلت له ؟

— شكرت له حسن ظنه بطبيعة الحال ..

لم تطرح عليه السؤال تلو السؤال رغبة في استطلاع شيء تود معرفته ، ولكن لتدأرى ارتباكها وتنتزع من المفاجأة مهلة للتروى ، ثم راحت تنسأئل ترى هل لهذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتي جئنها منذ أيام ؟ ! وذكرت عند ذاك كيف قالت احدهن — قبل ظهور خديجة — وهى بمعرض الحديث عن أسرة السيد أحمد انهن سمعن أن للسيد كريمةين فأدركت وقتها انهن جئن لرؤية الفتاتين ولكنها تصامت عن الاشارة ، وقد انتسبت الزائرات الى أسرة تاجر بالدرب الأحمر — غير والد الضابط الذى قال فهمى عنه مرة أنه موظف بوزارة الأشغال — ولكن هذا لا ينفى نفيا قاطعا العلاقة بين الأسرتين لأنه من المألوف أن تبعث الأسر بخاطبات من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الخرص ، وكم ودت أن تسأل فهمى عن هذه النقطة بالذات وكأنها اشفقت من أن يجيء الجواب مصداقا لمخاوفها فيقضى على آمال ابنتها الكبرى ويسيمها خيبة جديدة ، بيد أن خديجة نابت عن أمها — اتفاقا — بطرح ما يعتلج في صدرها خارجا حين دارت هبوطها بضحكة فائرة وقالت متسائلة :

— لعله هو الذى بعث بالزائرات اللاتي زرنا منذ أيام ؟

ولكن فهمى بادر قائلا :

— كلا ، فقد قال لى أنه سيرسل أمه إلينا فى حالة الموافقة على طلبه .. ولكنه بخلاف لهجته الموحية بالصدق ، لم يكن صادقا فيما قال ، فقد فهم من حديث الضابط أن السيدات اللاتي زرن والدته قريباته ، بيد أنه اشفق من ايلام شقيقته الكبرى التى كان — على حبه عائشة — واقتناعه بجدارة صديقه الضابط — يعطف عليها عطفًا أخويا ، ويألم أشد الألم لسوء حظها ، ولعله كان لما منى به هو من خيبة أثر قوى فى البلوغ بهذا العطف ذروته . وضحك ياسين ضحكة فليظة وقال بجمل صبياني :

— يبدو اننا سنجمع قريبا بين فرحتين .

فهتفت الأم فى فرح صادق :

— ربنا يسمع منك ..

— هل تخاطبين أبى نيابة عني ؟ ..

ندعنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عما عداها ، ولكنه — عقب النطق به — وقع من أذنيه موقعا غريبا ، فكأنه ألقى عليه من حافظة

ذكرياته لا من طرف لسانه ، او كأنه حين القى على سمعه لم يقف عند أذنيه ولكنه غاص الى أعماقه ثم طفا عالقاً به ما علق من ذكرياته . وللحال ذكر سؤالا مماثلا لهذا السؤال توجه به الى أمه في ظروف مشابهة فانقبض قلبه ، وهاجت آلامه . وعاوده احساسه بالظلم الذى واد أمه ، وجعل يقول لنفسه كما قال لها مرارا ، فى الأيام الأخيرة كم كان يكون سعيدا بيومه مستبشرا بغده راضيا عن الحياة كلها لولا ارادة أبيه القاسية ، وانتزعتة الذكرى من الاهتمام يشئون غيره : فاستسلم للحزن الذى يقرض شفاف قلبه . اما الأم ففكرت مليا ثم تساءلت :

— الا يحسن بنا أن نفكر فيما عسى أن أجيب أبك اذا سألنى عما دعا الضابط الى طلب يد عائشة بالذات ، ولماذا لم يطلب يد خديجة ، ما دام لم ير لا هذه ولا تلك ؟ .

وانتبهت الفتاتان الى ملاحظة أهمها معا ، ولعلهما ذكرا موقفهما وراء النافذة فى وقت واحد ، بيد أن خديجة تلقت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن ، واحتج قلبها على الحظ الأعمى الذى يابى الا ان يعجزى. النرق والاستهتار بالاحسان ، اما عائشة فقد اعترضت تيار سرورها ملاحظة أمها كما تعترض الخلق — وهو نشوان بازدراد اكلة للذبة شهية — شودة حادة مدسوسة فى الطعام ، وسرعان ما امتص الخوف حرارة الفرح التى كان ينتفض بها روحها . فهمى وحده الذى ثار على قول أمه ، لا دفاعا كما بدا عن عائشة — فانه ما كان يعجز. الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة فى هذه النقطة الحساسة بالذات — ولكن غضبا لحزنه العظيم الذى لم يسعه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه ، فقال محتدا يخاطب أباه فى شخص أمه ، وهو لا يدرى :

— هذا تعسف ظالم لا مبرر له من عقل أو حكمة . الا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نساء مخدرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتي لا يقصدن بحديثهن الا الجمع بين رجل وامرأة فى الحلال .
والكن الأم لم تقصد باعتراضها الا تواريا وراء أبيه حتى تجد مخرجاً من المأزق الذى وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة ، فلما صارحها فهمى باحتجاجه لم تجد بدا من مصارحته بما يدور :

— الا ترى انه من الأفضل أن ننتظر حتى ياتينا نبأ الزائرات ؟ !
ولم تعد خديجة تطبق الصمت مدفوعة بكبرياتها التى أبت عليها الا أن تعلن عدم المبالاة بالأمر كله بالرغم مما يصطرح داخلها من القلق والتشاؤم ، فقالت :

— هذا شيء وذاك شيء آخر وليس ثمة داع لتأجيل هذا من أجل ذاك . .
فقالَت الأم بهدوء مؤثر :
— كلنا متفقون على تأجيل زواج عائشة حتى تتزوج خديجة .
ولم يسع عائشة إلا أن تقول برقة وتسليم :
— هذا أمر مفروغ منه . .

امتلاً صدر خديجة حنقا لدى سماع النبرات الرقيقة التي تتكلم ،
ولعل رقتها نفسها كانت أشد ما أحرقها ، رجاً لأنها أوحى بعطف أبته
كل الإباء ، أو لأنها ودت لو تعلن الفتاة معارضتها صريحة لتتيح لها
فرصة لمهاجمتها بما يشفى حنقها على حين قام ذاك العطف الكاذب
البيّض درعا يدفع عنها الأذى ويضاعف من حنق المتربص المتحفز ،
وأخيراً لم يسعها إلا أن تقول بلهجة لم تخل من حدة :
— لا أوافق على أن هذا أمر مفروغ منه ، فليس من العدل أن يحملكم
حظ عائر على كسر حظ سعيد ! . .

وتنبه فهمي إلى ما ينطوي عليه كلام خديجة من حزن غاضب بالرغم
من ظاهره الموحى بالإيثار فانتزع نفسه من قبضة أحزانه الشخصية
نادماً على ما صدر منه من قول في غضبته مما قد تحسبه خديجة ميلاً
صريحاً منه إلى قضية اختها فقال موجهها خطابه إليها :
— ان مفاتحة باباً عن رغبة حسين أفندي لا تعني التسليم بتقديم
زواج عائشة على زواجك ، وما علينا من بأس إذا نلنا موافقته على
الخطبة ، ان نؤجل إعلانها للوقت المناسب ! . .

ولم يكن ياسين مقتنعاً بوجهة الرأي الذي يحتم تقديم زواج على
زواج ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية للأفصاح عن رأيه إلا أنه روح
عنه بكلام عام يفهم منه من يشاء ما يشاء فقال :

— الزواج مصير كل حي ، ومن لم تتزوج اليوم فستتزوج غدا .
وهنا انطلق صوت كمال الرفيع — الذي كان يتابع الحديث باهتمام —
متسائلاً على غير انتظار :

— نينة . . لماذا كان الزواج مصير كل حي ؟
ولكنها لم تعن بالاتفات إليه ، فلم يحدث تساؤله من اثر الا عند
ياسين الذي قعقع بضحكة غليظة دون أن ينبس بكلمة ، على حين
قالت الأم :

— أعلم ان كل فتاة ستتزوج اليوم أو غدا ولكن هنالك اعتبارات
لا ينبغي اغفالها . .

- ١٣٧ -

وعاد كمال يسألها :

- وهل ستتزوجين أنت أيضا يا نينة ؟

وضج الجميع ضحكا فخفف هذا من حدة التوتر وانتهر ياسين هذه الفرصة السانحة فتشجع قائلا :

- أعرضي الأمر على أبى ، فالكلمة كلمته على أى حال ..

وقالت خديجة باصرار غريب :

- لا بد من هذا ، لا بد من هذا ..

كانت تعنى ما تقول : لأنها من ناحية تعلم باستحالة اخفاء مثل هذا الأمر عن أبيها ، ولأنها من ناحية أخرى تعتقد بأن والدها لا يمكن أن يقبل تقديم زواج عائشة عليها ، ولأنها - الى هذا وذاك - مازالت تصر على التظاهر باللامبالاة ، ومع أنها لم تكن تعلم بما بين الضابط والزائرات من سبب .. الا أن القلق والتشاؤم اللذين شعرت بهما من بادئ الأمر لم يتخليا عنها لحظة واحدة .

- ٢٥ -

مع ان السيدة أمينة جربت في حياتها أكثر من سبب من الأسباب التى تذكر الصفو الا أنها لم تكن قديمة عهد بنوع طارئ من هذه الأسباب ، امتاز بطابع خاص به ، اذ بدا في ذاته - على خلاف سوابقه - مما يجمع الناس على اعتباره من أسس السعادة الجهرية في الدنيا ، ومع هذا انقلب في بيتها ، بل في قلبها خاصة ، باعنا هاما من بواعث القلق والكدر ، وكما كانت صادقة وهى تسائل نفسها : من كان يظن أن مقدم عريس ، الأمر الذى تتلف النفوس على استقباله ، يجر علينا هذا التعب كله ! .. ولكن هكذا جرى الحال ، فتنازع قلبها أكثر من رأى دون أن تطمئن الى واحد منها ، رأت حيناً أن الموافقة على زواج عائشة قبل خديجة كفيلة أن تقضى على مستقبل ابنتها الكبرى ، ورات حيناً آخر أن الاحاح في معارضة الاقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على الفتاتين بأوخم العواقب ، والى هذا وذاك شق عليها كثيرا أن توصد الباب فى وجه عريس رائع كالضابط الشاب ليس من اليسير أن يجود الحظ بمثله مرة أخرى ولكن ما عسى أن يكون حال خديجة اذا تمت الموافقة وما عسى أن يكون حظها ومستقبلها ؟ ! .. لم تدر لنفسها

مستقرا ، خاصة وأن ما طبعت عليه من سلبية شاملة جعلها اعجز من أن تجد حلا موفقا لمشكل من المشاكل ، ولهذا وجدت راحة وهى تتحفز لاقاء العبد كله على عاتق السيد ، بل وجدت هذه الراحة بالرغم مما يخامرها من خوف كلما أقدمت على مفاتحته بأمر ترتاب فى حسن تقبله له ، وقد انتظرت حتى فرغ من احتساء قهوته ثم قالت بصوتها المهموس الناطق بالأدب والخضوع :

- سيدى .. حدثنى فهمى قال أن صديقا له رجاء أن يعرض عليك رغبته فى خطبة عائشة ..

سددت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق الكنبه الى حيث تجلس المرأة على شلثة غير بعيدة من قدميه ، كأنما تقول لها : « كيف تحدثينى عن عائشة وأنا فى انتظار اخبار عن خديجة بعد ما كان من نبا الزائرات الثلاث » .. ثم تسأل ليستوثق مما سمع :

- عائشة ؟ ..

- نعم يا سيدى ..

ونظر السيد أمامه فى ضيق ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

- قررت من زمن بعيد أن هذا امر سابق لأوانه ..

فقلت المرأة فى عجلة أن يظن بها معارضة لرايه :

- انى أعلم رايك يا سيدى ، ولكن يجب على أن أطلعك على كل شىء

مما يدور بيننا ..

تفحصها الرجل ببصر حاد كأنه يسبر ما فى قولها من صدق واخلاص ولكن لمعت عيناه بخاطر طارئ حال بينه وبين تفحصها ، فتسأله فى اهتمام. وقلق :

- ترى الهدا علاقة بالسيدات اللاتى زرنك ؟

أجل ، علمت بهذه العلاقة ، وهى منفردة بفهمى ، وقد اقترح عليها الشاب أن تخفى أمرها عن والده عند مفاتحته بالخبر فوعده بالتفكير فى المسألة طويلا ، وترددت بين قبولها ورفضها ، ثم مالت أخيرا الى كتمانها كما اقترح فهمى ، ولكنها حين جوبهت بسؤال السيد وهى تشعر بنظرة عينيه كضوء الشمس الوهاج شععت عزمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد :

- نعم يا سيدى ، علم فهمى أنهم قريبات صديقه ..

فعبس السيد غاضبا ، وكعده اذا غضب امتلأت صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشرر من عينيه . من يستهن بخديجة فكأنما استهان

بشخصه ، ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه في صميم كرامته ، ولكنه لم يدر كيف يعلن غضبه الا عن طريق صوته الذى علا وغلظ وهو يتساءل بحنق وازدراء :

— من هو هذا الصديق ؟

فقالت — وهى تجد للنطق بالاسم قلقا لا تدرى له من سبب :

— حسن ابراهيم ضابط قسم الجمالية .

فقال السيد متسائلا فى انفعال :

— قلت أنك أدخلت خديجة وحدها على السيدات !؟..

— نعم يا سيدى ..

— هل زرتك مرة أخرى ؟

— كلا يا سيدى والا كنت أخبرتك .

فسألها منتهرا كأنها هى المسئولة عن هذه الغرابة :

— أرسل قريباته فراين خديجة ، وإذا به يطلب عائشة !.. ما معنى

هذا ؟ ! ..

فازدردت الأم ريقها الذى جف بين الأخذ والرد وتمتمت :

— فى مثل هذه الحال لا تدخل الخاطبات البيت المقصود الا بعد أن

يزرن كثيرا من بيوت الجيران متحريات عما يهمهن ، وبالفعل قد أشرن فى

حديثهن معى الى أنهن سمعن بأن للسيد كريميتين ، ولعل تقديم واحدة

دون الأخرى ..

أرادت أن تقول « لعل تقديم واحدة دون الأخرى وكذا لديهن ما

سمعن عن جمال الصغرى » ولكنها أمسكت خوفا من مضاعفة غضبه

من ناحية ، واشفاقا من الجهر بهذه الحقيقة التى ترتبط فى ذهنها بألوان

قائمة من القلق والأسى من ناحية أخرى ، فأمسكت مكتفية باتنام الحديث

بإشارة من يدها كأنها تقول « الخ الخ » .

وحده السيد اليها بنظر حاد حتى غضت الطرف استخذاً ،

وانقلب الى حال من الامتعاض والحزن كثفت الغضب فى صدره فمضى

يقرع أضلعه يروم متنفساً أو ينشد صحبة ، ثم صاح بصوت عاصف :

— عرفنا كل شيء ، هاهو ذا عريس يتقدم طالبا يد ابنتك فاسمعينى

رايك ؟ ..

شعرت بسؤاله يستدرجها الى حفرة لاقرار لها فقالت بلا تردد وهى

تبسط راحتها فى تسليم :

— رأيى رايك يا سيدى ولا رأى لى غيره ...

فصاح في زجرة :

— لو كان الأمر كما تقولين ما فاتحتني في الأمر .

فقلت في لهجة ملهوجة واشفاق :

— ما حدثك يا سيدى الا لاخبرك عما جد في الأمر ، لأن واجبى

يقضى على بأن اطلعك على كل ما يتصل ببيتك من قريب او بعيد . .

فهز راسه في حنق قائلا :

— من يدري . . اى والله من يدري . . ما أنت الا امرأة ، وكل امرأة

ناقضة عقل ، والزواج خاصة يفتنك عن الرشاد ، فلعلك . .

فقاطعته بصوت متهدج :

— سيدى اعود بالله مما تظن بى ، ان خديجة ابنتى ومن الحمى ودمى

كما هى ابنتك . . وان حظها ليفتت كبدي ، اما عائشة فما تزال في اول

ربيعها ولن يضيرها ان تنتظر حتى ياخذ الله بيد شقيقتها . .

فراج يمسح براحته على شاربه الغليظ بحركة عصبية حتى توقف

فجأة ، كأنما تذكر أمرا وتساءل :

— هل علمت خديجة ؟

— نعم يا سيدى . .

فلوح بيده غاضبا وهو يصيح :

— كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالزعم من ان احدا لم يرها ؟!

فقلت بحرارة وقلبا يرتجف :

— قلت يا سيدى لعلهن سمعن عنها . .

— ولكنه يعمل في قسم الجمالية اى في حيننا ، وكأنه من أهله . .

فقلت الأم في تأثر شديد :

— ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتى منذ انقطاعهما عن المدرسة

في سن الطفولة . .

فضرب كفا بكف وصاح بها :

— مهلا . . مهلا . . هل جيبتنى اشك في هذا يا ولية ؟ ! لو شككت

فيه ما اشبعنى القتل !

انما اتحدث عما قد يجرى في عقول بعض الناس ممن لا يعرفوننا ،

« ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتى » . . ما شاء الله ، وهل كنت

تريدين ان تقع عين رجل عليهما ؟ ! . . يا لك من مجنونة مهدارة ، انى

أردد ما قد تشيع به السنة السفهاء من الناس « اجل . . انه ضابط

الحى ، يسير في شوارعنا صباح مساء فلا يبعد أن يقوم عند البعض ظن

عن احتمال رؤيته لاحدى الفئتين اذا علموا بزواجه منها .. لا احب
لا اريد ان اعطى ابنتى لاحد لينير الشبهات حول سمعتى . بل لن تنتقل
ابنتى الى بيت رجل الا اذا ثبت لدى ان دافعه الاول الى الزواج منها
هو رغبته الخالصة فى مصاهرتى انا .. انا .. انا .. « لم تقع عين رجل
على احدى ابنتى » .. مبارك .. مبارك يا ست امينة ..

وصفت الأم دون أن تنبس بكلمة فساد انصمت الحجرة ، ثم نهض
الرجل فأذنها نهوضه بأنه سيشرع فى ارتداء ملابسه استعدادا للعودة
الى الدكان فبادرت بالقيام ، ونزع السيد ذراعيه من الجلباب ورفع
ليخلعه ، ولكنه توقف قبل أن تجاور طاقة الجلباب ذقنه ، وقال
والجلباب مكموم فوق منكبه كلبدة الأسد :

— ألم يقدر سى فهمى خطورة الطلب الذى تقدم به صديقه ؟
(ثم محركا رأسه فى أسف) : يحسدنى الناس على انجاب ثلاثة ذكور .
والحق انى لم أنجب الا اثنا .. خمس اثاث .

على اثر مغادرة السيد للبيت ذاع رايه فى خطبة عائشة ، ومع أنه قبول
بتسليم عام — تسليم من لا حيلة لهم سوى التسليم — الا أنه كان
متباين الصدى فى النفوس . أسف فهمى للخبر ، وساءه أن تفقد عائشة
زوجا صالحا مثل صديقه حسن ابراهيم ، أجل كان قبل أن يبت أبوه
فى الأمر مترددا بين التحمس للعريس المتقدم وبين العطف على موقف
خديجة الدقيق ، فلما أن قضى الأمر واستراح جانبه المشفق على
خديجة أسف جانبه الآخر الراغب فى سعادة عائشة ، وأمكنه أن يجهر
برأيه فقال :

— لا شك أن مستقبل خديجة يهمنا جميعا ولكننى لا اوافق على
الاصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنه التى تتاح لها ، الحظ
غيب لا يعلمه الا الله ، ولعل الله يدخر للمتأخر حظا أوفر من المتقدم ..
ولعل خديجة كانت أشد الجميع شعورا بالحرج لوقوفها للمرة الثانية
عشرة فى سبيل اختها ، لم تكن تفكر فى الحرج وهى تحت المطرقة ، ولكن
حين نما اليها رأى ابنها الحاسم ، وتفقه الخطر الذى يتهدها ، زایلها
الحق والألم وحل محلها شعور اليم بالحجل والحرج ، ومع ان حديث

فهى لم يترك فى نفسها اثرا حسنا لأنها طمعت فى أعماقها أن تجد من الجميع حماسا لرأى أبيها وأن تبقى هى الوحيدة المعارضة له ؛ إلا أنها قالت معلقة عليه :

— صدق فهى فيما قال : وكان هذا رأى دائما ..

فعاد ياسين يؤكد رأيه السابق قائلا :

— الزواج مصر كل حى .. لا تخافوا .. ولا تجزعوا ..

قنع هذه المرة بالكلام العام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حاق بها من ظلم ، ولكنه خاف أن يعلن رأيه كله صراحة أن تسيء خديجة فهمه أو تظن أن ثمة علاقة بين هذا الرأى وبين ما ينشب بينهما كثيرا من تقار برىء ، وإلى هذا وذاك كان احساسه الباطنى بأنه نصف أخ فقط يقعه عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحساسة عن ابداء الرأى الخلق بجرح أحد من افرادها .. ولم تكن عائشة قد نبست بكلمة ففكرت نفسها على الكلام قسرا أن يشى صمتها بالأمها التى صمتت على اخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها مهما سامها ذلك من عذاب وتوتر ، بل اجتمعت على اعلان الارتياح بجماعة لجو البيت الذى لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها . والذى تدارى فيه أهواء القلوب بأقنعة الزهد والرياء ، فقالت :

— لا يصح أن تزوج قبل خديجة . والخير كل الخير فيما يرى أبى

(ثم مبتسمة) .. لماذا تعجلون الزواج ؟ .. ومن ادراكم باننا سنحظى فى بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتى نحظى بها فى بيت ابينا ؟ !

ولما تواصل الحديث كشأنه فى كل مساء حول المدفأة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرود ذهنها وتشتت نفسها ، وكم فى الواقع شابته الدجاجة المدبوحة التى تندفع مبسوبة الجناحين — كأنما تنتفض حيوية ونشاطا — على حين يتدفق الدم من عنقها مستصفيا آخر قطرات الحياة ..

على أنها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الأمر على أبيها ، إن لاثمة امل غامض داعب أحلامها كما يداعبنا الأمل فى كسب النمرة الاولى فى البانصيب الكبير .. وقد تطوعت اول الأمر للمعارضة فى زواجها مدفوعة بأريحية الظفر والسعادة ، وبالعطف على شقيقتها السيئة الحظ ، الآن خمدت الأريحية ونضب العطف ، فلم يبق الا الامتعاض والسخط واليأس . ليس لها من الأمر شيء . هذه ارادة الأب ولا معقب لها ، وما عليها الا الاذعان والاستسلام ، بل عليها أكثر من هذا الرضى والارتياح ، لأن محض الوجوم ذنب لا يغتفر ، أما الاحتجاج قائم لا يطيقه ادبها وحياتها ،

أفاقت من سكرة السعادة الغامرة التى انتشت بها يوما وليلة على بأس مظلم ، ما اكشف الظلمة تجيء عقب النور الباهر ، فى تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة ، ولكنه يضاعف مرات ومرات بالحسرة على النور المذهب وتساؤل نفسها اذا كان ثمة نور امكن أن يضىء مليا فلماذا لم يواصل الضياء ، لماذا لا يخبو ، لماذا خبا ، فتكون حسرة جديدة تنضم الى بقية الحسرات التى ينسجها الحزن حول قلبها منتزعا اياها من ذكريات الماضى وواقع الحال وأحلام المستقبل ، وعلى اغراقها فى التفكير فى هذا كله وحضوره - تبعا لذلك - فى شعورها فانها تعود تتساءل وكأنها تتساءل لأول مرة ، وكان الحقيقة المرة ترتطم بشعورها للمرة الأولى : هل حقاً خبا النور ؟ !

هل تمزقت الأسباب بينها وبين الشاب الذى ملا قلبها وخيالها ؟ ! سؤال جديد رغم تكراره ، وصدمة جديدة رغم نفاذها الى العظام ، ذلك ان الحسرة الكاوية لا تنفك يتنازعها اليأس المستقر فى الأعماق والآمال المتطائرة فى الهواء كلما تطاير منها شعاع الأمل المتطاير ، ثم تعود فتستقر فى الأعماق ، ثم تطفو مرة أخرى ، وثالثة ، حتى تأوى الى مستقرها - وقد ودعت النفس آخر آمالها - فلا تغادره الى الأبد ، انتهى كأنه لم يكن ، لا سبيل اليه أبدا ، ما أهون الأمر عليهم ، عاجلوه كما يعالجون امور يومهم العادية مثل ماذا تأكل غدا أو حلمت ليلة أمس حلما غريبا أو رائحة الياسمين تملأ جو السطح ، كلمة من هنا كلمة من هناك ، واقتراح يعلن ورأى يبسط ، فى هدوء وحلم غريبين ، ثم تعزية باسمه ، وتشجيع كأنه الدعابة ، ثم تغير الحديث وتشعب ، انتهى كل شيء ، وأدرج فى التاريخ الذى تنزل عنه الأسرة للنسيان ، أين قلبها من هذا كله ؟ ! لا قلب لها ، لا يتصور وجوده أحد ، لا وجود له ، فى الواقع ، ما أشد غربتها ، ضائعة مفقودة ، ليسوا منها وليست منهم وحيدة منبوذة مقطوعة الصلات ، ولكن كيف تنسى أن كلمة واحدة لو جاد بها لسان أيها ، كانت تكفى لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقا جديدا ؟ ! .. كلمة واحدة لا أكثر ، لا تزيد عن لفظة « نعم » . ثم تحدث المعجزة ، لم تكن لتكلفه الا عشر ما تكلف من جهد فى المناقشة الطويلة التى انتهت الى الرفض ولكن لم تجر بذلك مشيئته ، وارتضى لها هذا العذاب كله . ومع أنها كانت متأللة حائقة ساخطة الا أن الهما وحققها وسخطها وقفت عند شخص ابها وارتدت عنه خائبة ارتداد الوحش الهائج اذا امترضه مروضه ، الذى يحبه ويخافه ، لم يسمعها أن تحمل عليه ، ولو فى أعماق سريرتها ، وظل قلبها

على ولائه وحبه فلم تضر له الا الاخلاص والوفاء كأنه اله لا يجوز ان تقابل قضاءه الا بالتسليم والحب والوفاء .

شدت الصغيرة ذلك المساء جبل اليأس حول عنقها الرقيق فآمن قلبها المتفتح بأنه نضب وأجذب الى الأبد ، وضاعف من توتر أعصابها الدور الذي صممت على أن تمثله بينهم ، دور البشر واللامبالاة وما سامتة نفسها من المشاركة في سمرهم حتى ناءت هامتها الذهبية بحمله ، وانقلبت الأصوات في أذنيها وقرا ، فما جاء وقت الانسحاب الى حجرة النوم حتى مضت في أعياء كالمريض ، وهناك في أمن من ظلمة الحجرة تجهم وجهها لأول مرة وعكس صورة صادقة من قلبها . .

بيد أنه لحق بها رقيب - خديجة - أيقنت من بادئ الأمر أن تصنعها لن يجدى معها شيئا ، وقد تحامت في المجلس نظرائها أما الآن - اذ جلست اليها - فلا مهرب منها ولا مفر . وتوقعت أن تهجم الفتاة على الموضوع بعنادها المعروف ، وانتظرت تسلسل صوتها الى أذنيها بين لحظة وأخرى ، ورحب قلبها بالحديث ، لا لأنه سيبيح رجاء جديدا ، ولكن لأنها املت وراء الاعتدال والخرج اللذين ستعلنهما الفتاة صديقة حتما شيئا من الغراء ولم يطل بها الانتظار فما لبث أن جاءها الصوت يشق الظلمة قائلا :
- عائشة ، اني حزينة آسفة ، ولكن علم الله لا حيلة لي ، وكم وددت لو تواتيني الشجاعة فأرجو أبى ان يعدل عن رأيه . .

وتساءلت عما وراء هذا الكلام من صدق أو رياء منفعة بثورة حنق ثارت بها لدى سماعها النبرات الأسيفة مباشرة ، ولكنها اضطرت الى العودة الى استعارة النبرات التي ظلت تتحدث بها في مجلس أمها فقالت :
- فيم الحزن والأسف ، ما أخطأ أبى وما ظلم ولا داعى للعجلة . .

- هذه ثانی مرة یؤجل زواجك بسببی

- لست آسفة مطلقا . .

فقالت خديجة بلهجة ذات مغزى :

- ولكن هذه المرة غير المرة الأولى . .

ادركت الفتاة ما وراء هذه الكلمات بسرعة البرق ، فخفق قلبها خفقان اللوعة والحسرة ، وبكى وجدا وحبا ، ذلك الحب الكامن يشار بالاشارة تجيئه من الخارج عفوا أو فصدا كما يشار الجرح أو الدمل باللمس والشك ، وهمت بالكلام ولكنها أمسكت مضطرة لأن أنفاسها لم تسعفها فخافت أن تفضحها نبراتها ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

- لهذا تجديني في غاية الحزن والأسف ، ولكن ربنا كريم ، وما شدة

الا وبعدها الفرج .. فعسى أن ينتظر ويصبر ويكون من نصيبك بالرغم
مما بدا ...

وهتفت جوارحها :

« ياليت »

أما لسانها فقال :

« سيان عندى ، الأمر أبسط مما تظنين ..

— أرجو أن يكون كذلك .. انى جد حزينة وآسفة يا عائشة ..

وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال فى الشعاع الخافت الذى تسلل من
فرجة الباب فصاحت به خديجة فى ضيق :

— لماذا جئت ؟ وماذا تريد ؟

فقال الغلام بصوت يشى باحتجاجة على سوء مقابلتها له :

— لا تنهرينى .. وافسحى لى ..

ووثب الى الفراش وركع بينهما . ثم دس يدا الى واحدة ويذا الى

الأخرى ، وراح يدغدغه ، ليهيئ له حديثه جوا طيبا غير الجو الذى أنذرت
به نهرة خديجة ، ولكنهما نثرتا يديه ، وقالتا بصوتين متتابعين :

— أن لك أن تنام ، فاذهب ونم ..

ولكنه هتف فى غيظ :

— لن اذهب حتى أعرف ما جئت أسأل عنه !

— عم تسأل فى هذه الساعة من الليل ؟

فقال مغفرا لهجه حتى يستجيبا له :

— أريد أن أعرف هل تتركان بيتنا اذا تزوجتما

فصاحت به خديجة :

— انتظر حتى يجيء الزواج !

فتساءل فى عناد :

— ولكن ما هو الزواج ؟

— كيف أجيبك وأنا لم أتزوج .. اذهب ونم الله لا يسيئك

— لن اذهب حتى أعرف ..

— يا حبيبى توكل على الله وفارقنا ..

فقال بصوت حزين :

— أريد أن أعرف هل تغادران البيت اذا تزوجتما ؟

فقالت فى ضجر :

— نعم يا سيدى .. ماذا تريد أيضا ؟

— ١٤٦ —

فقال في جزع

— اذن لا تتزوجا .. هذا ما اريد ..

— سمعا وطاعة ..

فعاد يقول في احتجاج ناثر :

— انا لا اطيق ان تذهبا بعيدا عنا وساعدو الله الا يزوجكما ..

فهتفت :

— من فمك لباب السما .. عال عال .. ربنا يكرمك . تفضل فارقنا

مع السلامة .

— ٢٧ —

سرى في البيت شعور بأنه يستقبل من حياته المرهقة بالترمت يوم راحة يستطيع — اذا شاء — أن يستروح فيه نسمة من الحرية البرينة في أمن من الرقيب ، فظن كمال أنه غدا في حل من ان يقطع اليوم كله في اللعب داخل البيت أو خارجه ، وتساءلت خديجة وعائشة الا يمكن ان تنسلا مساء الى بيت مريم لقضاء ساعة في لهو ومرح لا لم تجيء هذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور الشتاء الكالج وحلول بشائر الربيع ملوحة بالدفاء والبشاشة ، اذ ليس من شأن الربيع ان يهب هذه الاسرة حرية يحرمها اياها الشتاء ، ولكنها جاءت نتيجة طبيعية لسفر السيد احمد الى بور سعيد في مهمة تجارية تدعوه كل عدة اعوام الى السفر يوما أو بضيع يوم ، واتفق أن سافر الرجل صباح الجمعة فجتمعت العطلة الرسمية بين افراد الاسرة .. وتجاوبت رغباتهم الظماى الى الحرية في الجو الطليق الامن الذى خلقه على غير انتظار رحيل الأب عن القاهرة كلها ، بيد أن الام وقفت من رغبة الفتاتين وجماح الغلام وقفة المتردد ، لأنها كانت تحرص على أن تواظب الأسرة على سيرتها المألوفة . وأن تلتزم — في غياب الأب — الحدود التى تلتزمها في حضوره خوفا من مخالفته اكثر منها اقتناعا بوجهة شدته وصرامته ، ولكنها ما تدري الا وياسين يقول لها :

— لا تعارضى بالله .. اننا نحيا حياة لا يحياها أحد من الناس ، بل

اريد ان أقول شيئا جديدا .. لماذا لا تروحين عن نفسك انت ؟!

ما رأيكم في هذا الاقتراح ؟!

وتطلعت اليه الأعين في دهشة ولكن احدا لم ينبس بكلمة ، ولهم
- كأمهم التي رمته بنظرة تأنيب - لم يحملوا قوله محمل الجد ، الا أنه
استطرد قائلا :

- لماذا تنظرين الى هكذا ؟! .. لم اخطيء في البخارى ، وليس ثمة
جريمة والحمد لله ، ما هو الا مشوار قصير ترجعين منه وقد أقيت
نظرة على جزء صغير من الحى الذى عشت فيه أربعين عاما دون ان
ترى منه شيئا ..

فتنهدت المرأة متممة :

- ساحك الله ..

فحققه الشاب قائلا :

- علام يسأحنى ؟.. هل اقترفت ذنبا لا يغفر ؟ . والله لو كنت
مكانك لمضيت من توى الى سيدنا الحسين .. سيدنا الحسين الا
تسمعين ؟.. حبيبك الذى تهيمين به على البعد وهو قريب ، قومي
انه يدعوك اليه ...

وخفق قلبها خفقانا لاحت آثاره في احمرار وجهها فخضت رأسها
لتخفى تأثيرها الشديد ، انجذب قلبها الى الدعاء بقوة تفجرت في نفسها
فجأة على غير انتظار لا منها ولا من احد ممن حولها حتى ياسين نفسه ،
كانها زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل ، فلم تدر كيف استجاب
قلبها للدعاء ، ولا كيف تطلع بصرها الى ما وراء الحدود المحرمة ، ولا كيف
ترأت المغامرة ممكنة بل مغربة بل طاغية ، أجل بدت زيارة الحسين
عدرا قويا - له صفة القداسة - للطفرة اليسارية التى نزعمت اليها
ارادتها ، ولكنها لم تكن وحدها التى تخضت عنها نفسها اذ لبث دعاءها
في الأعماق تيارات حبيسة متلهفة على الانطلاق كما تلبى الفرائز
المتعطشة للقتال نداء الدماء الى الحرب بحجة الدفاع عن الحرية والسلام .
ولم تدر كيف تعلن استسلامها الخطير ولكنها نظرت الى ياسين وسالته
بصوت متهدج :

- زيارة الحسين منية قلبى وحياتى .. ولكن .. أبوك ؟

فضحك ياسين قائلا :

- أبى في طريقه الى بور سعيد ولن يعود قبل ضحى الغد ، وبوسعك
- زيادة في الحيلة - أن تستعيرى ملاءة أم حنفى الف حتى اذا اتفق أن
رآك أحد و أنت تغادرين البيت أو وأنت تعودين اليه ظنك زائرة ...
ورددت عينيها بين الأبناء في خجل وتهيب كأنها تنشد المزيد من

التشجيع ، فتحمست خديجة وعائشة للاقتراح ، وكانهما تمهرا
بحماسهما عن رغبتهما الجبسة فى الانطلاق ، وفرحتهما بزيارة مريم
التي باتت - بعد هذا الانقلاب - فى حكم المقرر ، وهتف كمال من
أعماق قلبه :

- ساذهب معك يا نينة لأذلك على الطريق ..

وحدجها فهمى بنظرة عطف اثاره فى نفسه ما طالعته فى وجهها البرىء
من سرور حائر كسرور الطفل اذا منى بلعبة جديدة فقال لها فى تشجيع
واستهانة :

- القى نظرة على الدنيا ، لا عليك من هذا فانى أخاف أن تنسى المسى
من طول ازومك للبيت ..!

'وفى قورة الحماس جرت خديجة الى ام حنفى ثم عادت بملاءتها ؛
وتزاحمت الأصوات بالضحك والتعليق ، ففدا اليوم عيدا سعيدا لا عهد
لاحد به ، واشترك الجميع - وهم لا يدرون - فى التورية على ارادة الاب
القائب ، والتفت الست أمينة فى الملاءة وأسدت البرقع الأسود على
وجهها ، تم نظرت فى المرأة فلم تتمالك من أن تضحك طويلا حتى اهتز
جذعها ، وارتنى كمال بدلتة وطربوشه وسبقها الى فناء البيت ، ولكنها
لم تتبعه ، ركبها شعور الرهبة الذى يلزم المواقف الفاصلة فرفعت
عينها الى فهمى وتساءلت :

- ما رأيكم ؟ هل أذهب حقا ؟

فصاح بها ياسين :

- توكل على الله ...

وتقدمت منها خديجة ، ووضعت يدها على منكبها ودفعتهما برافق
وهى تقول :

- الفاتحة أمانة ..

ولم تزل تدفعها حتى أوصلتها الى السلم ، ثم رفعت يدها فمزات
المرأة والجميع فى أعقابها ... ووجدت ام حنفى فى انتظارها ، فالتقت
الحادم على سيدتها - أو بالحرى على الملاءة الملتفة بها - نظرة فاحصة .
ثم هزت رأسها هزة انتقادية ، وتقدمت منها وأعادت لف الملاءة حول
جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها فى الوضع المناسب « فانقادت لها
سيدتها التى كانت ترتدى الملاءة اللف لأول مرة ، وعند ذاك ارتسمت
ملامح قامتها وقدها فى تفصيل وسيم ، تخفيه عادة جلابيبها الفضفاضة :

فالتقت خديجة عليها نظرة اعجاب باسمه وغمزت بعينها لعائشة واغرقتا في الضحك ...

ولافت وهى نعب عتبة الباب الخارجى الى الطريق لحظة دقيقة جف لها ريقها فضاع السرور فى نوبة القلق ووطاة الاحساس بالندب ، وتحركت فى بطء وهى قابضة على يد كمال بحال عصبية ، وبدت مشيتها مضطربة مخلخلة كأنها عاجزة عن مبادئ المشى الاولى ، الى ما اعتراها من حياء شديد ، وهى تتعرض لأعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصائص المشربية - عم حسنين الحلاق ، ودرويش بائع الفول والفول واللبن ويومى الشرباتلى وأبوسريع صاحب الملقى - حتى توهمت أنهم سيعرفونها كما تعرفهم - أو لأنها تعرفهم - ووجدت مشقة فى تثبيت حقيقة بديهية فى رأسها وهى أن عينا منهم لم تقع عليها مدى الحياة ، وعلى تلك الحال عبرا الطريق الى درب قرمز لانه وان لم يكن اقصر الطرق الى جامع الحسين الا انه كان لا ير - كطريق التحاسين - بركان السيد فضلا عن خلوه من الدكاكين وانقطاع المارة عنه الا فيما نذر ، وتوقفت لحظة قبل أن توغل فيه ، والتفتت صوب المشربية فرأت شبحى ابنتها وراء ضلفة منها بينما رفعت ضلفة اخرى عن وجهى ياسين وفهمى الباسمين ، فاستمدت من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها ، ثم جدت فى السر - هى وغلماها - يقطعان الدرب المقفر فى شئ من الطمأنينة ، لم يغب عنها القلق ولا الاحساس بالندب ولكنهما ترجعا الى حاشية الشعور الذى احتلت مركزه عاطفة استطلاع حماسية نحو الدنيا التى يتراءى لها درب من دروبها وميدان من ميادينها وغرائب من مبانيها وعديد من أناسها ، ووجدت سرورا ساذجا لمشاركة الأحياء فى الحركة والانطلاق ، سرور من قضت ربع قرن سجيئة الجدران ما عدا زيارات معدودات لأهلها فى الخرنفش - بضع مرات فى العام - تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيد فلا تسعفها الشجاعة حتى لاستراق النظر الى الطريق ... وجعلت تسال كمال عما يصادفهما فى طريقهما من مشاهد وأبنية وأماكن ، والغلام يحدثها فى اسهاب مزهوا بدور المرشد الذى يقوم به ، فهذا قبو قرمز المشهور الذى يجب - قبل الدخول فيه - تلاوة الفاتحة ، وقاية من العفاريت التى تسكنه ، وهذا ميدان بيت القاضى بأشجاره الباسفة وكان يسميه ميدان « ذقن الباشا » مطلقا عليه اسم الزهر الذى يعنو أشجاره أو يسميه احيانا أخرى « ميدان شنجرلى » ساجبا عليه اسم

بائع الشيكولاته التركي « أما هذا البناء الكبير فهو قسم الجمالية ، ومع أن الغلام لم يجد به ما يستحق اهتمامه سوى السيف المدلى من وسط الديدبان إلا أن الأم ألقت عليه نظرة مليئة بحب الاستطلاع الخليق بمكان يقيم به الرجل الذى سعى الى طلب يد عائشة ، حتى بلغا مدرسة خان جعفر الأولية ، التى قضى بها عاما قبل التحاقه بمدرسة خلبل اغا الابتدائية ، فأشار الى شرفتها الاثرية وهو يقول « فى هذه الشرفة كان الشيخ مهدي يلصق وجوهنا بالجدار لأقل هفوة ، ويركلنا بحذاءه خمسا أو سستا أو عشرة كما يحلو له » ثم أوما الى دكان تقع تحت الشرفة مباشرة وقال بلهجة لم يغب عنها مغزاها وهو يتوقف عن السير « وهذا عم صادق بائع الحلوى » ثم لم يقبل التزحزح عن موضعه حتى أخذ قهشا وابتاع به ملبا أحمر ، انعطفا بعد ذلك الى طريق خان جعفر فلاح لهما عن بعد جانب من المنظر الخارجى للجامع الحسين ، يتوسطه نبال عظيم الرقعة محلى بانزخارف العربية ، وتعلوه فوق سور السطح شرفات متراصة كاسنة الرماح ، فتساءلت والبشر يسجع فى صدرها « سيدنا الحسين ؟ » ولما أجابها بالايجاب مضت تقارن بين المنظر الذى نكتير منه - وقد حثت خطاها لأول مرة مذ غادرت البيت - وبين الصورة التى خالقها خيالها له مستعينا فى خلقه بمناذج من الجوامع التى فى متناول بصرها كجامع قلاوون وبرقوق فوجدت الحقيقة دون الخيال « لأنها كانت تنفخ فى الصورة طولا وعرضا على قدر يناسب منزلة صاحب الجامع من نفسها ، بيد أن هذا الاختلاف بين الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثر شيئا فى فرحة اللقاء التى ثملت بها جوانحها ، ودارا حول الجامع حتى الباب الأخضر ودخلا فى زحمة الداخلات . ولما وطئت قدما المرأة أرض المسجد شعرت بأن بدنها يدوب رقة وعطفا وحنانا ، وأنها تستخيل روعة طائرا يرفرف بجناحيه فى سماء يسطع بجنابتها عرف النبوة والوحى فأغرورقت عينها بالدمع الذى أسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة حبها وإيمانها وأريحية امتنانها وفرحها ، وراحت تلتهم المكان بأعين شيقة مستطلعة ، جدرانها وسقفه وعمده وأبسطته ونجفه ومنبره ومحاريبه ، والى جانبها كان كمال ينظر الى هذه الأشياء من ناحية أخرى خاصة به ترى أن الجامع يكون مزارا للناس فى النهار والهزيع الأول من الليل ، وبينما من بعد ذلك لصاحبه الشهيد يذهب فيه ويجيء مستعملا ما فيه من أثاث على نحو ما يستعمل المالك ملكه ، فيطوف بأرجائه

ويصلى في المحراب ويرتقى المنبر ويعلو النوافذ ليشرف على حبه المحيط ،
وكم تمنى حالما لو ينسونه في الجامع بعد أن يفلق أبوابه فيمكنه أن يبقى
الحسين وجها لوجه وأن يمضى في حضرته ليلة كاملة حتى الصباح وتخيل
ما يخلق به أن يقدمه له عند اللقاء من آى الحب والخضوع وما يجدر به
أن يلقيه عند قدميه من أمانيه ورغباته وما يرجوه بعد ذلك عنده من
العطف والبركة ، تخيل نفسه وهو يقترب منه خافض الرأس فيسأله
الشهيد برقة « من أنت ؟ » فيجيبه وهو يقبل يده « كمال أحمد
عبد الجواد » ويسأله عن عمله فيقول له « تلميذ - وإن ينسى النوبه
بتفوقه - بمدرسة خليل أغا » ويسأله عما جاء به في هذه الساعة ،
الليل فيجيبه بأنه حب آل البيت عامة والحسين خاصة ، فيبسم اليه
عظفا « ويدعوه الى مرافقته في تجواله الليلي ، وعند ذاك يبوح له بأمانيه
جملة قائلا : « اضمن لى أن العب كما أشاء داخل البيت وأخارجه ، وأن
تبقى عائشة وخديجة في بيتنا الى الأبد ، وأن تغير طبع أبى ، وأن تمد في
عمر أمى الى مالا نهاية ، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتى ، وأن ندخل
الجنة جميعا بغير حساب » ... هذا وتيسر الترائر الزاحف في بطء
يدفعهما رويدا حتى وجدا نفسيهما في مثوى الضريح ، طالبا تلهفت
أشواقها على زيارة هذا المثوى كما تلهف على حلم يستحيل تحقيقه في
هذه الدنيا ، ها هى تقف بين أركانه ، بل ها هى تصق جدران الضريح
نفسه ، تشرف نفسها عليه خلال الدموع ، وتود لو تترى لتتملى مذاق
السعادة لولا شدة ضغط الزحام ، ومدت يدها الى الجدران الخشبية ،
واقتردى كمال بها ، ثم قرأ الفاتحة ، ومسحت بالجدران وقبلتها ولسانها
لا يننى عن الدعاء والتوسل ، ودت لو تقف طويلا أو تجلس في ركن من
الأركان لتعيد النظر والتأمل ثم لتعيد الطواف ، ولكن خادم المسجد وقف
للجميع بالمرصاد ، لا يسمح لواحدة بالتلكؤ ويحث المتباطئات ، ويلوح
منلرا بعصاه الطويلة ، وهو يدعو الجميع الى اتمام الزيارة قبل حلول
ميعاد صلاة الجمعة ، ارتوت من المنهل العذب ولكنها لم تطفئ ظمأها ،
وهيات أن يروى لها ظمأ ، لقد هاج الطواف حينها فتفجرت عيونه
وسال وزخر ولن يزال ينشد المزيد من القرب والابتهاج ، ولما وجدت
نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه انتزاعا ، وأودعته
قلبيها وهى توليه ظهرها ، ثم مضت حسرى يعذبها شعورها بأنها تودعه
الوداع الأخير ، بيد أن ما طبعت عليه من قناعة واستسلام أخذها على
ما استسلمت له من الحزن فردها الى غلى ما ظفرت به من سعادة طاردت

بها هواجس الفراق ، ودعاها كمال الى مشاهدة مدرسته فمضيا اليها في نهاية شارع الحسين ، ووقفا عندها مليا ، ولما أرادت الرجوع من حيث أتت أنذره ذكر العودة بانتهاء الرحلة السعيدة مع أمه التي لم يحلم بمثلها من قبل فأبى التفريط فيها واستمات في الدفاع عنها فاقترح عليها ان يسيرا في السكة الجديدة حتى الغورية ، ولكي يقضى على المقاومة التي بدت في صورة تقطية باسمه من وراء البرقع حلقها بالحسين فتنهدت ، واستسلمت ليده الصغيرة ، ومضيا يشقان طريقهما في زحمة شديدة وبين تيارات متلاطمة من السائرين في جميع الجهات مما لم تجد عشر معشاره في الطريق الهادئ الذي جاءت منه فعلاها الارتباك ، واخذت تفقد نفسها في اضطراب شامل ، ولم تلبث ان شكت اليه ما تلقى من عناء واعياء ، ولكن تهالكه على اتمام الرحلة السعيدة جعله يصم أذنيه عن شكاتها ويشجعها على مواصلة السر ويلهبها عن متاعبها بلفت نظرها الى الدكاكين والعربات والمارة ، وهما يقتربان في بط شديد صوب منعطف الغورية ، وعند ذلك المنعطف لاحت لناظريه دكان فطائر فسال لعايه وثبتت عيناه عليها لا تتحولان وراح يفكر في وسيلة لاقتناع أمه بالدخول الى الدكان وابتاع فطيرة ، وبلغا الدكان وهو لا يزال يفكر ، ولكنه ما يدرى الا وأمه تفلت من يده فأتت نحوها متسائلا فأراها وهي تسقط على وجهها وقد ندت عنها آهة عميقة ، واتسعت عيناه في ذهول ورعب دون ان يبدي حراكا ولكنه على ذهوله ورعبه رأى بجانب عينه - في نفس الوقت تقريبا - سيارة تفرمل محدثة صوتا عنيقا ومرسلة وراءها ذبلا من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا ان انحرفت عنها مقدار شبر ، وتعالى صياح وحدثت ضجة وهرع الناس الى المكان من جميع نواحي الطريق كما تهرع الصبية الى سفارة الحاوي فضربوا حولها حلقة غليظة بدت اعينا مستطلعة ورعوسا مشرّبة والسنة تهتف بكلام اختلطت أسئلته بأجوبته ، وافاق كمال من الصدمة ببعض الشيء فراح يردد عينيه بين أمه الملقاة عند قدميه وبين الناس في حال ناطقة بالخوف والاستغاثه ثم ارتقى على ركبتيه الى جانبها ووضع كفه على منكبها وناداه بصوت تفتت نبراته بحرارة الرجاء ولكنها لم تستجب له فرفع راسه مقلبا عينيه في وجوه الناس ، ثم صرخ باكيا في نحيب حار علا على الضجة التي تكتنفه حتى كاد يسكتها وتطوع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها ، وانحنى آخرون فوق أمه مستطلمين بنظرات كمنت وراءها رغبتان ، تنشد احداهما السلامة للضحية ، وتنزع الأخرى -

في حال اليأس من السلامة - الى ان ترى الموت - ذاك الحتم المؤجل - وهو يطرق بابا غير بابهم « وينتزع روحا غير روحهم كأنهم يودون أن يقوموا بشئ به بروفا آمنة لاخطر دور قضى عليهم جميعا أن يخطموا الحياة بلعبه ، وصاح أحدهم قائلا « صدمها باب السيارة الأيسر في ظهرها » ، وقال السائق الذي غادر السيارة ووقف مخنقنا بجو الاتهام الذي يطبق عليه « لقد انحرفت عن الطوار بغتة فلم استطع أن أتفادى من صدمها ، ولكنى فرملت بسرعة فجاءت الصدمة خفيفة ، ولولا رعاية الله لدستها » .. وجاء صوت من المحققين أنها قائلا « ما زالت تننفس ... أغمى عليها فقط » ، وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطى قادما يترنح سيفه بجنبه الأيسر « انها صدمة خفيفة .. لم تتمكن منها ابدا .. انها بخير .. بخير يا جماعة والله ... » .. ثم انتصبت قامة اول رجل تقدم لفحصها وقال كأنما يلقي خطبة « ابتعدوا لا تمسوا الهواء .. فتحت عينيها .. بخير .. بخير والحمد لله ! .. » كان يتكلم بابتهاج لا يخلو من زهو كأنه هو الذي رد إليها الحياة ، ثم تحول الى كمال الذى غلبه بكاء عصبى فاسترسل فيه فى انفعال لم تجد معه مواساة المواسين ، تحول اليه وربت على خده بحنان وقال له « حبك يابنى .. امك بخير .. انظر .. هلم ساعدنى على اقامتها » .. ولكن كمال لم يمسك عن البكاء حتى رأى امه تتحرك فمال نحوها ووضع يراها على كتفه ، وعاون الرجل على اقامتها حتى امكن بجهد شديد أن تقف بينهما فى اعياء وخور وقد سقطت عنها الملائة التى امتدت بعض الأيدي لتعيدها الى موضعها - بقدر الامكان - حول كتفها ، ثم قدم لها الفطائر الذى وقعت الحادثة أمام دكانه مقعدا فأقعدها عليه وجاءها بقدر من الماء فتجرعت جرعة سال نصفها على عنقها وصدرها فمسحت بيدها على صدرها بحركة عكسية وهى تزفر زفرة عميقة ، وجعلت تردد افاسا مضطربة بضعوبة وتنظر فى وجوه المحققين بها فى ذهول وهى تتساءل « ماذا جرى ؟ .. ماذا جرى ؟ .. رباه لماذا تبكى يا كمال ؟ ! » وعند ذلك اقترب الشرطى منها وسألها « هل بك سوء ياسيدتى ؟ وهل تستطيعين السير الى القسم ؟ » فصدم اسم « انقسم » عقلها فرجها من الأعماق وهتفت بفزع « لماذا اذهب الى القسم ؟ .. لا اذهب الى القسم ابدا » فقال لها الشرطى « لقد صدمتك السيارة فأوقعتك ، فاذا كان بك سوء وجب أن تذهبي أنت وهذا السائق الى القسم لتحرير المحضر » ولكنها قالت وهى تلهث « كلا .. كلا .. لن اذهب .. أنا بخير » فقال لها

الشرطى « توكدى مما تقولين ، انهضى وامشى لترى ان كان اصابك سوء » ، ولم تتردد عن النهوض - مدفوعة بأفزع الذى اثاره ذكر القسم - فنهضت واصلحت ملأعتها ثم سارت تحت الأعين المستطلعة وكمال الى جانبها ينفض عن الملاءة ما علق بها من تراب ، ثم قالت للشرطى وهى ترجو أن تنتهى هذه الحال المؤلمة بأى ثمن « ابنى بخير .. (ثم مشيرة الى السائق) .. دعوه .. لا شىء بى » لم تعد تشعر بخور فيما ركبها من خوف ، هالها منظر الناس المحققين بها ، خاصة الشرطى الذى يتقدمهم ، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوبة نحوها من كل مكان متحدية باستهانة بالغة تاريخا طويلا من التستر والتخفى فتخايلت لعينيها فوق هذا الجمع صورة السيد وكأنها تتفرس فى وجهها بعينين باردتين متحجرتين مندرتين بما لا تطيق تصوره من الشر ، فلم تال أن قبضت على يد الغلام واتجهت به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها أحد وما غيبتها منعطف الطريق حتى شهقت من الأعماق وخاطبت كمال وكأنما تخاطب نفسها « يا ربى ماذا حدث ؟ ماذا رأيت يا كمال ؟ كانه حلم مفزع » خيل الى انى أهوى من عل الى هاوية مظلمة ، وان الأرض تدور تحت قدمى ، ثم غبت عن كل شىء حتى فتحت عيني على ذاك المنظر المخيف ، ربا .. هل أراد حقا أن يذهب بى الى القسم ؟ ! يا لطيف يارب .. يامنحى يارب ، متى نبلى بيتنا ؟ ! بكيت كثيرا يا كمال لا عدمت عينيك أبدا .. جفف عينيك بهذا المنديل حتى تغسل وجهك فى البيت .. آه »

وتوقفت عن السير بعد أن أوشكا أن يطويا طريق الصاغة ، واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تقلص وجهها ، فرفع كمال وجهه اليها منزعجا وسألها :

— ماذا بك ؟

فاغمضت عينيها وهى تقول بصوت ضعيف :

— انى تعب ، تعب جدا ، لا تكاد تحملى قدماى ادع اول عربية تصادفك يا كمال ...

ونظر كمال فيما حوله فلم ير الا عربية كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذى الذى بادر الى سوق العربية حتى وقف بها امامهما واقتربت الأم منها متكئة على كتف كمال ثم صعدت الى سطحها بمعاونته واعتمادا على منكب الحوذى الذى وطأه لها حتى تربعت وهى تنهد فى اعياء شديد ، وجلس كمال الى جانبها ثم وثب الحوذى

الى المقدمة ونخس الحمار بقبضة سوطه فمضى مشيته الوليدة والعربة
تترنج وراءه مطلققة .. وتأوهت المرأة متممة « ما أشد الى » عظام
كتفى تنفكك « هذا وكمال يرمقها فى جزع وقلق .. ومرت العربة فى
طريقها بـدكان السيد دون أن يعراها التفاتا ، ومضى كمال يتطلع الى
الأمام حتى لاحت لعينيه مشربيات البيت .. لم يعد يذكر من الرحلة
السعيدة الا نهايتها المحزنة ..

- ٢٨ -

فتحت أم حنفى الباب فأذهلها أن ترى سيدتها متربعة على عربة
كارو ، وقد ظنت لأول وهلة أنه ربما يكون قد خطر لها أن تختم رحلتها
بجولة فى العربة على سبيل اللهو فلاحت على وجهها ابتسامة ولكن الى
لحظة قصيرة اذ ما لبثت أن رأت عيني كمال المحمرتين من البكاء فارتدت
عينها الى سيدتها فى انزعاج واستطاعت هذه المرة أن تلمس ما تعاني
من اعياء وآلم فندت عنها آهة وهرعت الى العربة هائفة « ستى ،
مالك ، بعد الشر عنك » فقال لها الخوذى « تعب بسيط ان شاء الله ،
عاونينى على انزالها » وتلقته المرأة بين ذراعيها ، وسارت بها الى
الداخل وتبعهما كمال واجما محزونا ، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا
المطبخ وانتظرتا فى الفناء وكلتاها تفكر فى دعاية تلقى بها القادمين فما
راعهما الا أن تطلع عليهما أم حنفى من الدهليز الخارجى وهى تكاد تحمل
الأم حملا فندت عنهما صرخة ، وهرعتا اليها فرعتين وهما تهتفان :

- نينة ... نينة ... مالك !

وتعاونوا جميعا على حملها ، ولم تكف خديجة فى أثناء ذلك عن ان
تسأل كمال عما حدث حتى اضطر الغلام الى ان يغغم فى خوف بالغ :

- سيارة !

- سيارة !

هكذا هتفت الفتاتان معا مرددين الاسم الذى وقع من نفسيهما
موقعا مغزعا فاق الاحتمال . فلولت خديجة هائفة « ياخبر اسود ..
بعد الشر عنك يا نينة » أما عائشة فانعقد لسانها وأقحمت فى البكاء ،
ولم تكن الأم غائبة عن الوجود وان كانت من الاعياء فى نهاية فهمست
على اعيائها رغبة فى تسكين اضطرابهما :

— انى بخير ، ام يحدث سوء ، ما بى الا تعب .
وتناهت الضجة الى ياسين وفهمى فخرجا الى راس السلم ، واطلا
من فوق الدرابزين وما لبثا ان نزلا مهرولين منزعجين وهما يتساءلان
عما حدث ، ولم تملك خديجة الا ان تشير الى كمال ليجيب بنفسه
مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فاتجه الشابان الى الغلام الذى عاد
يغمغم بحزن وارتباك :
— سيارة !

ثم انتحب باكيا ، وتحول الشابان عنه مؤجلين ما يلح عليهما من اسئلة
الى حين ، وحملا الأم الى حجرة الفتاتين وأجلساها على الكنبه ثم سألها
فهمى قلقا معذبا :

— خبرينى عما بك يا نينة ، اريد ان اعرف كل شيء ..

ولكنها ماتت يرأسها الى الوراء ولم تنبس بكلمة ريثما تسترد انفاسها
على حين علا بكاء خديجة وعائشة وام حنفى وكمال حتى فقد فهمى
اعصابه فثار بهن ونهرهن حتى امسكن ، ثم جذب كمال اليه ليستجوبه
عما يريد ، كيف وقع الحادث ، وماذا فعل الناس بالسائق ، وهل اخذوكما
الى القسم ، وكيف كان حال الام فى اثناء ذلك كله ، هذا وكمال يجيبه
على اسئلته بلا تردد وفى اسهاب ، وعنى أكثر التفاصيل ، وكانت الأم
تتابع الحديث بالرغم من وهنها فلما سكنت الغلام استجمعت قواها وقالت :
— انى بخير يا فهمى ، لاتزعج نفسك ، كانوا يريدون ان اذهب الى
القسم فرفضت ، ثم واصلت السير حتى نهاية الصاغة وهناك خارت
قواى فجأة ، لا تنزعج ، سأسترد قواى بعد راحة قصيرة ..

الا ان ياسين عانى — الى انزعاجه للحادث — خرجا شديدا لأنه كان
المسئول الأول عن الرحلة المشئومة — بهذا وصفت بعد الحادث — فاقترح
عليهم أن يستدعوا طبيبا ، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انظفار
لمعرفة رأى الآخرين ، وارتعدت الأم للذكر الطبيب كما ارتعدت من قبل
لذكر القسم فبرجت فهمى ان يلحق بأخيه وأن يثنيه عن عزمه مؤكدة له
بأنها ستبرا دون حاجة الى طبيب ولكن الشاب رفض الاذعان لرجائها
مبينا لها اوجه الفائدة المنوطة بمجيئه ، وفى اثناء ذلك تعاونت الفتاتان
على نزع الملابس عنها وجاءتها ام حنفى بقدر ماء ثم احاطوا بها جميعا وهم
يتفحصون بقلق وجهها الذى علاه الشحوب ويسألونها مرارا وتكرارا عما
تجد ، وهى تحاول ما استطاعت أن تتظاهر بالهدوء أو تقنع بأن تقول اذا
الح عليها الألم « ثمة ألم خفيف فى كتفى اليمنى » ثم تستدرك قائلة

« ولكن لم يكن من داع لاسندعاء طبيب » ، والحق أنها لم ترتج لاسندعائه أبدا ، لأنها من ناحية لم تلق طبييا قط - لا لحصانة صحتها فحسب - ولكن لأنها نجحت دائما في مداواة ما يلم بها من توعك أو انحراف بطبيعتها الخاص فلم تؤمن بالطب الرسمي ، الى أنه اقترن في ذهنها بالحوادث الخطيرة والخطوب لفادحة ، ومن ناحية أخرى فقد شعرت بأن استدعاء الطبيب من شأنه ان يهول الأمر الذي تود له الستر والطمى قبل عودة السيد .. ولم تال أن أفصحت لابنائها من مخاوفها : ولكنهم لم يهتموا في تلك اللحظة الدقيقة الا بشيء واحد ، هو سلامتها ..

ولم يغب ياسين أكثر من ربع ساعة لأن عيادة الطبيب كانت في ميدان بيت القاضي ، ثم عاد بتقدم الرجل الذي ادخل الى الأم حال حضوره ، وأخلت الغرفة فلم يبق بها معه الا ياسين وفهمى « وسأل الطبيب الأم عما تشكو فأشارت الى كتفها اليمنى وقالت وهى تزدد ريقها الذى جف من الخوف :
- أشعر هنا بألم ...

وعلى هدى اشارتها ، الى ما حدث به ياسين فى الطريق عن الحادث جملة ، تقدم لفحصها ، وطال وقت الفحص فى شعور الشاين المنتظرين فى الداخل ، وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات القلب ، وتحول الطبيب عن المصابة الى ياسين قائلا :

- كسر فى الترقوة اليمنى ، هذا كل ما هنالك
وأحدثت « لفظة » كسر ارباعا فى الداخل والخارج ، وعجب الجميع لقواله « هذا كل ما هنالك » كأن وراء الكسر شيئا يتسع له احتمالهم ، على أنهم وجدوا فى ذات التعبير ، واللهجة التى ألقى بها ما يغرى بالطمأنينة فتساءل فهمى وهو بين الخوف والأمل ..
- وهل هو شيء خطير ... ؟

- كلا البتة ، سأعيد العظم الى سابق موضعه وأشدّه ولكن عليها أن تنام بضع ليال وهى قاعدة مسندة الظهر الى وسادة لأنه سيتعذر عليها أن تنام على الظهر أو الجنين ، وسوف يجبر الكسر وتعود الى ما كانت عليه فى ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر ، لا داعى للخوف مطلقا ..
والآن دعونى أعمل ...

ومهما يكن من أمر فقد استروحوا نسمة سلام بعد أن جفت منهم الحناجر ، وبدأ هذا الأثر واضحا بين الجماعة خارج الحجرة فتمت خديجة :

— فلتحل بها بركة سيدنا الحسين الذي ماخرجت الا لزيارته ..
وكأنما تذكر كمال بقولها امرا هاما انسيه طويلا فقال بدھشة
— كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبركها بزيارة سيدنا الحسين ؟
ولكن أم حنفى قالت ببساطة :
— ومن ادرانا بما كان يحدث لها — والعياذ بالله — لو لم تتبرك بزيارة
سيدها وسيدنا ؟ !
ولم تكن عائشة قد افادت من اثر الصدمة فضاق صدرها بالحديث
وهتفت برجاء حار .
— آه يا ربى متى تنتهى كل شىء كأنه لم يكن ! ..
وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة :
— ما الذى ذهب بها الى الغورية ؟ ! لو رجعت بعد الزيارة الى البيت
مباشرة لما حدث لها الذى حدث ! ..
فدق قلب كمال خوفا وانزعاجا وتجسم ذنبه لعينيه جريمة نكراء ولكنه
حاول التملص من الشبهات فقال بلهجة تنم عن لوم :
— أرادت أن تمشى فى الطريق وعشا حاولت أن اثنيها عن ارادتها ..
فحدثته خديجة بنظرة اتهام وهمت بالرد عليه وكأنها أمسكت اشفاقا
وعطفا على وجهه الذى علاه الاصفرار ، ثم قالت لنفسها « حسبنا مانحن
فيه الآن » ..
وفتح الباب وغادر الطبيب الحجرة وهو يقول للشابين اللذين تبعاه :
— ينبغي أن اعودها يوما بعد يوم حتى يخبر الكسر ، وكما قلت لكما
لا داعى للخوف مطلقا ...
واقترح الجميع الحجرة فراوا أهم قاعده فى الفراش ، مسندة الظهر
الى وسادة مكسورة وراها ولم يكن ثمة تغيير الا ارتفاع فى كتف الفستان
فوق منكبها الأيمن وشى بالرباط الذى تحته ، فهرعوا اليها ووقفوا
— الحمد لله ...
كم اشتد بها الألم والطبيب يعالج الكسر فانت اثينا متواصل ، ولولا
ما طبعت عليه من حياء لصرخت عاليا ، ولكن زایلها الآن الألم ، او هكذا
بدا ، وشعرت براحة نسبية وسكينة ، بيد أن زوال حدة الألم مكنت
لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت أن تفكر فى الموقف من مختلف
نواحيه وما لبث أن ركبها الخوف فقالت متسائلة وهى تردد بينهم بصرا
زائفا :
— ماعسى أن اقول لأبيكم اذا رجع ؟

اعترض هذا السؤال - ساخرا متحديا - نسمة الطمانينة التى سكنوا اليها كما تعترض الصخور الناثية سبيل سفينة أمنة ، على انه لا يجيء مفاجأة لوعيمهم ، بل لعله اندس فى زحمة المشاعر الاليمة التى ورت بها قلوبهم لدى ارتطامها بالخبر ولكنه ضاع فى زحمتها فتأجل حسابه انى حين « الآن قد عاد ليحتل الصدارة من نفوسهم ، فلم يجدوا مهربا من مواجهته ، ورأوا بحق انه أشد عليهم وعلى أهمهم من الاصابة التى خرجت منها وشيكة الشفاء . وشعرت الأم - للصمت الذى قوبل به سؤالها - بعزلة المذنب اذا تخطى عنه رفاقه حين انكشاف تهمته فتمتعت بنبرات شاكية :

- سيعلم حتما بالحادث ، وسيعلم أكثر من هذا بخروجى الذى ادى اليه ..

ومع ان أم حنفى لم تكن دون افراد الأسرة قلقا ولا أقل ادراكا لخطورة الموقف الا انها أرادت ان تقول كلمة طيبة ، تلطيفا للجو من ناحية ، ولانها كانت تشعر من ناحية أخرى بان الواجب يقضى عليها - كخادم الأسرة القديمة الامينة - بالا تلوذ عند الشدائد بالصمت ان يظن بها عدم اكتران ، فقالت وهى أدري ببعد قولها عن الواقع :

- اذا علم سيدى بما وقع لك فلن يسعه الا ان يتناسى هفوتك حامدا الله على نجاتك ..

وقوبل قولها بالاهمال الذى يستحقه عند قوم لا تخفى عليهم من حقيقة الموقف خافية ، الا ان كمال آمن به ، وقال متحمسا وكأنه ينم كلام أم حنفى ...

- خصوصا اذا قلنا له ان خروجنا كان لزيارة سيدنا الحسين ..

ورددت المرأة عينيها الخابيتين بين ياسين وفهمى وتساءلت :

- ماعسى ان أقول له ؟

فقال ياسين الذى هاضته شدة مسئوليته :

- اى شيطان أضلنى حين نصحت لك بالخروج ، كلمة جرت على لسانى وليتها ماجرت ، ولكن هكذا شاءت الأقدار لترمى بنا فى هذا المازق الاليم ، على اننى أقول لك باننا سنجد ما نقوله ، وأيا كان الأمر فلا ينبغى ان تشغلى فكرك بما سيكون ، دعى الأمر لله ، وحسبك ما قاسيت فى يومك من الآلام ومخاوف ...

تكلم ياسين بحماس وعطف معا ، فصب سخطه على نفسه ، وعطف على الأم عطف المتالم لحالها ، ومع ان كلامه لم يقدم ولم يؤخر الا انه روح عن

شعوره الضيق بالخرج ، وأفصح به في نفس الوقت عما عساه بدور في عقول بعض - أو كل - من يقفون الى جانبه فأغناهم عن الإفصاح عنه بأنفسهم . إذ ان التجربة علمته بأنه أحيانا ما يكون السبيل خير السبيل للدفاع عن النفس هو في الهجوم عليها وأن الاعتراف بالذنب يغرى بالصفح بقدر ما يغرى الدفاع عنه بالغضب ، وكان الخوف ما يخاف أن تنتهز خديجة الفرصة السانحة لتحمله جهارا مسئولية ما أدت اليه مشورته وتتخذها سبيلا الى مهاجمته فسبقها الى غرضها قاطعا عليها الطريق ، ولم يكذب ظنه فالحق أن خديجة كانت على وشك أن تطالبه - بصفته المسئول الأول عما وقع - بأن يجد لهم مخرجا ، فلما أن القى خطابه استحييت من مهاجمته خاصة وانها لا تهاجمه عادة الا على سبيل النكار لا الكراهة ، بذلك تحسن موقفه بعض الشيء ولكن الموقف العام بقى على سوئه ، وظل كذلك حتى خرجت خديجة من صمتها قائلة :

- لماذا لا ندعى أنها سقطت على السلم ؟

فتطلعت اليها امها بوجه يتلهف على النجاة من أى سبيل ، وقلبت بين فهمى وياسين وقد لاحت بعينيها لمعة أمل ، بيد أن فهمى تساءل في حيرة :

- والطبيب ؟ . سيعودها يوما بعد يوم وسيقابل أبى بالضرورة . . ولكن ياسين أبى ان يعلق الباب الذى تسلت منه نسمة أمل حرية بأن تستنقذه من آلامه وخافوه فقال :

- نتفق مع الطبيب على ما ينبغي ان يقال لأبى ؟

وتبدلت النظرات بين التصديق والتكذيب ، ثم شاع في الوجوه البتر للاحاساس المشترك بالنجاة وتغير الجو القائم الى جو بهيج كما تبدو وسيل السحاب المكفهر فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتى تشمل القبة السماوية في دقائق معدودات ثم تضيء الشمس ، قال ياسين وهو يتنهد :

- نجونا والحمد لله . .

فألت خديجة بعد ان استعادت في الجو الجديد نشاطها المألوف :

- بل نجوت أنت يا صاحب المشورة . .

فقهقه ياسين حتى اهتز جسمه الضخم وقال :

- أجل نجوت من عقرب لسانك ، طالما توقعت أن تمتد الى بين حين

وآخر لتلسعنى . .

- ولكنها هى التى أنقذتك ، ومن أجل الورد يسقى العليق . .

- ١٦١ -

كادوا ينسون في فرحة النجاة أن أهمهم طريحة الفراش مكسورة
الترقوة ، ولكنها هي نفسها كادت أن تنسى ..

- ٢٩ -

فتحت عينيها فوقع بصرها على خديجة وعائشة جالستين على الفراش
عند قدميهما رائيتين البها بعينين يتنازعهما الخوف والرجاء ، فتنهدت ثم
التفتت صوب النافذة فرأت خصاصها ينضح بضوء الضحى فتمتمت
كالستغربة :

— نمت طويلا ...

فقالت عائشة :

— ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون أن يغمض لك جفن ،
يالها من ليلة إن أنساها مهما امتد بي العمر ..

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والالام فنطقت عينها بالراء
— لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا الى جانبها طوال الليل يبادلانها الالم
والأرق — وتحركت شفتاها وهي تستعيد بالله بصوت غير مسموع ثم
همست قائلة فيما يشبه الحياء ..

— شد ما اتعبتكما ..

فقالت خديجة بلهجة توحى بالدعابة :

— تعبك راحة ، ولكن اياك وأن تعودى الى اوعابنا .. (ثم بنبرات
غلبها التأثير) .. كيف هاجمك ذاك الالم المخيف ؟ ! .. لقد احسبتك
استغرقت في النوم وانت على أحسن حال ، واستلقيت لأنام بدورى ، وإذا
بى استيقظ على أنينك ، ثم لم تمسكى عن آه .. آه .. حتى مطلع
الفجر ...

وتهلل وجه عائشة بالتفاؤل وهي تقول :

— على أي حال أبشرى ، لقد أخبرت فهمى عن حالك حين سألنى عن
صحتك في الصباح فقال لى ان الالم الذى انتابك دليل على أن العظم
المكسور كان آخذا في الالتئام ..

وجذبها اسم فهمى من لجة أفكارها فتساءلت :

— ذهبوا بسلامة الله ؟

فقالت خديجة :

— طبعاً ، كانوا يودون محادثتك ليطمئنوا عليك بأنفسهم وانكنى لم
أسمع لأحد بأن يوقظك من النوم الذى لم تدخليه حتى شيبتنا ..
فتنهدت الأم فى استسلام :

— الحمد لله على كل حال ، ربنا يجعل العواقب سليمة .. فى اى وقت
نحن الآن ؟ ...

فقال خديجة :

— كلها ساعة ويؤذن الظهر ..

ودعاها تأخر الوقت الى ان تخفض عينيها متفكرة ثم رفعتها فاذا
بهما تعكسان نظرة قلق ، وتمت :

— لعله الآن فى الطريق الى البيت ..

واذكرتنا من معنى ، ومع انهما شعرتا بدبيب الخوف فى قلوبهما الا ان
عائشة قالت بثقة :

— اهلا به وسهلاً لا داعى للقلق ، اتفاننا على ما ينبغى ان يتال

وانتهى الامر ...

ولكن اقتراب عودته اشاع فى نفسها الهزولة القلق فتساءلت :

— ترى هل يمكن التستر على ما وقع ؟

فقال خديجة بصوت ارتفعت حدته بنسبة قلقها المتزايد :

— ولم لا ؟ .. سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمير الامر بسلام ..

تمنت فى تلك الساعة او بقى ياسين وفهمى الى جانبها ليشجعها ،

تقول خديجة سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمير الامر بسلام ، ولكن هل

يظل ما وقع سرا مغلقا الى الأبد .. ألا تجد الحقيقة فرجة تنفذ منها الى

الرجل ؟ .. كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة ، ولا تدري اى

مصر يتربص بها .. ورددت عينيها بعطف بين الفتاتين وفتحت فاهها

لتتكلم حين دخلت ام حنفى مهرولة وهى تقول بصوت مهموس كأنها

تخاف أن يسمع خارج الحجرة :

— سيدى جاء يا ستى ...

وخفقت قلوبهن فى اضطراب ، وجلت الفتاتان عن الفراش فى وثبة

واحدة ثم وقفتا حيال أمهما يتبادلن جميعا النظر صامتات حتى غمغمت

الأم ...

— لا تتكلما أنتما فانى أخاف عليكما مغبة مخادعته ، اتركنا الى القول

والله المستعان ..

وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذى يركب اطفالا فى الظلام

إذا قرع آذانهم وقع أقدام من يظنونهم عفاريت يجوسون في الخارج ،
حتى ترمى اليهن وقع أقدام السيد على السلم وهي تقترب فازاحت الام
كابوس الصمت بمشقة وغفمت ..

- إذا تركناه صعد الى حجرته لم يجد احدا ؟ ! ..

ثم التفتت صوب أم حنفي قائلة :

- أخبريه بأننى هنا ، مريضة ، ولا تزيدى ..

وازدردت ريقها الجاف ، أما الفتاتان فمفرقتا من الحجرة مستبقتين
وغادرتاها وحيدة ، وجدت نفسها وكأنها في عزلة عن العالم كله
فاستسلمت للمقادير ، وكثيرا ما يبدو هذا الاستسلام في سلوكها -
الاعزل من كل سلاح - كاستلوب من اساليب الشجاعة السلبية ،
واستجمعت فكرها لتتذكر ما يجب قوله بيد أن الشك في سلامة تدبيرها
لم يزايلها قط وكمن في أعماق شغورها مغلنة عن ذاته بحال من القلق
والتوتر وتبدد الثقة وجاءها وقع طرف عضاء على أرض الصالة فغفمت
« رحمتك يارب وعونك » ثم تطلع بصرها الى اياب حتى اعترضه جسمه
الطويل العريض ، ورائه وهو يدخل مقتربا ملقيا عليها نظرة متفحصة من
عينيه الواسعتين حتى وقف في منتصف الحجرة وهو يتسائل بصوت
خائنه رقيقا على غير عادته :

- مالك ؟ ..

فقالت وهي تفض بصرها :

- حمد الله على سلامتك يا سيدى ، بخير ما دمت بخير ..

- لكن أم حنفي قالت لى انك مريضة ..

فاشارت بيسراها الى كتفها اليمنى وقالت :

- اصيب كتفى يا سيدى لا أراك الله سوا .

فتسائل الرجل وهو يتفكر فى كتفها باهتمام وقلق :

- ماذا أصابه ؟

حم الأمر ، وجاءت الدقيقة الفاصلة ، ما عليها الا أن تتكلم « ان
تنطق بكذبة النجاة ، فتمر الأزمة بسلام وتستزيد من العطف المتاح ،
ورفعت عينها وهي تتوهم ، فالتقت عينها بعينية « أو بالأحرى غابت
عينها في عينيه ، فاشتد وجيب قلبها ، وتتابع بلا رحمة ، هناك تبخر
ما جمعه في رأسها من رأى ، وانتثر ما كتلته في ارادتها من عزم ،
ورمشت عينها في اضطراب وذهول ، ثم رنت اليه بطرف حائر دون أن
تنبس بكلمة ، وعجب السيد لاضطرابها فتعجلها متسائلا :

— ماذا حدث يا أمينة ؟ !

لا تدري ماذا تقول ، كأنه ليس لديها ما يقوله ولكن بات في حكم اليقين انه لم يعد بوسعها أن تكذب ، أفلتت الفرصة دون أن تدري كيف ، ولو انها أعادت المحاولة لخرجت من صيدها مبتورة مكشوفة ، كانت كمن يسير وهو منوم تنويما مغناطيسيا على جبل اذا دعى الى اعادة مخاطرته وهو صاح ، وكلما مرت الثواني غاصت في الارتباك والهزيمة حتى أشفت على اليأس ..

— لماذا لا تتكلمين ؟ ..

لها هي لهجته قد بدأت تنم عن نفاد صبر ولا يبعد أن تقعقع قريبا بالغضب ، رباه لشدها في حاجة الى العون ، اى شيطان اغواها بتلك الخرجة المشؤمة ..

— عجبا الا تريدان أن تتكلمى ؟ ! ..

وبات السكوت فوق طاقتها فتمتبت بصوت متهدج مدفوعة باليأس والقهر ..

— أخطأت خطأ كبيرا يا سيدى .. صدمتنى سيارة ..

واستعينا السيد دهشة ولاح فيهما انزعاج مقرون بالانكار .. وكأنه بات يشك في صحة قواها العقلية ، ولم تعد المرأة تحتمل التردد وصممت على أن تبوح باعترافها كاملا مهما تكن العواقب ، كمن يقدم — مغامرا بحياته — على اجراء عملية جراحية خطيرة ليستخلص من الام داء لا قبل له به ، وتضاعف عند ذلك شعورها بفداحة الذنب وخطورة الاعتراف فدمعت عينها وقالت بطوت لم تكن باخفاء نبراته الهاكية اما لأنه غلبها على صوتها او لأنها ارادت أن تبدل محاولة يائسة لاستئثار العطف ..

— ظننت ان سيدنا الحسين يدعونى الى زيارته فليت .. ذهبت للزيارة .. وفي طريق العودة صدمتنى سيارة .. قضاء الله ياسيدى .. ولقد نهضت من سقظتى دون معاونة احد (قالت العسيرة الاخيرة بوضوح) ولم اشعر بady الأمر بأى ألم فحسبتهى بخير وواصلت السير حتى عدت الى البيت ، وهنا تحرك الألم فاحضروا الى الطبيب ففحص كفى وقرر أن به كسرا وواعد بأن يعودنى يوما بعدد يوم حتى يجبر الكسر ، لقد أخطأت خطأ كبيرا يا سيدى وجوزيت مايسه بما استحق .. والله يغفور رحيم ..

انصت السيد إليها صامتا جامدا ، ثم تتحول عنها عيناه ، ولم يبد

- ١٦٥ -

في وجهه اثر مما يعتلج في صدره على حين تكسبت هي راسها في تخشع
بخال من ينتظر النطق بالحكم ، وطال الصمت ، واشتد ، وشاعت في
جوه القبض نذر الخوف والوعيد ، وتحيرت من امره لا تدري عن اى
قضاء يتمخض ولا الى اى مبرير يقذف بها ، حتى جاءها صوته وهو
يقول في هدوء غريب :

- وماذا قال الطبيب ؟ .. هل ثمة خطر على الكسر ؟ ..

فالتفت راسها صوبه بدهول .. أجل توقعت كل شيء الا ان يوجد
بهذا القول اللطيف ، ولولا رهبة الموقف لاستعادته لتؤكد من صحة
ما سمعت وغلبها التأثير فطفرت من عينيها دمعتان غزيرتان فشدت
على شفتيها ان تفحم في البكاء ، ثم غمغمت في ذل وانكسار :-

- قال الطبيب انه لا داعى للخوف مطلقا ، نجاك الله من كل سوء

يا سيدى ..

ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه الى المزيد من
السؤال حتى تغلب عليها فتحول عن موقفه ليفادر الحجرة وهو يقول :

- الزمى فراشك حتى يأخذ الله بيدك ..

- ٣٠ -

هرعت خديجة وعائشة الى الحجرة بعد ذهاب والدهما ، ووقفتا
حيال أهما تنظران اليها بعينين مستطلعتين تنطق نظراتهما بالاهتمام
والقلق ، ثم لاحظتا احمرار عينيها من اثر البكاء ، فوجتا وتساءلتا
خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم :

- خير ان شاء الله ؟ ..

فلم تعد الأم ان قالت باقتضاب وهي ترمش بعينيها ارتباكاً :

- اعترفت له بالحقيقة ..

- الحقيقة ! ..

فقال باستسلام :

- لم يسعنى الا الاعتراف ، فما كان من الممكن ان يخفى الامر عامه

الى الابد ، وحسنا فعلت ..

قدقت خديجة صدرها بيدها وهتفت :

- يا نهارنا الاسود ..

على حين بهتت عائشة فحملت في وجه أمها دون أن تنبس بكلمة ، ولكن الأم ابتسمت فما يشبه الزهو المقرون بالحياء ، وتورد وجهها الشاحب وهي تستعيد ذكرى العطف الذي شملها به حين لم تكن . تتوقع الا غضبا كاسحا يعصف بها وبمستقبلها .. أجل شعرت برهو وجيء وهي تنهيا للحديث عن عطف السيد عليها في محنتها . وكيف نسي غضبه فيما اعتراه من تأثر واشفاق ، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع :

— كان بي رحيما أطل الله عبره ، انصت الى قصتي صامتا ، ثم سألتني عن رأى الطبيب في خطورة الكسر وغادرتني وهو يشير على ان الزم الفراش حتى يأخذ الله بيدي ..

وتبادلت الفتاتان النظرات في دهشة وعدم تصديق ولكن زاييلهما الخوف سريعا فتنهدتا في ارتياح عميق واضاء وجهاهما بالبشر ، وهتفت خديجة :

— ارايت بركة الحسين ؟

وقالت عائشة بخيلاء :

— لكل شيء حدود حتى غضب بابا ، ما كان يسمعه ان يغضب وهو يراها على هذه الحال ، الان عرفنا قيمتها عنده .. (ثم مخاطبة أمها في دعابة) .. يالك من ام محظوظة ، هنيئا لك التكريم والعطف ! فعاود وجه الأم التورد وقالت بتلعثم وحياء :

— اطل الله عمره .. (ثم متنهدة) والحمد لله على النجاة !

وبدكرت أمرا فالتفتت الى خديجة وقالت باهتمام :

— يجب ان تلحقني به لانه سيحتاج الى خدمتك ختما ..

وشمرت الفتاة — لما يركبها في مخضر أبيها من الارتباك والاضطراب — كأنها وقعت في شرك ، فقالت محتدة :

— ولماذا لا تذهب عائشة ؟ !

ولكن الأم قالت في عتاب :

— انت اقدر على خدمته ، لا تتركني يا شابة اذ ربما يكون في حاجة

اليك الان ..

وكانت تعلم ان احتجاجها لن يغنى عنها شيئا كما لا يغنى عنها عادة كلما دعيت الى أداء واجب ترى الأم انها اقدر عليه من أختها ، ولكنها أصرت على اعلانه كما تصر عادة على اعلانه في أمثاله من المواقف ، مدفوعة بأعصابها السريعة الالتهاب ، وجريا مع نزعتها العدوانية (التي تجد من لسانها اطوع أداة وأحدها « ثم لتحمل أمها على إعادة القول بانها « اقدر

على كيت وكيت من عائشة « كافرار من أمها وانذار لشقيقتها وعزاء لها هي نفسها ، والحق أنه لو حدث أن عهدت الأم بواجب من هذه الواجبات « الخطيرة » لعائشة دونها لثارت ثورة أشد ، ولحالت بينها وبينه ، ما دامت تجد - في أعماق قلبها - أن القيام بهذه الواجبات حق من حقوقها وأمتياز لها كامرأة جديرة بالمكانة التالية لأمها في البيت ، ولكنها ابت في الوقت نفسه أن تعترف جهارا بأنها تمارس - بالقيام بها - حقا من حقوقها ولكن واجبا ثقيلًا تقبله مضطرة ، حتى تدعى إليه - إذا دعيت - في حرج من الداعي ، ولتحتج عليه - إذا احتجت - في غضب يروح عن نفسها ، ولتسمع بالناسبة التعليق الذي تود ، ثم ليحسب لها بعد ذلك كله جميلا تستحق من أجله الشكر !.. ولذلك غادرت الحجرة وهي تقول :

- في كل مآزق تنادين خديجة ، كأنه لا يوجد أمامك غير خديجة : ماذا تصنعين لو لم أكن موجودة !

ولكن خيلاءها تخلى عنها بمجرد مغادرتها للحجرة وحلت محله رهبة واضطراب فعجبت كيف يتأتى لها أن تمثل بين يدي الرجل ، وكيف تقوم على خدمته ، وماذا تلقى منه إذا تلجلجت أو إبطأت أو أخطأت ؟! على أن السيد كان قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه ، ولما وقفت بالباب تسأله عما هو في حاجة إليه أمرها بأن تصنع له فنجان قهوة ، فبادرت بعدها ثم قدمت له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء .. ورجعت إلى الصلاة فمكثت بها لتكون رهن اشارته إذا دعاها فلم يفارقها احساس الرهبة حتى تساءلت كيف يا ترى يمكنها أن تواصل خدمته طوال الساعات اثنتى يقضيها في البيت يوما بعد يوم حتى تنقضي الأسابيع الثلاثة ؟! .. وبدأ لها الأمر شاقا حقا وأدركت لأول مرة خطورة الفراغ الذي تسده أمها في البيت فدعت لها بالشفاء ، جبا فيها من ناحية ورحمة بنفسها من ناحية أخرى .

ومن سوء حظها أن السيد شعر برغبة في الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب إلى الدكان . كما كانت تأمل ، واضطرت تبعا لذلك أن تبقى في الصلاة كالسجينة ، وفي أثناء ذلك صعدت عائشة إلى الدور الأعلى وتسبلت إلى الصلاة حيث تجلس أختها دون أن تحدث صوتا ليربها نفسها وتغمر لها بعينها على سبيل التنديد بجأها ثم تعود إلى أمها تاركة إياها وهي تفلئ من الغيظ إذ كان مما يحقنها أشد الحق أن يعاينها أحد بالمزاح وان لذ لها هي أن تعابث الجميع بمزاحها ، ولم تسترد حريتها .

الى حين طبعاً - الا عندما اسلم السيد جنبه للنوم فطارت الى أمها وأنشأت تحدثها عما قدمت لابيها من خدمات حقيقية ووهمية وتصف لها ما قرأت في عينيه من آى العطف والتقدير لخدماتها !.. ولم تنس ان تعرج على عائشة فتنهال عليها بالجزر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرف صبياني ، ثم عادت الى الأب بعد استيقاظه فقدمت له الغداء ، ولما فرغ الرجل من غدائه جلس يراجع بعض الأوراق وقتاً غير قصير ثم دعاها اليه وطلب اليها ان تبحث له بياسين وفهمى بمجرد رجوعهما الى البيت ..

وقلقت الأم للطلب وخافت ان يكون قد حر في نفس الرجل غضب مكظوم وأنه يروم الآن - في الشابين - متنفساً عن غضبه ، ولما جاء ياسين وفهمى وعلم بما كان ثم بلغا أمر ابيهما بمقابلته دار بخاطرهما بما دار بخاطر المرأة من قبل وذهبا الى حجروته وهما يتوجسان خيفة ، ولكن الرجل خيب ظنونهما فقد لاقاهما بهدوء غير معهود وسألهما عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب فحدثاه طويلاً بما يعلمان وهو يصفى اليهما باهتمام ، وفي النهاية سألهما :

- اكنتما في البيت حين خروجها ؟

ومع ان هذا السؤال كان متوقعا لهما من بادئ الامر الا أنه وقع من نفسيهما - بعد الهدوء العجيب غير المنتظر - موقع الانزعاج فخافا ان يكون مقدمة لتغيير طبقة النغمة التي ارتاحا اليها ارياح النجاة ، وإم يسعهما الكلام فلاذا بالصمت .. بيد ان السيد لم يلحظ في السؤال وكأنه لم يعبأ بسماع الجواب الذي استنتجه مقدماً ، أو لعله أراد ان يسجل عليهما الخطأ فلا اكتراث باقرارهما به .. ولم يزد بعد ذلك على ان يشير الى باب الحجرة اذنا لهما بالانصراف ، وعندما مضيا الى الخارج سمعاه يقول مخاطباً نفسه :

- ما دام الله لم يرزقنى رجالاً فليهنى الصبر .

ومع ان الظواهر دلت على ان الحادث قد هز نفس السيد حتى غير المألوف من سلوكه تغيراً دهش له الجميع الا أنه لم يستطع ان يشي ارادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية !.. فما جاء المساء حتى ازتدى ملارسه وغادر حجروته ناشراً بين يديه شدا طيباً ، الا انه مرفى طريقه الى الخارج بحجرة الأم وسأل عنها فدعت له طوبلاً ممتنة شاكرة .. لم تر في ذهابه الى سهرته - وهى طريحة الفراش - تجافياً للعطف ، ولعلها وجدت في مروءه بها وسؤاله عنها تكريماً فاذاً ، ما كانت

تنتظر « بل اليس مجرد امتناعه عن صب غضبه عليها منة لم تكن تُحلم بها ؟ .. وكان الاخوة - قبل مبارحته حجرته - قد تساءلوا : « ترى هل يعدل الليلة عن سهرته ؟ » ولكن الام أجابت قائلة : « ولماذا يبقى بعد أن علم أن الحال مطمئنة ؟ ! » ولعلها تمنّت فيما بينها وبين نفسها لو يتم نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزواج أصيبت زوجه بما أصيبت هي به ، ولكنها كانت أدري بطبعه فسبقت بانتحال العذر له حتى اذا انطلق الى سهرته كما تتوقع أمكنها - مداراة لموقفها - أن تسوغ انطلاقه بالعذر الذي انتحلت لا بقلّة الاكثراث ؟ ولكن خديجة قالت : « كيف يطيق السهر وهو يراك على هذه الحال ؟ » فأجابها ياسين : « لا عليه اذا فعل مادام قد اطمأن عليها ، حزن الرجال غير حزن النساء » وذهب الرجل الى سهرته لا يتنافى مع حزنه ، بل لعل التفريج عن نفسه واجب عليه ليتسنى له مواصلة حياته الشاقة » ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته في الانطلاق التي بدأت تتحرك في اعضاقه « الا ان مكره لم يجز على خديجة فسألته : « هل تطيق أنت مثلا أن تسهر في قهوتك الليلة ؟ » فبادرها قائلا وهو يلعبها في سره « طبعاً لا ، ولكن أنا شيء وبابا شيء آخر ! » .

ولما فارق السيد الحجرة عاودها الشغور بالراحة الذي يعقب النجاة من خطر محقق فتألق محياها بابتسامة وقالت :
- لعله رأى أن جزائي كفاف ذنبى تعفأ عني ، عفا الله عنه وعنا جميعا ..

فضرب ياسين كفا بكف وهو يقول محتجا :
- أن رجالا غيورين مثله « منهم أصدقاء له ، لا يزرون بأسنا في السماح لنسائهم بالخروج كلما دعت ضرورة أو مجاملة ، فما باله يقيم لكن من البيت سجننا مؤبدا ؟
فلحظته خديجة بهزء وسألته :

- لم ألم تلق بدفاعك هذا وانت بين يديه ؟ !
فانقلب الشاب مقهقها حتى ارتجت كرشه ثم أجابها قائلا :
- يلزمني مثل أنفك أولا كي ادافع به عن نفسي عند الضرورة ..

وتتابعت أيام الرقاد ، فلم يعاودها الألم الذي هصرها أول ليلة وأن تهدد جلدعها وكتفها الوجع لأقل حركة تأتيها « ثم تقدمت نحو الشفاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القوية وحيويتها الدافقة التي يكره بطبعها السكون والقعود مما جعل الاذعان لأوامر الطبيب مهمة شاقة غطى

عذابها على آلام الكسر إبان احتدامها ؛ ولعلها لولا تشدد الإبناء في مراقبتها لخرقت وصايا الطبيب ونهضت عجلى لأموورها .. على أن رقادها لم يمنعهما من نشر الرقابة على شئون البيت من فراشها ، ومراجعة الفتاتين بدقة متعبة فيما يعهد إليهما به .. خاصة عن دقائق الواجبات التي تخاف عليها الإهمال أو النسيان « فتسال وتلاح في السؤال » هل نفضت أعلى الستائر ؟ .. وخصاص الشبايبك ؟ .. هل بخرت الحمام لأبيك ؟ .. هل سقيت اللبلاب والياسمين ؟ « الأمر الذي أحنق خديجة مرة فقامت لها « اعلمى أنك إذا كنت تمنين بالبيت قيراطا قبلى اعنى به أربعة وعشرين » .. وإلى هذا كله أورثها تخليها الإجبارى عن مركزها المرموق شعورا معقدا عانت منه كثيرا ، فربما تساءلت ترى ألم يفقد البيت - أو أحد من أهله - بتخليها عنه شيئا من نظامه أو راحته ؟ .. وإيهما يا ترى أحب إليها ، أن يبقى كل شيء كما كان بفضل فتاتيهما - غرس يديها - أم أن يختل شيء من توازنه يكون خليقا أن يذكر الجميع بالفراغ الذي خلفته وراءها ؟! .. وهب السيد بالمدات استشعر هذا الفراغ فهل يكون ذاك مدعاة لتقديره لأهميتها أو استخفله على ذنبها الذي جر هذا كله ؟! .. تحيرت المرأة طويلا بين عاطفتهم - الإستجيية نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتيهما ، ولكن المحقق أنه لو اختل شيء من النظام لأحدث لها كربا شديدا ، كما أنه لو حافظ على كماله كان لم يطرأ نقص لما خللت من ضيق ..

أما الواقع فهو أن فراغها لم يسده أحد ، وأثبت البيت أنه أكبر من الفتاتين على نشاطهما وإخلاصهما .. ولم تسر الأم لهذا لا في الظاهر ولا في الباطن « توأرى شعورها نحو ذاتها ، ودافعت عن خديجة وعائشة دافعا جارا صادقا ، ثم ركبها الجزع والألم فلم تعد تطيق صبرا على الزوالها ..

- ١٧١ -

- ٣٩ -

وفي فجر اليوم الموعود الذي انتظرته طويلا هبت من الفراش في خفة صبيانية من الفرح كأنها ملك يعود إلى عرشه بعد نفى ... ونزلت إلى حجرة الفرن متدركة عادتها التي انقطعت عنها ثلاثة أسابيع فنادت أم حنفي ، واستيقظت المرأة وهي لا تصدق اذنيها « ثم نهضت إلى سيدتها فعانقتها ودعت لها ، ثم باشرا عميل الصباح في سرور لا يوصف « وعند شروق أول شعاع للشمس صعدت إلى الدور الأول فتلقاها الأبناء بالتهاني والقبل ، ثم مضت إلى حيث ينام كمال فابقظته : وما فتح الغلام عينيه حتى بهت دهشة وفرحا « ثم تعلق بمنقها ولكنها بادرت إلى التخلص من ذراعيه برقة وهي تقول :

— الا تخاف أن ترد كنتفى إلى ما كان عليه ؟ ..

فأمطرها قبلا ، ثم ضحك متسائلا في خبث :

— متى يا عزيزتى نخرج معا مرة أخرى ؟

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم :

— عندما يهديك الله فلا تسوقنى رغم ارادتى إلى الطريق الذى كدت

اهلك فيه .. !

وأدرك أنها تشير إلى عناده الذى كان السبب المباشر فيما وقع لها فضحك ملء فيه ضحك مذنب واثته النجاة بعد أن ظل ذنبه معلقا فوق رأسه ثلاثة أسابيع ، أجل لشد ما خاف أن يجر التحقيق الذى باشره أخوته إلى معرفة الجانى المستتر « وقد أوشكت الريبة التى سلطتها عليه خديجة حيناً وباسين حيناً آخر أن تكشفه فى الركن المنزوى فيه لولا صمود أمه فى الدفاع عنه وتصديها لتحمل مسؤولية الحادث وحدها ، فلما انتقل التحقيق إلى يدى والده تناهى به الخوف وتوقع بين لحظة وأخرى أن يدعى إلى مقابلته ، هذا إلى عذابه — طوال الأسابيع الثلاثة — وهو يرى أمه المحبوبة طريحة الفراش « شديدة العناء ، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معا .. الآن مضى الحادث ، وبضت فى إثره عقابيله ، وانتهى التحقيق « وعادت أمه توقظه فى الصباح ، وسوف تنيعه فى المساء ، رجع كل شيء إلى أصله ، ونشر الأمان الويته « فجق له أن يضحك ملء فيه وأن يهنئ ضميره على الراحة المتاحة ..

وغادرت الأم الحجرة فصعدت الى الدور الأعلى « ولما تدانث من باب حجرة السيد ترمى اليها صوته وهو يردد في صلاته « سبحان ربى العظيم » فحقق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالمتردة ، ثم وجدت نفسها تتساءل « اتدخل لتصبح أو الاجدر أن تعد مائدة الفطور أولا ؟ » لا على سبيل التساؤل حقا ولكن فرارا مما شاع في نفسها من الخوف والحجل أو كليهما معا ، كما يقع للانسان أحيانا أن يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من مشكلة راهنة يشق عليه فضاها . . . ومضت الى حجرة المائدة فاقبلت على العمل بعناية مضاعفة « الا ان قلقها تزايد ، فلم تنتفع بهلة التأجيل التى اقتنصتها ، ولم تجدها راحة كما املت ولكن محنة انتظار أشد عناء من الموقف الذى تكصت عن مواجهته . . . وعجبت كيف جفلت من دخول « حجرتها » كأنها كانت بهم بدخولها لأول مرة ، خاصة وان السيد لم ينقطع عن زيارتها يوما بعد يوم فى اثناء رقادها ، ولكن الحق أن براءها رفع عنها الحماية التى ضربها حولها المرض فشعرت بأنها ستلقاه بمفردها لأول مرة منذ كشفت خبيثتها . . . ولما جاء الأبناء تباعا خفت وحشتها قليلا ، وما لبث أن دخل السيد الحجرة فى جلبابه الفضفاض ولكن لم يبد فى وجهه أثر لى رؤيتها « وقال بهدوء وهو يتجه الى مكانه فى المائدة :

— جئت . . ؟ (ثم مخاطبا الأبناء وهو يتخذ مجلسه) . . اجلسوا . .

وأخذوا فى تناول فطورهم على حين وقفت هى بمكانها المعتاد ، ومع أن الخوف تنهى بها حال دخوله الا أنها مضت تسترّد أنفاسها بعد ذلك ، أى بعد أن تم أول لقاء بعد الشفاء ومبر بسلام « وشعرت عند ذاك بأنها لن تجد مشقة فى الأفراد به فى حجرتها عما قليل . . . وانفضت المائدة فعاد السيد الى حجرتها ، ولحقت به بعد دقائق حاملّة حبيبية القهوة التى وضعتها على الخوان وتنحت جانبا فى انتظار فراغه من احتسائها لتساعده على ارتداء ملابسه . . وحسب السيد قهوته فى صمت عميق « لا ذاك الصمت الذى يقع عفوا أو كالراحة عقب التعب أو كفظاء لصدى فارغ من شئون الحديث ، ولكنه صمت صامت مسربل بالتعمد ، ولم تكن تعدم أملا — ولو ضعيفا — فى أن يتعطف عليها بكلمة رقيقة « أو فى الأقل أن يلم بشأن من شئون حديثه المعتاد فى مثل هذه الساعة من الصباح ، فحيرها صمته المتعمد وعادت تسأل نفسها ترى الا يزال بنفسه شىء ، وأخذ يقلق ينشب ابره فى قلبها مرة أخرى ، على أن الصمت الغليظ لم يمتد طويلا . . كان الرجل يفكر فى سرعة

وتركيز لم يذق معها طعما . لا ذاك التفكير الذى ينبعث من وحي الساعة ، ولكن آخر عنيذا قديما لم يزايل نفسه طوال الايام المنقضية . .
وأخيرا يسأل دون ان يرفع رأسه عن فئجان القهوة الفارغ :

— أسترددت صحتك ؟

فقالت أمينة بصوت خفيض :

— الحمد لله يا سيدى . .

فاستطرد الرجل قائلا بمرارة :

— انى أعجب — وهيهات أن ينتهى لى عجب — كيف أقدمت على

بعلتك !

فدق قلبها بعنف وأطرقت فى وجوم . . لم تكن تطيق غضبه وهى تدافع عن خطأ ارتكبه غيرها فكيف بها الآن وهى المذنبة ! . . وعقل الخوف لسانها ولكنه بانتظار الجواب فواصل حديثه متسائلا فى استنكار :

— أكنت مخدوعا بك طوال هذه السنين وأنا لا ادرى ؟!

عند ذاك بسطت راحتيها فى جزع وآلم وهمست بأنفاس مضطربة :

— أعوذ بالله يا سيدى ، ان خطئى كغير حقا ولكنى لا استحق هذا

القول . .

ولكن الرجل واصل حديثه بهدونه الرهيب الذى يهون الى جانبه

الزعيق قائلا :

— كيف اقترفت هذا الخطأ الكبير ! . . الانى انتعدت عن البلد

بوما واحدا ؟!

فقالت بصوت متهدج وشت نبراته بالرجفة التى ملكت جسمها :

— أخطأت يا سيدى ، وعندك العفو ، كانت نفسى تتوق الى زيادة

سيدنا الحسين ، وحسبت أن زيارته المباركة تشفع لى فى الخروج ولو

مرة واحدة . .

فهز رأسه فى شىء من الحدة كأنما يقول « لا فائدة ترجى من الجدل »

ثم رفع اليه عينيه متجهما ساخطا وقال بلهجة لا تقبل المراجعة :

— ليس عندى الا كلمة واحدة : غادرى بيتى بلا توان . .

هوى أمره على رأسها كالضربة القاضية فبهتت لانتبس بكلمة

ولا تستطيع حراكا ، طالما توقعبت فى شدة أوقات محتتها — وهى تنتظر

عودته من رحلة بور سعيد — ألوانا من المخاوف ، كأن يصب عليها غضبه

أو يصمها بزعيقه وسبابه ، حتى الضرب لم تستبعده ، أما الطرد من

البيت فلم يزجج لها خاطرا ، لا لشيء الا انها سكبت الى معاشرته خمسة

وعشرين عاما فلم تتصور ان ثمة سببا يمكن ان يفرق بينهما أو ينتزعهما من البيت الذى صارت جزءا منه لا يتجزأ .. أما السيد فقد تخلص - بكلمته الأخيرة - من عبء فكر دوخ دماغه طوال الأسابيع الثلاثة المنقضية .. وقد بدا الصراع فى اللحظة التى اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهى طريحة الفرش ، لم يصدق اذنيه لأول وهلة ، ثم اخذ يفيق الى نفسه وإلى الحقيقة البغيضة التى تطالعه متحدية كبرياءه وصلفه ، بيد انه أجل حنقه ريثما يرى ما اصابها ، أو أنه - وهو الأصدق - لم يسعه أن يفكر فيما تحدى كبرياءه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حد الخوف والجزع على المرأة التى يالفها ويعجب بمزاياها فعطف عليها عطفًا لاساء خطاها وسأل الله لها السلامة ، انكمش جبروته حيال الخطر المحقق بها واستيقظ ما تنطوى عليه نفسه من حنان موفور فعاد - يومذاك - الى حجرته محروثا مكتئبا وان لم يفصح وجهه .. لا امانها ولا أمام أحد من الأبناء - عن شيء مما يعتلج فى صدره .. الا أنه مضى يستعيد طمأنينته وهو يراها تملأ للشفاء بخطى سريعة ثابتة . ومضى بالتالى يعيد النظر الى الحوادث كله - أسبابه ونتائجه - بعين جديدة أو بالأحرى بالعين القديمة التى اعتاد أن ينظر بها فى بيته ، فكان من سوء الحظ - حظ الأم طبعاً - أن يعيد النظر فى هدوء وهو خال الى نفسه ، وإن يقتنع بأنه اذا غلب العفو وأبى نداء العطف - وهو ما نرعت اليه نفسه - فقد اضاع هيئته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعا فأقلت منه الزمام وانتثر عقد الأسرة بنتى يابى الا أن يسوسها بالخزم والصرامة ، وبالجمللة لن يكون فى تلك الحال احمد عبد الجواد ولكن شخصا آخر لن يرتضى أن يكونه أبدا .. أجل كان من سوء الحظ أن يعيد النظر فى هدوء وهو خال الى نفسه ، اذ لو أتيح له أن ينفس من غضبه حين اعترافها لانفثا حنقه ومر الحوادث دون أن يسحب وراءه عواقب خطيرة ، ولكنه لم يسعه الغضب فى وقته كما لم يكن ممثا يرنى كبرياءه أن يعلن غضبه عقب شقائقها - بعد هدوء دام ثلاثة أسابيع - . اذ ان هذا الغضب يكون أقرب الى الزجر المتعمد منه الى الغضب الحقيقى ، ولما كانت حساسيته الغضبية تستمر عادة عن طبع وتعمد معا ، ولما كان الجانب الطبيعى منها لم يجد متنفسا فى حينه فقد وجب على الجانب المتعمد - وقد أتيحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير - أن يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب ، هكذا انقلب الخطر الذى تهدد حياتها حينما والذى امنها من

غضبه بما اثار من عطفه أداة عقاب بعيدة المدى بما أتاح له من وقت للتدبر والتفكير . . ونهض مقبلا لولاها ظهره مستقبلا ملابسه على الكنية ثم قال بجفاء :

- سأرتدى ملابسى بنفسى . .

كانت لم تزل متسمرة فى مكانها ذاهلة عما حولها فافاقت على صوته : وسرعان ما ادركت من قوله ووقفته أنه يأمرها بالانصراف فاتجهت نحو الباب فى خطى لا وقع لها ، وقبل أن تجاوزه ادركتها صوته وهو يقول :

- لا احب أن أجذك هنا اذا عدت ظهرا .

خارت قواها فى الصالة فارتمت على طرف كنية وكلماته القاسية الحاسمة تتردد فى باطنها ، ليس الرجل هازلا ، ومتى كان هازلا ؟ ! ولم تستطع مبارحة مكانها - على رغبتها فى الفرار - أن يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف ريبة الأبناء الذين لا تحب لهم أن يستقبلوا يومهم أو يذهبوا الى اعمالهم متجرعين خبر طردها ، وثمة احساس آخر - لعله الحياء - اقعدها عن ان تلقاهم فى ذل المطرود وقررت أن تبقى حيث هى حتى يغادر البيت ، أو أن تاوى الى حجرة المائدة وهو الأفضل حتى لا تقع عليها عيناه اذا مضى الى الخارج فتسللت الى الحجرة كسيرة الفؤاد وقعدت على شلثة ساهمة واجمة ترى ماذا يعنى ؟ . . أيطردها الى حين أم الى الأبد ؟ أنها لا تصدق أنه ينوى تطليقها . هو اكرم من هذا . وائيل ، أجل أنه غضوب جبار ولكن من الاسراف فى التشاؤم أن تغيب عنها أى شهادته ومروءته ورحمته ، وهل تنسى كيف حزن لخالها حين الرقاد ؟ . . وكيف عادها يوما بعد يوم مستفسرا عن صحتها ؟ . . مثل هذا الرجل لا يهون عليه أن يخرب بيتا أو يكسر قلبا أو ينزع أما من بين أبنائها . وجعلت تدبر هذه الافكر فى رأسها كأنما لتدخل بها بعض الطمانينة الى نفسها المزعزعة ، وألحت فى هذا الحاحا ان دل على شىء فعلى أن الطمانينة لا تريد أن تستقر بنفسها كبعض المرضى الذين يزدون تغنيا بقوتهم كلما زادوا احساسا بضعفهم اذ كانت لا تدرى ماذا تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تعنى

الحياة لها لو خاب الرجاء ونفذ المحذور . وترامى الى اذنيها وقع عصاه على أرض الصبالة وهو يضي خارجاً فاطر افكارها وانصتت باهتمام تتابعه حتى غاب . وشعرت عند ذلك بألم جارح لحالها وسخط على الارادة المنحجرة التي لم ترع لضعفها حقاً ، ثم نهضت فيما يشبه الاعياء وغادرت الحجرة لتنزل الى الدور الأول فجاءتها عند رأس السلم أصوات الأبناء وهم ينزلون تبعاً فمدت رأسها من فوق الدرابزين فلمحت فهمى وكمال وهما يتبعان ياسين الى الباب المفضى الى الفناء ، هنالك غمرت خطرة من الحنان قلبها فأذهلتها ، وعجبت لنفسها كيف تركتهما يذهبان دون أن تودعهما ، اليست قد تحرم عليها رؤيتهما أياماً أو أسابيع ؟ وربما لا تراهما مدى العمر الا لماماً كالغرباء ؟ . وعاولدها غمز الحنان متتابعاً وهى جوقفها من السلم لا تريم ، بيد أن قلبها - على امتلائه - كبر عليه أن يصدق أن يكون هذا المسير الأسود نصيبها المقذور ، لايمانها اللانهائى بالله الذى حفظها فى وحدتها العابرة من الففارىت نفسها ، ولثقتها برجلها التى تابى أن تنهار ، ولأنه لم يسبها فى حياتها الماضية شر خطير خلىق بأن يسلبها الطمأنينة الى الحياة الوادعة فمالأت نفسها الى اعتبار مخنتها تجربة قاسية ستمر بهل دون أن تنشب فيها ، ووجدت خديجة وعائشة مشتبكين فى جدال كعادتهما ولكنهما نزعتها عما كانتا فيه حين رأتا وجوهها ونظرة عينيها الخالية ، ولعلمهما خافتا أن تكون قد برخت الفراش قبل أن تسترد كامل صحتها فسألته خديجة فى قلق :

- ماذا بك بائنة ؟

- لا ادرى والله ماذا أقول .. انى ذاهبة ...

ومع أن العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محددة الهدف الا أنها اكتسبت من نظرتها اليائسة ونبرات الشاكية معنى حالكا ريعتاً له فهتفتا معا :

- الى أين ؟!

فقللت بانكسار وهى تشفق سلفاً من وقع كلامها من اذنيهما بل ومن اذنيها هى نفسها :

- الى أمى ..

فهرعتا اليها ملعورين وهما تقولان :

- ماذا تقولين ؟ .. لا تعيدى هذا القول .. ماذا جرى ؟!

وجدت في فزع فتاتها عزاء ولكنه كشانه في مثل هذا الموقف فجر
اشجانها فقالت بصوت متهدج وهى تمنع دموعها :

- لم ينس شيئا ولم يعف ارددت هذا بأسى دل على عمق حزنها) ..
كان يضمم لى الغضب ويؤجله ريثما ابرأ ، ثم قال لى غادري بيتى
بلا توان ، وقال لى أيضا لا أحب ان اجدك هنا اذا عدت ظهرا ، تم بلهجة
نم عن عتاب أسيف وخيبة امل ، سمعا وطاعة .. سمعا وطاعة .
فصاحت خديجة بحال عصبية :

- لا أصدق ، لا أصدق ، قولى قولا اخر .. ماذا جرى للعالم ؟ !
وصاحت عائشة بصوت متهدج :

- لن يكون هذا أبدا ، أهانت عليه سعادتنا جميعا لهذا الحد ؟ !

وعادت خديجة تتساءل في حدة وحنق :

- ماذا يقصد ! .. ماذا يقصد يا نينة ؟

- لا أدري ، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان ..

اكتفت أول وهلة بهذا القول ، ولملها رغبة بالاقتصار عليه ان
تستزيد من عطفهما وتتعزى بجزعهما ، ولكن غلبها الاشفاق من ناحية
والرغبة في طمأنة نفسها من ناحية أخرى فاستطردت قائلة :
- لا أظنه يقصد أكثر من ابعادى عنكم أياها عقابا لى على
ما فرط منى ..

فتساءلت عائشة محتجة :

- اما كفاه لموقع لك ؟ !

فتنهدت الأم محزونة وغمغمت قائلة :

- الأمر لله .. يجب الآن أن أذهب ..

ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهى تقول بصوت مخنق بالبكاء :

- لن ندعك تذهبين ، لا تتركى بيتك ، فلا أظنه يصر على غضبه اذا

عاد ووجدك بيننا ..

وقالت عائشة برجاء :

- انتظري حتى يعود فهمى وياسين ، ولن يرضى أبى أن ينتزعك من

بيننا جميعا ..

ولكنها قالت فيما يشبه التحذير :

- ليس من الحكمة فى شيء أن نتحدى غضبه ، فمثله من يلين بالطاعة

ويشتد بالعصيان ..

وهما بالاعتراض مرة أخرى ولكنها استكتتهما بإشارة من يدها واستطردت قائلة :

— لا جدوى من الكلام ، لا بد من الذهاب ، سأجمع ثيابي وأرحل ، لا تجزعا ، لن يطول افتراقنا ، وسنجتمع مرة أخرى إن شاء الله . . . وانتقلت المرأة إلى حجرتها بالدور الثاني والفتاتان في أعقابها وهما تبكيان كالأطفال ، وأخذت تخرج ملابسها من الصوان حتى أمسكت خديجة بيدها وسألتها بانفعال :

— ماذا تفعلين ؟

وشعرت الأم بدموعها تغالبها فامتنعت عن الكلام أن تفضحها نبراتهما أو تستسلم للبكاء الذي صممت على مقاومته ما دامت بمرأى من ابنتيهما ، فاشترت بيدها كأنها تقول « الحال يوجب أن أجمع ملابسى » ولكن خديجة قالت بخدة :

— لن تأخذى معك إلا تغييرة واحدة . . واحدة فقط . . فندت عنها تنهدة . ودت في تلك اللحظة لو يكون الأمر كله حلمًا مزعجًا ، ثم قالت :

— أخاف أن تثور ثائرتي إذا رأى ملابسى مكانها . . !
— سنحفظها عندنا . .

وجمعت عائشة الثياب إلا تغييرة واحدة كما اقترحت أختها فأذهبت الأم لهما في أرياح عميق كان بقاء ملابسها في البيت مما يشبه لها حقًا في العودة إليه ، ثم جاءت ببقجة وصرت فيها الملابس التي سمح لها بها ، وجلست على الكنب لتلبس جوربها وحذاءها والفتاتان حيالها تنظران في حزن ذاهل حتى رق قلبها لهما فقالت متكلفة الهدوء :

— سيعود كل شيء إلى أصله ، تشجعا حتى لا تستفرا غضبه ، انى أعهد اليكما بالبيت والله ولى كل الثقة في كفاككما ، ولا شك عندي في أنك ستجدين من عائشة كل معاونته ، قوما بما كنا نقوم به معا كما لو كنت معكما ، لكناكما شابة خليقة بأن تفتح بيتنا ونعمره . .

ونفضت إلى ملاءتها فارتدتتها وأسدت على وجهها البرقع الأبيض في تمهل متعمد لتؤجل ما استطاعت اللحظة الأخيرة المذلة المحيرة . ووقفن حيال بعض لا يدرين كيف تكون الخطوة التالية . لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع ، ولم توات أحداهما الشجاعة على الارتقاء في حضنها كما تود ومرت الثواني محملة بالعداب والقلق بيد أن المرأة المتجعدة

- ١٧٩ -

خافت أن يخونها تجلدها فخطت خطوة نحوهما ومالت اليهما فقبلتهما بالتتابع وهى تهمس :

- تشجيعا ، ربنا معنا جميعا .

هنالك تعلقتا بها وأفحمتا في البكاء ..

وقد غادرت الأم البيت بعينين ذارفتين تراءى الطريق خلال دمعهما وهو يتميع ..

- ٣٣ -

طرقت باب البيت القديم وهى تفكر - بألم وحياء معا - فيما سيحدثه مجيئها مغضوبا عليها من الانزعاج والكدر ، وكان الباب يفتح على عطفة مسدودة متفرعة من شارع الحرنفش تنتهى بزاوية أقيمت بها الصلاة عهدا طويلا ثم هجرت من أعوام لقدمها ولكن بقيت آثارها المتهدمة لتذكرها - كلما زارت أمها - بطقولتها حين كانت تنتظر ببابها أباه حتى يفرغ من صلاته ويعود إليها ، وحين تمد رأسها داخلها فى أوقات الصلاة لتلهو بمنظر الركع السجود ، أو حين تتفرج على بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيما يليها من العطفة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار ولما فتح الباب أطل منه رأس جارية سوداء فى العقد الخامس ، ما أن رأت القادمة حتى تهلل وجهها وهتفت مرحبة بها ، ثم تنحت جانبا لتوسع لها فدخلت أمينة ، ولبثت الحادم بموقفها كأنها تنتظر دخول قادم آخر فأدركت أمينة ما تعنيه وقفتها فهمت بامتعاض :

- أغلقى الباب يا صديقة ..

فتسلائت الجارية بدهشة :

- ألم يأت السيد معك ؟

فهزت رأسها بالنفى متجاهلة دهشتها ومضت - عابرة فناء البيت الذى تصدره حجرة الفرن وتقع البئر فى ركنه الأيسر - الى سلم ضيق فرقته الى الدور الأول والآخر . ثم اجتازت دهليزا الى حجرة أمها ودخلت ، رأت أمها متربعة على كنبه فى صدر الحجرة الصغيرة قابضة بكلتا راحتيها على مسبحة طويلة متدلية فى حجرها ، متجهة العينين صوب الباب فى تطلع آثاره بلا ريب طرق الباب ثم وقع القدمين المقتربتين ، ولما تدانت أمينة منها تساءلت :

— من .. ؟

وافتر ثغرها وهى تتساءل عن ابتسامة خفيفة تنم عن البسر والترحال ، كأنها حدثت هوية القادم ، فأجابتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن :

— أنا أمينة يا أمى ..

فألقت العجوز بساقها الى الأرض وتحسست بقدميها موضع الشبشب حتى عثرت عليه فدستهما فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة فى شوق فرمت أمينة بالبقعة الى طرف الكنبه وانطوت بين ذراعى امها وهى تقبل جبينها وخديها والاخرى تلثم ما يتفق وقوع شفقتها عليه من الرأس والخذ والعنق ، ولما انتهت العناق ربت العجوز على ظهرها بحنان ثم لبثت بموقفها متطلعة صوب الباب وعلى شفقتها ابتسامة تعلن عن ترحيب جديد ، كما فعلت صديقة من قبل فادركت أمينة للمرة الثانية ما تمنيه هذه الوقفة وقالت بامتعاوض واستسلام :

— جئت وحدى يا أمى ..

فتحول الرأس اليها كالمسائل ، وثممت المرأة :

— وحدك ؟! .. ثم مبتسمة ابتسامة متكلفة لثپرد ما انتابها من قلق (سبحان الذى لا يتغير !)

وتراجعت الى الكنبه فجلست وهى تتساءل بلهجة افصححت هذه المرة عن قلقها :

— كيف الحال ؟ ... لماذا لم يحضر معك كعادته ؟

فجلست أمينة الى جانبها وهى تقول بلهجة التلميذ الذى يعترف برداء اجاباته فى الامتحان :

— انه غاضب على يا أمى ..

ورمشت الأم واجمة ثم ثممت بنبرات حزينة — اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قلبى لا يكذبنى أبداً ، وقد انقبض وانت تقولين لى « جئت وحدى يا أمى » ترى ماذا هيح غضبه على ملاك كريم مثلك لم يحظ رجل به قبله ؟! .. خبرينى يا بنتى ..

فقال أمينة متنهدة :

— زرت سيدنا الحسين فى اثناء سفره الى بور سعيد ..

فتفكرت الأم فى حزن وكآبة ثم تساءلت :

— وكيف علم بأمر الزيارة ؟

حرمست أمينة من بادى الامر على الا تشير الى حادث السيارة

وحمة بالعجوز من ناحية وتخففا من المسؤولية من ناحية أخرى . ولهذا اجابتها بما أعدته سلفا لهذا السؤال قائلة :

— لعل أحدا رآنى فوشى بى عنده ..
فقالت العجوز بحدة :

— لا يعرفك أحد من البشر الا من اختلط بك داخل بينك . ألم تشكى فى أحد ؟ .. هذه المرأة أم حنفى ؟! أو ابنه من المرأة الأخرى ؟
فبادرتها أمينة قائلة بثقة و يقين :

— لعل جارة رأتنى فأخبرت زوجها بحسن نية فأعاد الرجل الخبر على مسمع السيد غير مقدر لخطورة عواقبه ، ظنى ما تشائين الا النك فى أحد من أهل بيتى ..

فهزت العجوز رأسها فى حيرة وشك وأنشأت تقول :

— طول عمرك سليمة الطوية ، الله وحده المطلع وهو الكفيل يرد كيد الكائد ، ولكن زوجك ! ... الرجل العاقل .. الداخل على الخمسين ..
ألم يجد وسيلة لإعلان غضبه الا طرد عشيرة العمر من بين أولاده ؟! ..
سبحانك يارب . الناس تكبر تعقل ونحن تكبر نتهور ، هل من الكفر ان تزور امرأة فاضلة سيدنا الحسين ! .. الا يسمح أصدقاؤه ، وهم لا يقلون عنه غيرة ورجولة ، لزوجاتهم بالخروج لمختلف الأغراض ؟ ! ..
أبوك نفسه الذى كان شيخا من حملة كتاب الله كان يأذن لى فى الذهاب الى بيوت الجيران للتفرج على المحمل ..

وغلّب الصمت والكآبة مليا حتى التفتت العجوز ناحية ابنتها وعلى شفيتها ابتسامة عتاب حائرة ثم تساءلت ؟

— أى شيء أفراك بعصيانه بعد ذاك العمر الطويل من الطاعة العمياء ؟! .. لشد ما يحيرنى هذا .. اذ مهما يكن من حمية طبعه فهو زوجك ومن السلامة الحرص على طامته من أجل راحتك وسعادة الأولاد ، أليس كذلك يا ابنتى ؟ .. أعجب شيء اننى لم أجذك يوما فى حاجة الى نصح ناصح .. ؟!

فندت من أمينة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء ، وغغممت :
— تحكم الشيطان !

— عليه لعنة الله ، أنزل اللعين قدمك بعد خمسة وعشرين عاما من الوثام والسلام .. ولكنه هو الذى أخرج أبانا آدم وأما حواء من الجنة ! .. لشد ما يحزننى يا ابنتى ، ولكنها سحابة صيف ثم تنقشع

ويعود كل شيء الى اصله .. (ثم وهى كأنها تحدث نفسها) ماذا كان عليه لو استوصى بالحلم ؟! .. ولكنه رجل ، ولن يخلو رجل من عيوب تخفى عين الشمس .. (ثم بلهجة ترحيب وسرور متكلفة) اخلعى ملابسك واستريحى ، لا تجزعى ، ماذا يضرك من قضاء عطلة قصيرة مع امك فى الحجرة التى ولدت فيها ؟!

فجرى بصرها فى غير اكتراث على الفراش القديم الذى حال لون عمده ، والسجادة البالية التى انجرد وبرها ونسلت أطرافها وان بقيت رسوم ورودها حافظة لحرمتها وخضرتها ، ولكن صدرها - لما وان عليه من فرقة الأحباب - لم يكن مهيبا لتلقى موجات الذكريات ، فلم تهج دعوة أمها فى قلبها الحنان الذى تهيجه عادة ذكرياتها المتباعدة لهذه الحجرة وهى قريرة العين ، ولم يسعها الا ان تنهد قائلة :

- ما بى الا القلق على الأولاد يا أمى ..

- انهم فى رعاية الله ، ولن يطول بعدك عنهم باذن الرحمن الرحيم .. وقامت أمينة لتخلع ملأها على حين انسحبت صديقة - حريزة أسيفة لما سمعت - من موقفها عند مدخل الحجرة الذى لزمته ائناء الحديث ، ثم عادت المرأة الى مجلسها جنب أمها وما لبثتا أن قلبتا الحديث ظهرا لبطن وهما تبدآن وتعيدان وكان فى تقابلهما جنباً لجنب ما يدعو الى تأمل قوانين الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصارم ، كأنهما شخص واحد وصورته المنعكسة فى مرآة المستقبل او نفس الشخص وصورته المنعكسة فى مرآة الماضى وبين الأصل والصورة على الجالين ما يشير الى الصراع الرهيب الناشب بين قوانين الوراثة التى تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذى يدفع الى التغير والنهاية من ناحية اخرى ، ذاك الصراع الذى ينجلى عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تباعا بقوانين الوراثة حتى يفقدو قصارها أن تؤدى وظيفة متواضعة فى نطاق قانون الزمن الصارم . فى نطاق ذاك القانون استحوالت الأم العجوز جسما نحिला وجها ذابلا وعينين لا تبصران الى تطورات باطنية لا تنالها الحواس ، حتى لم يبق لها من بهجة الحياة الا ما يدعونه بجمال الشيخوخة أى السمات الهادئة والوقار المكتسب الحزين والراس المرصع بالبياض . بيد أنها كانت تنحدر من جيل معمر عرف بصلافة المقاومة فلم يكن طعنها فيما بعد الخامسة والسبعين بمقعدها عن أن تنهض فى الصباح كهاداتها منذ نصف قرن فتتحسس سبيلها - بدون ارشاد الجارية - الى الحمام فتتوضأ ثم تعود الى

حجرتها فتصلى ، أما بقية النهار فتقطعها في التسبيح والتأمل الصامت الذي لا يدري به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال البيت ، أو مستأنسة الى حديث المرأة اذا فرغت لمجالستها ، حتى الصفات التي تلازم عادة وفرة النشاط والعمل وحدة الحماس للحياة لم تزايلها بحال : مثال هذا شدة محاسبتها للجارية على كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بالمصروفات ، وتنظيف البيت وترتيبه وتلكأها اذا تلكأت في مهمة . وتأخيرها اذا تأخرت في مشوار ، ولم يكن بالنادر أن تحلفها على المصحف لتطمئن الى صحة تقاريرها عن غسل الحمام والأواني وتنفيض النوافذ ، دقة بالوسوسة أشبه ، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمرارا لعادة تأصلت في صدر الشباب ، كما أنه من الجائز أن تكون نكسة مما يعتري الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرفة استمساكها بالبقاء في بيتها في شبه وحدة كاملة بعد وفاة بعلا ، ثم اصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها لبصرها ، متصامة عن دعوات السيد المتكررة لها بالانتقال الى بيته لتعيش في رعاية ابنتها وأحفادها ، مما عرضها لتهمة الخرف وجعل السيد يعرض عن دعوتها نهائيا ، ولكن الحق أنها كرهت هجر بيتها لتعلقها الشديد به ، ولتحاميتها ما عسى أن تلقى في البيت الجديد من اهمال غير مقصود أو ما يستوجب وجودها من إلقاء أعباء جديدة على عاتق ابنتها المثقل بالواجبات ، ولنفورها من الرج بنفسها في بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب ان تنزلق وهي لا تدري الى ملاحاته . الأمر الذي تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها ، وأخيرا لما تنطوى عليه في قرارة نفسها من حياء وكبرياء حبا اليها الحياة في البيت الذي تملك معتمدة - بعد الله - على المعاش الذي تركه لها زوجها الراحل . على أن ثمة أسبابا أخرى لاصرارها على البقاء في بيتها لا يمكن تبريرها برهافة الحساسية أو سداد البصيرة ، مخوفها - اذا أخلت البيت - من أن تجد نفسها مضطرة الى اختيار أمر من اثنين ، فاما أن تسمح للغرباء بأن يسكنوه وهو أعز شيء لديها بعد ابنتها وأحفادها ، واما أن تتركه مهجورا فتتخذ العفاريث ملعبا بعد أن ظل طوال عمره مقاما لشيخ من حملة كتاب الله هو زوجها ، إلا أن انتقالها الى بيت السيد كان خليقا بأن يخلق لها مشاكل معقدة لا تفرض في نظرها بميسور الحلول لأنها ما انفكت تسائل نفسها وقتذاك انقبل ضيافته بدون مقابل وهو ما لا يرتاح اليه بحال ، أم تنزل له عن

معاشها لقاء اقامتها في بيته وهو ما يقلق غريزتها في الامتلاك التي اوضحت
 - مع الكبير - عنصرا جوهريا من عناصر « وسوستها » العامة ؟
 بل قد توهمت احيانا عند الحاحه عليها في الانتقال الى بيته انه يضم
 نية استغلالية نحو معاشها وبيتها الذي سيخلو بعد انتقالها ففزعت
 الى الرفض لحد العناد الأعمى ولما نزل السيد عند ارادتها قالت له
 «ارتياح » لا تؤاخذني باصراري يا ابني ، ربنا يكرمك بما اوليتني من
 عطف ، الا ترى انه لا يسعني ان أهجر بيتي ؟ .. وما أجدرك ان تجارى
 عجوزا مثلى على علاقتها بيد انى استحلفك بالله الا ما سمحت لأمينة
 والأولاد بزيارتى الحين بعد الحين بعد ان امسى خروجى من البيت
 متعلدا « وهكذا بقيت في بيتها كما ارادت متمتعة بسيادتها وحريتها
 وكثير من عادات الماضى العزيز واذا كان بعض هذه العادات ، كالمغالة
 الشاذة في الاهتمام بشئون البيت والمال « مما يتنافر مع هدوء الشيخوخة
 الحكيمة وتسامحها ، وبالتالي مما يبدو كعارض من اعراض الهرم
 الانتكاسية ، فثمة عادة اخرى مما حافظت عليه جديرة بان تزين
 الشباب « وبأن تضى على الشيخوخة جلالا ، تلك هى العبادة ، كانت
 ولم تزل مطمح حياتها ومشرق آمالها وسعادتها ، رضعتها صغيرة في
 كنف اب شيخ من شيوخ الدين ، وتفلقت في أعماقها بزواجها من شيخ
 آخر لم يكن دون أبيها ورعا وتقوى « وظلت تمارسها بحب وإخلاص غير
 مفرقة في اخلاصها بين ما هو دين حقا وما هو خرافة خالصة حتي
 عرفت بين جارائها بالشيخة المباركة ، صديقة الجارية وحدها التي
 عرفتها بخيرها وشرها ، فربما قالت لها على اثر مشادة مما ينشب
 بينهما « يا ستي اليست العبادة اولى بوقتك من الشجار والنقار على
 التافه من الامور ! » فتجيبها محتدة « يا لثيمة انك لاتوسيننى بالعبادة
 حبا فيها ولسكن كى يخلو لك مجال العبث والاهمال والقدارة والسلب
 والنهب « ان الله يأمر بالنظافة والأمانة فمراقبتك ومحاسبتك عبادة
 وثواب ! » ولأن الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد سما
 ابوها ومن بعده زوجها الى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما
 بحكم القرابة ، وطالما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله
 ورسوله في صدرهما ، ولعلها ذكرت هذا حين خاطبت أمينة مواسية
 ومشجعة فقالت :

- ما أراد السيد باخراجك من بيتك الا اعلان غضبه على مخالفتك

لأمره ولكنه لن يجاوز حدود التأديب ، أجل لن يحقق سوء بمن كان لها
اب كأبيك أو جد كجدك ..

وابتل صدر أمينة بذكر أبيها وجدها كما يتتل صدر المنقطع به
الطريق في الظلماء إذا ترامى إليه صوت الغفير وهو يهتف « هو »
فأمن قلبها بقول أمها ، لا لتلهفها على الطمأنينة فحسب . ولكن لايمانها
قبل كل شيء ببركة الشيخين الراحلين « فلم تكن الا صورة من أمها في
جسمها وإيمانها وجل طبعها . واثالثت على وجدانها في تلك اللحظة
ذكريات أبيها الذي أفعم قلبها وليدة بالحب والإيمان فدعت الله ان
ينتشلها من ورطتها اكراما لبركته ، وعادت العجوز الى مواساتها
فقلبت وعلى شفيتها الجافتين ابتسامة رقيقة :

— ان الله يراعك دائما برحمته ، اذكرى عهد الوباء لا أرجعه الله
وكيف نجاك الله من شره فقضى أخواتك ولم يمسسك سوء !

غلبها الابتسام على كآبتها فابتسمت « وتفرست في غيبش من الماضي
كاد يحوه النسيان فوضحت — بعض الوضوح — من خليط الذكريات
صور أحييت في نفسها أصداء من عهد الرعب ، وهى صبية تحجل
خارج أبواب غلقت على أخوات مستقلقيات على أسرة المرض والموت ،
وهى وراء النافذة تنظر الى سيل من النعوش لا ينقطع والناس تفر من
طريقها ، أو وهى تسمع الى جماهير من الشعب التقت في ذعرها ويأسها
برجل من رجال الدين — كما كان يتفق لأبيها — وراحت تجار بالشكوى
وترسل الدعوات الى رب السماء ، وعلى رغم استفحال الشر وهلاك
أخواتها جميعا فقد أفلتت من براثن الوباء سالمة آمنة لم يكدر صفوها
الا عصير الليمون والبصل الذى كانت تجبر على تجرعه مرة أو مرتين
في اليوم ، واستطردت الأم بصوت نمت رفته وحنانه على الاسترسال
في الأحلام كأنما قد ردها التذكر الى العهد الخالي فاستعادت حياته
وذكرياته — العزيزة الغالية لاقتراها بالشباب — خالصة من شوائب
الأمم. المنسى ، فقالت :

— ولم يقنع حظك السعيد بانقاذك من الوباء لكنه إبقاك وحيدة
الأسرة وكل ما لها في الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرعت في صميم
قلوبنا .

لم تعد أمينة ترى الحجرة — بعد هذا الخطاب — كما كانت تراها
قبله ، بمثت جدة الشباب في كل شيء ، في الجدران والسجادة والسرير
في أمها وفيها هى نفسها « ورد أبوها الى الحياة واتخذ مجلسه المعهود ،

— أليس الله حافظك وراعيك ؟ !

بيد أن هذا القول نفسه تضمن عزاء موحيا ذكرها بحالها الإراهنه فاستيقظت من حلم الماضي السعيد عائدة الى كآبتها كما يعود السالى الى اجترار احزائه بكلمة مواساة تلقى اليه بحسن نية ، ولبثت الى جانب أمها في حال من الفراغ الصارم لم تعدها الا حين مرضها فانكرتها وضاعت بها ولم يشغل حديثها المتواصل مع أمها الا نصف انتباهها على حين بقى النصف الآخر مرعى للضيق والتقلق ، ولما جاءت صديقة ظهرا بصينية الغداء قالت لها العجوز بقصد تسلية ابنتها أولا « جاءك رقيب ليكشف عن سرقاتك ! » ولكن امينة لم يكن يهمها وقتذاك ان تسرق المرأة او ان تلتزم الامانة ولم ترد الجارية على سيدتها اكراما للضيعة من ناحية ولانها من ناحية أخرى آلفت مراودة سيدتها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الائنتين . وباستدارة النهار اشتد تعلق فكرها ببيتها وثمانك عليه لانه فى ذلك الوقت يعود السيد الى البيت للغداء والقبولة ، ثم يرجع الابناء تباعا عقب خروج الرجل الى الدكان ، فرأت بخيالها افدى استمد من الألم والحزن قوة خارقة ، البيت وآله كأنهم شهود ، وأت السيد وهو يخلع جبته وقفطانه دون مساعدتها التى تخاف أن يكون قد ألف الاستغناء عنها منذ وفادها الطويل ، وحاولت أن تقرأ ما يدور وراء جبينه من أفكار ونوايا ، هل يستشعر الفراغ الذى خلفته وراءها ، وكيف كان احساسه حين لم يجد لها من اثر فى البيت ، والم يرد لها ذكر على لسانه لسبب أو لآخر ؟ .. وهما الابناء عائدون وهما هم يهزعون الى الصالة بعد طول اشتياق الى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شاغرا ، ويسألون عنها فتجييبهم نظرات اختيمهم المتجهمة الادمعة « ترى كيف يتلقى فهمي الخبر ، وهل يدرك كمال - وهنا خفق قلبها خفقة جارحة - معنى غيابها ؟ ايتشاورون طويلا ؟ .. ماذا ينتظرون ؟ .. لعلمهم فى الطريق يستبقون إليها .. يجب أن يكونوا فى الطريق » أم يكون قد أصدر امرأ بعدم زيارتها ؟ يجب أن يكونوا فى الخرنفش .. ستري

صبا قليل ..

— اتحدثنينى يا امينة ؟

بهذا السؤال قاطعت العجوز تيار خيالها فانتبهت اليها فى دهشة ممزوجة بالحياء . اذ فطنت الى ان كلمات — من حديثها الباطنى مع نفسها — قد تسلت فى غفلة منها الى طرف لسانها محدثة الحس الذى التقطته اذن امها المرفقة قلم تر بدا من أن تجيبها قائلة :

— انى أنساءل يا أمى الا يجىء الأولاد لزيارتى ؟

— أظنهم جاءوا . . !

قالت العجوز هذا وهى ترهف السمع مادة رأسها الى الامام فانصتت امينة صامتة فترامى اليها صوت مطرقة الباب وهى ترسل ضربات سريعة متلاحقة كأنها صوت يبعث فى لهفة بصرخات استغاثة حارة فعرفت وراء هذه الضربات العصبية قبضة كمال الصغيرة كما كانت تعرفها وهى تدق عليها باب حجرة الفرن ، وسرعان ما هرعت الى رأس السلم وهى تنادى صديقة لتفتح الباب ، ثم اطلت من فوق الدرابزين فرأت الفلام وهو يثب فوق درجات السلم وفى أثره فهمى وباسين وتعلق كمال بمنقها فعاقها قليلا عن عناق الآخرين ، ثم دخلوا الحجرة وهم ، من جيشان النفس وتبلبل الخاطر يتكلمون فى وقت واحد لا يبالى أحدهم ما يقول الآخرون ، ولما رأوا الجدة واقفة مبسوطة الذراعين مشرقة الوجه بابتسامة ترحاب مفعمة بالحب أمسكوا عن الكلام الى حين وأقبلوا عليها تباعا فساد صمت نسبي تخللته همسات القبل المتبادلة وأخيرا هتف ياسين بصوت ينم عن الاحتجاج والحزن :

— نحن الآن لا بيت لنا ، ولن يكون لنا بيت حتى تعودى اليه .

وآوى كمال الى حجرها كالهارب وهو يقول مفصحا لأول مرة عن نيته التى طوى صدره عليها فى البيت وفى الطريق :

— سائقى هنا مع نينة . . لن أعود معكما . .

اما فهمى فقد رنا اليها طويلا صامتا ، كشأنه اذا اراد أن يحدثها بالنظر ، فوجدت فى نظره الصامتة خير معبر عما يعتلج فى صدره مما معا . هذا الحبيب الذى لا يفوق حبه لها الا حبها له ، والذى ينذر أن يشير فى أحاديثه معها الى عواطفه ولكن تشى به خطرات نفسه وكلماته وفعاله ، وقد قرأ الفتى فى عينيها نظرة تدل على الألم والحجل فاشتد تأثره وقال بحزن وثألم :

— نحن الذين اقترحنا عليك الخروج ، وشجعناك عليه ، ولكن ها انت وحده تتلقين العقاب . .

فابتسمت الأم في ارتباك وقالت :

- لست طفلة يا فهمى ، وما كان ينبغي لى أن افعل ..
فتأثر ياسين لهذا الحوار المتبادل ، واشتد كربه لفرط احساسه بالحرج بصفته صاحب الاقتراح المشئوم ، وتردد طويلا بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه ، على مسمع من الجدة أن تعاتبه أو تضرع له حنقا ، وبين السكوت على ما به من رغبة في التنفيس عن تحرجه ، ثم خرج من تردده بأن ترجم كلام فهمى الى لغة أخرى قائلا :
- أجل ، نحن المذنبون واثت المتهمة . (ثم ضاعطا على مخارج الكلمات كأنها يضغط على عناد أبيه وصلابته) ولكنك ستعودين ، وسوف تنقشع السحابة التى تظلنا جميعا .

ولفت كمال وجهها اليه من ذقنها « وانهاى عليها بسيل من الأسئلة ، عن معنى مغادرتها البيت ، وكم تطول اقامتها فى بيت جدته ، وعما يحدث لو عادت معهم » وغير ذلك من الأسئلة التى لم يسمع عنها جوابا واحدا حقيقيا بأن يسكن خاطره الذى لم ينفع فى تسكينه عزمه على أن يبقى مع أمه حيث هى ، ذلك العزم الذى كان أول من يرتاب فى قدرته على تحقيقه ، وتغيرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كل منهم من التعبير عن عواطفه « فأخذوا يعالجون الموقف معالجة جدية لأنه - كما قال فهمى - « لا يجدى التكلم فيما كان ولكن ينبغي أن نتساءل عما سيكون » وقد أجابه ياسين على تساؤله قائلا « ان رجلا كابينا لا يرضى بأن يمر بحادث كخروج أمنا مرا كريما ، فلم يكن بد من أن يعلن غضبه بطريقة لا يسهل نسيانها ، ولكنه لن يجاوز حدود ما فعل » بدا هذا الرأى مقنعا لما صادف من ارتياح النفوس اليه فقال فهمى مفصحا عن اقتناعه ومرجوه معا « والدليل على صحة رأيك انه لم يقدم على فعل شيء آخر » ومثله لا يؤجل عزمه لو صحت نيته عليه « وتكلموا كثيرا عن « قلب » ابهم فاتفقت كلمتهم على انه قلب خير رغم ثورته وحدته وان أبعد شيء عن تصورهم هو أن يقدم على عمل من شأنه أن يسىء الى السمعة أو يؤذى أحدا وعند ذاك قالت الجدة هلى سسبيل الدعابة وهى تعلم باستحالة ما تدعو اليه :

- لو كنتم رجلا حقا لالتمستم الوسيلة الى قلب ابكم ليتحول عن عناده ..

فتبادل ياسين وفهمى نظرات ساخرة من هذه « الرجولة » المزعومة التى تلذوب لدى ذكر ابهم ، وخافت الأم من ناحيتها أن يتطور الحديث

بين الشبايين والجددة الى ذكر حادث السيارة فأفهمتهما بالإشارة - وهي تردد يدها بين كتفها وامها - أنها اخفت عنها الأمر . ثم قالت تخاطب امها وكأنها تنبرى للدفاع عن رجولة الشبايين :

- لا أحب ان يتعرض أحدهما اغضبه فلنتركه لنفسه حتى يعفو ..
وهنا تسائل كمال :
- ومتى يعفو ؟

فاشارت الأم بسبابتها الى فوق وهي تغمغم « ربنا عندد العفو » .
يكالمولف في مثل هذه الحال دار الحديث حول نفسه فأعاد كل ما سبق
نه قوله بنفس الألفاظ او بالفاظ جديدة من ايشار متواصل للظنون
الوردية فطال الحديث دون أن يستجد به جديد ، حتى خيم الظلام
ووجب الرحيل . وحين وجب الرحيل وغشيت كآبته القلوب كالضباب
شغل به الفكر عن الكلام فساد سكون كالسكون الذي يسبق العاصفة :
اللهم الا كلمات لا يراد بها الا التخفيف من وطأة الصمت او التهرب من
الاعتراف بجثوم الوداع وكأن كلا منهم يلقى تبععة اعلانه على عاتق غيره
رحمة بالجانب الآخر ، هنالك حدس قلب العجوز ما تضطرم به النفوس
حولها فرمشت عيناها المظلمتان ولعبت أصابعها بجبات السبحة في
عجلة ولهوجة ، ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة للأنفاس
كالحظات التي يترقب فيها الحالم في كابوس سقطه من علو شاهق ،
حتى جاءها صوت ياسين وهو يقول « أظن ان لنا أن نذهب ،
وسنعود لناخذك معنا قريبا ان شاء الله » وتسمعت العجوز لترى كيف
تتهدج نبرات ابنتها عند الكلام ، ولكنها لم تسمع كلاما بل سمعت
حركة دالة على نهوض الجلوس ، وأصوات قبل وهممة توديع ،
 واحتجاج كمال على انتزاعه بالقوة فبكاءه ، ثم جاء دورها في التسليم
في جو مشبع بالحزن والفطور ، وأخيرا أخذت الأقدام بتعبد تاركة اياها
في وحدة وشجن ..

وعادت قدما امينة الخفيفتان فمضت العجوز تتصنت في قلق حتى
هتفت بها :

- اتبكين ؟! .. يا لك من عبيطة ! .. كأنك لا تطيقين أن تبتي ليلتين
في حضن أمك ! ..

بدأت خديجة وعائشة أضيق الجميع بغياب الأم ، فالى حزنهما الذى يشاركما فيه الأخوة تحملتا وحدهما أعباء البيت وخدمة الأب يسد أن أعباء البيت لم تكن لتنوء بهما ، أما خدمة الأب فهى التى عملا لها الف حساب ونزعت عائشة الى الهرب من منطقة أبيها معتلة بأن خديجة سبق لها أن تدربت على خدمته فى أثناء رقاد الأم فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة الى تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التى تكابدها وهى على كثر من السيد أو وهى تقضى له حاجة من حاجاته . ومنذ السابعة الأولى لذهاب الأم قالت خديجة « ينبغى ألا تطول هذه الحال ، أن الحياة بدونها فى هذا البيت عناء لا بطلاق » فأمنت عائشة على قولها ولكنها لم تجد من حيلة فى وسعها غير الدموع فدفقتها ، وانتظرت عودة أخوتها من بيت الجدة حتى جاءوا وقبل أن تلفظ كلمة مما يدور فى نفسها راحوا يحدثون عن حال أمهم فى « منفاها » فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة والاستنكار لأنها كانت تسمع عن قوم غرباء لا يتاح لها لقاءهم فقلبها الانفعال وقالت بحدة :

— اذا قنع كل منا بالسكوت والانتظار فربما تلاحقت الايام والاسباع وهى مبعدة عن بيتها حتى يضيئها الحزن ، أجل أن مخاطبة بابا فى هذا الشأن مهمة شاقة ولكنها ليست أشق من السكوت الذى لا يليق بنا ، ينبغى أن نجد طريقة .. ينبغى أن نتكلم ..

ومع أن صيغة « نتكلم » التى ختمت بها جملتها جاءت شاملة لجميع الحاضرين الا أنه قصد بها — كما فهم بالبلداهة — شخصا أو شخصين شعر كلاهما لدى سماعها بارتباك لم تخف بواعثه على أحد ، بيد أن خديجة واصلت حديثها قائلة :

— لم تكن مهمة مخاطبته فيما يعرض لنا من أمور بايسر على نينة مما هى علينا ومع ذلك لم تكن تتردد عن مخاطبته اكراما لى واحد منا ، فمن الانصاف أن نتحمل نفس التضيحية من أجل خاطرهما ...

تبادل ياسين وفهمى نظرة فضحت احساسهما بالحناق الذى أخذ يضيق حولهما سريعا ولكن واحدا منهما لم يجرؤ على فتح فيه أن ينتهى به الكلام الى أن يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فاستسلمها

لا انتظار ما يجيء به النقاش كما يسلم الفار للهرة . وتركت خديجة
النعميم الى التخصيص فالتفتت الى ياسين قائلة :

- أنت اخونا الأكبر والى هذا فانت موظف . اى رجل كامل . فانت
اجدرنا بالقيام بهذا الواجب ..

ملأ ياسين صدره بالهواء ثم نفخ وهو بعث بانامله فى ارتباك ظاهر
ومتتم قائلا :

- والدنا رجل نأرى الغضب لا يقبل مراجعة لرايه ، وانا من ناحيتى
له اعد غلاما بل صرت رجلا وموظفا كما تقولين ، واخوف ما اخاف ان
ينفجر فى غضبا فيفلت منى زمام نفسى وينور غضبى بدوره !

وغلبيهم الابتسام على أعصابهم المتوترة ، وانفسهم المحزونة فابتسموا .
وأوشكت عائشة أن تضحك فأخفت وجهها فى كفيها ، ولعل حالهم
المتوترة نفسها مما هيأهم لقبول الابتسام كمسكن وقتى للتوتر والالم
كما يحدث للنفوس أحيانا عند اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب
لائفه الأسباب على سبيل التخفيف عن حال بأصدادها ، ذلك انهم عدوا
قوله نوعا من الدعاية الجدير بالضحك والسخرية ، وكان هو أول من
يعلم بعجزه التام عن مجرد التفكير فى الغضب أو المقاومة حيال والده
وأول من يعلم انه قال ما قال فرارا من مواجهة أبيه واتقاء لسخطه ،
فلما رأى هزءهم لم يسعه الا أن يبتسم بدوره وهو يهز منكبيه كأنما
يقول لهم « دعونى وشائى » . فهمى وحده بدا متحفظا فى ابتسامه
لشعوره بأن القرعة ستصيبه قبل أن تغيب ابتسامته ، وصدق شعوره
اذ أعرضت خديجة عن ياسين فى ازدراء ونأس وخاطبته قائلة برجاء
واشفاق :

- فهمى ... أنت رجلنا .. !

فرفع حاجبيه فى ازتيك متطلعا اليها بنظرة كأنما يقول لها « انت
ادرى بالعواقب ! » حقا كان يتمتع بجزايا لا يتمتع ببعضها أحد فى الأسرة فهو
طالب بمدرسة الحقوق ، وهو أكبرهم عقلا وانفذهم رايًا ، وله من ضبط
النفس فى المواقف الحرجة ما يدل على الشجاعة والرجولة ولكنه سرعان
ما يفقد جملة مزياه اذا مثل بين يدى أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء .
وبدا وكأنه لا يدرى ماذا يقول فحثته على الكلام بالجماءة من رأسها فقال
متحيرا :

- هل ترينه يقبل رجائى ؟ .. كلا .. ولكنه سينتهزنى قائلا :

« لا تتدخل فيما لا يعينك » .. هذا اذا لم يثر غضبه فيوجه الى كلاما اشد واقسى .. !

وارتاح ياسين الى هذا الكلام « الحكيم » الذى وجد فيه دفاعا عن موقفه ايضا فقال وكأنه يكمل رأى أخيه :

— وربما جر تدخلنا الى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم خروجها فنفتح على انفسنا فتحة لا ندرى كيف نسدّها !

فالتفت الفتاة نحوه مغيظة مخنقة ، وفالت برارة وسخرية :

— لا منك ولا كفاية شرك !

فقال فهمى الذى استمد من غريزة « حب النقاء » قوة جديدة للدفاع عن نفسه :

— فلنفكر فى الأمر بعناية شاملة .. لا اظنه يقبل لى او لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شريكين فى الخطأ ، وعليه فالقضية خاسرة اذا تقدم احدهما للدفاع عنها ، أما اذا حدثت واحدة منكما فلعلها تنجح فى استعطافه او لعلها تجد — على أسوأ الظنون — اعراضا هادئا لا يبلغ حد العنف ، فلمأذا لا تحدثه احداكما ؟ .. أنت مثلا يا خديجة !؟

فانقبض قلب الفتاة التى وقعت فى الشرك وحدثت ياسين لا فهمى بنظرة غيظ وهى تقول :

— ظننت هذه المهمة أخلق بالرجال !

فقال فهمى مواصلا هيجومه السلمى :

— العكس هو الصحيح ما دمنا نتوخى نجاح المسعى ، ولا ننسى انكما لم تتعرضا لغضبه طوال حياتكما الا فى النادر الذى لا يقاس عليه ، فهو يألف الرفق بكما كما يألف البطش بنا ! ..

فأطرقت خديجة متفكرة فى قلق غير خاف ، وكأنها خافت ان طال صمتها ان تشتد عليها الحملة فتستقر المهمة الخطيرة فى قرعتها فرفعت رأسها قائلة :

— اذا كان الأمر كما تقول فعائشة اخلق منى بالكلام !

— انا ! .. له ؟!

نطقت بها عائشة فى فروع من وجد نفسه بغتة فى مرمى الخطر بعسا ، ان اطمأن طويلا الى موقف المتفرج الذى ليس له من الأمر شيء خاصة وانها — لحداثة سننها وغلبة احساس الطفولة المدللة عليها — لم تكن تنذب لشيء هام فضلا عن اخطر مهمة يمكن ان تعرض لاحد منهم ، الا

أن خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبرير اقتراحها بيد أنها أصرت عليه في عناد مشبع بالمرارة والتهكم فقالت تجيب شقيقتها :

- لأنه ينبغي الانتفاع بصفرة شعرك وزرقة عينيك في انجاح مسعانا !
- وما دخل شعري وعيني في مواجهة أبى ؟

لم تكن خديجة تهتم في تلك اللحظة بالانقناع بقدر ما تهالكت على إيجاد مخرج لها ولو بتحويل الأذهان الى أمور هى بالمعاشة أشبه تمهيدا للتقهقر ، فالفرار من أسلم السبيل الممكنة كمن يقع في مأزق حرج وتعوزه الحجة في الدفاع عنه فيلجأ الى المزاح ليمهد لنفسه مفرا في ضجة من السرور بدلا من الشماتة والازدراء لذلك قالت :

- أعرف لهما تأثيرا ساحرا في كل من يتصل بك ، ياسين . .
فهى . . حتى كمال ، فلماذا لا يكون نفس التأثير عند أبى ؟
فتورد وجه عائشة وقالت بانزعاج :

- كيف أخاطبه في هذا الشأن وأنا لا تقع على عيناه حتى يطير ما في رأسى ؟ !

عند ذلك - وبعد أن تهربوا تباعا من المهمة الخطيرة - لم يعد يشعر أحد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم تعفهم من احساس بالذنب ، بل لعلها كانت أول دافع اليه ، حيث أن الإنسان يركز تفكيره في النجاة عند الخطر حتى إذا ظفر بالنجاة عاد ضميره يناوشه ، كالجسم الذى يستنفد حيويته كلها في العضو المريض حتى إذا ما استرد صحته توزعت حيويته بالتساوى على الأعضاء التى أهملت الى حين ، وكان خديجة أرادت أن تتخفف من هذا الاحساس فقالت :

- ما دمتا نعجز جميعا عن مخاطبة بابا فلنستعين بجارتنا ست أم مريم . .

وما أن نطقت باسم « مريم » حتى لحظت فهمى بحركة عكسية فالتفت عيناها لحظة قصيرة في نظرة لم يرتع الشاب لايعانها فأشاح عنها بوجهه متظاهرا بعدم الاكتراث ، ذلك أن اسم مريم لم يجر على لسان أمام فهمى منذ نبذت فكرة خطبتها ، اما مراعاة لعواطفه ، واما لأن مريم اكتسبت معنى جديدا بعد اعترافه بحبها سلكها في زمرة المحرمات التى لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن ، بالرغم من أن مريم نفسها لم تنقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة

بجهلي لما دار بشأنها وراء الأبواب . . ولم تفت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمي وخديجة فأراد أن يغطي على أثرها المحتمل بتوجيه الانتباه الى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهمك والتحريض :

- هذا رجلنا الحق ، هو وحده الذى يستطيع ان يرجو والده ليعيد اليه أمه . .

لم يحمل كلامه محمل الجد أحد ، وأولهم كمال نفسه ، بيد ان قول ياسين وثب الى ذاكرته في اليوم التالي وهو يقطع ميدان بيت القاضى عائدا من المدرسة ، بعد نهار مضى أكثره في التفكير في أمه المنفية ، فتوقف عن السير صوب درب فرمز ، والتفت الى طريق النحاسين مترددا وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كآبة وقالم ، ثم غير طريقه متجها نحو النحاسين في خطوات متباطئة دون ان يجمع عزمه على رأى ، يسوقه العذاب الذى يعانى لفقد أمه ، ويرجع به الخوف الذى يركبه لمجرد ذكر أبيه . فضلا عن مخاطبته أو التوصل اليه ، لم يكن يتصور أنه يستطيع ان يقف بين يديه مخادعا في هذا الامر ، ولم تغب عن شعوره المخاوف الغسية بأن تحقيق به لو فعل ، ولم يسمم على شيء الا أنه رغم هذا كله واصل السير البطيء حتى لاح لعينيهِ باب الدكان كأنما يلزع الى ارضاء قلبه المعبذب ولو ارضاء عقيما - كالخداة التى تحوم حول خاطف صفارها دون أن تجد الشجاعة على مهاجمته - وتدانى من الباب حتى وقف على بعد أمتار منه ، وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يستقر على رأى ، وفجأة خرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليا وإذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعا وهو بفرق في الضحك كذلك ، فاذهلته المفاجأة ، فتسمر في مكانه مستشرفا وجه أبيه الضاحك الطليق في انكاز ودهشة لا توصفان ، لم يستدق عينيهِ وخيل اليه أن شخصية جديدة قد حلت في جسم أبيه ، أو أن هذا الرجل الضاحك - على ما به من شبه بأبيه - شخص آخر يراه لأول مرة ، شخص يضحك ، ويفرق في الضحك ، وينطلق البشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس . واستدار السيد ليدخل فوق بصره على الغلام المتطلع اليه بدهول فأخذله الدهشة لموقفه وهيئته على حين استردت أساريه بسرعة مظهر الجد والزمانة ، ثم سألوه بنفوس في وجهه .

— ماذا جاء بك ؟!

والبحال دبت في أعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس — رغم ذهوله
— فتقدم من أبيه ومد يده الصغيرة الى يده وتطامن عليها حتى لثمها
في أدب وخشوع دون أن ينبس بكلمة ، فسأله السيد مرة أخرى :
— أتريد شيئاً ؟!

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به الا إن يقول مؤثرا
السلامة « انه لا يريد شيئاً وأنه كان في طريقه الى البيت » ولكن السيد
استبطاه فلاح في وجهه الضيق وقال بخشونة :
— لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد ..

ونفذت خشونة الصوت الى قلبه فارتعد ، وانعقد لسانه فكان
الكلام قد التزق بستقف حلقه ، فازداد الأب ضيقاً وهتف بحدة :
— تكلم ... هل فقدت النطق ؟!

وتجمعت قوته كلها في ارادة واحدة وهي أن يخرج من صمته بأى
مُن اتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلاً كيفما اتفق له :
— كنت عائداً من المدرسة الى البيت ..

— وماذا أوقفك هنا كالمعتوه ؟!
— رأيت .. رأيت حضرتك فأردت أن أقبل يدك .. !
فتجلت في عيني السيد نظرة استزابة ، وقال بجفاء وتهكم :

— أهذا كل ما هنالك ! .. أوحشتك لهذا الحد ! ألم تستطع أن تنتظر
الى الصباح لتقبل يدى إذا أردت ؟! .. اسمع .. اياك وأن تكون قد
عملت عملة في المدرسة ... ساعرف كل شيء ... فقال كمال بسرعة
واضطراب :

— لم أعمل شيئاً وحياة ربنا ..
فقال الرجل بنفاد صبر :
— اذن تفضل .. ضيعت وقتى بلا مثاسبة .. غر من وجهى ..

ففاد كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدميه من الاضطراب ،
وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عاودت الغلام الحياة بمجرد تحول
عنى أبيه عن عينيه ، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع
الفرصة :

— رجع نينه الله يخليك ...
وأطلق ساقيه للريح ..

- ١٩٦ -

- ٣٥ -

كان السيد يحتسى قهوة العصر في حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع لا يسمع :

— جارتنا ست أم مريم تريد مقابلة حضرتك ..

فتساءل السيد متعجبا :

— حرم السيد محمد رضوان ؟ ماذا تريد ؟ ..

فقالت خديجة :

— لا اعرف يا بابا ..

فأمرها بادخالها وهو لا يمسك عن التعجب ، ومع ان مجيء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته — لشان يتعلق بتجارته او لصلح يسمى به بينهن وبين أزواجهن من أصدقائه — لم يكن مع ندرته بالجديد عليه الا أنه استبعد ان يكون ما دعا هذه السيدة الى مقابلته واحد من هذه الأسباب . وخطرت على ذهنه ، وهو يتساءل ، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجه ، ولكن أى علاقة ثمة بين هذا السر الذى لا يمكن ان يتعدى دائرة أسرته وبين هذه الزيارة ؟ ثم ذكر السيد محمد رضوان لاحتمال ان تكون الزيارة لسبب يمت اليه بيد انه كان ولم يزل مجرد جار ، لا تربطه به الا صلة الجيرة التى لم ترتفع يوما لمرتبسة الصداقة ، فاقصر تزاورهما قديما على المناسبات الضرورية حتى شل الرجل فعاده مرات ، ثم لم يعد يطرق بابه الا فى الأعياد ، على ان ست أم مريم ليست بالغريبة عليه ، فانه ليدكر انها قصدت دكانه مرة لابتياح بعض الحوائج ، وهناك عرفته بنفسها استرعاء لاهتمامه فبذل لها من كرمه ما رآه جديرا بحسن الجوار ، ومرة اخرى التقى بها عند باب بيته اذ صادف خروجه قدومها الزيارة مصطحبة كريمةها وعند ذاك أدهشته بجسارتها حين حيته قائلة « مساء الخير يا سى السيد » ، اجل عامه اختلاطه بالأصدقاء ان يبتهم من يتسامح فيما يتشدد هو فيه متطرفا من التزام الآداب المتوارثة للأسرة ، فلا يرون بأسا من ان تخرج نسأؤهم للزيارة او للاستبضاع ، ولا يجحدون حرجا فى توجيهه تحية بريئة كالتى وجهتها أم مريم اليه ، ولم يكن — رغم حنانيته — بالذى يعطى فيما يرضون لأنفسهم ولنسائهم ، بل لم يكن يسعى الفان حنى ببعض الأعيان من أصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم فى العريات للتنزه فى الخلوات او لغشيان الملامى البريئة مكتفيا فى مثل

هذه الحال بترديد قوله : « لكم دينكم ولى دين » ، أى انه لا ينزع الى تطبيق آرائه على الناس تطبيقاً أعمى ، الى انه يحسن التمييز حقاً بين ما هو خير وما هو شر ، الا أنه لا يفتح صدره لكل « ما هو خير » ضالعا في ذلك مع طبيعته التقليدية الصارمة حتى انه عد زيارة زوجه للحسين جريمة قضى فيها بأقصى عقوبة أصدرها في حياته الزوجية الثانية ، ولهذا كله لاقت تحية أم مريم له من نفسه دهشة مقرونة بما ينبه الانزعاج دون أن يسىء بأخلاقها الظن . وسمع خارج باب الحجرة نحنة فادرك أن القادمة تنذر بالدخول ، ثم دخلت ملتفة في ملاءتها ، مستورة الوجه ببرقع اسود تتوسط عروسه الذهبية عينين مكحولتين دعجاوين وتدانت منه بجسم جسيم لحيم مترنح الأرداف ، فنهض السيد لاستقبالها وهو يمد يده قائلاً :

— أهلا وسهلا ، شرفت البيت واهله .

فمدت له يدها بعد أن لفقتها في طرف الملاءة أن تنقض وضوءه وقالت :

— ربنا يشرف قدرك يا سني السيد ..

ودعاها للجلوس فجلست ، ثم جلس وهو يسألها بمجاملة :

— كيف حال السيد محمد ؟ ..

فقالت متنهدة بصوت مسموع كان السؤال حرك أشجانها :

— الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، ربنا يلطف بنا جميعا ..

فهر السيد رأسه كالأسف وتمام :

— ربنا يأخذ بيده ويمنحه الصبر والعافية ..

وأعقب حديث المجاملات صمت قصير فأخذت السيدة تنهيا

للحديث الجدى الذى جاءت من أجله كما تنهيا المطرب للفناء بعد الفراغ

من عزف المقدمة الموسيقية على حين غص السيد بصره تحشما تاركا

على شفثيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديث المنتظر :

— يا سيد أحمد ، أنت فى المروءة مثل يضرب فى الحى كله ، فلن

يخيب رجاء لمن يقصدك . مستشفعا مروءتك .

فتمتم السيد بصوت حى وهو يتسائل فى نفسه « ترى ما وراء

هذا كله ؟! .. » :

— أستغفر الله ..

— المسألة التى جئت السابعة لأزور أختى ست أم فهمى فما هالنى

الا ان أعلم بأنها ليست موجودة فى بيتها وأنت غاضب عليها ..

وامست المرأة لتسبر أثر كلامها ولتسمع رأى السيد فيه ، ولكنه
لاذ بالصمت كأنه لا يجد ما يقوله ومع أنه شعر بعدم ارتياح الى فتح
هذا الموضوع الا ان ابتسامة الترحيب ظلت معلقة بشفتيه ..

— هل توجد ست اكمل من ست ام فهمى ؟! .. ست العقل والحياء ،
جيرة عشرين عاما وأكثر ، لم نسمع خلالها منها الا ما يسر خاطر ، فما
عسى يمكن أن تجنى مما تستحق عليه غضب رجل عادل مثلك ؟!

فتأبر السيد على صمته متجاهلا تساؤلها ، ثم دارت برأسه خواطر
زادت من عدم ارتياحه .. ترى اجاءت زيارة المرأة للبيت اتفاقا ام انها
استدعيت بتدبير مدير ؟! .. خديجة ؟! .. عائشة ؟! .. أمينة نفسها ؟! ..
اهم لا يلون الدفاع عن أهم ، هل ينسى كيف تجرأ كمال على الصراخ
في وجهه مطالبا بعودة أمه ، الأمر الذي عرضه فيما بعد لعقوبة ساءلة
تطير بخارها من يافوخه ؟!

— يا لها من سيدة طيبة لا تستأهل عقابا ... ويا لك من سيد كريم
لا يليق به العنف ، ولكنه الشيطان اللعين أخزاه الله ، وما أجدر نيلك
بافساد كيده ..

وشعر عند ذلك بأن الصمت غدا أثقل من أن يحتمل مجاملة للزائرة
فتعلم قائلا باقتضاب متعمد :

— ربنا يصلح الحال ..

فقال أم مريم بحماس متشجعة بما أصابت من نجاح في استئدراجها
الى الكلام :

— لنشد ما يعز على أن تترك جارتنا الطيبة بيتها بعد ذلك العهد
الطويل من الستر والكرامة ..

— ستعود المياه الى مجاريها ، ولكن لكل شيء ميعاد ..

— أنت أختي ، بل أعز من الأخ ، ولن أزيد على هذا كلمة واحدة ..
جد جديد من الأمر لم يغب عن وعيه اليقظ فسجله كما يسجل
المرصد الزلازل البعيد مهما تدق حركته . خيل اليه وهى تقول « أنت
أختي » أن صوتها رقيق وعذب ، فلمسا قالت « بل أعز من الأخ » جهر
الصوت بحنان دافئ نشر في الجو المحتشم نفحة طيبة ، فتعجب
وتساءل ، ولم يعد يطبق غض بصره على الشك فرفعه مستأنيا ...
واشترق الى وجهها النظر فوجدها — على غير ما توقع — تتطلع اليه
بعينيها الدعجائين ، فجشاش صدره وخفض بصره مستعجلا بين

الدهشة والحرج تم قائل مواصلا الحديث كى يغطى على تأثيره :

— أشكرك على ما أوليتنى من أخوة ..

وعاد يتسائل ترى أكانت تتطلع اليه هكذا طوال الحديث أم صادف رفع بصره إليها تطلعها إليه ؟ .. وما القول فى أنها لم تغض بصرها عند التقاء العينين ؟ .. ولكنه سرعان ما هزأ بأفكاره قائلا لنفسه ان ولعته بالنساء وخبرته بمعاشرتهن أرهقا حاسة سوء الظن بهن عنده ، وأن الحقيقة بلا ريب أبعد ما تكون عن تصوره ، أو لعل المرأة من النساء اللاتى يفضن الحنان طبعاً وسجية فيظنه من لا يعرفهن غزلاً وما هو بالفزل . ولكنى يتحقق من صدق رأيه — لأنه لم تول ثمة حاجة الى التحقق — رفع بصره مرة أخرى فما هاله الا أن يراها رائية اليه ، فتشجع هذه المرة وثبت عليها عينيه قليلا فلم تزل ترنو اليه باستسلام جسور حتى غض بصره فى حيرة شاملة ، وعند ذلك لاحقه صوتهما الناعم وهو يقول :

— سأرى بعد هذا الرجاء ما اذا كنت حقاً أثيرة عندك ..

الاثيرة ؟! .. لو قيلت هذه الكلمة فى غير هذا الجو المشبع بالحساسية المكهرب بالشك والحيرة ، لمرت دون أن تترك أثراً ، أما الآن ؟! .. وعادوا النظر فى غير قاييل من الحرج فقروا فى عينها بعض المعانى التى عابثت ظنونهم ، هل صدق احساسه ؟ وهل يمكن هذا حال استشفاعها لزوجها ؟ .. ولكن كيف يعجب من كان فى مثل خبرته بالنساء ؟ .. سيدة لعوب ذات بعل مشلول ، وسرت فى وجدانه وثبات بهيجة ملائمة حرارة وزهوا ، ولكن متى نشأت هذه العاطفة ؟ ، أهى قديمة وكانت تتحين الفرص ؟ .. ألم تزر دكانه مرة فلم يند عنها ما يريب .. ولكن الدكان ليست بالمكان الذى تطمئن مثلها اليه فى بث هوى مكم غير مسبوق بتمهيد كما فعلت زبيدة العالة ، أم هى عاطفة بنت ساعتها وجدت مع الفرصة السانحة فى الغرفة الخالية ؟ .. لو صح هذا فهى « زبيدة » أخرى فى لباس سيدة مصونة ، وليس غريباً أن يجهل أمرها — وهو العليم ببنات الهوى — ما دام يحرص الحرص كله على احترام الجيران احتراماً مثالياً ، وأيا كان الأمر فكيف يجيبها ؟ .. « أنت أثر عندى مما تظنين ؟ .. » قول جميل ولكنها حرية بأن ترى فيه تحية استجابة لدعائها ، كلا أنه لا يريد هذا ، أنه ياباه كل الآباء ، لا لأنه لم يشجع بعد من زبيدة ، ولكن لأنه لا يقبل بحال أن يحيد عن مبادئه فى تقديس الأعراض عامة ، وما يمس الأصدقاء والجيران منها خاصة . لهذا

لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن أن يخزى بها امام صديق أو جار أو أحد من الأظهار على افراطه في العشق والصبوات ، ولام يزل دأبه ان يخاف الله في لهوه كما يخافه في جده فلا يبيع لنفسه الا ما يراه مباحا أو في حدود الهفوات . لا يعنى هذا انه اوتى ارادة خارقة تعصمه من الأهواء ، ولكنه لهج بالهوى المبدول ، وصان طرفه عن الحرمات حتى انه لم يعتمد النظر الى وجه امرأة من حيه طوال عمره ، على انه مما يذكر له انه صد مرة عن هوى متاح رحمة بأحد معارفه ، اذ جاءه يوما رسول يدعو الى لقاء أخت ذلك الرجل - امرأة نصف - في ليلة سماها فتلقى السيد الدعوة صامتا وصرف الرسول متلطفة كعادته ثم قاطع الطريق الذى يوجد به البيت أعواما متواصلة . ولعل أم مريم كانت أول تجربة - عرضت لمبادئه - يكابدها بعينيه ، ومع انها أعجبت به الا انه لم يستجب لنوازع الهوى ، وغلب صوت الحكمة والوقار ، صائنا سمعته التى يتحدث بها الناس عن مواطن المؤاخذة ، كان هذه السمعة الطيبة أثر عنده من اقتناص لذة مواتية ، متعزيا في نفس الوقت بما يتاح له من حين لآخر من غراميات مأمونة العواقب . وهذه الروح الراحية للعهد المخالفة للأخوان لا تراكبه حتى في مغاني الهوى والشهوات فلم يؤخذ عليه أبدا اننه سطا على مخيلة صاحب أو طمع بطرف الى خيالة صديق ، مؤثرا الصداقة على الأهواء ، لانه كما امتداد أن يقول « الصديق ود دائم والعشيقة هوى عابر » ، ولهذا قنع بانتقاء خليلاته ممن يجدهم بلا خليل ، أو ينتظر حتى تنقطع علاقة فينهض لانتهاز فرصته واحيانا يستأذن الخليل القديم قبل أن يتودد الى من كانت خليلته ، مواصلا العشق في سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صفوه آخر النفوس . بمعنى آخر انه نجح في التوفيق بين « الحيوان » المتهالك على اللذات وبين « الانسان » المتطلع الى المبادئ العالية توفيقا اثلا فيا يجمعهما في وحدة منسجمة لا يطفى أحد طرفيها على الآخر ويستقل كل منهما بحياته الخاصة في سر وارتياح ، كما وفق من قبل في الجمع بين التدين والفواية في وحدة خالية من الاحساس بالذنب والكبت معا . غير انه لم يكن يصدر في وقائه عن اخلاص مجرد للأخلاق ولكن - الى هذا أو قبل هذا - عن رغبته التليدة في أن يظل حائزا للحب متمتعاً بالسمعة العطرة ، الى أن غزواته المظفرة في العشق هونت عليه الاعراض عن الحب الموسوم بالحيانة أو الندالة ، وفضلا عن هذا وذاك فانه للم

يعرف الحب الحقيقي الذى كان خليقا بأن يدفعه الى احدى اثنتين ؛ فاما الادعان للعاطفة القوية دون مبالاة بالمبادئ ، واما الوقوع فى ازمة عاطفية خلقية حادة لم يقدر عليه الاكتواء بنارها . فلم يكن يرى فى أم مريم الا صنفا لذيذا من الطعام لن يضره - اذا هددته تناوله بسوء الهضم - أن يعدل عنه الى غيره من الاصناف المأمونة الشهية التى تحفل بها المائدة ، لذلك أجابها برقة قائلا :

- شفاعتك مقبولة ان شاء الله وسنسمع ما يسرك عما قريب ..
فقامت المرأة وهى تقول :
- رينا يكرمك يا سى السيد ..

ومدت له يدا بضعة فمد لها يده وهو يفض بصره فخيّل اليه - وهى تسلم - أنها ضغطت قليلا على يده ، وجعل يتساءل أهذه طريقته المعتادة فى التسليم أم أنها تعدت الضغط على يده ، وحاول أن يتذكر كيفية تسليمها عند استقبالها ولكن الذاكرة لم تسعفه ، وقضى اكثر الوقت الذى سبق عودته الى الدكان وهو يفكر فى المرأة ، حديثها ، ولينها ، وتسليمها ..

تيزه حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك .
رمى السيد خديجة بنظرة حمراء وصاح بها :
- لماذا ؟ !

ولكن أعلنت نبراته الغاضبة ونظراته الشائنة على أنه لم يقصد الوقوف عند مدلول « لماذا » وكأنه أراد أن يقول لها « لم اكذ أفرغ من وسيط الامس حتى جئتني بوسيط جديد اليوم ، من قال لك أن هذه الحيل تجوز على ؟ ، وكيف تجسرين أنت واخوتك على المكر بى ؟ »
واصفر وجه خديجة وهى تقول بصوت متهدج :
- لا أدري والله ..

فحرك رأسه حركة كأنها تقول لها « بل تدرين وأدري أنا أيضا ولن يجررك مكر الا الى أوحش العواقب » ثم قال ساخطا :
- خلتها تتفضّل ، ان اشرب قهوتى براحة بال بعد الآن ، أصل حجرتى محكمة وقضاة وشهود ، وهذه هى الراحة التى أجدها فى بيتى ، لعنة الله عليكم أجمعين ! ..

اختفت خديجة قبل أن يتم كلامه كما يختفى الفار اذا قرعت بسمعه
 فرقة ، وظل السيد لحظات متجهما حائقا ، حتى خطرت على ذهنه
 صورة خديجة وهى تسحب خائفة فعشرت قدمها بقباقبه ، وكاد رأسها
 يصطدم بالباب ، فارتسمت على شفثيه ابتسامة اشفاق مسحت
 غضبته المتعسفة ، وقطرت على صدره عطفًا ، يا لهم من اطفال يأبون أن
 ينسوا أهمهم ولو دقيقة واحدة ، واتجه بصره الى الباب وهو يتها
 لاستقبال الأثرة بوجه انبسطت اساريره كأنه لم يصب غضبه منذ
 ثوان على فكرة زيارتها ، ولكن لم يكن له حيلة فيما يركبه من غضب -
 وهو فى بيته - لاتفه الأسباب أو بلا سبب على الإطلاق ، وفضلا عن
 هذا كله كان للقادمة منزلة خاصة لا يرتقى اليها احد من النساء الا لى
 ينزددن على البيت من حين لآخر ، حرم المرحوم شوكت ، والمرحوم
 شوكت من قبل ، أسرة ارتبطت مع أسرته بأصرة الود الخالص من عهد
 الجدود ، كان للراحل منزلة الأب من نفسه ، ولم تول أرملته عنده -
 وعند أسرته بالتبعية - بمنزلة الأم ، هى التى خطبت له أمينة بنفسها ،
 وتلفت أبناءه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا ، والى هذا كله قال
 شوكت أناس صداقتهم شرف ، لا لأصلهم التركى فحسب ، ولكن
 لمزجتهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوى وبين الصوريين ،
 فإذا كان السيد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها
 بلا جدال ، ولعل الأمومة التى تشعربها المرأة له ويشعر بها لها هى
 التى جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيّب والخرج ، فليست
 هى التى تلتزم الاحترام فى مخاطبته ، ولا بالتى تتعب فى استعطافه ،
 فضلا عما عرفت به من صراحة جارحة لها مبرراتها من شيخوختها
 ومكائنها معا ، أجل ليست هى . . .
 وأمسك عن أفكائه لدى سماعه وقع خطواتها ، ثم نهض وهو يقول
 بترحيب :

- أهلا وسهلا ، زارنا النبى . .

اقتربت منه سيدة طاعنة فى السن ، تدب على مظلة وهى ترفع اليه
 وجهها ناصع البياض كثير التجاميد لم يكد يحجب منه شيئا برقعها
 الأبيض الشفاف ، وتلفت تحيته بابتسامة جلت عن أسنانها الذهبية ،
 وسلمت ، ثم اتخذت مجلسها الى جانبه بلا كلفة وهى تقول :
 - من يعيش ير ، حتى أنت يا زين الرجال . . . وحتى هذا البيت

تحدث فيه هذه الأمور التي لا يطيب التحدث عنها ! .. شخت ورب الحسين وبادرك الخرف ..

واسترسلت في الكلام مطلقة العنان للسانها يقول ويعيد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعتها أو التعقيب عليها ، حدثته كيف جاءت للزيارة ، وكيف اكتشفت غياب زوجها « ظننت بادئ الأمر أنها خرجت في زيارة فدققت صدرى بيدى دهشة وقلت ماذا حدث للعالم !؟ .. وكيف سمح لها السيد بالخروج مستهينا بالشرائع الإلهية والقوانين البشرية والفرامانات العثمانية ! .. » بيد أنها سرعان ما عرفت الحقيقة كلها « فثبت الى رشدى وقلت الحمد لله الدنيا بخير ، هذا حقاً هو السيد ، وهذا أقل ما ينتظر منه » ثم غيرت لهجتها الساخرة وراحت تؤنبه على قسوته ، ولم تقتصد في الرثاء لزوجها التي تعدها آخر امرأة تستحق عقاباً ، وجعلت كلما هم بمقاطعتها تصيح به « هس ، ولا كلمة ، دع حديثك الحلو الذى تحسن تنميقه فلن أخدع به ، انى أريد عملاً صالحاً لا قولاً مزوقاً » وصارحته بأنه يغالى في المحافظة على أسرته مبالاة خرقت المألوف ، وأنه يجمال به أن يأخذ نفسه بشيء من الهوادة والرفق ، استمع السيد إليها طويلاً ، ولما سمحت له بالكلام - بعد أن أعياها الكلام - شرح لها وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحار ، ولا مكائنها عنده من أن يؤكد لها بأن سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحول عنها وأن وعدها في النهاية - كما وعد أم مريم من قبل - خيراً ، وظن أن آن للجلسة أن تنفض ، ولكنه ما يدرى ألا وهى تقول :

- غياب الأمانة هانم مفاجأة غير سارة لى لأنى كنت أريدها لأمر هام جداً ، ولأن الخروج لم يعد بالمهمة اليسيرة على صحتى ، ولا أدري الآن أن كان يحسن بى أن أتكلم فيما أردت الكلام فيه أم أنتظر عودتها ! .. فقال السيد مبتسماً :

- كنّا تحت أمرك ..

- وددت لو كانت هى أول من يسمعنى وأن كنت لم تترك لها من الأمر شيئاً ، ولكن لئن فاتنى هذا فعزائى أنى أهيب لها فرصة سعيدة للعودة ..

فاحتار السيد في فهم حديثها وحدثج إليها متسائلاً :

- ما وراء هذا ؟

فقال وهى تنكت السجادة بسن مظلتها :

- لا اطيّل عليك ، لقد وقع اختيارى على عائشة لتكون زوجا لخليل ابنى ..

ودهش السيد دهش من أخذ على غوة من حيث لم يتوقع فركبه الزتبك ، بل الانزعاج ، لبواعث غير خافية ، أدرك من أول وهلة أن تصميمه القديم على الا يزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى سيرطم هذه المرة برغبة عزيزة لا يسعه اهمالها .. رغبة عالنته بها من لا تجهل تصميمه ذلك مما دل على أنها ترفضه سلفا وتابى أن تنزل عند حكمه ..
- مالك صامتا كأنك لم تسمعنى ؟!..

وابتسم السيد ارتباكاً وحياء ، ثم قال على سبيل الملاحظة والمجاملة مريثما يقلب الأمر على وجوهه :

- هذا شرف عظيم لنا ..

فرمته السيدة بنظرة كأنما تقول له « ابحث لك عن طريقة أخرى غير معسول الكلام » وقالت بلهجة هجومية :

- لا حاجة بى الى الضحك على بأجوف الكلام ، لن ارضى بغير الموافقة التامة ، لقد نددنى خليل لاختيار زوجة له فقلت له عندى عروس هى خير ما يمكن أن تظفر به فسر لاختيارى ولم يعدل بمصاهرتك شيئاً .. فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هذه الرغبة ، منى أنا ، بالصمت والتعزب ؟! الله ... الله ..

الام يقع فى هذه المشكلة المعقدة التى لا يمكن أن يخرج منها دون أن يصيب احدى ابنتيه بصدمة قاسية ؟! .. ونظر اليها كما يستجدى عطفها على موقفه ، وغمغم :

- ليس الأمر كما تتصورين ، رغبتك فوق العين والرأس ، ولكن ..
- آه من لكن ! .. لا تقل انك قررت الا تزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى ، من أنت حتى تقرر هذا أو ذاك ؟! .. دع ما لله الله وهو أرحم الراحمين ، ان شئت ضربت لك عشرات الأمثال عن أخوات صفار تزوجن قبل الكبار فلم يحل زواجهن دون زواج أخواتهن بأحسن الأزواج ، وخديجة شابة متميزة ولن تعدم زوجا صالحا عند ما يشاء الله ... الام تقف حائلا بين عائشة وبين حظها ؟! .. ليست هى الأخرى جديرة بعطفك ورحمتك ؟!

قال لنفسه : اذا كانت خديجة شابة متميزة فلماذا لا تختارينها ؟! .. وهم باحراجها كما أخرجته ولكنه خاف أن ترميه باجابة تبضمن أساءة

- ولو بحسن نية - لخديجة وبالتالي له هو : وقال بصوت ملؤه الجذ والاهتمام :

- ليس الا اننى اشفق على خديجة .

فقلت بحدة كأنما هى المطالبة لا هو :

- كل يوم تقع أمور كهذه دون أن تربك احدا : ان الله يكره من عبده العناد والمكابرة ، اقبل رجائى وتوكل على الله . لا ترفض يدى فانى ما مددتها الى أحد قبلك ..

فدارى السيد انفعاله بابتسامة وقال :

- هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة ... فقط امهلينى قليلا ريمشا اراجع نفسى وأرتب أمورى ، وستجدين رأبى عند حسن ظنك ان شاء الله ...

فقلت بلهجة من يجهز على الحديث :

- لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر مما أخذت ، ثم انه كلما طال الأخذ والرد خيل الى أنك لا تتقبل رغبتى بقبول حسن ، ومتلى من تطمع اذا قالت لك أريد أن تبادرها بنعم دون لث وعجن ، فلن أزيد مما قلت الا كلمة واحدة : خليل ابنى وابنك وعاشة بنتك وبنتى .. وقامت فقام السيد ليوذعها ، لم يكن يتوقع الا كلمة توديع وتحية : ولكنها أبت الا أن تذكره بوصاها جملة . وكأنما خافت أن يفوته شيء منها فأعادتها تفصيلا ، وما يدرى - أو ما تدرى - الا وهى ترجع لتأييد بعض آرائها وتوكيد البعض الآخر ، ثم غلبها تداعى الأفكار فاسترسلت فيه بلا ممانعة حتى أعادت على مسمعه جل ما قالت عن الخطبة ، والى هذا كله لم تشأ أن تنهى ذاك الحديث دون أن تودع حديث الام المبعدة بكلمة أو كلمتين أو ثلاث واذا بتداعى الأفكار يغلبها مرة أخرى فتسترسل فيه حتى كاد الرجل يفقد أعصابه ، ثم أوشك أن يضحك فى النهاية وهى تقول له : « لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر مما أخذت » وأوصلها الى الباب مشققا فى كل خطوة من أن تتوقف عن المسير وتشتبك فى الكلام مرة أخرى ، ثم عاد أخيرا الى مجلسه وهو يتنفس من الأعماق ، عاد مفتما مكتئبا ، قلب رقيق ، أرق مما يظن الكثيرون ، بل أرق مما ينبغى ، فكيف يصدق هذا ما لا يروونه الا مكثرا أو صاخبا أو ضاحكا ساخرا ! ... أن مسة حزن تلذع فلذة من كبده خليقة بأن تنفص العيش كله وتطين وجه الحياة فى عينيه ، ولنكم يسعده أن وجود بكل غال فى سبيل اسعاد فتاتيه سواء هذه التى يرى فى وجهها

الجُمَيْل وجه أمه أو تلك التي لم تصب من الحسن إلا لونا شاحبا ،
كلناهما من نبض قلبه وعصارة روحه ، بيد أن الزوج الذي تقدمه حرم
المرحوم شوكت لقية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فتى في الخامسة
والعشرين ، ذو دخل شهري لا يقل عن الثلاثين جنيها ، حقا أنه كثير
من الأعيان لا عمل له ، وحقا أن حظه من التعليم ضئيل لا يتعدى معرفة
القراءة والكتابة ، ولكنه يتصف بجملة من خلال أبيه في الطيبة وكرم
الإخلاق ، ما عسى أن يفعل ؟ . . يجب أن يحسم أمره لأنه لم يالف
التردد ولا الشورى ولا يقبل أن يبدؤا أمام أهله - ولو للحظة قصيرة -
كمن لا رأى قاطعا له ، إلا يشاور خاصته المقربين ؟ . . انه لا يرى
غشاصة في مشاورتهم كلما جد أمر ، والواقع أن سمرهم يبدأ عادة
بمناقشة الهموم والمشاكل قبل أن تطير بهم الخمر الى الدنيا التي لا تعترف
بالهموم والمشاكل ، ولكنه على قدر ما يستبد في باطنه براهه فلا يجيد
عنه ، فهو من الذين يلمسون في الشورى ما يؤيد رأيهم لا ما يعادل بهم
عنه ، ولكنها حتى في هذه الحال عزاء ومتنفس ، ولما ضاق الرجل بفكركه
هنف قائلا :

— من يصدق أن ما بي من هم لا يحتمل ما هو الا نتيجة لخير اكرمنى
به الله ؟! . .

لم يكن لأمينة من عمل في أيام منفاهها إلا الجلوس الى جانب أمها
والاسترسال في الحديث ، في كل ما يخطر على البال من أحاديث تجاذبها
الماضي البعيد والماضي القريب والحاضر ، ما بين الذكريات العزيزة والمأساة
الراهنة ولولا عذاب الفراق وشبح الطلاق لاطمأنت الى حياتها الجديدة
كعطلة للاستجمام من عناء الواجبات أو كرحلة خيالية ، في عالم
الذكريات ، بيد أن مرور الأيام دون وقوع الشيء الذي تخاف وما بلغها
من شفاعاة أم مريم وحرمان المرحوم شوكت لدى السيد ، كل أولئك أثبت
قلبا بروح عن نفسها ، الى أن زيارات الأبناء المسائية التي لم تنقطع يوما
واحدا طلت جوى صدرها بنفحات أمل متجدد ، ومع أن الزمن الذي
يتغيرونه عنها في البيت الجديد لم يزد كثيرا عن نظيره في البيت القديم
— في كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم إلا حين فراغهم في جلسة المساء —

الا انها باتت تشتاق اليهم اشتياق المغترب في بلد بعيد الى احباب فرق
الدهر بينه وبينهم ، اشتياق من حرم عليه تنفس جوهم وبالعيش بين
ذكرياتهم ، والاشراف على مواطن جدهم ولهوهم ، كأن الجسم كلما قطع
في طريق التفراق قيراطا كابد القلب أميالا ، ودأبت العجوز على أن تقول
لها كلما وجدت منها صمتا أو آنست في حديثها الشرود :

- الصبر يا أمينة ، انى أرثى لحالك . الأم غريبة ما ابتعدت عن
ابنائها ، غريبة ولو حلت البيت الذى ولدت فيه ...

أجل أنها غريبة ، كأنه ليس البيت الذى لم تعرف حياتها الاولى
سواه موطنها ، وكأنها ليست الأم التى لم تكن تطبيق البعد عنها لحظة
واحدة ، لم يعد « بيتها » ، ما هو الا منفى تنتظر بين جدرانها على لهف
العفو من السماء . وجاء العفو بعد طول انتظار « حملة الأبناء ذات
مساء . دخلوا عليها وفي أعينهم لمعة كسنا البرق خلق لها نوادها خفقة
اهتز لها الصدر كله حتى أشفقت من أن تكون قد ذهبت في تأويلها الى
أبعد مما تحتمل ، ولكن كمال جرى نحوها وتعلق بعنقها ثم هتف بها
وهو لا يتمالك نفسه من الفرح :

- البسى ملائك وهيا بنا ...

وقهقه ياسين قائلا :

- جاء الفرج (ثم هو وفهمى معا) دعانا أبى وقال لنا اذهبوا فعودا

بأمكنكم ...

وغضت بصرها لتدأرى فرحتها الفامرة . ما اعجزها عن كتمان
ما يضطرب في نفسها من شتى العواطف ، كأن وجهها مرآة شديدة
الحساسية لا تترك كبيرة ولا صغيرة منها في أعماقها الا سجلته . لشد
ما ودت أن تتلقى النبأ السعيد بهدوء خليق بأموعتها ، ولكن الفرج
استخفها فضحكت أسرارها ونطقت بابتهاج صبياني ، وفي نفس الوقت
تولاه حياء لم تدركه سببا . وطال جمودها في مكانها فنفس صبر
كمال فشدها من يدها راميا بثقله الى الورا حتى طأوعته ناهضة ،
ووقفت قليلا في ارتباك غريب وما تدري الا وهى تلتفت الى امها متسائلة :

- اذهب يا أمى ؟

بدا السؤال الذى ند عنها في نعمة الارتباك والحياء - غريبا ، فابتسم
فهمى وياسين ، ودهش كمال وحده فيما يشبه الانزعاج وراح يؤكد لها
نبأ العفو الذى جاءوا به ، أما الجدة فقد شعرت بشعورها كله وحذت

باطنها فرق قلبها وتحاشت أن تظهر الإنكار لسؤالها ولو بابتسامة خفيفة ، وقالت بلهجة جدية :

— إلى بيتك مصحوبة بسلامة الله .

فذهبت أمينة لترتدى ملاءتها وتصر نيابها وكمال في أعقابها ، وهنا خاطبت الجدة الشايبين متسائلة بلهجة انتقادية خفتها بابتسامة رقيقة :

— أما كان الأخلق بأبيكما أن يأتي بنفسه ... ؟

فأجابها فهمي كالمعتذر قائلا :

— أنت أدري يا جدتي بطبع أبينا ...

على حين قال ياسين ضاحكا :

— فلنحمد الله على ما كان !

فهممت الجدة بأصوات غير مفهومة ثم تنهدت قائلة كأنما ترد على مهمتها :

— على أي حال السيد أحمد رجل ولا كل الرجال .

وغادروا البيت ودعاها الجدة لهم بالبركة يتردد في آذانهم ، وقطعوا الطريق معا لأول مرة في حياتهم حتى بدا المنظر في أعينهم بالغا في غرابته فتبادل فهمي وياسين نظرات باسمه . وتذكر كمال يوم سار — كما يسير الآن — ممسكا بيد أمه يقودها من عطفة إلى عطفة ، ثم ما تلى ذلك من آلام وخاوف لا يحيط بها الكابوس نفسه فتعجب طويلا ، بيد أنه تناسى سريعا أحزان الماضي في فرحة الساعة ، ووجد من نفسه ميلا للدعابة فقال لأمه ضاحكا :

— تعالى نخطف أرجلك إلى سيدنا الحسين !

فضحك ياسين قائلا بلهجة ذات معنى :

— رضى الله عنه ، أنه شهيد يحب الشهداء .

ولاحظ لهم المشربية وشبهان يتحركان وراء خصاصها فهما قلب الأم اليهما في حنو واشتياق ، ثم وجدت وراء الباب أم حنفي في استقبالها فغمرت يدي سيدتها بالقبل ، والتقت في فناء الدار بخديجة وعائشة اللتين تعلقتا بها كالأطفال ، ورقوا السلم في مظاهرة صاخبة ، ونشوة من الفرح مطربة حتى استقروا جميعا في حجرتها فتبادروا إلى نزع ملابسها — رمز الفراق البغيض — وهم يضحون بضحك ، فلمّا جلست بينهم كانت تلهث من الانفعال والتأثر . وأراد كمال أن يعبر عن فرحه بها فلم يجد خيرا من أن يقول لها :

— هذا اليوم أعز عندي من يوم المحمل نفسه !

واجتمع شمل الأسرة لأول مرة منذ زمن غير يسير في مجلس القهوة .
 فعادوا السمر في جو من المسرة ضاعف من بهجته ما سبقه من أيام
 فراق وكآبة كما تزداد لذة اليوم الدفء يجيء في أعقاب أسبوع من
 الزمهرير ، ولم تنس الأم - التي استيقظت غراؤها رغم فرحة الملقيا -
 أن تسأل الفتاتين عن شئون البيت متدرجة من حجرة الفرن حتى
 اللبالب والياسمين ، كما سألت كثيرا عن الأب : وكم سرها أن تعلم انه
 لم يسمح لأحد بمعاونته عند خلع ملابسه أو عند ارتدائها ، فمهما يكن
 من أمر الراحة التي تهيأت له في غيابها فثمة تغيير قد طرأ على نظام
 حياته حملته بلا ريب عناء سيزول بعودتها ، عودتها التي تكفل له
 - وحدها - الحياة التي يألّفها ويرتاح إليها . . . الشيء الوحيد الذي لم
 يخطر لامينة على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت
 في هذه العودة بالدات مبررا لاجترار الحزن والأسى . . . ولكن هكذا كان :
 فهذه القلوب التي شغلت بحزن الأم عن أحزانها عادت الى التفكير في
 اشجانها بعد أن اطمأنت على سلامة الأم كالمفص الشديد المطاىء ننسى
 به رمدا مزمنا حتى اذا ذهب عادتنا آلام الجفون ، عاد فهمي يقول
 لنفسه « لكل حزن - فيما يبدو - نهاية ، هذه امى قد رفع عنها الهم .
 ولكن حزنى يبدو كأن لانهاية له » ، ورجعت عائشة الى افكارها التي لايطلع
 على سرها أحد ، تتراعى لها الاحلام وتلم بها الذكريات وان عدت
 بالقياس الى أخيها اهدأ حالا واسرع الى النسيان خطوة ، ولكن امينة
 لم تكن تقرا الافكار فلم ينغص عليها صفوها منفص ، ولما آوت الى
 حجرتها ليلا تبين لها أن النوم لا يجد متسعا في نفسها التي أفعمها
 الفرح فلم تدقه الا لما حتى انتصف الليل فغادرت الفراش الى المشربية
 تنتظر كعهدها مسرحة البصر من خصاص النوافذ الى الطريق الساهر
 حتى جاءت العربية تهادى حاملة بعلمها الى بيته . خفق قلبها بشدة ،
 وتورد وجهها حياء وارتباكاً ، كأنها ستلقاه لأول مرة ، وكأنها لم تفكر
 طويلا في هذه اللحظة . . . لحظة اللقاء المنتظر ، كيف تقابله ؟ . . كيف
 يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة ؟ . . ما عسى أن تقول له أو يقول لها ؟ .
 لو يسعها أن تتصنع النوم ! . ولكنها لا تجيد التمثيل قط ولا تطبيق أن
 يدخل عليها . وهى مستلقية ، بل لا يسعها أن تهمل واجب الخروج الى
 السلم بالمصباح لتضيء له ، وأكثر من هذا كله أنها بعد ظفرها بالعودة
 وزوال السخبط عنها - شاعت أريحية الرضا في قلبها ففعت عما سلف
 بل وحملت نفسها الذنب كله حتى رأت بعلمها - بالرغم من أنه لم يكن

بالذهاب الى بيت أمها لمصالحتها - حقيقا بالاسترضاء ، فذناولت المصباح ومضت الى السلم ومدت ذراعها من فوق الدرابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقتربتين بفؤاد خافق حتى صعد إليها ، لقيته برأس مطاط فلم تر وجهه عند اللقاء ، ولم تدر أى تغير طرأ عليه حين مرآها ، حتى سمعته يقول لها بلهجة طبيعية لا أثر فيها من الماضى القريب الأسيف :

- مساء الخير ...

ففمغمت :

- مساء الخير يا سيدى ...

وذهب الى الحجره وهى فى اثره رافعة يدها بالمصباح . وبدأ يخلع ملابسه صامتا فتقدمت منه لمعاونته وباشرت عملها وقلبها يردد انفاس الراحة . ومع انها ذكرت صباح القطيعة المشؤوم حين نهض لارتداء ملابسه وقال لها بجفاء « سأرتدى ملابسى بنفسى » الا ان ذكره خطرت عارية عن احاسيس الالم والياس التى غشيها وفنداك ، وشعرت وهى تتعاهده بهذه الخدمة التى لم يسمح بها السواعا بأنها تسترد أعض ما تملك فى الوجود . واتخذ مجلسه على الكنبه فتربعت على الشلته عند قدميه دون أن ينبس احدهما بكلمة ، وكانت تتوقع أن يشيع « الماضى الأسيف » بكلمة ، نصيحة أو تحذير أو ما شابه ذلك ، وعملت لذلك الف حساب ، ولكنه سألها ببساطة :

- كيف حال امك ؟

فأجابته وهى تتنهد بارتياح :

- بخير يا سيدى وتهديك التحية والدعاء .

ومضت فترة صمت أخرى قبل أن يقول فيما يشبه عدم الاكتراث :

- حرم المرحوم شوكت فاتحتنى برغبتها فى اختيار عائشة زوجا

لخليل ...

فرفعت اليه امينة عينيها فى دهشة ناطقة باثر المفاجأة ، ولكنه هز كتفيه استهانة ، وكأنما خاف أن تدلى برأى يتفق أن يكون موافقا لقراره الذى لم يعلم به أحد فتقوم عندها شبهة ظن بأنه اخذ برأىها فسبق قائلا - فكرت فى الأمر طويلا فانتهى بى التفكير الى الموافقة ، لا أريد ان اعترض حظ البنات أكثر مما فعلت ، والله الأمر من قبل ومن بعد ...

تلقت عائشة البشرى بفرح جدير بفتاد تسنرف حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل . وكادت لا تصدق أذنيها حين زف إليها الخبر ، هل حقا وافق أبوها ؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلم ؟ ذا دعابات قاسية ؟ . لم يكن قد فات على الخيبة التي منيت بها الا قرابة اشهر ثلاثة ، ومع ان وقعها في نفسها كان شديدا قاسيا الا انه مصى يخف ويهون مع الأيام حتى امسى ذكرى شاحبة تستر - اذا استثيرت - حزنا رقيقا غير ذي خطورة ، كل شيء في هذا البيت يخضع خضوعا اعمى لارادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هي بالسيطرة الدينية اشبه . حتى الحب نفسه - بين جدرانها - يسترق خطاه الى القلوب في حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس ، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد ، اذ لا استبداد هنا الا لتلك الارادة العليا ، ولذلك فعندما قال الأب « لا » اسقر قوله في اعماق نفسها وآمنت الفتاة ايماناً راسخا ان كل شيء قد انتهى حقا ، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع ، كان « لا » هذه حركة كونية كاختلاف الليل والنهار ، غير مجد اى اعتراض عليها ، ولا محيد من اتخاذ موقف موافق لها ، وعمل هذا الايمان من ناحيته - بشعور وبغير شعور منها - على اثناء كل شيء فانهى . على انها تساءلت فيما بينها وبين نفسها : اذا كانت الموافقة على زواجها قد تمت ولما ينقض على الرفض السابق ثلاثة اشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذى هفا الفؤاد اليه ؟ . الا ينطوى حظها السعيد نفسه - تبعا لذلك - على معاكسة غير مفهومة ؟ بيد انه تساؤل ظل في طي الكتمان ، لم يطلع عليه احد ولا أمها نفسها ، لأن اعلان الفرح بالعريس - كشخصية معنوية فحسب - عد استهتارا يجاقى الحياء ، فما بالك باظهار الرغبة في رجل بالذات ! . ولكن بالرغم من هذا كله ، وبالرغم من أن العريس الجديد كان مجهولا لديها الا فيما حدثت عنه امه في جملة حديثها عن أسرتها فقد سعدت بالبشرى ايما سعادة ، ووجدت عواطفها الظائمة قطبا تنجذب اليه في هيمانها ، كأن حبها نوع من « القابلية » أكثر منه تعلقا برجل بالذات ، فاذا استبعد رجل وحل محله آخر ظفرت قابليتها بما يشبعها ، ومضى كل شيء في سبيله ، وقد يكون رجل آخر

عندها من آخر ولكن ليس الى الحد الذى يفسد معه طعم الحياة او يدفع الى التمرد والعصيان ، ولما طابت نفسا ورف قلبها رفيف البسطة انبعث منها نحو اختها - كشأنها فى مثل هذه الحال - عطف ورحمة غير مشوبين ، فودت لو كانت سبقتها الى الزواج ، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع :

— وددت لو تقدمتنى الى بيت الزوجية ! ... ولكنها القسمة والنصيب « وكل آت قريب ..

ولكن خديجة - التى تضيق عند الهزيمة بمزاء العطف - تلقت قولها بامتناع شديد لم يخف عليها . وقبل ذلك اعتذرت لها أمها قائلة برقتها وحيائها المعهودين :

— أثنينا جميعا ان يكون دورك السابق ، وعملنا على هذا اكثر من مرة ، ولكن لعل عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو الذى عاق حظك الى اليوم « فلندع الأمور تسير كما يشاء الله ، وكل تأخير فيها خيرة .. ووجدت من ياسين وفهمى نفس العطف يديانه تارة بالكلام المباشر ، ويصدران عنه تارة أخرى فيما يحيطانها به من متجاملة حلت - - او الى حين - محل المزاح القارص الذى كان مألوفا بينها وبينها وبين ياسين خاصة ، والحق أنه لم يعدل بحزنها على سوء حظها الا نرفزتها من العطف الشائع فى جوها « لا لنفور من العطف مركب فى طبيعتها ، ولكن « ان مثلها مثل المصائب بالانفلونزا يضار بالتعرض للهواء الطلق الذى ينعشه عادة وهو صحيح ، فما كانت تأبى اعطف تعلم أنه بديل غير مجد لأمل ضائع ، ولعلها ارتابت - - الى هذا كله - - فى البواعث التى تدفعهم الى اغداق العطف عليها « ألم تكن أمها الوساطة دائما بين الخاطبات وبين أبيها ؟ فمن يدريها أنها كانت تقوم بالوساطة أداء الواجب ربة البيت لا سعيًا وراء رغبة خفية فى تزويج عائشة ؟! واليس فهمى الذى حمل رسالة ضابط قسم الجمالية ؟! ألم يكن بوسعها ان يعدل به عن رايه من وراء وراء ؟!

واليس ياسين . . ولكن باى وجه تلوم ياسين وقد خانها من هو اقرب منه اليها . . . فإى عطف هذا ؟! بل اى رياء وای كذب ! لذلك برمت بالعطف ، وذكرت به الاسماء لا الاحساس ، فامتسأت حقنا وامتناعا ولكنها طوتهما فى الأعماق ان تظهر بمظهر الكاره لسعادة اختها او تعرض نفسها - هكذا صور لها سوء ظنها - لشائنة الشامتين « على أنه لم يكن لها محيد عن كتمان عواطفها لأن الكتمان فى هذه الاسرة -

خاصة فيما يتعلق بالعواطف - عادة مأساة وضرورة اخلاقية طبع عليه في ظل الارهاب الأبوى ، وبين الحق والامتعاض من ناحية والكتمان والنظائر بالبرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عذابا متصلا وجهدا مطردا . وأبوها؟! .. ماذا عدل به عن رايه القديم؟! .. اهانت عليه بعد اعزاز؟! .. هل نفذ صبره في انتظار زواجها فقرر التضحية بها وتركها للأقدار؟! لشد ما تعجب لتخليهم عنها كأنها شيء لا يكون ؛ نسيت في ثورتها مواقفهم السابقة في الدفاع عنها فلم تذكر الا « خيانتهم » الأخيرة ، على أن غصبتها العامة هذه لم تكن شيئا بالقياس الى ماتجمع في صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحقن ! كرهت سعادتها . وكرهت أكثر مداربها لهذه السعادة ، وكرهت جمالها الذي بدا في عينيها اداة تنكيل وتعذيب كما يبدو البدر الساطع في عين المطارد ، لم كرهت الحياة التي لم تعد تدخر لها الا اليأس ، وتناوبت الأيام لتزبد بها حزنا على حزن بما حملت الى البيت من هدايا العريس ونفحاته وبما نشرت في الجو كله من بواهب الغبطة والفرح فوجدت نفسها في غربة موحشة تتوالد فيها الأشجان كما تتوالد الحشرات في البركة الآسنة ، ثم شرع السيد في تجهيز العروس فاستأثر حديث الجهاز بجلسات الأسرة المسائية ، تعرض عليها أنواع من الأثاث والثياب فتطرى شيئا وتعرض عن شيء ، أو توازن بين لون ولون ، في اهتمام ونسوا نسه الشقيقة الكبرى وما يجب لها من عزاء ومجاملة ، وحتى هي نفسها اضطرت - مجارة لما تتظاهر به من رضى - الى المشاركة في نشاطهم وحماسهم ومناقشاتهم التي لا تنتهى . بيد أن هذا الموقف العاطفى المعقد ، الذى يبدو لعين الغريب عن الأسرة كندبر شر لا تحمد عوافيه . تغير فجأة حين اتجه التفكير الى تفصيل ثياب العروس ، وبالنسبة حين تعلقت الأبصار بخديجة وتركزت فيها الاهتمام كله والأمل كله . وقد توقعت هذا الواجب كأمر لا مفر منه ، يحقها قبوله أشد الحق ولايسعها رفضه والا فضحت خبيثتها ، ولكنها ، حين تطلعت اليها الأبصار فأرصتها لمها بأختها خيرا وزنت اليها شقيقتها بعين ملؤها الحياء والرجاء وقال فهمى أمائشة على مسمع منها « لن تكونى عروسا حقا حتى تحيك خديجة ثياب العرس » ، وقال ياسين معلقا على قوله : « صدقت .. هذه الحقيقة فوق الجدل » ، حين حدث هذا كله فترحنقها وعقل ثورتها الحياء فطلعت عواطفها الطيبة المطمورة ، كما يستخرج الماء العذب الأخضر من

البذور الكامنة تحت الطين - ولم ترتب في بواصث هذا الاهتمام كما ارتابت من قبل في بواصث العطف « الزائف » لشعورها بصدقه من ناحية ولأنه اتجه الى براعنها التي لاشك فيها من ناحية اخرى ، فكانه اعتراف جامع بأهميتها وخطورة شأنها ، وبأن هذه السعادة - التي أبت أن تكون من نصيبها - لن تستكمل عناصرها حتى تسهم هي فيها ، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تخففت الى أقصى حد ممكن من انفعالاتها السوداء ، ان الانفعالات السوداء تلم بانفس هذه الأسرة كما تلم بغالبية البشر ولكنها لا تظفر منها بقلب أسود فترسب فيه وتسكنه ، منهم من قابليته للغضب كقابلية الكحول للاشغال ، ولكن سرعان ما يسكن عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كأيام من شتاء مصر يطلخهم سحبها حتى تمطر رذاذا وما هي الا ساعة او بعض ساعة حتى تنقشع السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة ، لا يعنى هذا أن خديجة نسيت أحزانها ولكن السحابة صفتها من الضفينة والحزن ، ويوما فيوما لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من أهلها يقدر ما عتبت على بختها حتى نصيبته في النهاية هدفا لامتعاضها وتذمرها ، ذلك البخت الذي قتر عيها في الحسن وأجل زواجها حتى جاوزت العشرين وكدر غدها بالقلق والمخاوف ، واستسلمت أخيرا - كماها - المقادير . عجز جانبها الحامي الموروث عن أبيها ، كما عجز جانبها المعقد المكتسب من موقفها حيال بيتها ، عن معالجة حقلها العائر ، فوجدت السلامة في ان تلوذ بالجانب السلمي الموروث عن أمها فاستسلمت للمقادير . كاتائد الذي تعينه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقعا ذا حصانة طبيعية ليثبت فيه فلوله ، او يدمو الى الصلح والسلام ، وراحت يشكو منها في الصلاة ومناجاة الرحمن ، والحق أنها كانت - منذ صباها - تجارى أمها في تدينها ومحافلنها على الفرائض بمثابرة دلت على يفضلة عاطفتها الدينية ، لا كعائشة التي لم بالعبادة في نوبات حماسية متباعدة ولا تطيق المداومة عليها ، ولما تعجبت خديجة - وهى بمعرض التماسرة بين حظها وبين حظ أختها - من سوء الجزاء الذى تثاب به على اخلاصها ، وحسن الجزاء الذى تثاب به الأخرى على تهاونها . . « انى احافظ على الصلاة اما هي فلم تطق المحافظة عليها يومين متتاليين ، وانى أصوم رمضان كله واما هي فتصوم يوما او يومين ثم تتظاهر بالصوم على حين تنسل خفية الى المخزن فتملأ بطنها بالنقل حتى اذا اطلق مدفع الاوطار هرعت الى المائدة قبل الصائمين ! » . وحتى من ناحية الجمال لم تسلم

العائشة بدون قيد ولا شرط نعم انها لم تجبر برأيها لأحد . بل لعلها تؤثر كثيرا أن تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحفظين ولكنها كانت تطيل النظر الى وجهها في المرآة وتناجي نفسها قائلة « عائشة جميلة بلاشك ولكنها نحيلة ، السانة نصف الجمال ، أنا سميئة ، واكتنار وجهي يكاد يغطى على ثبر أنفى ، لم يبق الا أن يشد بختي حيله . . » على أنها فقدت ثقتها بنفسها فى الأزمة الأخيرة ، ومع أنها عاودت كثيرا تلك المناجاة عن الجمال والسمانة والبخت الا أنها عاودتها هذه المرة لتدري - أمام نفسها - احساسها المقلق بعدم الثقة كما تلجأ أحيانا الى المنطق لنستمد منه الطمأنينة على أمور - كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحب والكراهية - لا تمت الى المنطق بسبب .

ولم تنس أمينة - رغم كثرة مشاغلها كأم للعروس - خديجة ، او ان فرحها للعروس كان يذكرها بحزنها على اختها كما تذكروا الراحة التى نحظى بها بفعل مخدر بالآلم الذى سيعاودنا بعد حين ، وكان زواج عائشة قد أثار مخاوفها القديمة عن خديجة فأرسلت - التماسا للطمأنينة من أى سبيل - أم حنفى الى الشيخ رءوف بالباب الأخضر حاملة مندبل خديجة ليقرأ طالعها ، وعادت المرأة بنوع من البشرى فقالت لسيدتها أن الشيخ قال لها « ستحملين الى رطلين من السكر عما قريب » ومع أنها لم تكن أول بشرى من هذا النوع تزف اليها عن خديجة الا أنها أملت خيرا ورحبت بها كمسكن للقلق الذى لا يزالها . .

ألم يئن الأوان يا بنت المروكوب ؟! ذبت يا مسلمين ، ذبت كالصابونة ولم يبق منى الا رغوة ، هى تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح النافذة ، تدلى . . . تدلى يا بنت المروكوب ، ألم نتفق على هذا الميعاد ؟ ولكن لك حق . . فردة ثدى من صدرك تكفى لخراب مألظة . . . وفردة اليه تطير مخ هندنبرج ، عندك كنز ، ربنا يلطف بى ، ربنا يلطف بى وبكل مسكين مثلى يؤرقه الثدى الناهد والعجيزة المدملجة والعين المكحولة ، العين المكحولة فى الآخر ، اذ رب ضريبة ربا الروادف كاعب الثديين خير ألف مرة من عجفاء مسحاء مكحولة العينين ، يا بنت العالمة وجارة التريفة . . تلك لقنتك أصول الدلال وهذه قمدك بأسرار الجمال ، لهذا

ينهد ثدياك من كثرة من عيث بهما من العشاق « اتفقنا على الميعاد
لست أحلم ، افتحى النافذة ، افتحى يا بنت المركوب « افتحى يا أجمل
من اقشعرت لها سرتى « ومص انشفة ورضع الحلمة لانتظرن حتى مطلع
الفجر ، ستجديننى طوع بنائك ، ان أردت أن اكون مؤخر عربة الكارو
الذى تتأرجحين عليه اكنه « ان أردت أن اكون الحمار الذى يجر العربلة
اكنه ، يا واقعتك يا ياسين ، يا خراب بيتك يا بن عبد الجواد « يا شماتة
الاستراليين فيك يا أنا يا طريد الأزيكية وحبيس الجمالية « الحرب
يا هوه « شنها غليوم فى أوروبا ورحت ضحيتها أنا فى النجاسين ،
افتحى النافذة يا روح أمك « افتحى يا روحي أنا .. » هكذا جعل
ياسين يحدث نفسه وهو جالس على الأريكة بقهوة سى على ، وعيناه
تتطلعان الى بيت زبيدة العالة خلال السكوة المطلة على المغورية ، كلما
شكه الجزع غرق فى احلامه وخوابيره فترفه جرعه وتهيج أشواقه معا ،
ك بعض المنومات الطبية التى تعالج الأرق وتعب القلب ، كان تقدم خطوة
موفقة فى مغازلة زنوبة العوادة خرج بها من دور التحضير - ملازمة
قهوة سى على مساء والنظر والسير وراء عربة الكارو والابتسام وقتل
الشارب وتلعب الحاجب - الى دور المفاوضة والتأهب للعمل ، حدث
ذلك فى عطفة التربيعة الطويلة الضيقة المسقوفة بالخيش المتلوية ذات
الدكاكين الصغيرة المتلاصقة على الجانبين كخلايا النحل . ولم تكن
التربيعة بالجديدة عليه ، كيف وهى سوق النسوان من جميع الطبقات
يتقاطرن عليها لابتياح ما خف حمله وجلت فوائده من مختلف صنوف
العلطارة ذوات البهجة والجمال والنفع ، فهى هدفه ، كلما خلا طريقه من
هدف يجلبه اليه ، وهى مراحه صباح الجمعة يقطعها متمهلا - بحكم
الرحمة والرغبة معا - من طرف الى طرف كأنما يستعرض الدكاكين
لانتقاء حاجة وهو فى الحقيقة يتصفح الوجوه والأجسام ما تنحسر عنه
البراقع وما تضيق به الملاءات « ما يرى جملة وما يرى تفصيلا ، ما يسطع
هنا وهناك من روائع زكية ، ما يند من حين لآخر من اصوات او
يوسوس من ضحكات ، ملتزما عادة حدود الادب لغلبة العناصر الطبية
على الزائرات « قانعا بالمشاهدة والموازنة والنقد ، لاقلا من المرئيات
صورا ممتازة يزين بها متحف ذاكرته ، فلا يفوق سعادته شيء اذا فطر
بلون بشرة صاف لم يره من قبل ، أو يلحظ عين لم يتعرض لمشله ،
أو لئدى عجيب فى نهوده ، أو لعجيزة خرقت المألوف فى ضخامتها أو
حسن تكوينها فيرجع مرة وهو يقول « فاز بالسبق اليوم نهدي الست

التي كانت واقفة امام الدكان الفلانية « او « هذا يوم الكفل الراى رقم ٥ » او « يا لها من حقيبة وبها لها من حقيبة .. هذا يوم الحقائق المشرفة » اذ تأدى به مزاجه الى التهالك على جسم المرأة منجاهلا شخصيتها ثم الى تركيز العناية فى أجزاء من الجسم متجاهلا جملته . وكأنه فى هذا كله ينعش آماله ويجدها أبدا كرجل لا يقدم على النسوان غاية فى دنياه - عند الفرس المحتملة المدخرة ليوم أو لعد . الى ما يسنج له فى هذه الجولات الجنسية من صيد طيب فى أحوال نادرة ، ففى ذات اصيل - وهو بمجلسه تحت الكوة بقهوة سى على - رأى العوادة تغادر البيت بمفردها فنهض من توه وتبعها ، ومالت الى عطفة التريبعة فمال وراءها ، ثم وقفت امام دكان فوقف الى جانبها ، وانتظرت حتى يفرغ العطار من بعض الزبائن فانتظر ولم تلتفت ناحيته فاستدل بذلك « التجاهل » على انها فطنت لوجوده - كما لا بد أن تكون حدثت متابعة لها من بادىء الأمر - فهمس قريبا من أذنها « مساء الخير » فواصلت النظر الى الامام الا أنه لمح بجانب فيها انحراف ابتسامة ، ردا لتحيته ، أو مكافأة له على طول متابعته لها مساء بعد مساء ، فتنهده تنهد الراحة وانظفر منظمنا الى جنى ثمرة صبره فسأل لعاب شهوته كما يتحلب ريق الجائع النهم اذا تطايرت الى أنفه رائحة الشواء الذى يهيا له ورأى عن حكمة أن يتظاهر بأنهما جاءا معا فأدى ثمن مشترياتهما من الحناء والمفات عن طيب خاطر خليف برجل يؤمن بأنه - بأداء هذا الواجب اللذيذ - يكتسب حقا ألد وامتع ، غير مكترث لما بدا منها من الميل الى الاكثار من المشتريات حين اطمانت الى أنه سيدفع الثمن . وفى طريق العودة قال لها بعجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق « ياست الحسن والجمال قضيت العمر كما تشهدين وراءك ، وجزاء المحب « اللقاء فقط ؟ » فلحظته بنظرة شيطنة متسائلة فى تهكم « اللقاء فقط ؟ » فكاد يضحك بروحه وجسمه كحالها اذا أخذته نشوة فرح ولكنه بادر الى احكام اغلاق فيه أن يحدث ضجة تلفت الأنظار وأجابهها هامسا « اللقاء ولوازمه ! » فقالت بلهجة انتقادية « الواحد منكم يطلب بكل بساطة « اتقاء » .. كلمة صغيرة .. ولكنه يعنى بها عملا ضخما لا ينال عند بعض الناس الا بالنسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز والمأذون ، اليس كذلك يا حضرة الافندى الذى يضاهى الجمل طولا وعرضا ؟ ! » فتورد وجهه فيما يشبه الارتباك وقال « يا له من تأديب مهما يكن من قسوته فانه من شفتيك كالشهد ، اليس هكذا العشق

يا ست الحسن مذ خلق الله الأرض ومن عليها ؟ » فقالت وهى ترفع حاجبيها حتى حاذيا طرف عروس البرقع فبدت كيعسوب يأسط جناحيه « ومن أدرانى بالعشق يا جملى ؟ .. لست الا عوادة ، ترى هل للعشق لوزام أيضا ؟ » فقال وهو يغالب الضحك « هى ولوازم اللقواء شىء واحد » « بلا زيادة ولا نقصان ؟ .. » « بلا زيادة ولا نقصان » « لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة ؟! .. » « لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة » لعلمها التى يسمونها الزنا ؟! » « بلحمه وعظمه ! » فندت عنها ضحكة ثم قالت « اتفقنا ... انتظر حيث تنتظر كل مساء بقهوة سى على وعندما افتتح النافذة قم الى البيت » انتظر مساء ومساء ومساء « مساء خرجت مع الجوقة على الكارو ، ومساء ذهبت مع العالمة فى حانطور ومساء لم يبد على البيت اثر للحياة ، وهى هو ينتظر وقد اعيى اعصاب راسه طول النظر الى الشباك . ومر موهن من الليل فاغلقت الدكاكين واقفر الطريق وشمل الغورية ظلام « ووجد - كما يقع له كثيرا - فى اقفر الطريق واطلامه ماثرا غريبا لمكمن الشهوة فى جسده فلازداد جزعا على جزع . بيد انه لكل شىء نهاية حتى الانتظار الذى يبدو وكان لا نهاية له فترامى اليه من ناحية الشباك العساق فى الظلمة طقطقة نفخت فى حواسه روح امل جديد كما تنبعت روح الأمل فى نفس الثائه فى الغلاب اذا ترمى الى سمعه ازيز الطيارة التى يجلس انها جاءت للبحث عنه بين الثلوج ، ولاحت فرجة يشع منها ضوء « ثم تنور شبح العوادة وسط الفرجة فقام من فوره وغادر القهوة عابرا الطريق الى بيت العالمة ودفع الباب دون ان يطرقه فانفتح كأن يدا رفعت مزلاجه فمرق الى الداخل ليجد نفسه فى ظلمة دامسة لم يهد معها الى موقع السلم فلزم موقفه ليامن الاصطدام او العثار ووثب الى راسه سؤال لا يخلو من قلق « ترى ادعته زنوبة على غير علم من العالمة ؟ .. وهل تبيح لها العالة الاجتماع بعشاقها فى بيتها ؟ ولكنه ابرز لسانه استهانة لان رادعا لم يكن ليثنيه عن مغامرة ، ولأن ضبط عاشق فى بيت تقوم جدرانها على مهج العاشقين ليس مما تحاذر عواقبه وانقطع عن التفكير حين لاح لعينيه ضوء شاحب يهبط من اعلى « ثم لمح يترانج على الجدران التى وضحت رويدا فتبين موقفه على بعد ذراع من أولى درجات السلم عن يمينه ، وما عثم ان رأى زنوبة قادمة ويدها مصباح فمضى نحوها فى سكرة من الشوق وضغط فى حنان على ساعدها امتنانا ورغبة حتى ضحكت ضحكة رقيقة اوجت على رقبتها بانها لا تحاذر « وتساءلت بمكر :

— طال انتظارك ؟
فمس سوائفه بأنامله وهو يقول بصوت شاك :
— شاب شعري الله يسامحك (ثم بصوت خافت) الست هنا ؟
فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت :
— نعم .. في خلوة مع رفيق قد الدنيا ..
— الا تفضب اذا علمت بحضورى في هذه الساعة ؟
فاستدارت وهى تهز منكبيها استهانة ورقت في الدرج وهى تقول :
— وهل انسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك ؟
— اذن لا ترى بأسا في اجتماعنا ببيتها ؟
فحركت رأسها حركة راقصة وقالت :
— ايلها ترى كل البأس في عدم اجتماعنا .. !
— عاشت .. عاشت ..
فاستطردت في لهجة نهم من الفخر قائلة :
— لست عوادة فحسب ، الا بنت أختها ، وهى لا تضن على بفال ..
تقدم بسلام ..
ولما بلغا الدهليز جاءهما من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه
عود ودف فانصت ياسين قليلا ثم تساءل :
— خلوة أم حفلة ؟
فهمست في أذنه :
— خلوة وحفلة معا ، عشيق السلطانة رجل صاحب طرب ومزاج ؛
لا يطيق ان يخلو مجلسه ساعة من العود والدف والكأس والضحك ..
وعقبى لك ..
ومالت الى باب ففتحته ودخلت وهو وراءها ، ووضعت المصباح على
كنصول ثم وقفت امام المرأة لتلقى نظرة فاحصة على صورتها فتناهى
ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وسدد عينيه المنهوتين الى الجسم
المستهى الذى بدا لناظريه متجردا عن الملائة « ول مرة ، سدها بقوة
وتركيز وحركهما في أناة وتلدذ من فوق لتحت ومن تحت لفوق » ولكنه
قبل ان ينفذ نية من عشرات النوايا التى اعتلجت في صدره قالت زنوبة
كانما تصل ما انقطع من حديثها :
— رجل لا نظير له في لطفه وطربه ، أما كرمه فحدث عنه من اليوم
الى القد .. هكذا يكون العشاق والا فلا ..
لم يغب عنه في إشارتها الى « كرم » عشيق العالة من معان ، ومع

انه سلم من بادىء الامر بأن غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة
الا أن تلميحتها - الذى بدا له مبتذلا - ضايقه ، فلم يسعه الا أن يقول
مدفوعا بغريزة الدفاع عن النفس :

— لعله رجل واسع الشراء !

فَقَالَتْ وَكَأَنَّهُا بَجِيْبُهُ عَدَى مَنَاورَتُهُ :

— الشراء شيء والكرم شيء آخر ... رب ثرى بخيل !..

فتساءل لا عن رغبة في المعرفة ولكن تغاديا من انصمت الذي خاف
ان يفضح استيائه

— ترى من يكون هذا الرجل الكريم ؟

فَقَالَتْ وَهِيَ تَدِيرُ عَجَلَةَ الْمَصْبَاحِ لِتَرْفَعَ فُتَيْلَتَهُ :

— انه من حيننا ولا بد انك تسمع عنه . . السيد احمد عبد الجواد . .

— من . . !

فالتفت نحوه دهشة ل ترى ما أفرعه فالفته متصليب القامة جاحظا.
العنين فسألته مستنكرة:

— مالك ؟ .

كان تلقى الاسم الذى نطقت به كأنه مطرقة هوت بعنف على يافوخه فند عنه التمسائل فى نبرات صارخة من الفرع وهو لا يدري ، وغاب عما حوله لحظات مليئة بالدهول ، ثم تراءى له وجه زنوبة فى حالة من الدهشة والانكار فخاف افتضاح أمره وركز ارادته كلها فى الدفاع عن موقفه فعمد الى التمثيل يدارى به فزعه فضرب كفا بكف كأنها لا يصدق ما قيل عن الرجل لظنه الوقار به وتمتم مستغربا :

— السيد احمد عبد الجواد . صاحب دكان النحاسين ؟

فحدجته بنظرة انتقاد من لازعاجها بلا سبب وسالته مستهزئة :

نعم هو . . . فماذا استصرخك كأنك عدراء تفض بكارتها . . .

فضحك ضحكة آليّة وقال كالداهش وهو يحمد الله في سره على أنه لم يذكر لها اسمه كاملاً يوم التعارف :

— من يصدق عن هذا الرجل الوقور الورع ؟!

فرمته بنظرة ارتياب ثم قالت ساحرة :

— اهذا ما افزعك حقا ؟ .. ولا شيء غيره لا ! ! . اظننته من

المعصومين لا . وماذا عليه من هذا لا . هل يكمل الرجل الا بالهشيق لا ؟
فقال بلهجة المعتذر :

— صدقت .. لا شيء يستحق اندهش في هذه الدنيا (ثم ضاحكا)

عصبية) تصورى هذا الرجل الوفور وهو بطارح السلطانة الغرام
ويشرب الخمر ويضطرب للفناء !..

فقلت وكأنها تكمل حديثه بنفس لهجتها الساخرة :

- ويلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة وينثر النكات كالدرر
فيقتل من حوله ضحكا ، وليس عجبا - بعد هذا كله - أن يرى و
دكانه مثالا للجد والوقار فالجد جد واللغو لهو . وساعة لربك وساعة
لقلبك ...

يلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة !.. ينثر النكات فيقتل من
حوله ضحكا !.. من عسى أن يكون هذا الرجل ؟!

ابوه ؟! .. السيد احمد عبد الجواد ؟! .. الصارم الجبار الرهيب التفي
الورع ؟! .. الذي يقتل من حوله رميا ؟!

كيف يصدق ما سمعت أذناه ؟! .. كيف ، كيف ؟! .. الا يكون ممة
تسابه في الأسماء والا علاقة بين أبيه وبين هذا العاشق الدفاف ؟! ..
ولكن زنوبة وافقت على أنه صاحب دكان « النحاسين » وليس في
النحاسين من دكان تحمل هذا الاسم الا دكان أبيه !.. رياه هل
ما سمعه حقيقة أو أنه يهلدى ؟! .. لشد ما يود أن يطلع على الحقيقة
بنفسه ، أن يرى بعينه دون وسيط - ، رغبة تملكته لحظتئذ فبا
تحقيقها كخطر شيء في الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم الى الفتاة
وهو يهز رأسه هزة حكيم كأنما تقول « يا لها من أيام كلها عجائب » ثم
سألها بلهجة من يدفعه حب الاستطلاع وحده :

- الا أستطيع أن أراه من حيث لا يرانى ؟

فقلت معترضة :

- امرك عجيب وما الداعى الى هذا التجسس !

فقال برجاء :

- منظر يستحق المشاهدة فلا حرمتنى منه !..

فضحكت باستهانة وقالت :

- عقل طفل في جسم جمل ، اليس كذلك يا جملى ؟! .. ولكن لا عائن
من خيب لك رجاء .. انزرو في الدهليز وسأدخل عليهما بطبق من الفاكهة
تاركة الباب مفتوحا حتى أرجع ..

وغادرت الحجرة فتبعها على الأثر بفؤاد خافق وانزوى في ركن من
الدهليز المظلم على حين تابعت العوادة سيرها الى المطبخ ، وبعد قليل
عادت حاملة طبقا من الصنب فاتجهت الى الباب الذى ينبعث منه الغاء

فنقرت عليه ، وانتظرت دقيقة ثم دفعته ودخلت دون أن تغلقه وراءها . هناك بدا مجلس الطرب في صدر الحجرة تنوسطه زبيدة محتضنة العود وهى تلعب بالأوتار بأناملها وتغنى « يا مسلمين يا أهل الله » وعلى كتب منها جلس « أبوه » دون غيره - وقد اشتد خفقان قلبه لدى رؤيته - متجردا من جبهته مشمرا عن ساعديه راعشا الدف بين يديه . مبتطلما الى العالة برجه يقطر بشاشة وبشرا . لم يلبث الباب مفتوحا الا ريثما رجعت زنوبة ، دقيقة او دقيقتين ، ولكنه رأى فيهما منظرا عجبا ، حياة غامضة ، قصة طويلة عريضة ، استيقظ في أعقابها كالمدي يستيقظ من نوم طويل عميق على قلقة زلزال عنيف ، رأى في دقيقتين عمرا كاملا ملخصا في صورة كمن يرى في حلم هنيهة صورة جامعة لأحداث شتى يستغرق وقوعها في عالم الحقيقة أعواما طويلة ، رأى آياه حقا ، أباه دون غيره من البشر ، ولكن لا كما تعود أن يراه ، فلم يسبق له أن رآه متجردا من جيته في جلسة مريحة مناسبة مع سجيته ، ولا رأى شعره الفاحم نائر الأطراف كأنما جاء يعدو حاصر الرأس ، ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل القفطان المنحسر ، ولا رأى - أى والله - الدف بين يديه يرعش باعشا شخسخته الراقصة المتقطعة بالنقر الرشيق ، ولا رأى - ولعله أعجب ما رأى - هذا الوجه الضاحك المتالك الريان بالود والصفاء الذى أذهله كما أذهل كمال من قبل حين رآه يضحك أمام الدكان يوم قصدها مدفوعا برغبته في الإفراج عن أمه ، رأى هذا كله في دقيقتين ولما أغلقت زنوبة الباب وعادت الى خجرتها لبث بموقفه يستمتع الى الغناء وشخسخته الدف برأس دائر ، نفس الصوت الذى استمتع اليه حال دخوله البيت ، ولكن أى تغير اعتور الأثر الذى ينطبع منه على نفسه ، أى معان وصور جديدة ينقلها الآن الى وجدانه ! كرنين جرس المدرسة يهش له الطفل اذا سمعه وهو غريب عنها وبقلب فى أذنيه نذيرا لمتاعب جمّة اذا سمعه وهو ضمن تلاميذها . ونقرت زنوبة على الحجرة كأنما تدعوه ليلحق بها فافاق من غيبوبته ومضى اليها وهو يحاول أن يتمالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطربا أو ذاهلا فدخل وعلى شفثيه ابتسامة عريضة ..

- هل أنساك نفسك ما رايت ؟

فقال بلهجة تشى بالرضا والارتياح :

- منظر نادر ، وغناء بديع ..

- اتحب أن نفعل مثلهما ؟

— في ليلتنا الأولى؟! .. كلا .. لا أحب أن أخطئ بك شيئاً آخر ولو كان الفناء نفسه ..؟

ولئن تكلف بادىء الأمر الحديث لبيدوا امامها — وامام نفسه على السواء — هادئاً طبيعياً فقد انتهى الى الانهماك فيه بلا تكلف ثم الى استرداد حاله الطبيعية بأسرع مما قدر . كالذى يتصنع هيئة الباكى في ماتم فيستخرط في الكاء . على انه ربما عاودته الدهشة فجأة فيقول لنفسه « أعجب بها من حال لم تخطر لى على بال من قبل ؛ أنا هنا مع زئوبة وابى في الحجرة القريبة مع زبيدة . كلانا في بيت واحد ! » ولكنه سرعان ما يهز كتفيه ويستطرد في حديثه مع نفسه « كيف أحمل نفسي مشقة العجب لوقوع شيء باعتباره بعيداً عن التصديق ما دمت المسه واقعا ! .. انه هناك فمن السخف أن اتساءل ذاهلاً هل يمكن تصديق هذا .. فلا صدق ولا أعجب .. وماذا عليه من هذا ! » ولم يشعر الى تفكيره بارتياح فحسب ولكنه فرح به فرحة فاقت كل تقدير ؛ لا لأنه كان بحاجة الى مشجع ليوصل حياته الشهوية ، ولكن لأنه — ككثيرة الفارقين في الشهوات المحرمة — يستأنس الى الشبيه ، فكيف أن وجده في شخص أبيه — القدوة التقليدية — الذى طالما أزعجه ، بشعور وبلا شعور منه ، أن يجد نفسه وياه على طرفي نقيض . تناسى كل شيء الا فرحته ، كأنها أعز ما ظفر به في حياته ، وشعر نحو أبيه بحب واعجاب جديدين — غير الحب والاعجاب اللذين اكتسبهما قديماً تحت ستار كثيف من الاجلال والخوف — حب واعجاب ينبعان من أعماق النفس ويختلطان بجذورها الأولى ؛ بل كأنهما وحب الذات والاعجاب بها شيء واحد ، لم يعد الرجل بعيداً عزيز المثال مغلق الأبواب ولكن دانياً قريباً قطعة من نفسه وقلبه ، أباً وابناً ، روحاً واحداً ، ليس الرجل الذى يرعش الدف في الأداخل السيد أحمد عبد الجواد ولكنه يأسين نفسه ، كما يكون وكما يحب أن يكون ، وكما ينبغي أن يكون ، لا يفرق بينهما الا عبارات ثانوية من العمر والتجربة « هنيئاً لك يا والدى » اليوم اكتشفتك ، اليوم عيد ميلادك في نفسي ، يا له من يوم ويا لك من أب لم يكن قبل الليلة الا نتيماً ، اشرب واطرب وألعب بالدف لعباً ، ولا يد عيوشة الدفافة ، انى فخورك بك ، هل تغنى أيضاً يا ترى ؟ .. »

— ألا يغنى السيد عبد الجواد أحياناً ؟

— الا زال فكرك مشغولاً به؟! يا ويل الناس من الناس! .. بل يغنى

أحياناً يا جملى .. يشترك في الهنك اذا سكر ..

- وكيف صوته ؟

- غليظ جميل كعنفه ..

«الى هذا الأصل ترجع الأصوات التى تغنى فى بيتنا » الجميع يفتنون ، أسرة عريقة فى الطرب ، ليتنى أسمعك ولو مرة ، لا احفظ لك فى ذاكرتى الا الزعق والنهر ، غنوتك ألوحيدة المشهورة بيننا « يا ولد - يا نور - يا بن الكلب » اريد أن أسمع منك « الوداد فى الملاح صدف » أو « حبيت جميل » كيف تسكر يا أبى ؟ كيف تعربد ؟ ينبغى أن اعرف لاحتلى مثالك وأحىي ثقايلدك « كيف تعشق ؟ كيف تعانق ... »
وانتبه الى زنوبة فرأها أمام المرأة وهى تسوى اهداب شمرها بأناملها وقد لاح أبطلها من فرجة الفستان املس ناصعا يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين فسرت فى بدنه سكرة الهياج وانقض عليها كأنه فيل ينقض على غزال ..

وقفت ثلاث سيارات تطوع بتقديمها بعض الأصدقاء امام بيت السيد أحمد فى انتظار العروس وحاشيتها لحملهن الى بيت آل شوكت بالسكرية ، كان الوقت أصيلا وقد انحسرت أشعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرت على البيوت المواجهة لبيت العروس « ولم تكن ثمة مظاهر تدل على عرس ، اللهم الا الورد الذى أزينت بهما أولى السيارات الثلاث فلفتت أنظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المارة ، ومن قبل ذلك اليوم تمت الخطبة ووردت الهدايا ونقل الجهاز وعقد القران فلم تنطلق من البيت زغرودة أو تعلق ببابه زينة أو تشى بما يدور داخله علامة من علامات الأفراح المأوفا التى تفأخر الأسر باعلانها ، فى أمثال هذه المناسبات وتعلل بسوانحها لتفصيح عن مكنون حنينها للمسرة بالغناء والرقص والغاريد ، ثم كل شيء فى حسمت وهذوء فلم يدر به أحد الا الأقارب والأصدقاء وخاصة الجيران ، وأبى السيد أن يتزحزح عن ترمته أو أن يسمح لأحد من آل بيتيه بأن يتزحزح عنه ولو ساعة واحدة ، وفى ظل هذا الجو الصامت غادرت العروس والمدعوات البيت رغم احتجاج أم حنفى على الخرجة الصامتة ، فمرقت عائشة الى السيارة فى سرعة خاطفة كأنما تخاف أن يشتمل

فستان العرس أو فناعه الحربرى الأبيض الموشى بالفلفل والياسمين تحت نظرات المتطلعين ، وتبعته خديجة ومريم وبعض الفتيات ، واستقلت الأم وبعض النسوة من الأهل والجارات السيارتين الأخريين - على حين اتخذ كمال مجلسه الى جانب سائق سيارة العروس ورغبت الأم في ان يمضى الراكب الى السكرية عن طريق الحسين لتلقى نظرة جديدة على مقامه الذى كلفها الشوق اليه قبل ذلك غالبا ولتستوهب صاحب المقام البركة لعروسها الحناء ، فاخترقت السيارات الطرق التى قطعتها هى ذلك اليوم مع كمال ، ثم مالت الى الفورية عند المنعطف الذى كادت تلتقى فيه حتفها حتى وقفت بهن عند بوابة المتولى امام مدخل السكرية الذى يضيق عن دخول السيارات ، وترجلن جميعا ودخلن العطفة فطالعتن معالم الزينات وهرع اليهن غلمان الحارة هاتفين وتمالت الزغاريد من بيت آل شوكت ، أول بيت الى يمين الداخل - حيث ازدحمت نوافذه برعوس المطلات المزخرفات ، ووقف عند مدخله العريس خليل شوكت وشقيقه ابراهيم شوكت وياسمين وفهمى ، وتقدم خليل مبتسما من العروس ومنحها ساعده فارتبكت ولم تبد حراكا حتى بادرت مريم الى يدها فشبكته بساعده ، ثم سار بها الى الداخل مارا بحذاء الفناء المزدحم والورد والمبلس ينهال على اقدامها وعلى اقدام من تبعنها من حاشية العروس حتى واران باب الحريم ، ومع ان قران عائشة بخيل تم قبل ذلك اليوم بشهر أو أكثر الا أن منظر اشتباكهما وسيرهما معا لاقى من ياسمين وفهمى - والاخير خائبة - دهشة مقرونة بالحياء وشعورا بالانكار أشبه كان جو أسرتهما لا يهضم حتى طقوس حفلات الزفاف المشروعة ، وبدا هذا الأثر بصورة أوضح عند كمال الذى جعل يجذب أمه من يدها فى انزعاج وهو يشير الى العروسين اللذين يتقدمان الجميع على السلم كأنه يستعديها على دفع شر قطع ، وخطر للشايبين أن يسترقا النظر الى وجه إيهما ليريا أى أثر تركه ذاك المنظر الفريد ، فشملا المكان بنظرة سريعة ولكنهما لم يقفا له على أثر ، لم يوجد عند المدخل ولا فيما يلى هذا من فناء البيت الذى اصطفت به الأرائك والمقاعد وأقيمت فى صدره منصة الفناء والواقع أن السيد خلا الى نفر من خاصة أصدقائه بمنظرة الفناء فلم يفارقها مذ حل بالبيت مصمما على الا يفارقها حتى ختام الليلة مبعدا بنفسه عن « الجمهور » الصاحب خارجها ، لم يكن أشد احراجا لنفسه من الظهور بين آله فى ليلة زفاف ، اذ لا يرضى أن ينشر فوقهم رقابنه

في يوم خالص للسرور ، ولا يطبق من ناحية أخرى أن يشهد عن كتب انطلاقهم مع دواعي الفرح . « فضلا عن هذا وذلك لم يكن اكزله لديه من أن يرى - بينهم - على غير ما عهدوا من وقار صارم ، ولو كان الأمر يبدى لهم الزفاف في صمت شامل ولكن حرم المرحوم شوكت وقفت من افتراحاته في هذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته ، وأبت إلا أن تحييها ليلة حافلة فاتفتت على أحيائها مع العالمة جلييلة والمغنى صابر » وبدأ كمال الفرط ابتهاجه بما أتيج له من حرية وسرور كأنه عريس الليلة ، وكان أحد أفراد قلائل أبيح لهم التنقل كيغما شاءوا بين الحريم في الداخل وبين مجلس الطرب في فناء الدار « لبث طويلا مع أمه بين النساء منقلا طرفه بين زينتهن وحليهن مصفيا إلى دعابتهن وأحاديثهن التي يستأثر الزواج بخلاصتها ، أو منصتا معهن إلى العالمة جلييلة التي تصدرت البهو كالمحمل ضخامة وزينة وراحت تنشد الطقاطيق وتعاقر التراب جهارا ، فاستأنس إلى الجو الضاحك لغرابته وجاذبيته - والأهم من هذا كله - لوجود عائشة على حال من التبرج لم يحلم بها من قبل ، وشجسته أمه على البقاء ليظل تحت رعايتها « بيد أنها عدت من موقفها بعد حين واضطرت إلى أن تحثه همسا على الانتقال إلى مجلس أخويه لأمور لم تتوقع حدوثها . من ذلك ما بدا من اهتمامه بعائشة ، بفستانها حيناً وبزواجرها حيناً آخر ، فخيف منه على هندامها ، أو ما بدر منه من ملاحظات صيانية صريحة نحو بعض السيدات كما هتف بأمه مرة وهو يشير إلى امرأة من آل العريس قائلا : « أنظري يانينة إلى أنف هذه الست . . اليس أكبر من أنف أبله خديجة » أو ما فأجا به الجميع وجلييلة تغنى من الاشتراك مع التخت في ترديد « يمامه حلوه . . ومنين أجيبها » حتى دعت العالمة إلى الجلوس بين أفراد تختها ، بهذا وغيره جذب الأنظار إليه فأخذت المدعوات في مداعبته ولكن أمه لم ترتج إلى الضجة التي أثارها ، وآثرت على كره منها - أشفاقا على البعض من عبثه وأشفاقا عليه من أعين المعجبات - أن تحمله على مغادرة المكان ، انضم إلى مجلس الرجال ، وتردد بين الصفوف « ثم وقف بين فهمي وباسين حتى ختم صابر دور « بس ليه تعشق يا جميل » واستأنف تجواله حتى مر بالمنظرة فأغراه حب الاستطلاع بالنظر إلى داخلها فمد رأسه وما يدرى إلا وعيناه تلتقيان بعيني والده فتسمر في مكانه وعجز عن استردادهما ، وراه أحد أصدقاء أبيه - السيد محمد عفت - فناداه فلم يجد بدا من تلبية النداء ليتفادى من اغصاب أبيه فتداني من الرجل

على كره وخوف حتى وقف أمامه منتصب القامة مضموم الذراعين الى
جانبه كأنه عسكري في طابور ، وصافحه الرجل قائلا :

— ماشاء الله .. فى أى سنة يا عم ؟

— سنة ثالثة رابع ..

— عال .. عال .. سمعت صابر ؟

ومع أنه كان يجب على أسئلة محمد عفت الا انه راعى من بىدىء
الأمر أن تكون اجاباته بحيث ترضى أباه ... فلم يدرك كيف يجب على
السؤال الأخير أو أنه تردد قبل أن يعد الاجابة ولكن الرجل بادره متلفظا :

— الا تحب الفناء ؟

فقال الغلام بتوكيد :

— كلا ...

وبدا من بعض الحاضرين ما يدل على أنهم سيعلقون على هذه الاجابة —
آخر ما ينتظر من شخص ينتمى الى عبد الجواد — مازحين — واكن السيد
حذرهم بعينه فامسكوا ، أما السيد محمد عفت فعاد يسأله :

— الا تحب أن تسمع شيئا ؟

فقال كمال وهو يلحظ أباه :

— القرآن الشريف ..

فتعالت اصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يتأت له
أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيد الفار قائلا :

— ان صح هذا فالغلام ابن زنا ..

فضحك السيد احمد عبد الجواد وقال وهو يشير الى حيث كان يقف
كمال ...

— هل رأيتم أمكر من ابن الكلب الذى يدعى التقوى أمامى ! .. رجعت
مرة الى البيت فترامى الى صوته وهو يغنى « يا طير يا اللى على الشجر »
فقال السيد على :

— آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه الى صابر وشفتاه تتحركان مع
«غناء فى انسجام تام ولا انسجام ! احمد عبد الجواد نفسه ..

على حين خاطب محمد عفت السيد احمد متسائلا :

— المهم ان تخبرنا هل أعجبك صوته فى دور « يا طير يا اللى على
الشجر » ؟ ..

فضحك السيد قائلا وهو يشير الى نفسه :

— ذاك الشبل من هذا الأسد !

فهتف الفار قائلا :

— الله يرحم اللبوة الكبيرة التى أنجبتكم ..

غادر كمال المنظرة الى الحارة وكأنه يفيق من كابوس ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق ، وما لبث أن استعاد ارتياحه فتمشى مزهوا بلباسه الجديدة ، « مفتبطا بحريته التى جعلت من المكان كله — فيما عدا المنظرة المخيفة — مجالا مباحا لتقديمه دون معترض أو رقيب ، فأى ليلة هذه فى الزمان ! شيء واحد جعل ينغص عليه صفوه كلما خطر على فؤاده هو انتقال عائشة الى هذا البيت الذى باتوا يدعونه « بيتها » هذا الانتقال الذى نفذ على رغمه دون أن يستطيع أحد اقناعه بوجاهته أو فائدته ، تساءل طويلا كيف يسمح أبوه به وهو الذى لا يسمح لظل امرأة من آله بأن يلوح وراء خصاص النافذة فتلقى الجواب ضحكا عاليا ، وساءل أمه فى عتاب ، كيف تفرط فى عائشة لحد النزول عنها للغير فأجابته بأنه سيكبر يوما ويأخذ مثلها من بيت أبيها فتشيع اليه بالثرغريد ، وسأل عائشة هل يسرها حقا أن تهجرهم فأجابته أن لا ، ولكن الجهاز حمل الى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التى لا يعطى له الرى الا من موضع شفتيها ، حقا أن الفرح الزاهى ينسى أشياء ما كان يتصور أنه ينساها لحظة ولكن خاطرة الاسى تغشى فؤاده الجدل كما تغشى السحابة الصغيرة وجه القمر فى ليلة صافية السماء ، ومن عجب أن سروره بالغناء تلك الليلة فاق أى سرور عداه « كاللعب مع الغلمان أو مشاهدة النساء والرجال فى مرحهم المطلق أو حتى عيش السراى والألمطية على مائدة العشاء ، ولئن أدهش اهتمامه الجدى بسماع جليلة وصابر الذى لا يتفق مع سنه كل من لاحظته من النساء والرجال فلم يدهش احدا من أسرته التى تعرف سنابقه فى الغناء مع معلمته عائشة كما تعرف حسن صوته الذى تعدده أحسن اصواتها بعد عائشة وإن كان صوت الأب — الذى لا يسمعه الا مزججرا — أحسنها جميعا ، وقد استمع كمال طويلا الى جليلة وصابر ولكنه على غير المنتظر وجد غناء الرجل وعزف تجته أحب الى قلبه وأخذ لنفسه « فريستخت منه فى ذاكرته جمل غنائية مثل « تعشق ليه ... علشان كده » جعل يرددها بعد ليلة الزفاف طويلا فى سقيفة اللبلاّب والياسمين فوق سطح بيتهم ، وشاكرت أمينة وخديجة كمال فى بعض ما أتيح له من أسباب السرور والحرية ، فلم يسبق لهما — مثله — أن شهدا ليلة كذلك الليلة بما حفلت من أنس وطرب ومرح ، وأبهج أمينة خاصة ملاقت من الرعاية والمجاملة بصفتها أم العروس ، هى التى لم

تنعم في حياتها برعاية او مجاملة ، حتى خديجة اختفى همها في انوار
الفرح كما تختفى الظلمة عند اشراق الصباح نسيت أحزانها بين الضحكات
الناعمة والانغام العذبة والاحاديث الطلية ، وازدادت لها نسيانا بفضل
حزن جديد خالص الطوية منشؤه شعورها بفراق عائشة الوشيك ،
شعور أثمر حبا وعطفا خالصين فتواتر الأحزان القديمة امام الحزن الجديد
كما تتوارى الأحقاد امام الأريحية ، أو كما يقع لشخص حبال آخر يجب
منه جانبا ويكره جانبا أن تتوارى - ساعة الفراق مثلا - الكراهية للجانب
امام الحزن على الجانب الآخر ، هذا الى ماشاع في نفسها من ثقة حين
تبدت في زينة. أضفت على جسمها ووجهها سواء لفت اليها انظار بعض
النساء فلهنج بالثناء عليها ثناء ملأها أملا واحلاما عاشت بها زمنا
ورغدا ..

وجلس ياسين وفهمى جنباً لجنب : يراوحان بين السمر والسماع .
وجعل خليل شوكت - العريس - ينضم اليهما بين ساعة وأخرى كلما
وجد فرجة بين اشغال ليلته الشاقة الممتعة ، وبالرغم من الحجر المشيع
بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارتسمت في عينيه نظرة شرود
مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر ترى هل يتاح له أن يروى ظمأه
والو بكاس أو بكاسين ؟ لذلك مال مرة على اذن خليل شوكت - وكان
صديقاً للأخوين وهمس قائلاً :

- أدركني قبل أن تضيع الليلة ...

فقال له الشاب وهو يغمز له بعينه مطمئناً :

- أفردت مائدة في حجرة خاصة لأمثالك من الأصدقاء ..

عند ذاك اطمأن باله وعلو دته حيويته للسمر والدعابة والسماع : لم
يكن في نيته أن يسكر ، ففي مثل هذا المكان الحافل بالأهل والمعارف يعد
التقليل من الخمر فوزاً كبيراً ، خاصة وإن والده وإنزوى في المنطرة -
غير بعيد ، فلم يكن وقوفه على أسرار حياته بمزحزحه عن مكانته التقليدية
من نفسه ، لم يزل قائماً بحصنه الحصين من المهابة والجلال ، ولم يزل
هو بموقف الطاعة والعبودية ، حتى السر الذي اطلع عليه خفية لم يفكر
في البوح به لانسان ولا لفهمى نفسه أقرب القرين إليه ، لهذا كله قنع من
باديء الأمر بكاس أو بكاسين يتملق بهما رغبته الجائعة . ويتهيأ بهما
لتذوق المرح والسمر والطرب وغيرها من المسرات التي لم يعد لها عنده
طعم بغير شراب . فهمى بخلاف ياسين - لم يجد ، أو لم يطمئن الى أنه
سيجد رياء لظلمته ، ثار شجنه من حيث لا ينتظر عند مجيء الهروس ،

ذهب مع العريس وياسين لاستقبالها بقلب خلى فوق بصره على مريم
وهى تسير وراء العروس مباشرة ومتألقة النفر بابتسامة تحية للمكان
كله ، لاهية بالزغاريد والورود عنه ، وقد أشفق قناعها الحريري عن ديباجة
وجهها الصافي ، فاتبعها نظره بقلب خافق حتى واراها باب الحريم ، ثم
عاد الى مجلسه مزلز النفس كأنه قارب تعرض بغتة لاعصار ، بيد انه كان
قبل رؤيتها هادئ النفس لاهيا بسجون السمر شأن السائل الناسي ،
والحق تمر به اوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كان
قلبه يستجم من اللغناء ، ولكن ما أن تخطر خطرة او تهفو ذكرى ، او
يجرى اسمها على لسان ، او او ، حتى يخفق فؤاده الما ، ويفرز الحسرة
تلو الحسرة ، كالزئير المسوس المتهب تجيء عليه فترة فيسكن المة حتى
اذا هرس لقمة او مس جسما صلبا انفجر به الألم وهناك يقرع الحب
أضطعه من الداخل كأنما يروم متنفسا ، صائحا بأعلى صوته انه لا يزال
حبيسا لم يطلق سراحه العزاء أو النسيان ، طالما تمنى لو يعمى عنها الراغبون
حتى يستوى على قدميه رجلا حر التصرف فى تقرير مصيره . وقرب
أمنيته كبر الايام والأسابيع والأشهر دون أن يتقدم لها خاطب ، ولكنه لم
ينعم بالطمأنينة الحقنة ، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتداولانه الحين بعد
الحين يغصان صفوه ويكدران احلامه ويخلقان له ضروبا من الألم والغيرة
أن تكن وهمية فليست دون الواقع ، فيما لو تحققت - ضراوة وقساوة ،
حتى بات التمنى نفسه وتأخر وقوع البلاء من بواعث تجدد القلق
والخوف وبالتالي الألم والغيرة فود كلما اشتد به العذاب أو يقع البلاء
ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة العله بعد ذلك يبلغ بالياس ما لم
يبلغ بالأماني العابثة من الراحة والسلام ، ولكنه لم يستسلم للشجن فى
مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء والأقرباء ، الا انه كان تلقى من منظر
مريم وهى تسير وراء أخته « اثرا » لا يمكن أن يمضى بلا رد فعل شمسوس
ولما لم يسهه أن يجتربه أحزانه وأن يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه
- بطريقة عكسية - بالاغراق فى الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة
والسعادة ، على أنه كان كلما خلا الى نفسه ولو لحظات شعر فى اهمساقه
بعزلة قلبية عما حوله ، وأدرك مع مرور الوقت أن رؤيته مريم وهى تغمر
فى معية العروس قد هيجت حبه كلما تهيج ضوضاء مفاجئة مهموما ذا
قابلية للأرق ، وأنه لن ينعم على الأقل هذه الليلة - بصدر مستقر ، وأن
شيئا مما يدور حوله لن يستطيع أن ينتزع من مخيلته صورتها أو الابتسامة
التي حيث بها جو الاستقبال الحار المشبع بالزغاريد والورود ، ابتسامة

عذبة صافية وشت بقلب خلى متشوف للهدوء والسورور ، اتبسامة
لا يوحى رواؤها بأنه يمكن أن ترسم على موضعها من الشفتين تقلصات
الائم ، فجز منظرها قلبه وكاشفه بأنه يكابد الائم منفردا ويحمل مناعبه
وحده ، ولكن الا يقهقه هو الآن عاليا . يحرك رأسه مع الانغام كالمبسوط
الطروب ؟ .. الا يجوز أن يخدع الناظر بحاله ويظن به ما ظن هو بها ؟ ..
وجد في تفكيره شيئا من العزاء ولكن ليس أوكد من عزاء المصاب بالتيفود
حين يسائل نفسه « الا يحتفل أن اشفى كما شفى فلان الذى اصيب
به قبلى ، وما لبث أن ذكر رسالتها التى عاد بها كمال اليه منذ أشهر وهى
قل له انها لا تدرى ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب أثناء هذه المدة الطويلة
من الانتظار .. وتساءل كما تسأل عشرات المرات من قبل هل تمة عاطفة
وراء هذه الكلمات ؟ .. أجل لا يستطيع انسان مهما بلغ به التعنت أن
يؤاخذها على كلمة منها ، بل لا يستطيع أن يتخايل ما تتضمنه من عقل
وحكمة ولكن هذا نفسه ما اشعره بالعجز حيالها وما احنقه بالتالى عليها ،
اذ يندر أن يرضى العقل والحكمة طموح عاطفة لا تعرف بطبعها الحدود ،
وعاد إلى الحاضر ، إلى مجلس الطرب الى الحب الهائج ، ليست رؤيته لها
وحدها التى رجته هذه الرجة العنيفة ، فعمل ذلك لأنه رآها لأول مرة ،
فى مكان جديد - فناء بيت آل شوكت - بعيدا عن داره التى لم يرها
خارج نطاقها من قبل ، كان وجودها الدائم فى النظام القديم قد سلكها فى
آلية العادة اليومية على حين نعت ظهورها المفاجيء فى المكان الجديد -
ذاك الظهور الذى خلقها فى عينيه خلقا جديدا - حياة جديدة فى وجدانه ،
ايظقت الحياة الأصلية الكامنة ، ثم تعاونتا معاً على أحداث هذه الرجة
العنيفة « ولعل ذلك أيضا لأن وجودها بعيدا عن بيته وما يقترن به من
تقاليد صارمة أقامت بينه وبينها سدا من اليأس ، وجودها فى جو من
الحرية والانطلاق ، وعلى حال لم يعهدا من التبرج والحركة « وجودها فى
بيئة الزفاف وما توحى به من خواطر الحب والوصال ، كل أولئك أطلقها
من قمقمها الذى حيث براها القلب املا غير عسير وكأنما تقول له « انظر
ابن ترانى الآن « ماهى الا خطوة اخرى فتجدنى بين ذراعيك « ولكن ما
لبث هذا الأمل أن ارتطم بالواقع الشائك مسهما فى أحداث تلك الرجة
العنيفة ، ولعل ذلك أيضا لأن رؤيتها والمكان الجديد زادتها رسوخا فى
نفسه وتغلغلا فى حياته ونشوبه فى ذكرياته ، فان الصور تتعمق فى أنفسنا
باندماجها فى مختلف الأماكن التى تمتد اليها تجاربنا « وكما اقترنت مريم
قديمنا بسطح البيت وبستان اللبلاب والياسمين وكمال وتسميع الكلمات

الانجليزية ومجلس القهوة وحديثه مع أمه في حجرة المذاكرة والرسالة التي عاد بها كمال فستقترن منذ الليلة بالسكرية وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء صابر وزفاف عائشة وغير ذلك مما ينشال على سمعه وبصره وكافة حواسه ومثل هذه العملية .. لا يمكن أن تتم دون أن تشترك في أحداث الرجة العنيفة التي دوخته . وحدث في فترة الاستراحة أن تزامى صوت العالة إلى مجلس الرجال من النوافذ المطلة على الفناء وهى تغنى « حبيبى غاب » فنشط إلى السماع باهتمام شديد وجمع حواسه كلها فى النغمات ، لا لأن صوت جليلة أعجبه ولكن الظنه أن مريم تنصت إليها فى تلك اللحظة لأن الجملة الغنائية تخاطب اذنيهما فى وقت واحد معا ، لأنها ألقت بينهما على جال واحدة من الانصات وربما من الاحساس « لأنها خلقت لهما موعدا يلتقيان فيه بروجهما ، وحمله هذا كله على احترام الصوت وحب النغمات كى يجتمع بها فى احساس واحد ، وحاول طويلا أن ينفذ الى نفسها بالرجوع الى نفسه ، أن يتلمس ذبذبات تأثرها بمتابعة ذبذبات تأثره ، ليعيش فى ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران ، وحاول الى هذا أن يستخبر الجمل الغنائية عن آثارها فى النفس المحبوبة « ماذا تركت فى قلبها جملة « حبيبى غاب » او « بقي له زمان ما بعائش جواب » لا ترى هل غابت فى لجج الذكريات .. او لم تنحصر موجة منه عن وجهه ؟ .. ألم ينقبض قلبها لشكة ألم او لحزة حرة لا أم لها سادرا طوال الوقت لا يجد فى النغمة الا فرحة الطرب لا .. وتصورها وهى تهب انتباهها للنغم سافرة متبرجة الحيوية أو ثغرها يفتر عن ابتسامة كتلك التى لمحها على شفثيها عند مجيئها فآلمته لأنه توسم فيها رمز السبلو والنسيان ، او وهى تحدث احدى اختيه كما يحلو لها كثيرا وهو ما يحسداهما عليه على حين لا يجدان فيه الأمر الذى يدهشه لحد الانزعاج الا حديثا عاديا كسائر الأحاديث التى يستبكان فيها مع غيرها من فتيات الجيران ، أجل طالما عجب لموقف اختيه منها « لا لأنهما لا يكثران لها فالحق انهما يحبانهما ، ولكن لأنهما يحبانهما كما يحبان غيرها من فتيات الجيران كانها مجرد « فتاة » من فتيات الجيران ، وكيف يلقبانهما بترحيب عادى دون أن يضطرب لهما نفس كما يلقى هو أى فتاة عابرة او أيا من أقرانه طلبة مدرسة الحقوق ، وكيف يتحدثان عنها فيقولان « مريم قالت او مريم فعلت » وينطلقان بالاسم كما ينطلقان بأى اسم .. أم حنفى مثلا كأنه ليس الاسم الذى لم ينطق به على مسمع من غيره الا مرة أو مرتين وهو يعجب لموقعه من اذنه او كأنه ليس الاسم الذى

لا ينطق به في وحدته الا كما ينطق بالاسماء المبجلة المنقوشة في خياله
بتهاويل الاحلام التي لا ينطق بأحدها حتى يردف « رضى الله عنه »
او « عليه السلام » . . كيف اذن عطل الاسم - بل الشخص نفسه -
عندهما من سحره و قدسينه ؟! . . وعند ما انتهت جليلة من الأغنية
تعالى الهتاف والتصفيق فركز فيه انتباهه باهتمام له تحفظ الأغنية
نفسها بمثله لأن حنجرة مريم وبديها اشتركت فيه ، وتمنى لو كان
يوسعه أن يميز صوتها من تلك الأصوات وان يفرز تصفيقها من ذلك
التصفيق ولكن لم يكن ذلك بأسهل من تمييز صوت موجة بالذات من
هدير الأمواج المتلاطمة على الشاطئ ، على أنه وهب حبه للهناء كله
والتصفيق كله بلا تمييز كالأم التي يترامى الى سمعها أصوات التلاميذ
من المدرسة التي يتبعها ابنها فتدعو لهم جميعا بالبركة والسلامة .
لم يكن أشبه بفهمي في عزلته الباطنية - وان اختلفت الأسباب - من
أبيه الذي لزم النظرة بين نفر من خاصة خلانه ، حتى الأصدقاء الذين
لم يطبقوا التوقر ، والفناء يجلجل في الخارج . انفضوا من حوله وتفرقوا
بين المستمعين يطربون ويلهون ، فلم يبق معه الا نفر الذين - مجلسه
أحب اليهم من اللهو نفسه فلبثوا جميعا في رزاة غير معهودة كأنما
يؤدون واجبا او يشهدون مائما ، لهذا ما قدره من قبل ، حين دعاهم
السيد الى ليلة الزفاف ، لما خبروه من طبيعته المزدوجة التي عرف
بجانب منها بين أصدقائه وبالجانب الآخر بين آل بيته ، ولم يفهم وجه
من وجوه التناقض بين مجلسهم الوقور هذا الذي يحتفلون فيه « ليلة
زفاف » وبين مجالسهم المسائية المعربة التي لا يحتفلون فيها بشيء !
ولما عثموا أن جعلوا من توقرهم موضوعا للمزاح الخفيف الهادئ فما
ان علا صوت السيد عفت مرة وهو يضحك حتى بادره السيد الفار
واضعا سبابته على شفثيه كأنما يأمره بخفض صوته وهمس في أذنه
محذرا زاجرا نحن في فرح يا رجل ! . . ومرة أخرى وكان الصمت قد
غلبهم مليا فاذا بالسيد على يقلب عينيه في وجوههم ثم يقول رافعا يده
الى رأسه كالشاكرا « شكر الله سعيكم » وعند ذلك دعاهم السيد الى
الالحاق بصحبه في الخارج ومشاركتهم لهوهم ولكن السيد عفت خاطبه
بلهجة تنم عن شديدا العتاب قائلا : نتركك في مثل هذه الليلة ؟! . .
وهل يعرف الصديق الا عند الضيق فما تمالك السيد أن ضحك قائلا :
ما هي الا عدة ليالى زفاف أخرى حتى يتوب الله علينا جميعا . . على
ان ليلة الزفاف تضمنت في نظر السيد أحمد معاني أخرى غير التوقر

الاجبارى فى مجلس انس وطرب ، معانى تخصصه وحده . كآب ذى طبيعة خرقت المآلوف من العلبائع ، فلم يزل يجد لفكرة زواج كرمته احساسا غريبا لا يرتاح اليه وان لم بقره عقله او دينه ، لا يعنى هذا انه . ود الا تزوج كرمته ، فالحق انه كسائر الآباء جميعا رجا الستر لفتاتيه ، ولكن لهله تمنى كثيرا لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهذا « الستر » ولهله تمنى لو كان الله قد خلق البنات على طبيعة لا تحتم الزواج ، او لهله تمنى فى الأقل لو لم يكن انجب اثنا . قط ، اما وتلك امانى لم تتحقق ولا سبيل الى تحقيقها فلم يكن بد من أن يرجو الزواج لفتاتيه ولو كما يرجو الانسان احيانا - لياسه من دوام العمر - ميتة شريفة . او ميتة مريحة ! طالما افصح عن نفوره هذا بسبل متبائية سواء عن شعور او لا شعور ، فربما حدث بعض خلصاته قائلا : « تسألنى عن انجب الاثنا ؟ .. انه شر لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر الى الله واجب على اى حال ، لا يعنى هذا انى لا أحب ابنتى فالحق انى أحبهما كما أحب ياسين وفهمى وكما لى سواء بسواء ولكن كيف يطمئن خاطرى وانا اعلم بانى سأحملها يوما الى رجل غريب مهما بيد لى من ظاهره فالله وحده المطلع على باطنه ؟ .. ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهى بعيدة عن رعاية ابوها ؟ .. وكيف يكون مصيرها لو طلقها يوما وقد مات أبوها فلجات الى بيت اخيها لتعيش عيشة المنبوذين ؟ ! لست اخاف على اجد من ابناى لانه مهما يحدث لأيهم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة اما البنت .. اللهم احفظنا ! او يقول فيما يشبه الصراحة « البنت مشكلة حقا .. الا ترى انا لا نألو أن نؤدبها ونهذبها ونحفظها ونصونها ؟ .. ولكن الا ترى انا بعد هذا كله نحملها بانفسنا الى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء .. الحمد لله الذى لا يحمى على مكروه سواه .. » وتجسم هذا الاحساس التلق الفريب فى النظرة الانتقادية التى والى بها خليل شوكت « العريس » نظرة متعسفة عيابة ابت أن ترجع قبل أن تظفر بعيب يرضى تعنتها ، كانه ليس من آل شوكت الذين الفت بينه وبينهم اسباب المودة والولاء من قديم الزمان ، او كانه ليس الشاب الذى شهد له كل من رآه بالرجولة والجمال والوجهة ، لم يسهه أن ينكر مزبة من مزاياه ، ولكنه وقف طويلا عند وجهه الريان ونظرة عينيه الهادئة الثقيلة الموحية . بالكسل فطالب له أن يستدل بهما على ما تركه الفراغ فى حياته من حيوانية قائلا لنفسه « ما هو الا ثور يعيش لياكل وينام ! » . لم يكن اعترافه بمزاياه

اولا ثم فحصه عن اى عيب ليلصقه به أخيرا الا منطقا عاطفيا يعكس ما يكمن فى نفسه من رغبة فى تزويج الفتاة ونفور من فكرة الزواج : فالاعتراف مهد الى تحقيق الزواج وانفحص عن العيوب نفس عن العاطفة العدائية ، كمدمن الافيون الذى تسندله لذته وترعبه خطورته فينشده بكل سبيل وهو يلعنه ، بيد أنه تناسى منساعره الغريبة وهو بين اصدقائه الجميمين يتسلى بالحديث حينما وبالسماح من بعيد حينما آخر ، ففتح صدره للرضى والفيطنة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنة ، حتى نظرتة الانتقادية لخليل شوكت استحالت اجساسة ساخرا غير مشوب بالحنق .

وعند ما دعى المدعوون الى الموائد افترق فهمى وباسين لاول مرذ يفقد خليل شوكت. الأخير الى المائدة الخاصة حيث بدل الشراب بغير حساب ولكن ياسين بدا حذرا مقدرا للعواقب فأعلن قناعته بكاسين وقاوم بشجاعة - أو بجبن - تيلار الشراب المتدفق حتى اذا ما لسعنه النشوة الاولى فهيجت ذكرياته عن لذة النشوات ووهنت ارادته فرغب فى الاستزادة من النشوة الى القدر الذى لا يخرج من حدد الامان فتناول كاسا ثالثة ثم فبر بنفسه عن المائدة الا أنه - على سبيل الاحتياط او لانه لم يزل عينا فى الجنة وعينا فى النار - اخفى زجاجة مملوءة حتى النصف فى مكان خفى للرجوع اليها عند الضرورة القصوى . وعادوا الى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها الى الجو المحيط سرور محرر من القيود ..

وفى الحريم كان السكر قد بلغ بالعالة جليلة حد السلطنة ، واذا بها تقلب عينيها فى وجوه المدعوات وتتسائل :

- من منكن حرم السيد احمد عبد الجواد ؟

فجذب تساؤلها الانظار واثار اهتماما شاملا حتى غلب الحياء امينة فلم تنبس بكلمة وجعلت تحلق فى وجه العالة بحيرة وانكار ، ولما اعادت العالة التساؤل تطوعت حرم المرحوم شوكت بالاشارة الى امينة وهى تقول :

- هلا هى حرم السيد احمد فقيم يا ترى التساؤل ؟

فتفحصتها العالة بعينين ثاقبتين ثم اطلقت ضحكة رنانة وبالت بلهجة تنم عن الرضى :

- حسناء وحق بيت الله ، ان ذوق السيد لا يجارى .

وبدت امينة كالعذراء المتعثرة فى حيائها ، بيد ان الحياء لم يكن كل

ما تعانيه ، ساءلت نفسها في حيرة وانزعاج عما يعنيه حديث العالمة عن حرم « السيد أحمد عبد الجواد » وعن اطرائها ذوق السيد بلهجة لا يدعيها لنفسه الا الخبير به ، وشاركتها شعورها عائشة « وخديجة التي رددت عينيها بين العالمة وبين بعض الفتيات من صديقاتها كأنما تسألن عن رأيهن في « هذه المرأة السكير » ، ولكن جليطة لم تأبه لما أثاره كلامها من انزعاج فحولت عينيها الى العروس وتفحصتها كما تفحصت امها من قبل ثم أرعشت حاجبيها وهي تقول باعجاب :

— قمر ورسول الله ، انت بنت ابيك حقاً ، ومن ير هاتين العينين يذكر من توه عينية . . (ثم مقهقهة) . . اراكن تتساعلن من اين لهذه المرأة معرفة السيد أحمد ؟! . . اني اعرفه من قبل ان تعرفه زوجة نفسها ، انه ربيب حينا وقرين صباى ، وكان والدانا صديقين « أم تحسبن العالمة لا اب لها لا . . كان ابي شيخ كتاب من اهل البركة ، ما رايك يا زينة الستات . . ؟!

وجهت السؤال الأخير الى أمينة فدفعها الخوف وما طبعت عليه من لبين وتودد الى ان تجيبها — وهي تقاوم ملا ركبها من ارتباك — قائلة :

— رحمه الله ، كلنا أبناء حواء وآدم . .

فجعلت جليطة تحرك راسها يمنة ويسرة وهي تضيق عينيها كأنما بلغ تأثيرها بالذكرى وموعظتها نهايته ، او لعل راسها السكران وجد في هذه الحركة رياضة التلذذ بها ، ثم استطردت قائلة :

— وكان رجلا غيورا ، ولكنى نشأت بفطرتى لعوبا لا ابالى كأنما وضعت الفنج في المهد ، كنت أضحك الضخكة في الدور الأعلى تضطرب لها جوائح الرجال في الشوارع ، فما يبلغه صوتى حتى ينهال على ضربا ويرمينى بشر الصفات ، ولكن ما حيلة التأديب فيمن قدرت عليها فنون العشق والطرب والدلال ؟! . . تضاع التأديب هباء ، ومضى الرجل الى الجنة ونعيمها ، وقضى على بأن اتخذ مما رمانى به من شر الصفات شعارا لى في الحياة . . هى الدنيا . . ربنا يطعمكن خيرها ويكفيكن شرها . . ولا حرمنا الله جميعا من الرجال سواء في الحلال او في الحرام . . وعزف الضحك في جنبات الحجرة حتى غطى على تاوهات ائدهن التى ندت هنا وهناك ، ولعل ما استثاره قبل اى شيء آخر هو وجه الناقض بين الدعاء الاباحى الأخير وبين ما سبقه من عبارات توحى بظاهرها على الأقل بالجد — والناسى ، او بين ما تقنعت به المرأة من ستر الجد والرزانة وما جهرت به أخيرا من مزاح مكشوف ، حتى أمينة نفسها

— وعلى رغم ارتباكها — ما تماثلت أن ابتسمت وأن تكست ونجها لتواري ابتسامتها ، على أن النساء كن يستجبن — في مثل هذا المجلس — لدعابات مهرجات العوالم ويرحبن بزواجهن وأن خدش الحياء أحيانا كنهما بنفس به على طول تزمتهم ، وواصلت العالمة السكرانة حديثها قائلة :

— وكان جعل الله الجنة مثواه سليم العلوية ، وآى ذلك انه جاءنى يوما برجل طيب مثله وأراد أن يزوجنى منه (وكركرت ضاحكة) . . .
أى زواج يا عمر ؟! . . وماذا بقى للزوج بعد ما كان مما كان ! . . . وقاب
لنفسى انفضحت يا جليلة وواقعتك كحل . .

وأمسكت مليت لتسزيد من التشويق ، أو لتتمتع أكثر بصمت الانتباه المركز فيها الذى لا تحظى بمثله حين الفناء نفسه ، ثم عادت تقول :
— ولكن الله سلم فأدركنى النجاة قبل القضيحة الموقعة بأيام إذ هربت مع المرحوم حسونة البغل تاجر المنزل ، وكان للمرحوم اخ عواد عند العالمة نيزك فعلمنى العود ، ثم طاب له صوتى فعلمنى الغناء ، واخذ بيدي حتى ضمنى الى تحت نيزك التى حلت محلها بعد وفاتها ، ومارست الغناء دهرًا عرفت فيه من العشاق مائة و . .
(وقطبت وهى تذكر بقية العيد ثم التفت الى الدافاة وسألتها :
وكم يا فينو ؟

فبادرتها الدافاة قائلة :

— وخمسة فى عين من لا يعلى على النبى . .

وتعالى الضحك مرة أخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يستكن الضاحكات ليعسفن أنجو للعالمة ولكنها نهضت بغتة واتجهت نحو باب الحجرة غير ملقية بالا الى اللاتى تساءلن عن وجهتها. دون أن يحظين بجواب ، ولكن أخذًا لم يلح عليهما فى السؤال لما اشتهرت به عند الناس من أنها صاحبة نزوة اذا نادتها لبت دون مراجعة ، وهبطت السلم الى باب الحريم ثم مرقت منه الى فناء الدار ، ولما جذب ظهورها المفاجئ بعض الانظار القريبة تليثت بمكانها لتتيح لنفسها أن ترى من الجميع فتستمتع بما يحدثه منظرها فيهم من اهتمام طمعت فى أن تتحدى به صابرا وهو فى ذروة التطريب ، وتحققت رغبتها اذ سرت عدوى الالتفات نحوها — كالنشاؤب — من فرد الى فرد وتردد اسمها على الألسن ، ثم شعر صابر نفسه — رغم انهماكه فى الغناء — بالفجوة الفجائية التى فصلت بينه وبين جمهوره فمد بصره الى الهدف الذى استشرفته الاعين حتى استقر على العالمة وهى تنظر اليه من بعيد برأس مائل الى

الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطر الى الامساك عن الغناء وأشار الى تختة فتوقف عن العزف « ثم رفع يديه الى رأسه تحية لها ! . . كان صابر خيرا بنزوات جليلة - وعلى خلاف الكثيرين - عالما بطبيعة قلبها ، ومقدرا في الوقت نفسه لخطر معاندتها ، فظهر لها التودد بلا تحفظ » ونجحت حيلته فانطلقت اسارير المرأة بالبشر وهتفت به « واصل غناءك ياسى صابر فما جئت الا لسماعه » فصفق المدعوون وعادوا الى صابر مهللين على حين اقترب منها ابراهيم شوكت شقيق العريس الأكبر وسألها لطف عن حاجتها فذكرت بسؤاله السبب الحقيقي الذى دعاها الى المجيء وسألته بدورها بصوت ترمى الى الكثيرين ومنهم - وهو الأهم - ياسين وفهمى .

- مالى لا ارى السيد احمد عبد الجواد ؟! . . أين يختبئ الرجل ؟ فأخذ ابراهيم شوكت بيدها وسار بها الى المنطرة باسماء ، على حين تبادل فهمى وياسين نظرة ملئت دهشا واستغرابا وشيماهما بعينين متسائلتين حتى واراهاما الباب ، ولم يكن السيد دون ابنه دهشا لدى رؤيتها مقبلة نحوه تخطر فحدها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صحبه نظرات باسماء ذات معان ، وشملت جليلة الجميع بنظرة عابرة قائلة :

- مساء الأنس يا رجال . .

وركزت عينيها فى السيد فما تمالكته ان اغربت فى الضحك وهى تساءل ساخرة :

- هل أخافك مجيئى ياسيد احمد ؟!

فأشار السيد الى الخارج مخدرا وهو يقول لها جادا :

- اعقلى يا جليلة ، ماذا حملك على المجيء الى هنا تحت انظار الناس

جميعا ؟!

فقالت كالمعتدرة وان لم ترايلها بسمة ساخرة :

- عز على الا اهنئك على زواج كريمك . .

فقال السيد فى ضيق :

- لك الشكر ياستى ، ولكن اما فكرت فيما يشير مجيئك لى من

يشهده من ظنون ؟

فضربت جليلة كفها بكف وقالت فيما يشبه العتاب :

- هذا احسن ما عندك لى من استقبال ! . . (ثم موجهة الخطاب الى

صحابه) . . اشهدكم يا رجال على الرجل الذى لم يكن يبتل صدره حتى

يفرز فردة شاربته في صرعى ، انظروا اليه كيف لا يطبق الآن رؤيتى ..
فلوح السيد لها بيده كأنما يقول لها « لا تزيد الطين بلة » وقال
برجاء :

— علم الله ما بى استياء لرؤيتك ولكنه الحرج كما ترين ..
هناك قال السيد على كأنما لينذكرها بما لا ينبغي لها ان تنساه :
— لقد عشتما حبسين وافترقتما صديقين : وليس بينكما تأر .. وبكى
اهله فوق وابناءه في الخارج ..

فقالتمتمادية في اغاظة السيد :
— لماذا تنظاها بالتقوى بين اهلك وانت بركة فسق !
فرماها بنظرة احتجاج قائلا :

— جليلة .. ! لا حول ولا قوة الا بالله .
— جليلة ام زبيدة يا ولى الله !
— حسبى الله ونعم الوكيل ..

فأرغشت له حاجبيها كما أرغشتها لعائشة من قبل ولكن على سبيل
التهكم لا الاعجاب هذه المرة وقالت بصوت هادى جاد كالكافى ينطق
بالحكم :

— سبان عندى أن تهشق زبيدة ام غيرها من النساء ولكن يؤسفنى
ورأس أمى أن تتمرغ فى التراب بعد أن عرفت حتى ذنيك (مشيرة الى
نفسها) فى القسدة ..

عند ذاك نهض السيد محمد عفت — وكان من أقرب المقربين اليها —
وقد خاف أن يتمادى بها السكر الى ما لا تحمد عقباه فتناول يدها
وجذبها برفق صوب الباب هامسا فى أذنها :

— حلفتك بالحسين الا مارجعت الى مستمعائك المنتظرات على نار ..
فطاوعته بعد ممانعة ولكنها التفتت نحو السيد وهى تبعد رويدا
وقالت :

— لا تنس أن تبليغ تحياتى الى القارحة ، ونصيحتى اليك — بحق
الأخوة — أن تفتسل بعدها بالكحول لأن عرقها مصاص للدماء ..
شيعها السيد بنظرة ساخطة وهو يلحن الحظ الذى قضى بان ينكشف
أمام كثيرين — خاصة أهله — ممن عرفوه مثالا للجد والرزانة « أجل لم
يزل ثمة أمل فى الا يبلغ الحادث احدا من آله ولكنه أمل ضعيف » ولم يزل
ثمة رجاء فى الا يفهموه اذا بلغهم — بما طبعوا عليه من براءة — على حقيقته
ولكنه رجاء غير مضمون لأكثر من سبب ، بيد انه على أسوأ الفروض لا

يحقق له أن يجزع لأن خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية أخرى أثبت من أن يزعرعها مزعزع ولا هذه التضيحة نفسها ، وفضلا عن هذا فإن احتمال انكشاف أمره لدى أحد من ابنائه أو لديهم جميعا لم يكن عنده يوما بالغرض المستحيل ، ولكنه لم يقلق لذلك أكثر مما ينبغي ، لثقتة بقوته ، ولأنه لم يعتمد في تربيتهم على القدوة والاقناع فيخاف انحرافهم عن الجادة تبعا لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها ، ولأنه استبعد أن يطلعوا على شيء من أمره قبل أن يبلغوا أشدهم أى حين لا يهمل كثيرا أن ينكشف لهم سره ، ولكن شيئا من هذا لم يستطع أن يلطف من أسفه على ما وقع ، حقا لم يخل من سرور ومن تيه جنسى ، إذ أن مجيء امرأة كجيلة بنفسها الى مجلسه لتهنئه أو لتعابه أو حتى لتتهكم بعشقه الجديد « حادث » له مغزاه الهام في الأوساط التى تشهد لياليه ، وظاهرة لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والأنس شيئا ، ولكن كم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحادث الجميل بعيدا عن هذه البيئة العائلية !

أما ياسين وفهمى فلم تتحول عيناها عن باب المنظرة منذ ولجته جليلة حتى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمد عفت . دهش فهمى دهشة بكرا دار لها رأسه كياسين حين سمع زنوبة وهى تجيبه قائلة « انه من حيننا ولا بد أنك تسمع عنه . » السيد أحمد عبد الجواد . . « على حين ركب ياسين حب استملاع نهم فادرك — فى سعادة أيقظت فى قلبه نشوة الاعجاب والمشاركة الوجدانية التى شعر بها نحو أبيه فى حجرة زنوبة — أن جليلة مغامرة أخرى فى حياة أبيه التى بات يؤمن بأنها سلسلة ذهبية من المغامرات ، وإن الرجل فاق كل ما تصوره خياله عنه ، ولبت فهمى يأمل ويرجو أن يعين بين حين وآخر بأن العالمة إنما أرادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلق بدعوتها الى احياء فرح عائشة حتى جاء خليل شوكت وأخبرهما ضاحكا بأن جليلة « تداعب السيد » وبأنها « تتودد اليه تودد الصديق للصديق » وعند ذلك لم يطق ياسين صبرا على كتمان ما عنده من سر ووثبت نشوة الشراب به الى الادلاء بمعلوماته فانتظر حتى غادر خليل ثم مال على اذن أخيه قائلا وهو يغالب ضحكة « كتبت عنك أشياء تخرجت من البوح بها فى حينها ، أما وقد رايت ما رايت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بها » ومضى يقص عليه ما سمع وما رأى فى بيت زبيدة العالمة ، وفهمى يقاطعه من آونة لآخرى قائلا فى ذهول « لا تقبل هذا . . » « هل فقدت وعيك » ، « كيف تريدنى على أن أصدقك »

حتى أتى الساب على فسنه بكل تفاصيلها : لم يكن فهمي . بما نسب عليه من عقيدة ومثالية ، على استعداد لفهم - بله هضم - السيرة الخفية التي تنكشف له لأول مرة خاصة وان والده نفسه كان من اركان عقيدته ودعائم مآليته ، ولعل ثمة وجها من التشابه بين شعوره وهو يماني هذا الكشف لأول وهلة وبين شعور الجنين - أن صدق الخيال - وهو ينتقل من مستقر الرحم إلى مضطرب الحياة : ولعله لو كان قيل له أن جامع فلاوون انعكس وضعه فصارت المثلثة اسفل بنائه والضيح عاليه . أو كان قيل له أن محمد فريد خان رسالة مصطفى كامل وباع نفسه للانجليز لما كان هذا أو ذاك نادى الى انكاره وانزعاجه . « أبى يذهب الى بيت زبيدة ليشرب ويغنى ويضرب الدف ! .. أبى يذم المداعبة جليلة وتوددها ! .. أبى السكر الزنا ، كيف اجتمعت الثلاث ! .. اذن هو غير الأب الذى عرفته فى البيت مثالا للورع والقوة ! .. ليهما الصحيح ؟ .. كأنى أسمعه الآن وهو يردد : الله أكبر .. الله أكبر . فكيف تردده للفناء ! .. حياة تمثيل ورياء ! .. ولكنه صادق ، صادق اذا رفع رأسه للدعاء ، صادق اذا غضب .. أياكون أبى رذيلة أم يكون الفسق فضيلة ! .. - ذهلت ؟! .. ذهلت أنا أيضا عند ما تطلعت زنوبة باسمه : ولكن سرعان ما استمخفت نفسى وسألتها ماذا عليه من هذا ؟! .. كفر ! .. هكذا الرجال جميعا أو هكذا يجب أن يكونوا ..

« هذا القول جذير يباسين حقا .. يباسين شيء وأبى شيء آخر .. يباسين ! .. ما يباسين ؟! .. ولكن كيف يحق لى أن أردد هذا الآن وأبى ، أبى نفسه ، لا يختلف عنه فى شيء ان لم يفقه تدهورا .. كلا ليس تدهورا .. ثمة أمر أجهله .. أبى لا يخطئ .. غير قابل للخطأ .. فوق الشبهات .. وعلى أى حال فوق الاحتقار .. - ما زلت ذاهلا ؟!

- لا أتصور شيئا مما قلت .. !

- لماذا ؟ .. اضحك وأفهم الدنيا ، يغنى وماذا فى الفناء من عيب ؟ ويسكر وصدقنى ان السكر الذى من الأكل ، ويعشق والعشق كان ملهة الخلفاء ، اقرأ ديوان الحماسة والأخبار التى بهامشه ، ليس على آيينا حرج ، اهتف معى يحيى السيد أحمد عبد الجواد ، ليحى أبونا ، سأترك لحظة ريثما أزور - لهذه المناسبة - الزجاجاة التى أخفيت تحت الكرسي . بعودة العالة الى التخت شاع فى الجريم نبأ مقابلتها للسيد أحمد عبد الجواد فانتقل من لسان الى لسان حتى تنهى الى الأم وخديجة وعائشة ،

ومع انهن كن يسمعن شيئاً كهذا لأول مرة الا ان سيدات كثيرات - ممن بين بعولهن وبين السيد سبب من اسباب المودة - تلقين النبأ في غير ما دهش وغمزن بعينهن باسمات شأن الذى يعرف اكثر مما يقال ، ولكن واحدة منهن لم نسول لها نفسها الخوض فى الموضوع اما لأن الخوض فيه جهاراً أمر لا يجمل بهن أمام كريماتهن واما لأن دواعى المجاملة أملت عليهن بأن يسكن عنه حيال أمينة وكرميتها ، غير أن حرم المرحوم شوكت قالت لأمينة مداعبة « حذار يا أمينة هانم فالظاهر ان عين جليلة زافت الى السيد احمد ! » فابتسمت أمينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يخضب وجهها ، لأول مرة تلمس دليلاً محسوساً على ما قام بنفسها قديماً من شكوك ، ومع أنها الفت الصبر والتسليم بما قدر عليها الا أن ارتطامها بدليل محسوس حز فى قلبها فأحسّت عذاباً لا مهد لها به وجرحاً دامياً فى صميم كبريائها ، وارادت امرأة أن تعلق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بام العروس فقالت « من يكن لها وجه كوجه ست أم فهمى قسامة فلا يحق لها أن تخشى زيفان عين زوجها الى امرأة أخرى ! » فاهتزت جوانحها للثناء وعادتها ابتسامتها الحبيبة ووجدت - على أى حال - بعض العزاء عما تعانيه من ألم صامت ، الا أنه لما بدأت جليلة أغنية جديدة فملاً صوتهها مسمعيها ثار بها غضب مفاجئ وشعرت ثوانى بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكنها سرعان ما كظمت به قوة خليقة بامرأة لم تعترف لنفسها قط بحق الغضب ، هذا على حين تلقت خديجة وعائشة النبأ بدهش فتبادلتا نظرة حائرة وتساءلتا بعينيهما عما يعنيه الأمر كله ، بيد أن دهشهما لم يقتزن بانزعاج كما حدث لفهمى ولا بآلم كما حدث لأمهما ، ولعلهما وجداً فى قيام امرأة كجليلة من تختها وتكبتها مشقة النزول الى مجلس أبيهما التحيته ومخاطبته شيئاً مشيراً للعجاب حقاً ، ثم شعرت خديجة برغبة غريزية فى استطلاع وجه أمها فاسترقت اليها النظر ومع أنها راتها تبتسم الا أنها فطنت من أول وهلة الى أنها تكايداً لما وارتباكاً فتنفص عليها صفوها وأحسّت بضيق ومالبثت أن حنقت على العالة وجرم المرحوم شوكت والمجلس كله . . ولما أزفت ساعة الزفة نسي كل همه ، أسابيع مضت فشهور وصورة عائشة فى ثوب الزفاف لا تبرح الأذهان . .



بدأت الغورية متلعة بالظلام والصمت حينما غادرت الأسرة بيت العرس عائدة الى النحاسين . سار السيد أحمد في المقدمة وحده ، وتبعه على بعد أمتار فهمى وياسين الذى أفرغ ما فى وسعه كيما يتمالك نفسه ويتحكم فى مشيته أن يخونه وعيه الزائف من فرط الشراب . ثم جاءت فى المؤخرة أمينة وخديجة وكمال وأم حنفى ، انضم كمال الى القافلة على رغمه فلولا الحادى الذى يتقدمها لوجد سبيلا الى عصيان يد والدته وأنقلب راجعا الى حيث غادروا عائشة ، وجعل لهذا يتلفت بين خطوط وأخرى صوب بوابة المتولى ليودع أسيفا محزونا آخر ما لاح من مظاهر الفرح ، ذلك الصباح المضى الذى رقى عامل فى سلم خشبي اليه ليقتلعه من مربطه فوق مدخل السكرية ، لشد ما يقطع قلبه أن ينظر الى أسرته فيجدها قد تخلت عن أحب أفرادها اليه بعد امه ، ورفع بصره الى والدته وسألها هامسا :

- متى تعود أبلة عائشة إلينا ؟

فأجابته بمثل صوته :

- لا تكرر هذا وادع لها بالسعادة ، ستزورنا كثيرا ونزورها كثيرا ..

فهمس مرة أخرى محنقا :

- ضحككم على .. !

فأشارت بيدها الى الأمام ، فى اتجاه السيد الذى كادت تبتلعه الظلمة ومطمئن شفتيها هامسة « هس » ، ولكنه كان مشغولا باستحضار صور مما مر به فى بيت العرس الى مخيلته ، رأى أنها متناهية فى غربتها وفيما بعثته فى نفسه من حيرة فجذب يدها اليه ليبتعد بها عن خديجة وأم حنفى ثم همس متسائلا وهو يشير الى الوراء :

- أما علمت بما يدور هناك ؟

- ماذا تقصد ؟

- نظرت من ثقب الباب ..

فانقبض قلب الأم جزعا لأنها حدست أى باب يعنى ولكنها سألتها

مكذبة نفسها :

- أى باب ؟

- باب غرفة العروس .. !

فقالت المرأة بانزعاج :

- ياله من عيب أن ينظر الإنسان من ثقب الأبواب .. !

فهمس من فوره :

- ٢٤٤ -

- ما رأيته أعيرت ..
- آخرس ..
- رايت ابنة عائشة وسى خليل يجلسان على الشيزلنج .. وهو ..
- فلكرته فى كتفه بشدة حتى أمسك ثم همست فى أذنه :
- يجب أن تخجل مما تقول ، لو سمعت أبوك لقتلك ..
- ولكنه قال باصرار وبلهجة من يشعر بأنه يكشف لها عن حقيقة لا يمكن أن تتصور هى وقوعها :
- كان يتناول ذننها بيده ويقبلها ..
- ولكرته مرة أخرى بقسوة لم يعدها من قبل فأدرك أنه أخطأ حقاً وهو لا يدري وسكت خائفاً ، ولكنه عند ما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخرين عن بقية الأسرة - وقد تخلفت عنهما أم حنفي لتسك الباب وتضيقه وتترسه - ألح عليه ما يكابد من حيرة ورغبة فى الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها برجاء :
- لماذا يقبلها يا نينة ؟
- فقالته بحزم :
- اذا عدت الى هذا أخبرت ، والدك .. !

- ٤١ -

- آوى ياسين الى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة ،
- ما كاد يخلو الى فهمى ويأمن الرقباء - سرعان ما غط كمال فى نومه
- عقب وضع رأسه على المخدة مباشرة - حتى جمحت به رغبة فى العريضة
- كرد فعل للجهد العصبي الذى بدله طوال السهرة ، خاصة فى طريق
- العودة ، كيما يضبط نفسه ويسيطر على سلوكه ، وإلكنه وجد الحجرة
- اضيق من أن تتسع لعريشته فمال الى التنفيس عن صدره بالكلام فنظر
- نحو فهمى وهو ينزع ملابسه وقال ساخراً :
- قارن بين خيبتنا وبين براعة ابينا ! .. حقاً انه لرجل ..
- وعلى رغم ما حرك هذا الكلام من ألم فهمى وحيرته الا أنه قنع بأن
- يقول وهو يرسم على شفثيه المتعضتين شبه ابتسامة :
- البركة فيك قأنت نعم الخلف ..
- أبحزنك أن يكون والدنا من كبار القناصة ؟

— وددت لو لم تمتد يد التغير الى صورته المائلة في نفسى .

فقال ياسين وهو يفرك راحتيه في سرور :

— الصورة الحقيقية أبهى وأمتع ، أعظم من أب هو المثل الأعلى . آد

لو رأيته وهو قابض على الدف والكأس بين يديه تزهو ! عفارم . . عفارم
يا سيد أحمد !

فتساءل فهمى في حيرة :

— وحزمه وتقواه ؟!

فقطب ياسين ليركز فكره في المبالة ولكنه وجد نفسه في حال الجمع
بين الأضداد أروح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعا بالاعجاب وحده :

— ليس ثمة مشكلة على الإطلاق ، عقلك للرديد وحده الذى يخلق
المشكلة من العدم ، أبى حازم ومؤمن ويحب النسوان : شيء بسيط
واضح مثل $1 + 1 = 2$ ، ولعلى أشبه الناس به على وجه التقريب
لأنى مؤمن وأحب النسوان وأن قل نصيبى من الحزم ، أنت نفسك مؤمن
وحازم وتحب النسوان ، ولكن بينا تحقق إيمانك وحزمك اذا بك تنكص
عن الثالثة (ثم ضاحكا) والثالثة هى الثابتة !

لعله نسي عند آخر كلامه باعث الإعجاب الذى دفعه الى الاسترسال
فيه ، فجاء قوله دفاعا عن أبيه في الظاهر فقط ، أما في الحقيقة فلم يكن
الا تعبيرا عن شعور وهاج هاج به دمه المخمور ، عن شهوة جامحة ركبت
عقب اختفاء الرقباء الذين يحذرهم ، شهوة أرهبها خيال مكهرب
بالشراب ، فرغب جسده في الحب رغبة جنونية عجزت ارادته عن
شكها او ملاطفتها ، ولكن أين يجد مطلبه ؟ . . هل يتسع له الوقت ؟ . .
زنوبة ؟! . . ماذا يحول بينه وبينها ؟ . . طريق قصير ، ضجعة قصيرة ،
ثم يعود فينام نوما عميقا هادئا ، هس للأخيلة اللغرية هشاشة شخص
لا عقل له يراجع فاندفع الى تحقيقها بلا تردد ، وما لبث أن قال لأخيه :

— الجو طار ، سأصعد الى السطح لأتنسم هواء الليل الرطيب . .

وغادر الحجرة الى الدلهيز الخارجى ، ومضى يهبط السلم متلما
طريقه في ظلمة غاشية ، محاذرا غاية الحذر أن يند عنه صوت . ترى
كيف يستطيع الوصول الى زنوبة في هذه الساعة من الليل ؟ . . هل
يطرق الباب ؟ . . ومن عسى أن يجرى لفتحه ؟ . . وبم يجيبه اذا سأل
عن مقصده ؟ . . واذا لم يستيقظ أحد لفتح الباب ؟ . . او اذا جاء
التغير ليراقبه بتفله المعروف ؟ عامت هذه الخواطر على سطح مخه
كالفقايع ثم انداحت غارقة في تيار الخمر الجارف فلم يتجهم لها كعوائق

ينبغي تقدير عواقبها ولكنه ابتسم لها كدعابات مما قد يؤنس وحشة مغامرته ، ثم جاورها خياله طائرا الى حجرة زنوبة المظلة على مفرق الغورية والصنادفية فتحيلها في قميص النوم الأبيض الشفاف الذي يتقوس مطاوعا فوق النهدين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن ساقين مدملجتين خمريتين فجن جنونه وود لو يشب فوق الدرجات لولا الظلمة الفاشية . خرج - بخروجه الى الغناء - الى ظلمة اخف قليلا بما نفضته النجوم عليها من أضواء خافتة بيد أنها بدت لعينيه اللتين كابدتا ظلمة السلم طويلا نورا أو كالنور ، وعندما خطا خطوتين متجهتا الى الباب الخارجى في آخر الغناء جذب عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضم أمام حجرة الفرن فالتقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتى عثر قريبا منه على جسم منطرح على الأرض فتوره على ضوء السراج فعرف أم حنفى التى بدت وكأنها استجبت النوم فى الهواء العلق فرارا من جو حجرة الفرن الخائق . وهم بمواصلة السير ولكن ثمة شيء استوقفه فعطف رأسه مرة أخرى صوب النائمة فأمكنه ان يتبينها من موقفه ، الذى لم يفصله عنها الا بضعة أمتار ، بوضوح غير متظر ، رآها مستلقية على ظهرها ثائية ساقها اليمنى التى رسمت فى الهواء بحافة الجلباب المتصقة بالركبة هرما قائما وكشفت فى نفس الوقت عن فخذها اليسرى الى لاحت عارية فيما يلي الركبة ثم غرقت فى ظلمة الفرجة التى انحسر عنها الجلباب بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ومع ان احساسه بضيق الوقت ووجوب البدار الى غايته لم يهن الا إنه لم يسترد بصره عن الجسم الملقى غير بعيد منه ، أو لهله لم يستدلع استرداده وانساق وهو لا يدري الى تفرسه بامعان بدا فى نقطة عينيه المحمرتين وانفراج شففيه المثلثتين ، فاستحاتت نقطة العين - وهى تتفحص الجسم اللحيم الذى شغل فراغا كبيرا كأنه جاموسة مسمنة - رغبة مريبة حتى استقر البصر على الفرجة المعتمة ما بين الساق القائمة والساق الممدودة ، ثم تحول التيسار المضطرب فى شرايينه من النطلع صوب باب الخروج الى حجرة الفرن ، وكأنه يكشف لأول مرة المراة التى خالطها اعواما طويلة بغير مبالاة . على ان أم حنفى لم تحظ بسمة واحدة من سبات الحسن ، وبدا وجهها الجهم اكبر من سننها الحقيقية التى لم تكد تجاوز الأربعين ، حتى اكتنازها باللحم والدهن كان - لتساوقه - سوء تنسيقه - بالانتفاخ الغليظ أشبه ، ولذلك ، وربما أيضا البلاء ، انزوائها فى حجرة الفرن وقديم معاشرته لها التى بدات مع صباه ، لم

يلتفت إليها قط ، يريد أنه كان وقتذاك على حال من الهيجان فقد معها نية قدرة على التمييز فأعتمته الشهوة ، وأى شهوة ؟ شهوة موالعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيتها ولا لألوانها ، تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح ، والسنل عندها في « الأزمان » سواء كالكلب يلتمس بلا تردد ما يصادفه في القمامة ، عند ذلك بدت له مناسمته الأولى - زنوبة - محفوفة بالمناعب مجهولة العواقب ، ولم يعد « الوصول إليها في هذه الساعة من الليل . وطرق الباب ، وما يقول لفتاحه ، والغفيم » دعابات يبسم لها ، ولكن عوائق حقا يجدر به أن يتفادى منها . تقدم في خفة وحذر فاغرا فاه . ذاهلا عن كل شيء الا قنطار اللحم المنطرح عند قدميه الذي بدا لعينيه النهمتين وكأنه اخذ أهبته لاستقباله ، حتى توقف بين الساق القائمة والأخرى الممدودة : ثم انحني عليها قليلا قليلا بلا رمي تقريبا ، وبأفراء شديد من الداخل والخارج معا ، وما يدرى الا وهو ينبطح فوقها . لعله لم يتعمد الذهاب الى هذا الحد دفعة واحدة ، ولعله هم بتيء من التمهيد كان لا ينبغي أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة ، ولكن الجسم الذي انبطح عليه اضطرب اضطرابة فرع شديدة وندت عنه صرخة مدوية - سبقت يده التي رامت كتفها - فمزقت السكون الشامل ولطمت مخه لطمة قوية ردت اليه وعيه فأطبق راحته على فمها وهو يهمس في أذنها بقلق وخوف بالغين :

— أنا ياسين ، أنا ياسين يا أم حنفي : لا تخافي ..

وظفق يكرر قوله حتى اطمأن الى وعيها اياه فاسترد راحته ، ولكن المرأة - التي لم تمسك من المقاومة قط - تمكنت أخيرا من أن تنحيه عنها ، فاستوت جالسة وهي تلهث من الجهد والانفعال ثم سأله بصوت أزعجه

ارتفاعه أيما ازعاج :

— ماذا تريد ياسي ياسين ؟

فقال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء :

— لا ترفعي صوتك هكذا ، قلت لك لا تخافي ، ليس ثمة ما يدعو الى

الخوف بتاتا ..

فعدت تسأله بجفاء وأن خفضت من صوتها قليلا :

— ماذا جاء بك ؟

فجعل يربت على يدها متوددا وهو يتنهد في شبه ارتياح لم يخل من

عصبية كأنما رأى في خفضها لصوتها أمارة مشجعة وقال لها :

— ماذا أفعلك ؟ لم أرد بك سواء ، مبتسما ابتساما وشت بها

نبراته (هلمى الى حجرة القرن ..

فقال المرأة بصوت مضطرب ولكنه ذو دلالة حازمة :

— كلا يا سيدى ، اذهب الى حجرتك ، اذهب ، الله يلعن الشيطان ..
لم تزن أم حنفى كلماتها بميزان ولكنها ندت عنها كما اقتضى الحال ،
لعلها لم تعبر اصدق التعبير عن رغباتها ، ولكنها عبرت تماما وبغير شعور
منها عن شدة المفاجأة ، مفاجأة لم تسبق يوما بتمهيد من أى نوع كان ،
التي انقضت عليها فى نومها كما تنقض الحداة على الفرخ ، فصدت الساب
وزجرته بلا ادنى تفكير حقيقى فى الصدا او المزجر ، بيد أنه اساء فهمها
فامتلا حنقا وثارت براسه الخواطر .. « ما العمل مع بنت الكلب هذه !
لا يمكن أن اراجع بعد أن كشفت نفسى وتماديت الى حد الفضيحة ، لا بد
مما أريد ولو لجأت الى القوة » وفكر بمجلة فى أنجع وسيلة للتغلب على ما
تراءى له من مقاومة ولكنه — قبل أن يتخذ قرارا — سمع حركة غريبة ،
لعلها حركة أقدام ، آتية من باب السلم ، فوثب قائما وهو من الفرع فى
نهائيه ، مزدردا شهوته كما يزدرد اللص فص الماس السروق اذا بوجف
فى مكمته واستدار صوب الباب ليعاين ما هنالك فرأى والده وهو يجتاز
العتبة ماذا ذراعه بالمصباح . تسمر فى مكانه مختطف الدم مستسلما ذاهلا
يائسا . ادرك من نوه أن صرخة أم حنفى لم تضع هباء ، وأن النافذة
الخلفية لحجرة الأب كانت له بالمرصاد ، ولكن ماجدوى الادراك المتأخر ..
لقد وقع فى فخ انقضاء والقدر . وجعل السيک يتفرس فى وجهه بقسوة ،
صامتا ، مطيلا الصمت ، وهو ينتفض غضبا . ودون أن يحول عنه عينيه
القاسيتين اشار بيده الى الباب يأمره بالدخول . ومع أن الاختفاء كان
أحب اليه فى تلك اللحظة من الحياة نفسها الا أنه من الخوف والارتباك لم
يستطع أن يحرك ساكنا ، فضاقت صدر الأب ولاحت فى عبوسه بوادر
الانفجار ثم زمجر صائحا وعيناه — اللتان انعكس عليهما ضوء المصباح
المرتعش بارتعاش اليد المتقاطضة عليه — ترسلان شررا ..

ب اطلع يا مجرم يابن الكلب .

فما ازداد الا استمساكا بجموده حتى هجم عليه السيد فقبض على
ذراعه بيمينه وشد عليها بغلظة ثم جذبه بشدة نحو الباب فاندفع بقوة
الجذبة الحارقة فكاد يقع على وجهه ، وبمالك توازنه وهو يتلفت وراءه فرعا ،
وفر بنفسه وثبا لا يبالي بظلمة ..

علم بفضيحة ياسين شخصان - غير أبيه وام حنفى - هما ست امينة وفهمى ، سمعا صرخة أم حنفى ، فشاهدا من نافذتيهما مآدار بين السحاب وبين السيد ، ثم حدسا ما هنالك دون حاجة الى كبير ذكاء ، على أن السيد كاشف زوجه بزلة ابنه وسألها مدققا عما تعلم من اخلاق « أم حنفى » فدافعت امينة عن خادمتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذكرت السيد بأنه لولا « صرختها » ما درى احد بما كان فقضى الرجل ساعة وهو يسب ويلعن ، سب ياسين ، وسب نفسه لأنه « ما كان ينبغي ان ينجب أطفالا ليكدروا صفوه بأهوائهم الشريرة » واستفاض به الغضب فسب البيت وأهله جميعا ! .. وظلت امينة صامتا كما واصلت صمتها فيما بعد كأنما لم تدر شيئا ، كذلك تجاهل فهمى الأمر كله ، تظاهر بالاستغراق فى النوم حين عاذ أخود الى الحجرة لاهثا عقب الموقعة الخاسرة ، ولم يد منه فيما بعد ما ينم عن علمه بشئ ، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذل ومهانة اكراما لاحترام يكنه له بصفته أخاه الأكبر ، احترام لم يذهب كله ، ما تكشف له من استهتاره ومجونه أو ما تقدم هو به عليه من علم وثقافة ، أو ما يبدو من ياسين نفسه من عدم مبالاة بالزام احدهم اخوته باحترامه بما يعابثهم من مزاج ودعابة ، أجل لم يزل يكن له احتراماً لعل حرصه على الإبقاء عليه راجع الى ما يأخذ به نفسه من تأدب وجد ورزاة أكسبته مظهره أكبر من سنه ، بيد أن خديجة لم يفتها أن تلاحظ - غداة الواقعة - أن ياسين لم يتناول فطوره على مائدة أبيه فسألته باستغراب عن المانع فأجابها بأنه لما يهضم عشاء الفرح ، وشعرت الفتاة - بسوء ظنها الطبيعى المرهف بأن ثمة علة لتخلفه غير عسر الهضم فسألت أمها ولكنها لم تجد جواباً شافياً ، ثم رجع كمال من حجرة الطعام وهو يتساءل أيضاً « لا بدافع من حب الاستطلاع أو الأسف ، ولكن أملاً أن يجد فى الجواب ما يشره بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس خطير كياسين ، وكاد الأمر ينسب لولا أن ياسين غادر البيت مساء من غير أن يشترك فى مجلس القهوة المعهود ، ومع أنه اعتذر لفهمى والام بارتباطه بميعاد الا أن خديجة قالت بصراحة « فى الأمر شئ ، لست عبيطة .. أقطع ذراعى ان لم يكن ياسين متغيراً » . وعند ذاك اضطرت الام أن تعلن غضب السيد على ياسين لسبب لم تعلمه ..

وانقضت ساعة وهم يخمنون السبب حتى أمينة وفهمى اشتن كما مع الآخرين مداراة للواقع ، وظل ياسين على تجنبه للمائدة أبيه حتى دعى ذات صباح الى مقابلته قـل العطور . لم تفجأه الدعوة ، وان أزعجته رغم ذلك - فكم توقعها يوما بعد يوم لاستيثاقه من أن أباه لا يمكن أن يقنع من زلته بتلك الجذبة العنيفة التي كادت تلقيه على وجهه « وأنه لا بد عائد إليها بطريق أو بآخر ولعله توقع أيضا معاملة لن تليق بحال بموظف مثله مما حملته حيثما على التفكير في مغادرة البيت الى حين أو الى الأبد ، أجل لا يجمل بأبيه - أبيه كما عرفه في بيت زبيدة خاصة - أن يلقي زلته بهذا العنت كله ، كما لا يجمل به هو أن يعرض نفسه لمعاملة لا تليق برجولته فالأكرم له أن يفارقه ، ولكن الى أين ؟ . ليس الا ان يعيش عيشة مستقلة بمفرده ، ولن يعجزه هذا ، بيد أنه قلب الأمر على مختلف وجوهه ، قدر النفقات وتساءل عما يبقى له بعدها للملاذ « القهوة سى على وحانة كوستاكي وزنوبة ، هنالك فتر حماسه حتى انطفأ كما تنطفئ شعلة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة ، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه « لو طأعت الشيطان وهجرت البيت لأحدثت تقليدا خبيثا لا يليق بأسرتنا . مهما يقل أبى أو يفعل فهو أبى وهيئات ان تضام حيال تأديبه » ثم قال بصراحتة التي يصطنعها اذا غلبته روح الدعابة « شيئا من التواضع يا ياسين بك ، دعنا من الكرامة وحياة أمك ، أيهما أحب اليك كرامة سيادتك أم كونيالك كوستاكي وسرة زنوبة » هكذا عدل عن التفكير في مغادرة البيت ولبت ينتظر الدعوة المتوقعة حتى وقعت فجمع نفسه ومضى كالأرهاب متوجسا ، دخل الحجر خافض الرأس خفيف القدم ووقف بعيدا عن مجلس أبيه من غير أن يجزؤ على التسليم عليه ، وانتظر وانقضى السيد عليه نظرة طويلة ثم هز رأسه كالمتعجب وهو يقول :

« ما شاء الله ! . . طول وعرض ، شارب وقفا ، اذا رآك الرائي في الطريق قال لنفسه باعجاب نعم الرجل ونعم الابن ، فليت القائل يجرى الى البيت ليزاك على حقيقتك . . »

ازداد الشاب ارتباكاً وحياء ولكنه لم ينس بكلمة ومضى السيد يتفحصه بسخط ثم قال باقتضاب وبلهجة خافعة امرأة :

« قررت أن تتزوج . . ! »

ودهش ياسين دهشة لم يكـد يصدق معها اذنيه ، كان يتوقع سباً وانما فحسب ولكن لم يخطر له على بال أنه سيسمع قرارا خطيرا يغير مجرى حياته كله فما تمالك ان رفع عينيه الى وجه أبيه حتى اذا ما التفتا بعينييه

الزرقاوين الحادثتين خفضهما متورد الوجه لاثذا بالصمت : وفطن السيد الى أن ابنه بوغت بهذا القرار « السعيد » بدلا من المعاملة الغظة التي كان يتوقعها فثار حنقه على الظروف التي أملت عليه أن يلقبها بجانب دم خليك بتكذيب ظنه بجبروته المعروف فبث حنقه في نبرات صوته . وهو يقول عابسا :

— الوقت ضيق وأريد أن اسمع جوابك ..

ما دام الرجل قد قرر أن يزوجه فهو يأبى الا أن يسمع جوابا واحدا . ولا مانع من أن يسمعه الجواب الذي يريد : لا طاعة لأمر فحسب . ولكن تلبية لرغبته هو أيضا ، أجل ما كاد والده يعلنه بقراره حتى انطلق خياله يصور له « عروسا » حينئذ امرأة تكون ملك يمينه ورهن اشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتى أوتسك أن يفضحه صوته وهو يقول :

— الراى رايك يا بابا ..

— تريد أن تتزوج أم لا ؟ .. انطق ..

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعد له ماليا :

— مادامت هذه هى ارادتك فانى موافق على العين والراس .

فخفف السيد من خشونة لهجته وهو يقول :

— سأطلب لك كريمة صديقى السيد محمد عفت تاجر الأقمشة بالحماوى :

لقية ظفرها برقبة تور مثلك .

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مدهانا :

— ولكنى بفضلك أصبح كفتا لها .

فرمقه بنظرة حادة كأنما لينفذ بها الى أعماق مدهانته وقال :

— من يسمع كلامك لا يتصور فعالك يا منافق .. أغرب عن وجهى ..

وهم ياسين بالتحرك ولكنه أوقفه بإشارة من يده ثم تساءل مستدركا

كأنما عرض التساؤل له اتفاقا :

— أظنك حوشت المهر ؟

ثم يحر جوابا وعلاه الارتباك فاغتاظ السيد وتساءل مستنكرا ..

— ولكنك عشت رغم توظيفك فى كفالتى كما كنت تعيش وانت تلميذ

فماذا صنعت بمرتبك ؟

فلم يزد على أن حرك شفتيه دون أن ينبس فحرك الأب راسه ممتعضا وذكر قوله له منذ عام ونصف وهو يوصيه لمناسبة توظيفه « لو طالبتك الآن بأن تتعهد بنفقات نفسك بوصفك رجلا مسئولا ماخرقت المألوف بين الآباء والأبناء ولكنى إن أطالبك بليم واحد كى أهينك لك فرصة لاقتصاد

مقدار من المال تجده بين يديك اذا دعت الحاجة اليه ، ودل ذلك التصرف من جانبه على ثقته بانه ، والحق انه لم يتصور أن ينجح أحد من ابنائه — بعدما نال من تأديبه وتهذيبه الصارمين — الى هوى من الأهواء الجاحجة التي تبدد المال ، لم يتصور أن ينقلب ابنه « الصغير » سكيراً ماجناً ، فالخمر والنساء التي يراها في حيلاته* هو لونا من اللهو لا يسر رجولة ولا يؤذي ايماناً تنقلب اذا « لوثت » أحداً من ابنائه جريمة لا تغفر ، ولذلك فان زلة الشاب التي كشفها في فناء البيت طمأنته بقدر ما أغضبته لأن أم حنفى في نظره لا يمكن أن تغرى شاباً أن لم يكن تحمل ما فاق طلاقته من الاستقامة والعفة . . أجل لم يشك في براءة ابنه بيد أنه ذكر ما لاحظته كثير من ولعه بالأنافة وتخيره النفيس من البدل والقمصان وأربطة الرقبة وكيف لم يزتج الى ذلك وحلده الاسراف ولكن تحذيراً هيناً ، أما لأنه لم يورث في الأنافة جريمة ، وأما لأن تشبه ابنه به وتكراره لصورة من صور سلوكه الذي لا يرى بأساً في أن يكرره ابنائه — حرماً في صدره العطف والتسامح ، ولكن كيف كانت نتيجة ذلك التسامح ؟ . . هي ما وضح له الآن من تبذيره تقوده في التفاه من الكماليات . ونفخ الرجل مفيظاً محنقاً وقال له محتدماً : — أغرب عن وجهي .

غادر ياسين الحجرة مغضوباً عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلاته كما توقع وهو ذاهب الى الحجرة لتذيره الذي لم يكرمه من قبل فسلم اليه نفسه بلا تفكير ولا تدبر ، ينفق ما في جيبه حتى يفرغ غارقاً في ساعته ، متعامياً عما يسمونه « المستقبل » كأنه شيء لا وجود له ، ومع أنه غادر الحجرة مرتبكاً وجلاً لنهرة أبيه إلا أنه لم ينخل من ارتياح عميق اذ أدرك أن تلك النهرة لا تعنى طرده فحسب ولكن أيضاً أن السيد سيتكفل بنفقات زواجه ، ومضى كالطفل الذي يضيق أبوه بالحاجة في طلب قرش فينقده اياه ويدفعه خارجاً فينسى شدة الدفعة في فرحة الظفر ولبت الأب بساخطاً وراح يردد « ياله من حيوان ، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ » أغضبته اسرافه كأنه لا يتخذ هو من الاسراف شعاراً له في الحياة ، ولكنه كان لا يرى بأساً في اسرافه كسائر اهوائه — مادام لا يفقره وينسيه واجباته أو يدهور شخصيته ، ولكن كيف يضمن أن يصمد أمامه ياسين ؟ . . فلم يكن يحرم عليه ما يحل لنفسه عن استبداد وانانية فحسب ولكن شفقاً عليه وان دل شفقة هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالآخر لا يخلوان من ثرور وزايله الغضب . كمادته — بنفس السرعة التي ركبها بها ، فصفت نفسه وانبسست اساريره وأخذت الأمور تتبدى له بوجه جديد لطيف مساح . .

« تريد أن تتشبهه بأبيك يا تور .. اذن لا تأخذ جانباً وتهمل الجوانب الأخرى » كن أحمد عبد الجواد كله ان استطعت أو فلزم حدودك . أحسبني حقاً سخطت على تذكرك لاني كنت أرجو ان أزورك بنقودك ؟! .. حسبت .. أنما رجوت ان اجدك مقنعدا كي أزورك بنقودي على وفرة النقود لديك ، هذا هو الرجاء الذي خيبت وهزل حسبتي لم أفكر في اختيار زوجة لك الا بعد ضبطك متلبساً بالزنا . وإي زنا .. زنا حقير كحقارة ذوقك وذوق أمك ؟! .. كلا يا بغل اني افكر في سعادتك منذ توظفت ، كيف لا وانت اول من جعلني ابا ... وأنت شريكى في العذاب الذي أصلتنا اياه أمك اللعينة ؟! .. ثم اليس من حقى أن افرح بك خصوصاً وأنه على أن انتظر طويلاً حتى افرح بانور الآخر أخيك أسير العشق وبا ترى من يعيش ؟! .. » في اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات سبب ونيق بموقفه الراهن ذكر كيف قص على السيد محمد عفت « جريمة » ياسين وما كان من زجره وجذبه تلك الجذبة التي كادت تلقيه على وجهه وهو بصدد طلب يد كريمة للسناج - الواقع أن الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاتيحة ياسين - وكيف قال له الرجل « الا ترى أنه يجعل بك ان تغير من معاملتك لابنك كلما قارب سن الرشد خاصة اذا توظف وصار رجلاً مستولاً ؟ .. ثم ضاحكاً) الظاهر أنك من الآباء الذين لا يرددعون حتى يجهر ابنائهم بالثورة عليهم » وكيف أجابه بثقة قائلاً : « هيهات أن تتعرض الرابطة بينى وبين ابنائى لتغير الزمن » صدرت عنه الاجابة الأخيرة بمباهاة وثقة لا تحد لها ، على أنه اعترف له بعد ذلك أن معاملته تتغير في الواقع بتغير الأحوال وان عمل من جانبه على الا يظن أحد الى نية التغيير الباطنة ثم قال : « الحق اني لا أقبل أن أمد يدي الآن على ياسين ولا حتى على فهمي ، والحق اني حذيت ياسين تلك الجذبة تحت تأثير غضب ثائر ومن غير أن أقدر المدي الذي ذهبت اليه » ثم استنطرد قائلاً وهو يكر الى فترة من الماضي البعيد « كان أبى رحمة الله عليه يلتزم في تربيتي شدة تهون الى جانبها شدتي مع ابنائى ولكنه سرعان ما غير من معاملته لى منذ ان دعاني الى معاونته في الدكان ، ثم استحالت معاملته صداقة أبوية منذ تزوجت أم ياسين ، وقد بلغ بى الاعتزاز بالنفس أن عارضت في زواجه الأخير لكبره من ناحية وحدائه سن العروس من ناحية أخرى فلم يزد على أن قال لى « اتمارضنى يا تور .. وما دخلك في هذا الشأن ؟! .. انى أقدر منك على ارضاء أمة امرأة » فما تماكنت أن ضحكت

وطيبت خاطره معتدرا » ذكر هذا كله فورد على ذهنه المثل القائل « اذا
كبر ابنك آخه » فشعر - ربما لأول مرة في حياته - بتعقد مهمة الابوة
كما لم يشعر به من قبل . في نفس الاسبوع اذاعت الأم خطبة ياسين في
مجلس القهوة ، كان فهمى قد علم بها عن طريق ياسين نفسه ، اما خديجة
فما تماكنت أن ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الأب
على ياسين ظنا منها أن الغضب انما وقع نتيجة لرغبة ياسين في الزواج
قياسا على ما كان بين الأب وفهمى فلهذا سبب نفسه فصرحت برايتها
كالمسائلة فقال ياسين ضاحكا وهو يخطف من الأم نظرة لا تخلو من
حياء وارتباك :

- الحق ان ثمة علاقة قوية بين الغضب وبين الخطبة ..

فقالت خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية والمزاح :

- بابا معذور في غضبه لان حضرتك لا يمكن أن تشرفه امام صديق

كبير مثل السيد محمد عفت ..

فجأراها ياسين في سخريتها قائلا :

- وسوف يزداد موقف أبى حرجا اذا ما علم السيد الكبير المذكور

بان للعريس اختا مثل حضرتك !

عند ذاك تساءل كمال :

- هل ستركنا ياسين كما تركتنا ابله عائشة ؟

فقالت له امه باسمه :

- كلا ولكن سننضم الى بيتنا اخت جديدة هي العروس ..

ارتاح كمال الى هذه الاجابة التي لم يكن يتوقعها ، ارتاح الى يقين

« راويته » الذي يمتعه بحكاياته ونوادره ومؤانسته ولكنه علا يتساءل

لماذا لم تبقى عائشة ايضا ؟ .. فاجابته امه بان العادة قضت بان العروس

تنتقل الى بيت العريس وليس العكس ، لم يدر من سن هذه العادة وكـم

تهنى لو كان العكس هو المتبع ولو يضحى بياسين ولطائفه بيد انه لم

يستطع ان يجهر برغبته فافصح عنها بنظرة ناطقة رنا بها الى امه ، فهمى

وحده الذى اثار الخبر اشجانها لا لانه لم يشارك ياسين فرحته ولكن لان

سيرة الزواج غدا من شأنها ان توقظ عاطفته وتستثير حزنه كما تستثير

سيرة النصر حزن ام فقدت انها .. في موقعة ظافرة ..

- ٢٥٥ -

- ٤٣ -

تحرك الحانطور مقلدا الام وخديجة وكمال في طريقه الى السكينة .
 سيكون زواج عائشة ابنا بعهد جديد من الحرية ؟ اي قدر لهم اخيرا ان
 يطلعوا على نور الدنيا من حين لآخر وأن يتنفسوا هواءها الطليق ؟ ! .
 بيد أن أمينة لم تستسلم للتفاؤل أو تسبق الحوادث ، فالذي حرم عليها
 زيارة أمها الا فيما ندر قادر على أن يحرم عليها زيارة ابنتها كذلك ولم
 تنس أنه مضت أيام كثيرة على زواج الفتاة زارها خلالها الأب وباسين
 وفهمي وحتى أم حنفي دون أن يؤذن لها هي بزيارتها أو تواتيها شجاعتهما
 على الاستئذان للزيارة ، تحزنت من تذكيره بأن لها ابنة في السكينة يجب
 أن تراها ، ولازمت الصمت وان لم تبرح صورة الصغيرة مخيلتها . على
 أنه لما ضاق صدرها بالآلام التصبر استجمعت ارادتها وسألته :

— ان شاء الله يكون سيدى عازما على زيارة عائشة قريبا لنطمئن
 عليها ؟ ..

فطن السيد الى ما وراء السؤال من رغبة خفية فحنق عليها ، لا لأنه
 كان قرر أن يحول بينها وبين زيارة عائشة . ولكن لأنه ود — كشانه في
 مثل هذه الحالة — 'ن يصدر السماح منه منحة غير مسبقة بطلب ان
 تقوم بنفسها شبهة بأن طلبها ذو اثر في استصدار السماح ، فكره ان
 تنسعى الى تذكيره بهذا السؤال الماكر ، ومن قبل فكر في الأمر بضيق
 فاحنقه أن يجده ضرورة لا محيص منها ، ولذلك هتف بها حانقا :

— عائشة في بيت زوجها ولا حاجة بها الى أحد منا ، على أنني زرتها
 كما زارها أخوها فماذا يقلقك عليها ؟ !

غاص قلبها في صدرها وجف ريقها ياسا وقهرا ، اما السيد فقد تعمد
 أن يلزم الصمت كأنه انتهى من الأمر كله معاقبة لها على ما عده مكرًا
 منها لا يغتفر ، ثم أهملها طوال الوقت وهو يختلس النظر الى ما غشي
 أساريرها من كمد ، حتى حان وقت انصرافه الى عمله فقال لها بجفاء
 واقتضاب :

— اذهبي غدا الى زيارتها .. !

تدافع دم الانشراح الى الوجه الذي لا تخفى بصفحته خافية فبدت
 في سرور الطفل فما عتم إن عاوده حنقه فصاح بها :

— لن تريها بعد ذلك الا اذا سمح لها زوجها بزيارتنا .. !
فلم تعلق على قوله بكلمة ولكنها لم تنس عهدا حملته وهى تشاور
خديجة فى مفاتحته فقالت بعد تردد واشفاق :
— هل يسمح سيدى بان آخذ معى خديجة ؟
فهز رأسه كأنما يقول « ما شاء الله .. ما شاء الله .. » ثم قال لها
محتدا :

— طبعاً .. طبعاً .. ! ما دمت قد قبلت ان ازوج ابنتى فيجب ان
تنضم أسرتى الى ابناء الشوارع ! خديجا « ربنا ياخذكم جميعاً ..
تم لها فوق ما تطمع من السرور فلم تلق بالا الى الدعاء الاخير الذى
الفت سماعه ... واكثر — فى اوقات غضبه او تظاهره بالغضب على
السواء ، كانت تعلم بأنه من طرف الساننه وأنه أبعد ما يكون من قلبه ،
مثله كمثل القطه تبدو ، حين تحمل سفارها ، وكأنها تلتهمها . تحقق
الرجاء وانطلقت العربيه بهم فى طريقها الى السكريه . بدا كمال ، اذياره
عائشه وخروجه بصحبة امه واخته وركوبه الحانطور ، اوفر الثلاثة
سرورا « وكأنه لم يستطع كتمان فرحه او أنه رغب فى اعلانه على الملا
او لعله اراد لفت الأنظار الى شخصه وهو يتخذ مجلسه فى الحانطور بين
امه واخته فما اقتربت العربيه من دكان عم حسنين الحلاق حتى وقف
بفته هاتفا « يا عم حسنين .. انظر ! » فنظر الرجل اليه ولما لم يجد
وحده غض بصره فى عجلة مبتهما فدايت الام خجلا وارتابا وجذبته
من طرف جاكته ان يعيد الكرة امام الدكاكين التالية وراحت تؤنبه متى
فعلته « الجنونية » . بدا بيت السكريه — وليس كذلك بدا فى حله الاتوار
ليلة الفرح — عتيقا هرما ولكن دل عتقه نفسه فضلا عن نخامة بنيانته
ونفاسة ائانه على السؤدد والجاه ، قال شوكت اسره « قديمه » وان لم
يبق لهم من عزة القدم — خاصة بعد توزيع الثروة بالتوارث والاسكبار
على التعليم — الا الاسم . وقد اقامت العروس بالدور الثانى على حين
نزلت حرم المرحوم شوكت — ومعها ابناها الاكبر ابراهيم — الدور الاول نهجزها
مع الكبير عن ارتقاء السلم فبقى دور ثالث شاعرا لم يسعهم أن يشغلوه
وابوا أن يسكنوه . ولما ادخلوا شقة عائشه هم كمال ، منطلقا مع
سجيتهم كما لو كان فى بيته ، بأن يجوس خلالها كى يعثر بنفسه على
أخته مستمتعا بلذة المفاجأة التى تخيلها وهو يرقى فى السلم ولكن امه
لم تدعه يقلب من يدها رغم مقاومته وما يدرى الا والخدام تقودهم الى
حجرة الاستقبال ثم تتركهم وحدهم ! شعر بانهم يعاملون معاملة

« الغرباء » أو « الضيوف » فانقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل يردد في جزع « أين عائشة ؟ . . لماذا تبقى هنا ؟ » فلا يسمع إلا كلمة « هس » وتحذيرا من منعه من الزيارة مرة أخرى اذا علا صوته ! . . ولكنه سرعان ما زأله الألم حين جاءت عائشة مهرولة مشرقة الوجه بابتسامة غطى سناها على أضواء حلتها الزاهية وزينتها الباهرة فجرى نحوها وتعلق بعنقها ، فتبودل التسليم بينها وبين أمها وأختها وهو على ذلك الوضع ! . . بدت عائشة سعيدة كل السعادة بنفسها وبحياتها الجديدة وبزيارة أهلها ، حدثتهم عن زيارات أبيها وياسين وفهمي ، وكيف غلبها الشوق اليهم على خوفها من أبيها فواتها الجراة على ان ترجوه السماح لهم بزيارتها ! . . قالت « لا أدري كيف طاوننى لسانى حتى تكلمت ! . . لعل مظهره الجديد الذى لم يترأى لى به من قبل هو الذى شجعنى » بدا لطيفا ودعيا باسماء ، أى والله باسماء ، على اننى ترددت رغم ذلك طويلا ، خفت ان ينقلب فجأة فينتهزنى ، ثم توكلت على الله ونطقت ! « فسألتها أمها عن رده كيف كان فقالت « قال لى باقتضاب : ان شاء الله ، ثم استطرد مسرعا بلهجة جدية تنم عن تحذير : ولكن لا تظنى السألة لعبا فكل شئ بحساب . فخفق قلبى ورحت أدمو له طويلا توددا واسترضاء ! » ثم رجعت الى الورا قليلا فوصفت حالها عند ما قيل لها « السيد الكبير فى حجرة الاستقبال » قالت « ركضت الى الحمام فغسلت وجهى لأزيل كل اثر للمساحيق حتى تسألى سى خليل عما يدعو الى ذلك كله ولكنى قلت له : ادركنى ، لا أستطيع ان ألقاه بفستان صيفى يكشف عن ذراعى ! . . ولم أبرح موضعى حتى تلفعت بشال كشميرى ! » ثم قالت « ولما علمت نينة . . (ضاحكة) اننى نينة الجديدة . . لما قص عليها سى خليل ما جرى ضحكك وقالت له : انى أعرف السيد أحمد ثمالم المعرفة . . هو هذا واكثر (ثم ملتفتة الى) ولكن اعلمى يا شوشو انك لم تعودى من آل عبد الجواد ، انت الآن شوكتية فلا تبالى الآخرين . . » . أصاب منظرها البهيح وحديثها من نفوسهم موضع الحب والاعجاب فحملق كمال فيها كما فعل فى ليلة الزفاف وتسألى محتجا « لماذا لم تكونى تبدين هكذا وانت فى بيتنا ؟ » فأجابته على الفور ضاحكة « لم أكن وقت ذاك شوكتية » حتى خديجة رمتها بعين الحب ، انقطعت بزواج الفتاة دواعى الملاحاة التى كانت تنشب بينهما بسبب الاختلاط « ومن ناحية أخرى لم يبق من الاحساس بالحنق الذى ركبها عند السماح بزواج الفتاة

قبلها الا اثر باهت حملته « بختها » من دون الفتاة ، فلم يعد ينطوى قلبها الا على الحب والشوق ، لشد ما تفتقدها كلما آنتت من نفسها حاجة الى انيس تفضي اليه بذات نفسها . ثم تحدثت عائشة عن البيت الجديد ، عن المشربية التى تطل على بوابة المتولى ، والمآذن التى تنطق عن قرب ، وتيار السابلة الذى لا ينقطع ، كل شيء حولها يذكرها بالبيت القديم وما يكتنفه من سبل وابنية فلا اختلاف فيما عدا الأسماء وبعض المعالم الثانوية « ولكن على فكرة البوابة العظيمة لا نظير لها عندكم (ثم بشيء من الفتور) وان كان المحمل لا يمر تحتها كما اخبرنى سى خليل ! » وواصلت حديثها « تحت المشربية مباشرة مجلس يضم ثلاثة لا يفارقونه قبل جثوم الليل : شحاذ كسيح وبائع مراكيب وضارب رمل ، أولئك جيراني الجدد ، الا أن ضارب الرمل أسعدهم حظا ، لا تسألوا عن أفواج النساء والرجال الذين يجلسون القرفصاء أمامه مستخبرين عن طوالهم ، كم وددت او كانت مشربيتى أوطأ كيما أسمع ما يقول لهم ، والد منظر منظر سوارس القادمة من الدرب الأحمر اذا تقابلت مع عربة حجارة قادمة من القوية فضاق عنهما مدخل البوابة وركب كل سائق زاسه متحديا الآخر أن يتراجع ليفسح السبيل ، يبدأ الكلام ليأبينا بعض اللين فيحتد ، ثم يخشوشن ، ثم تهذر الحناجر بالسياب والشتائم ، وتجيء في أثناء ذلك عربات كارو وعربات يد فيغص بها الطريق ولا يدرى احد كيف يعود الحال الى ما كان عليه « هنالك أقف وراء الخصاص اكاتم الضحك وأتأمل الوجوه والمناظر » وما أشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم ، حجرة الفرن والمخزن وحمايتها سيدة الفناء والجارية سويدان « لا أجد لى عملا فلا أذكر المطبخ حتى تحمل الى صينية الطعام » وعند ذاك لم تتمالك خديجة نفسها من أن تضحك قائلة « نلت ما طالما تمنيته ! » لم يجد كمال فى الحديث شيئا ذا بال الا أنه أحس فى نغمته العامة بما يوحى « باستقرار » المتحدث فداخله الانزعاج وسألها :

— ألن تعودى إلينا ؟ . .

فملا الججرة صوت يقول :

— لن تعود اليكم ياسى كمال . .

واذا بخليل شوكت يدخل ضاحكا وهو يرفل بجسمه الربعة فى جلباب حرير أبيض . كان ذا وجه بيضاوى مملىء ، أبيض البشرة ، فى عينيه جحوظ خفيف وفى شفثيه غلظة ، أما رأسه الكبير فينتهى بجبين ضيق يفرق عند قمته شعر أسود كثيف يشبه فى لونه وتسريحته

شعر السيد ، تلوح في عينيه نظرة طيبة وخمول لعلها اثر للراحة والفراغ والرضى . انحنى على يد الام ليقبلها فجذبتهما بسرعة في خجل وارتباك وهى تتمتم شاكرة ثم سلم على خديجة وكمال وجلس وكأنه - على حد تعبير كمال فيما بعد - واحد منهم . وانتهر القلام فرصة تشاغل العريس بتحديثهم وتفرس في وجهه طويلا ذاك الوجه الغريب اصلا الذى برز في محيط حياتهم ليحتل مكانا مرموقا يؤهله لأن يكون اقرب الأقرباء أو بالأحرى أن يكون قرينا لوجه عائشة . كلما خطر هذا على باله جر وراءه ذاك كما يجر الأبيض الأسود . تفرس فيه طويلا وهو يردد في نفسه قوله الممنلىء ثقة « لن تعود اليكم يا سى كمال » فوجد نحوه انكارا ونفورا وحقدا كادت تتمكن من قلبه لولا أن قام الرجل فجأة ومضى الى الخارج ثم عاد حاملا صينية فضية ملئت حلوى من مختلف الألوان فقدم له باسم - وان كشف افتراء ثفره عن سنين ركبت احدهما الأخرى - نخبة من أشهى الأصناف . وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة على ذراع رجل استدلوا بمشابهته بخليل على انه اخوه الأكبر ، ثم وكد استدلالهم تقديم الأرملة بقولها « ابراهيم ابنى .. الم تعرفوه بعد ؟ ! » وعند ما لاحظت ارتباك أمينة وخديجة حال التسليم قالت باسم « نحن كالأسرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض الآخر الساعة لأول مرة ... لا بأس .. ! » فظنت أمينة الى أن المرأة تشجعها وتهون عليها الأمر فابتسمت ، ولكن ساورها شئ من القلق وتساءلت ترى هل يوافق السيد على مقابلتهما لهذا الرجل - وان عد عضوا جديدا فى الأسرة كخليل سواء بسواء - بغير تقاب ؟ .. وهل تكاشفه بالمقابلة أو تتحاشى ذكرها ايثارا للسلامة ؟ ..

كان ابراهيم و خليل أشبه بالتوأمين لولا فارق السن ، على ان اختلافهما يدا أقل من القليل بالقياس الى اختلاف عمرهما ، والحق انه لولا قصر شعر رأس ابراهيم ، ولولا شاربته المفتول ، لما كان ثمة ما يميزه عن خليل ، كانه لم يبلغ الأربعين ، أو كان شبابه ومظهره لا يتأثران بمرور الأعوام ، لذلك ذكرت أمينة ما حدثها به السيد مرة عن المرحوم شوكت من أنه « كان يبدو أقل من عمره الحقيقى بعشرين عاما أو يزيد » أو قوله عنه « انه رغم طيبته ونبله كان كالحيوان لا يسمح لفكره أبدا بأن ينغص عليه صفوه ! » ، ليس عجيبا أن يبدو ابراهيم فى الثلاثين مع أنه تزوج فى صدر شبابه وانجب طفلين ثم ماتت زوجته وطفلاه ؟ ! ولكنه مرق من تجربته القاسية سالما لم يمس ، ثم عاود الحياة مع أمه فى خمول ودعة

وفراغ شأن آل شوكت جميعا ، راق خديجة أن تسترق النظر - كلما
أمنت أعين الرقباء - الى الشقيقين ، الى أوجه الشبه العجيبة بينهما ،
بيضاوية الوجه وامتلأته ، جحوظ العينين الواسعتين ، البدانة ، الحمول ،
فحرك كل أولئك السخرية الكامنة في نفسها حتى ضحكت افكارها ومضت
تدخر في ذاكرتها من الصور ما تعود اليه اذا ضمها مجلس القهوة ومالت
جريا على سنتها في التهكم الى العبث والاضحاك ، والى هذا فكرت باهتمام
في اختيار اسم وصفى عياب لهما على مثال الأسماء الوصفية التي تطلقها
على ضحاياها من الناس او بالأحرى أسوة بأسماء التي تطلق عليها « المدفع
الرشاش » لتناثر ربقها عند الحديث . واسترقت مرة نظرة الى ابراهيم
فما راعها الا أن تلتقي عيناها بعينيه الواسعتين وهما تنفرسان في وجهها
باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين فغضت بصرها في حياء وارتابك ،
وتساءلت في خوف المريب عما عسى أن يظنه بنظرها ، ثم وجدت نفسها
تفكر بقلق في منظرها وما يمكن أن يتركه في نفسه من اثر . ترى ايسخر
من أنفها كما سخرت من بدائته وخموله ؟ ! ... واستغرقها التأمل
والقلق ...

سئم كمال الجلسة التي وان تكن جمعته بعائشة الا انها جمعته بها على
نحو ما تجمع بين الضيوف فلم تحقق - عدا ما منحت من حلوى -
شيئا من رغبته ، فانتقل الى جوار العروس وأبدى لها اشارة فهمت منها
انه يريد أن يخلو بها فقامت وأخذته من يده وغادرا الحجرة ، ظنته قائما
بمجالستها في الصالة ولكنه جكبيها من يدها الى حجرة النوم ورد الباب
وراءهما حتى ارتج . انطلقت أساريه ولعت عيناه ، وتطلع اليها طويلا
ثم تصفح الحجرة ركنا . ركنا وهو يتشمم رائحة الأثاث الجديد مازجها
اريج زكى لعله بقية مما انتشر من أيدي المتطعنين وصدورهم ، ثم رنا الى
الفراش الوثير ، الى التمرقتين الورديتين المتجاورتين على الغطاء فوق
الوسائد وسألها « ماهما ؟ » فأجابته « وسادتان صغيرتان » فسألها
« أتوسدينهما ؟ » فقالت باسمه « كلا هما للزينة فقط » فأشار الى
الفراش متسائلا « أين تنامين ؟ » فأجابت باسمه أيضا « في الداخل »
فسألها كأنه متوكد من انه ينام معها « وسى خليل ؟ » فأجابت وهي تقرس
خده برقة « في الخارج . » عند ذلك التفت صوب « الشيزلنج » بغرابة ،
وسار اليه وجلس ، ودعاها الى الجلوس جنبه فجلست ، وما لبث ان
غاب في الذكريات غاضبا بصره ليخفي نظرة مريبة وصمها بالريبة اشتداد
أمه بالحملة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسر اليها بما رأى من ثقب الباب .

- ٢٦١ -

راودته نفسه على أن ييوح لها بسره ، أن يسألها عنه ، تحت ضغط اغراء لا يخلو من قسوة ، ولكن الخجل الناجم عن الشعور بالريبة عقله فشكم وغبته على رغمه ، ثم رفع اليها عينين صافيتين وابتسم اليها ، فابتسمت اليه ومالت نحوه فقبلته ، ثم نهضت قائلة وملء وجهها ابتسامة حلوة :
- لاملأن جيوبك بالشيكلاتة ...

- ٤٤ -

تصايح القلمسان المتجمهرون امام باب البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهللين ، وتميز صوت كمال وهو يهتف « هلت سيارة العروس » ورددها ثلاثا فخرج ياسين - وهو في كامل زينته وأبهته - من بين الجماعة الواقفة عند مدخل الفناء ومضى الى الطريق فوقف امام الباب متجها صوب النحاسين فرأى موكب العروس وهو يتقدم على مهل كأنه يتبختر . في تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة وعلى رغم الاعين المحملقة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت ، بدا ثابتا غير هياب مفعما رجولة وفحولة ، لعل مما أيدته في ثباته احساسه بأنه محط الأنظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين في حال تخجل منها الرجولة ، ولعله أيضا علمه بأن أباه منكمرش في مؤخرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء - التي تضم آل العروسين من الذكور - بحيث لا يمتد اليه عيناه ، فوسعه أن يتمالك نفسه وهو يرنو الى السيارة الموشاة بالورود التي تحمل اليه عروسه بل زوجه منذ أكثر من شهر وان لم تقع عيناه عليها بعد ، أو الأمل الذي صافه بأحلامه الظائمة لسعادة لا تقع بما دون الدوام . وتوقفت السيارة أمام باب البيت على رأس ذيل طويل من السيارات فأخذ أهبطه للاستقبال السعيد وقد استجذت عنده الرغبة في أن يستشف النقاب الحريري ليرى وجه عروسه لأول مرة ، ثم فتح باب السيارة وترجلت جارية سوداء في الأربعين قوية البنية لماعة البشرة نبلاء العينين فاستبدل بما يلوح على حركاتها من الثقة والادلال على انها الجارية التي تقرر الحاقها بخدمة العروس في بيتها الجديد ، تنحلت جانبا ووقفت منتصبية القامة كالديدبان ثم خاطبته بصوت كرنين النحاس وهي تبتسم عن أسنان ناصعة البياض قائلة :
- تفضل خذ عروسك ...

فتقدم ياسين من باب السيارة ومال الى الداخل قليلا فرأى العروس في حلتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف طيب مفتنة للجوارح فتاه في جو الحسن منبهرا ، ومد لها ذراعه لا يكاد يرى شيئا كما يكر بصر طالع نورا ساطعا ، وعقل الحياء العروس فلم تبد حراكا فتطلعت الى الى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة :
- تشجعي يا زينب ...

دخلا جنبا لجنب وهى من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنقها فقطعا الفناء بين صفيين من المنتظرين يتبعهما المدعوات من آلهة اللواتى تعالت زغاريدهن كأنهن لا يبالين السيد أحمد وقيامه على ذراع منهن ، هكذا لعلت الزغاريد في البيت الصامت لأول مرة وعلى مسميع من سيده الجبار ، فلغلها وقعت من آذان أهله موقع الدهشة ، بيد أنها دهشة مزجت بالفرح ولم تخل من شماتة بريئة مريحة روحا بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذى قضى بالا يكون زغاريد ولا غناء ولا لهو وبأن تمضى ليلة زفاف الابن البكر كما تمضى غيرها من الليالى وتبادلت أمينة وخديجة وعائشة النظرات متسائلات باسمات وتكأكان على خصاص نافذة مظلة على الفناء ليشهدن أثر الزغاريد في نفس السيد فرأينه يحدث السيد محمد عفت ضاحكا فتمتمت امينة قائلة : « لن يسهه الليلة الا أن يضحك مهما بيد مما لا يروقه ! » وانتهرت أم حنفي الفرصة السانحة فاندست بين المزغردات كالبرميل واطلقت زغرودة قوية مجلجلة غطت على الزغاريد كلها وعوضت بها ما ضيعت - في ظل الارهاب - من فرص المرح والمسرة على عهد خطبتي عائشة وياسين ، وأقبلت على سيداتها الثلاث وهى تزغرد حتى استقرقن في الضحك ثم قالت لهن « زغردن ولو مرة في العمر .. انه لن يدرى الليلة من المزغرد ! » . رجع ياسين بعد اتصال العروس الى باب الحريم فالتقى بفهمي الذى لاحظ على شفثيه ابتسامة موحية بالحرج والاشفاق اعطها اثر مما خلفته في نفسه هذه الضجة البهيجة « المحرمة » ، وكان يخالس أباه النظر ثم يردده الى وجه أخيه ضاحكا ضحكة مقتضبة مفضوضة ، فما كان من ياسين الا أن قال له بلهجة ، لا تغلظ من استياء :

- اى استنكار في أن نحى ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد ؟! .. وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عائلة أو مغن ؟!
تلك كانت رغبة الأسرة التى لم تجد الى الافصاح عنها من نسييل الا ان تعرض ياسين على الاستشفاع بالسيد محمد عفت على أبيه ، ولكن

السيد اعتذر وأبى إلا أن تكون ليلة زفاف صامتة وإن تقتصر مسراتها على العشاء الفاخر . وعاد ياسين يقول آسفا :

— لن أجد من ترفنى في هذه الليلة التي لن تتكرر أبد الدهر ! ... سأدخل حجرة العرس غير مشيع بالأناشيد والدفوف كأننى راقص يهز جذعه دون إيقاع ..

ثم لاحظ في عينه ابتسامة مرحة ماكرة فقال :

— الذى لا شك فيه أن أبانا لا يطيق « العوالم » إلا في بيوتهم !

مكث كمال في الدور الأعلى الذى أعد لجلوس المدعوين ساعة ثم نزل باحثا عن ياسين في الدور الأول الذى هبى لاستقبال المدعوين ولكنه وجده في فناء البيت يتفقد المطبخ المتنقل الذى أقامه الطاهى فأقبل نحوه مسرورا ادلالا بأداء المهمة التي عهد بها اليه وقال له :

— فعلت كما أمرتنى فتبعت العروس حتى حجرتها وتفحصتها بعد أن حسرت النقاب عن وجهها ..

فالتحى به جانبا وهو يسأله باسمها :

— هه ؟ .. كيف عودها ؟

— في عود أبله خديجة ..

ضاحكا ..

— في هذه الناحية لا بأس ؟ .. أتعجبك كعائشة ؟

— كلا .. أبله عائشة أجمل كثيرا ! ..

— يخرب بيتك أمريد أن تقول انها كخديجة ؟

— كلا انها أجمل من أبله خديجة ..

— كثيرا ؟ !

فهز رأسه مفكرا فسأله الشاب بلهفة :

— حدثنى عما أعجبك فيها ؟ ..

— أنفها صغير كأنف نينة .. وعيناها كعيني نينة أيضا !

— ثم ؟ ..

— لونها أبيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة جدا ..

— نحمده .. ربنا يبشرك بخير ..

وخيل اليه أن الفلام يقالب رغبة في معاودة الكلام فسأله في شيء من القلق :

— هات ما عندك ولا تخف !

فقال كمال وهو يغض بصره :

— رأيتها تخرج مندبلا ثم .. تتمخط !
والتوت شفتاه تغززا كأنما كبر عليه أن تند تلك الفعلة عن عروس في
ريق فتنتها فما تمالك ياسين أن ضحك قائلا :

— لحد هنا عال ، ربنا يجعل العواقب سليمة !

لقى نظرة كئيبة على الفناء الخالي الا من الطاهى وصبيانه ؟ وبعض
الأولاد والبنات فتخيل ما كان ينبغي أن يوجد من معالم الزينة وسرادق
الطرب ومجلس المدعويين ، من قضي بهذا ؟ .. أبوه ! .. الرجل الذي
يفوح عرقه بالمجون والعريضة والطرب .. اعجب به من رجل يحل
لنفسه اللهو الحرام ويحرم على بيته اللهو الحلال . وراح يتخيل مجلس
السيّد كما رآه في حجرة زبيدة بين الكأس والعود فما يدرى الا وقد
وثبت الى ذهنه فكرة غريبة لم تخطر له من قبل على شدة وضوحها فيما رأى ؛
تلك هي التشابه بين طبيعتي أبيه وأمه ! طبيعة واحدة في شهوانيتها وجريها
وراء اللذة في استهتار لا يقيم وزنا للتقاليد ، ولعل أمه لو كانت رجلا لما قصرت
عن أبيه في اللهج بالشراب والطرب أيضا ! لذلك انقطع ما بينهما — أبيه وأمه —
سريعا ، فما كان لثله أن يطبق مثلها وما كان لثله أن تطبق مثله ، بل ما كانت
الحياة الزوجية تستقيم له لولا وقوعه على زوجته الراهنة ! . ثم ضاحكا
ضحكة لم يتح لها روعه من هذه « الفكرة الغريبة » روحا من السرور
« عرفت الآن من أكون ، لست الا ابن هذين الشهوانيين ، وما كان لي أن
أكون غير ما كنت ! » . في اللحظة التالية تسأل ترى ألم يخطئه الصواب
عند اغفال دعوة أمه الى زفافه ؟ ! تسأل رغم اصراره على الاعتقاد بأنه لم
يتنكب عن الصواب ، لعل أباه رام اراحة ضميره حينما قال له قبل ليلة
الزفاف بعدة ليال « أرى أن تبلغ أمك ، ولك أن شئت أن تدعوها الى
شهود زفافك » ذاك قوله بلسانه لا بقلبه فيما يعتقد ، فما يتصور أن
يرضى أبوه له بأن يذهب الى حيث يقيم ذلك الرجل الحقير الذي اتخذته
أمه زوجا لها من بعد أزواج كثيرين ، وأن يتودد اليها على مرأى منه بأن
يدعوها الى شهود زفافه ، لا كان الزفاف ، ولا كانت أي سعادة في هذه
الدنيا أن حملته يوما على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة .. تلك
القضيحة .. تلك الذكرى المخزية ! وما كان منه الا أن أجاب أباه وقتذاك
قائلا : « لو كان لي أم حقا لكانت أول من ادعو الى زفافي ! » . انثيه فجأة
الى الأولاد والبنات وهم يرون اليه ويتهايمسون فخص البنات بنظرة
وسألهن بصوت جهورى ضاحك « هل تحلمن بالزواج من الآن يا بنات ؟ »
واتجه نحو باب الحريم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأمس « اياك

وان تستسلم غدا للحياء بين المدعوين والا عرفوا الحقيقة المرة وهى ان اباك الذى زوجك ونقد مهرك وجملة تكاليف ليلتك ، ولكن تحرك بلا توقف ، تنقل بين حجرات المدعوين ، ضاحك هذا وكلم ذاك ، اطلع وانزل ، تفقد المطبخ ، اهتف وازعق ، اهلك توهم الناس بانك حقاً رجل الليلة وسيدها ! » فمضى ضاحكا وفى نيته ان يمثل النصيحة الساخرة فخطر بين المدعوين بجسمه الطويل الجسيم فى اناقة بدعة ووسامة جذابة وشباب ريق ، ذهب وجاء ، ونزل وطلع ، وان لم يفعل شيئا ، بيد ان الحركة نفخت عن نفسه طوارئ الفكر فصفت نفسه لمفاتيح الليلة . لما خطرت العروس على قلبه سرت فى بدنه قشعريرة بهيمية ، ثم ذكر آخر ليلة قضاه عند زنوبة العوادة منذ شهر ، كيف أنبأها بزواجه الوشيك وهو يودعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الغيظ « يابن الكلب ! .. كتمت الخبر حتى نلت وطرك ! .. (المركب اللى تودى أحسن من اللى تجيب ، .. مع الف شبشب يابن المركوب » ، لم تعد لزنوبة من اثر فى نفسه ، ولا لغيرها ، أسدل الستار على هذا الجانب من حياته الى الأبد ، ربما عاود الشراب فما يظن أن تموت رغبته فيه ، أما النساء فلم يتصور ان تزغ عيناه الى امرأة عابرة وبين يديه حسناء طوع بنانه ، عروسه لذة متجددة . رى للظلم الوحش الذى طالما قلقل كيانه ، ثم راح يمثل حياته المقبلة ، الليلة ، والليالى الآتيات ، الشهر والعام فالعمر كله ، ووجهه يسطع بهجة ناطقة لحظها فهمى بعين مليئة بحب الاستطلاع والغبطة الهادئة وغير قليل من الأسى . وجاء كمال الذى كان يتراءى فى أى مكان فجأة وخاطب ياسين والبشر يتألق فى وجهه قائلا :

— الطاهى قال لى ان الحلوى تزيد على حاجة المدعوين والمدعوات وانه

سيبقى منها مقدار وفير ...

زاد مجلس القهوة وجهها جديدا بانضمام زينب اليه ، وجهها زكا بريق الشباب وفرحة العرس ، وفيما عدا هذا ، وفيما عدا فرش الحجرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين في الدور الأعلى بجهاز العروس ، فلم يحدث زواج ياسين تغيرا يذكر في النظام العام البيت سواء من الناحية السياسية التي ظلت خاضعة بكل معاني الكلمة لسلطان السيد وارااداته أو من الناحية الادارية الداخلية التي ظلت وحدة تابعة لهيمنة الأم كما كان الحال قبل الزواج . التغير الجوهرى حقا كان الذى طرأ على النفوس ودار مع الخواطر فدقت رؤيته على الحواس ، اذ لم يكن من اليسير ان تشغل زينب مكانة الزوجة لابن البكر وأن يجمعهما ببقية أفراد الأسرة بيت واحد من دون أن يطرأ على العواطف والمشاعر تطور ذو شأن . رمقتها الأم بنظرة امتزج فيها الرجاء بالحذر ، هذه الفتاة التي قضى عليها بأن تعاشرها دهرا طويلا ربما امتد حتى نهاية العمر ، اى انسان تكون ؟ .. ماذا تخبئ وراء ابتسامتها الرقيقة ؟ .. بالجملة استقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنا جديدا فيؤمله ويصادره ، اما خديجة فعلى رغم البجالات التي تبودلت بينهما جعلت تسدد نحوها عينين نافذتين مفطورتين على السخرية وسوء الظن ، منقبعة عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها الى البيت وفوزها بالزواج من أخيها الا ضيقا خفيا ، فلما اعتكفت الفتاة في حجراتها الايام الاولى من الزواج ساءت خديجة أمها وهما في حجرة القرن « ترى هل حجرة القرن مكان غير لائق « بها » ؟ » ومع أن الأم وجدت في تهجمها ترويحاً عن حيرة ظنونها الا انها اتخذت موقف الدفاع عن الفتاة واجابتها قائلة « صبرك ، لم نزل عروسا في بدء عهدنا الجديد ! » فتساءلت الأخرى بلهجة تشى بالاستنكار « ومن ذا الذى قضى بأن تكون خدما للعرائس !! » فسألتها أمها وكأنما تطرح السؤال على نفسها هي « أتفضلين أن تستقل بمطبخها ؟ » فهتفت خديجة معترضة « لو كان المال مال أبيها لا مال أبى لجاز هذا ! .. ولكنى اعنى أنها يجب أن تعمل معنا » على أنه لما قررت زينب ، بعد انقضاء اسبوع على الزواج ، أن تحمل بعض الأعباء في حجرة القرن لم يرحب قلب خديجة بهذه الخطوة التعاونية ومضت تلاحظ عمل العروس بدقة انتقادية وتقول لأمها : « لم تجيء لتعاونك

ولكن لتمارس ما لعلها تدعيه لنفسها من حق . « أو تقول ساخرة
 « طالما سمعنا عن آل عفت أنهم من الصفوة وأنهم يأكلون ما لا يأكل
 الناس . . فهل وجدت في طهيها شيئا عجيبا لم نسمع به ؟! » بيد أن
 زينب اقترحت يوما أن تصنع « الشركسية » باعتبارها الصنف
 الأثير على مائدة أبيها - وهى المرة الأولى للدخول الشركسية في بيت
 السيد - فحازت لدى تناولها إعجابا شاملا بلغ أقصاه عند ياسين
 حتى أن الأم نفسها لم تبرا من لسعة غيرة أما بخديجة فجن جنونها
 وجعلت تهزأ بالصنف قائلة « قالوا شركسية قلنا يعيش المعلم يتعلم
 ولكن لماذا رايينا ؟ . . أرزا وصلصة في هيئة بوليتيكا ، طعمها لا هنا
 ولا هناك . . كالعروس تزف الى عريسها في حلة خلابة وحلى لالاء حتى
 اذا ما نزعنا عنها ثياب العرس بدت فتاة عادية من نفس الخلطة المعروفة
 من قبل أى اللحم والعظم والدم ! » ثم ما كاد يمضى على الزواج اسبوعان
 حتى قالت على مسمع من أمها وفهمى وكمال أن العروس وان كانت
 بيضاء البشرة وذات حظ « معتدل » من الجمال الا أن دمها ثقيل
 كالشركسية سواء بسواء قالت هذا في نفس الوقت الذى اكبت فيه
 على استظهار دقائق صنع الشركسية بحلقها المعترف به ! على أن ثمة
 أحاديث صدرت عن زينب بحسن نية - فى الأقل لأن وقت سوء النية
 لم يثن بعد - فاثارت الخواطر وألقت عليها ظلا من الشك اذ طاب لها
 كلما تهيات مناسبة أن تنوه بأصلها التركى وان التزمت الأدب واللفظ
 كما لد لها أن تروى لهم بعض ما شاهدت من رحلات في حانطور والدها
 وبضحيته الى الملاحى البريئة والحداثق فوق حديث كله من نفس الأم
 موقعا أدهشها الى حد الانزعاج ، عجبت لتلك الحياة التى تسمع عنها
 لأول مرة ، وانكرتها ، واستنكرت فيما بينها وبين نفسها هذه الحرية
 الغربية استنكارا جاوز كل تقدير ، الى أن المباشرة بالأصل التركى -
 وان لطفت بالأدب والبراءة - ساءتها كثيرا لانها كانت - على تخشعها
 وانطوائها - شديدة الاعتزاز بأبيها وبعلمها فترى أنها بهما فى مكانة
 لا تدانى ، الا انها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منها الا اهتمام
 الاصغاء وابتساماة المجاملة ، ولولا حرص الأم الشديد على السلام
 لانفجرت خديجة حنقا ولساءت العاقبة ، على أنها نفتت عن غيظها
 بطرق ملتوية ليس من شأنها أن تعكر صفو السلام كتعليقها على أنباء
 الرحلات مثلا - وهى التى لم يسمعها أن تجهر فيها برأيها - بالمبالغة
 في اظهار الدهشة ، أو بالهتاف وهى تحملق فى وجه محدثتها « يا خبر ! » ،

أو بأن تضرب براحتها على صدرها وهي تقول : « ويراك السابلة وأنت تمشين في الحديقة ! » ، أو بقولها : « ما كنت أتصور مكان هذا يا ربى ! » وغير ذلك من العبارات التي وإن لم تفصح الفاظها عن أساءة إلا أن لهجتها المطوطة التمثيلية تضمنت أكثر من معنى كلهجسة الزجر التي يصطنعها الأب وهو يتلو القرآن مصليا إذا ما آنس من ابنه غير البعيد عنه أخلاقا بالنظام أو الأدب وعز عليه زجره صراحة أن يخرج من الصلاة ، لذلك لم تكن تخلو إلى ياسين حتى تبادره مروحة عن غيظها الذي عز عليه النفس « يا سلام يا سلام على عروسك النزهية ! » فيقول لها ضاحكا « هذه هي الموضة التركية التي تسمو على ادراكك ! » فتذكرها صفة « التركية » بالمباهة الثقيلة على قلبها فتقول « على فكرة ، ست الدار تباهي كثيرا بأصلها التركي ، لماذا ؟ . . لأن جد جد جد جد جدها تركي ! ، حذار يا أخى فان خاتمة التركيات الجنون » ولكنه يقول لها مجاريا سخريتها « الجنون أحب إلى من وجه انفه يجنن ذا الدوق السليم ! » . تراءى لأعين المتنبئين النقرار المتوقع بين خديجة وزينب في أفق الأسرة فنبهها فهمى إلى ضبط لسانها أن يبلغ الفتاة شيء من هديرها ، وأشار محلدا إشارة خفية إلى كمال الذي داب على التنقل بينهم وبين العروس تنقل الفراشة - حاملة اللقاح - بين الأزهار . . . ولكن غاب عنه - كما غاب من الأسرة جميعا - أن القدر كان يعمل من جانبه على الحيلولة بين الفتاتين ، إذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يحلم أحد من قبل بأن تتوج بالنهاية التي توجت بها ، قالت المعجوز تخاطب الأم على مسمع من خديجة :

- يا أمينة هانم جئتك اليوم خاصة لأخطب خديجة لابنى إبراهيم . . فرحة بلا تمهيد وإن طال انتظارها حتى شق ، فلذلك سجع صوت المرأة في أذنى الأم سجعا جميلا حتى أنها لم تذكر أن قولاً - قبله - بل صدرها بندى الطمانينة والسلام كما بله فكاد ينتخفها الفرح وهي تقول بصوت متهدج :

- ليس لى فى خديجة أكثر مما لك ، هى ابنتك ولتجندن فى حمالك
اضعاف ما تجدى فى بيت أبيها من السعادة . .

استرسل الحديث السعيد إلا أن خديجة جعلت تغيب عنه فيما يشبه الدهول ، خففت عينها في حياء وارتياس وقد زابتها روح السخرية التي طالما توهجت في حدقتها ، فشملتها وداعة غير معهودة . ثم جرت مع تيار خواطرها . جاء الطلب مفاجأة ، وأى مفاجأة ، فكما بدا عسيرا

في غيابه بدا غير مصدق في حدوثه حتى لقد غشيت فرحتها بموجة ثقيلة من الذهول .. « لأخطب خديجة لابنى ابراهيم » .. ماذا دهاه ؟ .. انه على خموله الذى اثار هزءها حسن المحيا وجيهه في الرجال . فماذا دهاه ؟ ! ..

- ومن حسن الطالع أن يجمع بين الأختين في بيت واحد .
'صوت حرم المرحوم شوكت يؤكد الحقيقة ويزكى وجوها .. ليس ثمة شك .. ابراهيم مثل خليل مالا وجاها فإى حظ ادخرته لها الأقدار .
لشد ما أسفت على أن عائشة سبقتها الى الزواج اذ لم تكن تدري أن زواج عائشة هو الذى قدر له أن يفتح لها ابواب الحظ المغلقة ..
- ما أجمل أن تكون السلفة هى الشقيقة فيزول سبب جوهرى من أسباب وجع الدماغ فى الأسر (ثم ضاحكة) فلا تبقى الا حمايتها واظن أمرها هينا .. !

- أن تكن سلفتها هى شقيقتها فحمايتها هى أمها بلا نقصان ...
لم تزل الأمان تتجاملان ، لقد أحبت العجوز وهى تزف اليها البشرى بقدر ما أبغضتها يوم خطبت عائشة ! . يجب أن تعلم مريم بالخبر اليوم ، لا تطيق أن تؤجله الى الغد ، لا تدري ما الدافع الى هذه الرغبة الملحة ؛ لعله قول مريم لها غداة خطبت عائشة « ماذا كان عليهم لو انهم انتظروا حتى تتم خطبتك أنت ! » فأغراها وقتلها سوء ظنها المطبوع باتهام براءته الظاهرة . ولما انصرفت اسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرش والدعابة :

- الحق انى مد رأيت ابراهيم شوكت قلت لنفسى ما أجدر هذا الرجل الثور الذى لا يبدو أنه يفرق بين الأبيض والأسود أن يقع اختياره يوما على زوجة مثل خديجة ..

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمة فهتف بدهوة :
- هل عرفت الأدب والحياء أخيراً !

بيد أن وجهه نطق وهو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يعكر صفوهم الا حين تساءل كمال فى قلق :

- اتركنا خديجة ايضا ؟

فقالت الأم تعزيه وتعزى نفسها :

- ليست السكرية بعيدة ..

على أن كمال لم يستطع أن يدلى بما عنده فى حرية كاملة الا حين

انفرد بأمة ليلا فترجم قبالتها على الكنية وسألها بصوت ينم عن الاحتجاج والموم :

— ماذا جرى لعقلك يا نينة ؟ .. انفرطين في خديجة كما فرطت في عائشة ؟

فأفهمته انها لم تفرط فيهما ولكنها ترضى بما يسعهما . فقال محذرا كأنما ينبهاها الى شيء فاتها ويوشك أن يفوتها مرة أخرى :

— ستذهب هي الأخرى ، ربما ظننت أنها ستعود كما ظننت بعائشة ، ولكنها ان تعود ، وستزورك اذا زارتك كالضييفة فما ان تشرب القهوة حتى تقول لك السلام عليكم ، انى أقولها في صراحة انها ان تعود .. ثم محذرا وواعظا في آن :

— ستجدين نفسك وحده بلا رفيق ، من يعينك على الكنس والتنفيض ؟ ... من يعينك في حجرة الفرن ؟ من يجالسنا في جلسة المساء ؟ .. من يضحكنا ؟ .. لن تجدى الا أم حنفي التي سيخلو لها الميدان لسرقة طعامنا كله ..

فأفهمته مرة أخرى أن السعادة لن تكون بلا ثمن فقال محتجا :

— ومن ادراك أن في الزواج سعادة ؟! .. أوكد لك انه لا سعادة مطلقا في الزواج ، كيف يحظى أحد بالسعادة بعيدا عن نينة !
ومردفا بحماس :

— ثم انها لا ترغب في الزواج كما لم ترغب فيه عائشة من قبل .. لقد صارحتاني بذلك ذات ليلة في فراشهما .. !
ولكنها قالت له انه لا بد للفتاة من أن تتزوج ، فلم يتمالك من أن يقول :

— من قال بأنه لا بد للفتاة من أن تذهب الى بيوت الغرباء !
ثم ماذا تفعلين لو اجلسها الآخر على الشيزلنج وتناول ذقنها هي الأخرى و ...

عند ذاك زجرته وأمرته بالا يتكلم فيما لا يعنيه فضرب كفا بكف وهو يقول مندرا :

— انت حرة .. وسترين !

في تلك الليلة لم يغمض لأمينة من يقظة الفرح جفن كأنها السماء المقمرة لا تنفثها الظلماء ، فظلت مستيقظة حتى جاء السيد بعد منتصف الليل ، ثم زفت اليه البشري فتلقاها بهبطة أطارت من رأسه

الخمير بالرغم مما في هذا الرأس من نظريات غريبة عن زواج البنات ؛
الا أنه تجهم بقتة منسائلا :

- هل أتيح لابراهيم أن يراها ؟!

ساءلت المرأة نفسها الا يمكن أن يدوم ابتهاجه - ونادرا ما يعلنه -
اكثر من نصف دقيقة ؟ .. وتمت في قلق :

- أمه ..

فقطاعها محتدا :

- لا أسأل عن أمه ، هل أتيح له أن يراها ؟

فكانت وقد ولى عنها السرور لأول مرة في تلك الليلة :

- دخل علينا مرة في شقة عائشة باعتباره فردا من الأسرة فلم أر في
ذلك من بأس ..

فتساءل مزجرا

- ولكنى لم أعلم بذلك ..

كل شيء ينذر بالشر ، ترى هل يهوى على مستقبل الفتاة بضربة
قاضية ؟ .. على رغمها أغرورقت عينها بالدمع وما تدري الا وهى
تقول مستهينة بغضبته المكفهرة :

- سيدى ، حياة خديجة ودیعة بين يديك ، هيات أن يتسم إياها
الحظ مرتين ..

فرماها بنظرة قاسية وراح يهدر مدمدا مهينما مهمهما كأنما رده
الغضب الى حالة من حالات التعبير بالأصوات التى مر بها أسلافه
الأولون ، ولكنه لم يزد على ذاك شيئا ، لعله أضمر الموافقة من أول الأمر
ولكنه أبى أن يسلم بها قبل أن يسجل سخطه كالسياسى الذى يهاجم
خصله - وان اقتنع بالغاية التى يستهدفها - ذودا عن مبادئه ..

- ٢٧٢ -

- ٤٦ -

مضى شهر العسل وباسين متفرغ بكليته لحياته الزوجية الجديدة ، لا يصرفه عنها عمل في النهار حيث وافق زواجه أواسط العطلة الصيفية ، ولا سهر بالليل خارج البيت لأنه لم يكن يغادره الا للضرورة القصوى كابتياح زجاجة كونيالك مثلا ، وفيما عدا هذا فلم يجد لنفسه عملا أو معنى أو صفة خارج نطاق الزوجية فاندلق عليها بقوة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظن أنه ينفذ الخطوات الأولى من برنامج ضخم من المتعة الجسدية سيمتد يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام . ولكنه أدرك في الثالث الأخير من الشهر أن تفاؤله لا بد وأن يكون مبالغا فيه على نحو ما أو أن خلا لا يدري كنهه قد طرا على حياته ، كان يعاني في حيرة بالغة ولأول مرة في حياته ذاك المرض المتوطن في نفس الإنسان الملل . لم يعرفه من قبل عند زنوبة ولا حتى عند بائعة الدوم لأنه لم يملك هذه أو تلك كما يملك زينب الآن يمينه ويحضرها تحت سقف بيته ، فأى فتور يبخر من هذه « الملكية » الأمانة المطمئنة . . الملكية ذات الظاهر الخلاب المغري للدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحد اللامبالاة أو التقزز كأنها الشيكولاته المزيقة التي تهدي في أول إبريل بقشرة من الحلوى وحشو من الثوم ، وإى مأساة في أن تندمج نشوة القلب والجسد في آلية العادة المنظمة العاقلة الباردة المتكررة القاتلة للشعور والجدة كأنها رؤية روحانية رفيقة تجسدت في صلاة لفظية ترددها الذاكرة بلا وعى . . وراح الفتى يتسائل عما دهى ثورته ، عما هدى شياطينه ، عن ذاك الشبح وأين جاء ، عن تلك الفتنة أين ذهبت ، أين ياسين وأين زينب ، أين الأحلام ، أهذا شأن الزواج الم شأنه هو ، وكيف إذا تنابعت الشهور في أعقاب الشهور . . ليس أنه لم يعد له من رغبة فيها ، ولكنها لم تعد رغبة الصائم في الذيد الماكل ، هاله أن يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار ، وضاعف من حيرته أنه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض رد الفعل أو بالأحرى أنها تزيد حيوية ورغبة فحينما يظن أن الثوم بات واجبا بعد طول التعب لا يدري الا وساقها تطرح على ساقه كأنما طرحت عفوا حتى قال لنفسه « يا عجبا . . أحلامي عن الزواج تحققت عندها هي ! » . الى هذا كله وجد في عناقها نوما من الاحتشام وإن طاب له أول الأمر أنه جعله

يهيم آخرها في وديان الذكريات التي ظن انه ودعها الى الابد . طفت على راسه من الاعماق « زنوبة » وأخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشر بببت فالحق انه مرق الى عش الزوجية عامر القلب بالنية الحسنة ، ولكن للموازنة والمقارنة والتأمل ، وليقتنع أخيرا بأن « العروس » ليست المفتاح السحري لدنيا المرأة ، ليس يدري كيف يخلص حقا للنوايا الحسنة التي فرش بها طريق الزواج . يبدو جانب - على الأقل - من أحلامه الساذجة عسير التحقيق وهو ظنه بأنه سيستغنى بأحضان زوجه عن العالم الخارجي ، وأنه سيلبد بكنفها العمر كله ، ذاك حلم من أحلام الشهوة في سداجتها ، وسيجد من الآن فصاعدا أن الانقطاع عن عالمه وعاداته مما يشق عليه وليس ثمة ضرورة تدعو اليه ، وأنه ينبغي أن يتلمس وسيلة أو أخرى - الوقت بعد الوقت - ليحجم الهرب من نفسه وأفكاره وخيبته ، حتى المني الجيد . اذا اطل في تقاسيم الليالي انبعث في نفس السامع الشوق الى الدخول في الدور ، ثم أنه في الانطلاق من محبسه فرصة للاختلاط بالأصحاب المتزوجين لعله يظفر عندهم بأجوبة مسكنة للأسئلة الحيرة التي تلح عليه ، ولن يتأتى له من وراء ذلك الدواء الشافي اكل داء .. وكيف يؤمن بعد اليوم بوجود دواء شاف لكل داء .! .. يحسن به من الآن الا يرسم برامج بعيدة المدى . لا يلبث ان تنهار ساخرة من قدرته على التخيل . ليقتنع من تنسيق حياته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى أين يرسو ، وليبدأ بتنفيذ اقتراح اقترحته هي - زوجه - عليه بأن يخرجامعا . ما تدري الأسرة ذات مساء الا وياسين وزوجه يغادران البيت من دون أن يطلعا أحدا على مقصدهما بالرغم من أنهما قضيا معهم سهرة المساء . بدا الخروج بالنظر الى وقته المتأخر من ناحية والى وقوعه في بيت السيد من ناحية أخرى حادثا غريبا أثار شتى الظنون فما عمت خديجة أن استدعت نور جارية العروس وسألتهما عما تعلم عن خروج سيدتها فأجابت الجارية بصوتها الرنان في بساطة متناهية :

- ذهب يا ستي الى كشكش بك ..

فهمت خديجة وأما في نفس واحد :

- كشكش بك :

ليس الاسم غريبا عليهم ، اقتحم ذكره الدور وتغنى بأغانيه كل من هب ودب ولكنه على ذلك يبدو بعيدا كأبطال الخرافات أو كزبلن البليس السماء . أن يذهب ياسين بزوجه اليه أمر مختلف جدا ليس دونه ان يقال

ذهبا الى محكمة الجنانات . رددت الأم عينيها بين خديجة وفهمى
وتساءلت فيما يشبه الخوف :

- متى يعودان ؟

فأجابها فهمى وابتسامة لا معنى لها تفغم على شفثيه :

- بعد منتصف الليل ، وربما قبيل الفجر ...

صرفت الأم الجارية وانتظرت حتى غاب وقع أقدامها ثم قالت في
لهوكة وانفعال :

- ماذا دهى ياسين ؟! كان جالسا بيننا في كامل عقله .. الم يعد
يعمل حسابا لأبيه ؟

فقالت خديجة في حنق :

- ياسين أعقل من أن يدبر رحلة كهذه ، ليست قلة العقل عيبه
ولسكن به خسوع لا يليق بالرجال ، أقطع ذراعي ان لم تكن هي التي
حرضته ...

فقال فهمى مافوعا برغبة في تلطيف الجو المتوتر وان نفر بطبعه
الموروث من جراءة اخيه :

- ياسين ذو ميل قديم الى الملاحى ...

فضاعف دفاعه من حنق خديجة التى اندفعت قائلة :

- لسنا بصدد الحديث عن ياسين وميوله ، له أن يحب الملاحى كما يحبو
له ، أو أن يواصل السهر فى الخارج حتى مطلع الفجر كلما شاء ، ولكن
اصطحاب زوجه المصون معه فكرة لا يمكن أن تصدر عن ذاته فلعلها
جاءته عن ايحاء عجز عن مقاومته خصوصا وأنه يبدو مستكينا بين
يديها كالقطة الاليفة ، ثم انها فيما أرى لا تتورع عن رغبة كهذه انم
تسمعها وهى تروى قصص الرحلات التى شاهدها بصحبة والدها ؟!
لولا اياها ما أخاها معه الى كشكش بك - ياللفضيحة ! - فى هذه
الأيام السود التى ينجر فيها الرجال فى البيوت كالفيران رعبا من
الاستراليين ...

لم يقف التعليق على الحادث عند حد لمسا اثاره فى النفوس - سواء
المهاجمة أو المدافعة أو المحايدة - من امتعاض ، كمال وحده تابع
النقاش المحتدم فى صمت يقظ من دون أن يفتن الى الإسر الذى جعل
من كشكش بك جريمة تكراء استوجبت ذاك النقاش كله وذاك التروى
كله ، ليس كشكش هذا صاحب التمثال الصغير الذى يباع فى الأسواق
بجسم متوثب فى دعابة ووجه ضاحك ذي لحية عريضة وجبة فضفاضة

وعمامة مقلوطة ؟. أليس هو من تنسب اليه الأغاني المرحية التي استظهر بعضها منها ينشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوي وكيل أبيه ؟. . . فبأى شر يتهمون هذه الشخصية اللطيفة التي ارتبطت في خياله بانفكاهة والمرح ؟ . . لعل مطرد هذا الكدر الى اصطحاب ياسين لزوجه لا الى كشكش بك نفسه ، فان كان ذلك كذلك فهو يتفق معهم في الانزعاج من جرأة ياسين ، خصوصا وان زيارة امه للحسين وما أعقبها من أحداث لا يمكن أن تترج مخيلته ، أجل كان الأجدر بياسين أن يذهب وحده أو أن يأخذه « هو » ان كان يريد رفيقا لا سيما وانه في عطلة الصيف فضلا عن نجاحه المتفوق في المدرسة ، وما يدرى الا وهو يقول متأثرا بأفكاره :

— ألم يكن الأفضل أن يأخذني أنا . . . !

اندس تساؤله في الحديث كما تندس نعمة غريبة مقتبسة في لحن سرفي صميم ، فقالت خديجة :

— من الآن فصاعدا يحق علينا ان نعدرك على قلة عقلك . . . !

فندت عن فهمي ضحكة قائلا :

— ابن الوز عوام . . .

بيد أن المثل رن في أذنيه رنيناً جافيا وكد أثره السيئ تحديق امه وخديجة في عينيه باستغراب فانتبه الى خطئه غير المقصود وتداركه قائلا وقد دخله امتعاض وخجل :

— اخو الوز عوام !. . . هذا ما قصدت اقله . . .

دل الحديث في جملة على تحامل خديجة على زينب من ناحية . وخوف الأم من العواقب من ناحية أخرى ، بيد ان أمينة لم تعلن ما في نفسها كله . في تلك الليلة عرفت في نفسها أمورا لم تكن تعرفها من قبل . أجل كثيرا ما وجدت نحو زينب انكارا وضيقا ولكنه لم يبلغ أن يكون نفورا او كراهية فعزته الى خيلاء الفتاة بداع وبغير داع ، ولكن هالها اليوم ان تخرق الآداب والتقاليد ، وان تحل لنفسها مالا يحل — في نظرها هي — الا للرجال ، عابت هذا السلوك بين امرأة قضت عمرها حبيسة وراء الجدران ، امرأة دفعت صحتها وسلامتها ثمنا لزيارة بريئة لزين آل البيت لا لكشكش بك ، فمازج انتقادها الصامت شعور طافح بالمرارة والفيظ وكأن منطقها غدا يردد فيما بينها وبين نفسها « اما أن تنال الأخرى الجزاء او فلتذهب الحياة هباء » . هكذا تلوث بالحنق والموجدة — في الشهر الأول من معاشرته لامرأة حديدة — القلب الطاهر الورع الذي لم يعرف

طوال حياته المحفوفة بالجد والصرامة والتعب الا الطاعة والعفو والصفاء .
ولما آوت الى حجرتها لم تذرن ان كانت تود - كما دعت بلسانها امام ابنائها -
ان يستير الله على « جنابة » ياسين ام انها ترجو ان ينال او بالأحرى
ان تنال زوجه جزاءها من الزجر والتأديب ؟ ، بدت تلك الليلة وكأنها لا
يعنيها من أمر الدنيا جميعا الا ان تصان تقاليد الاسرة من كل عبث وأن
يدفع عنها ما يتحرش بها من عدوان ، بدت غيورا على الآداب الى حد
القسوة فطمرت عواطفها الرقيقة المألوفة في الأعماق باسم الاخلاص
والفضيلة والدين متعلقة بها فرارا من ضميرها المتألم كالحلم الذى ينفس
عن غرائز مكبوتة باسم الحرية او غيرها من المبادئ السامية . جاء السيد
وهى على تلك الحال من التصميم الا ان منظره بث الخوف فى حناياها
فانقصد لسانها ، راحت تتابع حديثه وتجب على أسئلته بذهن شارد
وفؤاد خافق لا تدرى كيف تنفس عما احتدم بخاطرهما ، وكلمتا مر الوقت
واقترب ميعاد النوم النحت عليها رغبة عصبية فى الكلام ، كم ودت لو
تتكشف الحقيقة بنفسها كأن يجيء ياسين وزوجه مثلا قبل اخلاص أبيه
الى النوم فيتنبه السيد بنفسه الى فعلته النكراء فيجبه العروس الرعاء
برأيه فى سلوكها بغير تدخل منها هى - الام - لاشك انه يحزنها بقدر ما
يريحها .. انتظرت طويلا فى لهفة وقلق ان يطرُق الباب الكبير ، انتظرت
دقيقة بعد أخرى حتى ثأب السيد وقال لها بصوت متراخ :

- اطفئى المصباح ...

حاجت بها الهزيمة فانحلت عقدة لسانها فقالت بصوت خافت مضطرب
كانها تناجى نفسها :

- تأخر الوقت ولما يعد ياسين وزوجه !

فحملق السيد فى وجهها وتساءل فى عجب :

- وزوجه ؟ .. أين ذهباً ؟

ازدردت المرأة ريقها وقد ركبها الخوف ، من السيد ونفسها معا ، ولكن
لم تجد بدا من ان تقول :

- سمعت الجارية تقول انهما ذهبا الى كشكش بك !

- كشكش !

عزف الصوت عاليا فى شراسة وتطاير الشر من العينين اللتين ألهبهما
الكحول ، وراح يطرح عليها السؤال تلو السؤال مزمجا مدمما حتى طال
النوم عن راسه فأبى أن يزائل مجلسه حتى يعود « الضالان » فانتظر وهو
يغلى من الحنق ، ولما كان غضبه ينعكس على نفسها رعبا فقد ارتعبت كما

لو كانت هى المذنبه ، ثم غصت بالندم على ما بدر منها ندم عاجلها مبادرا بحق البوح بسرها مباشرة كائنها لم تبج الا كى تندم ، فلم تكن تبخل بقال مهما غلا ساعتئذ لو تستطيع ان تصلح خطأها ، وقست على نفسها بلا تحفظ فاتهمتها بالوقيعه والشر ، ألم يكن الأجدر بها ان تستتر عليهما على ان تنبههما الى خطئهما غذا ان كانت تريد الاصلاح حقا لا الانتقام ؟ .. ولكنها اذعننت لعاطفة شريرة ، عن عمد وسوء نية ، فهيأت للفتى وعروسه نكدا لم يدر لهما بخلد وجرت على نفسها ندما بات يحرق نفسها المعبدة حرقا بلا رحمة ، وراحت تدعو الله — خجلنى من ذكره — ان يلطف بهم جميعا ، مضى الوقت تفرع دقائقه قلبها بالآلم حتى انتهت على صوت السيد وهو يقول متهمكا بمראה :

— جاء سى كشكش ...

فأرهفت السمع وهى تتطلع بناظريها الى النافذة المفتوحة المطلة على الفناء فترامى اليها صرير الباب الكبير وهو يفلق ، وقام السيد وغادر الحجرة فقامت بطريقة آلية ولكنها تسمرت فى مكانها جبا وخزيا وضربات قلبها تندافع حتى سمعت صوته الجهر وهو يخاطب القادمين قائلا « اتبعانى الى حجرتى » فتناهى بها الخوف فتسللت من الحجرة هاربة . عاد السيد الى مجلسه يتبعه على الأثر ياسين وزينب ، فحدج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلا ياسين ثم قال بحزم وان نقى نبراته من الغلظة والجفاء :

— اصغ الى يا بنية جيذا ، ابوك اخى او اوثق صلة ومودة ، فانت ابنتى كخديجة وعائشة على السواء ، ما قصدت ابدا ان اكدر صفوك ولكن ثمة أمور أعد السكوت عنها جريمة لا تغتفر ، من ذلك أن تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتى هذه الساعة من الليل ، لا تحسبى أن فى وجود زوجك معك علرا عن هذا السنوك الشاذ فان الزوج الذى يستهين بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقبل من العثرات التى هو للأسف أول دافع اليها ، ولما كنت على يقين من براءتك او بالأحرى من أنه لا ذنب لك الا أنك جاريته على هواه فرجائى اليك ان تعاونينى على اضلاع امره بالا تستسلمى الى غواياته مرة أخرى ...

وجمت الفتاة واستحوذ عليها الذهول ، وعلى أنها كانت تحظى فى كنف أبيها بقسط من الحرية الا أنها لم تجد من نفسها شجاعة على مناقشة الرجل بله معارضته ، كان اقامتها فى بيئته شهرا أعدت شخصيتها بعدوى الخضوع لارادته التى يفرق خيالها كل حى فى البيت ، احتج باطنها بأن

اباها نفسه استساع اكثر من مرة ان يصطحبها الى السينما ، وانه لا يحق له منعها من شيء سمح به زوجها ، الى اقتناعها بانها لم تخرق ادبا او تهتك حرمة ، قال باطنها هذا واكثر بيد انها لم تستطع ان تنطق بكلمة واحدة حيال عينه المزمتمين بالطاعة والاحترام وانفه الكبير الذى بدا - وهو يرفع رأسه - كأنه مسدس مسدد نحوها ، فانكتم حديثها الباطنى تحب مظهر من الرضى والأدب كما تنكتم الأمواج الصوتية فى جهاز الاستقبال بالمديع بغلاق مفتاحه ، ثم ما تدرى الا وهو يسألها وكأنه ينمادى فى تحديه لها :

- ألك اعتراض على قولى ؟

فهرت رأسها بالنفى ورسمت شفتها حرف « لا » دون ان تنطق به فقال لها :

- اتفقنا ، تفضلى الى حجرتك بسلام . .

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيد صوب ياسين الذى اخفى عينيه فى الأرض ، ثم قال وهو يهز رأسه فى أسف شديد :

- الأمر جد خطير ولكن ما حيلتى ؟! . . لم تعد طفلا والا لكسرت رأسك ، ولكنك وأسفاه رجل وموظف وزوج ايضا وان كنت لا تتورع عن العبث برباط الزوجية ، فما عسى ان أصنع بك ؟! أهذه نهاية تربيته لك ؟! . . (ثم بصوت اذهب فى التأسف) . . ماذا دهاك ؟! أين الرجولة ؟! أين الكرامة ؟! يعز على والله ان أصدق ما وقع . .

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلم فظن صمته خوفا وشعورا بالخطأ - اذ لم يتصور ان يكون مابه سكر - ولكنه لم يجد فى ذلك عزاء ، بدأ الخطأ افطع من ان يترك بلا علاج حاسم ، فاذا لم يكن من سبيل الى العلاج القديم - العصا - فلا أقل من الحزم والا انتثر سلك الأسرة جميعا ، قال :

- ألم تعلم بأنى أحرمت على زوجى الخروج ولو لزيارة الحسين ؟! . . كيف اذن سولت لك نفسك ان تأخذ زوجك الى ملهى داعر لتسهر فيه الى ما بعد منتصف الليل ؟! يا احمق انت تدفع بنفسك وبزوجك الى الهاوية فأى شيطان ركبك ؟!

وجد ياسين فى الصمت آمن ملاذ ان تفضحه نبراته أو ان يسترسن فى الحديث بطلاقة مربية تنم فى النهاية على سكره ، لا سيما وان خياله اصر على التسلسل - هازنا بالموقف الخطير - من الحجرة فانطلق الى آفاق بعيدة بدت لرأسه الشمل راقصة ثارة ومترنحة أخرى ، ولم يستطع صوت أبيه علو ما ابتعث فى نفسه من الرهبة ان يسكت الأنغام التى

غناها المهرجون في المسرح فكانت تثب الى ذهنه - على رغمه ... بين لحظة واخرى كالاشباح في ليل المرعوب هامة :

أبيع هدومي عشان بوسنة من خدك القشدة ياملبن
يا حلوة زى البسبوسة يا مهلبية كمان واحسن
تغيب تحت تأثير الخوف ثم تطفئ راجعة ، ولكن اباه ضاق بالصمت
فصاح به غاضبا :

- انطق حدثني عن رأيك فاني مصمم على الا يمر الحادث بسلام !..
خاف ساقبة الصمت فخرج عنه متهيبا مضطربا ثم قال وهو يبذل
مبارى جهده ليتمالك نفسه :

- كان والدها يعاملها بشيء من التسامح ... (ثم متعجلا) ولكنى اثار
بانى اخصات ...

فصاح السيد مغضبا ومتجاهلا الجملة الاخيرة :
- لم تعد في بيت أبيها ، عليها أن تحترم آداب الأسرة التي صارت
عضوا فيها ، أنت زوجها وسيدها ويبدك وحدك أن تصورها في أى صورة
تشاء ، خبرني عن المسئول عن ذهابها معك انت ام هي ؟ ..
شعر على سكره بالفخ المنسوب له ولكن الخوف دفعه الى التوارى
فغمغم :

- لما علمت بنيتي في الخروج توسلت الى ان اصطحبها ...
فضرب السيد كفا بكف وهو يقول :
- أى رجل في الرجال انت ؟ .. كان الجواب الخلق بها لظمة !..
انه لا يفسد النساء الا الرجال وليس كل الرجال جديرا بالقيام على
النساء ...

ثم محتدا :
- وتذهب بها الى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا ؟..
تخايلت لعينيه الصور التي أفسدها تعرض أبيه له على رأس
السلم وعادت الانغام تتجاوب في راسه « أبيع هدومي .. » ولكن ما
يدري الا والرجل يقول متوعدا :
- لهذا البيت قانون أنت تعرفه فوطن نفسك على احترامه مارغب
في البقاء فيه ...

- ٢٨٠ -

- ٤٧ -

قامت عائشة بتزيين خديجة خير قيام بهمة لا تجارى ومهارة فائقة
 كأن التزيين خير مهمة تؤديها في الحياة على أكمل الوجوه، فبدت خديجة
 عروسا حقا تأخذ اهبتها للانتقال الى بيت العريس وان ادمت - جريا
 على عادتها في التقليل من شأن الخدمات التي يؤديها لها الغير - ان اكبر
 الفضل في اظهارها بالظهر اللائق انما يعود الى سمانتها هي قبل كل شيء !
 على أن « جمالها » لم يعد مثار وساوسها مذ طلب يدها رجل اتفق له أن
 رآها بعينه ، بيد أن جميع مظاهر السعادة التي أحاطت بها لم تستطع
 أن تمحو من نفسها خفقات الحنين الذي دب في أعماقها لوشك البين ،
 حنين خليق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحب شيء في الوجود كحبها لآلها
 وبيتها جميعا من الوالدين المعبودين الى الدجاج والبلاب والياسمين ،
 حتى الزواج نفسه الذي طالما تحرقت في انتظاره بجزع الملهوف ثم يكن
 ليهون عليها مرارة الفراق ، من قبل أن تطلب يدها بدت كاللاهية عن حب
 البيت واعزازه ، وربما غلب عليها الضجر في مضطرب الحياة فواري
 عواطفها العميقة الصادقة لأن الحب كالصحة ، يهون في الوصال ويعز عند
 العراق ، فلما أن اطمأنت على مستقبلها أبى قلبها أن ينتقل من حياة الى
 حياة دون جزع شديد كأنما يكفر عن اثم أو يضمن بقال ، تطلع كمال اليها
 صامتا ، لم يعد يتساءل هل تعودين ، بعد أن عرف أن التي تتزوج لا تعود
 الا أنه خاطب شقيقتيه مغمغما (سوف أزوركما كثيرا عقب الخروج من
 المدرسة » فرحبتا به معا بيد أنه لم تعد تفرر به الآمال الكاذبة ، كثيرا
 مازار عائشة فلم يظفر بعائنته القديمة ، يجد مكانها أخرى متبرجة
 تلقاه بتودد بالغ يشعره بالعربة ثم لا يكاد يخلو اليها حتى يدركهما زوجها
 الذي لا يغادر البيت قانعا من الوان التسلية بسجائره وغلبونه وعود يعيث
 بأوتاره بين حين وآخر ، أن تكون خديجة خيرا من عائشة ، فليس له من
 رفيق في البيت الا زينب ، وهي لا تتودد اليه كما يجب الا بمشهد من أمه
 كأنما تتودد اليها هي فاذا غابت الأم تجاهلته كأنه لا يكون ! ومع أن زينب
 لم تشعر بانها ستفقد عزيزا بذهاب خديجة الا انها استنكرت الجو الرزين
 الصامت الذي يغشى يوم الزفاف ، فتعللت بذلك لتفصح عما تكنه لروح
 السيد السيطرة من حنق وغيظ فراحت تقول متهمكة « ما رأيت بيتا

يحرم فيه الحلال كبيتكم هذا .. حكم ! « غير انها لم تشأ ان نودع خديجة من غير كلمة مجاملة فنوهت كثيرا بمقدرتها ، وانها « ست بيت » خليقة بان يهنأ عليها بعلمها ، فأمنت عائشة على قولها وأردفت قائلة :

- لا عيب فيها الا لسانها ! .. ألم تجريه يازينب ؟
فما تمالكت ان ضحكت قائلة :

- لم أجربه والحمد لله ولكنى سمعته وغيرى يجربه .
وتعالى الضحك ، وخديجة أولى الضاحكات ، حتى رأى الأم ترفه السمع بفتة هاتفة « هس » فأمسكن مرة واحدة ، فترامى اليهن صوات من الخارج فصاحت خديجة من فورها منزعة :
- مات السيد رضوان !

كانت مريم وأما قد اعتلدتا من عدم شهود الزفاف لاشتداد المرض على السيد محمد رضوان فلم يكن عرييا أن تستدل خديجة بالصوات على موت الرجل ، وغادرت الأم الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثم عادت وهى تقول بأسف شديد :

- مات الشيخ محمد رضوان حقا .. ياله من موقف حرج !
فقال زينب :

- عذرنا واضح كالشمس ، لم يعد فى وسعنا تأجيل الزفاف أو منع العريس من الاحتفال بيلته فى بيته وهو بحمد الله بعيد ، أما أنتم فهل تطالبون بأعمق من هذا الصمت البليغ ؟

لكن خديجة شردت فى خواطر أخرى انقبض لها قلبها خوفا فتطيرت من النبأ المحزن وغمغمت وكأنها تخاطب نفسها :

- يا لطيف يارب ..

فقرات الأم أفكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنها أبت ان تستكين لهذا الشعور الطارئ أو ان تترك ابنتها تستكين له فقالت باستهانة متصنعة :

- لا شأن لنا بقضاء الله فالحياة والموت بيده ، والتشاؤم من عند الشيطان ...

انضم ياسين وفهمى الى المجتمعات بحجرة العروس بعد أن فرغا من ارتداء ملابسهما فاخبر الام بان السيد ناب عن الاسرة - بالنظر الى ضيق الوقت - فى تقديم واجب العزاء الى آل السيد رضوان ، ثم حدى ياسين الى خديجة وقال ضاحكا :

- أبى السيد رضوان إن يبقى فى الدنيا بعد رحيلك عن جواره ..

فردت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنه ما وراءها فمضى يتفحصها بعناية وهو يهز راسه متظاهرا بالرضى ثم قال متنهدا :
- صدق من قال « لبس البوصة تبقى عروسة » ...
فقطبت معلنة عدم استعدادها لمجاراته ثم نهزته قائلة :
- اسكت ، انى متطورة من موت السيد رضوان فى يوم زفافى ..
فقال ضاحكا :

- لا ابرى ايكما جنى على صاحبه ؟
ثم وهو يواصل الضحك :
- لا خوف عليك من موت الرجل ، لا تشغلى فكرك به ، ولكنى اخاف عليك من لسانك فهو الاحق بأن تتطيرى منه ، ونصيحتى التى لا امل ترديدها ان تنقعيه فى شراب مشبع بالسكر حتى يحلو ويصلح لمخاطبة العريس ...
عند ذلك قال فهمى متلطفا :

- مهما يكن من امر السيد رضوان فيوم زفافك لم يخل من بركة طال انتظار الأرض لها، ألم تعلمى بأن الهدنة قد أعلنت ؟
فهتف ياسين :
- كدت انسى هذا ! .. ليس زفافك المعجزة الوحيدة فى يومنا هذا ، حصل ما لم يحصل منذ اعوام فانهت الحرب وسلم غليوم ..
فتساءلت الام :

- هل يذهب الغلاء والاستراليون ؟
فقال ياسين ضاحكا :

- طبعاً .. طبعاً .. الغلاء والاستراليون ولسان خديجة هائم لاح التفكير فى عينى فهمى ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :
- غلب الايمان ! .. من كان يتصور هذا ؟ لا امل بعد اليوم فى ان يعود عباس او محمد فريد كذلك آمال الخلافة قد ضاعت ، لا يزال نجم الانجليز فى صعود ونجمنا فى افول فله الامر ..
فقال ياسين :

- اثنان كسبا الحرب هما الانجليز والسلطان فؤاد ، فلا اولئك كانوا يحلمون بالقضاء على الايمان ولا هذا كان يحلم بالعرش ...
وسكت لحظة ثم استطرد ضاحكا :
- وثالث لا يقل حظه عن السابقين هو عروستنا التى ما كانت تحلم بالعرس ...

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت :
- تأبى أن أغادر البيت من غير أن الدغك
فتراجع وهو يقول :

- من الخير ان اطلب الهدنة فلست اعظم شأنا من غليوم او هندبرج .
ثم نظر الى فهمى الذى لاح فى وجهه التفكير بحال لا يتفق مع المناسبة
السعيدة فقال له :

- اطرح السياسة وراء ظهرك وتهيا للطرب ولذيذ المأكول والمشارب . .
ومع أن خديجة تناوبتها أفكار كثيرة وخطرت على قلبها احلام واحلام
الا أن ذكرى قريية - من ذكريات الصباح فحسب - ألحت عليها من شدة
تأثيرها بها حتى كادت تحجب غيرها من الشجون ، تلك دعوة أبيها ليعا
انفراد لمناسبة اليوم الذى يعد مبدءا حياة جديدة فى حياتها ، قابلها بلطف
ورحمة كأنها بلسم شافيا من وعكة الخياء والرهبة التى اعترتها حتى
تعثرت فى مشيتها ، ثم قال لها بركة وقعت من نفسها موقعا غريبا لاعد
لها به - ربنا يسدد خطاك ويهيئ لك التوفيق وراحة البال ، وما من
نصيحة تسدى اليك خير من أن أقول :

اقتدى بأهلك فى كل كبيرة وصغيرة . .

واعطاها يده فقبلتها ثم غادرت الحجرة لاتكاد ترى ما بين يديها من
الانفعال والتأثر ، وجعلت تردد طول الوقت « كم انه لطيف رقيق
رحيم ! » ثم تذكر بقلب ملؤه السعادة قوله « اقتدى بأهلك فى كل كبيرة
وصغيرة » وتقول لأمها التى اصغت اليها بوجه متورد وعينين مرتعشتين
« الا يعنى هذا انه براك القدوة الصالحة للزوجة الصالحة ؟ . . . » (ثم
ضاحكة) يا لملك من امرأة سعيدة الحظ ! ولكن من عسى ان يصدق هذا
كاه ؟ كانى كنت فى حلم سعيد ! أين كان يدخر هذا العطف الجميل ؟ !
ثم دعت له طويلا حتى اغرورقت عينها بالدموع . .
وجاءت أم حنفى تعلمهم بوصول السيارات . . .

- ٢٨٤ -

- ٤٨ -

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل ، على أن خديجة تركت فراغا لم يسد فكأنها استلقت روحه وسلبته حيويته وحرمة مزايلا يستهان بها من الفكاهة والمرح والنقار ، او كما قال ياسين لنفسه « كانت في مجلسنا كالمح في الطعام ، ليس الملح في ذاته لذيذا ولكن مائدة الطعام من دونه ؟ » . . بيد أنه لم يجهر برايه مجاملة لزوجته اذ أنه لم يزل - على خيبة امله في الزواج التي لم يعد لها من دواء في البيت - يشفق من جرح مشاعرها على الأقل كيلا تسى الظن بسهره المتواصل ليلة بعد أخرى في « القهوة » كما يزعم لها . ولئن كان مزاحه يفوق جده ، ان كان ثمة جد ، الا أنه فقد النديم الذي طالما طارحه الدعابة وهيا له دواعيها فلم يبق له الا أن يقنع بالقليل في هذه الجلسة التقليدية ، ها هو يتربع على الكنبه ، يحسو القهوة ، ويمد بصره الى الكنبه المقابلة له فيرى الأم وزوجه وكمال مستغرقين في احاديث لا طائل تحتها ، ولعله يتعجب للمرة المائة من رزانة زينب المعتمة فيذكر مرامتها به خديجة من « ثقل الدم » ويسلم بوجهة نظرها . . ثم يفتح ديوان الحماسة او غادة كربلاء ويقرأ ، او يقص على كمال شيئا مما قرأ ، ويلتفت الى يمينه فيرى فهمي متولبا للحديث « عن اى شيء يا ترى ، محمد فريد ، مصطفى كامل ؟ . . لا يدري ولكنه سيستسلم بلا ريب ، بل يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسماء المنطرة بالمطر . هل ينكشه . . كلا ، لا حاجة به الى ذلك ، ها هو يستقبله باهتمام شديد ويحدثه بنظرة موحية ناطقة ثم يسأله :

- ألم تبلغك انباء جديدة . . ؟

يسأله هو عن انباء جديدة ! عندي انباء لا عد لها . . الزواج اكبر خدعة ، الزوجة تنقلب بعد اشهر شربة زيت خروج ، لا تحزن على مفاتك من مريم ايها السياسى القرم ، اتريد انباء اخرى ؟ . . لدى منها الكثير لكنها على وجه اليقين لا تهكم البتة ، ثم ان الشجاعة تخوننى اذا سوات لى نفسى اذاعتها على مسمع من زوجى ، وما يدري الا وهو يستشهد - في سره طبعا - بقول الشريف :

عندى وسائل شوق لست اذكرها لولا « الرقيب » لقد بلغتها فاك ثم تسأل بدوره :

— أى أبناء جديدة تعنى ؟ .

فقال فهمى باهتمام شديد :

— ذاع بين الطلبة نبأ عجب كان حديثنا اليوم كله وهو أن وفداً مصرياً مكوناً من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمى بك وعلى شعراوى باشا توجه أمس الى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال . .

رفع ياسين حاجبه فى اعتمام ولاحث فى عينيه نظرة شك مقرونة بالدهشة . لم يكن اسم سعد زغلول بالجديد عليه وإن لم يجد وراء الاسم فى نفسه شيئاً ذا بال اللهم الا ذكريات غامضة اقترنت بحوادث اتى عليها النسيان من زمن دون أن تترك فى قلبه — الذى لا يكاد يعبأ بالأمور العامة — أثراً عاطفياً يدل عليها ولو من بعيد ، الا أن الاسمين الآخرين كانا يقعان فى أذنه لأول مرة ، بيد أن غرابة الأسماء ليست شيئاً يذكر الى جانب الحركة التى قام بها أصحابها ان صرح ما يقول فهمى ، اذ كيف يتصور أن يطالب الانجليز غداة انتصارهم على الألمان والخلافة باستقلال مصر ؟! . . . وسأله :

— ماذا تعرف عن هؤلاء السادة ؟

فقال فهمى بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يود لو كان هؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطنى :

— سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية ، وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى عضوان بها ، الحق أنى لا أعرف شيئاً عن الآخرين ، أما سعد فأكاد أكون عنه فكرة لا بأس بها مما ترمى الى عن كثيرين من زملائى الطلبة الوطنيين الذى يختلفون فيه كثيراً ، منهم من يقر له بمزايا عظيمة اذئاب الانجليز ولا شىء أكثر من هذا ، ومنهم من يقر له بمزايا عظيمة جديرة بأن ترفعه الى مصاف رجال الحزب الوطنى أنفسهم ، ومهما يكن من شأن فالخطوة التى أقدم عليها مع زميليه — ويقال أنه كان الداعى اليها كذلك — عمل مجيد لعله لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفى البرزين من الوطنيين وعلى رأسهم زعيمهم محمد فريد . . .

بدا ياسين جاداً أن نظن به الآخر استهانة بحماسة وردد قائلاً وكأنه يسائل نفسه :

— المطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال ! . .

— وسمعنا أيضاً أنهم طالبوا بالسفر الى لندن للسعى الى الاستقلال ، وانهم لهذا القصد قابلوا السير ريجينالد ونجت نائب الملك ! . .

لم يستطع ياسين أن يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأساريره وهو
يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء :

— الاستقلال ! .. اتعنى هذا حقاً ؟ .. ماذا تعنى ؟

فقال فهمى بلهجة عصبية :

— أعنى اخراج الانجليز من مصر ، أو الجلاء كما عبر عنه مصطفى
كامل ودعا اليه ..

يا له من أمل ! .. لم يكن السعى الى حديث السياسة من طبعه
ولكنه يقبل دعوة فهمى كلما دعاه اليه ، اتقاء لتكديره ، وطلباً لنوع
طريف من التسلية ، وربما ثار اهتمامه بين الحين والحين وان لم يبلغ
درجة الحماس ، بل ربما شاركه آمانيه بطريقة سلبية هادئة ، ولكنه
اثبت طوال حياته بأنه قليل الاكتراث بهذا الجانب من الحياة انعمامة ،
كانه لا غاية له وراء التمتع بطيبات الحياة ولذاتها ، لذلك لم يجد في
نفسه استعداداً للأخذ بهذه الأقوال مأخذ الجد وتساءل مرة أخرى :

— هل يقع هذا في حدود الامكان حقاً ؟

فقال فهمى بحماس لا يخلو من لوم :

— لا ياس مع الحياة يا اخي ! ..

فأثارت هذه الجملة ، في نفسه ما تثيره أمثالها من ميل الى السخرية
ببد أنه تساءل متظاهراً بالجد :

— وكيف لنا بأن نخرجهم ؟

ففكر فهمى قليلاً ثم قال عابساً :

— لهذا طلب سعد وزميلاه السفر الى لندن !

تابعت الأم الحديث باهتمام مركزة فيه وعيها كله كي تفهم اقصى
ما يسمعها فهمه منه كذاً بها كلما ثار حديث في الشؤون العامة البعيدة
كل البعد عن اللغو المنزلى ، تلك الأمور تشوقها ، وتدعى القدرة على
فهمها ، ولا تتردد اذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها غير مبالية بما
تحدثه آراؤها في احايين كثيرة من الاستهانة المشربة بالعطف ، ولكن
لم يكن شيء ليحطم مجاديفها أو يصددها عن الاهتمام بهذه الشؤون
« الكبيرة » التي يبدو انها تتبعها مدفوعة بنفس البواعث التي تدفعها
الى التعلق بدروس كمال الدينية أو مناقشة مايلقى عليها من معلوماته
الجغرافية والتاريخية على ضوء معارفها الدينية أو الأسطورية ، وقد
اكسبها هذا الجد شيئاً من الالام بما يقال عن مصطفى كامل ومحمد فريد
وأفندينا المبعد ، اولئك الرجال الذين ضاعف من حبها لهم اخلاصهم

للخلافة الأمر الذى قريهم فى نظرها - كشخص يقدر الرجال بحسب منازلهم الدينية - من مراتب الأولياء الذين تهيم بهم ، ولما أن ذكر فهمى ان سعدا وزمليه يطلبان السفر الى « لندن » خرجت عن اسمتها فجأة متسائلة :

- أى بلاد الله لندن هذه ؟

فبادرها كمال قائلا باللهجة المنغومة التى يسمع بها التلاميذ دروسهم :

- لندن عاصمة بريطانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسا والكاب وعاصمتها الكاب ..

ثم مال على أذنها هامسا « لندن بلاد الانجليز » فتولت الأم الدهشة وقالت مخاطبة فهمى :

- يذهبون الى بلاد الانجليز ليطلبوهم بأن يخرجوا من مصر ؟! .. ليس هذا من الدوق فى شيء! .. كيف تزورنى فى بيتى وانت تضمردى من بيتك ؟!

اضجرت مقاطعتها الشاب فنظر اليها باسماء معاتبا فى آن ولكنها ظنت انها بسبيل اقناعه فاردفت قائلة :

- وكيف يطلبون اخراجهم من ديارنا بعد اقامة طالت هذا الدهر كله؟! لقد ولدنا وولدتهم وهم فى بلادنا فهل من « الانسانية » ان نتصدى لهم بعد ذلك العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة - وفى بلادهم أيضا - اخرجوا ؟!

ابتسم فهمى كاليائس على حين قهقه ياسين اما زينب فقالت جادة :

- كيف تواتيهم الجراة على أن يقولوا لهم هذا فى بلادهم ..! هب الانجليز قتلوهم هناك فمندا يدري بهم ؟! ألم يجعل جنودهم المشى فى الشوارع البعيدة من المخاطرات غير المأمونة ؟! فكيف بمن تحدته نفسه باقتحام ديارهم !؟

ود ياسين لو يسترسل مع المرائين فى حديثهما الساذج ارواء لعواطفه الظامنة الى المزاج ولكنه لمس ضجر فهمى فاشفق من اغضابه ، فتحول اليه مواصلا ما انقطع من الحديث وهو يقول :

- فى كلامهما حق لم يحسنا التعبير عنه ، خبرنى يا اخى ماعسى أن يصنع سعد حيال دولة تعد الآن سيده العالم بلا منازع ؟

فوافقت الأم على قوله بايماءة من رأسها كأن الحديث كان موجها اليها وراحت تقول :

— كان عرابى باشا أعظم الرجال وأشجعهم ، لا يقاس به سعد ولا غيره ، وكان فارسا وكان مقاتلا ، فماذا لقى من الانجليز ياولداه ؟ .. أسروه ثم نفوه الى بلاد وراء الشمس ...

فلم يتمالك فهمى من أن يقول لها بلهجة جمعت بين الرجاء والضيق :
— نينة ! .. هل تركتنا نتحدث ؟!

فابتسمت فيما يشبه الحياء مشفقة كل الاشفاق من اغضابه فغيرت لهجتها الحماسية كأنما تتغير لهجتها تعلن عن تغيير رايها كله ثم قالت بركة :
عذار !

— يا سيدى ، لكل مجتهد نصيب ، فليذهبوا فى رعاية الله ، وعسى أن يحظوا بعطف الملكة الكبيرة ..

فما يدرى الشاب الا وهو يسألها فى غرابة :

— اى ملكة تقصدين ؟

— الملكة فيكتوريا يابنى ، أليس هذا اسمها ؟ .. طالما سمعت أبى وهو يتحدث عنها ، هى التى أمرت بنفى عرابى واكنها أعجبت بشجاعته كثيرا فيما قيل ..

فقال ياسين ساخرا :

— اذا كانت قد نفت عرابى الفارس فهى اجدر بان تنفى سعدا العجوز !
فقلت الأم :

— مهما يكن من امرها فهى لم تزل امرأة يحمل صدرها ولاشك قلبا رقيقا فاذا احسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتوددون اليها جبرت بخاطرهم .

وجد ياسين سرورا كبيرا فى منطق الأم التى جعلت تتحدث عن الملكة التاريخية كما لو كانت تتحدث عن ام مريم او غيرها من الجارات ، ولم يعد يرغب فى مجارة فهمى ، فسألها باغراء :

— خبرينا عما يحسن ان يقولوه لها ؟

فاعتذلت المرأة فى جلستها مسرورة بهذا السؤال الذى أقر لها بالجدارة « السياسية » ومضت تفكر باهتمام لاح فى تقارب حاجبيها فى صيغة مناسبة لأول « مفاوضة » بيد أن فهمى لم يمهلها حتى تتم تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء :

— الملكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد ، لا تتعبى نفسك بلا طائل ! .. انتبه ياسين عند ذاك الى غاشية المساء الزاحفة من خلال خدصاص النوافذ فادرك انه ان له ان يودع المجلس ليمضى الى سهرته . ولما كان

يعلم حق العلم بأن ظلما فهمى الى الحديث لم يرو بعد فقد رغب في ان يقدم له اعتذارا عن ذهابه في صورة تأييد من نوع ما للنبأ لدى اخذ بلبه فقال له وهو ينهض :

— انهم رجال يدركون بلا شك خطورة ما أقدموا عليه فلعلهم اعدوا له الوسيلة الناجحة » فلندع لهم بالتوفيق .

وغادر المجلس وهو يشير الى زينب لتلحق به فنجهاز له ملابسه . فسيعه فهمى بنظرة لا تخلو من غضب ، غضب من لم يظفر بمشاركة وجدانية تتجاوب مع نفسه لمناجحة ، لشد ما تثير أحاديث الوطنية اكبر الأحلام في نفسه ، في دنياها الساحرة نراى لعينيه دنيا جديدة ، ووطن جديد . وبيت جديد ، وأهل جدد ، ينتفضون جميعا حيوية وحماسا ولكن ما ان بفيق على هذا الجو الخائق من الفتور والسداجة وعدم المبالاة حتى تنشب بين أضلعه نار الحسرة والألم فتروم في قهرها متنفسا — أيا ما كان — تنطلق منه الى السماء ، ود في تلك اللحظة بكل قوته لو ينطوى الليل في غمضة عين ليجد نفسه مرة أخرى في جميع الطلاب من اخوانه فيروى ظمأه الى الحماس والحرية ويسمو في وقدة حماسهم الى ذلك العالم الكبير من الأحلام والمجد . لقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعد اليوم بحق سيدذ العالم ، وهو نفسه لا يدري على وجه التحقيق ماذا سيصنع سعد ، ولا يدري ماذا يمكن ان يصنع ، ولكنه يشعر بكل ما في قلبه من قوة بأن ثمة ما يجب عمله ، ربما لم يجده مائلا في عالم الواقع ، ولكنه يشعر به كامنا في قلبه ودمه ، فما أجدره ان يبرز الى ضوء الحياة والواقع او فلتتمض الحياة عينا من العبث وباطلا من الأباطيل ..

بدأ الطريق امام ذكان السيد أحمد — كمادته — مكتظا بالسائبة والمركبات ورواد الدكاكين المتراصة على الجانبين الا أن هامته ازدانت بشفافية مقطرة من جو نوفمبر اللطيف الذي حجب شمس وراء سحاب رقاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون وبرقوق كأنها بحيرات من نور ، لم يكن شيء في السماء ولا في الأرض قد خرق المألوف مما اعتاد السيد ان يراه كل يوم ، ولكن نفس الرجل ، والانفاس

الموصولة بنفسه وربما أنفس الناس جميعا تعرضت لموجة عاتية من الانفعال والشفور خرجت بها عن طورها أو كادت حتى قال السيد انه لم يمر به أيام كهذه الأيام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم باحساس واحد . فهمى الذى يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبده هو بالحديث نقل اليه فى أسهاب ما اتصل بعلمه عن مقابلة سعد النائب الملك ، وفى مساء اليوم نفسه ، وفى مجلس الطرب ، أكد نفر من الصحاب أن الخبر حقيقة لا يرتقى إليها الشك ، وفى دكانه حدث أكثر من مرة أن خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق فى حديث المقابلة ، بل مايدرى هذا الصباح الا والشيخ متولى عبد الصمد يقتحم عليه الدكان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات وأخذ نصيبه من السكر والصابون وأبى الا ان يعلن نبأ الزيارة بلهجة من يزف البشرى لأول مرة ولما سأله السيد - مداعبا - عما يظن ان تكون نتيجة الزيارة أجاب الشيخ « محال ! . . . محال ان يخرج الانجليز من مصر ، انحسبهم مجانين كى يجلووا عن البلد بلا قتال ! . . لابد من قتال ، ولا قتال لنا ، فلا سبيل الى اخراجهم ، فلعل رجالنا يوفقون ولو الى ابعاد الاستراليين حتى يعود الأمن الى سابق عهده ، والسلام ! » ، أيام انباء ومشاعر فياضة صادفت فى السيد رجلا ذا قابلية شديدة لعدوى الأشواق الوطنية والسياسية فبات على حال من الانتظار والتوقع جعلته يقبل بانفعال على قراءة الجرائد التى بدت فى الأغلب وكأنها تصدر فى بلد غريب لا انفعال فيه ولا توثب ، واستقبال الأصدقاء بنظرة استطلاع تتلهف عما وراءهم من جديد ، وعلى تلك الحال استقبل السيد محمد عفت حين دخل الدكان مهرولا ، لم تكن نظرة القادم الحادة ولا حركته المنشدطة مما يوحى بأنه مجرد زائر قد عرج الى الدكان لاحتساء قهوة أو رواية ملحّة ، فوجد السيد فى مظهره ما تجاوب مع نفسه القلقة المشوقة فبادره قائلا والآخر يشق طريقه بين الزبائن الذين قام جميل الحمزاوى على قضاء حوائجهم :

— صباحنا ناد ، ماذا وراءك ياسبع ؟

اتخذ السيد محمد عفت مجلسه اسق المكتب وهو يتسم ابتسامة وشت بالعجب كان قول السيد «ماذا وراءك» وهو نفس السؤال الذى يتكرر كلما لاقى احدا من صحبه - اقرار بأهميته فى هذه الايام البالغة فى أهميتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيات المصرية الهامة من صلات القربى ، كان السيد عفت دائما همزة الوصل بين جماعته الأصلية المكونة من تجار وبين من انضم اليها بمضى الزمن من موظفين ممتازين

ومحامين وان تفرد السيد أحمد بمنزلة الاعزاز الأولى بفضل شخصه وسجاياه ، غير ان صلة القربى هذه الى لم تفقد شيئا من حظورها قف لدى أصدقائه التجار الذين يتطلعون الى الموظفين وذوى الألقاب نظرة ملؤها الاحبار ، صلة القربى هذه قد زادت خطورة في هذه الايام التى بان فيها « الخبر الجديد » أهم من الماء والغذاء !.. بسط السيد عفت صحيفه كانت مطوية بيمينه ثم قال - خطوة جديدة - لم اعد ناقل انباء فحسب ولكنى بت رسولا أحمل اليك والى غيرك من الاكرمين هذا الوكيل السيد ..

وأعطاه الصحيفة وهو يغمغم مبتسما « اقرا » فنناولها السيد وقرا :
« نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكائى ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك . ولهم ان يضموا اليهم من يختارون ، فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حينما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما »

فتهلل وجه السيد وهو يتلو أسماء اعضاء الوفد المصرى الذى سمع بهم فيما سمع من أباء الحياة الوطنية التى ترددوا الألسن . وتساءل :
- ماذا تعنى هذه الورقة ؟
فقال الرجل بحماس :

- الا ترى هذه الامضاءات ؟.. وقع تحتها بامضائك وادع جميل الحمزاوى ليوقع بامضائه ايضا هذا توكيل من التوكيلات التى طبعها الوفد ليوقعها الشعب فيخذل بها صفة الوكالة عن الأمة المصرية .. أمسك السيد بالقلم ووقع بامضائه فى سرور تجلى فى تألق عينيه الزرقاوين وهو يتسسم ابتسامة رقيقة نمت عن شعوره بالسعادة والخيلاء اذ يوكل عن نفسه سعدا وزملاء ، اولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على حداثة شهرتهم حيث حرنوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعماله لأول مرة . ودعا الحمزاوى فوق بامضائه كذلك ، ثم التفت الى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد :

- المسألة جد فيما يبدو ..!

ف ضرب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثم قال :

- غاية الجد ، كل شيء يسير بقوة وتصميم ، أما علمت بما دعا الى طبع هذه التوكيلات ؟.. قيل ان « الرجل » الانجليزى تساءل عن الصفة التى

كلمه بها سعد باشا وزميلاه فى صباح ١٣ نوفمبر الماضى فما كان من الوفد
الا ان عمد الى هذه التوكيلات ليثبت انه يتكلم باسم الأمة ..
فقال السيد بتسائر :

— لو كان محمد فريد بيننا ماعدا هذا
— لقد انضم الى الوفد من رجال الحزب الوطنى محمد على علوبة بك
وعبد اللطيف المكباتى ...

ثم هز منكبيه كأنما لينفض عنهما الماضى كله ثم قال :
— كلنا نذكر سعد بما كان يثير من ضجة عظيمة على عهد توليه لنظارة
المعارف ثم الحقانية ، مازلت اذكر ترحيب اللواء به من حين ترشيحه
للوزارة وان لم انس حملاته عليه بعد ذلك ، بل لا انكر اننى ملت مع انتقاد
المنتقدين له لشدة تعلقى بالمغفور له مصطفى كامل ، ولكن سعد اثبت
دائما انه جدير باعجاب المعجبين ، اما حركته الأخيرة فهى خليفة بان
تحمله من القلوب فى أعز مكان ...

— صدقت ، حركة مباركة ، لندع الله ان يتولاها بتوقيقه
ثم باهتمام :

— ترى يؤذن لهم فى السفر ؟ .. وماذا تراهم فاعلين اذا سافروا ؟ ..
طوى السيد محمد عفت التوكيل ثم نهض وهو يقول :

— ما الغد ببعيد ...
فى طريقهما الى باب الدكان غلبت روح الدعابة السيد فهمس فى اذن
صاحبة :

— كائن لشدة سرورى بهذا التوكيل الوطنى ثمل يعمل الكاس الثامنة
بين فخذى زبيدة .. !

فحرك محمد عفت رأسه فى تأثر كان الصورة التى جسمها خياله عند
ذكر الكاس وزبيدة قد أسكرته ، وغغمغ :

— ياما بكره نسمع ...

ثم غادر الدكان والسيد يترنم فى اعقابيه مبتسما :
— وبعده نشوف ... !

ثم عاد الى مكتبه واثر المزاج منبسط فى اساريه وانفعال الحماس فى
قلبه لا يخمد ، شأنه فى كل ما يعرض له من مهام الحياة بعيدا عن داره ،
فهو يجد الجد كله كلما دعا الداعى الى الجد ولكنه لا يتردد عن تلطيف
جوه بالمزاج والدعابة كلما لاحتا له صادرا فى ذلك عن طبع لا يملك معها
حيلة وان بدا ذا قدرة عجيبة على التوفيق بينهما ، فلا جده بظاهر مزاحه

ولا مزاحه بمفصل جده ، ولما كانت دعايته ليست ترفا مما يدور على هامش حياته ، ولكن ضرورة تتوزعها كالجد سواء بسواء . فلم يسعه يوما الاقتصار على الجد الخالص او تركيز همته فيه ، وبالتالي قنع دائما من « وطنيته » بالعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة الذي آنس اليه فلا يرضى عنه بديلا . لذلك لم يدر له بخلد أن ينضم الى لجنة من لجان الحزب الوطنى على شدة تعلقه بمبادئه . ولا حتى أن يجشم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته . اليس فى ذلك اهدار لوقته « الثمين » ليس الوطن فى حاجة اليه على حين يتلف هو على كل دقيقة منه لينفقها فى أسرته او تجارته او على الخصوص لهود بين الأحباب والخلان ؟! يمكن اذن وقته خالصا لحياته . وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه بل وماله كلما تيسر اذ لم يكن يضرب به اذا وجب التبرع لغرض من الأغراض ، والى ذلك فلم يشعر مطلقا بأنه مقصر فى واجبه على نحو ما ، وعلى العكس عرف بين صحبه بالوطنية ، اما لأن قلوبهم لم تسخ بعواطفها كما سخا قلبه ، واما لأن الدين سخت قلوبهم لم يذهبوا الى حد التبرع بالمال مثله ، فتميز بوطنيته ، وعرف هو ذلك فاضافه الى بقية مزايه التى يباهى بها سرا فى أعمق قلبه ، ولم يتصور أن الوطنية يمكن أن تطالبه بأكثر مما يوجد به ، ذاك القلب المولع بالفرام والطرب والمزاح لم يضق - على ازدحامه - بالعاطفة القومية ، وهى وان فنت بالقلب مجالا لحيويتها الا انها كانت قوية عميقة تشغل النفس وتهمها ، لم تجئه عرضا ولكن نشأت مع صباه فيما تلقته أذناه من أحاديث البطولة التى رواها السلف عن عرابي ، ثم اتفقت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه وكم كان منظر فريدا - أهاج التأثر والضحك معا - يوم روى وهو يبكى كالأطفال عند وفاة مصطفى كامل ، تأثر صحبه لأن احدا منهم لم يسلم من وعكة حزن ثم أغرقوا فى الضحك فى مجلس الطرب الليلي حين تذكروا المنظر اذ لم يكن من اليسير أن يرى « رب الضحك » وهو يجش بالبكاء ! اليوم ، بعد سنين الحرب الخامدة ، بعد موت الزعيم الشاب ونفى خليفته ، بعد انقطاع الأمل من عودة أفندينا ، بعد هزيمة تركيا ، وانتصار الانجليز ، بعد هذا تله ، أو بالرغم من هذا كله ، تسرى أنباء عجيبة حاملة حقائق كالاساطير مواجهة الرجل الانجليزى بمطالب الاستقلال ، امضاء التوكيلات الوطنية ، التساؤل عن الخطوة التالية ، قلوب تنفص عن جوهرها القبار ، انفس تشرق بالأمال ، ماذا وراء هذا كله ؟! ان خياله السلمي الذى ألف الاستكانة تساعل دون جدوى ، وأنه يتعجل الليل ليهرع

الى مجلس الطرب حيث نالت الاحاديث السياسية «مزة» الشراب والطرب فائتلفت مع جملة المقربات التي تجذب حنانها الى سهراته كزبيدة وحب الاخوان والشراب والطرب وانها لتبدو في ذلك الجو الخلاب عذبة الروح لطيفة التناول تغنى القلب بشتى عواطف الحماس والحب من دون ان تستأديه مالا طاقة له به ! . . . وانه لبفكر في هذا كله اذ اقترب منه جميل الحمزاوى وهو يقول :

- أما سمعت عن الاسم الجديد الذى أطلق على بيت سعد باشا . ؟ .
انهم يدعونه « بيت الأمة » . .
ومال الرجل نحوه ليفضى اليه كيف نمأ اليه الخبر

- ٥ -

فى نفس الوقت الذى شغل فيه الوطن بالمطالبة بحريته كان ياسين دأباً بحزم وعزم على الاستئثار بحريته هو . كذلك ، فان انطلاقه الى سهراته الليلية - بعد امتناع موسوم بالاستقامة فيما أعقب الزواج من اسابيع - لم يفز به بلا نضال ، ثمة حقيقة كثيرة ماردها لنفسه كاعتذار عن سلوكه الجديد ، هى أنه لم يكن يتصور - وهو فى أسكرة حلم الزواج - انه سيرتد الى حياة التسكع بين القهوة وحانة كوستاكى ، اعتقد مخلصاً انه ودع ذلك الى الأبد مضمرأ لحياته الزوجية احسن النوايا ، حتى دهمته الخيبة المستعصية فى الزواج كله فجزعزت أعصابه من تحمل الملل او الحياة الفارغة كما دعاها ، وفزع بكل قوة نفسه المدالة الحساسسة الى الترفيه والتسلية والنسيان ، الى القهوة والحانة ، لا كحياة لهو عابرة كما ظنها فى الماضى والزواج امل مدخر ، ولكن كحياة هى كل ما تبقى له من متعة بعد ان غدا الزواج خيبة مريرة ، كالذى تشرده الآمال عن وطنه فيرده الاخفاق اليه تائماً ، يسد أن زينب التى عهدت عنده التودد الحار والتعلق النهم ، بل الأعزاز الذى بلغ به يوماً ان ذهب بها الى مسرح كشكش بك مستهيناً بالسياج المسلح من التقاليد الضارمة الذى يضربه ابوه حول الأسرة . . زينب هذه كابدت من انصرافه عنها الى منتصف الليل ليلة بعد أخرى وعودته نملاً يترجح سدمة عز عليها احتمالها فما تماكنت أن كاشفته بأحزانها ، وكان يعلم بداهة أن طفرة مفاجئة فى حيساته الزوجية لا يمكن أن تمر بسلام ، فتوقع من بادىء الأمر المعارضة على أى لون جاءت ،

عتابا أم خصاما واعد العدة المناسبة ليحسم موقفه بقوذة متمتلا بقول أبيه له ليلة ضبطه راجعا من كشكش بك « انه لا يفسد النساء الا الرجال . وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء » فما تشكت حتى قال لها : « لا داعي للحزن يا عزيزة ، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال . هكذا الرجال جميعا ، والزواج المخلص يحافظ على امانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها ، ثم اننى اتزود من السهرة ترويحاً عن النفس وبهجة يجعلان من حياتنا منعة كاملة » ولما عرضت بسكره محتجة بأنها « تخاف على صحته » ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقة والحزم « كل الرجال يسكرون ، ان صحتى تتحسن بالسكر (ثم ضاحكا مرة أخرى) سلى أبى او اباك ! » الا انها همت بالاسترسال فى مناقشته جريا وراء امل كاذب فشد حبل الحزم متشجعا بملله الذى هون عليه مالم يكن يهون من اغضابها فراح ينوه بالرجال من حق مطلق فى ان يفعلوا ما يشاءون ، وماعلى النساء من واجب الطاعة والتزام الحدود « انظرى الى امراة أبى هل رايتها اعترضت يوما على تصرف لأبى ؟ .. على ذاك فهما زوجان سعيان واسرة مطمئنة . ينبغى الا نعود الى هذا الموضوع » .. لهله لو كان ترك الى شعوره وحده ما اصطنع فى خطابها ما اصطنع من سياسة فان خيبته فى الزواج جعلته يجد نوحها أحيانا ما يشبه الرغبة فى الانتقام ، وأحيانا أخرى نوعا من الكراهية المتقطعة وان لم يكف عن الرغبة فيها بين هذا وذاك . ولكنه راعى عواطفها اكراما - او خوفا - من أبيه الذى علم بعظيم تعلقه بابيها السبد محمد عفت ، والحق لم يكن يكرهه شيء كاشنفاقه من أن تشكوه الى أبيها فيشكوه هذا بدوره الى أبيه حتى لقد صمم جادا ، اذا وقع شيء مما يحاذر ، أن يستقل بمسكن مهما تكن العواقب ولكن مخاوفه لم تتحقق ، اثبتت الفتاة رغم عرتها أنها امرأة « عاقلة » كأنها من طراز امرأة أبيه نفسها ، قدرت موضعها حق قدره ونزات عند حكم الواقع ، مطمئنة - لبعْلِها - بما يردده دائما من اخلاصه وبراءة سهراته ، قانعة من الألم والحزن ببيتها فى دائرة الأسرة الضيقة - مجلس القهوة - من دون أن تظفر بتأييد جدى ، وكيف لها بذلك فى بيئة ترى الخضوع للرجال دينا وعقيدة ، بل لعل الست امينة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطمح اليه من استئثار غريب ببعْلِها ، لأنها لم يكن يسعها أن تصور النساء الا على مثالها هى ولا الرجال الا على مثال زوجها ، فلم تر فى استمتاع ياسين بحريته عجبا ولكن شكوى زوجه بدت هى العجب ، فهمى وحده قدر

أحزانها فتطوع لترديدها على مسمع من ياسين ولو انه ايقن من بادئ الامر انه يدافع عن قضية خاسرة ، ولعل ما شجعه على ذلك كان كثرة تلاقيهما في قهوة أحمد عبده بخان الخليلى ، تلك القهوة التى تقع تحت سطح الارض كأنها كهف منحوت فى جوف جبل ، مسقوفة بربوع الحى العتيق ، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتقابلة ، وباحتها التى تتوسطها نافورة صامتة ، ومصابيحها التى تفاد ليل نهار ، وجوها الهادىء الحالم الرطيب ، كان ياسين قد مال الى هذه القهوة لدنوها من حانة كوستاكى من ناحية ولأضراره الى هجر قهوة سى على بالغورية بعد قطع زنوبة من ناحية أخرى ، ثم لما خصت به القهوة الجديدة من طابع اثرى صادف هوى من نفسه الميالة للشعر ، اما فهمى فلم يعرف طريق المقاهى لخلل طرا على سلوكه كطالب مجتهد ولكن تلبية لنداء تلك الايام الذى دعا الطلبة وغيرهم الى التجمع والتشاور ، فاختر ونفر من زملائه قهوة أحمد عبده - لنفس ميزاتها الاثرية التى جعلتها بمان من العيون - للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنبؤ ، وانتظار الحوادث ، كثيرا ما التقى الاخوان فى حجرة من الحجرات الصغيرة ولو لحين قليل اى حتى يصل زملاء فهمى او يأزف ميعاد ياسين للانتقال الى حانة كوستاكى ، وفى مرة من هذه المرات اشار فهمى الى كدر زينب مبدىا دهشته لسلوك اخيه الذى لا يتفق مع حياة زوجية ناشئة ، ضحك ياسين ضحك رجل يرى لنفسه الحق كل الحق فى أن يضحك من سداجة الآخر الذى ارتضى أن يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهله ، بيد أنه لم يشأ أن يبرر سلوكه مباشرة ، مؤثرا أن ينفس عن صدره بما يعن له من قول ، قال مخاطبا النساب :

- رغبت يوما فى الزواج من مريم ، ولست اشك فى انك حزنت جد الحزن لموقف ابيك الذى منع تلك الرغبة من أن تتحقق . . اقول لك ، وانا ادرى بما اقول ، انك لو علمت وقتذاك بما يخفى الزواج وراء سطحه لحمدت الله على الفشل . .

دهش فهمى لحد الانزعاج لانه لم يتوقع ان يباغت فى اول جملة يخاطب بها بالفاظ تجمع بين « مريم » و « الزواج » و « الرغبة » ، أفكار لعبت على مسرح صدره ادوارا لا تنسى ولا تمحى آثارها ، فلعله بالغ فى اظهار دهشته ليخفى ما اثاره الذكريات فى نفسه من الشجن والتأثر ، ولعله

لذلك لم يستطع أن ينبس بكلمة . فتابع ياسين حديثه وهو يلوح بيده
سأما ومللا قائلا :

- ما كنت أتصور أن ينجلي الزواج عن هذا الخواء . انه في الحق لا يعدو
إن يكون حلما كاذبا ، وقاسيا ككل شيء خبيث الخداع !

بدا له قوله عسير الهضم مثيرا للريب كما يخلق بتلاب تتدفق ينابيع
حياته الوجدانية نحو هدف واحد لا يتمثل له الا في صورة « زوجة »
وتحت مقولة « الزواج » فعز عليه أن يتناول اخوه المستهتر مقولته
المقدسة بهذه المرارة الساخرة ، وتمتم في دهشة بالغة :

- ولكن زوجك سيده .. كاملة .. !

فهتف ياسين ساخرا :

- سيده كاملة ! هو ذاك ، ليست كريمة رجل فاضل ؟ .. وريسة
اسرة كريمة ؟ .. جميلة ؟ .. مهذبة ؟ .. ولكنى لا ادري اى شيطان
موكل بالحياة الزوجية يجعل من جميع المزايا السالفة اعراضا تافهة لا
يلقى اليها ببال تحت ضغط الملل المسقم كانها بعض ما نصدق على الفقير
من صفات النبل والسعادة كلما تراءى لنا أن نعزى فقيرا عن فقره . !

فقال فهمى ببساطة وصدق :

- لا أفهم حرفا مما تقول ..

- انتظر حتى تعرف بنفسك ..

- لماذا اذن يصبر الناس على الزواج منذ بدء الخليقة ؟ ..

- لأن الزواج - كالموت - لا ينفع معه التحذير ولا الحذر ..

ثم مستطردا وكأنه يخاطب نفسه :

- لشد ما عبث بى الخيال فسما بى الى عوالم تفوق مباهجها الاحلام ،
وطالما ساءلت نفسى هل يجمعنى حقا بيت واحد بغادة حسناء الى الأبد ؟ !
ياله من حلم .. ولكنى أوكد لك بأنه ليست ثمة مصيبة افدح من أن
يجمعك بيت واحد بحسباء الى الأبد ..

غمغم فهمى فى حيرة رجل يعز عليه - فيما يكابد من اثواق الشباب
- تصور الملل :

- لعله بدت لعينيك اشياء وراء الظاهر الذى لا يعاب !

فقال ياسين وهو يضحك بمرارة :

- لا أشكو الا الظاهر الذى لا يعاب ! ... شكواى فى الحق منصبة على
الجمال نفسه ! .. هو .. هو الذى مللت لحد السقم ، كاللفظ الجديد
يهرك معناه لأول مرة ثم لا تزال تردده وتستعمله حتى يستوى عندك

والفاظ مثل « الكلب » و « الدودة » و « الدرس » وسائر الأشياء المتبدلة ،
يفقد جدته وحلاوته ، وربما نسيت معناه نفسه فغدا مجرد لفظ غريب
لا معنى له ولا وجه لاستعماله ، ولعله لو عثر عليه الغير في انشائك اخذهم
العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لففتهم ، ولا تسئل عما في ملل
« الجمال » من فجيرة ، اذ أنه يبدو مللا بلا عذر مقبول ، وبالتالي قضاء
محتوما . . فيتعذر التفادي من يأس ليس له من قرار ، لا تعجب لقولي ،
اني عاذرك لأنك تنظر من بعيد ، والجمال كالسراب لا يرى الا من بعيد . .
على مرارة الهجة شك فهمي في حقيقة بواعثها اذ انه مال من باديء
الأمر الى اتهام أخيه - لا الطبيعة البشرية - لما عرفه عنه من انحراف
السلوك ، الا يجوز أن ترد شكواه في الحق الى ما لهج به من مجون في حياته
السابقة على الزواج ؟! . . اصر على هذا الظن اصرار رجل يأبى أن يفجع
في اعز آماله ، ولما كان ياسين لا يهتم بآراء أخيه بقدر ما يهتم بالافصحاح
عما في صدره هو ، فقد واصل حديثه وهو يتسم لأول مرة ابتساما
وضيئة :

- أصبحت ادرك موقف ابى حق الإدراك! . . . وافهم ما جعل منه ذاك
انرجل العرييد الراكض وراء العشيق ابدا! . . كيف كان يتأني له ان
يصبر على طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلتى الملل بعد خمسة
اشهر ؟!

فقال فهمي وقد قلق لاقحام ابيه في الحديث :

- حتى على افتراض ان شكواك صادرة عن تعاسة مركبة في الطبيعة
البشرية ، فالحل الذي تبشر به . . (هم بأن يقول : بعيد عن الطبيعة
السوية ثم عدل عنه ليكون اكثر منطقية فقال) . . بعيد عن الدين . .
فقال ياسين الذي كان يقنع من الدين بالايمان دون اكتراث جدى
لأوامره ونواهيه :

- الدين يؤيد رأبي ، وآى ذلك أنه سمح بالزواج من اربع غير الجوارى
اللاتى كانت تكتظ بهن قصور الخلفاء والأغنياء ، فقد فطن اذن الى ان
الجمال نفسه - اذا ابتدلت العادة والألفة - مل واستقم وقتل . .
فقال فهمي باسم :

- كان لنا جد يسمى مع زوجة ويصبح مع اخرى فلعلك ان تكون
وريشه . . .

فتمتم ياسين متنهدا :
- لعلى . . .

على ان ياسين - حتى ذاك الوقت - لم يكن أقدم على تحقيق حلم من أحلامه المتمردة ، حق انه رجع الى القهوة فالحانة ولكنه نردد قبل ان يخطو الخطوة الاخيرة ، قبل ان ينزل الى زنوبة او الى غيرها . وما الذى جعله يفكر ويتردد ؟ .. ربما لم يخل من احساس بالمسئولية حيال الحياة الزوجية ، وربما لم ينج من تهيب لراى الدين في « الزوج الفاسق » الذى تؤكد لديه انه غير رأيه في « الشاب الفاسق » .. وربما ايضا ان خيبة أقوى أمل تردد في جوانبه صدت نفسه عن لذات الدنيا حتى يفيق . على ان واحدة من اولاء لم تكن لتقيم في سبيله عائقا جديا خليقا بأن يقف مجرى حياته ، الا أنه وجد اغراء لا يصمت في سيرة ابيه التى استحوزت عليه ، وما بدا من زوجه من « حكمة » قرنتها في ذهنه بامراة ابيه فينسط خياله الى رسم تخطيط لحياتها المستقبلية معه على مثال حياة الست امينة مع ابيه ، اجل تمنى كثيرا لو تطمئن زينب الى الحياة التى تقدر عليها كما تطمئن امراة ابيه الى حياتها ، فيشب هو مثل وثبات ابيه الموقفة ليعود آخر الليل فيحظى ببيت هادى وزوجة مستنمة ، بذلك - وبذلك وحده تراءت له الحياة الزوجية محتملة ، بل انيرة ذات مزايا تفتقد . « فيم تطمع اية امراة وراء البيت الزوجى والارتواء الجنى ؟! .. لا شيء ! .. »
انهم حيوانات اليفة كالحيوانات الليفة ينبغى ان يعاملن ، اجل لايجوز للحيوانات الليفة ان تتطفل على حياتنا الخاصة وانما عليها ان تنتظر في البيت حتى نفرغ لمداعبتها ، ان اكون زوجا خالصا للحياة الزوجية هو الموت ، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد ، خلاصتها في النهاية عدد محدود من الحركات والأصوات لاتزال تكرر وتكرر .. حتى تنقلب الحركة والجمود سبين ، والصوت والصمت توأمين ، كلا كلا « ما لهذا تزوجت .. ان قيل انها بيضاء ، الست ذا مآرب في السمراء ، بل والسوداء .. وان قيل انها مدملجة فما عزائي عن النحيلة والجسيمة ، ان انها مهذبة سليمة نبل وكرم فهل عطلت من المزايا ربيبة العربات الكارو ؟! .. الى الامام .. الى الامام .. »

- ٣٠٠ -

- ٥١ -

كان السيد مكبا على دفتاره حين طرقت عتبة الدكان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام غرزي ، فرأى امرأة تشتمل الملاءة اللف منها على جسم لحيم وتنحسر حافة البرقع الأسود عن جبين ناصع وعينين مكحولتين ، فابتسمت أساريره في ترحاب طال تشوقه اليه ، وعرف من تود الست أم مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أخيرا ، ولما كان جميل الحمزاوى مشغولا ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كنب من مكتبه ، فأقبلت المرأة تخطر وجلست على المقعد الصغير الذي فاضت عنه أعطفافها وهى تلقى إليه بـتحية الصباح . ومع أن التحية من ناحيتها والترحاب من ناحيته جريا على النحو المعهود الذى يتكرر كلما جاءته « زبونة » تستحق التكريم ، فإن الجوالدى غشى ركن الدكان من حصول المكتب شحن بكهرباء تعوزها البراءة ، لاحت امارات لها فى الجفنين المسبلين حياء حول عروس البرقع من ناحية ، والبنظرة المتربصة فوق سفح الأنف العظيم من ناحية أخرى ، كهرباء خفية صامتة الا ان نورها الكامن كان متحفزا فى انتظار لمسة كى يسطع ويشعشع ويستعر نارا . . كأنه كان ينظر هذه الزيارة التى انجابت عن آمال مهموسة واحلام مكبونة ، ولكن لأن وفاة السيد محمد رضوان أثارت منه فكرا وهيجت رغبات كما يهيج انطواء الشتاء شتى آمال الشباب فى الطبيعة والأحياء ، زال بموته الشجاء الذى اعترض احساسه بالمرودة فأمكنه أن يذكر نفسه بأن المرحوم لم يكن الا جاراً - لا صديقاً - ورحل ، كما أمكن شعوره بجمل هذه المرأة الذى أعرض عنه قديما حفاظا على كرامته ان يعبر عن ذاته ويطالب بنصيبه من المتعة والحياة ، الى ان عاطفته نحو زبيدة كان أدركها العطب كالفأكة فى نهاية موسمها ، فلاقت المرأة منه - على خلاف الزيارة السابقة - ذكرا متوثبا وعاشقا متحررا . . على أن خاطرة ثقيلة - ان تكون الزيارة بريئة - مرت به ولكنه نفاها عن نفسه بقوة ، مستشهدا بما ند عنها فى الزيارة القديمة من رقيق الاشارات وبديع الريب ، مؤكدا ظنونه بهذه الزيارة نفسها التى ليس ثمة ما يوجبها ان لم يكن مثل ما يدور بنفسه ، ثم صمم أخيرا على ان يتلمس سبيله كخبير قديم . . فقال لها بركة باسماء :

- خطوة عزيزة . . !

فقلت في شيء من الارتباك :

- الله يكرمك ، كنت راجعة الى البيت فمررت بالمكان فترأتى لى
ار آخذ لوازم الشهر بنفسى ..

فطن الى « اعتذارها » عن المجيء ولكنه أبى أن يصدقها . فان يترأتى
لها أن تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئاً ان لم يكن وراءه دافع .
لا سيما وأنها تدرى بالبداهة والفريضة أن مجيئها بعد « مقدمات » الزبارة
القديمة خليق بأن يثير في نفسه الريب ، وأن يبدو لعينية « تمحكا » غير
خافى الدلالة ، فزادته مبادرتها الى الاعتذار ثقة وقال :

- فرصة طيبة لأحييك ولاكون في خدمتك ..

فشكرته في اقتضاب أصفى اليه بنصف انتباه اذ شغل بالتفكير في
الكلمة التالية ، لعله كان من الطبيعي أن يعرج على ذكر الزوج الراحل
مترحمًا ولكنه تحاشى هذا الخاطر أن يفسد عليه الجو كله ، ثم تساءل
هل يهاجم أو يمسك حتى يستدرجها الى الهجوم ؟ .. لكل طريقة
لدها .. بيد أنه لم يشأ أن ينسى أن مجيئها وحده خطوة كبيرة من جانبها
تستحق حسن الاستقبال من جانبه ، فاستطرد قائلاً وكأنه يتم حديثه
الاول :

- بل فرصة طيبة كى أراك .. !

تحرك الجفنان والحاجبان حركة ربما دلت على الحياء أو الارتباك أو
كليهما معا ، ولكنها فضحت قبل كل شيء فطنتها الى ما وراء مجاملتها
الظاهرة من معان خفية ، على أنه رأى في حياتها استجابة لشعورها الباطنى
الذى دفعها الى زيارته أكثر منه استجابة لقوله ، فازداد اطمئنانا الى
تخمينه الاول وراح يؤكد ما عناه في نعمة رقيقة قائلاً :

- أجل فرصة طيبة كى أراك ..

عند ذاك قالت بلهجة تنم عن عتاب حبيس :

- لا اظن أنك تعد رؤيتى فرصة طيبة .. !

فوقعت لهجة العتساب من صدره موقع الرضى والسرور ، لكنه قال
كالمحتج :

- صدق من قال ان بعض الظن اثم ..

فهزت راسها هزة كأنما تقول له « هيهات ان يؤثر في مثل هذا الكلام »
وقالت :

- ليس ظنا فحسب ، انى أعنى ما أقول ، انك رجل لا يعوزك الفهم .

وانا كذلك وان توهمت غيره .. فلا يجوز لأحدنا أن يحاول خدع صاحبه .

ومع أن صدور هذا الكلام عن امرأة لم يمض على وفاة زوجها شهران انار في نفسه شعورا بالسخرية والمرارة ، فانه تطوع لانتحال الأعدار لها - الأمر الذى لم يكن ليفكر فيه في ظروف أخرى - قائلا لنفسه : ما أحرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها ، ثم تخلص من شعوره الطارئ بقوة وقال متصنعا للأسى :

— غاضبة على ؟ ! .. ياله من حفل سيء لا أستحقه .

فكانت في شيء من الاندفاع ربما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الأخذ والرد :

— قلت لنفسى وانا في الطريق اليك « ما ينبغى أن تذهبنى » .. فلا يحق لى الآن أن ألوم الا نفسى !

— بعض هذا الغضب يا ست ! .. انى اسائل نفسى عما جنىت .. لا ! فتساءلت بلهجة ذات معنى :

— ما عسى أن تصنع اذا حييت انسانا بتحية فلم يرد بمثلها ولا حتى بأسوا منها ؟ !

فأدرك من توه انها تشير الى مابدا منها في الزيارة القديمة من تودد قابله بالصمت ، ولكنه تجاهل الاشارة .. وقال مجازاة لاسلوبها الرمزي :

— لعلها لم تبلغ سمعه لسبب أو لآخر ..

— انه قوى السمع والحواس جميعا ..

فجرت على فمه ابتسامة عجب لم يتمالكها ، قال بلهجة المذنب اذا انشأ يعترف :

— لعله لم يردها حياء او تقوى ..

فكانت بصراحة اعجبته وهزت فؤاده :

— اما الحياء فلا حياء له ، واما سائر الاعذار فمن اين للقلوب الصادقة ان تبالها !

فندت عنه ضحكة ما لبث ان اختزلها وهو يسترق النظر الى جميل الحمزاوى الذى بدا منهمكا في العمل بين نفر من الزبائن ، ثم قال :

— لا احب ان اعود الى الملابس التى قسمت على وقتذاك ، على انه

لا يجوز لى أن يأس مادام ثمة ندم وتوبة وعفو !

فتساءلت في انكار :

— من يدرينا بالندم ؟

- ٣٠٣ -

فقال بلهجة حارة برع في تجويدها عاما بعد عام :

- تجرعتنه طويلا والله شهيد ..

- والتوبة ؟

فقال وهو يتقبها بنظرة متوهجة :

- ان ترد التحية بعشر امثالها !

فتساءلت في دلال :

- ومن اراك بأن ثمة عفوا ؟

فقال بلباقة :

- اليس العفو من شيم الكرام !

ثم في نشوة مسكرة :

- العفو كثيرا مايكون كلمة السر لولوج الجنة ..

ثم وهو يرنو الى ابتسامة عذبة لاحت في عينيها :

- الجنة التى اعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين بالنحاسين ، ومن

جميل التوفيق ان بابها يفتح على عطفة جانبية بعيدا عن عين ارقباء .

والا حارس لها .. !

وفطن الى ان حارس الجنة السماوية سمي « المرحوم » الذى كان

حارسا للجنة الارضية التى يتلمس طريقه اليها ، فشاب خاطره ضيق

وخاف ان تكون المرأة قد فطنت الى نفس الحقيقة الساخرة ولكنه وجدها

مهومة فيما يشبه الحلم فتنهده وهو يستغفر الله فى سره . وكان جميل

الحمزوى قد فرغ من زبائنه ، فاقبل على السيدة ليقضى حوائجها

فسنحت للسيد فرصة للتأمل ، فراح يذكر كيف رغب ابنه فهمى يوما

فى خطبة مريم ابنة هذه المرأة ، ثم كيف ألهمه الله الرفض ، وقد اعتقد

وقتذاك انه انما ينفذ مشيئة حرمه فحسب ، فلم يدر له بخلد انه جنب

ابنه شر مأساة ينكب بها زوج ، وهل يمكن أن تنهج فناة الا على مثال

امها ؟ .. واى أم ؟ .. امرأة خطيرة .. ! قد تكون جوهرة ثمينة عند

امثاله من الصيادين ، ولكنها فى البيوت مأساة دامية ، ترى اى طريق

سلكت طوال الاعوام التى عاشها زوجها ميتا حيا ؟ .. كل القرائن تشير

الى طريق واحد ، ولعل كثيرين من الجيران يعرفون ، بل لعله لو كان فى

بيته من يحسن ملاحظة هذه الامور لما خفى عليه شئ ، ولما بقيت زوجته

على الولاء لها والايمان بها حتى هذه الساعة ، وعاودته رغبة - استحوذت

عنه اول مرة عقب الزيارة المريبة القديمة ، ولم يجد عندئذ سبيلا آمنا

الى تحقيقها دون اثاره الريب - وهى ان يحول بين المرأة المستهتره وبين

ببته الطاهر ، الآن يرى الظرف مهياً - لاتصاله المنتظر بها - لتحقيق
رغبته ، وذلك بأن يوحى لها بقطع أسبابها بزوجه رويدا منتحلا ما يعن
له من اعداد حقيقة ببلوغ الهدف دون مساس بكرامتها ، هذه المرأة
التي باتت أقرب مانكون الى فؤاده وأبعد ماتكون عن احترامه فى لحظة
واحدة ! .. ولما انتهى الحمزاوى من اعداد حوائجها نهضت مادة يدها
الى السيد فسلم باسمها وهو يقول بصوت خافت :
- الى اللقاء ...

فغمغت وهى تهم بالانصراف :

- نحن فى الانتظار ..

غادرته اوفر سعادة ، نشوان بالظفر والعجب ، ولكنها خلقت له أيضا
هما لم يكن ، هما جذيرا بأن يحتل مكانا بارزا من مشاغله اليومية ، سوف
يتساءل من الآن فصاعدا عن أمن السبل للانسحاب من بيت زبيدة
بنفس الاهتمام الذى يتساءل به عما فعلت السلطة العسكرية وعما يبيت
الانجليز وعما ينوى سعد ، أجل جد جديد من السعادة يجز وراءه -
كالعادة - ذيلا من الفكر ، لولا حرصه الشديد على حب الناس له ،
ذلك الحب الذى يحظى منه بأسعد سعاداته ، لكان عليه هجر العالمه بعد
ان بلى حبه وذوت أزاهره وأغرقه الشبع فى مستنقع آسن ، ولكنه يشفق
دائما من ان يترك وراءه قلبا حائقا أو نفسا حاقدة ، وكم يود كلما ضيق
الملل أنفاسه لو يبداه الحبيب بالهجر من ناحيته فيكون مهجورا بدل ان
يكون هاجرا ، وكم يود ان تنتهى علاقته بزبيدة كما انتهت أخوات لها من
قبل ، بكدر عابر تفصله هدايا الوداع المنتقاة ، ثم يستحيل الى صداقة
وطيدة ، فهل تتقبل زبيدة - التى يظن انها ليست دونه شعبا - اعتذاره
بقبول حسن ؟ .. وهل يطمع فى ان تغفر له هداياه ما اعتزم من هجر ؟ .
هل تثبت انها امرأة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جليلة مثلا ؟ .
هذا ما ينبغى ان يفكر فيه طويلا وان يهيبه له أنجع الدرائع . وتنهذ تنهدة
طويلة كأنها يشكو ما جعل الحب فانيا لايدوم ليكفى القلب متاعب الاهواء
ثم شرد به الخيال طاويا النهار فترأى له وهو يدب فى الظلماء متمسكا
سبيله الى البيت الموعود ، والمرأة تنتظر بيدها سراج ...

أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية . فهي حماية باطلة لا وجود لها قانونا بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها

كان فهمى يملئ الكلمات ، كلمة كلمة . فى اناة وبصوت واضح النبرات والام ، ياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الاملاء الجديد الذى انكب كمال على كتابته ، مركزا وعيه فى الفاظه من دون ان يفقه معنى كلمة مما كتب صوابا او خطأ . لم يكن غريبا ان يلقي فهمى على شقيقه الصغير درسا فى الاملاء او غيرها فى جلسة القهوة ، ولكن موضوع الاملاء بدا جديدا حتى للام وزينب ، اما ياسين فنظر الى اخيه مبتسما وقال :
- ارى هذه المعانى قد ملكت عليك نفسك .. فلم يفتح الله عليك باملاء لهذا الفلام المسكين الا خطبة سياسية وطنية يفتح لها المغلق من ابواب السجون ..

فبادر فهمى الى تصحيح راي اخيه قائلا :
- هى من خطبة سعد امام اساطين الاحتلال فى جمعية الاقتصاد والتشريع ..

فتساءل ياسين باهتمام ودهشة :
- وكيف كان ردهم عليه ... ؟
فقال فهمى بانفعال :

.. - لم يجيء ردهم بعد ، والكل يتساءل عنه فى حيرة وقلق ، انها غصبة مزمجرة فى وجه اسد لم يؤثر عنه الحلم أو العدل ..
ثم وهو يتنهد مغيظا محنقا :

- كان لابد من غصبة بعد ان منع الوفد من السفر ، وبعد ان استقال رسدى باشا من الوزارة فخيّب السلطان المأمول بقبول استقالته ..
ثم مضى الى حجرته مسرعا ، وعاد وهو يبسط ورقة مطوية وقدمها الى اخيه وهو يقول :

- ليست الخطبة كل ما عندى ، اقرأ هذا المنشور الذى يوزع سرا متضمنا رسالة الوفد الى السلطان .

فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ :
- يا صاحب العظمة ...

يتشرف الموقعون على هذا اعضاء الوفد المصرى ان يرفعوا الى مقام
عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلى :

لما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادئ الحرية والعدل اساسا للصلح
وأعلنوا أن الشعوب التى غيرت الحرب مركزها يؤخذ رأيها فى حكم نفسها
أخذنا على عاتقنا السعى فى استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها امام مؤتمر
السلام مادام أن الحق الأقوى قد زال من ميدان السياسة ، وما دامت
بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركية حررة من كل حق عليها لأن
الحماية التى أعلنها الانجليز بلا اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة ،
ولم تكن فى الواقع الا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب ، اعتمادا على
هذه الظروف وعلى أن مصر غرمت كل ما قدرت عليه من المغارم فى صف
القاتلين بحماية حرية الامم الصغرى ، لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع
من الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادئ التى أسس عليها .
عرضنا رغبتنا فى السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين
رشدى باشا ، فوعد بمساعدتنا على السفر وتوقا منه باننا انما نعبر عن
رأى الأمة كافة . فلما لم يسمح لنا بالسفر ، وحسنا داخل حدود
بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون ، وحيل بيننا وبين الدفاع عن
قضية هذه الأمة الاسيفة ، ولما لم يستطع دولته ان يحتمل مسؤولية
البقاء فى منصبه فى حين ان الشعب يصادر فى مشيئته ، استقال هو
وزميله صاحب العالى عدلى يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب
بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما .

ولقد كان الناس يظنون انه كان لهما فى وقفتهما الشريفة دفاعا عن
الحرية عضد قوى من نفحات عظمتكم . لذلك لم يكن ليتوقع احد فى
مصر ان يكون اخر حل لسالة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين ،
لأن فى ذلك متابعة للطامعين فى اذلالنا وتمكيننا للعقبة التى القيت فى سبيل
الادلاء بحجة الأمة الى المؤتمر ، وايدانا بالرضى بحكم الاجنبى علينا
الى الابد .

قد نعلم ان عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية ان تقبلوا
عرش ابيكم العظيم الذى خلا بانتقال اخيكم المغفور له السلطان حسين ،
ولكن الأمة من جهة اخرى كانت تعتقد ان قبولكم لهذا العرش فى زمن
الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه ان
يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم ، غير ان حل السالة بقبول استقالة
الوزيرين اللذين اظهرا احترامهما لارادة الأمة لا يمكن ان يتفق مع ما جبلتم

عليه من حب الخير لبلادكم . والاعتداد بمسئلة تبعكم . لذلك عجب
الس من مستشاريكم كيف انهم لم يلتفتوا الى الامة في هذا
الظرف العصيب انما تطلب منكم - با ارتشد ابناء محررها الكبير محمد
على - ان تكونوا لها العون الاول على نيل استقلالها . مهما كلفكم ذلك .
فان همتكم ارفع من ان تحددوا الظروف . كيف فات مستشاريكم ان
عبارة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة وطنية
ان يخلفه في مركزه ؟! . كيف فاتهم ان وزارة تؤلف على برنامج مضاد
لنسيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟!

عفوا مولانا قد تكون مداخلتنا في هذا الامر وفي غير هذا الظرف غير
لائقة . . ولكن الامر قد جل الآن عن ان يراعى فيه اى اعتبار غير منفعة
الوطن الذى انت خادمه الامين . ان لمولانا اكبر مقام في البلاد فعليه
اكبر مسئولية عنها ، وفيه اكبر رجاء لها ، واننا لا تكذب النسيئة اذا
تضرعنا اليه ان يتعرف راي امه قبل ان يتخذ قرارا نهائيا في امر الامة
الحالية ، فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق احد في رعاياه من
اقصى البلاد الى اقصاها الا وهو يطلب الاستقلال ، فالجولة بين الامة
وبين طلبتها مسئولية لم يتحرر مستشارو مولانا امرها بالدقة الواجبة .
لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا واخلصنا لمولانا ان نرفع لسدته شعور
امته التى هى الآن اشد ماتكون رجاء في استقلالها وأخوف ماتكون من
ان تلعب به ايدي حزب الاستعمار ، والتي تطلب اليه بحقها عليه ان
يفضب لغضبها ويقف في صفها فتتال بذلك غرضها . . وانه على ذلك
للدبر . . «

رفع ياسين رأسه عن المنشور وفي عينيه ذهول وفي قلبه نبض جديد
من التأثير ، بيد انه هز رأسه قائلا :
- يا له من خطاب . . لا احسبني استطيع ان اوجه مثله الى ناظر
مدرستى دون ان ينالني العقاب الرادع !
فرفع فهمى منكبيه استهانة وقال :
- الامر قد جل الآن عن ان يراعى فيه اى اعتبار غير منفعة الوطن !
ردد العبارة عن ظهر قلب كما وردت في المنشور . فلم يتمالك ياسين
ان يقول ضاحكا :

- احفظت المنشور . . ولكنى لا اعجب لهذا ، كأنك كنت تترصد طول
حياتك لمثل هذه الحركة كى تلقى اليها بكل قلبك ، ولعللى لا اخلو

من مثل شعورك وآمالك ، ولكنى لا أقرك على الاحتفاظ بهذا المنشور ..
خصوصا بعد استقالة الوزارة وتحرش الاحكام العرفية ..
فقال فهمى فى فخار :

— انى لا احتفظ بها فحسب ، ولكنى اقوم بتوزيعها ما سمح الجهد !
فاتسمت عينا ياسين فى قلق وهم بالكلام .. ولكن الام كانت اسبق
اليه منه فقالت بانزعاج

— لا اكاد اصدق اذنى ، كيف تعرض نفسك للشر وانت سيد العقلاء؟!
لم يدر فهمى كيف يجيبها ، ولكنه شعر بما جره عليه تهوره من
حرج ، لم يكن اشق عليه من محادثتها فى هذا الامر ، كانت السماء اقرب
اليه من اقناعها بان تعريض نفسه للخطر فى سبيل الوطن واجب ما دام
الوطن كله لا يساوى فى نظرها قلامة ظفره ، بل قد بدا له ان اخراج
الانجليز من مصر ايسر من حملها على الاقتناع بوجوب اخراجهم او
اغرائها ببغضهم ، فما ان يدور الحديث حول ذلك حتى تقول ببساطة:
« لماذا تكرههم يابنى ؟ .. اليسوا اناسا مثلنا لهم ابناء وامهات ؟ ! »
فيقول لها بحدة : « ولكنهم يحتلون بلادنا ! » .. وتحس بحدة الغضب
فى نبراته فتلوذ بالصمت وهى تدارى نظرة اشفاق لو نطقت لقالت له
« لاعليك من هذا » .. ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها : « لاهياة تقوم
اذا حكمهم اجنبى » فقالت له فى استغراب « ولكننا لانزل احياء رغم
انهم يحكموننا من زمن بعيد ، وقد انجبتكم جميعا فى طل حكمهم ! ..
انهم يابنى لا يقتلون ولا يتعرضون للمساجد ولا تزال اممة محمد بخير ! »
فقال الشاب يائسا « لو كان سيدنا محمد حيا مارضى ان يحكمه الانجليز »
فقالت بلهجة الحكيم « هذا حق ، ولكن اين نحن من الرسول عليه الصلاة
والسلام ؟ .. كان الله يعينه بملائكته .. » فتهف بها حائفا « سيعمل
سعد زغلول ما كانت الملائكة تعمله » ولكنها هتفت وهى ترفع ذراعيها
كانما تدفع بلاء لا دافع له « لا تقل هذا يابنى ، استغفر ربك ، اللهم
رحمتك وغفرانك ! » .. هذه هى ، فكيف يجيبها الآن ، وقد استشعرت
فى توزيع المنشور خطرا يهدده لا .. لم يسعه الا ان يركن الى الكذب
فقال متصنعا الاستهانة :

— ما اردت الا المزاح فلا تنزعجى لاشيء ..

فعادت المرأة تقول بنبرات تنم عن ضراعة :

— هذا ما اومن به يابنى ، هيهات ان يخيب ظنى فى ارشد الراشدين ،

مالنا نحن وهذه الامور ! اذا رأى باشواتنا أن يخرج الانجليز من مصر
فليخرجوهم بأنفسهم .

بدأ كمال طوال الحديث وكأنه يحاول أن يتذكر أمرا ذا بال . فما أن
بلغ الحديث تلك النقطة حتى صاح :

- مدرس العربى قال لنا بالأمس أن الأمم تستقل بعزائم ابنائها !..
فهتفت الأم ساخطة :

- لعله قصد بخطابه كبار التلاميذ ، ألم تحدثنى يوما بان عندكم
تلاميذ قد طرت شواربهم ؟
فتساءل كمال بسداجة :

- وأخى فهمى اليس تلميذا كبيرا ؟

فقال الأم بحدة على غير مألوفها :

- كلا ، ليس أخوك كبيرا ، انى اعجب لذلك المدرس كيف سولت له
نفسه أن يتحدث اليكم فى غير الدرس ! .. اذا شاء أن يكون وطنيا حقا
فليوجه هذا الكلام الى أبنائه فى البيت لا الى أبناء الناس !..

كاد الحديث يحمى ويستمر لولا أن سنحت كلمة عابرة فقيرت
مجراه ، أرادت زينب أن تتودد الى الأم بتأييدها فى دفاعها فحملت على
مدرس العربى ونعتته بأنه « مجاور حقير جعلت الحكومة منه رجلا
ذا شأن فى غفلة من الزمان » .. ولكن ما أن سمعت الأم هذه الإهانة
توجه الى « المجاور » حتى أفاق من انفعالها وأبت أن تسكت عنها
رغم أنها قيلت تأييدا لها ، مدفوعة بكل ما تنطوى عليه نفسها من اجلال
لذكرى أبيها فتحولت الى زينب وقالت بهدوء :

- انب يا ابنتى تحقرين أشرف ما فيه ، الشيوخ خلفاء الرسل ،
انما يلام الرجل على خروجه عن حدود وظيفته الشريفة ، الاليته قنع
بان يكون مجاورا وشيخا !..

ولم يفت ياسين سر تحول الأم المفاجيء ، فبادر بالتدخل ليمحو
الأثر الذى تركه دفاع زوجته البريء ..

- ٣١٠ -

- ٥٣ -

- انظر الى الطريق ، انظر الى الناس ، من يقول بعد هذا ان الكارثة لم تقع ؟!

ولكن السيد احمد لم يكن في حاجة الى مزيد من النظر ، الناس يتساءلون ، ويرجفون ، واصحابه يخوضون في الحديث خوفا حاراً تجاوبت فيه الحسرة مع الحزن مع الغضب ، الى ان الخبر قد تردد على السنة كافة من مر به من الاصدقاء والزبائن ، اجمع الكل على ان سعد زغلول وصفوة اصحابه قد اعتقلوا وسيقوا الى مكان مجهول في القاهرة او خارجها ، قال السيد محمد عفت وهو محتقن الوجه بدم الحنق :

- لا تشكوا في صحة الخبر فان لأخبار السوء رائحة تزكم الأنوف ..
الم يكن هذا متوقعا بعد خطاب الوفد للسلطان ؟ .. او بعد رده على الانذار البريطاني بذلك الخطاب الجبار الى الوزارة الانجليزية ؟ ..
فقال السيد بوجوم شديد :

- يعتقلون الباشوات الكبار ! .. ياله من حدث مخيف ، ترى ما عسى ان يصنعوا بهم ؟

- الله وحده يعلم ، البلد يختنق في ظل الحكيم العرفي ..
ودخل عليهم السيد ابراهيم القار تاجر النحاس مهرولا وهو يهتف
لاهثا :

- اما سمعتم بأخر الأنباء ؟! .. مالطة !
وضرب يدا بيد وراح يقول :
- النفي الى مالطة ، لم يعد احد منهم بيننا ، نفوا سعد واصحابه الى جزيرة مالطة ..

وهتف الجميع في نفس واحد :
- نفوهم ! ..

اثار « النفي » في نفوسهم ماخامرهم منذ الصبا من ذكريات قديمة اسيفة عن عرابي باشا ونهايته « فساءلوا وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع : اجري نفس المصير على سعد زغلول وصحبه ؟ .. أينقطع حقا ما بينهم وبين الوطن الى الابد ؟ .. اتموت هذه الآمال الكبار وهي لا تزال في مهد الازهار ؟ .. وشعر السيد بحزن لم يشعر بمثله من قبل ، حزن

ثفيل غليظ شاع في صدره كما يسيع الفيان . فعانى تحب وطاته
خمودا وهمودا واختناقا . وجعلوا بتبادلون نظرات ساهمة واجمة .
ناطقة بغير لسان ، صارخة بلا صوت ، نائرة بلا صخب ، وفي الريق مرارة
واحدة ، ثم جاء في اثر الفار صاحب وثن وثالث مرددين نفس التبا .
آملين أن يجدوا عند الآخرين مسكنا لما يستعر في نفوسهم . فلا يظفرون
الا بالحزن الصامت والوجوم الكئيب والثوران العظيم
- هل تضيع الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس ؟

فلم يحراحد جوابا ، ولبت المسائل يقلب عينيه في الوجوه دون جدوى .
لا جواب تأوى اليه النفس من مضطربها وان أبت أن تسلم جهارا بما
يميتها خوفا ، نفى سعد .. هذا حق ، ولكن هل يعود سعد ولو بعد
حين ؟ .. وكيف يعود سعد ؟ .. أية قوة تعيده ؟ .. لن يعود سعد .
فان تذهب هذه الآمال العراض ؟ .. لقد انبثقت من الأمل الجديد حياة
حارة عميقة يأبى استحواذها عليهم أن يسلمهم لليأس ولكنهم لا يدرون
كيف يعللون النفس ببعثها من جديد .

- ولكن اليس ثمة أمل في أن يكون الخبر شائعة كاذبة !
لم يمر أحد القائل التفاتا ، في حين لم يحفل هو بهذا التجاهل لانه لم
يقصد بقوله في الحق الا تلمس مهرّب - ولو وهمى - من اليأس الخائق .
- أسره الانجليز .. ومن ذا يغالب الانجليز !

- رجل ولا كل الرجال ، بعث لحظة من الحياة باهرة ، ومضى ..
- كالحلم .. وسسوف ينسى فلا يبقى منه الا ما يبقى من حلم عند
الضحى .

وهتف هاتف بصوت أبجه الالم :
- الله موجود ! ..

فهتفوا بصوت واحد :

- نعم .. وهو أرحم الراحمين

ذكر اسم الله فكان كالمقطب الممطس ، جذب اليه شواردهم وجمع
افكارهم التي شتتها اليأس . في مساء ذلك اليوم - ولأول مرة منذ
ربع قرن أو يزيد - بدا مجلس الاخوان مجافيا للهو والطرب يفشاه
الوجوم ، وتنبه أحاديثه جميعا الى الزعيم المنفى ، قهرهم الحزن ، وان
يكن وجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة في الشراب مثلا ، فقد غلب
الأولى على الثانية احتراما للشعور العام ومجاعة للموقف ، بيد أنه لما
طال بهم مطال الحديث حتى استنفدوا أغراضه لاذوا بما يشبه الصمت ،

وما لبث أن ركبهم قلق خفى وشى بحكة الادمان التى تن فى اعماقهم فبدوا وكأنهم ينتظرون اشارة الجسور الذى يتقدم الصفوف ، ولكن السيد محمد عفت قال فجأة :

— آن لنا ان نعود الى بيوتنا ..

لم يكن يعنى ما يقول ، ولكن كأنما أراد ان يندلهم بأنهم اذا تركوا الوقت يمضى كما مضى فلن يبقى امامهم الا أن يعودوا الى بيوتهم ، وكانت المعاشرة الطويلة لقنتهم دقيق التفاهم بالاشارة فتشجع على عبد الرحيم بائع الدقيق بهذا الانذار الخفى وقال :

— انعود الى البيوت دون كاس يخفف من بلوى هذا اليوم !

فحدث قوله فى النفوس ما يحدثه الجراح فى اهل المريض اذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول : « الحمد لله .. نجحت العملية » ، الا أن الذى تنازعه الحزن والرغبة فى الشراب قال فيما يشبه الاحتجاج متسترا على ما اثلج صدره من ارتياح :

— نشرب فى مثل هذا اليوم ؟!

فحده السيد أحمد بنظرة ذات معنى ، ثم قال لمتهمكما :

— دعهم يشربون وحدهم وهلم بنا الى الخارج يا ابن .. الكلب ..

ندت عنهم ضحكات لأول مرة ثم جاءوا بالقوارير وكأنما أراد السيد ان يعتذر عن هذا السلوك فقال :

— ان اللهو لا يغير ما بقلوب الرجال !.

فأمسوا على قوله ، كانت أول ليلة يترددون طويلا قبل الاستجابة الى نداء الصبوات ، وما لبث السيد ان قال متأثرا بمنظر القوارير :

— انما ثار سعد لاسعاد المصريين لا لتعديبهم فلا تخجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب

لم يكن الحزن مما يمنعه من المزاح ، بيد ان الليلة لم تنها بصفاء خال من الكدر ، حتى وصفها السيد فيما بعد بأنها «ليلة مريضة تدلوا فيها بجرعات من الخمر !»

استقبلت الأسرة مجلسها التقليدى فى جو من الوجوم لم تعده من قبل ، انطلق فهمى فى حديث ثورى طويل والدموع فى عينيه ، واستمع ياسين آسفا حزينا ، وودت الأم أن تبذل الكأبة او تخفف البلوى ولكنها انصرفت من انقلاب غرضها عليها ، ثم ما لبثت عدوى الحزن أن انتقلت اليها فرق قلبها للشيوخ العجوز الذى انتزهوه من بيته وزوجه الى منفى بعيد ، قال ياسين :

— أمر محزن ، رجالنا جميعا ، عباس ومحمد فريد وسعد زغلول ..
مشردون بعيدا عن الوطن ..
فقال فهمى بانفعال شديد :

— يا لهم من أوغاد هؤلاء الانجليز !.. نخاطبهم باللغة التي كانوا
يستعطفون بها الناس في محتهم فيجيئون بالانذارات العسكرية والتفنى
والتشريد ..

لم تطق الأم أن ترى ابنها منفعلا على تلك الحال فنسيت مأساة
الزعيم وقالت برقة واستعطاف :
— ارحم نفسك يا بنى ، ربنا يلف بنا !

ولكن هذه اللهجة الرقيقة زادته هياجاً فصاح دون أن يلتفت إليها :
— إذا لم تقابل الارهاب بالفضب الذى يستحقه فلا عاش الوطن بعد
اليوم ، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذى قدم نفسه فدية
لها يعانى عذاب الأسر !..
فقال ياسين متفكرا :

— من حسن الحظ أن الباسل يأتينا بين المنفيين انه شيخ قبيلة
مرهوبة الجانب ولا أظن رجاله يسكتون على نفيه ..
فقال فهمى بحدة :

— والآخرون ؟.. اليس وراءهم رجال أيضا ؟.. انها ليست قضية
قبيلة ولكنها قضية الأمة كلها ..

جرى الحديث بلا توقف وما يزداد الا حدة وعنفًا ولكن المراتين لاذتا
بالصمت أشفاقا ورهبة ، لم تستطع زينب أن تدرك بواث هذه الثورة
العاطفية فلم تفهم لها معنى « نفى سعد ورجاله معه ، ومن المؤكد انهم
لو عاشوا كما يعيش « عباد الله » ما فكر أحد في نفيتهم ، ولكنهم لم
يريدوا ذلك ، أرادوا أمورا خطيرة مرادها وخيم العواقب دون ثمة
ضرورة تدعو إليها ، ومهما يكن من أمرهم فماذا يبعث فهمى على هذا
الغضب الجنونى كان سعدا أبوه أو أخوه ؟.. بل ماذا يبعث ياسين —
وهو الرجل الذى لا يأوى الى فراشه الا مترنحا من السكر — على هذا
الأسف ؟..!.. يحزن حقا من كان مثله على نفى سعد او غيره من
الناس ؟..!.. كان حياتها فى حاجة الى مزيد من التنفيس حتى يعكر
فهمى عليها صفو الجلاسة القصيرة بهذه الثورة التى لا معنى لها ، جعلت
تفكر فى هذا كله وهى تلحظ زوجها من آن لآخر متعجبة ساخطة
ولسان حالها يقول له : « ان كنت صادقا حقا فى حزنك فلا تذهب هذا

المساء - هذا المساء فقط الى الحانة ! » ، ولكنها لم تنبس بكلمة ، كانت احكم من ان تلقى بأفكارها الباردة في هذا التيار الناري ، في هذه الناحية الأخيرة شابهتها الأم التي سريعا ما تفقد شجاعته حيال الغضب وان هان ، لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهي تتابع مشقة الحديث الثائر الهائج ، ولكنها كانت اعظم من زوج ياسين ادراكا لبواعث هذه العواصف فان رأسها لم يخل من ذكرى عرابي كما أن قلبها لم يخل من أسف على افندينا ، أجل أم تكن كلمة « المنفى » عاطلة من المعاني في نفسها ، بل لعالمها خلت من الأمل الجدير بأن يداعب شخصا كفهمي فقد اقترنت في ذهنها - كما اقترنت في ذهن زوجها واصحابه - بالياس من العودة ، والا فاين افندينا ؟ . ومن اجدر منه بالعودة الى وطنه ؟ . ولكن ايظل فهمي على حزنه ما امتد النفي بسعد ... ترى اي نحس في هذه الايام يا بى الا ان يبيتهم نبأ ويصبحهم نبأ حتى زلزل امنهم وكدر صفوهم ؟ كم تتمنى ان يعود السلام الى ربوعه ، وان تطيب هذه الجلسة كما طابت العمر كله ، وان تنبسط اسارير فهمي ويلد الحديث ، كم تتمنى ...

— مألطة ..! هذه هى مألطة !

هكذا صاح كمال فجأة وهو يرفع رأسه عن خريطة البحر الابيض وقد ثبت اصبعه على رسم الجزيرة ونظر الى اخيه بظفر وسرور كأنما عثر على سمس زغلول نفسه ، ولكنه وجد منه وجها متجهما كالحا ، لا استجاب الى ندائه ولا اعاده أدنى اهتمام فباخ الغلام واعاد بصره الى رسم الجزيرة فى ارتباك وحياء ، ومضى يتأمل طويلا وهو يقبض ببصره المسافة بينه وبين الاسكندرية وبينه وبين القاهرة ويتخيل صورة مألطة الحقيقية ما شاء له الخيال ، ومنظر اولئك الرجال الذين يتحدثون عنهم وهم مسوقون اليها ، ولما كان قد سمع فهمي وهو يقول عن سعد ان الانجليز انتزعوه على أسنة الرماح فانه لم يسعه أن يتصوره الا محمولا على أسنة الرماح ، لا متالما أو صارخا كما يتوقع فى مثل تلك الحال ولكن « ثابتا كالطود » كما وصفه اخوه أيضا فى مرحلة أخرى من الحديث ، وكم ود لو يستطيع أن يسأل اخاه عن كنه ذلك الرجل الساحر العجيب الذى يثبت على أسنة الرماح كالطود ، ولكنه حيال ثورة الغضب التى التهمت سلام المجلس كله أجل تحقيق رغبته الى فرصة انسب ، وأخيرا ضاق فهمي بمجلسه بعد ان ايقن ان ما بصره من عاطفة اكبر من أن تروح عنها محادثة اخيه فى هذا المكان الذى يقف

- ٣١٥ -

من شعوره موقف المتفرج ان لم يكن موقف الانكار . نازعته نفسه الى الاجتماع باخوانه في قهوة احمد عبده حيث يظفر بقلوب تسجيب لقلبه ونفوس تسابقه الى الاعراب عما يضطرم في قراراتها من الاحساس والراى ، هناك يسمع اصداء الغضب المتقد في قلبه ويستأنس بأجاءاته الجسورة الملهبة في جو باهر من التعطر الى الحرية الكاملة .
مال الى اذن ياسين وهمس :
- الى قهوة احمد عبده ..

فتنفس ياسين من الأعماق لأنه كان بدا يتساءل وهو من الحرج في غايته - عن وسيلة لبقة ينسحب بها من المجلس ، ليمضى الى سهرته . دون ان يزيد من غضب فهمى اشتعلا . لم يكن مابه من اسف تصنعا . أو لم يكن تصنعا كله ، هز النبأ الخطير قلبه ، ولكنه لو ترك الى نفسه لتناساه بغير جهد كبير ، ولما فرض على أعصابه مافرض من تكلف مجازاة لفهمى ومجاملة له واحتراما لفضبه الذى لم يسبق له ان رآه على مثله من قبل ، غادر الحجرة وهو يقول لنفسه : « حسبى اليوم مابلدت من جهد فى سبيل الحركة الوطنية فان لبدنى على حقا »

- ٥٤ -

على ضربات المعجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتسح فهمى عينيه ، كانت الحجرة مغلقة النوافذ ، فى شبه ظلام الا ملاح من نور باهت وراء خصاص النوافذ ، ترمى الى اذنيه همس أنفاس كمال المترددة فعطف رأسه الى فراشه القريب ، ثم انسالت عليه ذكريات الحياة ، هذا صباح جديد ، انه يستيقظ من نوم عميق سلمه الى تعب شمل النفس والجسم ، وانه لا يدرى ان كان يستيقظ صباح الغد بهذا الفراش أم لا يستيقظ ابدا ، لا يدرى ولا أحد يدرى ، فالموت يجوب شوارع القاهرة طولا وعرضا ويرقص فى أركانها ، ياللعجب ، هاهى أمه تعجن كعدها منذ قديم ، وها هو كمال يغط فى نومه ويتقلب فى أحلامه ، وذاك ياسين يدل وقع قدميه فوق سقف الحجرة على انه انتزع نفسه من الفراش اما ابوه فلعله الآن منتصب القامة تحت ماء الدش البارد ، وها هو نور الصباح ذو البهاء والحياء تستأذن طلائمه فى رقة بالثة ، كل شيء يواصل حياته المهودة كان شيئا م يحدث ، كأن مصر لم تنقلب رأسا على عقب ، كأن الرصاص لا يعزف

باحثا عن الصدور والرءوس .. كأن الدم الزكي لا يخضب الأرض والجدران ، وأغمض الشاب عينيه وهو يتنهد مبتسما الى تيار مشاعره الزاخر بما يحمل في موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وإيمان ، حقا لقد حيا في الأيام الأربعة المنطوية حياة عريضة لم يكن له بها عهد من قبل ، أو انه لم يعرفها الا أطيا في أحلام اليقظة ، حياة طاهر ذرفعة ، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر في سبيل شيء باهر أثمن منها وأجل ، تعرض للموت بلا مبالاة ، وتستقبله بعناد ، وتهجم عليه باستهانة ، وإذا افلتت من مخالبه مرة عادت اليه كرة أخرى متنكبة عن ذكر العواقب جانباً ، شاخصة طوال الوقت الى نور رائع عنه لانجيد ، مدفوعة بقوة لا قبل لها بها ، مسلمة مصيرها لله وهي تشعر به محيطا بها كالهواء يغمرها من كل جانب ، هانت الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرة ، وجلت كغاية حتى وسعت السماوات والأرض ، تأخى الموت والحياة فكأنما يدا واحدة في خدمة أمل واحد ، هذه تؤيده بالجهاد وذلك يؤيده بالغداء ، لو أن الانفجار الرهيب لم يقع لمات غما وكمدا ، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة سيرها الهاديء الوئيد على اطلال الرجال والآمال ، كان لابد من انفجار ينفس عن صدر الوطن ومصدره كالزلال الذي ينفس عن ابخرة باطن الأرض المتجمعة ، فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فالقى بنفسه في خضمها .. متى حدث هذا ؟ وكيف حدث ؟ .. كان راكبا ترام الحجرة في طريقه الى مدرسة الحقوق فوجد نفسه بين شرذمة من الطلاب يتناقشون ملوحين بقبضاتهم ، نفى سعد وهو يعبر عن قلوبنا فاما ان يعود سعد ليواصل جهاده واما ان ننفي معه ، وانضم الراكبون من الأهالي اليهم في الحديث والوعيد حتى الكمساري أهمل عمله ووقف ينصت ويتكلم ، يالها من ساعة ! .. فيها اشرق بنفسه الأمل من جديد بعد ليلة من الحزن والبأس قاتمة ، فأيقن ان هذه النار المتقدة لن تخبث ولن تبرد ، ولما اقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظا ساخبسا مرعدا فسبقتهم قلوبهم اليه ، ثم هرعوا الى زملائهم تحدثهم نفوسهم بحدث وشيك ، وما لبث أن انبرى احدهم مناديا بالاضراب ! .. شيء جديد لم يسمع من قبل ، بيد أنهم هتفوا بالاضراب وهم يتابعون كتب القسانون وجاءهم ناظرهم المستر والتون في لطف غير معهود ونصحهم بالدخول الى الفصول فكان الجواب ان صعد شباب منهم الى أعلى السلم المفضي الى حجرة السكرتير وراح يخطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر الا الانسحاب ، انصت الى الخطيب بمجامع روحه وعيناه شاخصتان الى عينيه وقلبه

يتابع دقاته في سرعة ونشاط ، كم ود لو يصعد الى موقفه فيفيض من معين قلبه المستعر ، ولكنه لم يكن ذا استعداد قوى للخطابة فتنع بأن يردد غيره هواتف نفسه ، وتابع الخطيب بانتباد حملسى حتى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعا في نفس واحد « يحيا الاستقلال » ثم تابع الانصات باهتمام بث الهاتف فيه حيوية جديدة حتى انتبى الخطيب الى مقطع ثان فهتف مع الهاتفين « لتسقط الحماية » ووالى الاصفاء بجسم متصلب من الانفعال وهو يعض على اسنانه ليحبس الدمع الذى زفره جيشان نفسه حتى اذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الهاتفين « يحيا سعد » ، هتاف جديد ، وكل شىء جديدا بدا ذلك اليوم . بيد انه هتاف مطرب رجعه قلبه من الأعماق وظل يردده مع دقاته المتتابعة كانه صدى للسانه ، بل هتاف لسانه كان صدى لقلبه ، فانه ليذكر كيف ردد قلبه هذا الهاتف في صمت مكثوم طوال الليلة السابقة للانفجار التى باتها مغموما محسورا ، كانت عواطفه المكبوتة ، حبه وحماسه وطموحه وتطلعه الى المثل الاعلى واحلامه تائهة مبعثرة حتى انطلق صوت سعد مندويا فانجذبت طائرة اليه كما ينجذب الحمام السابح في الفضاء الى صفير صاحبه ، ثم مايدرون الا والمستر ايموس نائب المستشار القضائى البريطانى لوزارة الحقانية يشق طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد « لتسقط الحماية . . لتسقط الحماية » فتلقاهم الرجل ببرود لم يخرق به حد اللطف ونصحهم بالعودة الى دروسهم داعيا اياهم الى ترك السياسة لآبائهم ، هناك تصدى له احدهم قائلا :

— ان آباءنا قد سجنوا ، ولن ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون .
وتعالى الهاتف من أعماق القلوب كهزيم الرعد فانسحب الرجل مسرعا .
ود الشباب مرة ثانية لو كان هو القائل ، لشد ماتثال المعانى على روحه ولكن يسبقه السابقون الى اعلانها فيشتد حماسه ويتعزى بأن فيما ينتظره عوضا عما يفوته ، وجرت الامور سراجا ، دعا الداعى الى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجهوا الى مدرسة المهندسخانة فرعان ما انضمت اليهم ثم الى الزراعة فخرج طلبتها اليهم هاتفين كانهم على ميعاد ، ثم الى الطب فالتجارة وما بلغوا ميدان السيدة زينب حتى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت اليها جموع الاهالى وتعالى الهاتف لمصر والاستقلال وسعد ، وكلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسة وثقة وايمانا بما يلقون في كل مكان من مشاركة تلقائية واستجابة بدئية ، وما يصادفون من نفوس متحفزة تصدعت بالفضب حتى وجدت في مظاهرتهم المتنفس ، تساول —

ودهشته لحدوث المظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه - « كيف حدث هذا كله ؟ ! » ... لم تكن مضت الا بضع ساعات على الصباح الذي شهد قنوطه وانتهزاه ، ها هو الان ، قبيل الظهر ، يشترك في مظاهرة ثائرة يكشفه فيها كل قلب بأنه صدى لقلبه ، ويردد هتافه ، ويناشده بايمان لا يتزعزع ان يسير الى النهاية ، فأى سرور سروره ، وإى حماس حماسه ! .. لقد انطلقت روحه في سماء من الامل لاتحدها الآفاق ، نادمة على ما اعتورها من قنوط خجلة بما رمت به الابرياء من ظنون ، وفي ميدان السيدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب . رأى مع الرائيين جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتش انجليزى تتقدم ساجدة وراءها ذيو لا من الغبار ، والارض تضطرب تحت وقع السنايك ، انه ليذكر كيف مد بصره نحوهم في ذهول من لم يسبق له ان وجد نفسه عرضة لمثل ذلك الخطر الداهم ، وتلفت فيما حوله فرأى وجوها يلمع في محاجرها الحماس والغضب فتنهذ في عصبية ولوح بيده هاتفاً ، احاط الفرسان بجموعهم ، ولم يعد يرى من الخضم الهائل الذى يضطرب فيه الا رقعة محدودة يفرق بين رءوسها المشرّبة ، ثم ترمى اليهم ان البوليس اعتقل طلاباً كثيرين ممن تصدوا لمخالفته او كانوا على رأس المظاهرة فللمرة الثالثة ذلك اليوم تمنى ، وكان تمنيه ان يكون بين المعتقلين ولكن من دون ان يخرج من الدائرة التى يتحرك فيها بجهد جهيد ..

على ان ذاك اليوم كان يوم سلام بالقياس الى اليوم الذى تلاه ، بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم اضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس باعلامها وحشود من الاهالى لا يحيط بها الحصر ، بعثت مصر بلداً جديداً ييكر الى الاحتشاد فى الميادين للحرب بغضب طال كتمانها ، والقى هو بنفسه بين الجموع فى نشوة فرح وحماس كأنه تائه ضال عشر على أهله بعد فراق طويل ، وسارت المظاهرة مسيراً مشهوداً مرة بدور العتمدين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات ، حتى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم : « الانجليز ! » وما لبث ان فرقع الرصاص مغطيا على اصوات الهاتفين فسقط اول القتلى ، وواصل قوم تقدمهم فى حماس جنونى ، وتسمر اخرون ، وتفرق كثيرون يلوذون بالبيوت والمقاهى ، وكان هو ضمن الآخرين ، اندس وراء باب وقلبه يبعث ضربات فزعمة متناسيا كل شيء الا حيباته ، ولبث على ذلك زمناً لا يدريه حتى شمل السكون الدنيا جميعاً فمد رأسه ، ثم قدمه ، ومضى الى حال سبيله غير مصدق بالنجاة وعاد

الى بيته فيما يشبه الدهول ، وفي وحدته الحزينة تمنى لو كان من الداهيين
او في الاقل من الثابتين ، وفي وقدة الحساب العسير وعد ضميره الفظ
بالتكفير ، ومن حسن الحظ أن بدا ميدان التكفير منسعا وقريبا

وجاء الثلاثاء والاربعاء فكانا كالاحد والاثنين ، ايام متسابهاة في افراحها
واحزانها ، مظاهرات فهتاف وفرصا صفضا حيا ، التي بنفسه في خضمها
جميعا يندفع بحماس ، ويسمو الى افاق بعيدة من الاحساس النبيل .
ويضطرب بالحياة ويعضه ندم على النجاة ! ثم ضاعف من حماسه وامله
انتشار روح الغضب والثورة فما لبث ان اضرب عمال الترام وسائقو
السيارات والكناسون فبدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة . وترامت
الاخبار حاملة البشرية بقرب اضراب المحامين والموظفين . ان قلب البلاد
يخفق حيا نائرا ولن تذهب الدماء هدرا ولن ينسى المنفيون في منفاهم .
لقد زلزلت اليقظة الواعية ارض وادى النيل ..

تقلب الفتى في فراشه فاسترد وعيه من لجة الذكريات وجعل يتابع
دقات العجن مرة اخرى مقلبا نظريه في اركان الحجرة التي اخلت تستبين
على النور المشرق رويدا وراء التوافد المقلقة . 'مه تعجن ! .. ولن تزال
تعجن صباحا بعد صباح ' هيهات ان يشغلها حدث عن التفكير في اعداد
الموائد وغسل الثياب وتنظيف الاثاث ، ان كبار الحادثات لا يعطل صفار
الاعمال ، وسيستسع صدر المجتمع دائما للجيل والتافه من الامور فيرحب
بها جنبا الى جنب ، ولكن مهلا ، ليست ام على هامش الحياة هي التي
انجسته والابناء وقود الثورة ، وهي التي تغذيه والغذاء وقود الابناء .
الحق ان ليس ثمة شئ عتافه في الحياة .. ولكن الايجيء يوم يهز فيه الحادث
الكبير المصريين جميعا فلا تتفرق عنده القلوب كما تفرقت في مجلس القهوة
منذ خمسة ايام ؟ .. الا ما ابعد هذا اليوم ! .. ثم جرت على شغفيه
ابتسامة اذ وثب الى ذهنه هذا السؤال : « ما عسى ان يصنع والده اذا علم
« بجهاد » التواصل يوما بعد يوم ؟ .. ماذا يصنع ابوه الجبار
المستبد وماذا تصنع امه الرقيقة الحنون ؟ » .. ابتسم في حيرة وهو يعلم
ان المتاعب التي قد تعترضه في تلك الحال ليست دون المتاعب التي قد
تعترضه اذا نمى سره الى السلطة العسكرية نفسها .. ثم ازاح الغطاء
عن صدره وجلس في الفراش وهو يفغم « سيان ان احى او ان اموت ،

- ٣٢٠ -

الايمان اقوى من الموت ، والموت اشرف من الذل ، فهنئنا لنسا الأمل الذى هانت الى جانبه الحياة ، اهلا بصباح جديد من الحرية ، وليقض الله بما هو قاض . . . »

- ٥٥ -

لم يعد احد يستطيع الادعاء بان الثورة لم تغير ولو وجهها من وجوه حياته ، حتى كمال نفسه عرض لحريته التى تمتع بها طويلا فى ذهابه الى المدرسة واياه منها طارئ ثقيل ضاق به كل الضيق وان لم يستطع له دفعا ، ذلك ان الام امرت ام حنفى بان تتبعه فى ذهابه الى المدرسته وعند اباه منها ، والا تتخلى عنه بحال كى تعود به الى البيت اذا صادفتها مظهرة دون ان تدع له فرصة للتلكؤ او مطاوعة نزوات الطيش ، دارراس الام بانباء المظاهرات والاضطرابات وارتح قلبها لحوادث الاعتداء الوحشى على الطلبة فعانت من ذلك الزمن اياما كالحات ملاتها هلعاً وجزعا فودت لو تستبقى ابنيها الى جانبها حتى تثوب الامور الى مستقرها ، ولكنها لم تجد الى تحقيق مرادها من سبيل خصوصا بعد أن وعد فهمى - وهو من ثقتها فى « عقله » لا تنزعج - انه لا يشترك فى الاضراب بتاتا ، وبعد ان رفض الأب فكرة استبقاء كمال فى البيت لعلمه بان المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك فى الاضراب ، سلمت الام بذهاب الاخوين الى المدرسة على كره منها ولكنها فرضت على كمال رقابة ام حنفى وهى تقول له : « لو كان بوسعى ان اخرج كما اشاء لتبعك بنفسى » وقد عارضها كمال بما وسعه من قوة لانه ادرك بالبداهة ان هذه الرقابة التى لن تخفى عن امه خافية من شئونه ستقضى قضاء مبرما على كل ما يتمتع به فى الطريق من الوان العبث والشطارة ، وانها ستلحق هذه الفترة القصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردد بينهما : البيت والمدرسة ، الى هذا امتعضت نفسه ، أشد الامتعاض من السير فى الطريق مصطحبا هذه المرأة التى ستلفت الانظار حتما ببدايتها المفرطة ومنيتها المتهاكة ، ولكنه لم يسعه الا ان يدمن لرقابتها سيما بعد ان امره ابوه بقبولها ، قصارى ما استطاعه تنفيسا عن صدره انه كان ينتهرها كلما تداينت منه ، وانه حتم عليها ان تتأخر عنه مسيرة امطار ، على تلك الحال مضيا الى مدرسة خليل اغا صباح الخميس وهو خامس ايام المظاهرات

في القاهرة ، ولما بلغا باب المدرسة اقتربت أم حنفي من الباب وسألته
تنفيذا للأمر اليومي الذي تلقته في البيت :
- هل يوجد تلاميذ في المدرسة ؟

فاجابها الرجل بغير اكتراث :

- منهم من يدخل ومنهم من يذهب ، والناظر لا يتعرض لاحد . .
كانت هذه الاجابة مفاجأة سيئة لكمال ، كان مهيا النفس لسماع الاجابة
التي باتت مألوفا منذ يوم الاثنين وهي « التلاميذ مضربون » فيعودون
الى البيت حيث يمضى سحابة النهار في حرية حببت الى قلبه الثورة من
بعد ، ونازعته نفسه الى الهرب تفاديا من عواقب الاجابة الجديدة فخطب
البواب قائلا :

- انا ممن يذهبون . .

وابتعد عن المدرسة والمرأة في اثره ، بيد انها سألته : لماذا لا يدخل مع
الداخلين فرجاها مترددا لأول مرة في حياته - ان تقول لاه ان التلاميذ
مضربون ، وزيادة في الرجاء والتودد دعا لها- وهما يمران بجامع الحسين
- بطول العمر والسعادة الا ان أم حنفي لم تستطع الا ان تصارح الام
بالحقيقة كما سمعتها فانبته الام على كسله وامرت المرأة بان تعود به الى
المدرسة فغادرا البيت وهو يسلقها بلسان حاد راميا اياها بالخيانة
والفدر ، لم يجد في المدرسة الا لداته . . ذوى الاسنان الصغيرة ، اما من
عدهم « وهم الاغلبية الساحقة ، فكانوا مضربين ، والقى في فصله ، الذي
كان يتوافر له من صفار التلاميذ مالم يتوافر لغيره من الفصول - نحو
من ثلث التلاميذ ، بيد ان المدرس امرهم بان يراجعوا دروسهم السابقة
وانكب هو على تصحيح بعض الكراسات فتركهم في شبه اضراب في الواقع .
فتح كمال كتابا متظاهرا بالقراءة دون ان يعيره ادنى انتباه فقد ساءه البقاء
في المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين ولا هو في البيت يتمتع بالفراغ
الذي جاءت به هذه الايام العجيبة بلا حسابان ، ضاق بالمدرسة كما لم
يفسق من قبل « وهفا خياله الى اولئك المضربين في الخارج بدهشة
واستطلاع ، كثيرا ما تسأل عن حقيقة امرهم ، أهم كما تدعى امه
« متهورون » لا يرحمون انفسهم ولا اهليهم ملقين بارواحهم الى التهلكة
ام هم كما يصفهم فهمى ابطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم ؟! . .
وكثيرا ما مال الى رأى امه لحنقه على التلاميذ الكبار - فئة المضربين -
الذين خلفوا في نفسه ونفوس اضرابه من التلاميذ الصغار اسوأ الآثار بما
ينالهم على ايديهم من غلظة واستكبار وهم يتحدثونهم في فناء المدرسة
(٢١)

بضخامة اجسامهم وفحة شواربهم ، بيد انه لن يستسلم الى هذا الراى كل الاستسلام طالما كان لقول فهمى من الاقناع فى نفسه مالا قبل له بالاستهانة به ، ان يسعه ان يسلبهم ما يضفيه عليهم من ضروب البطولة حتى ود لو يطلع من مكان آمن على معاركهم الدامية ، قامت قيامة الدنيا ما فى ذلك من شك ، او فلماذا يضرب المصريون وينطلقون جماعات الى الاشتباك بالجنود ؟ . . . واى جنود ؟ . . . الانجليز . . . الانجليز الذين كان يكفى ذكر اسمهم لاخلاء الطرقات ! . . ماذا حدث للدنيا وللناس ؟ ! ذاك صراع عجيب قضى عنفه بان تنقش عناصره الجهورية فى نفس الفلام بلاوعى او قصد فتغدو اسماء سعد زغلول ، الانجليز ، الطلبة ، الشهداء ، المنشورات ، المظاهرات ، من القوى المؤثرة الموحية فى اعماقه وان وقف من معانيها موقف المستطلع الحائر . وضاعف من حيرته ان آله استجابوا للحوادث استجابة متباعدة واحيانا متناقضة ، فيينا يجد فهمى ثائرا يحمل على الانجليز يحقق قاتل ويحن الى سعد حينما يفجر الدمع ، اذا باسين يناقش الاخبار فى اهتمام رصين مشوب باسف هادىء لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة بين السمر والضحك وتلاوة الاشعار والقصص ، ثم السهر حتى منتصف الليل ، اما امه فلا تكف عن دعاء الله ان ينشر السلام ويعيد الامان ويصفى قلوب المصريين والانجليز جميعا ، والادهى من كل اولئك زينب زوجة اخيه التى افزعته الاحداث فلم تجد من تصب عليه غضبها الا سعد زغلول نفسه متهمه اياه بانه سبب هذا الشر كله ، وانه « لو عاش كما يعيش عباد الله فى اذعة وسلام ما تعرض له اخذ بسوء ولا اشتعلت تلك النيران » . . . لذلك كان حماس الفلام يستعر لفكرة الصراع نفسه ، وحزنه يفيض بفكرة الموت فى ذاته دون ان يكون لنفسه معنى واضحا لما يدور حوله من بعيد او قريب ، وكم أسف يوم دعا تلاميذ خليل اغا الى الاضراب - لأول مرة - فسنحت له فرصة طيبة ليشهد مظاهرة عن كتب او يشتري فيها ولو فى فناء المدرسة ، ولكن الناظر بادر الى حجز صفار التلاميذ فى فصولهم فافلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت الى الهتافات العالية فى دهشة ممزوجة بسرور خفى ، لعل مبعثه الفوضى التى نشبت فى كل شىء فعصفت بالروتين اليومى الثقيل بلا رحمة . اقلنت ذلك اليوم فرصة الاشتراك فى مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ فى البيت ، وسيبقى مغلولاً فى هذه الجلسة المملة ينظر فى الكتاب بعينين لا تران شيئا ، ويسترق لمسات مع رفيقه على القمطر فى جدر

وخوف . حتى يدرك نهاية النهار الطويل . ولكن تمة شيء استرعى انتباهه فجأة ، قد يكون صوتا غريبا بعيدا أو وشا في الأذن ، ولكي يستوثق من حاسته نظر فيما حوله فرأى رءوس التلاميذ مرفوعة واعينهم تتبادل النظرات ثم تتجه معا صوب النوافذ المظلة على الطريق؛ انه حقيقة وليس وهما ما استرعى انتباههم ، انها اصوات مندمجة في صوت ضخم غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد ، الآن وقد أخذت تشتديمكن ان تسمى ضوضاء ، بل ضوضاء تقترب ، وسرت في الفصل حركة وتعالى الهمس ثم ارتفع صوت قائلا « مظاهرة ! .. » فخفق قلب الغلام وعلت عيناه لمعة تجمع بين السرور والاضطراب . وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتى وضحت هتافا يردد ، ويزمجر في جميع الجهات المحيطة بالمدرسة ، وعادت تفرع اذنيه الاسماء التي ملأت ذهنه طوال الايام الماضية: سعد . . . الاستقلال . . . الحماية ، وتداني الهتاف وعلا حتى اطبق على فناء المدرسة نفسها فوجمت قلوب التلاميذ وايقنوا ان الطوفان لا بد مغرقهم ، ولكنهم قابلوا ذلك بسرور صيالي تنكب عن تقدير العواقب في حمية نزوعه الى الفوضى والانطلاق ، ثم ترامى اليهم وقع اقدام مقبلة في سرعة وصخب ، ثم فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة واندفعت الى الحجرة جماعات من الطلبة والازهرين كما تندفع المياه من فوهة الخزان وهم يصيحون « اضرب .. اضرب .. لا ينبغي ان يبقى احد » .. وفي لحظات وجد نفسه غائصا في موج مصطخب يدفعه امامه دفعا يعطل كل مقاومة وهو من الاضطراب في غاية . تحرك في بطء شديد تحرك حبوب البن في فوهة الطاحونة لا يدرى اين تقع عيناه ، ولا يرى من الدنيا الا اجساما متلاصقة في ضجة تصك الأذان حتى استبدل بظهور السماء فوق راسه على بلوغ الطريق ، واشتد الضغط عليه حتى كادت لتكتم أنفاسه فصرخ صراخا حادا عاليا متواصلا من شدة الغزع ، وما يدرى الا ويد تقبض على ذراعه وتجذبه بقوة وهي تشق بين الناس طريقا حتى الصقته بجدار على الطوار ، فراح يلهث ويلمس فيما حوله منجى حتى عثر على دكان حمدان بائع البسبوسة وقد انزل بابها الحديدى الى ما فوق العتبة بقليل فهرع اليه ودخل زحفا على ركبتيه ، ولما قام في الداخل رأى عم حمدان الذي كان يعرفه حق المعرفة وامرائين وبعض صغار التلاميذ فاسند ظهره الى جدار القائمة التي تحمل الصوانى وصدره يعلو وينخفض بلا توان . وسمع عم حمدان وهو يقول :

— ازهريون ، طلبة « عمال ، اهالى ... جميع الطرقات المؤدية الى
الحسين مكتظة بالبشر .. ما كنت احسب قبل اليوم ان الأرض تستطيع
ان تحمل كل هؤلاء البشر ..
احدى المراتين بدهشة :

— كيف يصرون على التظاهر بعد ما كان من اطلاق النار عليهم ؟
المرأة الاخرى بحسرة :
— ربنا الهادى ، كلمه ابناء ناس يا ولدا ..
فقال عم حمدان :

— لم نر شيئا كهذا من قبل ، ربنا يحميهم ..
نفجر الهتاف فى الخناجر يزلزل الجو زلزالا ، حينما عن قرب كانه
يدوى فى الدكان . وحينما عن بعد فى ضوضاء شديدة غير متميزة كهريم
الرياح ، وتواصل بلا انقطاع ، فى حركة بطيئة مستمرة دل عليها تفاوت
درجات الشدة والارتفاع بين الامواج القادمة والهابية ، وكلما ظن انه
انقطع جاء غيره حتى بدا وكان لا نهاية له . تركزت حياة كمال فى اذنيه
وهو يرهف السمع فى اضطراب وقلق ، بيد انه لما تتابع الوقت دون
وقوع مكروه استرد انفاسه ومضى يعاوده الشعور بالطمأنينة « ثم
وسعه اخيرا ان يفكر فيما يدور حوله كطارىء لا يلبث ان يزول فتساءل
متى يجد نفسه فى البيت ليرى لاهه ما وقع له . . . » اقتحمت علينا
العصول مظاهرة لا اول لها ولا اخر ، وما ادرى الا وتبارها الزاخر
يحيط بى ويجرفنى الى الشارع ، وهتفت مع من هتف : ليحيى سعد ،
لنسقط الحماية ، ليحيا الاستقلال . ومازلت انتقل من طريق الى
طريق حتى هجم الانجليز علينا واطلقوا الرصاص « .. ستفزع عند
ذلك لحد البكاء ولا تكاد تصدق انه حتى يرزق وستتلو آيات كثيرة وهى
ترتجف .. » ومرت رصاصة جنب راسى مازال عزيها يطن فى اذنى ،
وتخبط الناس كالجانين ، وكدت اهلك مع الهالكين لولا ان جذبنى رجل
الى دكان ... »

انقطع جبل احلامه على صياح عال غير منتظم ووقع اقدام متدافعة
فى اضطراب ، فخفق قلبه ونظر فى وجوه من حوله فراهم محمقين فى
الباب كمن يتوقع ضربة على ام راسه « واقترب عم حمدان من الباب
وانحنى حتى نظر من الفرجة فى اسفله ثم تراجع وانزله حتى الصقته
بالارض بسرعة وهو يتمتم فى اضطراب :

— الانجليز .. !

وصاح كثيرون في الخارج « الانجليز ... الانجليز » ونادى آخرون « الثبات ... الثبات » وهتف غيرهم « نموت ويحيى الوطن » .. ثم سمع الغلام لأول مرة في حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قريب فعرفها بالبدهاة وارتعدت أوصاله ، وما ان ندت عن المراتين صرخة فزع حتى أفحم في البكاء ، وجعل عم حمدان يقول بصوت متهدج « وحدوا الله .. وحدوا الله .. الله .. » ولكن الغلام شعر بالخوف . باردًا كالموت ، يزحف على جسمه كله من قدميه الى راسه . وتوالى الطلقات ، وصكت الأذان صلصلة عجالات وصهيل خيل ، تتابعت الأصوات والحركات في سرعة فائقة تلاحقها زمجرات وصراخ وأين فترة اعتراك خاطفة بدت للقباعين وراء الباب دهرا في حضرة الموت .. تم حل صمت مخيف كالأغماء الذي يعقب تبريح الألم ، تساءل كمال بصوت منهدج مبجوح :

— ذهبوا ؟! ...

فوضع عم حمدان سبابته على فيه وهو يغمغم « هس » ... وتلا آية الكرسي « فتلا كمال في سزه — اذ خائنه قدرته على الكلام — « قل هو الله أحد » لعلها تطرد الانجليز كما تطرد العفاريت في الظلام . على ان الباب لم يفتح الا عند الظهر فانطلق الغلام الى الطريق المقفر ثم اطلق للريح ساقيه . وفيما هو يمر بالسلم الهابط الى قهوة أحمد عبده لمح شخصا صاعدا عرف فيه أخاه فهمى فهرع اليه كفريق عثرت يده على أداة النجاة وقبض على ذراعه فالتفت الشاب نحوه فزعا ، ولما عرفه هتف به :

— كمال ؟! ... أين كنت في أثناء الضرب ؟

ولاحظ الغلام ان صوت أخيه مبجوح مطموس المخارج ، بيد أنه أجابه بقوله :

— كنت في دكان عم حمدان وسمعت الرصاص وكل شيء ...

فقال له بعجلته ولهوجنه :

— اذهب الى البيت ولا تقل لاحد أنك قابلتني .. سامع ؟

فسأله الغلام بارتباك :

— ألا تعود معي ؟!

فقال باللهجة نفسها :

— كلا ... ليس الآن ... سأعود في موعدي المعتاد ، لا تنس أنك لم

تقابلني قط ..

- ٣٢٦ -

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع لفلان راكضا حتى بلغ منعطف خان جعفر ، فرأى شبعا واقفا وسط الطريق يشير الى الأرض ويخاطب نفرا من الرجال فنظر الى حيث يشير فرأى بقعا حمراء ملبسة بالتراب ، وسمعه يقول بلهجة رثائية :

— هذا الدم الزكى يستصرخنا الى مواصلة الجهاد ، وقد شاء الله ان يسفك في رحاب سيد الشهداء لنصل في الاستشهاد حاضرا بماضينا ، والله معنا . . .
واحس فزعا يركبه ، فاسترد بصره من الأرض الدامية وانطلق يعدو كالمجنون . . .

- ٥٦ -

كانت أمينة تلمس طريقها الى باب الحجرة خلال ظلمة السحر ، في حذر وتمهل ان توقظ السيد ، حين ترمى الى اذنيها لفظ غريب صاعدا من الطريق يطن ظنين النحل . لم يكن يطرق اذنيها في هذه الساعة التي اعتادت ان تستيقظ فيها الا صلصلة عجلات عربات الدبش وسعال العمال المبكرين وهتاف رجل يطلب له عند مرجعه من صلاة الفجر ان يردد في الصمت الشامل صائحا بين حين وآخر « وحدوه » اما هذا اللفظ الغريب فلم تسمعه من قبل ، وحارت في تفسيره فتطلعت الى معرفة مصدره فمضت بخطوتها الخفيفة الى نافذة بالصالة مظلة على الطريق ثم رفعت خصاصها وأخرجت رأسها فوجدت في الخارج ظلمة مختلطة عند الأفق ببشائر ضياء ولكن ليس الى الحد الذي تستطيع معه رؤية ما يجري تحتها ، بيد أن اللفظ ازداد ارتفاعا ، وازداد في الوقت نفسه غموضا ، حتى تبينت فيه أصواتا آدمية مجهولة النسب . دارت عينها في الظلام الذي أخذت تألفه شيئا ما فرأت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحاسين مع درب قمرز أشباحا آدمية غير واضحة المعالم ، وأشياء على هيئة أهرام صغيرة ، وأخرى كأنها الأشجار القصار . فارتدت في حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمي وكمال ، ثم ترددت ، اتوقظه ليرى ما هنالك ويحل لها تلك الألغاز أم تؤجل ذلك الى حين استيقاظه ؟ . . . ثم أبت ان تزعجه طاوية رغبتها حتى موعد استيقاظه عند مطلع الشمس الوشيك ، ثم صلت ، ثم عادت مدفوعة

بحب الاستطلاع الى النافذة فاطلت منها . بدا وشى الشروق ناشبا في غلالة السحر وأضواء الصباح تسيل من ذرى المآذن والقباب . فأمكنها ان ترى الطريق في كثير من الوضوح وفتشت عينها عن الأنباح التي راعتها في الظلام فتبينت حقيقتها وندت عنها آهة فزع وارتدت مهرولة الى حجرة فهمي وأيقظته بلا احتراس فانتفض الشاب جالسا في فراشه وهو يتساءل منزعجا :

— مالك يا أماء .. ؟

فقالت وهي تلهث :

— الانجليز يملأون الطريق تحت بيننا ..

هب الشاب من فراشه واثبا الى النافذة ورمى ببصره فرأى تحت سبيل بين القصرين معسكرا صغيرا يشرف على رعوس الطرق التي تتفرع عنده ، يتكون من عدد من الخيام ، وثلاث اوريات وشراذم متفرقة من الجند ، وفيما يلي الخيام اقيمت البنادق اربعا اربعا ، كل مجموعة تتساند رعوسها وتفترق قواعدها على هيئة هرم ، وقد وقف الحراس كالتماثيل أمام الخيام وتبعثر الآخرون وهم يتراطنون ويتضاحكون ، ورمى الشاب ببصره ناحية النحاسين فرأى معسكرا ثانيا عند تقاطع النحاسين بالصاغة كما رأى في الناحية الأخرى من بين القصرين معسكرا ثالثا عند منعطف الخرنفش « ابتدره خاطر أهوج لأول وهلة أن هؤلاء الجنود قد جاءوا للقبض عليه ! .. ولكنه ما لبث أن استخفه فاعتدرا عنه بقومته المزعجة من النوم الذي لم يكد يفيق منه ، وبهذا الاحساس بالمطاردة الذي لم يفارقه مذ شبت الثورة ، ثم وضحت له الحقيقة رويدا وهي أن الحى الذي اتعب السلطة المحتلة بمظاهراته المتواصلة قد احتل احتلالا عسكريا . لبث ينظر خلال النخصاص متفحصا الجنود والخيام والبنادق والوريات وقلبه يخفق في زهبة وخزن وحقق ، حتى تحول عن النافذة شاخبا اللون وهو يتمتم مخاطبا أمه :

— انهم الانجليز كما تقولين ، جاءوا للارهاب ومنع المظاهرات في

منابتها .. .

وجعل يقطع الحجرة ذهابا وإيابا وهو يقول في سره حاتقا « هيهات ..

هيهات » حتى سمع أمه تقول :

— سأوقظ والدك لأخبره بالأمر .. .

قالت المرأة كآخر ما عندها من حيلة ، « كإن السيد الذى يحل لها

جميع مشكلات حياتها - كفيل ايضا بأن يجد حلا لهذا المشكل يبلغ به
ير الأمان ، ولكن الشاب قال لها بأسى :

- دعيه حتى يستيقظ في وقته ..

فتساءلت المرأة في رهبة :

- ماذا نفعل يا بنى وهم مرابطون أمام مدخل بيتنا ؟!

فهر فهمى رأسه في حيرة قائلا :

- ماذا نفعل ؟! .. - ثم بلهجة اكثر ثقة - لا داعى للخوف ، ليس الا

انهم يرهبون المتظاهرين ..

قالت وهى تزرد ريقا جافا :

- اخاف ان يعتدوا على الأمنين في بيوتهم ..

ففكر قليلا في قولها ثم تتمم :

- كلا .. لو كان الاعتداء على البيوت مقصدهم ما وقفوا ساكنين

حتى الآن ..

لم يكن مطمئنا الى قوله كل الاطمئنان ولكنه وجدده اوفق مايقال ،

وعادت امه تسأله :

- وحتى متى يقيمون بيننا ؟!

بطرف شارد أجابها :

- من يدري ؟! .. انهم ناصبون الخيام فلن يرحلوا سريعا ..

تنبه الى انها تسأله كما لو كان قائد القوات العسكرية فنظر اليها في

عطف وهو يدارى بسمة ساخرة فرجت ما بين شفثيه المتفتحتين ، وفكر

لحظة في مداعبتها ولكن كآبة الموقف رصدت نفسه ، فعاوده الجد كما يقع

له احيانا اذا روى ياسين له « نادرة » من نوادر والده تدعوه بطبيعتها

الى الضحك ولكن يصده عنه القلق الذى يعتريه كلما اطلع على جانب من

شخصية أبيه الخفية ، وسمعا وقع أقدام تهرول نحوهما ، ثم اقتحم

الحجرة ياسين تتبعه زينب على الأمر ، وصاح الشاب الذى بدا منتفخ

العينين مشعث الشعر :

- أرايتم الانجليز ؟!

وهتفت زينب :

- انا التى سمعتهم ثم اطلت من النافذة فرايتهم وايقظت سى ياسين ..

وواصل ياسين الحديث قائلا :

- لقد تقربت على باب والدى حتى استيقظ وأخبرته ولما رآهم

بنفسه أمر بالآ يفادر البيت احد والا يرفع مزلاج البيت ، ولكن ماذا هم

فاعلون ؟ .. وما عسى أن نصنع ؟ .. الا توجد في البلد حكومة تحمينا ؟ ..
تحمينا ؟ ..

فقال له فهمي :

- لا اظنهم يتعرضون لغير المتظاهرين ..

- ولكن حتى متى نظل محبوسين في بيوتنا ؟ .. ان البيوت ملأى
بالنساء والاطفال فكيف يعسكرون تحتها ؟
فغمغم فهمي في ضيق :

- سيجرى علينا ما يجري على غيرنا فلنصبر ولننتظر ..
وهتفت زينب في عصبية ظاهرة :

- لم نعد نسمع أو نرى الا الرعب والحزن ، ربنا على اولاد الحرام ..
عند ذاك فتح كمال عينيه فرددهما دهشا في المجتمعين في حجرته على
غير انتظار ، ثم جلس في فراشه وتطلع الى أمه بعينين متسائلتين
فاقتربت من فراشه وربت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثم قرأت
بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة ، فسألها الغلام :

- ماذا جاء بكم الى هنا ؟

رات ان تبلغه الخبر في أحسن صورة ممكنة فقالت برقة :
- لن تذهب اليوم الى المدرسة ..
فتساءل بابتهاج :

- بسبب المظاهرات ؟

فقال فهمي في شيء من الحدة :

- الانجليز يسدون الطريق !

ثم وثب الى النافذة ونظر من خصاصها طويلا ثم عاد وهو يقول
شعر كمال بأنه أدرك سر تجمعهم فقلب عينيه في الوجوه مذهولا :
باضطراب :

- البنادق اربع اربع ...

ونظر الى فهمي كالمستغيث وتمتم في خوف :

- سيقتلوننا ؟ ..

- لن يقتلوا احدا ، جاءوا لمطاردة المتظاهرين ..

ومضت فترة صمت قصيرة واذا بالفلام يقول وكأنه يخاطب نفسه :

- ما اجمل وجوههم ..

فسأله فهمي ساخرا :

— هل اعجبوك حقاً ؟ ..

فقال كمال بسذاجة :

— جـداً ، كنت اتخيلهم كالشياطين ...

فقال فهمى بمرارة :

— من يدري ، لعلك لو رايت الشياطين أعجبك منظرهم ! ..

لم يرفع مزلاج الباب في ذلك اليوم ، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلة على الطريق ولو لتغيير الهواء وادخال الشمس ، ولأول مرة تبسسط السيد أحمد في الحديث على مائدة الافطار فقال بلهجة العليم الخبير ان الانجليز يتشددون في منع المظاهرات وانهم لهذا احتلوا الاحياء التي تكثر بها المظاهرات وأنه رأى أن يمكنهم في البيت حتى تنضج الأمور ، استطاع الرجل أن يتكلم بثقة وأن يحافظ على مظهره المعهود من الجلال والا يدع منفذاً لاحد يتسرب منه الى القلق الذي تفتش في باطنه مذ هب من فرائشه على تفر ياسين ، ولأول مرة كذلك جسر فهمى على مناقشة راي ابيه فقال بأدب :

— ولكن ياوالدى قد تظننى المدرسة اذا مكثت في البيت من المضربين !

لم يكن السيد يعلم شيئاً طبعاً عن اشتراك ابنه في المظاهرات فقال :

— للضرورة أحكام ، اخوك موظف وموقفه أدق من موقفك ولكن

العذر واضح ...

لم تواته شجاعته على مراجعة ابيه خشية ان يفضبه من ناحية ، ولأنه من ناحية اخرى — وجد في أمره بمنع مفارقة البيت علداً يبرر به أمام ضميره امتناعه عن الخروج الى الطريق المحتل بالجنود المتعطشين الى دماء أمثاله من الطلبة . انفضت المائدة فأوى السيد الى حجرته ، ومالبثت الأم وزينب أن اشتغلتا بواجباتهما اليومية ، ولما كان اليوم مشمساً ، وهو يوم من أيام مارس الأخيرة التى تكتنز في اعطافها نسائم دافئة من أنفاس الربيع فقد صعد الأخوة الثلاثة الى السطح وجلبوا تحت عرش اللبلاب والياسمين . ووجد كمال في خص الدجاج تسلية وأى تسلية فانتقل اليها ، وراح يبذر للدجاج الحب ويطاردها مسروراً بدجديتها ويلتقط ما يعثر عليه من البيض في حين راح الإخوان يتحدثان بالأبناء المثيرة التى تتناقلها الالسنه عن الثورة المستعرة في جنبات الوادى من اقصى شماله الى اقصى جنوبه . تكلم فهمى عما يعلم من قطع السبكك الحديد والتلغرافات والتليفونات وقيام المظاهرات في شتى المديريات والمعارك التى تنشب بين الانجليز والثوار والمذابح والشهداء والجنازات الوطنية .

- ٣٣١ -

التي تشيع فيها النعوش بالعشرات والعاصمة المضربة طلبتها وعمالها
ومحاموها والتي لم يعد بها من وسيلة للمواصلات الا العربات الكارو .
ثم قال الشاب بحرارة :

— هذه هي الثورة حقاً ؟ .. فليقتلوا ماشاءت لهم وحشيتهم فلن
يزيدنا الموت الا حياة ...

فقال ياسين وهو يهز رأسه عجباً :

— ماكنت أتصور أن في شعبنا هذه الروح المكافحة ..

فقال فهمي وكأنه نسي كيف أشفى على اليأس قبيل تسبب الثورة
حتى فاجأته بزوالها وبهرته بنورها :

— بل انه ممتلئ بروح الكفاح الخالد التي تشتعل في جسده الممد من
أسوان الى البحر الأبيض ، استثارها الانجليز حتى ثارت ولن تخمد
الى الأبد ..

فقال ياسين وعلى شفثيه ابتسامة :

— حتى النساء خرجن في مظاهرة ! ...

فتمثل فهمي بأبيات من قصيدة حافظ في مظاهرة السيدات :

خرج الفـوانى يحتجبـن من ورجت أرقب جمعهنه

فاذا بهن تـضـلن من سود الثياب شعارهنه

فطلعن مثل كواكب يسظعن في وسط الدجـنة

واخذن يجتزن الطريق ودار سعد قصدهنه

فاهتزت نفس ياسين وقال ضاحكاً :

— ما كان أجدرنى أنا بحفظها ...

وفكز فهمي في خاطر طارئ ثم تساءل بحزن :

— ترى اثرا مت انباء ثورتنا الى سفد في متفاه ؟ .. اعلم الشيخ الكبير

بأن تضحيته لم تذهب هباء ام تراه غارقاً في ياس النفى ؟ ..

- ٥٧ -

لبشوا على السطح حتى الضحى ، وراق للأخوين أن يراقبا المعسكر
البريطانى الصغير ، فربما نفرا من الجنود قد أقاموا مطبخاً وراحوا يعدون
الغداء ، وتفرق كثيرون ما بين مدخل درب قرمز والنحاسين وبين القصرين
في خلاء من المارة ، وبين حين وآخر كان يتجمع كثيرون في طاوور على نداء
التفجير ثم يأخذون بنادقهم ويركبون احد اللوريات الذى ينطلق بهم صوب

بيت القاضى مما دل على قيام مظاهرات فى الاحياء القريبة ، وكان فهمى يراقب تجمعهم وذهابهم بقلب خافق وخيال متقد . . .

وأخيرا غادر الأخوان السطح تاركين كمال يلهو كيف شاء وحده ، وأويا الى حجرة المذاكرة ، فأقبل فهمى على كتبه يراجع مافاتنه فى الأيام المنقضية ، وتناول ياسين ديوان الحماسة و « غادة كربلاء » وخرج الى الصالة يستعين بهما على قتل الوقت الذى توافر وراء جدران سجنه كما يتوافر الماء وراء السدود ، كانت الروايات - بوليسية وغيرها - أشد استحواذا على قلبه من الشعر ، ولكنه احب الشعر كذلك ، وعرفه من ايسر سبله ، يفهم مايسهل فهمه ، ويقنع من الصعب بموسيقاه ، فندر أن يلجأ الى الهامش المشحون بالاشروح ، وربما حفظ البيت وترنم به وهو لا يفقه من معناه الا اقله ، او يتصور له معنى لا يمت الى حقيقته بسبب ، او لا يدرك له معنى على الاطلاق ، ولكن رغم هذا كله رسب فى عقله من صورته والفاظه ما يعد ثروة يتيه بها مثله حتى دأب على استغلالها لمناسبة واغير مناسبة وهو الأكثر ، فاذا عرض له يوما أن يكتب رسالة تهيا لها تهيو الكتاب واقحم عليها من الالفاظ الرنانة ما يعلق بحافظته ، وضمنها ما فتح الله به عليه من ماثور الشعر حتى عرف بين معارفه بالبلاغة ، لا لانه كان بليفا حقا ، ولكن لقصورهم عن مجاراته وارتياحهم حيال غريب محفوظاته . قبل اليوم لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذى قضى عليه بأن يكابده ساعة فساعة محروما من اسباب الحركة والتسلية ، وربما كانت القراءة خليفة بأن تسعفه على تحمله لو كان به سبر عليها ، ولكنه اعتاد أن يلم بها فى رفق ، وفى الأوقات القصيرة التى تسبق خروجه الى سهرته اليومية دون غيرها ، وحتى فى تلك الأوقات لم يكن يجد بأسا فى أن يقطع القراءة بالمشاركة فى اخاديت مجلس القهوة ، او يطالع قليلا ثم يدعو كمال ليروى له ما قرأ مستلدا باقبال الغلام على الاصغاء بذاك الشفغ الماثور عن الاطفال والقلمان . اذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتي تستطيع أن تؤنس وحشته يوما كيومه هذا ، وقد قرأ ابياتا من الشعر وفصولا من غادة كربلاء ، ومضى يتجرع الملل قطرة فقطرة ، لاعنا الانجيل من اعماق قلبه ، ضجرا برما ضيق الصدر ، حتى حان وقت الغداء ، جمعته المائدة مرة أخرى ، وقدمت لهم الام حساء ودجاجات محمرة وارزا واتممت اطباقها - التى حرمت من الخضر بسبب الحصار المضروب حول البيت - بجبن وزيتون ومش ، واحضرت عسلا اسود بدلا من الحلوى ، ولكن لم ياكل بشهوة الا كمال اما السيد والاخوان فلم يسعدوا بقبالية قوية للطعام

تقبوعهم يومهم بلا عمل ولا حركة ، بيد أن الطعام هيا لهم فرصة للهروب من الفراغ بالنوم وعلى الخصوص السيد وباسين الذين كان يسعهما الظفر بالنوم وقتما شاءا وكيفما احبا . وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل الى الدور التحتانى لشهود جلسة القهوة ولكنها كانت جلسة قصيرة اذ ان الام لم يسعها ان تترك السيد وحده طويلا فودعتهم وطلعت اليه . ولبت ياسين وزينب وفهمى وكمال يتسامرون فى جو يغلب عليه الفتور حتى استأذن فهمى ومضى الى حجرة المذاكرة ثم دعا اليه كمال ففودر الزوجان منفردين . « ما عسى ان اصنع من الآن الى ما بعد منتصف الليل ؟ » . . . ازعجه هذا السؤال الذى الح عليه طويلا ، وبدا له اليوم كئيبا ذميما منتزعا بالقوة الفشوم من مجرى الزمان الذى يتدفق فى الخارج حافلا بالمسرات كما ينتزع الغصن من الشجرة فيستحيل حطبا . لولا الحصار العسكرى لكان الآن بمجلسه المحبوب بقهوة احمد عبده . يحسو الشاى الاخضر ، ويسامر معارفه من روادها ويمتع النفس بجوها العتيق الذى يستهوى شعوره بقدمه ويستأسر خياله بحجراته المطمورة تحت انقاض التاريخ . قهوة احمد عبده احب المقاهى الى قلبه ، ولولا الغرض - والغرض مرض كما يقولون - ما اختار غيرها ، ولكنه الغرض الذى جذبته فيما مضى الى الكلوب المصرى لقربه من مقام بائعة الدوم وهو نفسه الذى اغراه بالانتقال بعد ذلك الى قهوة سى على بالقسورية لوقوعها امام بيت زنوبة العوادة ، فهو يبدل المقاهى تبعا لغرضه ، بل انه يسدل من تعرض له صداقتهم فيها تبعا له ، ففيما وراء الغرض لا مقهى ولا اصدقاء له ، اين الكلوب المصرى واصحابه ؟ . . . اين قهوة سى على ومعارفها ؟ . . . من حياته ذهبوا ، ولعله لو صادفه احدهم تجاهله او تهرب منه ، والدور الآن على قهوة احمد عبده وسمارها ، والله وحده يعلم ما يخبئه الغد من مقاهى وأصدقاء . على انه لم يكن يمكث بقهوة احمد عبده طويلا فسرعان ما يسترق الخطى الى بقالة كوستاكى أو بالأحرى الى حانته السرية ليحظى بالقارورة الحمراء أو « العادة » كما يحلو له أن يدعوها . . . اين منه « العادة » هذا المساء الكالج ؟ . . . وسرت فى بدنه لتذكر حانة كوستاكى رعدة شهوة ، ثم ما لبث ان لاحت فى عينيه نظرة سأم عميقة وتملل تملل السجين . بدا البقاء فى البيت حسرة طويلة زاد من حدة ألها ما طاف بمخيلته من صور الهناء وذكريات النشوة المترنة بالحانة والقارورة ، فعذبته الأحلام وضاعفت من وجده ، وقد جرت حنينه الملهوف على موسيقى الخمر الباطنية ولعبها بالراس ذلك اللعب المدفدغ الحار السار السائل بهجة وافرأحا ،

فلم يدرك قبل ذاك المساء أنه أعجز من أن يصبر على هجر الشراب يوما واحدا ولم يحزن لما بدا له من ضعفه وعبوديته ، ولا لام نفسه على اسرافها الذى جر عليه التعاسة لاهون الأسباب ، كان أبعد ما يكون عن لوم نفسه أو السخط عليها ، ولم يذكر من بواعث ألمه الا الحصار الذى شده الانجليز حول البيت ، وانه يحترق ظمأ ومورد النشوات غير بعيد . ثم لاحت منه التفاتة الى زينب فوجدها تنفوس في وجهه بنظرة كأنها تقول له حانقة « مالك شاردا ، مالك واجما ، أليس لوجودى أى اثر في التسمية عنك ! » .. ادر كمعناها كله في لحظة خاطفة التقت فيها عيناهما ، ولكنه لم يستجب لعتابها الحائق الحزين ، وبالعكس لعله أحقنه وأثار تأثرته ، أجل لم يحقد على شيء كما حقد على اضطرابه للبقاء معها طوال الليل ، بلا رغبة ، ولا مسرة ، وحتى محروما من النشوة التي يستعين بها على تحمل حياته الزوجية . جعل يسترق اليها النظر ويتسائل في غربة اليسست هي هي ! .. اليسست هي التي خلبت لبي ليلة الزفاف ؟! .. اليسست هي التي شغفتني هياما ليالى واسابيع ؟! .. فمالها لا تحرك في ساكننا ! .. أى شيء طرأ عليها ! .. مالى أتمللم برما وسأما فلا أجد من حسننها وأدبها ما يغرينى عن سكرة تأجلت ! ومال - كما فعل مرات من قبل - الى رميها بالنقص فيما برعت فيه زنوبة ومثيلاتها من ضروب الخدمة والسطارة ، والحق أن زينب كانت أولى تجاربه في المعاشرة الدائمة ، فلم تطل به معاشرة العوادة ولا بائعة الدوم ، ولم يكن تعلقه بأحدهما بمانعه من التنقل اذا سنحت دواعيه وقد ذكر لحظات حيرته هذه وأفكاره عنها بعد كرور أعوام طوال فعرف من نفسه ومن الحياة عامة ما لم يجبر له في خاطر . وانتبه على تساؤلها :

- لعلك غير مرتاح الى البقاء في البيت .. ؟

لم يكن على حال يطيق معها حتى العتاب فوقع تساؤلها التهكمى من نفسه موقع الضربة الطائشة من الدمى فاندفع قائلا بصراحة مؤلمة واصرار :

- بلى ...

ومع انها تحامت النقيار من بادىء الامر الا أن لهجته آذنتها اشد ايلاء فقالت بحدة - لا ذنب له في هذا ، اليس عجيبا ألا تطيق التخلف عن سهرتك ولو ليلة واحدة .. فقال متسخطا :

- دلينى على شيء واحد يجعل البيت محتملا ..

فقامت غاضبة وهى تقول في نبرات منذرة بالبكاء :

- سأخلى لك المكان لعله يطيب لك .. !

وولت كالهاربة وهو يتبعها بصرا جامدا ، تم قال لنفسه « ياينا من حمقاء لا تدرى ان القدرة الالهية وحدها هى التى تبقى عليها فى بيتى » .
ومع ان الشجار نفس عن حنقه قليلا الا انه كان يفضل الا يقع حتى لا بضاعف من كآبة فراغه ، ولم يكن يعجز عن استرضائها لو ارادد ولكن عقله الفتور الذى ران على مشاعره جميعا ، غير انه لم تمرض دقائق حتى شمله هدوء نسبي فرن صدى عباراته القاسية التى وجهها اليها فى اذنيه فاقر بقسوتها ، وبانه لم يكن ثمة ما يدعو اليها ، وداخله شبه ندم ، لا لعنوره فجأة على ثمالة حب لها فى زوايا قلبه ولكن لحرصه دائما على الا ينسد فى معاملتها عن حد الأدب - ربما اكراما لابيها او خوفا من أبيه - حتى فى فترة الانتقال العصبية التى أخذ على نفسه فيها اخضاعها لسياسته بالصلابة والحزم . واعتذر عن اسرافه بالفضب ، ولم يكن الغضب بالانفعال المستغرب فى هذه الأسرة ، فما يركبهم الحلم الا حين قيام الأب بينهم مستائرا لنفسه من دونهم بكافة حقوق الغضب .

بيد أن غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع الانطفاء ثم يردون الى الوان من الأسف والندم . الى هذا كله خص ياسين بالمكابرة فلم يدفعه اسفه الى مصالحة زوجه بل قال لنفسه « هى التى استثارت غضبى .. ألم يكن بوسعها أن تخاطبني بلهجة إرق ! » .. أنه يجب لها دائما أن تتحلى بالصبر والحلم والعفو كيما ينطلق على هواه مطمئنا الى خطوطه الخلفية . استند ضيقه بسجنه بعد اغضابها وانسحابها فغادر المكان الى السطح . وجد الجو لطيفا والليل ساجيا والظلمة شاملة الا انها كثيفة تحت عرش اللبلاب والياسمين ، رقيقة فى نصف السطح الآخر المسقوف بقبة السماء المرصعة بالآلء النجوم . وراح يقطع السطح ذهابا وجيئة ما بين السور المطل على بيت مريم ونهاية حديقة اللبلاب المشرفة على قلاوون ، مستسلما لخيالات شتى وفيما هو يسير الهوينا عند مدخل السقيفة تسلل الى اذنيه حفيف ، أو لعله همس ، بل انفاس تتردد بين لحظة وأخرى فحملق فى الظلام متعجبا وهتف متسائلا :

ب من هنا ... ؟

فجاءه صوت يعزفه حق المعرفة وهو يقول فى نبرات نحاسية :

- انا نور يا سيدى ..

تذكر من توه ان نور جارية زوجه تاوى ليلا الى حجرة خشبية لصق خص الدجاج تحوى بعض الكراكيب ، نظر صوب السطح حتى ميسر شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنه قطعة من الليل تكاثفت وتجمدت ،

ثم تراءى له بياض عينيها الناصع كدائرتين مرسومتين بالطباشير على صورة حالكة السواد ، واصل سيره دون أن ينبس وصورتها ترتسم في مخيلته بطريقة تلقائية ، سوداء في الأربعين متينة البنيان ، غليظة الأطراف ، ناهضة الصدر ، عباله الأرداف ، ذات وجه لامع ؛ وعينين براقتين ، وشفتين ممثلتين . فيها قوة وخشونة وغرابة ، أو هكذا بدت له مد طرات على بيته . وفجأة ، وعلى حين غرة ، تفجرت في صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفترقات بلا سابق انذار ، ولكن قوية مهيمنة كأنما تركز فيها هدف حياته ، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال ام حنفى ليلة زفاف عائشة ، انبعث في وجدانه الخامد حياة فوارة ، وانتشر القلق في دمه حتى تكهرّب ، وحل محل الملل والسأم اهتمام حار نائر جنوني ، كل أولئك في لمح البصر . ودب النشاط في مشيته وفكره وخياله ، وكف وهو لا يدري عن قطع السطح من أوله الى آخره مقصرا خط ذهابه وإيابه الى الثلاثين تم الى النصف ، وكلمها مر بها اضطرب جسمه برغبة عارمة . جارية سوداء . . . خادم . . . وان كانت ، له سوابق غير منكورة ، ليس حتما ان تقع بغيته على طراز زنوبة ، ميزة حسن واحدة تغني كما افنت عينا بالعة الدوم المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لنتن ابطيها وتلبد الطين على ساقها . بل الدمامة نفسها — مادامت قد ركبت على امرأة — اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلع اليها عند ام حنفى او عند ضاربة رمل عوراء خلا بها وراء بوابة النصر ، نور على اية حال ذات جسم مكثز صلب يوحى — لاشك — لملسه بالقوة والصراع ، الى انها جارية سوداء تمد بطرافة في الوصال وجدة في التجربة وتحقيق للمأثور عن بنات جنسها من بعث الحرارة والدفع . وبدا الجو من حوله مهيبا آمنا مظلما فاستحرت رغبته وتوثبت أعصابه واسترسل قلبه في دقات متتابعة فرمى بنظرة ثاقبة موضعها ومال في سيره اليها بحيث « يتفق » له أن يحتك بها على نحو ما حين مروره بها ، مؤجلا الجهر برغبته حتى يتاح له جس النبض في جو من الحذر أن تكون — كام حنفى — بلهاء فتجاوب اركان البيت بفضيحة جديدة ، تقدم في خطوات وثيدة محملا صوبها ، يرد بكل ما اضطرم في صدره من شهوة لو تنفد كلمات عينية — رغم الظلمة الفاشية — الى نفسها ، حتى اقترب منها فاختلطت دقات قلبه ، ثم حاذها فمس كوعه اعلى جسمها ولكنه واصل سيره كان ما وقع قد وقع عفوا ، غير أن رعدة سرت في بدنه عند لمس الموضع الذي لم يتحقق من هويته في الغيبوبة التي تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند

الافاقة النسبية في نهاية السطح الا مس طرى غزير الحنان وما ند من صاحبه من تراجع برىء أيد ما رجحه من عدم ارتيابها في أمره فاسندار مصمما على اعادة الكرة . أعاد نحوها ثانية ذراعه حتى مس كوعه احدى ثدييها - لم يخطئه احساسه هذه المرة - ثم لم يسحبه كما كان ينتظر من شخص يدعى انه ضل السبيل ، بل تركه يصافح الشدى الأخرى مضافحة رقيقة لا تبالى دفع الريب ، ومضى وهو يقول لنفسه سندرك غايته بلا شك ، بل لعلها ادركتها فند عنها ما يوحى بأنها ارادت ان تنتحى جانباً ولكنها ابطأت ، أو بوغنت فذهلت ، على اى حال لم تتقنى باليد . ولم تحرك ساكناً . فلن تصرخ فجأة كما فعلت بنت المركوب ، لنجرب مرة ثالثة . عاد هذه المرة متعجلاً جزعاً ، فتناقل حيالها ، ثم مد كوعه الى الصدر الناهض كقربة صغيرة منتفخة ، ثم حرك ذراعه حركة ناطقة بالتردد والريبة معا ، وهم بمواصلة السير مدفوعا برغبة في الفرار لولا ان وجد منها استسلاماً أو بلادة أغرقت ثمالة وعيه في تيار من الجنون فتوقف متسائلاً بصوت خرج من بخار الشهوة منصهراً متهدجاً :

- أهذه انت يا نور ؟!

فقال الجارية وهى تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتى انصق ظهرها بالحائط واوشك هو ان يلتصق بها :

- نعم يا سيدى ..

اراد ان يقول أى كلام يعن له حتى يتمكن من الجهر بما يضطرب في اعماقه كاللاكم الذى يلوح بقبضته في الهواء متحينا الفرصة ليضرب ضربه القاضية فسألها وأنفاسه تتراعى على جبينها :

- لم لم تدهبى الى حجرتك ؟

فقال الجارية التى تعثرت في نطاق حصاره :

- كنت أشم الهواء قليلاً ..

وكأنما غلب النهم تردده فمد راحته الى خاصرتها ثم جذبها برفق الى صدره وهى تبدى ممانعة تحول بينه وبين ما يريد ، ثم همس في أذنها وهو يلصق خده بخدها :

- هلمى الى الحجرة ...

فتمتت في ارتباك :

- عيب يا سيدى ...

رنت نبراتنا النحاسية فى الصمت رنيناً أزعجه ، لم تكن تعمدت أن ترفع صوتها ولكنها - فيما بدا - لا يتأتى لها الهمس أو أن من طبع همسها

الرنين ولو في اخفض درجاته ، على انه سرعان ما زايله الانزعاج لتوقد شهوته من ناحية لخلو لهجتها من الاحتجاج الذى يستوحيه مدلول عبارتها ، فجذبها بيده وهو يغمم :

— تعالى يا حلوة ...

فسلمت ليده ، ربما عن رضى وربما عن طاعة ، وهو يغمر خدها وصفحة عنقها بقبلاته مترنحا من شدة الانفعال ، وفي نشوة السرور جعل يقول لها :

— ماذا غيبك عنى طول هذه الأشهر !

فاجابته بلهجتها العادية الخالية من اى احتجاج :

— عيب يا سيدى ...

فقال وهو يبتسم :

— ما أرق ممانعتك ، زيدنى منها ..

ولكنها ابدت شيئا من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة :

— عيب يا سيدى .. (ثم كالمخدرة) .. الحجرة ملأى بالبق ..

فدفعها وهو يهمس فى قفاها :

— انام على العقارب من أجلك يا نور ...

جارية ، هكذا بدت بأدق ما تحمل هذه الكلمة من معان ، وقفت مستسلمة بين يديه فى الظلام فوضع شفتيه على شفتيها وقبلها بحركة وتشوق وهى ساكنة مستسلمة كأنها تشاهد منظرا لأدور لها فيه حتى قال لها بانفعال « قبلينى » ثم أعاد لصق شفتيه بشفتيها وقبل فقبلته ! ثم طلب اليها أن تجلس فرددت قولها « عيب يا سيدى » الذى بدا مضحكا من ابتداله على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا ممانعة ، وما لبث أن وجد لذة جديدة فى تردها بين السلبية والاذعان فجد فى طلب المزيد منه وتتابعت الممانعة اللفظية والاذعان الفعلى فنسى الزمن . ثم خيل اليه ان الظلام من حوله يتحرك أو أن مخلوقات غريبة فى طياته تتراقص ، ربما الجهد أصابه من طول ما لبث أن كان طال لبثه فانه على وجه اليقين لا يدري كم لبث « أو لعلها التيارات المتوقدة المتلاطمة فى رأسه تولد من ارتطامها فى بصره انوار وهمية ، ولكن مهلا » ان جدران الحجرة تتماوج . ناضحة بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانا يبتك الابرار ، ورفع رأسه محملا فراى نورا خافتا يتسلل من شقوق انجدار الخشبى مقتحما عليه خلوته ، ثم ارتفع صوت زوجه فى الخارج وهى تنادى الجارية قائلة :

— نعمت يا نور؟! .. نور .. ألم ترى سى ياسين ؟
فانتفض قلبه فزعا ووثب قائما واندفع على عجل ولهفه يتخطف ثيابه
ويرتديها وهو يتفحص الحجرة ببصر زائع لعله يجد مخبأ بين كراكبها . ولكن
نظرة واحدة آيسته من الاختفاء على حين صك اذنيه وقع شبتب
يقرب فلم تتمالك الجارية من ان تقول بصوت باك :
— أنت السبب يا سيدى ، ماذا أفعل الآن .. ؟!

فلكرها فى كنفها بقسوة حتى أمسكت « وحدق فى الباب بفزع ويأس
وهو يتقهقر — بدافع لا شعورى — الى الركن البعيد عن المدخل حتى
التصق بالجدار ، وتجمد فى موقفه يترقب . تتابع النداء ولا مجيب . ثم
انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتقدمها مصباح وهى تهتف :
— نور .. نور ..

فلم يسع الجارية الا ان تخرج من صمتها مغممة بصوت شاحب
حزين :

— نعم يا ستى ...

فقابلت زينب بصوت ينم عن الحنق والتعنيف :

— ما أسرع ان تنامى يا شيخخة! .. ألم ترى سى ياسين ؟ .. سيدى
الكبير أرسل فى طلبه فبحثت عنه فى الدور التحتانى والفناء وها انا لا
أجده فوق السطح ، هل رأيته .. ؟

وما اتمت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجرة وهو يطل على
الجارية المرتبكة فى جلستها باستغراب « ثم بحركة غريزية التفت الى
يمينها فوقع بصرها على زوجها المتصق بالحائط بجسم ضخم كانما ترهل
وتخاذل من الخزى والهوان ، التقت ميناها لحظة قبل ان يغض بصره ،
ومرت لحظة اخرى فى صمت قاتل « ثم نادت عن الفتاة صرخة كالعواء
وتراجعت وهى تهتف ضاربة صدرها ببسرها :
— يا فضيحتك السوداء .. أنت ! .. أنت !

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف المصباح بيدها وارتماش
ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم ولت هاربة وعويلها يمزق
الصمت . قال ياسين لنفسه وهو يزرد ريقه « انفضحت وما كان
كان « ولبت بموقفه ذاهلا عما حوله حتى انتبه الى نفسه ففادر الحجرة
الى السطح دون ان يخطر له أن يتجاوزها . لم يدر ماذا يصنع ولا الى
أى مدى تذاع القضيحة ، أنحصر فى شقته أم تنتقل الى الشقة
الأخرى ؟ .. ثم راح يوبخ نفسه على ذهوله وضعفه اللذين منصاه من ان

يلحق بها كي يحصر الفضيحة في أضيق حدود ، ثم تساءل وهو في أشد حالات الضيق كيف يتلقى هذه الفضيحة ؟.. هل يسعفه الحزم هنا أيضا ؟.. ربما لو لم يتسرب نبأها الى أبيه ، وسمع حركة آتية من ناحية الحجرة المشثومة فالتفت نحوها فرأى شبح الجارية يغادرها ويده لفة كبيرة ، ثم هرولت نحو باب السطح ومقرت منه ، هز كتفيه استهانة ، وفيما هو يتحسس صدره بيده أدرك انه نسي أن يرتدى المفائلة فعاد الى الحجرة مسرعا ..

في الصباح الباكر طرق الباب ، وكان الطارق شيخ الحارة ، فقابل السيد احمد وأخبره بأنه مكلف من لدن السلطات بإبلاغ سكان الأحياء المحتلة بأن الانجليز لن يتعرضوا الا للمتظاهرين وأن عليه أن يفتح مكانه ، وعلى التلميذ أن يذهب الى مدرسته والموظف الى وظيفته ، وحلده من حجز التلاميذ أن يظنوا من المضربين لافتنا نظره الى الأوامر المشددة بمنع المظاهرات والاضراب ، بذلك استرد البيت نشاطه الذي يستقبل به الصباح ، وتنفس رجاله الصعداء لاطلاق سراحهم بعد حبس البارحة ، واستروحت النفوس شيئا من الطمأنينة والسلام . قال ياسين لنفسه تعقبيا على زورة شيخ الحارة : « الأحوال خارج البيت تتحسن أما داخله فهي طين ووحل » ، أجل قضت أكثرية أهل البيت ليلة نكراء أحاطت بها الفضيحة ومزق أوصالها السكد ، زينب ، لم يستطع الصبر الذي تغلق به صدرها على حزنها وتدمرها أن يصمد للمنظر المروع الذي رآته عينها في حجرة جاريثها فتفجر صدرها قاذفا بسواظه كل سبيل ، تعمدت تعمدًا أن يقرع عويلها آذان السيد فجاءها مهرولا متسائلا .. وكانت الفضيحة . قصت عليه كل شيء متشجعة بأنفعالها الجنوني الذي لعلها ولوه ما واثتها شجاعته على مواجهته بما قصبت لما باتت تجدد نحوه من تهيب لم تجد مثله حيال أحد من الناس . انتقمته بذلك لكرامتها الذبيحة ، وللحسب الطويل الذي تجرعتة حينًا مختارة وحملت عليه في أكثر الأحيان : « جارية ! خادمة ! في سن أمه ! وفي بيتي ! ماذا عساه يفعل في الخارج اذن ؟ » لم تكن تبكي غيرة ، أو أمل الغيرة توارت الى حين وراء حجب كشيقة من التفزز والغضب كما

تنواري النار وراء سحب الدخان ، وكأنما غدت تؤثر الموت على ان تبقى معه تحت سقف واحد ولو يوما واحدا بعد ما كان . أجل هجرت مخدعها فقضت الليل في حجرة الاستقبال ، يقظى أكثره تبهذى هذيان المحمومين ونائمة أقله نوما ثقيلا مريضا مزعجا . أصبحت وعلى مصممة على هجر البيت . لعل هذا التصميم وحده الذى وجدت فيه مسكنا لأوجاعها . ماذا بوسع حميها نفسه ان يفعل ؟.. لن يستطيع ان يمنع المنكر بعد أن وقع ، وان يسعه مهما يكن جبروته ان ينزل بزوجيا العقاب الذى يستحقه حتى يستشفى صدرها . أقصى ما يراه ان يزجره ، أن يصب عليه غضبه ، وسينصت - الفاسق - خافض الرأس كى يواصل فيما بعد سيرته الخبيثة !.. هيات . لقد رجاها السيد ان تدع الأمر بين يديه ، ونصحها طويلا بان تعرض عن زلة مستوصية بصبر الفضليات من مثيلائها ، ولكنها لم تعد تحتل الصبر أو العفو . جارية سوداء فوق الأربعين !.. كلا . ستهجره هذه المرة بلا تردد ، ستغضى الى ايها بيثأ كله ، وستبقى في كنفه حتى يشوب الى رشده ، فاذا جاءها بعد ذلك نادما ، وغير من سلوكه أو غلتذهب هذه الحياة كلها - بخيرها وبشرها - الى الشيطان ، اخطأ ياسين حين ظنها قد طوت صدرها على كربها عقلا وحكمة ، الحق انه غلبها الجزع من بادى الأمر فبثت همها الى أمها ، ولكن الأم اثبتت انها امرأة حكيمة فلم تدع الشكوى تسرب الى الأب ، واوصت ابنتها بالصبر قائلة ان جميع الرجال يسهرون - كوالدها مثلا - وانهم أيضا يتربون ، وأنه حسبها أن بيتها عامر بالخير ، وأن زوجها يعود اليها مهما سهر ومهما سكر . اصغت الفتاة الى النصيحة على مضض ، وجاهدت نفسها ايما اجهاد متجلمة بالصبر ولم تال أن تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من أحلامها المريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصا وقد دب الجنين في بطنها مبشرا بالامومة المرموقة ربما كمن التذمر في أعماقها بيد أنها راضت نفسها على التسليم متأسية بأما تارة وطورا بامراة سيدها الكبير ، ثم لم يخل الحال من ريبة تخلق في صدرها بين حين وآخر عما يمكن أن يفعل زوجها في سهراته الخمرية ، وحدث أن افضت الى أمها بمخاوفها ، بل لم تخف عنها مالحق بالرجل من فتور في عواطفه . ولكن الأم الحكيمة أفهمتها ان ذاك الفتور ليس حتما نتيجة لما يقع في خاطرها ، أنه « شئ طبيعى » وأن الرجال جميعا لديه سنواء ، وانها سوف تقنع به بنفسها كلما تقدمت بها

تجارب العمر .. على انه حتى لو صدقت وساوسها فماذا تراها فاعلة ؟ .. هل ترضى بهجر بيتها لان زوجها يلم بغيرها من النساء ؟ .. كلا ، وألف مرة كلا ، لو تخلت كل امرأة عن مكانها لسبب كهذا لا قفرت البيوت من الفضليات ، والرجل قد يطمح طرفه الى امرأة أو أخرى ولكنه يعود دائما الى بيته مادامت زوجته خليقة بأن تبقى عنده المرجع الأخير والمأوى الثابت ، والعاقبة للصائرات . ومضت تذكرها بالمطلقات بلا ذنب واللائي يشركهن في أزواجهن أخريات ، اليس طيش زوجها - ان صح - خطبا أخف من سلوك أولئك ؟ .. ثم انه شاب لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومصيره ان يعقل فيثوب الى بيته ويشغل بلديته عن الدنيا جميعا ، ومعنى هذا انه ينبغي لها الصبر حتى لو صدقت وساوسها فما بالها والوساوس لم تصدق ؟ ! رددت المرأة هذا ، وغيره مما يجري مجراه ، حتى سلس جماع الفتاة وآمنت بالصبر وراضت نفسها عليه . بيد أن واقعة السطح قضت على كل ما وطنت النفس عليه بضربة قاضية فانهار البنيان جميعا كأن لم يكن ..

ومع ان السيد لم يظن الى هذه الحقيقة المؤسفة فظن الفتاة قد امتثلت لنصيحته ، الا أن غضبته كانت أشد من أن تمر بسلام ، وقد أحسنت الجارية صنعا بفرارها . أما ياسين فلم يبرح السطح ، لبث يفكر منزعا في العاصفة التي تتربص به ، حتى ترمى الى أذنيه صوت أبيه وهو يناديه بنبرات كفرقة السياط فدق قلبه ، ولكنه لم يجب ولم يستجب وتسمر يائسا في مكانه ، وما يلرى الا والرجل يقتحم عليه السطح ثم يقف مدمدا لحظات وهو يتفحص المكان حتى يعثر على شبحه فيتجه اليه ويقف على كثر منه شابكا ذراعيه على صدره مصوبا نحوه رأسا متصليا متعجرفا ، ملتزما الصمت ومطيله كي يطيل له به العذاب والارهاب ، كأنما أراد بصمته أن يعبر له عما يجد نحوه مما يعيب الألفاظ حمله ، أو انه أراد أن يرمز به الى ما كان يود أن يؤدبه به من مبرح الركل واللکم فمنعه منه استوائه رجلا وزوجا ، ثم لم يعد يستطيع مع الصمت صبرا فانهال عليه سبا وتعنيفا وهو ينتفض غضبا وهياجا « أنت تتحدثانى تحت سمعى وبصرى ! .. قتلذهب أنت وخزيت الى جهنم .. دنست بيتى يا وغد » هيهات ان يظهر هذا البيت مادمت فيه .. كان لك قبل الزواج عذر واه فأنى عذر لك الآن ؟ ! » . « لو أصاب كلامى حيوانا لأدبه ولكنه

ينصب على حجر .. ان يتسا يضمك خليق بأن تستنزل عليه
 اللعنات « .. نفس عن صدره المسنعر بكلمات كالأصاص المنصهر
 وياسين بين يديه ساكن صامت خافض الرأس كأنه يوشك أن يدوب
 في الظلام ، حتى أجهد الرجل الزرق فولاده ظهره وغادر المكان وهو
 يلعنه ويألمن أباه وأمه ، ومضى الى خجرتة يفور بالغضب فوراً . في
 ثورة الغضب رأى زلة ياسين جريمة تسحق الإبادة ، وفي ثورة الغضب
 لم يعد يذكر أن ماضيه كله صورة مطولة متكررة من زلة ياسين . وأنه
 لا يزال دائباً على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وتبب ابنائه
 نصار منهم الأزواج والزوجات . لا لأنه في ثورة الغضب ينسى حقاً ،
 ولكن لأنه يحل لنفسه ما لا يحل لأحد من ذويه ، له أن يفعل ما يشاء
 وعليهم التزام الحدود التي يريدون على أن يلتزموها ففعل غضبه على
 ما في ذنب ياسين من « تحد » لأرادته و « استهانة » بوجوده
 و « تشويه » للصورة التي يجب أن يتصور بها أبناءه . كان انزعاف
 غضبه على الذنب نفسه ، على أن غضبه - كما هي عادته - لم يسمر
 طويلاً ، ما لبث أن خبا لظاه وخمد توقده فعاوده للهدوء رويداً وان
 شاب مظهره - مظهره فقط - الوجوم والأسى ، عند ذاك أمكنه أن
 ينظر الى « جريمة » ياسين من أكثر من زاوية واحدة : أمكنه أن يتألمها
 بعقل مستقر فانجلي له قمامها عن مواضع شتى ساخرة تسلى بها عن
 وحدته الاضطرارية . اول ما ابتدر ذهنه أن يلتمس للذنب علراً ،
 لا حبا في التسامح فانه يكره التسامح في بيته ، ولكن ليتخذ من ذاك
 العذر المرجى « مبرراً » لخروجه عن ارادته ، كأنما يقول لنفسه « ان
 ابني لم يشق عصا الطاعة .. هيهات » ولكن عذره كيت وكيت ..
 ولكن هل يلتمس له العذر عند شبابه باعتباره عهد طيش ونزق ؟ ..
 كلا .. ان الشباب عذر عن الذنب وليس علراً عن خروجه على ارادته
 والا لجاز لفهمي بل لكمال ان يتماديا في الاستهانة بتعاليمه ، ليلتمس
 العذر اذن عند رجولته ، هذه الرجولة التي تحلل له أن يستقل بنفسه
 عن ارادته ولو شيئاً ما وتعفيه هو - السيد - من تحمل مسؤولية
 فعله ، كأنما يقول لنفسه : « انه لم يخرج على ارادتي ، هيهات ؛ ولكنه
 بلغ السن التي لا يعد فيها ذنبه خروجاً عني ارادتي » .. وغنى عن
 انقول انه يأبى أن يعترف أمامه بهذا الحق ولن يعفو عنه لو تجاسر على
 المطالبة به ، بل انه لا يعترف له به فيما بينه وبين نفسه الا في حال
 الوقوع في معصية تستوجب مبرراً للخروج على ارادته ، ولم ينس

حتى في تلك الحال أن يذكر نفسه - التماسا للمزيد من الطمأنينة - بأنه أدبه تأديبا غليظا نادرا قل من يستبيحه من الآباء فقبل بخضوع كامل قليل من يتحملة من الابناء .. وعرج خاطره الى زينب متفكرا ولكنه لم يجد نحوها أى عطف ، لقد واساها اكراما لأبيها العزيز الحبيب ، ولكنه لا يظن أن الفتاة جديرة بأبيها حقا . ما كان يخلق بزوجة كريمة أن تفضح زوجها - مهما تكن الظروف - على النحو الذى فضحت به ياسين ! .. لشد ما أعولت ! لشد ما صرخت ! .. ماذا كان يصنع هو - السيد - لو أن أمينة فجائه يوما بمثل هذا التصرف ؟! .. ولكن أين هى من أمينة ؟! .. ثم كيف قصت عليه ما رأت دون حياء ! .. أف ! أف ! لو لم تكن هذه الفتاة كريمة محمد عفت لحق لياسين أن يؤدبها بل لما رضى هو أن تمر هذه الواقعة دون عقاب زاجر ، لقد أخطأ ياسين ولكنها أخطأت خطأ اكبر . ثم عاد الى ياسين سريعا فراح يفكر - بباطن مبتسم - فى الطبيعة الواحدة التى تجمع بينهما ، تلك الطبيعة الموروثة عن الجد بلا ريب ، ومن يدرى لعلها تضطرم الآن فى صدر فهمى تحت قناع التهذيب والاستقامة ، بل ألا يذكر كيف عاد يوما الى البيت على غير انتظار فترامى الى سمعه صوت كمال وهو يغنى « يا طير يا الى على الشجر » ! .. تأخر لحظتذاك وراء الباب لا ليتظاهر بأنه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب - ولكن ليتابع الصوت متدوقا معدنه سابرا طول نفسه « حتى اذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوة وهو يسعل ومضى الى الداخل طاويا صدره على ابتهاج لم يظن اليه احد ، كم يلذه ان يرى نفسه مترعرفة من جديد فى حياة ابنائه على الأقل فى ساعات الهدوء والصفاء ، ولكن رويدا .. ان لياسين طبيعة خاصة به لا يشركه هو فيها ، او انه لا تجمع بينهما طبيعة واحدة اذا روى المعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ياسين حيوان أعمى .. ينقض مرة على أم حنفى وبضبط أخرى مع نور ، يتمرغ فى التراب دون مبالاة . وما هكذا هو ! اجل انه يدرك مقدار الضيق الذى ألم بياسين لانقطاعه الى قضاء الليلة فى شبه سجن ، يدرك لأنه كابده هو أيضا كئيبا محزوننا كمن فقد عزيزا . ولكن هبه كان يتنزه فى بستان السطح - كما فعل الفتى - فصادف جارية - ولنفترض انها تكون ملبية الدوقة - اكان يقدم على المغامرة ؟! .. كلا . مؤكدا كلا ، ولكن أى وازع كان يشكبه ؟! .. لعله الماكان ؟ الأسرة ! ولعله العمير الرشيد . آه ، لقد تضايق عند ورود الوازع الأخير على ذهنه ، وخيل اليه أنه يغبط ياسين على ريق

نسيابه وجنون زلته معا !. مهما يكن من امر فالطبعيتان مختلفتان . لم يكن السيد - كانه - مغرما بالمرأة بلا قيد ولا شرط . امتازت شهرته دائما بالرفاهية وحداها الانتخاب الرفيع ، بل اثرت في ميزاتها ميزات اجتماعية ضمت الى الميزات الطبيعية المألوفة . كان مغرما بالجمال الأنثوى في لحمه وتبخره وناقته ، فلم تخل جليلة او زبيدة او أم مريم وعشرات غيرهن من ميزة أو أكثر من هذه الميزات ، وفضلا عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب الا بالمنظر البهيح وبالمجلس الأنيس وما يتبعهما من شراب وسمر وغناء ، فلا يكاد يمضى طويل وقت على عشيقته جديدة حتى تطفن الى هواه فتتهىء له ما تهفو اليه نفسه من جو عذب يعبق فيه الورد والبخور والمسك . وكما كان يعشق الجمال مجردا كان يعشقه كذلك في هالاته الاجتماعية اللائقة . تجذبه المكانة المرموقة والصيت البعيد ، ويلذ له ان ينوه خاصته بعشقه ومعشوقاته الا فيما ندر من احوال توجب التستر والكتمان كحال أم مريم ، على ان هذا الحب « الاجتماعي » لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال . فالجمال والصيت - في هذا المجال - يسيران جنباً لجنب كالشيء وظله ، وغالبا ما يكون الجمال اليد الساحرة التي تشق السبيل الى الصيت والمكانة المرموقة ، وقد عشق أشهر عوالم عصره فلم تخيب احداهن نزوعه الى الجمال وولعه بالحسن . هذا ما جعله يذكر نزوات ياسين بازدراء وهو يردد مستنكرا « أم حنفى !.. نور !. ياله من حيوان » انه برئء من هذا الشذوذ بيد انه ليس في حاجة الى ان يتساءل طويلا عن مصدره فانه لم ينس بعد تلك المرأة التي انجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة ، انه مسئول عن قوة شهوته اما هي فمسئولة عن نوع هذه الشهوة النزاعة الى الحضيض . وقد عاوده في الصباح التفكير « الجدى » في المسألة فكاد يدعو الزوجين اليه كي يصفى ما بينهما - وما بينه وبين كليهما - من حساب ، ولكنه أرجأ ذلك الى متسع من الوقت أنسب من الصباح ، ولما ساءل فهمى ياسين عما دعاه الى التخلف عن المائدة أجابه مقتضيا « شيء تافه سوف أحدثك عنه فيما بعد » وظل فهمى جاهلا سر غضب أبيه على أخيه حتى علم باختفاء الجارية نور فحسد الأمر كله . شهد الصباح الأسرة على غير ما لوفها فقد غادر ياسين البيت مبكرا ولزمت زينب ججرتها ثم غادر الرجال البيت واجفين متحاشين ان يرفعوا بصرا صوب الجنود والألم من وراء خصاص المشربية تدعو الله أن يقيهم من كل سوء . ولم تشأ

أمانة ان تقحم نفسها في « واقعة » السطح فنزلت الى حجرة الفرن وانتظرت بين حين وآخر أن تلحق بها زينب كالعادة . لم تكن تقرها على غضبتها لكرامتها فعدتها تدليلا آثار استيلاءها ، وجعلت تتساءل « كيف تدعى لنفسها من الحقوق ما لم تدعه امرأة قعد ؟ . . » لا ريب أن ياسين قد أخطأ فدنس البيت الطاهر ولكنه أخطأ في حق أبيه وحرمة لا في حقها هي . . ألسنت ملاكا بالقياس الى هذه الفتاة ؟ ! . . ولكن لما طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها واقنعت نفسها بوجوب الذهاب اليها مواسية فصعدت الى شقتها ونادتها « ثم دخلت الحجرة فلم تعثر لها على أثر ، ومضت من حجرة الى حجرة وهي تنادى حتى فتشت البيت ركنا ركنا ، ثم ضربت كفا بكف وهي تقول : « رباه . . هل ارتضت زينب أن تهجر بيتها ؟ . . »

لم تنج أمانة سحابة النهار من قلق ، فان احتمال تعرض الجنود لأحد رجالها في ذهابه أو إيباه لم يكذب يفارق رأسها . وكان فهمي أول العائدين فتخففت لدى رؤيته من بعض آثار قلقها ولكنها رائته متجهما فسألته :

— ماذا بك يابني ؟

فهتف فهمي متاففا :

— اكروه ان أرى هؤلاء الجنود . .

فقالت المرأة باشفاق :

— لا تبد لهم الكراهية « ان كنت تحبني لا تفعل . .

ولكنه لم يفعل بغير استعطافها ، لم يتجاسر على أن يتحداهم ولو بالنظر وهو يتلمس سبيله تحت رحمتهم ، تحاشى أن ينحرف بصره الى احدهم ، ومضى الى البيت متسائلا في سخرية عما كانوا يفعلونه او انهم علموا بأنه راجع من مظاهرة اشتبكت مع جنودهم في شبه معركة ، او انه وزع في مطلع اليوم عشرات المنشورات التي تحرس على قسالم . جلس يستعرض ملاقاه في يومه مستحضرا أقله كما وقع واكثره كما كان يتمنى ان يكون . هكذا كان رايه ان يعمل نهارا وان يحلم مساء ، تحذوه في الحائلين اسمى العواطف وافظلعها ، حب قومه

من ناحية والرغبة في التقتيل والابادة من ناحية اخرى . احلام يسكر بها وقتا يطول او يقصر ثم يفيق منها على حيرة لاستحالتها وقتور لسخافة تصوراتها ، احلام تنسج لحمتها وسداها من معارك يتقدم صفوفها كجان دارك ، واستيلاء على سلاح العدو ثم الهجوم عليه . هزيمة الانجليز ، خطبة خالدة في ميدان الاوبرا ، اضطراب الانجليز الى اعلان استقلال مصر ، عودة سعد من المنفى ظافرا . لقاء بينه وبين الزعيم وكلمة الزعيم ، مريم بين شهود الافتتاح التاريخي . اجل كانت احلامه تتوج دائما بصورة مريم رغم انزوائها - طوال تلك الايام - في ركن قصى من قلبه الذى شغلته الشواغل كما ينزوى القمر وراء السحب اiban العاصفة . وما يدرى الا واهه تقول له وهى تشد النديل حول راسها في ارتباك :

- ذهبت زينب الى بيت ابيها غضبانة ..

آه .. كاديسى ما الم بأخيه واسرته في الصباح ، الآن تأكد اليه ماحدثه حين علم باختفاء الجارية نور ، وتحاشى عينى امه حياء ان تقر مايدور بخلفه خصوصاً وأنه ايقن باطلاعها على جلية الامر ، ولم يستبعد ان تظن الى ادراكه له او في الاقل ان ترجمه ، فلم يدر مايقول لاسيما انه لم يعتد في محادثتها ان يبدى خلاف ما يظن ، ولم يكن ابغض لديه من ان يقوم المكر مقام الصراحة بينهما ، ففنع اخيرا بان يتمم قائلا :

- ربنا يصلح الحال ...

لم تنبس امينة بكلمة كأن اختفاء زينب من التفاهة بحيث تكفى جملة اخبارية واخرى دعائية في معالجته ، وما لبث فهمى ان دارى ابتسامة كادت تفضح تحفظه اذ ادرك ان امه تكابد مثل شعوره وانها تعانى ارتباكا لعجزها الفطرى عن التمثيل ، لم تكن تحسن الكذب ، وحتى اذا اضطرت اليه احيانا كشفتها طبيعة لا تستقر على سباطتها الاقنعة ، على ان ارتباكهما لم يطل فما هى الا دقائق حتى رايا ياسين مقبلا نحوهما . حيل اليهما انه يطالعهما بوجه لا يقدر المتاعب التى ترصد في البيت وأن لم يعلم بعد بمدى ما بلغته ، ولم يدهش فهمى لذلك كثيرا لما يعلمه من استهائته بالتعاب التى تنوء بغيره من الناس ، ولكن الحقيقة ان ياسين غلبه شعور باهر بانه اجتاز مغامرة ظافرة انسته الي حين جل متاعبه . كان في طريقه الى باب البيت حين اعترض سبيله جندى كانما انشقت عنه الارض فارعدت مفاصله وتوقع شرا لا قبل له به او في الاقل اهانة

جارحة على مرأى من اصحاب الحوانيت والمارة ، ولكنه لم يتردد فى الدفاع عن نفسه ، فقال بركة وتودد مخاطبا الجندى كانما يستأذنه فى المرور :

— من فضلك ياسيدى ..

ولكن الجندى طلب عود ثقاب وهو يتسم — اجل يتسم — فذهل ياسين لابتسامته حتى استعصى عليه ان يفهم مراده حتى اعاده ، لم يكن يتصور ان جنديا انجليزيا يتسم على هذا النحو ، او — اذا كان الجنود الانجليز يتسمون كسائر البشر — ان يتسم له احدهم فيما يشبه الادب ، فاستخفه سرور اربكه حتى لبث جامدا لحظات لا يحرى جوابا ولا يبدى حراكا ، ثم توثب بكل ما فيه من قوة لاداء هذه الخدمة البسيطة لذلك الجندى العظيم المتسم ، ولما كان غير مدخن فلا يحمل ثقابا فقدبادر الى الحاج درويش بائع الفول وابتاع علبة ثقاب وهرع الى الجندى ماذا له يده بها فتناولها الجندى وهو يقول :

— اشكرك ..

لم يكن افاق من اثر الابتسامة السحرية فجاء الشكر كفدح البرة الذى يعل به من استوفى طاقته من الوسكى ، ملاه الامتنان والزهو ، تورد وجهه المكتنز ، وضحكت اساريره وكان عبارة « ثالك يو » نيشان سام تقلده على الملأ ، الا انها ضمنت له ان يذهب ويجيء امام المعسكر امنا « وما كاد الرجل يبدى اول حركة للذهاب ، حتى قال له متوددا من اعماق فؤاده :

— حفظ سعيد يا سيدى ..

ومضى الى البيت كالمترنج من الفرح . اى حفظ سعيد ظفر به هو ! .. انجليزى — لا استرالى ولا هندى — وابتسم له وشكره .. انجليزى اى رجل يتمثل فى خياله كانموذج لكمال الجنس البشرى ، زبما ابغضه كما يبغضه المصريون جميعا ، ولكنه فى قرارة نفسه يحترمه ويجله حتى ليخيل اليه كثيرا انه من طينة غير طينة البشر ، هذا الرجل ابتسم له وشكره .. ! وقد اجابه اجابات صحيحة مقلدا ما وسعته مرونة سديقه طريقة النطق الانجليزية فنجح نجاحا باهرا استحق عليه الشكر .. ! كيف يصدق ما ينسب اليهم من الاعمال الوحشية !! .. لماذا نفوا سعد زقلول اذا كانوا على هذا الظرف كله لا غير ان حماسه فتر بمجرد ان وقع بصره على الست امينه ، فهمى واستطاع ان يقرأ نظرتها ، وسرعان ما اتصل ما كان انقطع من حين من حبل همومه ، انتبه الى انه يواجهه مرة اخرى

المشكلة التي هرب منها مع الصباح الباكر . تساءل وهو يسير بأصبعه الى فوق :

- لماذا لا تجلس معكما ؟ .. الا تزال غضبانة ؟
فتبادلت امينة مع فهمى نظرة ثم تمتمت بارتباك :
- ذهبت الى ابيها ...
فرفع حاجبيه دهشة او انزعاجا ثم سالها :
- لماذا تركتها تذهب .. ؟
فقالت امينة وهى تتنهد :

- تسلت دون ان يشعر بها أحد ..
شعر بانه يجب ان يقول قولا يرضى كرامته امام اخيه وامه فقال
باستهانة :
- الى حيث ..

وقرر فهمى ان يقاوم رغبته فى اللواذ بالصمت كى يوهم اخاه بانه لم يطلع
على سره وبالتالى ان ينفى شبهة اذاعته هذا السر عن امه فسأله ببساطة :

- ما الذى دعى الى هذا النكد .. ؟
فحدجه ياسين بنظرة متفحصة ثم لوح بيده الغليظة وهو يمسك يوزه
كانما يقول له « ليس ثمة ما يدعو الى النكد » ثم قال :
- بنات اليوم لم تعد بهن طاقة على حسن المعاشرة .
ثم ناظرا الى ست امينة :
- اين هن ستات الامس .. ؟

نكست امينة راسها حياء فى الظاهر ، وفى الحقيق لتدارى ابتسامة لم
تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التى يتخذها ياسين الان ،
صورة المتأمل الواعظ المجنى عليه ، والصورة التى ضبط بها مساء امس
فوق السطح ، على ان انزعاج ياسين كان اعظم بكثير من القدر الذى سمح
له الموقف بان يتظاهر به ، فانه على فداحة الخيبة التى منى بها فى حياته
الزوجية لم يفكر لحظة فى قطع هذه الحياة ، وجد فيها ملاذومستقرا ورعاية
الى ما بشرت به من ايوه وشيكة رحب بها . ايماء ترحيب ، تمنى دائما ان
تبقى وراء ظهره ليعود اليها من شتى جولاته كما يعود الرحالة فى نهاية
العام الى وطنه . ولم يغب عنه ما سيجره عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد
بينه وبين ابيه ثم بينه وبين السيد عفت ، الى ما يلابس هذا كله من فضيحة
ستفوح رائحتها حتى تزكم الاثوف .. بنت الكلب ! .. لشد ما كان مصمما

على ان يستدرجها الى الاعتراف بانها اخطات خطأ اكبر من خطئه ، بل لعله افتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين ، فاقسم ليحملتها على الاعتذار ولياخذن نفسه بتأديبها بمختلف الوسائل ، ولكنها ذهبت . . . قلبت خططه راسا على عقب . . . وضعت في مازق غير يسير . بنت الكلب ! . . وانتزع من تيار افكاره عنى صوت صراخ يمزق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمى وامه فوجدهما برهقان السمع باهتمام وقلق ، وتواصل الصراخ فادركوا بسهولة انه صادر عن امرأة ، ولكن تساءلت اعينهم عن الناحية التى يترامى منها وعن سببه : انعى ميت أم عراك أم استغاثة ، وراحت امينة تستعيد بالله من التروور جميعا حتى قال فهمى :

— انه قريب . . . لعله في طريق بيتنا . . .

ونفض فجأة مقطبا جبينه وهو يتساءل :
— الا يكون الانجليز قد هاجموا امرأة مارة بالطريق . . ؟

وهرع الى المشربية والاخران في اثره ، بيد ان الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلا على الناحية التى ترامى منها ، فرمى ثلاثتهم بانظارهم خلال الخصاص يتفحصون الطريق فاستقرت على امرأة لغت الانظار بوقفها القريبة وسط الطريق وبمن احاط بها من المارة واصحاب الحوانيت ، على انهم عرفوها لاول وهلة وهتفوا معا :
— ام حنفى . . .

وتساءلت امينة التى كانت ارسلتها لتعود بكمال من المدرسة :
— مالى لا اوى كمال معها ؟! وماذا يوقفها هكذا كالجماد . . !
— كمال . . رباه . . اين كمال . . ؟
ثم مدفوعة بشعور غريزى ؟!
— هى التى كانت تصرخ . . . عرفت الآن صوتها . . . اين كمال ؟ .
اغيثونى . . .

لم ينبس فهمى ولا ياسين بكلمة ، استغرقيهما تفحص الطريق عامة والمسكر الانجليزى خاصة حيث راوا انظار المتجمعين — وفي مقدمتهم ام حنفى — تتجه ، لم يكن ثمة شك لديهما فى ان ام حنفى هى التى صرخت حتى جمعت الناس حولها ، بل شعرا بالبدهة بانها كانت تستغيث لان ثمة خطرا تهدد كمال ، ثم تركزت مخاوفها فى الانجليز ، ولكن اى خطر هو ؟ . . واين كمال ؟ . . ماذا حدث للغلام ؟ . ان الام لا تكف عن الاستغاثة بدورها وهما لا يدران كيف يسكنان خاطرها ، لعلهما فى حاجة الى من

يسكن خاطرها .. اين كمال ؟ .. ان الجنود ما بين جالس وواقف وماض
لليته ، كل مشغول بشانه كأن شيئاً لم يقع وكان أحداً من الناس لم
يتجمع . وهتف ياسين بغتة وهو يلكر فهمي في كتفه :

— الا ترى هؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة تحت سبيل بين القصرين
ان كمال يقف بينهم . انظر ...

فلم تملك الام ان صرخت قائلة :

— كمال بين الجنود .. هاهو ياربى .. رباه .. اغيثنوى
اربعة جنود عمالقة وقفوا على هيئة دائرة متشابكي الاذرع ، وقد مرت
غينا فهمي اكثر من مرة دون ان تعثر على ضالتها ، في هذه المرة لح كمال
واقفا وسط الدائرة كما لاح من فرجة انسقت عنها ساقا الجندي الذي
يوليهم ظهره ، خيل اليه انهم سيتقاذفونه بارجلهم كالكرة حتى يقضوا عليه
انساه خوفه على اخيه نفسه فاستدار قائلاً بنبرات مضطربة :

— ساذهب اليه مهما تكن العواقب ..

ولكن يد ياسين قبضت على منكبه وهو يقول بصوت حازم « قف » ..
ثم خاطب الام بصوت هاديء باسم قائلاً :

— لا تخافي .. لو انهم ارادوا ان يصيبوه بسوء ما ترددوا .. انظري اليه
الا يبدو منهمكا في حديث طويل ؟؟ . ثم ما هذا الشيء الاحمر الذي بيده ؟!
اراهن على انها قطعة من الشيكولاته .. هدئي روعك .. انهم يتسلون به
و « متنهدا » شد ما افرعنا على لاشيء .

سكن روع ياسين ، وما لبث ان تذكر مغامرته السعيدة مع الجندي فلم
يستبعد ان يوجد له من زملائه نظائر في لطفه ورقته ، ثم رأى ان يدعم قوله
ويثبتته في فؤاد الام اللتاع فاشار الى ام حنفي التي لم تنزل في موقفها قائلاً:
— الا تريان ان ام حنفي لم تكف عن الصراخ الا حين لم تجد داعياً له .
ها هم الناس ينفضون من حولها تعلوهم الطمانينة ..

فغمغمت امينة بصوت مرتعش :

— لن يطمئن قلبي حتى يعود الى ..

وتركزت اعينهم في الغلام ، أو فيما يلوح منه بين آونة وأخرى ، غير أن
الجنود استردوا أذرعهم المتشابكة وضموا سيقانهم المنفرجة كأنما اطمأنوا
الى عدول كمال عن التفكير في الهرب ، فبدأ الغلام بكامل هيئته ، بدأ باسم
يتكلم كما استدلووا عليه من حركة شفثيه وإشارات يديه التي استعان بها

على الافصاح عن افكاره فدل التفاهم بينه وبينهم على انهم يستطيعون الى حد ما استعمال اللغة المصرية ، ولكن ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له ؟ . هذا ما لم يستطيع احد ان يخمنه ، بيد انهم ثابوا الى رشدهم ، حتى الام نفسها استطاعت أخيرا أن تشاهد المنظر العجيب الذى يمثل تحت ناظرها بدهشة ممزوجة بقلق صامت دون عويل أو استغاثة ، على حين جعل ياسين يضحك قائلاً :

— الظاهر اننا غاليينا فى التساؤم حينما ظننا ان احتلال هؤلاء الجنود لحيينا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهى . .
ومع ان فهمى بدا ممثنا لسلوك الجنود مع كمال ، الا انه لم يرتج الى ملاحظة ياسين فقال دون ان تتحول عيناه عن الغلام :
— ربما اختلفت معاملتهم للرجال أو النساء عن معاملتهم للأطفال . . .
لاتغل فى تفاؤلك . .

وكاد ياسين يتدفع متحدثا عن مغامرته السعيدة ، ولكنه أدرك لسانه فى اللحظة المناسبة فأمسك تفاديا من اثاره أخيسه ، ثم قال على سبيل الملاطفة والتودد :

— ربنا يخلصنا منهم على خير . .
وتساءلت امينة فى لهفة :

— ألم يئن لهم ان يدعوه مشكورين . . ؟

ولكن بدا عن دائرة كمال ان ثمة جديدا ينتظر ، فقد تراجع احد الجنود الاربعة الى خيمة قريبة ثم عاد بعد قليل بكرسى خشبى فوضعه امام كمال ، وما لبث الغلام ان وثب الى الكرسى فوقه ، منتصب القامة مشدود الذراعين الى أسفل ، كأنما ينتظمه طابور القسم المختصوس ، وقد انحدر طربوشه الى قداله — دون شعور منه فى الغالب — كاشفا عن مقدم راسه الكبير البارز . . ماخطبه ؟ . . ماذا وراء هذه الوقفة ؟ . . لم يطل بأحد التساؤل اذ سرعان ما علا صوته الرفيع وهو يشهد :

يا عزيز عيني بدى اروح بسلدى

يا عزيز عيني السلطة خسدت ولدى

غناها مقطعا مقطعا بصوته اللطيف والجنود يتطالعون اليه فاغرى الإفواه ضاحكى الأسارير تلاحق اكفهم ترديده بالتسفيق ، وكان احدهم قد تأنر بما أدركه من بعض معانى الأغنية فراح بهتف « اروح بلدى . . اروح بلدى » . . فتشجع كمال بما جظى من سرور سامعيه وأقبل بجود من انشاده ويحسن من ترنمه ويعلى من صوته ، حتى ختمت الاغنية بين

النصفيق والاستحسان الذي شاركت فيه الاسرة من وراء الخصاص بقلوب ملؤها السرور والاشفاق . اجل شاركت الاسرة في الاستحسان بعد ان شاركت - بقلوبها ايضا - في الفناء ، تتبعوه باشفاق وقلق ، دعوا له بالسلامة والاجادة ، خافوا عليه الزلل او النشاز كأنما يغنى بالانابة عنهم جميعا ، أو كأنما هم الذين يغنون من حنجرتهم ، وكان كرامتهم - افرادا ومجموعة - امست متعلقة بنجاح الغناء، نسيت امينة في لجة هذا الشعور مخاوفها ، حتى فهمى لم يكن يفكر في اثناء ذلك الا في الفناء وما يرجو له من نجاح ، فلما انتهى بخير تنهدوا من الاعماق وودوا أن يبادر كمال الى العودة قبل أن يطرا طارئ يفسد عليهم مسك هذا الختام . والظاهر أن الحفلة آذنت بانتهاه فقد ففز كمال الى الارض فسلم على الجنود فردا فردا ورفع يده محييا ثم انطلق يعدو صوب البيت ، فهولت الاسرة من المتسرية الى الصالة لتكون في استقباله ، أقبل عليها لاهثا مورد الوجه مبتل الجبين تنطق عيناه واساريه وحركات أعضائه المرسله بلا اتران أو غاية بالفرح والفوز ، اترع قلبه الصغير سعادة غامرة ماكان يوسعه إلا ان يملن عنها بكل سبيل ويدعو الآخرين الى الاشتراك فيها ، كالفيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول والوديان ، وكانت نظرة واجدة تلقى بروية كافية لان تريه مغامرته معكوسة على صفحات الوجود . . ولكن الفرع اعماه فهتف بهم :

- عندى خبر ان تصدقوه ولن تتصوروه . . .

فقظه ياسين متسائلا في سخرية :

- اى خبر ياعزيز عيني ؟ !

كشفت هذه الجملة الغشاوة عن عينيه كأنها نور شعشع فجأة في الظلام فرأى الوجوه على ضوئها مفضحة ناطقة ، بيد أن علمه برؤيتهم لمغامرته عوضه عما ضاع من فرصة ادهاشهم بجديته العجيب فأغرق في الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفيه ، ثم قال وهو يغالب الضحك :

- أرايتموني حقا . . ؟ !

عند ذلك جاء صوت أم حنفى وهى تقول بنبرات متشكية :

- كان الافضل ان يروا تعاستى ! . . علام هذا الفرع كله بعد ان

سيبت مفاصلى ؟ . . حادثة اخرى كهذه والله يرحمنى . .

لم تكن خلعت ملاءتها فبدت كركيبة فحم منتفخة ، يعاو وجهها الشحوب والاعياء وتلوح في عينيها نظرة استسلام غريبة . . فسألتها امينة :

— ماذا حدث ؟ .. ماذا دعاك الى الصراخ ؟ .. لقد لطف الله بنا فلم
نتشهد شيئا مفرعا ..
فاسندت ام حنفي ظهرها الى ضلقة الباب واخذت تقول :
— حدث ما لن انساه يا ستي .. كنا عائدين واذا بشيطان من هؤلاء
الحنود يقفز امامنا ويشير الى سيدي كمال ليذهب اليه ففرع سيدي
وجرى الى درب قرمز ، ولكن جنديا آخر اعترض سبيله فانحرف الى
بين القصرين وهو بصرخ فغاص قلبي من الخوف وجعلت استغيث بأعلى
صوتي وعيناي لاتفارقانه وهو يجري من جندي الى جندي حتى احاطوا
به .. كدت اموت من شدة الخوف وزاغ بصري فلم اعد ارى شيئا ، وما
ادري الا والناس قد اجتمعوا حولى ولكنى لم اكف عن الصراخ حتى قال
لى عم حسنين الحلاق : « ربنا يكفيه شر اولاد الحرام .. وحدي الله ..
انهم يلاطفونه .. » .. آه يا ستي لقد حضرنا سبدا الحسين ودفع
عنا الشر ..

قال كمال معترضا :

— لم اصرخ ابدا ..

فضربت ام حنفي صدرها بكفها قائلة :

— لقد ثقب صراخك اذنى حتى جنتنى ...

فقال بصوت منخفض كالمعتذر :

— فلننتهم يريدون قتلى ، ولكن احسدهم جعل يصفر لى ويربت على
كتفى ثى اعطاني (وهنا جس جيبه) شيكولاته فذهب عنى الخوف ..
زايل امينة السرور ، لعله كان سرورا زائفا متعجلا ، الحقيقة التي يجب
الا تغيب عنها هي ان الفرع، ركب كمال دقائق ، وانه يجب ان تدعو ربها
طلويلا كي ينجيها من عواقبه ، لم تكن ترى في الفرع مجرد شعور عابر ، كلا
... انه شعور شاذ تكتنفه هالة خفية غامضة تاوى اليها العفاريث كما
تاوى الخفافيش الى الظلام ، فاذا احاط بشخص — خصوصا الصغار ..
مسه بضر سييء العاقبة ، لذلك فهو يستوجب في نظرها مزيدا من العناية
والحيلة ، تلاوة من القرآن كانت ام بخورا ام حجابا ، قالت بحزن :
— افزعوك ! .. قاتلهم الله ..

وقرا ياسين مايدور في خاطرها .. فقال مداعبا :

— الشيكولاتة رقية ناجعة للفرع .. (ومخاطبا كمال) .. هل دار

الحديث بالعربي ؟

رحب كمال بالسؤال لانه فتح له مرة اخرى ابواب الخيال والمغامرة ؛

منتشلا اياه من مضايقات الواقع ، فقال وقد استعادت اساريره انبساطها:

- كلموني بهربى غريب ! .. ليتك سمعته بنفسك ..

وراح يحاكي طريقتهم في الكلام حتى ضحك الجميع ، حتى امه ابتسمت

.. فعاد ياسين يسأله وكان يغبطه :

- ماذا قالوا لك ؟

- كلاما كثيرا ! .. ما اسمك ، اين بيتك ، احب الانجليز ؟ !

فهمى ساخرا :

- وبم اجبتهم على هذا السؤال الفريد ؟ !

فرمق اخاه كالمتردد .. ولكن ياسين اجاب عنه قائلا :

- طبعا قال انه يحبهم .. ماذا كنت تريد ان يقول .. ؟

على ان كمال استطرد يقول متحمسا :

- ولكنى قلت لهم ايضا ان يعيدوا سعد باشا ..

فلم يتمالك فهمى ان ضحك عاليا .. وسأله :

- حقا ! .. وماذا قالوا لك ؟

فقال كمال مستردا ارياحه بضحك اخيه :

- اسمك احدهم باذننى وقال لى « سعد باشا نو .. »

فعاد ياسين يتسائل :

- وماذا قالوا لك ايضا ؟

فقال كمال ببراءة :

- سأولنى .. الا يوجد بنات في بيتنا .. ؟

فتبدلت نظرية جدية بينهم لأول مرة منذ قدم كمال ، ثم سأله فهمى

باهتمام :

- وماذا قلت لهم :

- قلت ان ابله عائشة وابله خديجة تزوجتا ، ولكنهم لم يفهموا كلامى

فقلت ليس في البيت الا نينة ، فسألونى عن معنى نينة فقلت : ...

رمى فهمى اخاه ياسين بنظرة كانما يقول : « ارايت كيف ان سوء ظنى

كان في محله ! » .. ثم قال ساخرا :

.. لم يعطوه الشيكولاته لوجه الله

فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلا :

- ليس ثمة مايدعو الى القلق ..

وابى ان يترك هذه السحابة تغشى مجلسهم فسأل كمال :

- وكيف دعوك الى الغناء ؟

فقال كمال ضاحكا :

- فى اثناء الحديث انطلق احدهم يغنى بصوت منخفض ، فاستأذنتهم فى ان اسمعهم صوتى .. !

ففققه ياسين قائلا :

- يالك من فتى جرىء ! .. ألم يعاودك الخوف وانت بين ارجلهم لا فقال كمال فى مباهاة :

- ابدا .. (ثم بتأثر) .. ما اجملهم ! .. لم ار اجمل منهم من قبل . عيون زرق .. وشعر من ذهب .. وبشرة ناصعة البياض .. كأنهم ابله عائشة !

وجرى فجأة الى حجرة المذاكرة ورفع رأسه الى صورة لسعد زغلول تبنت فى الجدار الى جانب صور الخديو ومصطفى كامل ومحمد فريد .. ثم عاد وهو يقول :

- انهم اجمل من سعد باشا كثيرا ..

فhez فهمى رأسه كالأسف وقال :

- يالك من خائن ! .. اشتروك بقطعة من الشيكولاتة .. لست صغيرا ليغفر لك هذا القول ، من مدرستك من يستشهد كل يوم ، خيبة الله عليك ..

وكانت أم حنفى قد احضرت الموقد والكنجعة والفناجين وعلمبة البن .. واخذت امينة تهىء القهوة للجلسة التقليدية ، عاد كل شيء الى أصله الا ياسين فقد عاود التفكير فى زوجه الغائبة ، على حين انتحى كمال جانبا واخرج الشيكولاتة من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف الموردا اللامع ، بدا ان تعنيف فهمى ضاع فى الهواء اذ لم يكن فى قلبه وقتذاك الا الرضى والحب ...

تعقدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقعها احد . مايدرى السيد احمد الا ومحمد عفت قادم عليه في الدكان في اليوم التالي لالتجاء زينب الى بيته . ثم قال قبل ان يسترد يده التي سند عليها السيد بالسلام :

- ياسيد احمد .. جئتك برجاء ، يجب ان تطلق زينب اليوم قبل الغد ان امكن ..

بهت السيد . اجل قد ساء سلوك ياسين اكبر اساءة ، ولكنه لم يتصور ان يبعث رجلا فاضلا كالسيد محمد عفت الى المطالبة بالطلاق ، لم يتصور ان تدعو هذه « الهفوات » الى الطلاق مطلقا ، بل لم يجر له على بال ان تحجى المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة ابدا ، فخيّل اليه ان الدنيا انقلبت رأسا على عقب ، وابى ان يصدق ان مجده جاد في طلبه فقال بلهجنه اللطيفة التي طالما استأسرت قلوب اصدقائه :

- ليت الاخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وانت تقدفني بهذه اللهجة القاسية ! .. اصغ الى .. باسم صداقتنا ائمنك من ان تجرى للطلاق ذكرا على لسانك ..

ثم تفرس في وجهه ليسبر اثر كلامه فيه ، ولكنه وجد متجهما كالحا ينذر بالشر والتصميم ، فبدأ يستشعر الخطورة والتشاؤم .. ودعاه الى الجلوس فجلس وما تزداد صورته الا ظلما ، وانه يعرفه حق المعرفة ، عنيد شديد المراس اذا ركب الغضب كفر بالمودّة والمجاملة فتمزقت على سنان حدته اسباب القربى والعطف جميعا ، قال السيد :

- وحد الله .. ولنتحدث في هدوء ..

فقال محمد عفت وكأنه يقبس لهجته من نار الغضب الذي توهج به خداه :

- صداقتنا في حرز ، فلندعها جانبا .. ابنك ياسين لا يفاشر ، تحققت من هذا بعد ان عرفت كل شيء ، كم تصبّرت المسكينة ! .. حُضِنَتْ همومها طويلا ، اخفت عنى كل شيء ، ثم بثتها جملة حين تصدع صدرها .. يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا ، اهانتها ولغفلها ، ثم ماذا كانت عفتي صبرها الطويل ؟ ! .. ان تضبطه في بيتها مع خادماتها ! (وبصق على الارض) .. جارية سوداء ! ..

بنتى لم تخلق لهذا ، كلا ورب السموات ، أنت اعرف الناس بمنزلتها
عندى ، كلا .. ورب السماوات ، لا كنت محمد عفت اذا سكت على
هذا ..

قصة معادة ، ولكن ثمة جديدا صدمه حتى زلزله هو قوله أن ياسين
« يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرًا » ! .. اعرف طريق
الحانة أيضا ؟! .. متى ؟ .. كيف ! .. آه ليس في الوقت متسع للتفكير
او الانزعاج ، ليخف انفعاله كله ، الساعة تتطلب هدوءا وضبطا للنفس ،
يجب أن يملك الموقف ليتفادى استفحال الشر .. قال بنبرات اسيفة :

— ان مايحزنك يحزننى اضعافا ، ومن سوء الحظ أن سواة من
النسوات التى حدثتنى عنها لم تتصل لى بعلم أو تجر لى على بال ، اللهم
الا الحادثة الاخيرة وقد أدبته عليها تاديبا لا يستبيحه لنفسه اب غيرى ،
ما عسى أن اصنع ؟ .. لقد اخذته بالتأديب العنيف مد كان صبيا ،
ولكن وراء اودتنا دنيا وشياطين تهز من تصميمنا وتفسد علينا نوايانا
الطيبة ..

قال محمد عفت وهو يتحاشى عينى السيد بالنظر الى المكتب :
— لم اجمء لوجه اليك لوما أو احمك تقصيرا ، أنت كاب مثال
يحتذى ولا يجارى .. ولكن هذا لن يغير من الحقيقة المعزنة ، وهى أن
ياسين كان غير ما اردت له أن يكون ، وأنه بحالته الراهنة لا يصلح للحياة
الزوجية ..

فقال السيد فى عتاب :

— رويدك ياسيد محمد .. !

فقال الرجل مستدركا ولكن مصبما على رايه :

— على اى حال لن يصلح زوجا لابنتى ، سيجد من تقبله على غلاته
ولكن غيرها ، لم تخلق ابنتى لهذا .. أنت أدري الناس بمنزلتها عندى ..
ادنى السيد رأسه من رأس الرجل وقال بصوت منخفض .. وكأنما
دارى ابتسامة :

— ليس ياسين بين الأزواج بنادرة ، فكم منهم من يسكر ويعربد
ويعمل البدع !

فقطب محمد عفت لينفى عن نفسه شبهة الاستجابة لهذا الكلام الموحى
بالدعابة .. وقال بجفاء :

— ان كنت تشير الى جماعتنا أو الى انا خاصة ، فالحق ابى أسكر
وأعربد وأعشق ، ولكنى .. بل نحن جميعا ، لا نوحل فى القاذورات ! ..

جارية سوداء ! .. اهذه التى قضى على ابنتى بان تتخذها ضرة ؟ ! ..
كلا .. كلا ورب السماوات .. لن تكون له ولن يكون لها ..

ادرك السيد احمد ان محمد عفت ربما كابنته سواء بسواء - مستعد
لان يعفو عن امور كثيرة ، الا ان يخلط ياسين بين كريمته وبين جاريتها
السوداء ، انه يعرفه تركيا فى عناد البغل .. ثم ورد على ذهنه قول
صديقه ابراهيم الفار يوم كاشفه بنيتة فى خطبة زينب لابنه ياسين ، فقد
قال له : « أصيلة بنت اصول ، محمد عفت اخونا وحبيبنا ، ابنه ابنتنا ،
ولكن هل فكرت رويدا فى منزلة الفتاة من نفس ابينا .. هل فكرت فى ان
محمد عفت لا ينسأ مع من ذرة غبار اذا مست لها ظفرا ؟ ! » .. لكنه رغم
هذا كله تعذر عليه ان يقيس الأمور بغير مقياسه ، وكان يفاخر دائما بان
محمد عفت على فظاعة غضبه اذا غضب ، لم يحتد عليه ولو مرة واحدة
بمرال معاشرتهما المديدة ! .. قال متسائلا :

- رويدك ، الا ترى ان مبادئنا واحدة وان اختلفت التفاصيل ؟ ..
جارية سوداء او عالة .. ليست كلتاها امرأة .. ؟ !

فانفجرت اوداج محمد عفت وضرب حافة المكتب بقضته .. وانفجر
قائلا :

... انت لاتعنى ما تقول ! .. الخادمة خادمة والسيدة سيدة ، لماذا
لاتعشق الخادما ت اذن ؟ ! .. لم يشابه ياسين اباه ، انى آسف لكون ابنتى
حبلى حبلى ، كم اكره ان يكون لى حفيد تجرى فى دمه القذارة .. !
وخزنته الجملة الاخيرة فغضب ، ولكنه استطاع ان يفلق قلبه على
غضبه بقوة حلمه الذى يحبو به اصداقاه واحبابه ، حلم بين الاصدقاء
لا يعادله فى قوته الا غضبه بين آله .. ثم قال بهدوء :

... اقترح عليك ان نؤجل الحديث الى وقت آخر ..

فقال محمد عفت محتدا :

- أرجو ان تحقق رجائى الساعة .. !

آه .. لقد بلغ به الامتناع حدًا لم يكن الطلاق نفسه معه بالحل
المستكره ولكنه كان يشفق على صداقة العمر من ناحية ، وتزع عليه
الهزيمة من ناحية اخرى ، اليس هو الرجل الذى يتشفع به الناس ليفض
الخصومات وليبدل ما انقطع من المودات والزيجات ؟ ! .. فكيف تحل
به الهزيمة وهو يدافع عن ابنه فى رضى بحكم الطلاق ؟ ! .. أين حلمه ؟ ..
أين كياسته ؟ .. أين لباقتة ؟

- لقد اصهرت اليك لأوثق اسباب الصداقة بيننا .. فكيف افبل ان
اعرضها للوهن .. ؟

فقال الرجل بانكار :

- صداقتنا في حرز ! .. لسنا اطفالا ، ولكن كرامتى لا يمكن ان
تمس ..

فقال السيد برقة :

- ماعسى ان يقول الناس عن زيجة انقطعت ، ولما تتم عامها الاول ؟
فقال محمد عفت بعجرفة :

- ان يرجع عاقل العيب الى ابنتى ..

آه .. مرة اخرى ! .. ولكنه تلقاها بنفس الحلم ، بدا وكان استياءه
لمجزه عن التوفيق قد غطى استياءه من تهوؤ الرجل الغاضب فلم يهتم
بالرصاص المنطلق عليه اهتمامه بتبرير اخفاقه .. راح يعزى نفسه بأن
الطلاق بيده هو وحده ، اذا شاء منحه واذا شاء منعه ، محمد عفت
يعلم ذلك حق العلم ، لذلك جاء يستوهبه اياه باسم الصداقة التى لاشفيح
له غيرها ، فاذا قال لا فلا راد لكلمته وسترجع الفتاة الى ابنه طوعا او
كرها .. ولكن تسمى الصداقة القديمة فى خبر كان ، اما اذا قال نعم
فسيقع الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجميل ، وليس من
العسير ان يتندر بكل اولئك فى المستقبل لوصل ما انقطع ، واذن فالطلاق
وان يكن هزيمة الا أنه هزيمة مؤقتة تتضمن تسامحا ونبلا غير منكورين
وقد تنقلب فوزا بعد حين . وما ان اطمأن الى سلامة موقفه ولو بعض
الشيء حتى شعر بالرغبة فى معاتبته على ما فرط منه فى حقّه .. فقال
بلهجة ذات معنى :

- ان يكون طلاق الا بموافقتى .. اليس كذلك ؟ .. بيد اننى لن انبد
رجاءك مادمت مصرا عليه ، اكراما لك ، اكراما للصداقة التى لم ترع لها
حقا فى مخاطبتى ..

فتنهّد محمد عفت .. اما ارتياحا للنهاية المنشودة او احتجاجا على
عتاب صديقه او للاتنين معا ، ثم قال بلهجة قاطعة خلت من حدة
الغضب لأول مرة :

- قلت الف مرة ان صداقتنا فى حرز ! .. انك لم تسيء الى قط ،
على العكس من ذلك فانك تكرمنى بتحقيق رجائى وان كرهته ..
فردد السيد قوله محزونا :

- نعم .. وان كرهته ..

ثار حنقه حالما غاب الرجل عن ناظريه . انفجر الفيظ المكبوت فالتهم نفسه وسحمد عفت وزينب وياسين ، ياسين خاصة ، ثم تساءل . ترى هل يمكن أن تبقى الصداقة في حرز حقا فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقعة ؟ .. آه ، لم يكن ليضن بنفيس في سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزة القاسية .. لكنه العناد التركي ، لكنه الشيطان ، بل لكنه ياسين ، أجل ياسين دون غيره .. قال له بضرب وازدراء :

— كدرت صفو ود لم تكن الأيام لتكدره ولو اجتمعت له ..

ثم قال له بعد أن أعاد على مسميه حديث محمد عفت :

— خبيث أملى فيك فحسبى الله ونعم الوكيل ، ريتك وأدبتك ورعيتك .. ثم انجلي تعبى كله عن ماذا ؟ .. سكير صعلوك تسول له نفسه الاعتداء على أحقر الخادما في بيت الزوجية ، لا حول ولا قوة الا بالله ، ما كنت أتصور أن يخرج من حضانتى ابن على هذه الصورة فالأمر لله من قبل ومن بعد ، ما عسى أن أصنع بك ؟ .. لو كنت قاصرا لكسرت دماغك ، ولكن لتكسرنها الأيام ، ها أنت تنال جزاءك الحق فتتبرا منك الأسر الكريمة وتبيعك بأبخس الأثمان !

لعله وجد نحوه بعض الرءاء ، بيد أن سخطه غلب ثم استحال شعوره كله ازدراء ، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوته وجماله وضخامته ، يوحل في القذارة كما قال محمد عفت قاتله الله ، ويعجز عن كبج جماع امرأة . ما أصغره ، سرعان ما لحقت به الهزيمة التي لم ينج هو نفسه من هوانها من جراء طيشه . ما أحقره ، ليسكر ويعربد وليعشق تحت شرط أن يظل السيد المطاع ، أما أن ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره ، لم يشابه أباه كما قال أيضا محمد عفت قاتله الله ، انى أفعل ما أشاء ولكنى أذل السيد أحمد وكفى ، حكمة رائعة تلك التي ألهمتنى أن أنشىء الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة ، فانه لما يشق أن ينهجوا نهجى ويحفظوا في نفس الوقت بالكرامة والاستقرار ، ولكن والأسفاه ضاع جهدى هباء مع ابن هنية !

— وهل وافقت يا أبى .. ؟

تردد صوت ياسين كالخشرفة .. فأجابه بخشونة قائلا :

— نعم ، ابقا على صداقة قديمة ولأنه أوفق حل في الوقت الحاضر على الأقل .

جعلت يد ياسين تنقبض وتنسبط في حركة آلية عصبية ، كأنما كانت تشفط الدم من وجهه حتى انقلب شديد الشحوب ، شعرهوان لم يشعر

بمثله الا فيما كابد من سلوك امه ، حموه يطالب بالطلاق ! .. او بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق او على الأقل توافق عليه ! .. ايهما الرجل وايتها المرأة ؟ ! .. ليس عجيبا ان ينبذ الانسان حذاء اما ان ينبذ حذاء صاحبه !! . كيف رضى ابوه له بهذا الخزي الذى لم يسمع بمثله من قبل ؟ ! .. حدى اباه بنظرة حادة وان عكست ما يعتلج في صدره من انات الاستغاثة ، ثم قال بلهجة حرص الحرص كله على ان ينقيها من اى اثر للاحتجاج او الاعتراض ، كأنما يريد بها ان يذكره بما عسى ان يكون انسب :

— ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز ..

شعر السيد بشعور ابنه فادركه التأثير ، ولذلك لم يبخل عليه ببعض ما يدور في نفسه .. فقال له :

— أعلم ذلك .. ولكنى اخترت ان نكون من الكرماء ، محمد عفت عقل تركى حجرى ولكن قلبه من ذهب ، هذه الخطوة ليست الاخيرة ، ليست النهاية ، لم اغفل مصلحتك وان كنت لا تستاهل خيرا ، دعنى اتصرف كما اشاء ..

كما تشاء ! .. منذ ايرد لك مشيئة ! ! .. تزوجنى وتطلقنى .. تحيينى وتميتنى ، لست هنا ، خديجة عائشة فهمى ياسين .. الكل واحد ، الكل لا شيء ، انت كل شيء .. كلا .. لكل شيء حدى ، لم اعد طفلا ، رجل مثلك سواء بسواء ، انا الذى اقرر مصيرى ، اطلق او اودعها بيت الطاعة ، تراب حداثى بمحمد عفت وزينب وصداقتكما ..

— مالك لا تتكلم ؟ !

فقال دون تردد :

— امرك يا ابى ...

اي عيشة واى بيت واى اب ، زجر وتاديب ونصائح ، ازرع نفسك .. ادب نفسك .. انصح نفسك ، انسيت زبيدة .. وجليلة .. والفناء والشراب .. ثم تطالعنا بعمامة شيخ الاسلام وسيف امير المؤمنين ، لم اعد طفلا ، اعتن بالقصر ودعنى وشانئ ، تزوج .. امرك يا فندم ، طلق .. امرك يا فندم .. ملعون ابوك ..

خفت حدة المظاهرات شيئا ما في حى الحسين بعد احتلال الجنود الانجليز له فامكن للسيد أحمد أن يستأنف ممارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطرا الى حين، أمكنه أن يصطحب أبناءه الى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة . . عادة قديمة دأب عليها منذ عهد بعيد . . كان يدعو ابنه اليها حالما يبلغ صباحه ليوجه قلبه الى العبادة مبكرا ، مستوهبا من ورائها البركة لنفسه ولأبنائه وللأسرة جميعا . ربما كانت امينة وحدها التى لا ترتاح الى تحرك القافلة فى نهاية كل اسبوع حاملة رجالها ، ثلاثة رجال كالجمال طولا وعرضا الى فتوتهم واشراقهم ، كانت تتبعهم نظريها من خصاص المشربية فيخيل اليها أنهم ملتقى الأنظار فتجزع وتدعو الله أن يقيهم شر العين ، وما ملكت يوما أن افضت بمخاوفها الى السيد فبدا وكأنه تائر لتحذيرها حيناً ، بيد أنه لم يستسلم للخوف طويلا وقال لها : « ان بركة الفريضة التى نذهب لتأديتها حقيقة بأن تحفظنا من كل شر »

وكان فهمى يلبي دعوة الجمعة ببشاشة قلب اولع بتأدية الفرائض منذ الصغر ، مضيعة في ذلك - قبل ارادة أبيه - عاطفة دينية صادقة ، تمتاز الى صدقها بقدر من الاستنارة لا بأس به ، استمدته مما اطلع عليه من آراء محمد عبده وتلاميذه . . لذلك كان الوحيد فى الأسرة الذى يقف من ايمانها بالتعاونيد والرقى والأحجية وكرامات الاولياء موقف التشكك ، وان أبت عليه دماء خلقه أن يجهر بتشككه او يعلن استهائته ، بل كان يتقبل حجاب الشيخ متولى عبد الصمد الذى يجيء به أبوه بين حين وآخر برضى ظاهرى . اما ياسين فكان يلبي دعوة أبيه لأنه لم يكن من تلبستها بد ، لعله لو ترك وشأنه ما فكر يوما فى أن يدس جسمه الضخم فى زحمة المصلين ، لا عن تزعر فى العقيدة ، ولكن استهانة وتكاسلا . . لذا كان ليوم الجمعة عنده هم يكابده مع مطلع الصباح ، فاذا حان وقت الذهاب الى الجامع ارتدى بدلته فى شيء من التذمر ، ثم يسير وراء أبيه كالأسير ، ولكن كلما اقترب من الجامع خطوة تخفف من تدمره وريدا ، حتى يدخل الجامع منشرح الصدر فيؤدى الصلاة ويدعو الله أن يغفر له ويعفو عن ذنوبه ، دون أن يسأله التوبة كأنما يشفق فى أعماقه أن يستجاب دعاؤه فينقلب زاهدا فى اللذات التى يحبها حبا لا يرى للحياة بدونه معنى .

كان يعلم علم اليقين أن التوبة واجبة ، وأن مغفرة لن تكتب له بدونها ، ولكنه كان يرجو أن تجيء في الوقت « المناسب » حتى لا يخسر الدارين ، ولذا كان على تكاسله وتدمره يحمد في النهاية الظروف التي تدفعه الى تأدية فريضة هامة كفريضة الجمعة يمكن - عند الحساب - أن تمحو بعضا من سيئاته وتخفف من أوزاره ، خصوصا وأنه لا يكاد يؤدي غيرها فريضة ..

أما كمال فلم توجه إليه الدعوة الا حديثا . قد جاوز العاشرة ، فنهض الى تلبيتها في زهو وخيلاء وفرح ، شعر شعورا غامضا بأنها تتضمن اعترافا بشخصه ، وأنها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمي وياسين وأبيه نفسه ، ثم سره على وجه الخصوص أن يسير في ركاب أبيه آمنا الى دون أن يتوقع من ناحيته شرا ، وأن يقف في الجامع الى جانبه على قدم المساواة مؤتمنين جميعا بامام واحد ، بيد أنه كان يستغرق في صلاته اليومية - في البيت - استغراقا لا يظفر بمثله في صلاة الجمعة بالنظر الى ما يعتريه من ارتباك لقيامه وسط خلق لا يحيط بهم حصر ، ولا شفاقة من أن تند عنه هفوة فتلتقطها احدى حواس أبيه ، الى أن شدة شعوره بالחסين - الذي يحبه اكثر من نفسه - وهو في مسجده كانت تحول بينه وبين التوجه الخالص لله كما ينبغي للمصلى ..

هكذا رآهم طريق التحاسين مرة اخرى وهم يحتشون الخطي الى بيت القاضي ، السيد في المقدمة وياسين وفهمي وكمال وراءه صفا ، حتى اتخذوا مجالسهم في الجامع وراحوا ينصتون الى خطبة الجمعة بين رعوس مشرّبة الى المنبر في صمت شامل . لم يكن السيد على شدة انصاته يكف عن الدعاء الباطني ، وتوجه قلبه الى ياسين خاصة ، كأنما رآه بعد ما لحق به من عثار الحظ أحق بالرحمة ، فدعا الله طويلا أن يصلح من شأنه ويقوم ما اعوج من امره ويعوضه عما فقد خيرا .. على ان الخطبة جبهته بمعاصيه ، اخذت ما بينه وبينها فطالها وجها لوجه في حالة مرعدة من صوت انواع الجهوري الرنان النافذ حتى خيل اليه أنه يعنيه بالذات ، وأنه يشد على اذنه صارخا فيها بأعلى صوته ، وأنه لا يستبعد أن يخاطبه باسمه قائلا : « يا احمد ازدجر .. تظهر من الفسق والخمر وتب الى الله ربك » فآلم به قلق وضيق كما آلم به يوم ناقشه الشيخ متولى عبدالصمد الحساب ، وهو ما يقع له كثيرا عند سماع الخطبة فيسترسل في طلب الغفران والعفو والرحمة ، ولكنه - كابنه ياسين - لم يكن يطلب التوبة وان طلبها فبلسانه دون قلبه ، يقول بلسانه « اللهم التوبة » على حين

يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنهما آلتان موسيقتان
تتصانحان معا في أوركسترا واحد فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان ، لأنه لم
يتصور أن يرى الحياة بغير العين التي يراها بها ولا أن تبدو له بغير الوجه
الذي تبدو به ، فإذا ألح عليه القلق والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع
عن نفسه .. ولكنه يلقي دفاعه في صورة دعاء واستغفار فيقول « اللهم
انك اعلم بقلبي وايمانى وحبي » اللهم زدنى استمساكا بتأدية فرائضك
وقدرة على صنع الخير ، اللهم ان الحسنه بعشرة أمثالها ، اللهم انك أنت
الغفور الرحيم .. وبهذا الدعاء تعاوده الطمأنينة رويدا
لم تكن ليأسين مثل هذه المقدرة على التوفيق أو أنه لم يشعر قط
بحاجة اليها ، لم تكن موضع تفكيره يوما ، يهيم بالحياة كما يشتهي ويؤمن
بالله كما يؤمن بوجوده هو ، ثم يستسلم للتيار دون مقاومة أو ممانعة .
قرعت اذنيه كلمات الواعظ فتحرك صوته الباطنى سائلا الرحمة والمغفرة
بطريقة آلية وفي طمأنينة شاملة دون أن يسنشعر خطورة حقيقية ، أن
الله أرحم من أن يحرق مسلما مثله بهفوات عابرة لا تؤذى أحدا من عبادِهِ ،
ثم هنالك التوبة ! .. ستأتى « يوما » فتمحو ما قبلها ، واسترق نظرة
الى أبيه وتساءل وهو يعرض على شفيعته كأنما يكتم ضحكة نافرة معاسى
ان بدور بخاطره وهو ينصت بهذا الاهتمام الهادى الى الخطبة ؟ .. أهو
يعانى العذاب كل صلاة جمعة ام تراه يوافق ويخادع ؟ .. كلا .. لا هذا
ولا ذاك .. انه مثله - باسين - يؤمن برحمة الله الواسعة ، لو ان الأمر
بالخطورة التى يصغف بها الواعظ لاختار أبوه احدى السبيلين ، استرق
اليه نظرة أخرى فرأى كالجواد الكريم الجميل بين القاعدين المتطلعين الى
المنبر ، شعر نحوه باعجاب وحب خالصين ، لم يعد للحق اثر فى نفسه ،
ومع ان الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق ، حتى بث همه الى فهمى قائلا :
« لقد خرب ابوك بيتى وجعلنى اضحوكة بين الناس » الا أنه تناسى الآن
حنقه كما تناسى الطلاق والفضيحة وكل شيء ، ثم هذا الواعظ نفسه
ليس خيرا من أبيه .. بل هو على وجه اليقين أمعن فى الضلال ، حدثه
عنه مرة أحد الأصحاب فى قهوة أحمد عبده فقال : « انه يؤمن بشيئين
.. بالله فى السماء وبالغلمان فى الأرض ، انه من طراز حساس ترفعيته
وهو فى الحسين اذا تاوه غلام فى القلعة » ، بيد انه لم يحقد عليه لذلك ،
وعلى العكس وجد فيه كما وجد فى أبيه ما يجد الجندى فى الخنادق
المحفورة فى المخطوط الأممية التى على العدوان أن يقتحمها قبل أن يصل اليه .
ثم دعا الداعى الى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة ، وقفوا صفوفا

منراصة ملأت صحن الجامع الكبير ، صار المسجد أجسادا ونفوسا ذكر كمال احتشادها مشهد الحمل في النحاسين ، واتصلت الأزياء في خطوط طويلة متوازية وحدتها البدل والجيب والجلابيب ، ثم انقلب الجمع جسما واحدا تصدر عنه حركة واحدة مستشرفا قبلة واحدة ، وترددت التلاوات الهامسة في مهمة شاملة حتى أذن بالسلام .. عنذاك انشر سلك النظام ، استردت الحرية أنفاسها ، نهض كل لوجهته ، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من اتجه نحو الأبواب للخروج ومنهم من تلبث للحديث أو تريض حتى يخف الزحام .. فاختلطت تياراتهم أيما اختلاط كال موجة الكبيرة تندفع نحو الشاطئ وهي آخذة في النمو والعلو والتكثف ، ثم تهوى كاشلال فتنفجر وتنساب في شتى الجهات على هيئة موجات صغيرة تمتزج وتفترق وتنتشر أيما انتشار ، أذنت الساعة السعيدة التي منى كمال نفسه بها .. ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة أصالة عن نفسه وإثابة عن أمه كما وعدا ، بدا يتحرك ببطء في ركاب أبيه .. وما يدرون الا وشاب ازهرى يبرز من الزحمة فجأة فيعترض سبيلهم في حركة عنيفة لافتة للأنظار ، ثم يسبط ذراعيه لينجى الناس جانبا ومضى يتقهقر أمامهم وهو يتفحص ياسين بنظرات ثاقبة مريبة وقد عيس وجهه وتطايرت نلر الغضب من صفحته المكفهرة . عجب السيد له فجعل يردد بصره بينه وبين ياسين ، على حين بدا ياسين اشد عجبا فراح بدوره يردد بصره بينه وبين أبيه متسائلا ، ثم انتبه اناس الى المشهد فركزوا فيه انظارهم مترقبين في دهشة واستطلاع ، وعندذاك لم يتمالك السيد ان خاطبه متسائلا في استياء :

— مالك يا أخى تنظر إلينا هكذا ؟ .

فأشار الأزهرى الى ياسين وصاح بصوت كالرعد :

— جاسوس ! .

نفذت الكلمة الى صدر الأسرة كالرصاصة فدار رأسها وحملت أعينها وجمدت في أماكنها ، على حين جرت التهمة على الألسن فرددتها في فزع وحنق وأخذ الناس يتجمعون حولهم وأذرعهم تشتبك في جذر لتحصرهم في دائرة مالها من منفذ ، وكان السيد أول من ثاب الى وعيه ، ومع انه لم يفهم شيئا مما يدور حوله .. الا انه أدرك خطورة الصمت والانكماش فهتف بالشاب غاضبا :

— ماذا تقول ياسيدنا الشيخ ؟ .

ولكن الشاب لم يابه للسيد ، فأشار مرة أخرى الى ياسين وصاح :

— حذار ايها الناس، هذا الشاب الخائن جاسوس من جواسيس الانجليز اندس بينكم ليتسقط الانباء ثم ينقلها الى سادته المجرمين
ركب الغضب السيد فتقدم من الشاب خطوة وصاح به غير منمالك
بسمه :

— انت تهرف بما لا تعرف ، فاما ان تكون مجرما او مجنونا . هذا
الشاب ابني لا خائن ولا جاسوس ، كلنا وطنيون وهذا الحي يعرفنا
كما نعرف انفسنا ..

فهز الشيخ منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطابي :

— جاسوس انجليزى حقير ، رايته بعيني رأسي مرارا وهو يناجى
الانجليز عند بين القصرين « عندى شهود على ذلك ، لن يجرؤ على تكديبي
انى اتحداه .. ليسقط الخائن ..

وتجاوبت في اركان الجامع دمدمة غاضبة ، تعالى الهتاف هنا وهناك
« ليسقط الجاسوس » .. وصاح غيرهم « فليؤدب الخائن » .. ولاحث
في اعين القريبيين نذر الوعيد تترصد بادرة او اشارة كي تنقض على
الفريسة « لعله لم يؤخر اقدامها الا منظر السيد المؤثر الذى وقف لصق
ابنه كانما يتلقى عنه ما يتهدده من اذى ، ودموع كمال الذى افرق في
الانتحاب . اما ياسين فقد وقف بين السيد وفهمى فاقدر الوعى من
الاضطراب والوجل « وجعل يقول بصوت متهدج لم يكذب بسمه احد :

— لست جاسوسا .. لست جاسوسا .. الله على صدق قولى

شهيد

ولكن الغضب بلغ بالناس مداه ، فتجمهروا حول الدائرة المحصورة
وهم يتدافعون بالناكب ويتوعدون « الجاسوس » شراً ، على ان صوتا
من وسط الزحام ارتفع هائفاً :

— تمهلوا ياسادة .. هذا ياسين افندى كاتب مدرسة النحاسين
فانطلقت اصوات كالهدير :

— مدرسة النحاسين او الحدادين فليؤدب الخائن ..

وكان رجل يتسق طريقته بين الأجسام بصعوبة ولكن بعزم لا يقهر ..
فما بلغ الصف الامامى حتى رفع يديه وهو يزعم : « اسمعوا .. اسمعوا »
.. ولما هدأت الاصوات قليلا قال وهو يومئ الى السيد احمد :

— هذا السيد احمد عبد الجواد من اهل النحاسين المروفين .. ولا

يمكن ان يضم بيته جاسوسا ، فترثوا حتى تنجلي الحقيقة

ولكن الأزهرى صرخ حائفاً :

- لا شأن لى بالسيد احمد او السيد محمد ، هذا الشاب جاسوس مهما يكن من امر ابيه ، رايته يضاحك الجلادين الذين زحموا القبور بأبنائكم ...

وما عثم ان صاح اناس لا حصر لهم :

- ليضرب بالأحذية .

وسرت فى المتجمهرين حركة عنيفة ، فاقبل متحمسون من كل صوب ملوحين بالأحذية والمراكيب حتى شعر ياسين بالانهيار والياس . دارت عيناه فيما حوله فلم تقعا الا على وجه متحرش يفور بالغضب والبغضاء ، والتصق السيد وفهمى بجانبى ياسين بحركة غريزية كأنما ايدفعها عنه الأذى او ليقاسماه اياه ، وهما على حال من الياس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقه ، على حين انقلب انتحاب كمال صراخا كاد يغطى على اصوات الشائرين . كان الأزهرى اول المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضا على بنية قميصه ثم جذبه بعنف لينزعه من الماوى الذى لاذ به بين ابيه واخيه حتى لا تخطئه الأحذية ، ولكن ياسين قبض على معصميه مقاوما ودخل السيد بينهما ، ورأى فهمى اياه فى الموقف المثير لأول مرة فى حياته . فاستغره غضب شديد اذهله عما يحدث بهم من خطر ، فدفع الأزهرى فى صدره دفعة قوية ردت به الى الوراء فصاح به متوعدا :

- حذار ان تتقدم خطوة واحدة !

فصرخ الأزهرى وقد جن جنونه :

- أدبوهم جميعا ...

عند ذلك علا صوت قوى يقول بلهجة امرة :

- انتظروا يا سيدنا الشيخ .. انتظروا جميعا ..

فانجحت الانظار الى الصوت ، فاذا بأفندى شاب يبرز من بين الجموع الى الدائرة المحصورة يتبعه ثلاثة فى مثل سنه وزيه ، تقدموا فى خطوات ثابتة توحى بالثقة والعزم حتى وقفوا بين الشيخ وبين المتهم وذويه ، تهامس كثيرون متسائلين « بوليس لا بوليس لا » بيد ان التساؤل انقطع حينما مد الأزهرى يده الى يد قائد الجماعة القادمة وشد عايتها بحرارة . ثم سال الأفندى الأزهرى بنبرات حاسمة :

- اين هذا الجاسوس ...

فاشار الشيخ الى ياسين بازدرأ وتغزّر ، فالتفت الشاب اليه وثبت عليه عينيه متفحصا اياه بدقة وقسوة ، وقبل ان ينبس بذلمة تقدم فهمى خطوة الى الامام كأنما ليسترعى انتباهه فلمحه الآخر .. وسرعان

ما اتسعت عيناه دهشة وانكارا فغمغم قائلا :

— انت ..

فابتسم فهمى ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكم :

— هذا الجاسوس أخى .. !

فالتفت الشاب الى الأزهرى متسائلا :

— انت متأكد مما تقول .. ؟

فبادره فهمى قائلا :

— ربما صدق فى قوله .. انه رأى يحدث الانجليز ولكن أساء التفسير

أيما أساءة ، ان الانجليز معسكرون أمام بيتنا وهم يتعرضون لنا فى الذهاب

والاياب فتتورط أحيانا فى محادثتهم على كره .. هذا كل ما هنالك ..

وهم الأزهرى بالكلام ولكن الشاب أسكتته بإشارة من يده ، ثم خاطب

الجميع قائلا وهو يضع يده على منكب فهمى :

— هذا الشاب من الأصدقاء المجاهدين ، كلانا يعمل فى لجنة واحدة

فكلامه عندى مصدق .. اخلوا سبيلهم

لم ينبس احد بكلمة ، انسحب الأزهرى بلا تردد ومضى الناس يتفرقون

صافح الشاب فهمى ثم ذهب يتبعه رفاقه ، ربت فهمى على رأس كمال

حتى كف عن البكاء ، ساد الصمت فأخذ كل يضمد جراحه . انتبه

السيد الى وجوه نفر من معارفه قد أحاطوا به وراحوا يواسونه ويعتذرون

اليه عن الخطأ الكبير الذى وقع فيه الأزهرى ومن ضل به من الناس ،

ويؤكدون له انهم لم يألوا جهدا فى الدفاع عنه فشكرهم ، وان كان لا يدرى

متى جاءوا ولا كيف دافعوا عنه ، وعدل عن الزيارة لما استحوذ عليه

من انفعال فاتجه صوب الباب مطبق الفم . متجههم الوجه وتبعه الأبناء

فى صمت ثقيل ...

في الطريق استرد انفسه ، فداخله ارتياح لابتعاده عن الناس الذين شاركوا في « الحادث » ولو بمجرد الرؤية ، كره وقتذاك كل شيء وراءه وقذفه باللعنات ، لم يكذب يرى من الطريق الذي يسير فيه شيئا ، فتبادل التحية مرتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متكلف لم يمهّد فيه من قبل ، تركّز شعوره في ذاته - ذاته الجريحة - وسرعان ما فار بالغضب . . كان أحب الى أن تنتهي الحياة من أن أقف ذلك الموقف المزرى ، كالأسير بين طغمة من اللثام ، وهذا المجاور القمل مدعى الوطنية الجوعان تهجم على بكل وقاحة . لم يرع لى حرمة سن أو مهابة ، لم أخلق لهذا ، ليس « أنا » الذي يهان بتلك الكيفية ، وبين ابنائى . . لا تعجب . . ابناؤك هم أصل البلوى ، هذا الثور ابن المرة لن يفيك من متاعبه أبدا . فقس الفضائح في بيتي وأوقع بيني وبين أعز الأصدقاء ، ثم توج عامنا بالطلاق . . لم يكفه هذا كله ، كلا . ابن هنية لابد أن يسامر الانجليز جهارا كي أرفع أنا الشمن السفلة المتهمجين ، اذهب بهم ايها كي يكمل متحف عشاقها بالانجليز والاستراليين . .

- يبدو لى اننى لن أخلص العمر من متاعبك . .

لذت عنه هذه الجملة بحدة ، بيد انه قاوم رغبته في تأديبه لأنه رغم غضبه قدر حاله الذي يرمى له ، رآه ذاهلا شاحبا متوعكا فلم تطاوعه نفسه في الهجوم عليه ، حسبته الآن ما حاق به ، ليس وحده المذنب ، ليس وحده الذي يتحففه بالمتاعب ، هنالك البطل ، ولكن فلنؤجل همه حتى نفيق من متاعب التنور ، ثور في البيت ، في الحانة . . ثور امام ام حنفى ونور ، اما في المعركة فهو رطل خرع لا فائدة منه ولا عائدة ، يا اولاد الكلب ! . . الله يقطع الاولاد والخلف والبيسوت ، اه . . لماذا تسوقنى قدماى الى البيت ! . . لم لا اناول لقمتي بعيدا عن الجو المسموم ! . . ستناول هى الأخرى اذا علمت بالخبر ، لست في حاجة الى مزيد من القرف ، الى الدهان . . ساجد حتما صديقا أقص عليه رزيتى واشكو اليه همى . . كلا . . لدى متاعب أخرى لا تقبل التاجيل أكثر من هذا ، البطل ، مصيبة جديدة يجب أن نجد لها علاجا ، الى الغداء المسموم ، ولولى . . ولولى . . ولولى . . ملعون ابوك انت الأخرى . .

لم يكذب فهمي يغير ملابسه حتى دعى الى مقابلة والده - فلم يملك ياسين على خموده وكربه الا أن يغمغم قائلا :

- جاء دورك ...

فتساءل فهمي متجاهلا المعنى الكامن وراء ملاحظته أخيه :
- ماذا تعنى ؟

فضحك ياسين - أجل وسعه أخيرا أن يضحك - وقال :
- انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين !..

استد ما تمنى ان تغيب النعوت التى نعتت بها صديقه فى الجامع وراء ضجة الثورة وذهور الانفعال ، ولكنها لم تغب ، هاهو ياسين يرددها ، ولا شك ان اباه يدعو من أجل مناقستها . تنهد فهمي من الأعماق ثم ذهب . وجد السيد متربعا على الكنبة يعبث بحبات سبخته وفي عنيه نظرة تنم عن تفكير كئيب فحياء بأدب جم ووقف على بعد مترين من الكنبة فى خضوع وامثال ، ورد الرجل تحينه بحركة خفيفة من رأسه تدل على الضيق أكثر مما تدل على التحية ، وكأنما تقول له : «انى أرد تحيتك مرغما كما تقضى اللياقة ، ولكن أدبك الزائف هذا لم يعد ينطلى على » . . ثم حدجه بنظرة متجهمة ينبعث منها شعاع الارتياح كأنه مصباح كشاف يفتش عن مخبئ بالظلام وقال بحزم :

- دعوتك لأعرف كل شيء ، اريا ، أن أعرف كل شيء . ماذا قصد صديقك بقوله أنك من « الاصدقاء المجاهدين » وانكما تعملان فى لجنة واحدة ؟ . . سارحنى بكل شيء دون تردد . .

ومع ان فهمي اعتاد فى الاسابيع الأخيرة ان يواجه أخطارا شتى ، حتى الطلقات النارية الف ازيزها ، الا أنه لاقى تحقيق ابيه بقلب ماقبل النورة ، ركبتة الرهبة وشعر بأنه لاشيء ، وتركز بفكيره فى تحاشي غضبه ونسداد النجاة فقال برقة وادب :

- الأمر بسيط جدا يا بابا ، اهل صديقى بالغ فى قوله كى ينتشلنا من ورطتنا . .

فقال السيد وقد نفذ صبره :

- الأمر بسيط جدا . . عال . . ولكن اى امر هو لا . . لاتخف عنى اى شيء .

وكان فهمي يقلب الأمر على مختلف وجوهه فى سرعة خاطفة ليختار ما يصح قوله وتؤمن مغبته . . قال :

— سماها لجنة وهى لاتعدو ان تكون جماعة من الاصدقاء يتحدثون
كلما اجتمعوا فى الشئون الوطنية ..

فهدف السيد مغيفا محنتا :

— ألهذا استحققت لقب المجاهد .. ؟ !

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنما عز عليه ان يحاول ابنه
اللاعب به .. وارتسم الوعيد فى تجعدات عبوسته . فسارع فهمى —
دفاعا عن النفس — الى الاعتراف بشئ ذى بال ليقنع اباه بأنه امثـل
امره كالمتهم الذى يتطوع بالاعتراف دلمعا فى الرأفة .. قال فيما يشبه
الحياة :

— يحدث أحيانا ان تقوم بتوزيع بعض النداءات الحائرة على الوطنية ..
فتسأل السيد بانزعاج شديد :

— المنشورات ! .. هل تعنى المنشورات لا !

ولكن فهمى هز راسه سلبا ، خاف ان يعترف بهذا الاسم الذى
يقرن فى البلاغات الرسمية بأقسى العقوبات ، وقال بعد ان وجد سيفته
مقبولة تخفف من خطورة اعترافه :

— ليست الا نداءات تحث على حب الوطن ..

ترك الرجل السبحة تسقط من يده الى حجره ، وراح يضرب كفا
على كف ويقول وهو لا يتمانك نفسه من الانزعاج .

— انت من موزع المنشورات ! .. انت ! ..

زاغ بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب : موزع منشورات ! ..
من الاصدقاء المجاهدين ! .. كلانا يعمل فى لجنة واحدة ! .. هل بلغ
الظوفان مرقده لا ! .. طالما راعه فهمى بأدبه وبره وذكائه ، لولا ان الثناء
فى نظره مفسدة وان الحفاظة تهذيب وتقويم لأوسمه ثناء ، كيف انجلى
هذا كله عن موزع منشورات .. مجاهد .. كلانا يعمل فى لجنة ..
واحدة ؟ ! .. انه لا يحتقر المجاهدين ، هو أبعد مايكون عن ذلك ، طالما
تابع انباءهم بحماس ودعا لهم عقب كل صلاة بالتوفيق ، طالما ملاته
اخبار الاضراب والتخريب والمعارك املا واعجابا ، ولكن الامر يختلف
كل الاختلاف اذا صدر عمل من هذه الاعمال عن ابن من أبنائه ، كأنهم
جنس قام بذاته خارج عن نطاق التاريخ ، هو وحده الذى يرسم لهم
الحدود لا الثورة ولا الزمن ولا الناس ، الثورة واعمالها فضائل لا شك
فيها مادامت بعيدة عن بيته .. فاذا طرقت بابيه ، واذا تهددت أمنه
وسلامه وحياة أبنائه ، تغير طعمها ولونها ومغزاها ، انقلب هو —

وجنونا وعقوقا وقلة أدب ، فلتشتعل الثورة في الخارج وليشارك فيها هو بقلبه كله ، وليبدل لها ما في وسعه من مال .. وقد فعل ولكن البيت انه وحده دون شريك ، ومن تحدته نفسه - فيه - بالاشتراك في الثورة فهو ثائر عليه هو لاعلى الانجليز ، انه يترحم ليل نهار على الشهداء ويعجب كل الاعجاب بالشجاعة التى يتدرع بها آلهم فيما يروى الرواة ، ولكنه لن يسمح لابن من ابنائه بأن ينضم الى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التى يتدرع بها آلهم ، فكيف سولت نفس فهمى له بالاقدام على هذه الخطوة الجنونية ؟ .. كيف ارتضى - وهو خير ابنائه - أن يعرض نفسه الى الهلاك المبين ؟ .. انزعج الرجل انزعاجا لم يشعر بمثله من قبل ، فاق انزعاجه فى مازق الجامع نفسه ، فلم يتمالك أن يسأله بصرامة ووعيد كأنه أحد مفتشى البوليس الانجليز :

- الا تعلم ماجزاء الذى يضبط ، وهو يوزع منشورات .. ؟ !
رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره فيه ، أيقظ السؤال ذكرى قريبة اهتزت لها نفسه ، ذكرى هذا السؤال نفسه بنصه ومعناه حينما طرحه عليه الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذية - بين جملة أسئلة أخرى - وهو بصدد اختياره عضوا فيها ، ثم ذكر بالتالى كيف أجابه وقتذاك بعزم وحماس « كلنا فداء لاوطن » وقارن بين الظرفين اللذين القى فيهما السؤال الواحد ، فاعتراه شعور بالسخرية ، بيد انه اجاب والده برقة وبصوت يوحى بالتهوين :

- انى أقوم بالتوزيع بين الأصدقاء من الزملاء فقط ، ولا شأن لى بالتوزيع العام .. فليس ثمة مخاطرة أو خطر ..

فهتف السيد بغلظة وكأنه يدارى خوفه على ابنه بحدة الغضب :
- ان الله لا يكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك ، وقد امرنا سبحانه بالان نعرض انفسنا للتهلكة ..

ود الرجل ان يستشهد بالآية التى تترجم عن هذا المعنى ، ولكنه لم يكن يحفظ من القرآن الا السور القصيرة التى يتلوها فى صلواته ، فخاف ان يسهو عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزرا لايفتقر ، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه ، ولكنه مايدرى الا . وفهمى يقول بلهجته المهذبة :

- ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا بابا ..
سأله فهمى نفسه فيما بعد متعجبا كيف واثته شجاعته على مخاطبة السيد بهذا القول الذى فضح ماداراه من استمساك برأيه ! .. لعله

احتّمى بالقرآن فوقف وراء معنى من معانيه معلّمنا الى ان اباه سيحجم في تلك الحال عن مهاجمته ، وقد بوغت السيد مباغطة شديدة بجرأة ابنه وحجته معا ، ولكنه لم يستسلم للفضب لان الفضب ربما أسكت فهمى ولكنه لن يسكت حجته ، فتناسى جراته الى حين ريثما يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن ، يجب ان يجدد لمازقه مخرجا من القرآن نفسه حتى تتم الهداية للابن الضال ، وله بعد ذلك ان يعود الى محاسبته كيفما شاء ، وفتح الله عليه فقال :

— ذاك كان جهادا في سبيل الله . .

اعتبر فهمى جواب ابيه قبولا للمناقشة والمحااجة ، فتشجع مرة اخرى قائلا :

جهادنا في سبيل الله كذلك ، كل جهاد شريف فهو في سبيل الله . . آمن السيد بقوله في قلبه ، ولكن هذا الايمان نفسه وما خلفه من شعور بالضعف امام محدثه ، هو ما جعله برأى الى غضبه دون ابطاء . . بدد انه لم يكن غضبا لكبريائه فحسب ، ولكن ايضا لاشفاقه من ان ينمادى الشاب في غيه حتى يودى بنفسه ، فسكف عن الجدل وتساءل مستنكرا :

— احسبتهنى قد دعوتك لتناقشنى !

انتبه فهمى الى ما تنطوى عليه كلمات ابيه من نذير ، فضاغت احلامه وانعقد لسانه . . اما السيد احمد فعاد يقول بحدة :

— لا جهاد في سبيل الله الا ما اريد به وجه الله وحده — اى الجهاد الدينى — لاجدال في هذا ! . . والآن اريد ان اعرف الا يزال اسرى مطاعا ؟ فبادره الشاب قائلا :

— بكل تأكيد يا بابا . .

— اذن اقطع كل دالة بينك وبين الثورة . . ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصة اسدقائك !

ان قوة في الوجود لا يمكن ان تحول بينه وبين واجبه الوطنى ، ان تتراجع مطلقا ولو خطوة واحدة ، انتهى زمان ذلك الى غير رجعة ، ان هذه الحياة الحارة الباهرة التى تنبثق من اعماق قلبه وتضىء جوانب نفسه لا يمكن ان تغيض وهيئات ان يغيضها هو بسده ، كل هذا حق لاسك فيه ، ولكن لماذا لا يلتمس وسيلة الى ارضاء ابيه وتحامى غضبه ! . . انه لا يستطيع ان يتحداه ولا ان يجهر بمخالفة امره ، اجل استطاع ان يتور على الانجليز وان يتحدى رصاصهم كل يوم تقريبا

ولكن الانجليز عدو مخيف وبغيض معا اما ابوه فرجل مخيف ومحجوب، وهو يعبد به بقدر ما يخافه فلن يهون عليه ان يصدمه بعصيان ، ونمة احساس آخر لاسبيل الى تجاهله هو ان وراء الثورة على الانجليز مثالية نبيلة ، اما وراء التمرد على ابيه فليس الا الخزي والتعاسة ، وماذا يدعو الى هذا كله ؟ ! .. لماذا لا يعده بالطاعة ثم يفعل ما يشاء ؟ ! .. لم يكن الكذب في هذا البيت بالرديلة المخزية ، ولم يكن في وسع أحد منهم ان يتمتع بالسلامة في ظل الأب دون حماية من الكذب ، وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين أنفسهم ، بل ويتفقون عليه في الموقف الحرج ، وهل كان في نية الام يوم تسلمت في غيبة السيد الى زيارة الحسين ان تعترف بفعلتها ؟ ! .. وهل كان في وسع ياسين ان يسكر ، وهو ان يحب مريم ، وكما ان يتعفرت بين خان جعفر والخرنفس بلا حماية من الكذب ؟ ! .. ليس الكذب مما يتورع عنه احد منهم ، ولو انهم التزموا الصدق مع ابيهم ماذا قوا للحياة طعما ، لهذا كله قال بهدوء :

— امرك مطاع يا بابا ...

واعقب هذا التصريح صمت تنفس فيه كلاهما من الراحة ، فظن فهمي ان استجوابه قد انتهى بسلام ، وظن السيد احمد انه انتسل ابنه من الهاوية . وبينما كان فهمي ينتظر ان يؤذن له بالانصراف ، قام الأب فجأة واتجه الى صوان الملابس ففتحه ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئا ثم عاد الى مجلسه حاملا القرآن ، ونظر الى فهمي مليا ثم مد يده بالكتاب اليه وهو يقول :

— اقسم لي على هذا الكتاب ..

وترجع فهمي بحركة عكسية ندت عنه قبل ان يتدبر امره ، كأنما فر من لسان لهب امتد اليه فجأة ، وتسمر في موقفه وهو يحمل في وجه ابيه مرتبكا مذعورا يائسا ، فلبث السيد ماذا يده بالكتاب وهو ينظر اليه في غرابة وانكار ، ثم احمر وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق مخيف ، وتساءل في ذهول وكأنه لا يصدق عينيه :

— الا تريد ان تقسم ؟ !

ولكن لسان فهمي انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبد حراكا ، فتساءل الرجل بصوت هاديء تخللته رعشة متهدجة اندرت بما يفور تحته من غضب مستتر كما يندر البرق بقعقة الرعد :

— اكنت تكذب على .. ؟

لم يطرأ على فهمي تغير الا انه غض بصره فرارا من عيني ابيه ، ووضع

السيد الكتاب على الكتبة ثم انفجر صائحا بصوت مدو خاله فهمى كفوا
تهوى على خديله :

— أنت تكذب على يابن الكلب ! .. أنا لا أسمح لمخلوق بأن يضحك على
ذقنى ، ماذا تظن بى وماذا تظن بنفسك ! .. أنت حشرة خبيثة مجرمة
بنت كلب خدعت بظاها طويلا ، لن أنقلب امرأة على آخر الزمن ، سامع ! ..
لن أنقلب امرأة على آخر الزمن ، حيرتمونى يا أولاد الكلب وجعلتمونى
أضحكة الناس ، أنا أسلمك بنفسى الى البوليس ، فاهم ؟ ! .. بنفسى
يابن الكلب ، الكلمة هنا كلمتى أنا ، أنا أنا .. (ثم متباولا الكتاب مرة
اخرى) أقسم .. أمرك بأن تقسم ..

بدا فهمى وكأنه فى غيبوبة ، كانت عيناه مثبتتين على بعض الصور
الغريبة المنقوشة على السجادة الفارسية دون أن تربا شيئا ، وكأن تلك
النقوش قد انطبعت بادامة النظر على صفحة عقله فاستحال شتيتا من
الفوضى والخواء ، وكلمتا مرت ثانية أمعن فى الصمت ، واليأس ، لم يبق له الا
أن يلوذ بهذه المقاومة السلبية اليائسة . ونهض السيد والكتاب فى يده
فاقترب خطوة منه ثم زعق :

— أتوهمت أنك رجل ؟ .. أتوهم أنك تستطيع أن تفعل ما تشاء ؟ ! ..
لو اشاء أضربك حتى اكسر رأسك ...

لم يملك فهمى عند ذلك الا ان يبكى ، لا خوفا من التهديد فما كان يبالى
فى موقفه وتأثره بأى لأذى يصيبه ، ولكن تنفيسا عن قهره وترويحاً عن
الصراع الناشب فى صدره ، ثم جعل يعض على شفتيه ليكتم البكاء ، ثم
اعتراه الخجل لما ركبته من ضعف ، بيد أنه وسعه أخيرا أن يتكلم لشدة
تأثره من ناحية ومداراة لخبلة من ناحية اخرى ، فاسترسل قائلا فى
ضراعة اورجاء :

— سامحنى يابابا ، امرك مطاع فوق العين والراس ولكنى لا أستطيع ،
لا أستطيع ، اننا نعمل بدا واحدة فلا أرضى ولا ترضى لى أن الكص واتخلف
عن اخوانى ، هيهات أن تطيب لى الحياة ان فعلت ، ليس ثمة خطر وراء
ما نعمل ، غيرنا يقوم بأعمال أجل كالأشتراك فى المظاهرات وقد استشهد
منهم كثيرون ، لست خيرا منهم ، ان الجنازات تشيع بالعشرات معا ولا
هتاف فيها الا للوطن ، حتى أهل الضحايا يهتفون ولا يكون ، فما
حياتى ؟ .. وما حياة أى انسان ؟ .. لا تغضب يابابا وفكر فيما أقول ..
واكرر على مسمعك بأنه ليس ثمة خطر وراء عملنا السلمى الصغير ! ..

- ٣٧٧ -

وغلبيه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة أبيه ففر من الحجرة هاربا .
كاد يسطلدم وراء الباب ياسين وكمال الذين وقفا يتصنعتان وقد ارتسم
على وجهيهما الارتياح . .

- ٦٣ -

كان ياسين ماضيا الى قهوة احمد عبده حينما التقى في بيت القاضي
بأحد اقرباء أمه ، فاقبل الرجل نحوه باهتمام ثم صافحه وهو يقول :
- كنت ذاهبا الى البيت لمقابلتك . . حدس ياسين وراء كلامه انباء عن
امه التى اورثته الهموم ، فأحس ضيقا وتساءل بفتور :
خير ان شاء الله . . ؟

فقال الرجل باهتمام غير عادى :
- والدتك مريضة ، مريضة جدا فى الواقع ، اصابها المرض منذ شهر او
اكثر ولكنى لم أعلم به الا فى هذا الأسبوع ، وقد ظنوه بادیء الامر حالة
عصبية فسكنوا عنه حتى استفحل ثم تبين بعد فحص الأطباء انه ملاريا
شديدة . .

دهش ياسين للخبر الذى لم يكن يتوقعه ، كانه يتوقع حديثا عن طلاق
او زواج او شجار وما شاكل ذلك ، اما المرض فلم يقع له فى حسيبان ،
تساءل وهو لا يكاد يتبين مشاعره من شدة اعتلاجها :
- وكيف حالها الآن . . ؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مفراها على ياسين :
- حالها خطيرة ! . . امتد العلاج دون أن يبشر بأدنى تقدم ، وبالأجرى
ازدادت الحال سوءا ، وقد ارسلتنى اليك كى أصارك بأنها تشعر بدنو
اجلها ، وانها ترجو أن تراك دون تأخير . .
ثم بلهجة ذات معنى :

- يجب ان تذهب اليها بلا تردد ، هذه نصيحة ورجاء ، والله ففور
رحيم . . .

اعل كلام الرجل لم يخل من مبالغة اراد بها دفعه الى الذهاب ولكنه
ليس اختلاقا كله ، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده ، هاهو يخترق مرة
جديدة منحنى الطريق المفضى الى الجمالية بين بيت المال وحارة الوطاويط ،
الى يمينه عطفة التيه حيث تلبد بالعة الدوم فى ذكريات الظلام المرعشة والى

الأمام طريق الآلام ، سيري عما قليل دكان الفاكهة فيغض البصر ويتسلل كالص الهارب ، كلما ظن انه لن يعود اليه عادت به تعاسته ، ما من قوة كانت تستطيع ان تعيده اليها .. الا الموت ! .. الموت ! .. ترى هل حمت النهاية حقاً ؟ ! .. قلبى يخفق ، الما ؟ .. حزنا ؟ .. لا أدري الا انى خائف ، اذا ذهبت فلن اعود الى هذا المكان مرة أخرى .. سيفشى النسيان سالف الذكريات .. ثم ترد الى البقية الباقية من أملاكى ، ولكنى خائف ... وحائق على هذه الأفكار الخبيثة ، اللهم احفظنا ..

حتى اذا حظيت بعيشة ارغد وبال اصفى فلن ينجو قلبى من الآلام ، حين الموت ساودع اما بقلب ابن .. أم وابن اليس كذلك ؟ .. لست الا معذبا لا وحشا ولا حجرا ، بيد ان الموت زائر جديد على لم اشهد محضره من قبل ، وددت او كانت النهاية بغيره ، سنموت جميعا .. حقاً ! يجب الا استسلم للخوف ، ان انباء الموت لا تنقطع عنا ليل نهار فى هذه الأيام ، فى شوارع الدواوين والمدارس والأزهر ، وهناك فى اسبوط كل يوم ضحايا ، حتى المسكين الفولى البان فقد ابنه امس ، ماعسى ان يصنع أهل الشهداء ؟ .. يقضون العمر بكاء ؟ .. انهم يكون ثم ينسون وهذا هو الموت ، أف .. يخيل الى انه ليس ثمة مفر من المتاعب الآن ، ورائى فى البيت فهمى وعناده وامامى امى فما أنقص الحياة ، واذا كان الأمر مكيدة ووجدتها فى حير وعافية ؟ ! .. ستدفع الثمن غاليا .. يقينا لتدفعن الثمن .. لست لعبة أو أضحوكة ، لن تجد « الابن » الا حين الموت ، ترى ماذا بقى لى من نزوة ؟ .. واذا دخلت البيت التقى بذلك « الرجل » هناك ؟ .. لا أدري كيف أقابله .. ستلتقى عينانا فى لحظة رهيبية ، الويل له ، اتجاهله او اطرده هذا هو الحل ، هناك الوان من العنف لا تخطر له ببال ، ولكن ستجمعنا الجنازة حتما .. وهذا مضحك ، تصور ان يسير وراء النعش اقدم الأزواج واحدهم وبينهما الابن داعم العينين .. حتم وقتلك ان تدمع عيناى .. اليس كذلك ؟ .. لن يكون فى وسعى أن اطرده من الجنازة فتلاحقنى الغضبيحة حتى اللحظة الأخيرة .. ثم تدفن ، أجل تدفن وينتهى كل شئ ، ولكنى خائف ومتألم ومحزون ، ان الله وملائكته يصلون على ... هذه هى الدكان المجرمة .. وهذا هو .. لن يعرفنى ، هيهات ، اننا نتنكر بالعمر ، يا عم ... امى تقول لك ..

فتحت له الخادم الباب - نفس الخادم التى استقبلته منذ عام فانكرته - فتطلعت اليه كالمسائلة لحظة ، وسرعان ما غابت نظرة التساؤل وراء

لمعة كأنما تقول له : « آه .. أنت الذى تنتظر » ثم أفسحت له وهى تومئ
الى حجرة عن يمين الداخل قائلة :

— تفضل يا سيدى .. لا يوجد أحد ..

جذبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوة كأنما جاءته جوابا شافيا لبعض
حيرته ، فأدرك أن أمه أخلت له الطريق . أتجه الى الحجرة ، وتنحج ، ثم
دخل . وقعت عيناه على عيني أمه وهما ترفعان اليه من فراش على يسار
الداخل ، عينين حجبت صفاءهما المعهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتهما
الواهنة كأنما تتطلع اليه من بعيد ، وبالرغم من ذبولهما وما أوحى به
انطفأؤهما من عدم الاكتراث لشيء فقد ثبتتا على وجهه ثبوت العرفان ،
وانفرجت شفثاهما عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان . لم
يكن يبدو منها الا وجهها اذ اشتملت ببطانية حتى الذقن ، وجه أدركه من
التغير فوق ما أدرك العينين ، جف بعد اكتناز واستطال بعد استدارة
وشحج بعد توردد وشف جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة
فبدا صورة للرئاء والغناء . وقف ذاهلا منكرا كأنه لا يصدق أن ثمة قوة
فى الوجود تجرؤ على هذا العبث القاسى ، فقبض قلبه فزعا كأنه يرى الموت
نفسه ، تخلت عنه رجولته كأنما ارتد طفلا وافتقد أباه أيما افتقاد ، ثم دفعه
تأثر لا يقاوم الى الفراش حتى انحنى فوقها مغمغا فى نبرات أسيفة :

— لا بأس عليك .. كيف حالك ؟

ملاه شعور صادق بالرحمة غابت فى حرارته آلامه المزمنة كما تغيب —
فى احوال نادرة — ظاهرة مرضية ميموس منها ، كالشلل ، عند هجوم فزع
هائل مفاجئ .. كأنه يلقي أم طفولته التى أحبها قبل أن توارى عنها قلبه
الالام ، فتشبث — وعيناه مرسلتان الى الوجه القانى — بهذا الشعور
المستجد الذى رده اعواما طويلة الى الوراء — الى ما وراء الالم — كما
يتشبث المريض المتهاك بصحوة طارئة يخاف عليها احساسا باطنيا بوشك
الزوال ، تشبث به بشدة خليقة برجل يقدر القوى المضادة التى تهدده ،
وان دل تشبثه نفسه على أن آلامه لم تزل تضطرم فى اعماق الأعماق منذرة
اباه بما ينرصده من حزن اذا هو تهاون فخلط بشعوره الصافي ما يفسده
من مشاعر اخرى . وأخرجت المرأة من تحت الغطاء يدا ممصوفة معروقة
اكتست بشرتها الجافة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنها يد محنطة منذ
الاف السنين فتناولها بين يديه بتأثر شديد ، وعند ذلك سمع صوتها
الضعيف المبجوح وهو يجيبه قائلا :

— كما ترى ، صرت خيالا ..

فغمغم :

— ربنا يدركك برحمته ، ويردك الى خير مما كنت ..
فندت عن رأسها المعسوب بخمار أبيض حركة دعائية كأنما تقول : « ربنا
يسمع منك » .. وأشارت اليه أن يجلس فجلس على الفراش ، ثم استرسلت
— بقوة جديدة استمدتها من محضره — تقول :
— في أول الأمر كانت تنتابني رعدة غريبة فحسبتها طارئا عصبيا .
نصحونى بالطواف ببيوت الله وبالتبخر فزرت الحسين والسيدة وتبخرت
بأنواع شتى من البخور الهندى والسودانى والعربى ، ولكن لم تكن الحال
تزداد الا سوءا .. أحيانا كانت تملكنى رجفة متواصلة لاتدعنى حتى أكون
قد أشفيت على الهلاك ، وتمر بى ! وقات أجد جسمى باردا كالثلج ، وأوقات
أخرى تمتد النار فى جسدى حتى أصرخ من شدة الحرارة أخيرا صمم سـ
... (أمسكت عن النطق بالفاعل متنبهة فى اللحظة الأخيرة الى الخطأ الذى
كانت ستقع فيه) ... أخيرا استحضرت الطبيب ، ولكن لم يتقدم بى
العلاج خطوة واحدة نحو الصحة ان لم يكن تأخر خطوات ، لم تعد ثمة
فائدة ترجى

فقال ياسين وهو يضغط برقة على راحتها :
— لاتبأسى من رحمة الله ، ان رحمته واسعة ..
فأفتر ثغرها المتقع عن ابتسامة ضعيفة وقالت :
— يسرنى ان أسمع هذا ، يسرنى أن أسمعه منك أنت قبل الناس جميعا ،
أنت عندى أغلى من الدنيا ومن عليها ، صدقت أن رحمة الله واسعة ، طالما
سأعنى الحظ ، لا أنكر الهفوات والأخطاء ، العصمة لله وحده ...
آنس — جزعا — من حديثها ميلا الى ما يشبه الاعتراف ، فانقبض
صدره وجفل جفولا حادا من أن تردد على مسمعيه أمورا لا يطيقها ولو على
سبيل الندم والتكفير .. فتوترت أعصابه حتى أوشك أن تبدل حالا
بعد حال ، قال بتوسل :
— لاتتعبى نفسك بالكلام ..

رفعت اليه عينها باسمه وهى تقول :
— مجيئك رد الى الروح ، دعنى أقل لك انى لم أقصد فى حياتى سوءا
بانسان ، كنت أنشد كسائر الخلق راحة البال فيعاندنى الحظ العاثر ، لم
أسء الى أحد ولكن كثيرين أساءوا الى ..
شعر بأن رجاءه ان تمضى الساعة بسلام سيخيّب .. وأن عاطفته الصافية
تعانى أزمة من التنفيس .. فقال بلهجة التوسل السالفة :

- دعى الناس بخيرهم وشترهم ، صحتك الآن اهم من اى شىء آخر ...
فربتت على يده باستعطاف كأنما تساله ان يترفق بها ، ثم همست :

- فاتتنى اشيء ، لم اؤد الى الله حقه ، وددت لو طال عمرى حتى
اسندرك بعض مافاتنى .. بيد ان قلبى كان دائما مفعما بالايمان والله شهيد
فقال وكأنه يدافع عن نفسه وعنهما معا :

- القلب هو كل شىء ، هو عند الله فوق الصوم والصلاة ..

فستدت على يده بامتنان ثم غيرت مجرى الحديث قائلة بترحاب :

- وعدت الى اخيرا ! .. لم اجرؤ على دعوتك حتى انتهى بى المرض الى
ماترى ، داخلنى شعور بأننى اودع الحياة فلم اطق ان افارقها قبل ان املا
عينى منك ، فارسلت اليك وبى من الخوف من رفضك اكثر مما بى من
خوف الموت نفسه ، ولكنك رحمت أمك واقبلت تودعها فلك الشكر ودعاء
ارجو الله ان يتقبله ..

اشتد به التأثر ولكنه لم يدر كيف يعبر عن شعوره ، تشاقلت الكلمات
الحنونة في فيه متعشرة فيما يشبه الحياء أو الفراة حالما اراد توجيهها الى
المرأة التى الف مجافاتها ونبذها ، بيد أنه وجد في يده أداة تعبير طيبة
حساسة ، فضغط على راحتها بيديه مغممعا :

- ربنا يكتب لك السلامة ..

وجعات تدور حول المعنى الذى افصحت عنه جملةتها الأخيرة ، مرددة
نفس الالفاظ تارة او مستبدلة بها غيرها مما يدل على نفس معناها طورا
آخر .. وراحت تفصل الحديث بازدراد ريقها بجهد ملحوظ أو بالصمت
القصير ريثما تسترد انقباسها ، مما دعاه مرات الى أن يرجوها بالكف عن
الحديث ، ولكنها كانت تبسم لمقاطعته ثم تعود الى مواصلة الحديث ، حتى
نوقفت وقد لاح في وجهها اهتمام طارئ كأنما تذكرت شيئا ذا بال ...
وقالت :

- تزوجت ... !

فرفع حاجبيه في شىء من الضيق وتورد وجهه ، ولكنها اخطأت فهمه
فبادرته كالمعذرة :

- لاعتاب .. حقا كنت اود ان ارى عروسك وذريتك ، ولكن بحسبى

ان تكون سعيدا ..

فما ملك ان قال باقتضاب :

- اسمت متزوجا ، طلقت منذ شهر تقريبا ..

لأول مرة لاحت آى الانتباه في عينيها ، لو كان فى الامكان أن يلتعما

لأنمعا .. ولكن انبعث منهما شبه ضوء كالضوء الحالم الذى تنضح به ستارة كثيفة .. وتمتعت :

— طلقت يابنى ! .. ما حزننى ! .. !

فايتدرها قائلا :

— لا تحزننى ، است حزينا ولا آسفا (ثم باسم) اخذت الشر وراحت ولكنها تساءلت بنفس اللهجة :

— من الذى اختارها لك .. هو أم هى ؟ !

فقال بلهجة نمت من رغبته فى قفل باب هذا الحديث :

— اختارها الله ، كل شيء قسمة ونصيب .. !

— أعلم هذا ، ولكن من الذى اختارها لك ؟ .. امرأة ابيك ؟

— كلا ، أبى الذى اختارها ، ولا غبار على اختياره فهى من أسرة كريمة ، ولكنها القسمة والنصيب كما قلت لك ..

فقال ببرود :

— القسمة والنصيب واختيار ابيك .. هذه هى .. !

ثم بعد وقفة قصيرة :

— جيلى ؟

— نعم ...

وهى تنهد :

— الله ينكد عيشة ابيك .. !

تعمد الا يعقب عليها ، كما يمتنع عن حكا قرحة تأكله لعلها تسكن ..
فنسلها صمت ، وانقضت المرأة عينيها كأنما أنهكها التعب ، بيد أنها
ففتحتهما هنيهة فابتسمت اليه وهى تساله بصوت رقيق لا أثر فيه
لأنفعال :

— ترى هل يمكن أن تنسى الماضى لا

ففض بصره منتفضا وهو يشعر برغبة فى الهرب لا تقاوم ، ثم قال برجاء :

— لا تعودى الى ذكراه ، فليذهب الى غير رجعة ..

لعل قلبه لم يعن مايقول ، ولكن لسانه قال ما ينبغي أن يقال ... أو

لعل ذلك القول كان تعبيرا صادقا عن شعوره لحظ تلك اللحظة التى

استغرقه فيها بكلية الموقف المحيط به ، ولعل قوله : « فليذهب الى غير

رجعة » .. قد وقع من مسمعه — ومن قلبه — موقعا غريبا خلف وراءه

قلقا ، ولكنه أبى أن يجعله موضوعا لتأمله ، فر من ذلك فرارا ، وتسمبت

بعاطفته الصافية التى عقد العزم على التسمبت بها من بادىء الامر . أما

أبيه فعادت تسأله :

— وهل تحب أمك كما كنت تحبها في الزمن السعيد ؟

فقال وهو يربت على راحتها :

— احبها ، وادعو لها بالسلامة . .

سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطنى فيما انطبع على وجهها الداوى من روح السلام والارتياح العميق ، ثم شعر براحتها تضغط على يده كأنما تبته ما يكنه صدرها من امتنان ، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسملة حاملة اشاعت في الحجرة جوا من الطمأنينة والمودة والحزن ، لم يعد يبدو منها ما يدل على رغبتها في الحديث أو لعل الجهد حال بينها وبين هذه الرغبة ، ثم تراخت جفونها رويدا حتى انطبقت ، جعل ينظر اليها كالمسائل ولكن لم تند عنه حركة ، ثم انفرجت شفتاها قليلا وانبعث منهما شخير خفيف متقطع . اعتدل في جاسته وهو يتوسم وجهها ثم اغمض عينيه قليلا ريثما يستحضر صورة الوجه الآخر الذى طالعتنه به منذ عام فانقبض صدره وعادده شعور الخوف الذى طارده طوال الطريق ، ترى هل يتاح له ان يرى ذلك الوجه مرة اخرى ؟ . . وبأى قلب يلقاه ان عاد ؟ . . لا يدري ، لا يجب ان يتصور المضر في علم الغيب ، يود ان يقف عقله عن الحركة وأن يتبع الحوادث لا أن يسبقها ، واحاط به شعور الخوف والقلق ، عجب . . لقد ركبته رغبة في الهرب وهو ينصت الى حديثها حتى خيل اليه انه ارتاح الى نومها كل الارتياح . ولكنه ماكاد ينفرد بنفسه حتى هاجمه الخوف . . خوف لم يدرك له سببا فتمنى لو تصحو من سباتها وتعود الى الحديث ، حتام ينتظر . . هبها استغرقت في النوم حتى الصباح . . . لن يسعه ان يبقى طويلا فريسة الخوف والقلق هكذا ، يجب ان يضع حدا لآلامه . . . غدا أو بعد غد تكون تهنئة أو تعزية . . تهنئة أو تعزية ؟ . . ايها احب الى نفسه ؟ . . يجب ان يقف عقله عن الحركة ، تهنئة كانت أم تعزية لا ينبغي ان اسبق الحوادث ، غاية ما يمكن قوله لو قدر علينا ان نفترق الان لافترقنا صديقين ، تكون خير نهاية لأسوأ حياة ، اما اذا مد الله في عمرها . . .

سرح طرفه وهو شارد فوقع على مرآة الصوان — في الجهة المقابلة — التى تماست صورة الفراش فراى جسم امه مطروحا تحت البطانية كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الأعلى الا يدها التى أخرجتها عند استقباله فحملها برفق وادخلها تحت الغطاء ثم تبته حول عنقها بعناية ، عاد ينظر الى المرأة فخطير له هذا الخطر ! ربما عكست هذه المرأة غدا

فراشا خاليا عاريا !.. ليست خياتها - حياة اى انسان ... لم لا ؟ -
 بأرسخ دواما من هذه الصور الوهمية !.. فاشتد به شعور الخوف
 وهمس لنفسه « يجب ان أضع حدا لالامى .. يجب ان اذهب » ،
 بيد ان بصره تحرك تاركا المرأة فالتقى بخوان وضعت عليه نارجيله
 التف خرطومها حول عنقه كالثعبان فثبت عليها فى دهشة وانكار
 سرعان ما حل مكانهما شعور هائج بالثغز والغضب .. ذلك الرجل !..
 هو بلا ريب صاحب هذه النارجيلة .. تخيله متربعا على الكنبه القائمه
 بين الفراش والخوان وقد اندلق على النارجيلة يشهق ويزفر متلذذا
 وامه تروح له على الجمرات .. آه ترى اين هو الآن ، فى مكان البيت ام
 فى الخارج ؟.. هل رآه من حيث لم يره ؟.. لم يعد يحتمل البقاء مع
 النارجيلة اكثر مما بقى فالتقى نظره على وجه امه التى وجدها مستغرقة
 فى النوم ثم زایل مجلسه بخفة وسار الى الباب ، ولما التقى بالخدمة فى
 الردهة الخارجيه قال لها :

- ستك نامت ، ساعود غدا صباحا

والتفت اليها مرة اخرى وهو يفادر الباب الخارجى قائلا :

- غدا صباحا ..

كانما ينبه الرجل نفسه الى موعد حضوره ليختفى من وجهه ، مضى
 الى حانة كوسناكى راسا . شرب كعادته ولكنه لم يعلب بالشراب نفسا .
 انسياء ان يطرد عن قلبه الخوف والقلق . ومع ان احلام الثورة وراحة
 البال لم تغب عن ذهنه الا انها لم تستطع ان تمحو من مخيلته صورة
 المرض وخواطر الفناء ولما عاد الى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة
 ابية فى انتظاره بالدور الاول فنظر اليها متعجبا ثم تساءل خافق القلب :
 - امى .. !

فاخفت امينة راسها وقالت بصوت خافت :

- جاءنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة ، العمر الطويل

لك يا ابنى ..

- ٣٨٥ -

- ٦٤ -

تطورت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيين الى صداقة متبادلة . وقد حاولت الأسرة أن تتدرب بمأساة ياسين في جامع الحسين لتقنع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولكنه أجابهم بأنه « صغير » ، أصغر من أن يتهم بالجاسوسية ، ولكي يتفادى من منعهم إياه بالقوة كان يمضى الى المعسكر رأساً بعد عودته من المدرسة تاركاً حقيبة كتبه مع أم حنفي فلم تكن ثمة وسيلة الى منعه الا باستعمال القوة الأمر الذي لم يروا له موجبا لاسيما وأنه يمرح في المعسكر تحت أعينهم متقبلا في كل موضع بالترحيب والتكريم ، حتى فهمى نفسه أغضى عنه ولم يكن يجد بأسا في التسلى بمشاهدته وهو يتنقل بين الجنود « كقرود يلهو في غابة من الرحوش » ..

قولوا لسيدى الكبير ..

هكذا اقترحت أم حنفي مرة وهي تشكو تجرؤ الجنود عليها - بسبب الصداقة اللعينة - ومحاكاة بعضهم لمشيئها بطريقة « يستحقون عليها قطع رقيبتهن » ولكن أحدا لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجد ، لا رحمة بالغلام فحسب ، ولكن رحمة بهم هم أنفسهم خشية أن يجر التحقيق الى معرفة تسترهم الطويل على هذه الصداقة ، فتركوا الغلام وشأنه ، ولهم لم يخلوا من زجاء في أن يقوم الشعور الطيب المتبادل بين الغلام والجنود حائلا بينهم وبين ما يحتمل أن يتعرضوا له من عبث أو أذى في الذهاب والاياب ! أسعد ساعات يومه كانت تلك التي يدخل فيها المعسكر . لم يكن جميع الجنود « أصدقاء » بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم يعد أحد منهم يجهل شخصه ، كان يصافح الأصدقاء ويشد على أيديهم بحرارة على حين يكتفى برفع يده ، تحية الآخرين . وربما صادف مجيئه قيام أحد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هاشا باشا وهو يمد يده فما يروعه الا أن يلقي منه جمودا غريبا مثرا كأنما يتجاهله أو كأنما تحول الى صنم فلا يدرك أن ليس في الأمر تجاهل أو غضب الا من اغراق الآخرين في الضحك . ولم يكن من النادر أن يباغت وهو بين الأصدقاء بصغير الانذار ، هنالك يهرعون الى الخيام ثم يعودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم وخوذاتهم وحملوا بنادقهم ، وبتحرك لورى من موقفه وراء سبيل بين القصرين الى وسط الطريق (٢٥)

فيمضون اليه سراعا ويقفزون الى داخله حتى يكتظ بهم ، بات يدرك من المنظر الذي امامه ان مظاهرة قامت في جهة ما وان الجنود ذاهبون لتفريقها وان قتالا سينشب بينهم وبين المتظاهرين ، ولكن لم يكن يهمه في تلك الاوقات الا ان يتفقد الأصدقاء ببصره حتى يعثر عليهم في زحمة اللورى وان يملأ منهم عينيه كأنما يودعهم ، وان ييسط كفيه واللورى يبتعد بهم صوب النحاسين داعيا لهم بالسّلامة ثم تاليا الفاتحة ! . . على انه لم يكن يقضى في المعسكر أكثر من نصف ساعة كل اصيل وهو اقصى ما وسعه ان يتغيبه عن البيت عقب عودته من المدرسة ، نصف ساعة لم تكد تغفو فيها حاسة من حواسه دقيقة واحدة ، يدور حول الخيام ، يسير بين اللوريات مستطلعا قطعها قطعة ، يقف حيل اهرام البنادق طولاً متفحصا اجزاءها جزءا جزءا خاصة فوهة الماسورة التى يكمن فيها الموت . . يقف على بعد لا يسمح له بتجاوزه ونفسه ذاهبة حشرات على اللعب بها او على الأقل لمسها ، ولما كانت زيارته توافق ميعاد الشاي فكان يمضى مع اصدقائه الى المطبخ القائم عند مدخل درب قرمز ويأخذ مكانه في نهاية طاوور « الشاي » كما يدعونه ثم يعود وراءهم حاملا قدح شاي باللبن وقطعة من الشيكولاتة فيجلسون على سور السبيل يحتسون شرايبهم وينشد الجنود اغاني جماعية وهو ينصت لهم باهتمام منتظرا دوره في الغناء . تركت حياة المعسكر في نفسه اثرا عميقا بث في خياله واحلامه يقظة شاملة ، اثرا نقش على صفحة قلبه الى جانب الآثار التى نقشتها حكايات امينة عن عالم الغيب والأساطير ، وقصص ياسين الذى جذب روحه الى دنياها الساحرة ، والأطياف والرؤى التى تتخيل له في أحلام اليقظة وراء أغصان الياسمين والبلابل وأصص الزهور - فوق السطح - عن حياة النمل والعصافير والدجاج . من ثم انشأ عند سور السطح الملاصق لسطح بيت مريم معسكرا كامل العدة والعدد ، اقام خيامه بالمناديل والأقلام ، وأسلحته بعيدان الخشب ، ولورياته من القياقيب وجنوده من نوى الثمر . وعلى كثر من المعسكر مثل المتظاهرين بالحصى يبدأ التمثيل عادة بنشر النوى جماعات بعضها في الخيام وعند مداخلها وبعضها حول البنادق غير أربع بينها حصاة (تمثله هو) ينتحون جانبا « يأخذ في محاكاة الغناء الانجليزى ثم يجيء دور الحصاة لتغنى « زورونى كل سنة مرة » او « يا عزيز عيني » ، ينتقل الى الحصى فينضده صفوفا ويهتف « يحيا الوطن . . تسقط الحماية . . يحيا سعد » ، يعود الى المعسكر مصفرا فتنتظم النوى

صفوفا كذلك وعلى رأس كل صف ثمرة ، ثم يدفع قبقابا وهو ينفخ محاكيا أزيز اللورى ، ويضع النوى على سطح القيقاب ثم يدفعه مرة أخرى صوب الحصى فتتشبب المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين !.. ولم يكن يسمح لعواطفه الشخصية بأن تؤثر فى سير المعركة ، على الأقل فى بدنها ووسطها ، كانت تتحكم فيه رغبة واحدة هى أن يجعلها معركة « صادقة مشوقة » يتنازعها الدفع والجذب من الجانبين وتتبادل الاصابات فتظل النتيجة مجهولة والاحتمال متارجحاً بين الطرفين على أن المعركة لا تلبث طويلا حتى تستوجب نهاية تنتهى إليها ، هنالك يجد نفسه فى موقف حائر ، أى جانب ينتصر ؟ .. فى جانب أصدقائه الأربعة وعلى رأسهم جوليون ، وفى الجانب الآخر مصريون يخفق معهم قلب فهمى !.. فى اللحظة الأخيرة يقرر النصر للمتظاهرين فينسحب اللورى بقله من الجنود بينهم الأصدقاء الأربعة وإن كان قد ختم المعركة مرة بصلح شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالفناء حول مائدة حفلت بأقداح المشاي ومختلف ألوان الحلوى !.. وكان جوليون أعز أصدقائه ، امتاز الى جماله بدمائة الخلق فضلا عن براعته النسبية فى التكلم بالعربية ، وهو الذى جعل دعوته الى المشاي حقا ثانيا كما بدأ أشد الجنود تأثرا بغناؤه حتى كان يدعو كل يوم تقريبا الى غناء « يا عزيز عيني » فيتابعه باهتمام ثم يغفم فى تشوق وحنين :

— أروح بلدى .. أروح بلدى !

وآنس كمال منه هذه الروح فازداد له الفة واطمئنانا حتى قال له مرة جادا وكأنما يدلّه على مخرج من كربته :

— ارجعوا سعد باشا وعودوا الى بلادكم .. !

ولكن جوليون لم يلق اقتراحه بالارتياح الذى كان ينتظر وعلى العكس طلب اليه — كما فعل من قبل فى ظرف مشابه — الا يعود الى ذكر سعد باشا قائلا : « سعد باشا .. نو ! » وهكذا فشل — على حد تعبير ياسين — اول مفاوض مصرى !.. وما يدري يوما الا واحد « الأصدقاء » يقدم له صورة كاريكاتورية رسمها له فنظر كمال اليها بدهشة وانزعاج وهو يقول لنفسه « صورتى ؟! .. ليست هذه صورتى ! » ولكنه شعر فى قرارة نفسه بأنها صورته دون غيره ولو على وجه ما ، ثم رفع عينيه للواقفين حوله فألفاهم يضحكون فأدرك أنها نوع من المزاح وأن عليه أن يتقبله بسرور فجاراهم فى ضحكهم مداريا بالضحك خجله ، ولما اطلع عليها فهمى تفرس هذا فيها بدهشة ثم قال :

- رباه .. لم تترك عيبا الا ابرزته !.. الجسم النحيل الصغير ،
الرقبة الطويلة الهزيلة ، الأنف الكبير ، البراس الضخم ، العينان
الصغيرتان !

ثم صاحكا :

- الشيء الوحيد الذى يبدو ان « صديقك » يضمير نحوه اعجابا هو
بداتك الانيقة المهندمة ولا فضل لك فى ذلك وانما الفضل لينة التى لا
تترك شيئا فى البيت الا هندمته !

ورمى اليه بطرف شامت ثم قال :

- بان السر الذى حببك اليهم !.. انهم يتسلون بالضحك على شكلك
واناقتك المفرطة ، يعنى بالعربى است الا « قره جوز » فى نظرهم ..
ماذا كسبت من وراء خيانتك ؟!.. ولكن كلام فهمى لم يحدث اثرا لان
الغلام كان يدرك مدى عداوته للانجليز فظننها مناورة يراد بها التفرقة
بينه وبينهم !.. وجاء يوما المسكر كمادته فرأى جوليون عند أقصى
جدار السبيل يتطلع باهتمام الى العطفة التى يفتح عليها بيت المرحوم
السيد محمد رضوان فمضى نحوه ولكنه رآه يلوح بيده محدثا اشارات
غامضة لم يفقه لها معنى بيد أنه توقف عن التقدم مليا احساسا غريزيا
خفى عنه معناه ، ثم اغراه حب الاستطلاع بان يدور حول الخيام المنصوبة
امام واجهة السبيل متسللا الى ماوراء جوليون وان يمد بصره الى الهدف
الذى يتطلع اليه ، هنالك رأى كوة فى جناح بيت آل رضوان الذى يسد
العطفة القصيرة يلوح منها وجه مريم واضحا باسمها مستجيبا ، وقف
يردد النظر بين الجندى وبين الفتاة فى ذهول كأنما يأتى أن يصدق عينيه ،
كيف اقترفت مريم الظهور فى الكوة ؟!.. كيف تصدت لجوليون على هذا
النحو الفاضح ؟! هو يلوح بيديه وهى تبتسم !.. أجل ها هى الابتسامة
لا تزال مطبوعة على شفثيها !.. وها هما عيناها يستغرقهما النظر اليه
حتى انها لم تفتن بعد الى وجوده هو ! وندت عنه حركة لفتت اليه
جوليون فما كاد يتطلع على موقفه حتى اغرق فى الضحك وهو يرطن على
حين تراجعت مريم بسرعة خاطفة فى دعر بين . راح يتطلع الى الجندى فى
ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وان بدا له الأمر كله غموضا
فى غموض ، ساله جوليون متوددا :

- تعرفها ؟!

فاحنى رأسه بالايجاب ولم ينبس . غاب جوليون دقائق ثم عاد
حاملا لفافة كبيرة قدمها الى كمال قائلا وهو يشير الى بيت مريم :

— اذهب بها اليها ..

ولكن كمال تراجع جافلا وهو يهز رأسه يمنة ويسرة في عناد ، لم تبرح تلك الحادثة مخيلته ، ومع انه شعر بخطورتها من بادىء الامر الا انه لم يدرك مدى تلك الخطورة على حقيقتها الا حين قص القصص في مجلس القهوة مساء . استوت امينة في جلستها وهى تتباعد وقد ظل فنجان القهوة معاقا بين اصبعيها لا هى تقربه من فيها ولا هى تضعه على الصينية على حين غادر فهمى وياسين الكنبه المواجهة لمجلس الام مهرولين الى الكنبه التى تجلس عليها هى وكمال وجعلا يحدثان اليه باهتمام ودهش وانزعاج فاق كل ما توقع . قالت امينة وهى تزدد ريقها :

— اريت هذا حقا !.. ألم تخذلك عيناك ؟!

وتأفف فهمى :

— مريم !.. مريم نفسها !.. امتلكك انت مما تقول ؟!

وتسائل ياسين :

— اكان يشير اليها وكانت تبسم اليه ؟!.. ارايتها تبسم حقا ؟!

واعادت امينة الفنجان الى الصينية فأسندت رأسها الى راحتها قائلة بلهجة تنم عن الوعيد :

— كمال ! الكذب فى مثل هذا الامر جريمة لا يغفرها الله .. راجع

نفسك يا ابنى .. ألم تعد الحق فى شيء ؟!

وحلف كمال بأغلظ الایمان فقال فهمى بياس ومبرارة :

— انه لا يكذب ، ليس فى وسع عاقل أن يتهمه بالكذب فيما قال ،

الا تدركون أن اختراع مثل هذه القصة هو أبعد ما يكون عن تصور واحد فى سنه ؟!..

فتساءلت الأم بصوت حزين :

— وكيف يسعنى أن أصدقه !

فقال فهمى وكأنه يحدث نفسه :

— أجل كيف يمكن تصديقه !.. (ثم بصوت جاد) ولكنه وقع ..

وقع .. وقع !

وقعت الكلمة الاخيرة من نفسه موقع الخنجر ، كررها وكأنما يكرر الطعن متعمدا ، حقا شغلته عن مريم الشواغل فلم تعد ذكرها تلوح الا فى حاشية احلام يقظته ، ولكن الطعنة التى اصابت سمعتها نفدت اليها خلال قلبه . انه ذاهل .. ذاهل ، لا يدري ان كان نسي أم لم

ينس ، يجب أم يكره يغضب للكرامة أم للغيرة .. ورقة شجر جافة في مهب زويدة متناوحة ..

- كيف يسعنى أن اصدقه ؟ .. طالما كانت ثقتى فى مريم كثقتى فى خديجة أو عائشة ، أمها من الفضليات ، أبوها طيب الله ثراه كان من الأكرمين .. جيران العمر ونعم الجيران ..
قال ياسين - الذى بدا طول الوقت مستغرقا بالتفكير - بلهجة لم تخل من سخرية :

- علام تعجبون ؟ .. منذ القدم والله يخلق من صلب الأبرار اشرارا فقالت أمينة محتجة كأنما تأبى أن تصدق أنها خدعت طوال ذلك الدهر :
- يشهد الله أنى لم لاحظ عليها ما يسوء قط ..

فقال ياسين بجلد :
- ولا احد منا ، حتى خديجة العيابة الكبرى ، بل خدع بها من هو افطن منك ومنى !
فهتف فهمى متألما :

- من أين لى أن أن أطلع على الغيب ؟! انه أمر يشق تصويره
وحقق على ياسين لدرجة الغليان ، ثم بدا له الخلق جديفا بغضاء ،
الانجليز والمصريون على السواء .. الرجال والنساء - والنساء خاصة -
انه يختنق .. هفت نفسه الى الاختفاء ليتنشق فى وحدته نسمة راحة بيد
انه لم يبرح مكانه كأنما شد اليه بحبال غلاظ
اتجه ياسين الى كمال متسائلا :

- متى رأتك ؟
- عندما التقت الى جوليون ..
- ثم فرت من النافذة ؟
- نعم ..
- هل رأت أنك رايتها ؟
- التقت عينانا لحظة ..
ياسين ساخرا :

- نسكينة ! .. انها ذون شك تتخيل الآن مجلسنا هذا وحديثنا
ذا الشجبون !
- انجليزى ! ..

هتف فهمى وهو يضرب كفا على كف :

- بنت السيد محمد رضوان ! ..
 غمقمت أمينة متنهدة وهى تهز رأسها عجباً ..
 فقال ياسين متفكراً :
 — مغازلة انجليزى ليست بالمسالة الهينة على فتاة ، هذه درجة من
 الفساد لا يمكن أن تظهر طرفة ..
 فسأله فهمى :
 — ماذا تعنى ؟
 — أعنى انه لابد أن تسبقها درجات من الفساد !
 فقالت أمينة برجاء :
 — استحلّفكم بالله أن تمسكوا عن هذا الحديث ..
 فواصل ياسين حديثه ، كأنه لم يسمع رجاءها ، قائلاً :
 — مريم بنت سيدة لها فى التبرج فنون بشهادتك أنت وخديجة
 وعائشة ... !
 فهتفت أمينة بصوت ملؤه العتاب والرجز :
 — ياسين ! ..
 فقال ياسين كالمترجع :
 — أريد أن أقول أننا أسرة نعيش فى حق مغلق لا تكاد تعلم شيئاً مما
 يدور حولها ، قصارى جهدنا أن نتصور الناس على مثالنا ، اختلطت بنا
 مريم أعواماً طويلاً ولكننا لم نعرفها على حقيقتها حتى كشفها لنا آخر من
 ينشد عنده كشف الحقائق ! ..
 وربت على رأس كمال ضاحكاً ، ولكن أمينة عادت تقول بتوسل حار :
 — استحلّفكم بالله أن تغيروا مجرى الحديث ..
 ابتسم ياسين ولم ينبس ، فأطبق الصمت . لم يعد فهمى يتحمل البقاء
 بينهم فاستجاب الى الصوت الباطنى الذى يستصرخه ملهوفاً على الفرار
 .. بعيداً عن الأنظار والأسماع ، هنالك يستطيع أن يخلو الى نفسه ، أن
 يعيد عليها الحديث من ألفه الى يائه ، كلمة كلمة ، عبارة عبارة ، جملة
 جملة . ليفهمه ويفهمه ثم ينظر أين يكون موضعه ..

كان الليل قد جاوز منتصفه عندما غادر السيد أحمد عبد الجواد بيت أم مريم متلفعا بظلمة العطفة المسدودة . بدا الحى كله - كما امسى يبدو مع الهزيع الأول من الليل مذ عسكر الانجليز فيه - غارقا فى النوم متدثرا بالظلام ، لامقهى يسمر ولا بائع يسرح ولا دكان يسهر ولا مار يدب . فلم يكن فيه اثر للحياة أو النور الا ما انبعث من المعسكر ، ومع ان احدا من الجنود لم يتعرض له بسوء فى الدهاب أو الاياب الا انه لم يكن يخلو قط من قلق وتوجس كلما اقترب من المعسكر فى طريقه الى البيت خاصة وأنه يعود - آخر الليل - على حال من الأعياء والاسترخاء والدھول يتساق معها مجرد التفكير فى السير الآمن المطمئن . انحدر الى طريق النحاسين ثم انعطفت يمنة متجها الى البيت وهو يختلس النظر الى الديدبان حتى دخل أشد مناطق الطريق خطورة . . تلك التى ينتشر فيها النور المنبعث من قلب المعسكر ، هنالك عاوده الأحساس الذى يخامره كلما دخلها وهو انه هدف يسير لای سائد . فحث خطاه ليخرج منها الى الظلام المفضى الى مدخل بيته ولكنه ما كاد يخلو خطوة حتى صك اذنيه صوت أجش غليظ يزعق وراءه راطنا فادرك على جهله رطائنه - من عنف اللهجة واقتضاها - انه رماه بأمر لا يقبل المناقشة فتوقف عن السير والتفت وراءه مرتاعا فرأى جنديا - غير الديدبان - يتجه نحوه بقوة شاكى السلاح . ماذا جد حتى دعا الى هذه المعاملة ؟ . . أكون الرجل ثملا ؟ . . أم لعله اذعن لنزوة لاعتداء طارئة ؟ . . أم هو يبتغى السلب والنهب ؟ . جعل يرقب اقترابه بقلب خافق وحلق جاف وقد طار الخمار من راسه . وقف الجندى على بعد خطوة منه ثم وجه اليه بلهجة أمرة كلاما سريعا قصيرا - لم يفهم منه بطبيعة الحال كلمة واحدة - وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين فحملك السيد فى وجهه بئس واستعطاف وهو يعانى مرارة العجز عن التفاهم معه كى يقنعه ببراءته مما يتهمه به او كى يعرف على الأقل ما يريد ، ثم خطر له انه قصد بإشارته الى بين القصرين ان يأمره بالابتعاد ظنا منه انه غريب مريب فراح يشير الى بيته بدوره ليفهمه انه من سكانه وأنه عائد اليه ولكن الجندى تجاهل حركته وهو يدمدم ثم اصر على اشارته وهو يهز

رأسه في نفس الاتجاه كأنما يحنه على الذهاب ، ثم بدا أنه ضاق به فقبض على منكبه وأداره بقوة فدفعه في ظهره فوجد السيد نفسه يتحرك متجها نحو بين القصرين والآخر وراءه فاستسلم - ومفاصله تكاد تسبب - إلى المقادير ، جاوز في مسيره الجهول المعسكر ثم سبيل بين القصرين وهناك اختفى آخر اثر للضوء المنبعث من المعسكر فخاض أمواج الظلام الدامس والصمت الثقيل ، لا منظر يرى الا أشباح البيوت ولا صوت يسمع الا وقع القدمين القليظتين اللتين تتبعانه في نظام ميكانيكى رهيب كأنهما يمدان الدقائق الباقية له في الحياة ، ولعلها ثوان ، أجل كان يتوقع في أية لحظة ان ينقض عليه بخبطة تهوى به الى النهاية فمضى يترقبها بعينين محمقتين في الظلام وفم مطبق من الجزع وحرقة تتحرك بحركة عصبية من آن لآن كلما ازدرد ريقه الجاف الملتهب حتى بوغت بوميض يجذب بصره الى أسفل فكاد يصرخ كالأطفال من الهلع وقد تهاوى قلبه ولكن تبينه دارة من الضوء تذهب وتجيء فأدرك أنها شعاع من بطارية أضواء سائقه ليتعرف على طريقه خلال الظلمات . استرد أنفاسه بعد أن تخفف من الدرع المبالغ ، ولكنه لم يكذ يستشعر نسمة راحة حتى تلقفه خوفه الأول ، خوف الموت الذى يساق اليه ، فعاد يترقب حقه بين لحظة وأخرى كأنه غريق توهم في تخبطه أنه يرى تمساحا يتوئب لمهاجمته ثم تبين له أن ما رأى أمشاط طافية ولكن فرحته للنجاة من الخطر الوهمى لم تكذ تتنفس حتى اختنقت تحت ضغط الخطر الحقيقى المحيط . الى أين يسوقه ؟ ، لو يستطيع أن يراطنه فيسأله ! ، يبدو أنه سيواصل سوقه حتى يدفع به الى قراة باب النصر ، لا اثر لأنسان ولا لحيوان ؛ أين الفقير ؟ ، وحيد تحت رحمة من لا يرحم ، متى كان مثل هذا العذاب .. هل يذكر ؟ الكابوس .. أجل أنه الكابوس ، كأبده أكثر من مرة خلال نوم مريض ، ان ظلمة الكابوس نفسها لا تخلو أحيانا من بارقة أمل قد يشرق بنفس النائم احساس حنون بأن ما يعاينه حلم لا حقيقة وبأنه سينجو من شره الآن أو بعد حين ، هيهات ، أن يجود الدهر بمثل ذلك الأمل ، أنه صاح لانائم وهذا الجندى الشاكي السلاح حقيقة لا خيال وهذا الطريق الذى يشهد ذله وأسرده شيء ملموس مخيف لاوهم ، عذابه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها ؛ أن أقل حركة ممانعة تند عنه خليقة بأن تطيح برأسه .. لا سبيل الى الشك فى هذا ايضا ، قالت له أم مريم وهى تودعه « الى الغد » .. الغد ؟! هل يطلع ذلك الغد ؟! ، سسل القدمين الثقيلتين اللتين ترجان الأرض وراء ظهره .. سل البندقية ذات

السونكى الحاد المدبب ، قالت له أيضا وهى تمازحه « تكاد رائحة الخمر المتطايرة من فيك أن تسكرنى » .. الآن طارت الخمر وطار عقله ، ولت ساعة الصبوة ، منذ دقائق معدودة .. كانت الصبوة كل شىء فى الحياة .. الآن العذاب هو كل شىء .. وليس بين هذا وذاك الا دقائق معدودة .. دقائق معدودة ؟! .. عندما بلغ منعطف الخرنفش جذب عينيه شعاع يومض فى الظلام فلحظ الطريق كُراى بطارية تتحرك فى يد جندى آخر يسوق بين يديه اشباحا لم يتبين عددهم ! .. تسائل ترى هل صدرت الى الجنود أوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال ليلا ؟! .. والى أين يسوقونهم ؟! .. ولى عقاب سيقضون به عليهم ؟ تسائل طويلا وهو من الدهش والانزعاج فى نهاية بيد ان رؤيته للضحايا الجدد ادخلت على قلبه شيئا من العزاء والارتياح ، لم يعد على الاقل وحيدا كما كان يظن ، وجد فى بلواه اندادا يؤنسونه وحشته . ويشاركونه المصير ، كان يتقدم فافلتهم بمسافة قصيرة فراح ينصت الى وقع اقدامهم مستأنسا اليها كما يستأنس الضال فى مفازة الى اصوات آدمية ترامت اليه مع الريح .. ولم تكن أمنية اعز على نفسه آنئذ من ان يلحقوا به لينضم الى جماعتهم ، سواء كانوا معارف أو غرباء ، لتخفق قلوبهم معا وهم يحشون الخطى نحو المصير المجهول . هؤلاء الرجال ابرياء وهو برىء فقيم القبض عليهم ؟ ، فيم القبض عليه هو مثلا ؟ ، لاهو من الثوار ولا من المشتغلين بالسياسة ولا حتى من الشبان فهل يطلعون على الافئدة ويحاسبون على المشاعر ؟ .. او تراهم يعتقلون أفراد الشعب بعد أن فرغوا من اعتقال الزعماء ! ، لو كان يعرف الانجليزية فيسال أسره ؟! .. أين فهمى ليحادثه نيابة عنه ؟! .. وخزه الألم والحنين ، أين فهمى وياسين وكمال وخديجة وعائشة وأمهم ؟ هل يمكن أن تتصور أسرته ما آل اليه حاله من هوان وهى التى لم تره الا جبارا عزيزا جليلا ؟ ، هل تتصور أن الجندى دفعه بعنف حتى أوشك أن يطرحه أرضا وأنه يسوقه كما تساق السائمة ؟ . وجد للذكر آله أما وحنينا فكادت تدمع عيناه . كان يمر فى طريقه بأشباح بيوت ودكاكين يعرف اصحابها ، ومقاه كان يوما — خاصة على عهد الصبا والشباب — من اسمارها ، فأحزنه أن يمضى بها أسيرا دون أن تنهض لنجدته أو حتى ترثى لحاله ، شعر حقا بأن أحزن صنوف الهوان ما حاق به فى حيه ، ثم رفع عينيه الى السماء باعثا بفكره الى الله المطلع على قلبه ، بعث اليه بفكره دون أن يجرئ له ذكرا على لسانه ولو همسا مستحييا من أن ينطق باسمه وجسمه لم يتطهر من أنفاس الشراب وعرق الغرام ،

وما لبث أن تضاعف خوفة من أن يباعد دنسه بينه وبين النجاة ، أو أن يلقي مصيرا كفاء لما سلف من استهتاره ، فغشي صدره تطير وكآبة ، وأشفى على اليأس ، حينما شارف سوق الليمون ترمى الى الصمت الذى لا يؤنسه الا وقع الاقدام اصوات مبهمة فأرهف السمع محملا في الظلام - وهو يتقدم بين الخوف والرجاء - فتناهت الى اذنيه لجة لم يدر ان كان مصدرها انسان أو حيوان ، غير أنه تبين بعد قليل لفظا فلم يتمالك أن قال لنفسه فى لهفة « اصوات آدمية ! » ، ومال مع الطريق فلاحت لعينه اضواء متحركة حسبها بادىء الأمر بطاريات جديدة ولكنها وضحت مشاعل رأى على نورها جانبا من بوابة الفتوح يقف تحته جنود بريطانيون ، ثم تراءى له جنود من البوليس المصرى رد منظرهم الى صدره الدماء .

سأعرف مايراد بى ، لم يبق الا مسير خطوات « ماذا دعا الى تجمهر الجنود الانجليز والمصريين عند البوابة ؟ ؛ لماذا يسوقون الاهالى من شتى انحاء الحى ؟ عما قليل أعرف كل شيء ، كل شيء ، كل شيء ؟ فلاستعد بالله ولاسلم اليه امرى ؛ سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر ان كان فى العمر بقية ، الرصاص .. المشنقة .. دنشواى .. انضم الى سجل الشهداء ؟ أصبح نبأ من انباء الثورة يتناقله محمد عفت ، وعلى عبدالرحيم وابراهيم الفار كما كنا نتناقل الأخبار فى سهرات المساء ؟ تصور السهرة ومكانك شاعر ؟ رحمة الله عليه .. كان وكان .. لشد ما يكونك ، وسيدكرونك طويلا ، ثم تنسى ، ما اشد اضطراب قلبى ؛ سلم امرك للذى خلقك . اللهم حوالينا ولا علينا . ما ان اقترب من موقف الجنود حتى اتجهت الأنظار اليه باردة قاسية متوعدة فغاص قلبه فى الأعماق مخلفا وراءه فى الأضلع الما حادا ، ترى هل آن له ان يتوقف ؟ تشاقلت قدماه ولفه التردد والحيرة

أدخل ...

هتف بها شرطى وهو يشير الى داخل البوابة فنظر السيد اليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة ، ثم مر بين الجنود لا يكاد يرى ما بين يديه من شدة الفزع ويود لو يغطى رأسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التى تستصرخه . هنالك تحت قبة البوابة رأى منظرا عرفه بما يرام به بغير حاجة الى سؤال ، رأى حفرة عميقة كالخندق تعترض الطريق ، كما رأى جمهورا من الاهالى يعملون بلا توقف وتحت اشراف الشرطة لسد الحفرة بأن يحملوا الاتربة فى مقاطف ويفرغونها فيها ، الكل يعمل بهمة وسرعة والاعمى تسترق النظر فى خوف الى الجنود الانجليز

الذين رابطوا عند مدخل البوابة . اقترب منه شرطى ورمى اليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد :
افعل كما يفعل الآخرون ..
ثم همسا :

— اسرع حنى لا يصيبك اذى ..
كانت هذه الجملة أول تعبير « انسانى » يلقاه فى رحلته المخيفة فسرت فى صدره سرى النسمة فى حلق المختنق ، انحنى على المقطف فتناوله من علاقته وهو يسأل الشرطى همسا :
— هل يطلق سراحنا اذا تم العمل ؟
فأجابه بنفس الصوت :
— ان شاء الله ..

تنهد من الأعماق ، راودته نفسه على البكاء ، شعر بأنه يولد من جديد؛ رفع بيسراه الجبة من طرفها ودسه فى حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف الى طوار البوابة حيث تراكت الأتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها فى المقطف حتى امتلأ ثم حمله بيده وذهب الى الحفرة فأفرغه فيها وعاد الى الطوار ، واصل العمل بين جماعات من الناس ضمت الأفندية ، المعممين ، الهرمين والشبان ، يعملون جميعا بهمة عالية مستمدة من رغبتهم فى الحياة ؛ وانه ليملاً مقطفه اذ لكزه كوع فالتفت الى مصدره فرأى صديقاً يدعى غنيهم حميدو صاحب معصرة زيوت بالجمالية ممن يلمون بمجالس لهوه بين حين وآخر ففرح به فرحة عظمت كما فرح به الآخر ، وسرعان ما تهامسا :
— أنت وقعت أيضاً .. !

— قبلك ، وصلت قبيل منتصف الليل ورايتك وانت تتسلم مقطفك فجعلت فى ذهابى واياى اتبع طريقاً يميل اليك رويدارويدا حتى جاورتك ،
— اهلا .. اهلا ، اليس ثمة أحد من 'صدقائنا' لا

— ثم اعثر على غيرك
— قال لى الشرطى انهم سيطلقون سراحنا حالما نتم العمل
— قيل لى ذلك أيضاً ، ربنا يسمع منك ..

— سيبوا ركبى الله يخرب بيوتهم ..
— لم تعد لى ركب على ما اظن !

وتبادلا ابتسامة مقتضبة
— ما اصل هذه الحفرة ؟

- يقال ان فتوات الحسينية حفروها اول الليل ليمنعوا مسير الوريات
ويقال ايضا ان لوريا وقع فيها !

- ان صبح هذا فقل علينا السلام !
وعندما تجاوزوا مرة ثانية عند كوم الأتربة كانا قد الفا الموقف بعض
النساء فعادتهما الروح حتى أنهما لم يتمالكا ان ابتسما وهما يعلنان
مقطفيهما بالتراب كعمال البناء فهمس غنيم :
- حسبنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب

فهمس السيد باسم :

- أرجو ان يعطونا اجرا مناسبا !

- اين قبض عليك ؟

- امام البيت

- طبعاً ! . - وانت ؟

- كنت بالعا منزولة ، ولكنى أفقت تماما ، الانجليز أقوى من الكوكابين !

- أقوى من القىء نفسه !

مضى الرجال يذهبون ويجيئون عجلين ما بين طوار الأتربة والحفرة على
ضوء المشاعل ، اثاروا التراب حتى انتشر في فراغ القبة خالقا جوا خائفا
فعلاهم البهر وتصيب العرق من جباههم واغربت وجوههم وتتابع من
انتشاق الغبار سعالهم فكانهم اشباح انشقت عنهم الحفرة . على أى حال
لم يعد وحده ، هذا الصديق وهؤلاء الرجال من حيه ، جنود البوليس
المصريون معهم بقلوبهم ؛ أى ذلك أنهم جردوا من سلاحهم . . اصبر لم يعد
السيف ذو الغمد المعدنى يتدلل من احزمتهم ، اصبر . . اصبر لعل
هذه الغمة ان تنكشف ، هل كنت تتصور أنك ستعمل حتى مطلع الصبح
وربما حتى الضحى ، شد حيلك ؛ ليس ثمة أنك ستحمل التراب وتسخر
في سد الحفرة ؟ لا تريد الحفرة ان تمتلئ ، لا فائدة ترجى من الشكوى ،
ولن تشكو ؟ جسمك قوى صلب العود يستطيع ان يتحمل رغم سكرة
الليالة وعيشها ، كم الساعة الآن ؟ ليس من الحيلة ان تنظر فيها ، لو لم
يقع لى هذا لكنت الآن مستلقيا على الفراش منعما بلذيد المنام ، كنت
استطيع ان اغسل رأسى ووجهى وأشرب شربة روية من ماء القلة المعطرة
بالزهر ، هنيئا لنا هذه المشاركة في جحيم الثورة ، لم لا ؟ البلد نائرة ؛
كل يوم . . كل ساعة ضحايا وشهداء ، بيد أن قراءة الصحف وتناقل
الأخبار شيء ! أما حمل التراب تحت تهديد البنادق فشيء آخر ، هنيئا
لكم ايها الثائمون في أسرتمكم ، اللهم احفظنا ؛ لست لها . . لست لها ،

اللهم اهزم المشركين بقوتك ، نحن ضعفاء .. لست لها ، هل يتصور فهمى أى خطر يتهده ؟ انه يستذكر دروسه الآن غير عالم بما يحيق بآبيه ، قال لى : « لا » لأول مرة فى حياته ، قالها بدموعه ولكن سيان عندى المعنى واحد ؛ لم اقل لأمه ، لن أقول لها ، اكشف لها عن عجزى ؟ أستعين بضعفها بعد ان اخفقت بقوتى ؟ كلا .. لتبق جاهلة بكل شيء ، يقول انه لا يعرض نفسه للخطر ، حقا ؟ اللهم استجب ، لولا هذا ما رحمته أبدا ؛ اللهم احفظه ، اللهم احفظنا جميعا من شر هذه الأيام ، كم الساعة الآن ؟ ان طلع علينا الصباح أمانا القتل ، لن يقتلونا امام الخلق ، الصباح ؟

- بصقت على الأرض كى اتخلص من الغبار اللازق بسقف حلقى
فرمانى تحد الأبالة بنظرة وقف لها شعر رأسى !
- لا تبصق ، تشبه بى ، لقد بلغت من التراب قدرا يكفى لسد هذه
الحفرة ! ..

- لعن زبيدة دمت عليك ؟

- لعلها ...

- ألم يكن سد جفرتها اطيب من سد هذه الحفرة ؟

- بل أشقى !

- تبادلنا ابتسامة سريعة ثم قال غنيم متنهدا :

- انقصم ظهري ياهوه

- مثلك ، عزاؤنا اننا نشارك المجاهدين بعض الالمهم

- مارايك فى أن أرمى بالمقطف فى وجه الجنود وأهتف بأعلى صوتى ،

« يحيى سعد » ؟ !

- اشتغلت المنزولة من جديد ؟

- يا للخسارة ! .. كانت قطعة « قد فص العين » حركتها بالشاى

مرة ومرتين وثلاثا ، ثم ذهبت الى الطمبكشية أسمع الشيخ على محمود

فى بيت الحمزاوى ، وعدت قبيل منتصف الليل وأنا أقول لنفسى « الولىة

الآن تنتظرك لا أفlech من خيب لها رجاء » حين طلع على ابن القرد وساقنى

من قفاى ...

- ربنا يعوض عليك ..

- آمين ..

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينية والبعض الآخر

من ناحية النحاسين وسرعان ما انضموا الى « العمال » . القى على المكان

نظرة فوجده ازدحم بالجمهور او كاد وقد انتشروا حول الحفرة في جميع الجهات ، يذهبون الى الطوار ويرجعون اليها في حركة لا تنقطع وانوار المشاعل تضيء منهم وجوها لاهثة نال منها الاعياء والذل والخوف كل منال لكثرة بركة وامان ، لن يذبخوا هذا الجمع الغفير من الناس ، لن يأخذوا البريء بالمدنب ؛ ترى أين المذنبون ؟ أين هؤلاء الفتوات ؟ هل يعلمون الآن أن اخوانا لهم وقعوا في الحفرة التي حفروا ؟! قاتلهم الله هل حسبوا أن حفر حفرة سيعيد سعد او يخرج الانجليز من مصر ! لا تقطعن عن السهر ان كتب الله لى عمرا جديدا ، انقطع عن السهر ؟ لم يعد السهر بمامون ، كيف يكون طعم الحياة ؟ لا طعم للحياة في ظل الثورة ، الثورة .. اى جندى يقبض عليك .. تحمل التراب بكفيك ، فهمى يقول لك ! لا ، متى تعود الدنيا الى اصلها ؟ صداد ؟ .. بل صداد وغشيان ، دقائق من الراحة .. لا أطمع فى مزيد ! بهيجة فى سابع نومة ، امينة تنتظر كما تنتظر « ولية » غنيم ، هيهات أن يخطر لكم ماحاق بابيكم ، رباه أن التراب يملأ أنفى وعينى ، يا سيدنا الحسين ، امتلى .. امتلى .. اما كفك هذا التراب كله ؟! يابن بنت رسول الله ، غزوة الخندق .. هكذا دعاها سيدنا الواعظ ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه ، كافرون وكافرون لماذا ينتصر كافرو اليوم ! .. فساد الزمن .. فساد الزمن .. فسادى انا ، هل يعسكرون أمام الست حتى تنتهى الثورة ؟

— ألم تسمع الديكة ؟

ارهدف السيد اذنيه .. ثم غمغم

— اللديكة تصيح ! الفجر ؟

— نعم .. ولكنها لن تمتلىء قبل الصباح ..

— الصباح !

— المهم أنى محصور ، محصور جدا ..

اتجه ذهن السيد الى أسفل فشعر بأنه محصور أيضا ، وبأن جانبان آلامه يعود بلا شك الى ذلك ، وسرعان ما اشتد ضغط المثانة عليه كأنما هيجهما تفكيره فيها ، قال :

— وأنا كذلك ..

— والعمل ..؟

— ما باليد حيلة ..

— 'نظر هناك الى ابن القرد الذى وقف يبول امام دكان على الزجاج ؟

.. آه ..

- اخراج شوية بول أهم الآن عندى من اخراج الانجليز من مصر كلها
- اخراج الانجليز من مصر كلها؟! ليخرجوا أولا من النحاسين ..
- رباه .. أنظر .. لايزال الجنود يأتون بالناس!
- راى السيد جماعة جديدة تشق طريقها صوب الحفرة

استيقظ السيد أحمد من نومه حوالى العصر وكان نبا واقعته قد ذاع فى الأهل والأصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهئين بالسلامة فراح يقص القصة ويعيدها بأسلوب لم يخل - رغم جدية الأمر - من فكاهة وتهويل حتى أثار شتى التعليقات . كانت امينة أول من سمع القصة ، ألقاها عليها وهو مشئت النفس خائر القوى لا يكاد يصدق حقا انه نجا فتلت وحدها الجانب المفجع خالصا ، وما كادت تغادره نائما حتى استرسلت فى البكاء وجعلت تدعو الله أن يرعى أسرته بعنايته ورحمته ، ودعت الله طويلا حتى كل لسانها . ولكنه حينما وجد نفسه محوطا بأصدقائه خاصة المقربين منهم أمثال ابراهيم الفار وعلى عبد الرحيم ومحمد عفت ، استرد الكثير من روحه المعنوية فتعذر عليه ان يغفل الجانب الفكاهى من الحادث حتى غلب على ماعداه فأنتهى الحديث الى نوع من المزاح كأنما كان يقص عليهم مغامرة من مغامراته وبينما حفل الدور الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتاتى فيما عدا الأم التى شغلت مع ام حنفى بتهيئة القهوة والأشربة . شهدت الضالة من جديد اجتماع ياسين وفهمى وكمال وخديجة وعائسة فى مجلس الأم التقليدى ، وقد انضم اليهم خليل شوكت وابراهيم شوكت سحابة النهار ولكنهما سعدا الى حجرة الأب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للأخوة ، وكان الحزن الذى غشيهم طوال النهار على ما اسباب والدهم قد زایلهم بعودة الطمانينة الى نفوسهم فنبضت قلوبهم بالعواطف الأخوية وتوثبوا للسمر والمرح كهمدهم فى الايام الخوالى . على ان الطمانينة لم تستقر بنفوسهم حتى راوا والدهم بانيهم ، أقبلوا عليه واحدا فى اثر واخذ فقبلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثم غادروا الحجرة فى نظام وأدب عسكريين . ومع ان السيد

اكتفى بمد يده لياسين وفهمى وكمال بالتتابع دون أن ينبس بكلمة الا أنه ابتسم الى خديجة وعائشة وسألها في رقة عن الحال والصحة ، رقة لم تحظيا بها الا بعد زواجهما ، وكان كمال يلاحظها بدهشة مقرونة بسرور كأنما هو الذى يحظى بها . والحق أن كمال كان أسعد الجميع بزيارات شقيقته كلما هلت . كان ينعم في اثنائها بسعادة عميقة لا يعكر عليه صفوها الا تفكيره في النهاية المتوقعة ، ودائما كان يجيء النذير بهذه النهاية من أحد الرجلين - ابراهيم أو خليل - اذا تمطى أو تشاءب ثم قال « آن لنا أن نذهب » أمر مطاع لا يرد ، لم تتكرم إحدى شقيقتيه - ولو مرة واحدة - بأن تجيبه قائلة مثلا « اذهب انت وسألحق بك غدا » ! بيد أنه لمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التى تربط بين شقيقتيه وزوجيهما وسلم بحكمها وقنع بالزيارة القصيرة تجيء بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع في مزيد . وبالرغم من هذا فلم يكن يتمالك أحيانا اذا رآهما مقبلتين من أن يقول متمنيا « لو تعودان الى البيت فتقيمان فيه كما كنتما » ! فتبادره أمه قائلة « ربنا يكفيهما شر تمنياتك الطيبة ! » . بيد أن أعجب ما صادفه في حياتهما الزوجية كان ذلك التغير العجيب الذى طرأ على البطن . . وما صاحبه من أعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطورا غريبة كالأساطير ، وفدت على حافظته الفاظا جديدة كالجبل والوحم وما اكتنف الأخير من قىء وتوعلك والتهام لحبات الطين الجافة . . ثم ماشان بطن عائشة ؟ . . متى يقف عن النمو الذى جعله كالقربة المنفوخة ؟ . . وهذا بطن خديجة بدأ - فيما يبدو - يخطو نفس الخطوات ، واذا كانت عائشة ذات البشرة العاجية والشعر الذهبى قد وحت على الطين فعلى أى شيء توحم خديجة ؟ ! . . غير أن خديجة لم تحقق مخاوفه فتوحمت على المخلل حتى استشارت منه اسئلة لا حصر لها لم يظفر أحدها بجواب مقنع . . وتقول أمه أن بطن عائشة - وبطن خديجة بالتالى - سيتمخض عن طفل صغير سوف يكون قرة لعينه . . ولكن : أين يقيم هذا الطفل ، وكيف يعيش ، وهل يسمع ويرى ، وماذا يسمع وماذا يرى ؟ وكيف وجد . . ومن أين جاء ؟ ! . . على أن هذه الاسئلة لم تهمل ، ظفر عنها بأجوبة جذيرة حقا بان تلحق بمعارفه عن الاولياء والعناريت والرقى والتعاويد وغير ذلك من المواد التى تزخر بها دائرة معارف أمه . . لذلك سأل عائشة مستطلعا باهتمام :

- متى يخرج الطفل ؟
فأجابته ضاحكة :

- اصبر لم يبق الا قليل ..

فتساءل ياسين :

- اظنك في شهرك التاسع ؟

فأجابته :

- نعم ولو ان حماتي تصر على انى في الثامن !

فقالت خديجة بحدة :

- اصل حماتك تصر دائما على أن يكون لها رأى مخالف ، هذا كل

ما هنالك !

ولما كان الجميع على علم بما ينشب كثيرا بين خديجة وحماتها من

نزاع فقد تبادلوا النظرات ثم ضحكوا ..

وقالت عائشة :

- اود ان اقترح عليكم أن تنتقلوا الى بيتنا فتبقوا معنا حتى يجلو

الانجليز عن شارعكم ..

فقالت خديجة بحماس :

- اجل ، لم لا ؟ . ان البيت كبير وستنزلون على الرحب والسعة ،

فيقيم بابا ونيه عند عائشة لأنها فى الدور الأوسط ، وتقيمون انتم
مئدى ..

رحب كمال بالاقتراح فتساءل بلهجة تنم عن التحريض :

- من يقول لبابا ؟

ولكن فهمى قال وهو يهز منكبيه :

- انكما تعلمان حق العلم أن بابا لا يمكن أن يوافق ..

فقالت خديجة بأسف :

- ولكنه يحب السهر فيكون عرضة لتحرش الجنود ، يا لهم من

مجرمين ! .. ساقوه فى الظلام وحملوه التراب ! .. آه ، رأسى يدور كلما
تصورت هذا ..

فقالت عائشة :

- كنت انتظر دورى لتقبيل يده وانا أتفحص جسمه جزءا جزءا

لاطمئن عليه ، كان قلبى يرق .. وعيناي تغالبان الدمع .. لعنة الله على
الكلاب اولاد الكلاب ! ..

فابتسم ياسين .. وقال لعائشة محذرا وهو يلحظ كمال غامزا بعينه .

- لا تسبى الانجليز هكذا فان لهم بيننا اصدقاء .. ؟

فقال فهمى متهكما :

- ٤٠٣ -

— امله مما يسر له بابا ان يعلم ان الجندى الذى قبض عليه ليلا ما هو الا صديق من اصدقاء كمال . .

فابتسمت عائشة الى كمال متسائلة :

— الا تزال تحبهم بعد ما كان منهم ؟

فغمغم كمال وقد تورد وجهه حياء وارتابا :

— لو عرفوا أنه أبى ماتعرضوا له بسوء !

فما تمالك ياسين الا ان ضحك ضحكة عالية حتى انه غطى فمه بيده وهو ينظر فى حذر الى السقف كأنما خاف ان يترامى صوت ضحكته الى الدور الاعلى . . ثم قال ساخرا :

الاحرى بك ان تقول : انهم لو عرفوا انك مصرى ماصبوا العذاب على مصر والمصريين ، ولكنهم لا يعرفون !

فقالت له خديجة بلهجة لاذعة :

— دع هذا الكلام لغيرك انت ! . . انكر انك من اصدقائهم كذلك ؟

ثم مخاطبة كمال بلهجة لاذعة :

— اتوانيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم على ان تصلى الجمعة فى سيدنا الحسين ؟

فطن ياسين الى مرمى هجومها وقال مظهرا الاسف :

— يحق لك ان تتطاولى على مادمت قد تزوجت فاكسبت بعض حقوق الادميين . .

— ألم يكن لى هذا الحق من قبل ؟

— الله يرحم ايام زمان . . ولكنه الزواج يعيد الى البائسات الروح ! . .

اسجدى شكرا للاولياء . . ولتعاويد واقراص ام حنفى .

فقالت خديجة وهى تغالب ضحكة :

— يحق لك انت ان تتهجم على الناس بالحق وبالباطل بعد ان ورث

المرحومة وصرت فى عداد الملاك

فقالت عائشة بفرح صبيانى كأنما لم تدر من الامر شيئا :

— اخى فى عداد الملاك ! . . ما أجمل ان اسمع هذا ! . . انت غنى حقا

يا سى ياسين !؟

فقالت خديجة :

— دعينى اعد لك املاكة ، اسمعى ياستى : دكان الحمزاوى وربع الفورية

وبيت قصر الشوق . .

فقال ياسين وهو يهز رأسه مغمضا عينيه :

- {٤٠} -

- ومن شر حاسد اذا حسد ..
فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته :
- وما خفى من الحلى والنقود المخبأة اعظم ..
فهتف ياسين في أسف صادق :
- اختفت كلها وحياتك ، سرت ، سرقها ابن الكلب . جعلت ابى يسأله عما اذا كانت تركت حليا او نقودا فقال اللص « ابحثوا بانفسكم ، علم الله انى كنت انفق عليها في اثناء مرضها من جيبى الخاص » ...
اسمعوا ياهوه .. جيبه الخاص ابن الفسالة ..
فقال عائشة بتأثر :
- يا ولداه !.. مريضة طريحة الفراش تحت رحمة رجوع طامع في مالها !.. لا صديق ولا حبيب ، غادرت الدنيا من دون ان يحزن عليها احد فتسأل ياسين :
- من دون أن يحزن عليها أحد ؟!
- فاشارت خديجة من خلال باب موارب الى ملابس ياسين المعلقة بالمشجب وقالت محتجة احتجاجا ساخرا :
- وهذا البابيون الأسود ؟!.. اليس آية على الحزن ؟!
- فقال ياسين جادا :
- لقد حزنت عليها حقا ، ربنا يرحمها ويغفر لها ، ألم تكن تصافينا في آخر لقاء ؟. الله يرحمها ويغفر لها ولنا ..
فخفضت خديجة رأسها قليلا رافعة حاجبيها ثم نظرت اليه من أعلى كمن ينظر من فوق نظارته وهى تقول :
- احم .. احم .. اسمعوا سيدنا الواعظ (ثم وهى ترميه بنظرة شبك) ولكن لم يد عليك فيما اظن حزن شديد ؟!
- فرماها بنظرة مغيظة قائلا :
- ما قصرت في واجبي نحوها والحمد لله ، اقامت لها مأتما استمر ثلاث ليال ، وكل جمعة أزور القرافة محملا بالرياحين والفواكه .. أم تريدني أن ألطم وأعول وأحتو التراب على رأسى !.. ان للرجال حزنا غير حزن النساء
- فهزت رأسها كأنما تقول « افدتنى افادك الله » ثم قالت متنهدة :
- آه من حزن الرجال !.. ولكن خبرنى وحياتى عندك ألم يخفف الدكان والرّبع والبيت من لوعة الحزن !!
فقال متأففا :

- ٤٠٥ -

- صدق من قال : ان قبح اللسان من قبح الوجه ..
- من قائل هذا ؟ ..
أجابها باسمها :
- حماك ! ..
فضحكت عائشة ، وضحك فهمي وهو يسأل خديجة :
- ألم تتحسن العلاقات بينكما ؟
فأجابته عائشة بالنيابة عنها قائلة :
- سوف يتحسن ما بين الانجليز والمصريين قبل أن يتحسن ما بينكما ..
فقالت خديجة بحنق لأول مرة :
- امرأة قوية ، ربنا عليها ، والله انا بريئة ومظلومة ..
فقال ياسين متهمها :
- نصدقك يا أختي بلا قسم ، هذا شيء نشهد به أمام الله في يوم العذاب !
فعاد فهمي يسأل عائشة :
- وانت كيف حالك معها ؟
فقالت عائشة وهي تلحظ خديجة باشفاق :
- على ما يرام . . .
فتنهفت خديجة :
- آه من أختك عائشة .. تعرف كيف تسوس وتطأء الرأس ..
الفواخص ..
فقال ياسين متصنعا الجد :
- على أى حال فلحماتك الرحمة ولك صادق التهنة !
فقالت بسخرية :
- التهنة الحق لك أنت قريبا ان شاء الله حين تزف الى عروسك الثانية ! .. اليس كذلك ؟ ..
فما تمالك الا ان ضحك .. ثم قال :
- ربنا يسمع منك ..
فتساءلت عائشة باهتمام :
- حقا ؟ ..
ففكر قليلا .. ثم قال في شيء من الحد :

- ٤٠٦ -

- المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ولكن من يعلم بما يأتى به الفد ؟
ربما ثانية وثالثة ورابعة ..
فهمت خديجة :
- هذا ما أتوقعه ، الله يرحم جدك !
فضحكوا جميعا حتى كمال ، ثم عادت عائشة تقول بصوت اسيف :
— مسكينة زينب ! .. كانت فتاة لطيفة وطيبة ..
— كانت .. ! وكانت حمقاء أيضا ، أبوها — مثل أبى — لا يطاق ..
لو رضيت بمعاشرتي كما أحب ما فرطت فيها أبدا
— لا تعرف بهذا ، حافظ على كرامتك ، لا تشمت بك خديجة ..
قال باستهانة :
- نالت الجزاء الذى تستحقه ، فلينقمها أبوها ويشرب ماءها ..
فغمغمت عائشة :
- ولكننا جئنا يا ولداه ! .. اترضى لوليدك بأن ينمو بعيدا عن
رعايتك حتى تسترده غلاما ؟ ..
آه ، أصابت مقتلا ، ينمو فى حضانة أمه كما نما أبوه من قبل . ربنا
كابد تعاسة كتعاسته أو أشد . ربما نمت معه كراهية لأمه أو لأبيه ،
تعاسة على أى حال . قال عابسا :
- ليكن حظه كحظ أبيه ، ما باليد حيلة
وساد الصمت قليلا حتى سأل كمال خديجة :
- وائنت يا ابله متى يخرج الطفل ؟ ..
فأجابته ضاحكة وهى تتحسس بطنها :
- أنه لا يزال فى سنة أولى
فعاد يقول لها ببراءة وهو يتفرس فى وجهها :
- نحفت جدا يا أبله وصار وجهك قبيحا ! ..
ضحكوا جميعا وهم يغطون أفواههم بأيديهم ، ضحكوا حتى شعر
كمال بالحياء والارتباك ، أما خديجة التى لم تكن الاستياء من كمال ممسا
تستطيعه فقد مالت الى أن تجارى التيار فقالت ضاحكة :
- اعترف لكم بأنى خسرت فى أيام الوحى كل اللحم الذى تعبت أم
حنفى أعواما فى جمعه وله ، نحفت وبرز أنفى وغارت عينائى وخيل الى
أن « الرجل » يقلب عينيه مفتشا عبثا عن العروس التى زفوها اليه ! ..
ثم ضحكوا ثانية حين قال ياسين :
- الحق أن زوجك مظلوم لأنه على غباوته البادية وسيم الطلعة
وسبحان من جمع الشامى على المغربى ..

تجاهلته خديجة وخاطبت فهمى قائلة وهى تومئ الى عائشة :
 - كلاهما - زوجى وزوجها - فى الغباء سواء ! . لا يكادان يبرحان
 البيت ليل نهار ، لا هم ولا عمل ، اما زوجها فوقته كله ضائع بين
 التدخين وعزف العود كأنه شحاذ من الشحاذين الذين يمرون على
 البيوت فى الأعياد ، وأما زوجى فلا تراه ألا مستلقيا يدخن ويثرثر حتى
 يدوخ دماغى ..

قالت عائشة كالمعتدرة :

- الأعيان لا يعملون !

فقالت خديجة هازئة :

- العفو ! .. يحق لك ان تدافعى عن هذه الحياة ، الحق ان الله لم
 يجمع بين متشابهين كما جمع بينكما ، كلاكما فى الكسل والدعة
 والخمول شخص واحد ، والنبي يا سى فهمى يمر اليوم كله وهو يدخن
 ويعزف وهى تزوق نفسها وتذهب وتجيء امام المرأة ..
 تساءل ياسين :

- لم لا مادامت ترى منظرا حسنا .. ؟ !

وقبل أن تفتح خديجة فاما سألها مستعجلا :

- خبرينى يا أختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيها بك ؟

كانت شبتت من مهاجمته فأجابته جادة :

- سيجيء باذن الله شبيها بابيه أو جده أو جدته أو خالته ، اما ..
 ثم ضاحكة :

- اما اذا أبى الا ان يجيء شبيها بأمه فالنقى يكون احق به من
 سعد باشا ! .

ولكن كمال قال لها بلهجة خبير عليم :

- الانجليز لا يهتمهم الجمال يا آبلأ، انهم يعجبون كثيرا براسى وانفى ..

فضربت خديجة صدرها بيدها هاتفة :

- يدعون صداقتك وهم يعبثون بك ! .. ربنا يسلط عليهم زبلن من
 جديد .

ورمت عائشة فهمى بنظرة رقيقة وهى تقول :

- كم يسر دعاؤك بعض الناس ..

فابتسم فهمى مغمما :

- كيف أسر ولهم فى بيتنا أصدقاء مغفلون !

- يا خسارة تريبتك له ..

- من الناس من لا تنفع فيه التربية .

فتساءل كمال محتجا :

- ألم أرج جوليون أن يعيد سعد باشا ؟

فقلت خديجة ضاحكة :

- في المرة القادمة حافه براسك الذى يعجب به . .

شعر فهمى اكثر من مرة بأن من حوله يسعون كلما بدت فرصة الى استدراجه الى الحديث والتسلية ، بيد أن ذلك لم يجد شيئا فى التخفيف من الاحساس بالغربة الذى غشيه طوال الوقت . هو احساس كثيرا ما يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة أو الوحدة رغم زحمة المجلس ، ينفرد بقلبه وحزنه وحماسه بين أناس لاهين ضاحكين ، حتى نفى سعد يتخلدون منه دعابة اذا لزم الامر . اختلس منهم النظرات تباعا فوجدهم راضين ، عائشة . . هائلة ، وان تكن تعبت قليلا بسبب الحمل ولكنها سعيدة بكل شيء حتى بتعبها ، خديجة . . متوتبة ضاحكة ، ياسين . . صحة وعافية وغبطة ، من من هؤلاء يكثرث لحوادث هذه الأيام ! . . من منهم يهمه بقى سعد أم نفى ، جلا الانجليز أم مكثوا ! . انه غريب ، 'و غريب على الأقل بين هؤلاء . ومع 'ن هذا الاحساس كان يلقي منه عادة نفسا مسماحة فانه لم يلق هذه المرة الا حنقا وامتعاضا ، ربما كان ذلك لما عاناه فى الأيام الاخيرة . كثيرا ما توقع ان يسمع عن زواج مريم ، كان ذلك همه وكربه بيد انه سلم به سلفا تسليم اليأس ، وكاد يالفه بمرور الأيام ، الا أن حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذى شغلته الشواغل الكبرى ، حتى وقعت واقعة جوليون فزلزل زلزالا . تفازل انجليزيا لا مطعم لها فى الزواج منه فأى معنى تتضمنه هذه الفازلة ؟ . . هل تصدر الا عن متهتكة ؟ . . مريم متهتكة ؟ . . وفيما كانت أحلامه الماضية ؟ . . ولم يكن يخلو بكمال حتى يدعو الى إعادة القصة من جديد محتما عليه أن يصف التفاصيل بدقة ، كيف لاحظ ما يدور ، وأين كان موقف الجندي ، وأين كان موقفه هو ؛ وهل هو متأكد من أن مريم نفسها التى كانت فى الكوة ؟ وانها كانت تنظر حقا الى الجندي ؟ . وهل رآها تبسم اليه ، وهل وهل وهل ، تم يسأله وهو بعض على اسنانه كأنما يهرس الشقاء الذى يعذبه : وهل تراجعت فى خوف حين وقعت عينها عليك ؟ . ثم يمضى متخيلا المواقف والمناظر ، موقفا موقفا ، ومنظرا منظرا ، ويتخيل الابتسامة طويلا حتى

كانه يرى الشفتين المفترتين كما رآهما يوم زفاف عائشة وصاحبتهما
تبع العروس في فناء بيت آل شوكت .
- يبدو ان نينه لن تجالسنا اليوم .
قالت عائشة بصوت يدل على الاسف .
فقلت خديجة :
- الزوار يملأون البيت . .
ياسين ضاحكا :
- أخاف أن يشبه الجنود في كثرة القادمين فيظنوا ان اجتماعا
سياسيا ينعقد في بيتنا . .
خديجة في مباهاة :
- أن اصدقاء بابا يحجبون عين الشمس . .
فقلت عائشة :
- رأيت السيد محمد عفت نفسه على راسي القادمين . .
فأمنت خديجة على قولها قائلة :
- كان صديقا حميما لبابا من قبل أن نرى نور الدنيا .
فقال ياسين وهو يهز رأسه :
- اتهمنى بابا ظلما بأننى قطعت ما بينهما .
- الا يفرق الطلاق بين أعر الأصدقاء ؟ !
ياسين باسم :
- الا اصدقاء ابيك !
عائشة بفخار :
- من ذا تطاوعه نفسه على مخالصة بابا ؟ . . والله ما فى الدنيا كلها
نظير له . .
ثم وهى تثنهد :
- كلما تصورت ماوقع له أمس شاب شعر رأسى .
اخيرا ضاقت خديجة بوجوم فهمى فعزمت على أن تعالجه بطريقة
مباشرة بعد أن أخفقت - فيما رأت - الطرق غير المباشرة ، فالتفت
اليه متسائلة :
- أرايت يا أخى كيف أن ربنا اكرمك اليوم لم يأذن بتحقيق رغبتك
نحو . . . مريم ؟ !
نظر فهمى اليها بين الدهشة والحياء ، وسرعان ما تركزت فيه

الأنصار حتى كمال تطلع اليه باهتمام ، وساد صمت نم عمقه عن شعور مكبوت طال في الصدور تجاهله أو أخفاؤه حتى أفصحت عنه خديجة بجرأة فتطلّعوا الى الشاب في صمت المنتظر للجواب كأنما هو نفسه الذي طرح السؤال ، غير أن ياسين رأى أن ينهي الصمت قبل أن يستفحل فيبيعث على الألام فقال متظاهرا بالسرور :

— أصل أخيك ولي والله يحب أوليائه ..

وكان فهمي يكابد حرجا وحياء فقال باقتصاب :

— هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ..

فقالت عائشة بلهجة المعتذر :

— لم يكن سي فهمي وحده الذي خدع بها ، كلنا خدعنا بها ..

فقالت خديجة مدافعة عن نفسها — بأقصى ما في وسعها — تهمة الفعلة :

— على أي حال أنا لم اقتنع لحظة واحدة فيما مضى ، حتى مع اعتقادي

ببراءتها ، بأنها جديرة به ..

فعاد فهمي يقول متظاهرا بالاستهانة :

— هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ، انجليزى .. مصرى .. سيان ،

دعونا من هذا كله ..

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير في « مسألة » مريم .. مريم ؟ ! ..

لم يكن ينظر إليها فيما مضى — أن مروت في مجال بصره — الا عابرا ، ثم

زاده زهدا فيها تعلق فهمي بها ، حتى ذاعت فضيحتها في الأسرة ..

هناك ثار اهتمامه « تساءل طويلا : أي فتاة هي ؟ ود لو كان ملا عينيه

منها ، تمنى لو كان سبر الفتاة التي استرعت تشوق « انجليزى » ..

انجليزى جاء الحى مقاتلا لا مفازلا ، لم يبد سخطة عليها الا مجاراة

للحديث كلما تناولها اما في الباطن فقد اطربه غاية الطرب وجود

« مفضوحة » جريئة مثلها على كذب منه فلا يفصله عنها الا جدار ،

شاع في صدره العريض المكتنز ذاك الطرب البهيمى الذى يدعوه الى

الصيد وان وقف — اكراما لحزن فهمي الذى يحبه — عند حد الشعور

واللذة السلبية المجردة ، لم يعد في الحى كله من يستثير اهتمامه كمريم .

— آن اوان الذهاب .

قالت خديجة ذلك وهي تنهض على حين ترامى اليهم صوتا ابراهيم

وخليل وهما يتحدثان قادمين من الردهة الخارجية . قام الجميع ، من

يتمطى ومن يحبك ملاسنه ، الا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلع الى

باب الصالة بحزن وقلب خافق ..

- ٤١١ -

- ٦٧ -

جلس السيد احمد الى مكتبه ، مكبا على دفاتره ، يزاوّل عمله اليومي الذي يتناسى به - ولو الى حين - همومه الشخصية والهموم العامة التي تتطّير بها الأنبياء الدامية . غدا يجب الدكان حبه مجالس الأّنس والطرب لانه على الحالين يظفر بما ينتزعه من جحيم الفكر ، الا ان جو الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء والربح وغير ذلك من شئون الحياة العادية ، حياة كلّ يوم ، فلا تخلو من أن تبعث في نفسه شيئا من الثقة الموحية بإمكان عودة كل شيء الى اّصله ، الى حالته الأولى من الاستقرار والسلام . السلام ؟ .. أين ذهب ومتى يأذن بالعودة ؟ . حتى في هذه الدكان تجرى احاديث الدماء همسا مفعجا ، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة والشراء فما تألو السنتهم أن تردد الأنبياء وتندب الأحداث ، فوق زكائب الأرز والبن سمع عن مفركة بولاق ومذابح اسيوط والجنّازات التي تشيع فيها النعوش بالعشرات والشباب الذي انتزع من العدو مدفعا رشاشا اراد أن يدخل به الأّزهر لولا أن سبقته المنيّة فانفجرت في جسمه عشرات المقذوفات ، هذه الأنبياء وغيرها مما يصطبغ بلونها القماني تفرع اذنيه بين حين وآخر في المكان الذي يلوذ به ناشدا النسيان . ما انعّس الحياة في ظلّ الموت ، هلا عجبت الثورة بتحقيق غاياتها من قبل ان يمتد اذاها اليه او الى احد من ذويّه ! .. انه لا يخل بمال ولا يرضن بعاطفة امابذل الحياة فأمر آخر ، أي عذاب صبه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء ! .. لم تعد الثورة « فرجة » حماسية ، انها تهدد أمنه في الذهب والإياب ، وتتوعد ابنه « العاصي » ؛ فنر حماسه لها ، لها هي دون غايتها ، يحلم بالاستقلال ويعودة سعد ولكن دون ثورة او دماء او ذعر ، يهتف قلبه مع الهاتفين ويتحمس مع المتحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلقا بالحياة فمكث وحده في المجرى كأصل شجرة اقتلعت العواصف اغصانها ، لن يوهن شيء وأن جل من حبه للحياة ، فلتبق له الى آخر العمر ، وليؤمن فهمي ايمانه لتبقى له حياته الى آخر العمر كذلك ، فهمي العاق الذي رمى بنفسه الى التيار بلا حزام نجاة ..

- هل السيد احمد موجود ؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشعر باندفاع شخص داخل الدكان

- ٤١٢ -

كأنه مقذوف آدمى فرفع رأسه عن مكتبه فرأى الشيخ متولى عبد الصمد يتوسط المكان رامشاً بعينه الملتهبين مدققاً النظر - عبثاً - صوب المكتب فهض قلبه وابتسمت أساريره ثم هتف بالأقدام :

- تفضل يا شيخ متولى ، حلت البركة ..

فلاح الاطمئنان فى وجه الشيخ وتقدم يهتز اعلاه ما بين الورا والامام كأنه راكب جملاً ، فمال السيد فوق مكتبه ومد يده حتى التقت بيد الرجل وشد عليها متمتما « الكرسي على يمينك ، تفضل بالجلوس » فُسند الشيخ متولى عصاه الى المكتب وجلس على الكرسي ثم اعتمد ببديه على ركبتيه وهو يقول :

- الله يحفظك ويصونك ..

فقال السيد من قلبه :

- ما أطيب دعاءك وما أحوجنى اليه ..

ثم ملتفتاً صوب جميل الحمزاوى الذى كان يزن ارزا لزبون :

- لا تنس ان تهيب لفة سيدنا الشيخ ..

فجاء صوت جميل الحمزاوى قائلاً :

- من ذا الذى ينسى سيدنا الشيخ !

فبسط الشيخ راحتيه ورفع رأسه وهو يحرك شفتيه بالدعاء فى هينة لم يسمع منها الا وسوسة متقطعة ، ثم عاد الى وضعه الاول فصمت لحظة ثم قال باللهجة الافتتاح :

- ابدأ بالصلاة على نور الهدى .

فقال السيد بحرارة :

- عليه ازكى الصلاة والسلام .

- واثنى بالتبرحم على ابيك طيب الذكر .

- رحمه الله رحمة واسعة .

- ثم اسأل الله أن يقر عينيك بأمرتك وذريتك وذرية ذريتك وذرية ذرية ذريتك .

- آمين .

متنهدا :

- وادعوه أن يعيد الينا افندينا عباس ومحمد فريد وسعد زغلول ..

- اللهم استجب .

- وأن يخرب بيت الانجليز بما ائتموا وبما يائثمون ..

- سبحان المنتقم الجبار .

- عند ذاك تنحنح الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم قال :
- أما بعد فقد رأيتك في منامى تلوح لى بيديك فما فتحت عيني حتى صبح عزمى على زيارتك ..
- فابتسم السيد ابتسامه لاتخلو من حزن وقال :
- لا أعجب لذلك فانى فى مسيس الحاجة الى بركتك ، زادك الله بركة على بركه ..
- فمال وجه الشيخ نحو السيد فى عطف وتساءل :
- احق مابلغنى عن حادث بوابة الفتوح ؟
- فاجاب السيد مبتسما :
- نعم .. من ابلغك ياترى ؟
- كنت مارا بمعصرة حميدو غنيم فاستوقفنى وقال لى « ألم يبلغك ما فعل الانجليز بحبيبك السيد أحمد وبى » فاستوضحته منزعا فقص على العجب العجائب .. قص على السيد الحادث بتفاصيله ، لم يكن يمل ترديده ، ولعله قصه فى الأيام القلائل الاخيرة عنرات المرات .
- واصغى الشيخ اليه وهو يتلو همسا آيات الكرسي . افزعمت يابنى ؟ .. كيف كان فزعك .. خبرنى .. لاحول ولا قوة الا بالله .. ولكن هل قنعت بانسلامة ؟ .. انسيت أن الفزع لايمضى الى حال سبيله ؟ .. صليت طويلا وسألت الله النجاة ! هذا جميل ولكن يلزمك حجاب ..
- كيف لا ! ..
- يزيدنا بركة ياشيخ متولى « والاولاد وامهم ، ألم يدركهم الفزع ؟
- طبعا .. قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة والارهاب ، الحجاب .. الحجاب .. الحجاب وفيه الشفاء ..
- انت الخير والبركة يا شيخ متولى .. لقد نجانى الله من شر كبير ولكن ثمة شر لا يزال يتهددنى ويقض مضجعى .
- مال وجه الشيخ نحو السيد فى عطف مرة أخرى وتساءل :
- ماذا بك يابنى عفا الله عنك ؟
- فرنا السيد اليه بطرف واجم وغمغم فى ضجر :
- ابنى فهمى ..
- فرفع الشيخ حاجبيه الاشبيين متسائلا او منزعا ثم قال برجاء :
- محفوظ باذن الرحمن ..
- فهر السيد راسه بأسى وقال :
- عفى لأول مرة والامر لله ..

- فبسط الشيخ متولى ذراعيه أمامه كأنما يتقى بهما البلاء وهتف :
 - معاذ الله ، فهمى ابنى ، وأنا أعلم علم اليقين أنه طبع على البر ..
 فقال السيد احمد متسخطا :
 - يابى حضرته الا أن يفعل كما يفعل الشبان فى هذه الايام الدامية ..
 فقال الشيخ فى دهش واستنكار :
 - انت اب حازم ما فى ذلك شك ، ماكنت اتصور أن ابنا من ابنائك
 يجرؤ على أن يرد لك أمرا ..
 حز هذا القول فى قلبه حتى ادماه وضاق به صدره ثم وجد من
 نفسه نزوعا الى التهوين من عصيان ابنه ليدفع عن شخصه تهمة
 الضعف أمام الشيخ وامام نفسه معا فقال :
 - لم يجرؤ على هذا صراحة طبعاً ولكنى دعوته الى أن يحلف على
 المصحف بالا يشترك فى اى عمل من أعمال الثورة فبكى ، بكى من دون
 أن يجسر على قول لا ، ما عسى أن اصنع ؟ .. لا أستطيع أن أحبسه فى
 البيت ولا يسعنى أن اراقبه فى المدرسة ، وأخاف أن يكون تيار هذه
 الايام أقوى من أن يقاومه شاب مثله ، ماذا اصنع ؟ .. أهده
 بالضرب ؟ .. أضربه ؟ لكن ماعسى أن يجدى التهديد مع شخص لايبالى
 تعريض نفسه للموت !
 فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق :
 - وهللقى بنفسه فى المظاهرات ؟ !
 فقال السيد وهو يهز منكبيه العريضين :
 - كلاً ولكنه يوزع المنشورات ، لما ضيقت عليه زعم انه يكتفى بالتوزيع
 على خاصة اصدقائه .
 - ماله ولهذه الأعمال ! .. انه الوديع ابن الوديع ولهذه الأعمال
 رجال من صنف آخر ، الم يعرف أن الانجليز وحوش لا تتطرق الرحمة
 الى قلوبهم الفليظة ؟ .. وأنهم يتغذون صباح مساء بدماء المصريين
 المساكين ؟ .. كلمه بالحسنى ، عظه ، بين له النور من الظلام ؛ قل له انك
 ابوه وانك تحبه وتخاف عليه ، اما أنا فسامعل من ناحيتى على اعداد
 حجاب من نوع خاص ولادعون له فى صلاتى وخاصة صلاة الفجر ،
 والله المستعان من قبل ومن بعد ..
 قال السيد بحزن :
 - ان انباء القتلى تتواتر كل ساعة معلنة آى التحذير لمن يعتبر فما
 الذى اصاب عقله ؟ . لقد ضاع ابن الفولى اللبان فى غمضة عين فشهد

ماتمه معى وعزى والده المسكين ، كان الشاب يوزع سلاطين اللبن الزبادى فصادف فى طريقه مظاهرة فأغراه القضاء بالاشتراك فيها بلا وعى وما هى الا ساعة أو نحوها حتى خر صريعا فى ساحة الأزهى ، لا حول ولا قوة الا بالله .. انا لله وأنا اليه راجعون ، لما تأخر عن ميعاد عودته قلق أبوه فمضى الى زبائنه يسأل عنه ، قال له بعضهم انه جاءهم بالزبادى وذهب وقال آخرون انه لم يمر عليهم كمادته ، حتى بلغ حمروشا بائع الكنافة فوجد عنده الصينية وما تبقى من السلاطين التى لم توزع وأخبره الرجل بأنه تركها عنده واشترك فى مظاهرة المساء فجن جنون المسكين وقصد من توه قسم الجمالية فوجهوه الى قصر العينى وهناك عثر على ابنه فى المشرحة ، لقد علم بالقصة بحدا فمرها كما قصها علينا الفولى ونحن فى بيته نعزيه ، علم كيف فقد الشاب وكان لم يوجد ولمس حزن أبيه المبرح وسمع صوات أهله ، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الانجليز ، لو كان حجرا لعقل ولكنه خير ابنائى فله الحمد والشكر ..

فقال الشيخ متولى بصوت أسيف :

— اعرف ذلك الشاب المسكين ، انه اكبر ابناء الفولى اليس كذلك ؟ ..
كان جده مكاريا وكنت اكترى حماره للذهاب الى سيدى أبى السعود ،
ان للفولى اربعة اولاد ولكن الفقيد كان أحبهم الى قلبه ..
هنا اشترك جميل الحمزاوى لأول مرة فى الحديث قائلا :
— أيا منا هذه مجنونة وقد اتلفت عقول الناس حتى أصغارهم ،
بالأمس قال أبنى فؤاد لأمه انه يود لو يشترك فى مظاهرة !
فقال السيد بقلق :

— يعملها الصغار ويقع فيها الكبار ! . ابنك فؤاد صديق ابنى كمال
وكلاهما فى مدرسة واحدة ، الا تحدثه نفسه .. الا تحدثهما نفسيهما
مرة بان يسيرا فى مظاهرة ! .. هه ؟ .. مامن عجيبة تعد الآن عجيبة .. !
فقال الحمزاوى وقد ندم على ما فرط منه :

— ليس الى هذا الحد يا سى السيد ، على انى ادितه بلا رحمة على
تمنياته الساذجة ، ان سى كمال لا يخرج الا مصحوبا بأم حنفى حفظه
الله ورعاه .

ساد الصمت فلم يعد يسمع فى الدكان الا خشخشة الورقة التى يلف
فيها الحمزاوى هدية الشيخ متولى عبد الصمد ، ثم تنهد الشيخ وقال :
— فهمى ولد عاقل ، لا ينبغى أن يمكن الانجليز من نفسه العزيرة ،

الانجليز ! . . حسبى الله . . ألم نسمع بما فعلوا فى العزيزية
والبدرشين . . ؟

كان السيد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة فى التساؤل ،
الا انه لم يتوقع جديدا فوق ما يقرع سمعه هذه الأيام ، فاكفى بأن
يرفع حاجبيه متظاهرا بالاهتمام فانشأ الشيخ يقول :

— كنت أول أمس فى زيارة الحسيب النسيب شداد بك عبد الحميد
سرايه العامرة بالعباسية ، دعانى الى الغداء والعشاء فالحفته بأحجية
له ولآل بيته ، وهناك حدثنى بحديث العزيزية والبدرشين . .
سكت الشيخ قليلا فتساءل السيد احمد :

— تاجر الأقطان المعروف ؟

— شداد بك عبد الحميد اكبر تاجر قطن ، لهلك عزفت ابنه عبد
الحميد بك شداد فقد كان يوما على صلة وثيقة بالسيد محمد عفت ؟
فقال السيد ببطء ليملى لنفسه فى التذكر :

— اذكر انى رأيته مرة فى مجلس السيد محمد عفت قبل نشوب الحرب ،
ثم سمعت عن ابعاده عن القطر عقب عزل افندينا ، أما من جديد عنه . ؟
فقال الشيخ متولى بلهجة سريعة عابرة كأنما يضع كلامه بين قوسين .
ليعود الى حديثه الاول :

— لا يزال مبعدا عن البلاد ، وهو يقيم فى بلاد فرنسا ومعه زوجته
واولاده ، لشد ما يخاف شداد بك أن يموت قبل أن يرى ابنه فى هذه
الدنيا . .

وسكت مرة أخرى ، ثم مضى يهز راسه يمنة ويسرة ويقول بصوت
منغوم كأنما ينشد مطلع توشيح نبوى :

— بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاثة والناس نيام حاصر البلدين
بضع مئات من الجنود البريطانيين مدججين بالسلاح . .

انتبه السيد انتباهة قاسية . حاصروا البلدين والناس نيام . .
اليس أولئك المحاصرون من جنس هؤلاء الذين يعسكرون أمام البيت ؟ .
بدعوا بالاعتداء على فائى خطوة تالية يضمرون ؟ ! .

ضرب الشيخ على ركبتيه كأنما انشاده بنوع من الايقاع ثم استطرد
قائلا :

— واقتحموا على العمدين داريهما فأمرهما بتسليم السلاح ثم
مرقوا الى الحريم فنهبوا الحلى وأهانوا النساء وجروهن من شعورهن

الى الخارج وهن يولولن ويستفتن وما من مغيث ، عطفك اللهم على المستضعفين من عبادك ..

دار العمدين ! . العمدة شخصية حكومية اليس كذلك ؟ . لست عمدة ولا دارى بدار عمدية ، ما انا الا رجل كسائر الناس ، ما عسى ان يصنعوا بأمثالنا ؟ . تصور امينة مجرورة من شعرها ، يقضى على بأن أتمنى الجنون ! . الجنون ؟ ..

واصل الشيخ حديثه وهو يهز رأسه قائلا :

- واجبروا العمدين على أن يدلوها على بيوت مشايخ البلدين واعيانهما ثم اقتحموا البيوت محطمين الابواب ، نهبوا كل ثمين ، اعتدوا على النساء اعتداء أجراميا بعد أن قتلوا اللاتي حاولن الدفاع عن أنفسهن ، وضربوا الرجال ضربا مبرحا ، ثم غادروهما بعد أن لم يبقوا فيهما على ثمين لم يسلب أو عرض لم يثلم ..

ليذهب كل ثمين الى الجحيم .. « أو عرض لم يثلم » . ابن رحمة الله ؟ ابن انتقامه ؟ . الطوفان . نوح . مصطفى كامل . تصور .. كيف يمكن أن تبقى معه بعد ذلك تحت سقف واحد ! . اى ذنب جنت ! . وهو بأى وجه ؟ ! ..

ضرب الشيخ بيده ثلاثا على ركبتيه ثم عاد الى الحديث وقد تهدج صوته فصار بالانواح أشبه ، قال :

- واضرموا النار فى البلدين مستعينين بما على اسقف الدور من حطب وقش وبما صبوا عليها من بترول ، استيقظت القرى فى فزع رهيب وفر اهلوها عن بيوتهم كالمجانين ، وعلا الصراخ والاني ، وامتدت السنة الالهيب فى كل مكان حتى استحالت البلدتان شعلة من النيران .. هتف السيد بلا وعى :

- يا رب السماوات والارض !

فمضى الشيخ قائلا :

- وضرب الجنود نطاقا حول البلدين المشتعلتين من بعيند يتربصون بالأهالى البؤساء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم تتبعهم الاغنام والكلاب والقطط يرومون سبيلا للنجاة من النار ، فما ان بلغوا مواقف الجنود حتى أنهال هؤلاء على الذكور ضربا وركلا ، ثم حجزوا النساء ليسلبوا حليهن وبهتكوا اعراضهن ، فاذا قاومت احداهن قتلت ، واذا ندت عن زوج أو أب أو أخ حركة دفاع رمى بالرصاص ..

ثم التفت الشيخ متولى الى السيد الداهل وضرب كفاه على كف

وهو يهتف - وساقوا بقية الضحايا الى معسكر قريب وهنالك اجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمن اعترافهم بجرائم لم يرتكبوها واقرار بأن مآزرله الانجليز بهم جزاء حق على ما فعلوا ، هذا ما حصل يا سيد احمد للعززية والبدرشين . هذا مثل من أمثلة التنكيل التي نسأها بلا رحمة ولا شفقة ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد ..

وساد صمت كتيب اليم خلا فيه كل الى افكاره وتخيلاته حتى قطعه جميل الحمزاوى وهو يهتف متاوها :

- ربنا موجود ..

فهتف السيد مؤمنا على قوله :

- نعم ! ! ومشيروا الى الجهات الأربع) فى كل مكان ..

وخاطب الشيخ متولى السيد قائلا :

- قل لفهمى : ان الشيخ متولى ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة ، قل له سلم الى الله ربك فهو القادر وحده على اهلاك الانجليز كما اهلك الذين من قبلهم ممن شقوا عصا طاعته ..

ثم مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيد الى جميل الحمزاوى فجاءه بالهدية ووضعها فى يده ثم ساعده على النهوض . صافح الشيخ انرجلين ومضى وهو يقول :

- « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون » .. صدق الله العظيم ..

عند الفلاس ، ونور الصباح يولد رويدا من ظلمة الفجر ، طرقت خادم من السكرية بيت السيد فأخبرت أمينة بأن عائشة قد جاءها المخاض . كانت أمينة فى حجرة القرن فعهدت بالعمل الى أم حنفى وهرعت الى باب السلم . بدا على أم حنفى الاستياء ربما لأول مرة فى تاريخ خدمتها الطويل بهذا البيت ، أما كان يحق لها أن تشهد ولادة عائشة ؟ . لها كل الحق .. كأمينة سواء بسواء ، فتحت عائشة عينيها فى حجرها ، كل ابن فى هذا البيت له امان : أمينة وأم حنفى ، كيف يحال بينها وبين ابنتها فى هذه الساعة الرهيبة ! . هل تذكرين ولادتك ؟ . ورب الطمبكشية ، كان المعلم فى الخارج كمادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل ، وجدت فى

أم حسنية صديقة وقابلة معا ! . ترى أين أم حسنية الآن ؟ .. الا زالت على قيد الحياة ؟ . ثم جاء حنفى بين تأوهات الألم ، ذهب بين تأوهات الألم أيضا ، وهو فى المهد ، لو عاش لكان ابن عشرين الآن ! . سيدتى الصغيرة تتألم وأنا هنا اهيبى الطعام . أمتلأ قلب أمينة بفرح موصول باشفاق ، هو الاحساس الذى خفق به قلبها أول مرة يوم استقبلت التجربة بنفسها . هاهى عائشة تتأهب لاستقبال أول مولود تستهل به أمومتها ، كما استهلكت هى أمومتها بخديجة ، هكذا تمتد الحياة التى انبثقت منها الى غير نهاية . ومضت الى الأب فزفت اليه البشرى بنبرات رقيقة مهذبة ، مبالغة هذه المرة فى حيائها وتهذيبها ان يستشف وراء صوتها رغبته الحارة فى الانطلاق الى ابنتها غير أن السيد تلقى الخبر فى هدوء ثم أمرها بالذهاب دون إبطاء ! .. راحت ترتدى ملابسها على عجل وقد شعرت بأن المزايا التى تكتسبها امرأة ضعيفة مثلها بانجاب الأطفال خبيقة بصنع المعجزات أحيانا . وعلم الاخوة بالخبر عند استيقاظهم عقب ذهاب الأم بقليل . علت وجوههم ابتسامة وتبادلوا نظرة متسائلة . عائشة أم ! .. اليس ذلك غريبا ؟ .. ما وجه الغرابة فيه . كانت نينة أصغر منها يوم ولدت خديجة . هل ذهبت نينة لتخرج الطفل بيديها ؟ . ابتسامتان . هذا نذير لى ، عما قليل تلد بنت الكلب أيضا .. من تعنى ؟ ! زينب . آه لو سمعتك بابا . عائشة أم ، وأنا اب . وأنا خال وعم . ستكون أنت أيضا عما وخالا ياسى كمال ، يجب أن اتخلف اليوم عن المدرسة لأذهب الى آبلأ عائشة . جميل جدا ، استأذن بابا ان استطعت على المائدة ! .. أووه . نحن فى حاجة الى مزيد من المواليد لنسد العجز الذى أوقعه الانجليز بنا . لو تخلفت عن المدرسة ما حدث شيء غير عادى ، ثلاثة ارباع التلاميذ مريضون منذ أكثر من شهر . قل هذا لبابا وسيقتنع حتما بحجتك فيضربك بطبق الفول فى وجهك . أووه . مولود جديد ، بعد ساعة أو ساعتين يصير باباجدا ونينة جدة ونحن أخوالا ، شيء خطير ، كم مولودا ياترى يرى نور الدنيا فى هذه اللحظة ؟ .. وكم انسانا يقب عنه هذا النور فى هذه اللحظة ؟ .. يجب أن نبلغ جدتى . أسطيع ان اذهب الى الخرنفش لابلأها اذا تخلفت عن المدرسة ! .. قلنا لك لاشأن لنا بمدرستك ، قل لبابا وسيرحب بفكرتك . أووه . لعل عائشة تتألم الآن . مسكينة المحبوبة ، ان الطلق لايلين للشعر الذهبى والأعين الزرق ربنا يقومها بالسلامة ، عند ذاك نشرب المغات ونشعل الشموع ، ذكر أم انشى ؟ .. أيهما تفضل ؟ .. الذكر طبعاً ، ربما بدأت بانشى كأما . لم لا

تدا بذكر كأيها ؟ .. هاها ، عندما يحين ميعاد انصراف المدرسة يكون الطفل قد خرج فلن أتمكن من مشاهدة خروجه . أتريد أن تراه وهو يخرج ؟ .. طبعاً . أجل هذه الرغبة حتى يكون المولود ابنك انت ! . كان كمال أشد الجميع تأثراً بالخبر ، شغل به عقلاً وقلباً وخيلاً . لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وأنه يحصى حركاته وسكناته ليلفها أول فأول الى أبيه لما كان في وسعه أن يقاوم الاغراء الذي يناديه للذهاب الى السكينة . ومكث في المدرسة جسداً بلا روح ، هامت روحه في السكينة تتسائل عن القادم الجديد الذي ترقب مقدمه أشهراً وهو يمني النفس بالاطلاع على سره المكنون . شهد مرة ولادة قطة وهو دون السادسة إذ استرعت انتباهه بموائها الحادفهرع اليها تحت عرش اللباب فوق السطح فوجدها تتلوى الما وقد جحظت عينها ، ثم رأى جسمها يتصدع عن فلذة ملتبهة فتراجع متقرزاً وهو يصرخ بأعلى صوته . طافت هذه الذكرى بمخيلته والحت عليه حتى عاوده تفرزه القديم وانتشرت حوله مضجرة مقلقة كالضباب . غير أنه لم يستسلم للخوف ، أبى أن يتصور ان ثمة علاقة بين القطة وعائشة الا ما يكون بين الحيوان والانسان وهو - في ايمانه - ابعد مما بين الارض والسماء ، ولكن ماذا يحدث في السكينة اذن ؟ .. ماذا طرا على عائشة من غرائب الامور ؟ .. ثمة أسئلة حيارى لاتنعم بجواب .. ماكاد يغادر المدرسة عصراً حتى اندفع يقطع الطريق عدوا الى السكينة .

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث ، ومضى الى باب الحريم فلاحته مند التفاتة الى النظرة فما يدرى الا وعيناه تلتقيان بعيني والده الذي جلس شابكا راحتيه على مقبض عصاه القائمة بين رجليه . تسمر في مكانه جامداً محملاً كأنما نوم تنويماً مغناطيسياً ، لم يطف ولم يبد حراكاً ، ركبته شعور بالذنب لا يدرىه قلبه يشرب انقضاخ العقاب عليه وبرودة الخوف تسرى في أطرافه حتى اشتبك السيد أحمد في حديث مع شخص يجلس الى جانبه فالتفت نحوه فاسترد كمال عينييه وهو يزدرد ريقه ، عند ذاك لمح في داخل النظرة إبراهيم شوكت وياسين وفهمى قبل أن يفر الى الداخل ، رقى في السلم وتبا حتى انتهى الى دور عائشة فدفع باباً موارباً ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج أخته واقفاً في البصالة ، ورأى باب حجرة النوم مغلقاً وقد ترامى من ورائه الى سمعه اصوات تتحدث ميز منها أمه وحرم المرحوم شوكت وصوتا ثالثاً لا يعرفه ، سلم على زوج أخته ثم سألوه وهو يتطلع اليه بطرف باسم :

— آتت عائشة ولدت ؟ —

فرفع الرجل سبابته الى شفثيه محذرا وهو يقول :

— هس ...

أدرك كمال أنه لم يرحب بالسؤال ، بل انه لم يرحب بمقدمه كسالف عادته فحجل وعانى قلقل لم يدر له سببا ، وأراد أن يتقدم من الباب المغلق ولكن صوت خليل أوقفه وهو يهتف باقتضاب ينم عن الضجر :

— لا ...

فتحول نحوه متسائلا ولكن الرجل قال له في عجلة ولهجة :

— انزل باشاطر والعب تحت ...

انكسرت نفس الفلام فتقهقر متثاقلا بائخا وقد عز عليه أن يجزى على عذاب انتظاره طوال اليوم هذا الجزاء البخس ، ولما بلغ عتبة الصالة صك أذنيه صوت غريب آت من الحجرة المفلقة ، بدأ رفيعا حادا عاليا ، ثم غلظ وترهل حتى بح ، وانتهى بحشجة طويلة قاسية ، ثم غاب لحظة مقذارها تردد النفس المقطوع ، ثم بعث آهة عميقة شاكية ، بدا له غريبا أول الأمر كأنه لم يعرف صاحبه ؛ ولكن نبرة من نبراته المعبدة تميزت وسط الحدة والغلظة والحشجة فوشت بهوية مصدره ، صوت عائشة بلا ريب ، او هو عائشة مدابة منصهرة ، ثم تأكد من ظنه عند تردد الآهة العميقة الشاكية ، فارتعشت جوارحه ، وخيل اليه أنه يراها تتلوى على حال من الألم دعت الى مخيلته بصورة القطعة القديمة ؛ وعطف رأسه صوب خليل فالفاه يقبض راحته ويبسطها وهو يتمتم « يا لطيف يارب » فخيل اليه مرة أخرى أن جسم عائشة ينقبض وينبسط مثل راحة الرجل ، لم يعد يملك من نفسه شيئا فركض الى الخارج مفحما في البكاء . وعندما انتهى الى باب الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراءه فرفع رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرت به دون أن تثبته اليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم نادى سيدها إبراهيم فجاء الرجل مسرعا فقامت له « الحمد لله ياسيدي » ، لم تزد على ذلك شيئا ولم تنتظر حتى تسمع ما يقول ولكنها دارت على عقبيه وهرعت الى السلم فرقيت فيه دون تردد ، رجع إبراهيم الى النظرة متهلل الوجه فلبث كمال وحده لا يدرى ما يفعل ولكن لم تمض دقيقة حتى عاد إبراهيم يتبعه السيد أحمد فياسين ثم فهمى فتشحي الفلام جانبا حتى مروا ثم صعد في أعقابهم خافق القلب ، وقابل خليل الآتين امام مدخل الشقة فسمع أباه وهو يقول له :

— الحمد لله على السلامة ..

فغمغم خليل في وجوم :

— الحمد لله على كافة الأحوال ..

فسأله السيد أحمد باهتمام :

— مالك ... ؟

فقال بصوت منخفض :

— انى ذاهب لاستدعاء الطبيب ..

فتساءل السيد قلقلًا :

— المولود ... ؟

فأجابته وهو يهز رأسه سلبًا :

— عائشة ! .. ليست على مايرام ، ساجى بالطبيب حالا ..

وذهب مخلفا وراءه وجوما وقلقلًا واضحين ، ثم دعاهم ابراهيم شوكت الى حجرة الاستقبال فمضوا اليها صامتين . وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل فسلمت وهى تبسم لتدخل الطمانينة الى قلوبهم ثم جلست وهى تقول :

— قاست المسكينة طويلا حتى انهكت قواها ، ولكنها حال عارضة وستزول وشيكا ، انى واثقة مما اقول ولكن ابنى بدا اليوم خوفا على غير عادته ، على أنه لا ضرر البتة من مجيء الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت خفيض) الطبيب ربنا وربنا هو الطبيب ..

لم يعد السيد يطبق مايلتزم عادة من وقار وبرود أمام ابنائه فسألها في قلق غير خاف :

— ماذا بها ؟ .. الا أستطيع أن أراها ؟

فابتسمت المرأة وقالت :

— سترأها عما قريب وهى بخير وعافية ، الحق على ابنى المجنون هو الذى أزعجكم بغير موجب ..

كان وراء الصدر العريض القوى والوقار الحازم المهيّب قلب يتعذب أشد العذاب ، كان وراء العينين الواجعتين الرزيتين دمع متجمد .. ماذا دهم الصغيرة ؟ .. الطبيب ؟ ! ، لماذا تحول العجوز بينى وبينها ؟ ! ، ابتسامة رقيقة أو كلمة حنوثة منى أنا ، منى أنا خاصة ، حقيقة بأن تخفف من آلامها ، زواج وزوج والم ، لم تذق فى بيتى مرارة الألم قط ؛ العزيرة الجميلة الصغيرة رحمتك اللهم ، فسد طعم الحياة ، انه ليفسد لأهون اذى يتهددهم ؛ فهمى .. أراه واجما متألما .. هل أدرك معنى الألم ؟ .. من اين له أن يعرف قلب الأب ! ، العجوز مطمئنة وواثقة مما

تقول ، ابنها أزعجنا بغير موجب ، اللهم استجب ؛ انت أعلم بحالى بأن تنجيتها
كما نجيتنى من الانجليز ، قلبى لا يطيق هذا العذاب ، عند الله الرحمة ؛
وهو قادر على حفظ ابناى من كل سوء ، لا طعم للحياة بغير ذلك ، لا
طعم للسرور والطرب واللهو اذا انفرست فى جنبى شوكة حادة ، قلبى
يدعو لهم بالسلامة ، لانه قلب اب ؛ ولانه لا تطيب المسرات الا لخلّى ، هل
القى سمار الليل بقلب سعيد ؟ .. أحب اذا ضحكك ان تنطلق الضحكة
من أعماق قلبى صافية ، القلب القلق كالوتر المختل ، حسبى فهمى ؛ انه
يلج على كوجع الأسنان ، ما أنقض الألم ، دنيا بلا ألم ؛ لا شئ على الله
بكثير ، دنيا بلا ألم ولو تكون قصيرة ، دنيا تقر فيها عينى بهم جميعا .
هنالك أضحك وأغنى والهو ؛ يا راحم الراحمين ، عائشة يا راحم الراحمين !
بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوبا بالطبيب فدخلوا الحجره من فورهما
ثم أغلق الباب وراءهما . وعلم السيد بمقدمهما فقام واتجه الى باب حجره
الاستقبال ووقف على العتبة قليلا وهو يمد البصر الى الباب المغلق ثم عاد
الى مجلسه فجلس . قالت حرم المرحوم شوكت :

- لتعلمن صدق رأى حالمًا يتكلم الطبيب ..

فغمغم السيد وهو يرفع رأسه الى أعلى :

- عنده العفو ...

عما قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشك مهما تكن العواقب .
ان قلبه يخفق خفقانا سريعا متواصلا ، فليصبر ، لم يبق الا قليل . ان
ايمانه بالله قوى عميق لا يتزعزع فليسلم اليه أمره ، سيخرج الطبيب طال
مكوثه فى الداخل أم قصر وعند ذاك يسأله عما وراءه ، الطبيب ؟ ... لم
يفكر فى ذلك من قبل ، طبيب عند نساء ! .. مع الرحم وجها لوجه ،
اليس كذلك ؟ ولكنه طبيب ! .. ما الحيلة ؟ الم المهم ان ربنا يأخذ
بيدها فلنسأله السلامة ، وجد السيد الى قلقه حياء وامتعاضا . واستمر
الفحص زهاء ثلث ساعة ثم فتح الباب فنهض السيد ومضى من توه الى
الصالة ، وتبعه الأبناء حتى تجمعوا حول الطبيب . كان الطبيب من
معارف السيد فصافحه بأسما ثم قال :

- بخير وعافية ..

ثم فى شئ من الجد :

- جاءوا بى للوالدة ولكنى وجدت ان التى فى حاجة الى العناية حقا
هى المولودة ...

تنفس السيد بارتياح لأول مرة منذ حوالى الساعة فتسائل ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة :

- أطمئن اذن على عهدتك ؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدهش :

- نعم ، ولكن الا تهملك حفيدتك ؟ !

فقال السيد باسماء :

- لا عهد لى بعد بواجبات الجد ...

وتسائل خليل :

- ليس ثمة أمل فى حياتها ؟

فقال الرجل وهو يزوى مايبين حاجيه :

- الأعمار بيد الله ، ولكنى وجدت قلبها ضعيفا ، من المحتمل ان تموت

الليلة ؛ واذا مرت الليلة بسلام جازت الخطر المائل ولكنى لا اظن انها تعمر

طويلا ، فى تقديرى انه لا يمكن ان يمتد بها العمر الى مابعد العشرين ، ولكن

من يعلم ؟ .. الأعمار بيد الله وحده ..

ولما ذهب الطبيب الى طبيته التفت خليل نحو امه وعلى شفثيه ابتسامة

خفيفة ثم عن أسف وقال :

- كان فى نيتى أن أسميها نعيمة باسمك ..

فقالت المرأة وهى تلوح بيدها مؤنبة :

- الطبيب نفسه قال : ان الأعمار بيد الله أف تكون انت اضعف ايمانا منه !

سمها نعيمة ، يجب ان تسميها نعيمة اكراما لى ، وسيكون عمرها باذن

لله مدتها كعمر جدتها !

كان السيد يحدث نفسه : دعا الأحقق الطبيب ليطلع على زوجه بغير

موجب ، بغير موجب ! .. ياله من أحقق . ولم يستطع ان يكتم غيظه

فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة :

- حقا ان الخوف يفقد الرجال حسن الروية ، أما كان يجمل بك ان

تفكر قليلا قبل ان تبادر الى احضار رجل غريب ليرى زوجك بملء عينيه ؟ !

لم يجب خليل ، ولكنه نظر فيمن حوله وقال بجذ :

- لا يجوز أن تعلم عائشة بما قال الطبيب ..

— ماذا في الطريق ؟ !

تسأل السيد أحمد وهو ينهض في عجلة من وراء مكتبه : فذهب صوب باب الدكان يتبعه جميل الحمزاوي وبعض الزبائن . لم يكن طريق النحاسين طريقا هادئا ، كان أبعد ما يكون عن الهدوء ، صوته الجهر لا يخفت من الفجر الى ما قبل الفجر ، حناجره عالية هتافة بندايات الباعة ومساومات الشارين . ودعوات المجذوبين ودعابات السابلة ، يتحادثون وكأنهم يخطبون ، حتى اخض الشئون تترامى الى جوانبه وتطير حتى مآذنه ، الى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حينا وطققة الكارو حينا آخر ، لم يكن طريقا هادئا بحال ولكن تعالت ضجة فجائية وفدت من بعيد بادىء الامر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدت حتى صارت بعزيف الريح أشبه وقد لفت الحى كله قربه وبعيده ، بدت غريبة شاذة حتى في هذا الطريق الصاخب ، ظننا السيد أحمد مظاهرة ثائرة كما ينبغي لرجل عاش في تلك الأيام ولكن جلجلت في طياتها زغاريد مبشرة بالأفراح ، فمضى الرجل متسائلا الى الباب ، ولم يكذب يلفه حتى ادس طمد بشيخ الحارة الذى أقبل مندفعاً وهو يهتف بوجه طفر منه البشر:

— أبلغك الخبر ؟

فقال السيد وعيناه تلمعان تفاؤلا من قبل أن يسمع شيئا :

— كلا ، ماذا وراءك ؟

قال الرجل بحماس :

— سعد باشا أفرج عنه . .

فما تمالك السيد أن تسأل صائحا :

— حقا ؟ ؟ . .

فقال شيخ الحارة بيقين :

— اذاع النبى الساعة بيانا بهذه البشرى . . .

في اللحظة التالية كانا يتعاقبان ، واشند التأثير بالسيد أحمد فاغرورقت عيناه ثم قال وهو يضحك مداراة لتأثره :

— كان العهد به دائما ان يذيع الانذارات لا البشرىات فماذا غيره

ابن الهرمة ؟ ! . .

فقال شيخ الحارة :

- سبحان الذى لا يتغير ..

وصافح السيد ثم غادر الدكان وهو يصيح « الله اكبر ، الله اكبر ، النصر للمؤمنين ! »

وقف السيد على عتبة الدكان مقلبا عينيه فى انحاء الطريق بقلب ارتد الى براءة الطفولة وبهجتها ، طالع اثر الخبر السعيد فى كل مكان ... فى الدكاكين التى سدت مداخلها بأصحابها وزبائنهم وهم يتبادلون التهاني ، فى النوافذ التى تزاحمت فيها الاحداث وانطلقت الزغاريد من وراء خضاصها ، فى المظاهرات التى تألفت ارتجالا ما بين النحاسين والصاغة وبيت القاضى هاتفة قلوبها لسعد ، وسعد وسعد ثم سعد ، فى المآذن التى اعتلى المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون ، فى العربات الكارو التى تجمعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفعات بالملاءات اللف وهن يرقصن ويرددن الأغاني الوطنية ، لم يعد يرى الا آدميين او بالأحرى هاتفين ، اختفت الأرض وتوارت الجدران وتعالى الهتاف لسعد فى كل مكان كأنما الجو قد انقلب اسطوانة هائلة تدور بلا توقف مرردة اسمه . وجرى نبا فوق الرؤوس الحاشدة ان الانجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تاهبا للرحيل الى العباسية فاستمر الحماس وحمست النشوات . لم ير السيد أحمد منظرا كهذا من قبل فراح يقلب عينين متألفتين وفؤاده يخفق وثبا وباطنه يردد مع النسوة الراقصات « يا حسين .. حملة وانشألت ! » حتى أدنى جميل الحمزاوى رأسه من أذنه قائلا :

- الدكاكين توزع الشربات وترفع الأعلام ..

فقال له بحماس :

- اصنع كما يصنعون واكثر ، أدنى همتك .. !

ثم بصوت متهدج :

- علق صورة سعد تحت البسمة ..

فنظر اليه جميل الحمزاوى كالتردد ثم قال محذرا :

- هذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج الا يحسن بنا ان نثريث حتى تستتب الأمور ؟

فقال السيد باستهانة :

- مضى عهد الخوف والدماء الى غير رجعة ، لا ترى ان المظاهرات تمر

تحت عين الانجليز دون أن يتعرضوا لها بسوء ؟ .. علق الصورة وتوكل على الله ..

غار عهد الخوف والدماء ، اليس كذلك ؟ . سعد حر طليق ولعله في طريقه الآن الى أوروبا ، لم يعد بيننا وبين الاستقلال الا خطوة او كلمة ، مظاهرات الزغاريد بدلا من مظاهرات الرصاص ، الأحياء من قوم سعداء ، اخترقوا النيران وخرجوا سالمين ، رحمة الله على الشهداء ؛ فهمي ؟ ! . نجا من خطر لم يقدره ، نجا والحمد والشكر لله ، أجل نجا فهمي ، ماذا تنتظر ؟ . صل الى الله ربك . لما اجتمعت الاسرة مساء وشت الحناجر المبحوحة بيوم ملء بالهتاف . كان مساء سعيدا ، نمت عن سعادته الأيمن والثفور والحركة والكلام حتى أمينة نهل قلبها من نخب السعادة المبدول مشاركة للأبناء واستبشارا بعودة السلام وفرحا بالافراج عن سعد .

— من المشربية رأيت مالم ترعين من قبل ، هل قامت القيامة ونصب الميزان ؟ ! . وأولئك النساء هل جنن ؟ ! لا يزال صدى ترددهن برن في أذني « ياحسين .. حملة وانشالت » .

قال ياسين ضاحكا وهو يعبث بشعر كمال :

— تحية شيعوا بها الانجليز الراحلين كما يشيع الضيف الثقيل بكسر القلة وراهه .. !

نظر اليه كمال من دون أن ينبس على حين عادت امينة تسأل :

— أرضى الله عنا أخيرا .. ؟

فاجابها ياسين قائلا :

— بلا ريب (ثم مخاطبا فهمي) ماذا تظن ؟

قال فهمي الذي بدا في فرح الأطفال :

— لو لم يسلم الانجليز بمطالبنا لما افرجوا عن سعد ، سوف يسافر الى أوروبا ثم يعود بالاستقلال ، هذا ماؤكداه الجميع ، ومهما يكن من أمر فسينقضي يوم ٧ ابريل سنة ١٩١٩ رمزا لانتصار الثورة .

فعاد ياسين يقول :

— ياله من يوم ! . اشترك الموظفون في المظاهرات علانية ، ماكنت اظن ان بي هذه القدرة العظيمة على السير المتواصل والهتاف العالي .

فضحك فهمي قائلا :

— دددت لو رايتك وانت تهتف متحمسا ، ياسين يتظاهر ويتحنس

وبهتف ! .. يا له من منظر فريد !

يوم عجيب في الأيام حقا . اكتسحه سيله الزاخر فحملة بين امواجه العاتية كوريقة لا وزن لها حتى طار به كل مطار ، لا يكاد يصدق أنه ثاب الى رشده وانه آوى الى برج المراقبة الهادئ يشاهد من منظاره الحوادث في هدوء وعدم اكتراث ! . جعل يستحضر الحال التي تلبسته في المظاهرة على ضوء ملاحظة فهمي حتى قال بغرابة :

ـ الواحد منا ينسى نفسه وهو بين الناس نسيانا غريبا فكانه يبعث شخصا جديدا ..

ساله فهمي باهتمام :

ـ اكنت تشعر بحماس صادق ؟

ـ هتفت لسعد حتى بح صوتي واغرورقت عيناى مرة او مرتين ..

ـ كيف اشتركت في المظاهرة ؟

ـ بلغنا نبا الافراج عن سعد ونحن في المدرسة ففرحت فرحا عظيما حقا ، اكنت تتوقع غير هذا ؟ . واذا بالمدرسين يقترحون الانضمام الى المظاهرة الكبيرة في الخارج فلم اجد من نفسى ميلا الى مجاراتهم وفكرت في التسلل الى البيت ، غير انى اضطرت الى السير معهم حتى تسنح لى فرصة للزيغان ، ماذا حصل بعد ذلك ؟ . وجدت نفسى في بحر متلاطم من الناس وجو مكهرب من الحماس فما ملكت ان ذهات عن نفسى واندمجت في التيار كأشد مايكون المرء - صدقنى في هذا - حماسا وبهجة واملا .. !

فهز فهمي رأسه وهو يغمغم :

ـ شئ عجيب ...

ضحك ياسين عاليا ثم قال :

ـ احسبتنى فاقد الوطنية ؟ ! المسألة انى لاحب الزياط والعنف ، ولا اجد حرجا في التوفيق بين حب الوطن وحب السلامة ..

ـ واذا شئ التوفيق بينهما .. ؟

فقال مبتسما ولكن دون تردد :

ـ قدمت حب السلامة ! . نفسى اولاً ، الا يستطيع الوطن ان يسعد الا بالتهام حياى ؟ ! . يفتح الله ، أنا لا أفرط في حياتى ولكنى سأحب الوطن مادمت « حيا » ..

قالت أمينة :

ـ هذا عين العقل (ثم متطلعة الى فهمي) هل عند سيدى رأى

آخر .. ؟

قال فهمى بهدوء :

- كلا طبعا ، انه عين العقل كما قلت ..

ولم يرض كمال أن يبقى بمعزل عن الحديث لاسيما انه كان مقتنعا بأنه لعب في يومه دورا خطيرا حقا فقال :

- واضربنا نحن كذلك ولكن الناظر قال لنا : اننا مازلنا صفارا .. واننا اذا خرجنا من المدرسة داستنا الأقدام . ثم سمح لنا بالتظاهر في فناء المدرسة فتجمعنا فيه وهتفنا (هنا هتف عاليا : يحيا سعد) طويلا جدا ، ثم لم نعد الى الفصول لأن المدرسين كانوا قد غادروا المدرسة منضمين الى المتظاهرين في الخارج ... !

رماه ياسين بنظرة ساخرة وقال :

- ولكن اصدقاءك ذهبوا .. !

- في داهية ..

ندت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهى أبعد ما تكون عن حقيقة شعوره ، لأن الحال تقتضيها من ناحية ، ولأنه أراد أن يدارى بها هزيمته أملم سخرية ياسين من ناحية أخرى ، أما قلبه فكان يكابد دهشة وغمزا ، لم ينس كيف وقف لدى عودته من المدرسة في المكان المهجور الذى كان يحتله المسكر يقلب عينيه في أرجائه في صمت اليم وعيناه مغرورتان . سوف يمضى وقت طويل قبل أن ينسى مجلس الشاي على طوار سبيل بين القصرين ، والاعجاب الذى كان يحظى به غناؤه ، والمودة التى كان يلقاها من الجنود خاصة جوليون ، والصدقة التى ربطته بالسادة المتفوقين الذين يعلون في اعتقاده على سائر البشر ! . قالت أمينة :

- سعد باشا رجل سعيد الحظ ، الدنيا كلها تهتف باسمه ، ولا افندينا في زمانه ، رجل مؤمن بلا ريب لأن الله لا ينصر ألا المؤمنين ، نصره على الانجليز الذين غلبوا زبلن نفسه ، اى فوز وراء هذا ؟ ! . لقد ولد الرجل في ليلة القدر .

سألها فهمى باسمها :

- تحبينه .. ؟

- أحبه ما دمت تحبه ..

بسط فهمى راحتيه ورفع حاجبيه مستنكرا ثم قال :

- لا يعنى هذا شيئا .. !

فتنهدت فيما يشبه الأرياك ثم قالت :

- كنت كلما بلغنى نبأ أسيف تقطع قلبى حزنا وقلت لنفسى « ترى

اكان يقع هذا لو لم يقم سعد قومته؟! .. على ان رجلا يجمع الكل
على حبه لابد ان الله يحبه كذلك ..

ثم متنهدة بصوت مسموع :

- اسفى على الهالكين ، كم أما تبكى الآن بحرارة ؟ .. كم أما لم تزدها
فرحة اليوم الاحسرة على حسرة ..

قال لها فهمى وهو يغمز ياسين بطرفه :

- الأم الوطنية حقا تزغرد لاستشهاد ابنها ..

فوضعت اصبعيها فى اذنيها وهتفت :

- اللهم انى اشهدك على ما يقول سيدى الصغير ! .. ام تزغرد

لاستشهاد ابنها !. اين ؟! على هذه الأرض ؟ .. ولا تحت الأرض فى عالم
الشياطين !..

فقهقه فهمى عاليا ، ومضى يفكر مليا ، ثم قال وعيناه تلمعان باسمتين :

- نينه !.. سأبوح لك بسر خطير آن له أن يذيع ، لقد اشتركت فى

المظاهرات وقابلت الموت وجها لوجه !..

سهمت اليه غير مصدقة ثم قالت وعلى شفيتها ابتسامة باهتة :

- أنت ؟!.. محال .. انك من لحمى ودمى وقلبك من قلبى ، لست

كالآخرين ..

فقال ييقين وهو يبتسم اليها :

- أقسم لك على ذلك بالله العظيم ..

اختفت الابتسامة واتسعت العينان فى ذهول ، ثم رددت بصرها بينه

وبين ياسين الذى حدجه بدوره بنظرة متسائلة ، ثم غمغمت وهى

تردد ريقها :

- رباه !.. كيف اصدق اذننى !

ثم بعد ان هزت رأسها فى حيرة اليمه :

- أنت !..

كان يتوقع انزعاجها وليكن ليس - بالنظر لمجئ اعترافه بعد زوال

الخطر - الى الحد الذى بدا عليها ، فبادرها قائلا :

- ذاك تاريخ مضى وانتهى ، لاداعى الآن للانزعاج ..

فكانت باصرار ونرفرة :

- صه ، أنت لاتحب أمك ، سامحك الله ..

فضحك فهمى فى شىء من الارتباك . قال كمال لأمه وهو يبتسم بمكر :

- انذكرين يوم دكان البسبوسة وضرب النار ؟ .. رأيته وانا عائد فى

- ٤٣١ -

الطريق المقفر فنبه على بالآ اخبر احدا بانى رأيتة ..
 ثم نظر الى فهمى وسأله باهتمام وتشوق :
 - قص علينا يا سى فهمى ما لقيت فى المظاهرات ، كيف كانت تقع
 المارك ؟ وكيف بصرع القتلى ؟ ألم تطلق النار قط .. ؟
 فتدخل ياسين فى الحديث قائلا للأم :
 - ذاك تاريخ مضى وانتهى ، أشكرى الله على نجاته ، هذا أولى بك
 من الانزعاج :
 سألته بجفاء :
 - اكنت تعلم بذلك .. ؟
 فبادرها قائلا :
 - لا وحياة تربة أمى (ثم مستدركا) ودينى وايمانى وربى ..
 ثم نهض من مجلسه ، منتقلا الى جوارها فوضع يده على منكبها
 وقال برقة :
 - اطمئنين حين كان ينبغى الانزعاج وتنزعجين حين ينبغى الاطمئنان !
 وحدى الله ، زال الخطر وعاد السلام ، ها هو فهمى بين يديك ..
 (وضاحكا) ابتداء من الغد سنقطع القاهرة طولا وعرضا ، ليلا ونهارا ،
 بلا خوف او قلق ..
 وقال فهمى جادا :
 - نينه ، رجائى اليك ألا تكدرى صفونا بحزن لاموجب له ..
 تنهدت .. فتحت فاهها لتتكلم ولكنها حركت شفيتها دون ان تنبس .
 ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه ، ثم تكست وجهها
 لتخفى عينيها الموقنتين ..

- ٧٠ -

بات فهمى تلك الليلة وهو عاقد العزم على استرضاء أبيه مهما كلفه
 الأمر ، وفى صباح اليوم التالى صمم على تنفيذ عزمه دون تردد . ومع
 انه لم يضر لأبيه - طول فترة العصيان - أى احساس بالفضب أو
 التحدى فان ضميره كابد شعورا بالذنب ناء به قلبه الحساس المشرب
 بالطاعة والولاء حقا لم يتحده بلسانه ولكنه خالف ارادته بالفعل ، بل
 خالفها مرارا وتكرارا ، فضلا عن امتناعه عن القسم يوم دعاه اليه فى

حجرتة . واعلانه بالبكاء تمسكه برايه رغم ارادة الرجل ، كل اولئك احله
— على حسن نيته — موقفا عاقا شريرا لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله .
ولم يكن سعى الى استرضائه من قبل خشية ان ينكا الجرح دون ان
يسعه ان يلامه ، لانه قدر ان يدعو السيد الى القسم تكفيرا عما بدر
منه فيضطرب مرة اخرى الى الامتناع مؤكدا عصيانه من حيث اراد ان
يعتذر عنه . الحال اليوم غيرها بالأمس ، انتشى قلبه بالسرور والظفر ،
الوطن كله ثمل بخمر السعادة والفوز ؛ فلا يطيق ان يقوم بينه وبين ابيه
حجاب من سوء الظن ولو لحظة واحدة ، الاسترضاء ، فالعفو الذي يهفو
اليه ، ثم السعادة الحققة التي لا تشوبها سائبة . . دخل حجرة ابيه قبيل
ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوى سجادة الصلاة مغمغا بالدماء ،
لمحه الرجل بلا ريب ولكنه تجاهله فمضى الى الكنية دون ان يلتفت
صوبه وجلس . عند ذلك تراءى فهمى بموقفه عند الباب ملفوفا بالارتباك
والجفاء فحدجه بنظرة جافة مستنكرة كأنما تتساءل « من هذا الواقف
وماذا جاء به ؟ » فتغلب فهمى على ارتبائه وتقدم من مجلس ابيه في
خطى خفيفة حتى انحنى على يده فتناولها ولثمها باحترام لا حد له ،
وصمت مليا ثم قال بصوت لا يكاد يسمع :

— صباح الخير ياابا .

واصل التحديق فيه صامتا كأنه لم يسمع تحيته حتى غص الشاب
بصره ارتبكا وغمغم في نبرات نمت عن اليأس :

— انى آسف . .

صمت واصرار على الصمت . .

— آسف جدا ، لم اذق طعم السكينة منذ . . .

وجد ان الكلام كان يستدرجه الى ذكر ما ود من كل قلبه ان
يتحاشاه فأمسك ، وما يدرى الا والسيد يساله بجفاء وتبرم :

— ماذا تريد . . ؟

رحب باقلاعه عن الصمت ايما ترحيب فتهد بارتياح كأنه لم يستشعر
جفاءه وقال برجاء : اريد ان تكون راضيا عني . .

قال السيد بضجر :

— غر من وجهى .

فقال فهمى وهو يشمر بقبضة اليأس تتراخى قليلا عن عنقه :

— عندما اتال رضاك . .

تساءل السيد متحولا فجأة الى التهكم :

— رضای ! .. لم لا ؟ .. هل فعلت لا سمح الله ما یسنوجب
السخط ؟ !

رحب بالتهكم اضعاف ترحيبه بالاقلاع عن الصمت ، التهمك عند ابيه
اول خطوة نحو الصفح . غضبه الحقيقي صفع او لكم او ركل او سب
او كل اولئك جميعا ، التهمك او بشير بالتحول ، انتهر الفرصة وتكلم ؛ تكلم
كما ينبغي لرجل قد يعمل في المحاماة غدا او بعد غد ، هذه فرصتك !
وتكلم ، الاستجابة لنداء الوطن لاتعد عصيانا لارادة حضرتك ، لم افعل
شيئا يحسب بين الأعمال الوطنية حقا ، توزيع منشورات على الاصدقاء
.. وما توزيع المنشورات على الاصدقاء ؟ اين انا ممن بدلوا الحياة
رخيصة ؟ فهمت من كلام حضرتك انك تخاف على حياتي لا لانك تستنكر
حقا الواجبات الوطنية ، فقمتم بشيء من الواجب وانا مطمئن الى اني — في
الواقع — لا اخالف لك ارادة ، الخ ..
— علم الله انه لم يخطر ببالي قط أن اعصى لك امرا .
قال السيد بحدة :

— كلام فارغ ، تتظاهر بالطاعة الآن لانه لم يعد ثمة داع الى العصيان ،
لم لم تطلب رضای قبل اليوم .. ؟
قال فهمي بحزن :

— كانت الدنيا في دم وكرب وكنت من الحزن في شغل شاغل ..
— شغلك عن طلب رضای ؟ !
قال بحرارة :

— شغلني عن نفسي لا عن طلب رضاك ..
ثم بصوت منخفض :

— لن استطيع أن أعيش بغير رضاك ..

قطب السيد ، لاغضا كما تظاهر ، ولكن ليخفي الاثر اللطيف الذي
بعثه كلام الشاب في نفسه . هكذا يكون الكلام والا فلا ، يجيد صناعة
الكلام حقا ، هذه هي البلاغة اليس كذلك ؟ ساعيد اقواله على مسامع
الاصدقاء الليلة لامتحان اثره في نفوسهم ، ترى ماعسى ان يقولوا ؟ ، الولد
سر ابيه .. هذا ما ينبغي أن يقال ، قديما قيل لى اننى لو اتممت مراحل
التعليم لكنت ابلغ المحامين ، انى ابلغ الناس بغير التعليم والمحاماة ،
الحديث اليومى كالقانون سواء بسواء في الكشف عن موهبة البلاغة ، كم
من محام أو موظف كبير ينكمش في المجلس امامى كالعصفور ! ولا فهمي
نفسه بمستطيع أن يسد مكاني يوما ما ، سيقولون لى وهم يضحكون

حقا الولد سر ابيه ، امتناعه عن القسم لا يزال يحز في نفسى ، لكن اليس من دواعى الفخر لى انه اشترك فى الثورة ولو من بعيد ؟ ليته اشترك فى الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم ، سأقول من الآن فصاعدا انه خاض غمار الثورة ، انتظنون انه اكتفى بتوزيع المنشورات كما كان يؤكد لى ؟ . . لقد رمى ابن الكلب بنفسه فى التيار الدامى ، ياسيد احمد ينبغي ان نشهد لابنك بالوطنية والشجاعة . . لم نشأ أن نقول لك هذا فى ابان الخطر اما وقد استقر السلام فلا حرج من قوله . . اتنكر انت شعورك الوطنى ؟ . . ألم يشن عليك جامعو التبرعات من مندوبى الوفد . . والله لو كنت شابا لفعلت ما لم يفعل ابنك ولكنه عصبانى ! عصى لسانك وأطاع قلبك ! الآن ماعسى ان افعل ؟ يريد قلبى ان يهبه العفو ولكنى اخاف ان يستهين بمخالفتى !

- وانا ان استطيع ان انسى انك خالفت ارادتى ، احسبت ان الخطبة الفارغة التى صبحتنى بها على غيار الريق يمكن ان تؤثر فى لا !
هم فهمى بالكلام ولكن امه دخلت فى تلك اللحظة وهى تقول :
الفتور جاهز . ياسهذى . .

وقد دهشت لوجود فهمى على غير انتظار فرددت عينيها بينهما ؛ وتلكات قليلا لعلها تسمع شيئا مما يدور ولكنها رأت فى الصمت - الذى خافت ان يكون مجيئها باعته - مادعاها الى مغادرة الحجرة على عجل . نهض السيد الانتقلان الى حجرة المائدة فتنحى فهمى جانبا وقد علاه حزن شديد لم يخف اثره عن عيني الرجل فتردد لحظات ثم قال اخيرا بصوت سلمى :

- اريد مستقبلا الا تصر على حماقتك ، وانت تخاطبنى . .
وسار فتبعه الشاب ممثنا باسم الاساير ، ثم سمعه يقول متهمكا وهما يقطعان الصالة :

- اظنك حاسب نفسك على رأس الدين افرجوا عن سعد !
غادر فهمى البيت قرير العين فمضى من توه الى الأزهر حيث اجتمع برملائه اعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر فى تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التى سمحت السلطة بقيامها للاعراب عن ابتهاج الشعب والتى تقرر ان يشترك فيها ممثلو الأمة بكافة طبقاتها . دام الاجتماع وقتا غير قصير ، ثم تفرق المجتمعون كل الى وجهته فركب الشاب الى ميدان المحطة بعسد ان عرف الدور الذى عهد به اليه وهو الاشراف على تجمعات طلبة المدارس الثانوية . لئن كان بعد ما يعهد عادة اليه - بالقياس الى غيره - من الأدوار

الثانوية الا انه كان يقوم به بدقة وعناية وغبطة كأنما هو اسعد ما يحظى به في حياته غير أنه لم يكن يخلو في جهاده من تعاسة خفية لم يعلم بها أحد سواء ، منشؤها ما اقتنع به من أنه دون الكثيرين من اقارانه جراءة وإقداما . أجل لم ينكص عن مظاهره من المظاهرات التي دعت اليها اللجينة ولكنه كان يفقد جنانه عند ظهور اللوريات المحملة بالجنود وخاصة عند انطلاق الرصاص وتساقط الضحايا . . فمرة لاذ بمقهى وهو يرتعد ، ومرة أخرى جبرى على وجهه شوطا بعيدا حتى وجد نفسه في قرافة المجاورين ، أين هو من حامل اللواء في مظاهرة بولاق ، أو مذبحه بولاق كما غدت تسمى ، الذى استشهد ويده قابضتان على اللواء وقدماه ثابتتان في الطليعة وحنجرته تهتف بالثبات ؟ ! ، أين هو من اقران ذلك الشهيد الذين تبادروا الى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلدت صدورهم نياشين الرصاص ؟ ! أين هو من ذلك الشهيد الذى انتزع المدفع الرشاش من ايدي الجنود فى الأزهر ؟ ! أين هو من هؤلاء جميعا وغيرهم ممن تطير الأنباء بأى بطولتهم واستشهادهم ؟ ! . كانت أعمال البطولة تتراءى لعينيهِ رائعة باهرة تخطف الأبصار ، وطالما أنصت الى نداء باطنى يهيب به الى الاقدام والتأسى بالأبطال ، ولكن كانت تخذله اعصابه فى اللحظة الجاسمة فما ان تنحسر موجة المعركة حتى يجد نفسه فى المؤخرة ان لم يكن مختبئا أو هاربا ، ثم يعود الى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتماسك بضمير معذب وقلب حائر ورغبة فى الكمال لاتحد ، متعزيا أحيانا بقوله « ما أنا الا محارب أعزل ، ولئن فائزى الرائع من أعمال البطولة فحسبى اننى لم اتردد مرة واحدة عن الالتقاء بنفسى فى اثون المعركة » . فى طريقه الى ميدان المحطة جعل يراقب الطرق والمركبات ، كان الجميع يتوجهون . . . فيما بدا - وجهته ، طلبة وعمالا وموظفين واهلين راكبين وراجلين ، تظلمهم جميعا طمانينة خليقة يقوم ذاهبين الى مظاهرة سلمية مصرح بها ، انه مثلهم ، يشعر بشعورهم ، لا كهدهه القديم حين كان يلتمس طريقه الى مورعد المظاهرة بنفس ثائرة وقلب قلق تثقل ضرباته كلما تخيل لعينيهِ شبح الهلاك . ذاك عهد مضى ، اليوم يمضى مطمئن الجانب باسم الثغر . . انتهى الجهاد ؟ خرج منه سليما لا عليه ولا له . . ولا له ؟ ! ليت عانى شيئا مما تعرض له الآلاف كالسجن أو الضرب أو اصابة غير مميتة ! ليس من المحزن ان تكون السلامة المطلقة جزاء من اوتى قلبا كقلبه وحماسا كحماسه ! كطالب مجتهد لم يتح له أن يظفر بأية شهادة . . . أنتكر سرورك بالنجاة ؟ . . . اكنت تفضل أن تكون من الشهداء ؟ كلا ،

اكننت تتمنى لو كنت من المصابين غير الهالكين ؟ نعم ، كان ذلك فى وسعك فلم تكصت ؟ لم تكن تضمن أن تقع الإصابة غير مميتة ! أو أن يكون السجن عابرا ، انت لا تكره النجاة الراهنة ولكنك تتمنى أو كان اصابك شيء دون أن يغير من هذه النهاية الجميلة ، ينبغى اذا جاهدت مرة أخرى أن اطلع على الغيب ! امضى الى المظاهرة السلمية بقلب مطمئن وضمير قلق - بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر ، قبل الميعاد المحدد لقيام المظاهرة بساعتين فاتخذ مكانه فى الموضع الذى حدد له ! .. باب المحطة . لم يكن بالميدان الا المشرفون وجماعات متفرقة من شتى الطوائف ، وكان الجو معتدلا الا ان شمس ابريل صبت على من تعرض لاشعتها لظى ، ولم يطل الانتظار فاخذت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المفضية اليه ، ومضت كل جماعة صوب علمها ، بذلك شرع فهمى فى عمله بلذة وفخار ، بالرغم من بساطة العمل الذى لم يعد أن يكون تربيا للمدارس كل وراء علمها الا أنه ملا نفسه زهوا وخيلاء سيما وأنه كان يشرف على طليقة كثيرين ممن يكبرونه سنا حتى بدت التسعة عشر عاما التى يجرها وراءه ذيلا قصيرا فى زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وفتات شواربهم ولاحظ اعينا ترمقه باهتمام وشغافا تتهامس عليه كما سمع اسمه - مقرونا بصفتة الشعبية - يجرى على بعض الألسن « فهمى أحمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا » فحرك أوتار قلبه حتى اطبق شفتيه أن تند عنهما بسمه حياء أو ارتباك من « مهابته » أجل ينبغى أن يحافظ منظر مندوب اللجنة العليا على الجد والصرامة الخليقتين بالرعيل الأول من شباب المجاهدين كى ينفسح المجال لأخيلة المنطلعين لجدس ما يخفى وراءه من اعمال البطولة والكفاح ، فلتتحقق تلك الاعمال الخارقة - التى عجز عن تحقيقها فى الواقع - فى اخيلتهم ، لن تفتر له رغبة فى المزيد منها وأن وخر قلبه احساسه الجاد بالحقيقة العارية . موزع منشورات وجندى من جنود المؤخرة ! هذا هو بلا زيادة . اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانوية فيواجه زعامة كبيرة ، ترى هل يقدر الآخرون عمله أكثر مما يقدره هو ؟ ! لشد ما يحبونه بالاحترام والمحبة ، لم يعقد اجتماع الا وكان له فيه رأى مسموع ، والخطابة لا .. ليس من الضروري أن تكون خطيبا .. اليس كذلك لا ليس محالا أن تكون عظيما وأنت غير خطيب ولكن أى خسارة ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدى الزعيم فيستبقي الخطباء وتلوذ انت بالصدمة . كلا لن الود بالصدمة . سوف اتكلم ، سأطلق القلبى العنان اجاد أم لم يجد ، متى تقف بين يدى

سعد ؟ متى تراه لأول مرة فتملاً منه عينيك ؟ ان قلبى يخفق وعيناي
نحان للدموع ، سيكون يوما عظيما ستخرج مصر كلها لاستقباله ، ان
يكون يومنا هذا الى ذلك اليوم الا كالقطرة الى البحر ، رياه .. امتلا
الميدان بل امتلات الشوارع المفضية اليه ، عباس نوبار الفجالة ، لم تسبق
كهذه مظاهرة ، مائة ألف ؟ طرابيش عمائم ، طرابيش عمائم ، طلبة ..
عمال .. موظفون .. الشيوخ والقساوسة ، القضاة .. من كان يتصور
هذا ، لا يبالون الشمس .. هذه مصر ، لم ادع بابا ؟ صدق ياسين ..
الواحد منا ينسى بين الناس نفسه ، يعلو على نفسه ، أين همومى
الشخصية ؟ .. لا شيء ، لشد ما يخفق قلبى ، سأحدث عن هذا طويلا
الليلة وما بعدها . ترى هل ترتعد نينه مرة أخرى ؟ منظر جليل تختص
له القلوب وتطمئن ، أريد أن ألس اثره فى وجوه الشياطين ! هاهى تكتاتهم
تشرف على الميدان ، الراية اللعينة ترفرف ، هناك رعوس فى النوافل ...
فيم تتهامس ؟! الديدبان تمثال لا يرى شيئا ، لم تقض رشاشاتكم على
الثورة ، افقوها هذا ، سترون عما قريب سعد فى هذا الميدان عائدا مظفرا
تنفونه بالسلاح ونعيده بغير سلاح ، سوف ترون ، سوف ترون قبيل
الجلاء . تحرك الموكب العظيم فتدفقت موجاته تباعا مرددة الهتافات
الوطنية ، بدت مصر مظاهرة واحدة . بل رجلا واحدا ، بل هتافا واحدا
تتابعت طواير الطوائف طويلا ، طويلا جدا ، حتى خيل اليه أن الطلائع
ستشارف عابدين قبل أن يترحل هو وجماعته عن موضعهم أمام باب
المخطة ، أول مظاهرة تسير دون أن تقطع المدافع الرشاشة الطريق عليها،
لا رصاص من ناحية ولا زلط من الناحية الأخرى ، واقترب ثغره عن
ابتسامة . رأى الجماعة التى تعسكر أمامه مباشرة تتحرك فدار على عقبه
كى يواجه مظهرته « الخاصة » ورفع يديه فسرت فى الصفوف حركة
نأهب وتوثب ، ثم هتف بأعلى صوته وهو يسير مهقرا . واصل مهمة
القيادة والهتاف حتى مدخل شارع نوبار ثم تخلى عن الثانية لغيره ممن
احاطوا به مترصدين دورهم بأفواه قلقة متحركة كأنما قد جاءها المخاض
والطلق فلا تستريح حتى تقذف بهتافاتهما ، دار على عقبه مرة أخرى
سائرا بوجهه ، يشرب بعنقه تارة ليشاهد ما تقدم من جسم المظاهرة التى
لم يعد يرى لها أولا ويتلفت يمنة ويسرة تارة أخرى ليرى من اكتظت بهم
الأرصفة والنوافل والشرفات والأسطح من جموع المشاهدين الذين جعلوا
يرددون الهتافات امتلات بالوف الحاشدة قوة الى قوة وطمانينة على
طمانينة ، كأنها دروع منصوبة حواليه ، قوة متماسكة لا ينفذ منها

الرصاص ، ان قوات البوليس تتعهد النظام بعد ان اعيائها الطعان والهجوم .
 ار منظر هؤلاء الرجال الذاهبين الجائين على صهوات جيادهم كأنهم حراس
 تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها ، لأبلغ دليل على انتصار الثورة ،
 الحكماء ؟! . . ليس هذا هو رسل بك . بلى هو انه يعرفه حق
 المعرفة ، وهذا وكيل الحكماء يخب وراءه ملقيا على الأفق نظرة جامدة
 منرفة كأنما تحتج احتجاجا صامتا على السلام الذى احتضن المظاهرة ،
 ما اسمه ؟ هل يمكن ان ينسى الاسم الذى ملأ الأسماع فى الايام السود
 الدامية ؟! اوله جيم اليس كذلك ؟ جا . . جو . . جى . . يابى ان
 يستجيب الى الذاكرة ، جوليون ! اوه كيف تسفل هذا الاسم البغيض الى
 وعيه ؟! هوى عليه كالتراب فأطفأ حماسه ، كيف لنا ان نلبى نداء الحماس
 والظفر مادام القلب ميتا ! قلب ميت ؟! لم يكن ميتا منذ دقيقة ، لا
 تستسلم للحزن ، لا تدع قلبك يبتعد عن المظاهرة ، ألم تعاهد نفسك على
 النسيان ؟ بل انك نسيت بالفعل ، مريم . . من هى ؟! ذلك التاريخ
 القديم ! نحن نعيش المستقبل لا للماضى . . جيل . . مستر جيز . .
 مستر جيز . . هذا هو اسم وكيل الحكماء لعنة الله عليه ، عد الى
 الهاتف كى تنفض عن نفسك هذا الغبار الطارىء . مضت « مظاهرة »
 تقترب رويدا من حديقة الازبكية التى لاحت اشجارها الباسقة فوق
 الاعلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميدان الأوبرا من بعيد رءوسا
 متلاصقة كأنها تثبت من جسد واحد ملاً الأرض طولاً وعرضاً . كان يهتف
 بقوة وحماس والجمهور يردد هتافه بصوت ملا الجو كهزيم الرعد . ولما
 سارفوا سور الحديقة دوت - على حين بغثة - فرقة خادة فشلت
 حنجرتهم وتلفت فيما حواليه متسائلاً فى انزعاج ، صوت معهود كثيرا ما
 سمك اذنيه فى الشهر المنصرم وكثيرا ما تردد صداه فى ذاكرته فى هداة
 الليل بيد انه لم يستطع ان يالفه فما يكاد يدوى حتى يخطف دمه ويوقف
 قلبه عن الخفقان . .

- رصاص . . !

- غير معقول ، ألم يصروحوا بالمظاهرة . . !

- اسقطت من حسابك القدر . !

- ولكن لا أرى جنودا . . !

- حديقة الازبكية معسكر هائل مكتظ بهم . .

- لعلها فرقة عجلة سيارة . . .

- لعلها . . !

أرهف أذنيه لما يدور حوله من دون أن يثوب الى السكينة . وماهى
 الا لحظات حتى دوت فرقة ثانية .. آه .. لم يعد ثمة شك ، رصاصة
 كسابقتها ، أين ياترى استقرت ؟ ليس يوم سلام ؟! شعر بحركة اضطراب
 تسرى بين المتظاهرين وافدة من الأمام كالموجة الثقيلة التى تدفعها الى
 الشاطئ باخرة تمخر وسط النهر ، ثم تراجع الألوف وانتشروا باعثنى فى
 كل ناحية دفعت جامحة جنونية من الاضطراب والارتباك والارتطام ،
 تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف ، وسرعان ما انتشرت أصفوف
 المتناسقة وانهد البنيان المشيد تلاحقت جملة من الطلقات الحادة فتعالى
 صراخ الغضب وائين الألم . ما ج بحر الخلق وهاج وتدافعت موجاته الى
 جميع المنافذ لا تبقى على شىء فى طريقها ولا تذر . اهرب ، مامن الهرب
 بد ، ان لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والأقدام . هم بالهرب او
 بالتراجع او حتى التحول عن موقفه ولكنه لم يفعل شيئا ، ما وقوفك
 وقد تشتت الجمع ؟! فى خلاء انت ، اهرب صدرت عن ذواعيه وساقيه
 حركة بطيئة وانية متراخية . ما اشد الضوضاء ، ولكن بم علا صراخها ؟
 هل تذكر ؟ ما أسرع ما تفلت منك الذكريات . ماذا تريد ؟ ان تهتف ؟ اى
 هتاف ؟ او هو نداء فحبيب .. من ؟ ما ؟ فى باطنك يتكلم ، هل تسمع
 هل ترى ؟ ولكن أين ؟ لاشىء ، لاشىء ، ظلام فى ظلام ، حركة لطيفة تطرد
 بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب .. تصاحبها وشوشة ، باب
 الحديقة .. ليس كذلك ؟ يتحرك حركة تموجية سائلة ، بدوب رويدا ،
 الشجرة السامقة ترقص فى هواده ، السماء .. السماء ؟ منبسطة عالية .
 لا شىء الا السماء هادئة باسمه يقطر منها السلام ..

سمع السيد أحمد عبد الجواد وقع اقدام على مدخل الدكان فرفع راسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبان يتقدمون نحوه تملوهم سيماء الجدد والرزانة حتى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون - السلام عليكم ورحمة الله فنهض السيد قائلا بأدبه المعهود :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثم مشيرا الى الكراسى) تفضلوا ولكنهم لم يلبوا الاشارة شاكرين وقال اوسطهم :

- حضرتك السيد أحمد عبد الجواد ؟

فقال السيد باسماء وان لاح في نظرة عينيه التساؤل :

- نعم يا سيدي ...

ماذا يريدون ياترى ؟ الشراء مستبعد .. ما للشراء والمشية العسكرية التي جاءوا عليها ! ما للشراء واللهجة الجدية التي يتكلمون بها ! ثم ان الساعة جاوزت السابعة مساء . الايرون الحمزاوى وهو يرفع الزكائب الى الرفوف ايدانا باغلاق الدكان ؟ ا يكونون من جامعى التبرعات ، لكن سعد قد أفرج عنه وانتهت الثورة ، وانا لم امد صالحا الا الان الا للسهرة ! ياهؤلاء اعلموا انى لم اغسل راسى ووجهى بالكولونيا وامشط شعرى وشاربى واحبك جبتي وقفطانى كى القى وجوهكم ! ماذا تريدون ؟ غير انه خيل اليه وهو يرنو الى محدثه ان وجهه ليس غريبا عليه . رآه من قبل ؟ أين ؟ متى ؟ تذكر ، من المؤكد انه لا يراه لأول مرة ، آه ... قال باسماء وقد سماع الارتياع فى وجهه :

- ايس حضرتك الشاب النبيل الذى تقدم لانقاذنا فى الوقت المناسب يوم حمل الناس علينا فى مسجد الحسين رضى الله عنه ؟ فقال الشاب بصوت خفيض :

- بلى يا سيدي ..

صدق ظنى ، يقول البسلهاء ان الخمر تضعف الذاكرة ؟ لكن ما بالهم ينظرون الى هكذا ؟ انظر ، انظر ! هذه النظرات لا تنبئ عن خير ، اللهم اجعله خيرا ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قلبى ينقبض لأمر ما جاءوا لأمر يتعلق بـ ...

- فهمى ؟ .. جئتم تريدونه .. لعلكم الا ..

نكس الشاب عينيه ثم قال بصوت متهدج :

— مهمتنا شاقة يا سيدى ولكنها فرض واجب ، ربنا يلهمك الصبر !
مال السيد فجأة الى الامام معتمدا على حافة المكتب وهتف :

— الصبر ؟! علام ! .. فهمى ؟! ..
قال الشاب بحزن بالغ :

— يؤسفنا أن ننعى اليك أخانا المجاهد فهمى احمد ..
صاح بلهجة منكرة وان لاحظ في عينيه نظرة قاطعة بطلتصديق والياس :
— فهمى ؟ ..
— استشهد في مظاهرة اليوم ..

وقال الذى الى يمينه :

— انتقل الى جوار الأبرار وطنيا نبيلًا وشهيدا كريما ..

تلقى كلماتهم بأذن أصمها الشقاء على حين ختم الصمت شفثيه
واسترسلت عيناه فى نظرة شاردة غائبة، مضت هنيهة خيم الصمت فيها
عليهم أجمعين حتى جميل الحمزاوى تسمر تحت الرفوف ذاهلا يمد الى
الرجل بصرا ملؤه الجزع ، اخيرا عاد الشاب يغمغم :
— لشد ما احزننا فقده ولكن ليس لنا الا ان نتلقى قضاء الله بصبر
المؤمنين ، وانك لمن المؤمنين يا سيدى ..

انهم يعزونك ، لا يعلم هذا الشاب انك اول من يحسن القاء التبعازى
فى مثل هذا الموقف ! .. ماذا تعنى هى للقلب المصاب ؟ لا شيء ! من اين
للكلام ان يطفىء النار ؟ مهلا .. ألم تخطر الرزية بقلبك قبل ان يتكلم
قائلهم ؟ بلى .. تخايل لعينى شبح الموت ، الآن والموت حقيقة تلقى الى
سمعك تائبى ان تصدق ، أو تخونك شجاعتك فلا تريد ان تصدق ، كيف
اصدق ان فهمى مات حقًا ، أو تخونك شجاعتك فلا تريد ان تصدق ، كيف
ساعات فتشاقلت عنه، فهمى الذى تركنا هذا الصباح ممثلًا صحة وعافية
واملا وسرورا ، مات .. مات ! ان اراه بعد اليوم ! لا فى البيت ولا فى
أى مكان من ظهر الأرض ؟ .. كيف يكون البيت من غيره ؟ كيف أكون أبا
بعده ؟ اين تذهب الآمال المعقودة عليه ؟ لم يعد ثمة امل الا فى الصبر
الصبر ؟ آه .. هل تشعر بوخز الألم الحاد ؟ هذا هو الألم حقًا ..
كنت تتدخ أحيانا فتزعم أنك متالم ، كلا ، لم تتالم قبل اليوم ، هذا هو
الألم حقًا ..

- سيدى ، شد حيلك وسلم أمرك الى الله ..
رفع السيد رأسه الى الشاب ، ثم قال بصوت مريض :
- ظننت عهد القتل قد انتهى ..

فقال الشاب بنبرات غاضبة :

- كانت مظاهرة اليوم مظاهرة سلمية ، وقد اذنت بها السلطات
فاشترك فيها صفوة الرجال من شتى الهيئات ، وسارت أول الأمر في أمان
حتى بلغ منتصفها حديقة الأزبكية ، وما ندرى الا والرصاص ينهال علينا
من وراء السور بلا سبب ، لم يتعرض أحد للجنود لايخير ولايشر حتى
التهاتف بالانجليزية امتنعنا عنه تفاديا من الاستفزاز . ولكن مسهم جنون
القتل فجأة فعمدوا الى بنادقهم وأطلقوا النار . وقد انعقد الاجماع على
توجيه احتجاج شديد الى دار الحماية ، بل قيل : ان النبي سيعلن أسفه
عما بدر من الجنود ..

قال السيد بنفس اللهجة المريضة :

- ولكنه لن يرد حياة الى ميت ..
- والأسفاه ...

قال السيد بتفجع :

- لم يشترك في المظاهرات الخطرة ، هذه أول مظاهرة ينضم اليها :
تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينبس أحدهم بكلمة .. وكأنماضاق
السيد بالحصار المضروب حوله فقال وهو يزفر :

- الأمر لصاحب الأمر ، أين أجده الآن ؟

قال الشاب :

- في قصر العيني « ثم وهو يشير الى السيد متمهلا لما رآه يتعجل
الدهاب » ستشيع جنازته مع ثلاثة عشر شهيدا من اخواننا في تمام
الساعة الثالثة من مساء الغد ...

هتف السيد في جزع :

- الا يترك لى تشييع جنازته من بيته ! ..

فقال الشاب بقوة :

- بل تشييع جنازته مع اخوانه في احتفال شعبي ..

ثم برجاء :

- القصر محاصر الآن بقوات من البوليس ، ولابأس من الانتظار مادامنا
نحرص على تمكين أهالى الشهداء من توديعهم قبل تشييع الجنازة ، لايليق

ان يشيع فهمى فى جنازة عادية كمن قضاوا فى بيوتهم ..
ثم مد له يده مودعا وهو يقول :

- اصبر وما صبرك الا بالله ...

وصافحه الآخران مكررين له العزاء ، ثم ذهبوا جميعا . أسند رأسه الى راحته وهو يغمض عينيه فجاءه صوت جميل الحمزاوى وهو يعزيه بنبرات باكية ولكنه بدا ضيق الصدر بالتعزية ، ولم يعد يحتمل البقاء فزائل موضعه يسير بخطى بطيئة ثقيلة حتى غادر الدكان ، ينبغى ان يخرج من حيرته ، فانه لايدرى حتى كيف يحزن ، يود لو يخلو الى نفسه ولكن اين ؟ سينقلب البيت جحيما بعد دقيقة او دقيقتين ، وسيلحق به الاصدقاء فلا يدعون له فرصة للتفكير .. متى يتأمل الخسارة التى منى بها متى يتهاى له ان يغيب فيها عن الدنيا جميعا ؟ يباو هذا بعيدا .. ولكنه آت لا ريب فيه ، وهذا قصارى ما يجد من عزاء فى راحته .. اجل سيأتى وقت يخلو فيه الى نفسه ويفرغ الى حزنه بكل كيانه ، هنالك ينعم النظر فى موقفه على ضوء الماضى والحاضر والمستقبل ، أطوار حياته كلها من طفولته وصباه الى ريق شبابه ، مآثر من آمال وما خلف من ذكريات مطلقا لدموعه العنان حتى يستنفدها عن آخرها ، حقا ان أمامه فسحة من الوقت يحسد عليها فلا داعى للجزع ، انظر الى ذكرى الملاحاة التى نشبت بينهما عقب صلاة الجمعة او ذكرى ما دار بينهما هذا الصباح من استعطاف وعتاب ، كم يستغرقان من وقته تأملا وتذكرا وشجنا ؟ كم يستهلكان من قلبه ؟ كم يهيجان دموعه ؟ .. كيف يجزع والأيام تدخر له كل هذه السعادة ؟ رفع رأسه المثلث بالفكر فلاحته لعينيه المظلمتين مشربيات البيت فلذكر أمينة لأول مرة حتى اوشكت ان تخونه قدماءه .. ما عسى ان يقول لها ؟ كيف تتلقى الخبر ؟ ...

الصعيقة الرقيقة التى تبكى لمصرع عصفور ! ... اتذكر كيف هملت دموعها لمقتل ابن الفولى اللبان ؟! ماذا تصنع لمقتل فهمى ؟ .. مقتل فهمى ! .. اهذه هى نهايتك حقا يابنى ؟ ... يابنى العزيز التبعس ! .. أمينة .. ابننا قتل ، فهمى قتل .. ياله .. أأمر بمنع الصوات كما أمرت بمنع الزغاريد من قبل ؟ .. أم تصوت بنفسك ؟ .. أم تدعو النائحات ؟ ! ... لعلها تتوسط الآن مجلس القهوة بين ياسين وكمال منسائلة عما آخر فهمى ، سوف يتأخر طويلا ، ان تريه ابدا .. ولاجثته :

- ٤٤٤ -

ولا نعهشه ، يا للقسوة ، سأراه أنا في القصر أما أنت فلن تريه ، لن اسمح
بهذا . . قسوة أم رحمة ؟ ما الفائدة ؟ . وجد نفسه أمام الباب
فامتدت يده الى المطرقة ثم تذكر أن المفتاح في جيبه فأخرجه وفتح الباب
ثم دخل . . ترمى عند ذاك الى سمعه صوت كمال وهو يغنى بعلوبة :

زوروني كل سنة مرة حرام الهجر بالمرّة

تمت

((نجيب محفوظ))

للمؤلف

((قصر الشوق))

((السسكرية))

وهي تصور فترة أخرى من حياة هذه الأسرة . . .

للمؤلف

الطبعة الأولى	الطبعة الثانية	
١٩٣٢	(مترجم من الإنجليزية)	مصر القديمة
١٩٣٨	مجموعة أقاصيص	همس الجنون
١٩٣٩	قصة تاريخية	عبث الأقدار
١٩٤٦	١٩٤٣ د د	رادوييس
١٩٤٧	١٩٤٤ د د	كفاح طيبة
١٩٥٣	١٩٤٥	القاهرة الجديدة (فضيحة في القاهرة)
١٩٥٤	١٩٤٦	خان الجليلي
١٩٥٥	١٩٤٧	زقاق المدق
	١٩٤٨	السراب
١٩٥٦	١٩٤٩	بداية ونهاية
	١٩٥٦	بين القصرين
	١٩٥٧	قصر الشوق
	١٩٥٧	السكرية

رواية من ثلاثة
أجزاء

